الدكتور فان ديك

اقترح علينا غير واحد من حضرات القرَّاء الافاضل ان ننشر ترجمة حال استاذنا الخطير العلاَّمة الفيلسوف الدكتور كرنيليوس فان ديك فترددنا في اجابة اقتراحهم لتوطين النفس منذ ظهور الهلال ان لا ننشر فيهِ تراجم الاحياء على اننا اضطررنا مرة قبل هذه لنشر ترجمة المستر غلادستون رجل انكلترا العظيم وقد تكرر اقتراح حضرات القرَّاء بشأْن استاذنا المشار اليهِ مع ما نحن فيهِ من الميل لنشر مآثرهِ فجعلنا نفتتح سنتنا الرابعة برسمهِ استئناساً بمحياه الطلق وتفاؤُلاً بالخير والاقبال فقد استأْنس الشرق بقدومهِ وتمتع اهلهُ بالعلم والادب على يدهِ فنبسط ترجمة حال الاستاذ اخذاً عن اوثق المصادر ومن جملتها ما رواهُ العلاَّمتان منشئا المقتطف في كتاب سر النجاح مع ما عرفناهُ بنفسنا يوم كنا بجواره وما سمعناه من حضرات انجالهِ . اما هو فلا يطمع احد بان يسمع منهُ شيئاً عن سابق اعمالهِ استنكافاً منهُ للفخر . ونقسم الكلام فيهِ الى ثلاثة اقسام (١) ترجمة حالهِ (٢) مؤَلفاتهُ واعمالهُ (٣) صفاتهُ واخلاقهُ

(١) ترجمة حالهِ

وُلد الاستاذ اطال الله بقاءهُ في قرية كندرهوك من اعمال ولاية نيويورك باميركا في ١٣ اوغسطس (آب) سنة ١٨١٨ ووالداهُ هولانديا الاصل من عائلة هاجرت الى اميركا منذ مئتي سنة . وولد لهما سبعة بنين هو اصغرهم وسمياه كرنيليوس فتلقى مبادئ العلم في مولدهِ فظهرت عليهِ مخائل النجابة والذكاء واتقن اللغتين اليونانية واللاتينية فضلاً عن اللغتين الانكليزية والهولاندية اللتين رضعهما مع اللبن وحاز قصب السبق على رفاقهِ وكلهم اكبر منهُ سناً وكان والدهُ يتعاطى مهنة الطب في تلك القرية ولهُ فيها صيدلية (اجزاخانة) فكان كرنيليوس يعمل ساعات الفراغ في صيدلية والدهِ وهو مع ذلك مغرم بالعلم عامل على اكتسابهِ بكليتهِ حتى جمع من تلقاء نفسهِ منبتة فيها كل النباتات البرية التي تنمو في تلك النواحي وتعلم تجفيفها وتقسيمها وترتيبها بنفسهِ على نظام لينيوس وسماها باسمائها وهو صبي صغير فكان ذلك دليل على ميلهِ الفطري الى العلم

ثم اخنى الدهر على والدهِ فنكب بحادثة اذهبت كل مالهِ وذلك انهُ كفل صديقاً لهُ على مال فحان زمن الدفع فغدر الصديق فاضطر هو الى دفع المال فاستغرق كل ما

كان يملكه من متاع وعقار فأصبح صفر اليدين ولم يعد في وسعه تعليم اولاده في المدارس العالية أما صاحب الترجمة فكان لشدة ميلهِ الى العلم لا يفتر لحظة عن تدبير الوسائل للحصول على الكتب وهو في البيت اما بالاستعارة او بالاستئجار بدريهات يجمعها بشق الانفس او ان يحفظ مضمونها بالسماع وكثيرًا ما كان يتزلف الى بعض اصحاب الكتب التماسًا لمطالعة كتبهم وكان في تلك القرية طبيب كريم الاخلاق في داره مكتبة فلما آنس في الغلام ذلك الاجتهاد أخذتهُ الحمية ودعاهُ اليهِ وأباح لهُ مطالعة كل ما يريد من الكتب فاكبَّ على المطالعة يغترف العلم اغتراف الظمآن للماء الزلال وكان في تلك المكتبة كتاب في علم الحيوان للعالم كيفيه الشهير فدرسهُ حتى تفهمهُ جيدًا ثم درس بنفسهِ كل ما تيسر لهُ الوصول اليهِ من حيوان بلاده

ولم يبلغ الثامنة عشرة من عمرهِ حتى بلغ من العلم مبلغًا حسنًا وصار يلقي خطبًا في فن الكيمياء على صف من البنات ولا يستغرب بلوغ مثلهِ هذا المقدار من العلم ولكن الغريب انهُ نالهُ بالرغم عن ضيق ذات يدهِ وقلة وسائل التعليم ثم عكف على دراسة الطب على والدهِ وكان قد اتقن فنَّ الصيدلة علمًا وعملًا فرأى بعض ذوي قرباه ما خصهُ الله بهِ من المواهب النبيهة فحاولوا ان يحول الفريسة ويبذل خدماته لبني الانسان فادخلوه مدرسة سرنكفيلد ثم مدرسة فيلادلفيا وهناك نال الدبلوما الطبية مع لقب دكتور وكانت مساعدة هؤلاء لهُ اساسًا لافضال هذا الرجل العظيم على بلادنا جزاهم الله خيرًا

ثم اختاره مجمع المرسلين الامركانيين مرسلًا وطبيبًا للديار السورية ففارق الاهل والوطن وهو في الحادية والعشرين من عمرهِ وجاء مدينة بيروت فوصلها في ٢ ابريل (نيسان) سنة ١٨٤٠ وكان في بيروت عند وصولهِ حجر صحي على واردات اوربا فاقام في الحجر (الكرنتينا) اربعين يومًا حفظ في اثنائها مئتي كلمة من اللغة العربية ولم تطل مدة اقامتهِ في بيروت فأوعز اليهِ ان يسير الى القدس لتطبيب عائلات بعض المرسلين ثم عاد الى بيروت وشرع في تعلم اللغة العربية فتعرف بالمرحوم المعلم بطرس البستاني وكانا عزبين فاقاما معًا في غرفة واحدة وأتلف قلباهما وتمكنت بينهما ربط المودة وما برحت الصداقة بينهما مثبتة يتحدث بها اهل الشام حتى الآن ونذكر اننا شهدنا الصلاة على المرحوم البستاني يوم وفاتهِ وقد طلب من الدكتور فان ديك

تأبينهُ فوقف وقد تلعثم لسانهُ وارتعشت شفتاه وخنقتهُ العبرات ولم يقوَ على الكلام ما خلا قولهُ « يا صديقي ورفيق صباي » كرَّرها مرارًا بصوت ممتزج بالبكاء فأبكى كل من حضر

فتناول مبادئ القراءة العربية اولاً من لياس فواز البيروتي ثم قرأ على ابي بشاره طنوس الحداد الكفرشيمي واخذ شيئًا عن صديقهِ البستاني ثم اتقن الفنون العربية على الشيخ ناصيف اليازجي والشيخ يوسف الاسير فبرع فيها حتى صار من المعدودين في معرفتها وحفظ اشعارها وامثالها وشواهدها ومفرداتها وكل علومها واتقن التلفظ بها اتقانًا لم يسبقهُ اليهِ احد قبلهُ من جالية الافرنج على اختلاف اصولهم ولغاتهم فاذا نطق لا تميز نطقهُ عن نطق اهل الشام مطلقًا فضلاً عما وعاه في حافظتهِ من الامثال الفصيحة والعامية حتى صار يضرب المثل بضربهِ الامثال واتقن ايضًا اللغة العبرانية والسريانية

وفي خريف سنة ١٨٤٢ انتقل الى عبنات بلبنان واقترن هناك بالسيدة جوليا بنت المستر بعارس آبت قنصل انكلترا في بيروت المشهورة بلطفها وحسن اخلاقها وهاك رسميهما بعيد الزفاف (سنة ١٨٥٢)



الدكتور فان ديك   قرينتهُ

وكان اقترانهُ هذا عونًا كبيرًا لهُ على اتقان اللغة العامية وحفظ امثالها فقد كان لقرينتهِ خادمة تدعى اسي كانت نابغة في حفظ الامثال العامية اشبه بقاموس حيّ لها فكان الدكتور يأخذ عنها الامثال والالفاظ العامية ويحفظها حتى تمكن منها كما تقدم ومما احكاه لنا اعرف الناس باحوالهِ انهُ لم يكن في منزلهِ عند زفافهِ الاَّ ستة

كراسي قش وثلاث حلل ومائدتان من خشب غير مدهون وكانون من طين غير ان ذلك كلهُ لم يحط شيئاً من منزلتهِ ولا قلل شيئاً من قدر خدمانهِ

ثم انتقل من عبتات الى قرية عبيه وهناك انشأ مدرسة عبيه الشهيرة بمعاضدة صديقهِ البستاني وكانت اللغة العربية قليلة الكتب التعليمية في الفنون الحديثة فأخذ في تأليف الكتب اللازمة للتدريس فألف كتاباً في الجغرافية وآخر في الجبر والمقابلة وآخر في الهندسة وآخر في اللوغرتمات والمثلثات السطحة والكروية وسلك البحار والطبيعيات ومعظم هذه الكتب مطبوع

وبعد ان قضى في عبيه اربع سنوات بالتدريس والتأليف دعاه مجمع المرسلين الى صيدا وعهد بمدرسة عبيه الى المرحوم جعان كلهون المشهور بالفضل والاستقامة والتقوى وبقي الدكتور فان ديك مع صديقهِ الدكتور طمسن في صيدا وتوابعها معلماً واعظاً ومبشراً جائلاً من مكان الى مكان حتى توفي المرحوم عالي سميث سنة ١٨٥٧ فانتدب الدكتور فان ديك لترجمة التوراة والانجيل مكانهُ

وعالي سميث المذكور من افاضل المرسلين الاميركانيين وكان قد باشر ترجمة الكتاب من اللغتين الاصليتين بمعاونة المعلم بطرس البستاني واتم ترجمة سفر التكوين وسفر الخروج الا الاصحاح الاخيرمنهُ وراجعها وصححها وترجم اسفاراً اخرى ولكنهُ لم يراجعها فلما انتدب الدكتور فان ديك مكانهُ ابقى السفرين الاولين على حالها وترجم وراجع ما بقي وعانى في غضون الترجمة اتعاباً جزيلة في التفتيش عن اصل كل لفظة باللغات الاصلية وتطبيقها على العربية ما جعل الترجمة الاميركانية كما وصفناها في كلامنا على ترجمات التوراة في السنة الثانية من الهلال. وتولى مع الترجمة ادارة المطبعة الاميركانية المشهورة وحسن فيها وزاد الحركات على الحروف حتى صارت من احسن مطابع المشرق واشهرها. واتم الترجمة سنة ١٨٦٤ وبعثهُ مجمع المرسلين الى الولايات المتحدة سنة ١٨٦٥ ليتولى امر طبعها وتصنيع صحائفها بالكهربائية هناك فاقام في الولايات المتحدة سنتين حتى اتم هذا العمل وعاد الى سورية سنة ١٨٦٧

وكان اثناء اقامتهِ في اميركا هذه المرة يدرّس العبرانية في مدرسة يونيون اللاهوتية وكثيراً ما كان الطلبة يعافون درس هذه اللغة ويأبون الحضور في ساعة تدريسها لصعوبتها وعدم مناسبة اسلوب تدريسها. اما هو فغير اسلوب التدريس

وجعل يعلمهم اياها كلفة حية فصار الطالب يجد في درسها معنى ولذة ويرغب في تحصيلها فتقاطر الطلبة الى صفهِ وتكاثر عددهم فلما رأت عمدة المدرسة ذلك عرضت عليهِ ان يبقى استاذاً للعبرانية فيها وعينت له راتباً كبيراً فاعتذر عن قبولهِ قائلاً « قد تركت قلبي في سورية فلا لذة لي الا بالعودة اليها » وتمَّ في تلك الاثناء انشاء المدرسة الكلية السورية في بيروت على نفقة جماعة من اهل البر في الولايات المتحدة باميركا فعرضت عليهِ عمدة تلك المدرسة الكبرى في اميركا ان يكون استاذاً فيها فاجابها الى ذلك ثم طلبت اليه ان يعين راتبه السنوي بنفسهِ فكتب ٨٠٠ ريال مع ان راتب اصغر اساتذتها لا يقل عن ١٥٠٠ ريال وانما فعل ذلك حباً بخير البلاد ونفع اهلها

ولما وصل بيروت باشر تأسيس المدرسة الكلية الطبية مع صديقهِ الفاضل الدكتور يوحنا ورتبات ووضعا وحدهما نظاماً لدروسها وشرعا في التعليم لا يحاسبان على اتعاب ولا ينظران الى مكافأة او مدح ولما رأى الدكتور فان ديك ان المدرسة تفتقر الى استاذ يدرس الكيمياء فيها أقبل من فوره على تدريسها وهو انما عين استاذاً لعلم الباثولوجيا لا لغيره ولم يكن في المدرسة حينئذ من ادوات الكيمياء الا قضيب من زجاج وقنينة عتيقة فانفق مئتي ليرة انكليزية من مالهِ لاحضار ما يلزم من الادوات. وألف كتابه المشهور في مبادئ الكيمياء لتدريس التلامذة وطبعه على نفقتهِ وهو يعلم انه لا يسترجع نفقات طبعهِ قبل مماتهِ وما زال يدرس هذا الفن ست سنوات متوالية ينفق على لوازم التدريس من جيبهِ. وعينت عمدة المدرسة استاذاً للكيمياء فجاء وبقي سنتين يتعلم العربية ويقبض اجرته والدكتور فان ديك يدرس مكانه مجاناً حباً بمصلحة المدرسة وخير ابناء البلاد. ولما تولى استاذ الكيمياء اشغاله ترك الدكتور فان ديك للمدرسة كل ما انفقه عليها ولم يأخذ مقابله الا مئة ليرة انكليزية

ولم يقتصر الاستاذ على ذلك ولكنه تولى منصباً ثالثاً لتعليم علم الفلك لأن المدرسة لم يكن في وسعها القيام بنفقة تدريسهِ فتبرع هو بتدريس هذا الفن مجاناً وألف له كتاباً وطبعه على نفقتهِ ايضاً كما طبع كتاب الانساب والمثلثات والمساحة والقطوع المخروطية وسلك البحار. ولم يكن في المدرسة آلات فلكية يعتد بها فما لبثت ان شرعت في بناء مرصدها حتى ابتاع له الآلات بقيمة سبعمائة ليرة انكليزية من مالهِ الخاص واثثه وفرش فيه على نفقتهِ واشتهر ذلك المرصد باسمهِ في المشارق والمغارب ولما خفقة

معاونة في تدريس علم الفلك الوصفي الف كتاباً في الفلك العملي وجعل يعلم بهِ الطلبة على الآلات · وكان مع تدريسهِ الباثولوجيا والكيمياء والفلك يتولى ادارة المطبعة الاميركانية فينتقد ما يطبع فيها من الكتب ويهتم بتأليف النشرة الاسبوعية ويطبب في المستشفى البروسياني وكانت المرضى يتقاطرون عليهِ افواجاً افواجاً حتى بلغ عددهم الالوف في السنة فضلاً عن تأليف الكتب العلمية والطبية والدرس والمطالعة والامتحانات العلمية وحضور الجمعيات النافعة ومراسلة العلماء في سائر اقطار الارض مما يعجز جماعة من الرجال عن القيام بهِ

وفيما هو لاهٍ باشغال التأليف والتدريس والرصد والمراسلات العلمية عما سواها من مطامع الشر نكبت المدرسة الكلية بحادث شوه تاريخها ولا نريد ذكره لان فيهِ اثارة الاحقاد وتكدير العواطف ولكننا نقول بالاجمال ان الدكتور فان ديك اظهر في ذلك الحادث شهامة وغيرة وشرفاً ومروءة تذكر لهُ مدى الدهر لانهُ ضحى مصلحتهُ الخصوصية انتصاراً للحق والعدل فاعتزل عن المدرسة محتملاً آلام فراقها وملام ذوي الاغراض محافظة على مبادئهِ · فعوضتهُ المدرسة عما ترك في مرصدها خمسمائة ليرة انكليزية دفعتها لهُ اتفاقاً · وما زال يطبب في المستشفى البروسياني على جاري عادتهِ حتى سعى البعض في صد فوائده عن بني الوطن فترك المستشفى على غير رضى منهُ · لكنهُ اما تركهُ ليحيي في الوجود مستشفى مار جرجس لطائفة الروم الارثوذكسيين فكان لهُ في تأسيسهِ وانشائهِ اياد تذكر وما زال يطبب المرضى فيهِ ويبذل ما في وسعهِ في تنشيطهِ ادبياً ومادياً حتى الآن والطائفة الارثوذكسية لا تنسى فضلهُ في ذلك

وفي ٢ افريل سنة ١٨٩٠ احتفل اهل سوريا بمرور خمسين عاماً على اقامتهِ بينهم فاقاموا لهُ يوبيلاً شاركهم فيهِ افاضل المشارقة في مصر والعراق وغيرهما بالاكتتاب وتقاطرت عليهِ الرسائل والقصائد وكتب التهنئة من وجهاء سوريا وامرائها وجمعياتها وبطاركتها واساقفتها ومجامعها على اختلاف المذاهب والنحل وملأت جرائد القطرين السوري والمصري اعمدتها بذكر مآثرهِ وافضالهِ واعمالهِ ولولا ضيق المقام لجئنا ببعض ما قيل فيهِ ولكن ذلك مجموع في كتاب مطبوع على حدة بمطبعة الاميركان ببيروت فمن اراد التفصيل فليطالعهُ

وسنأتي على ذكر مؤلفاتهِ واعمالهِ وصفاتهِ واخلاقهِ في الهلال القادم ان شاء الله

باب المقالات

الجرائد وواجباتها وآدابها

حملنا حال الجرائد المصرية في هذه الايام من التطرف والتهور على التكلم في الجرائد وآدابها والشيء بالشيء يذكر . وقد رأينا لزيادة الفائدة ان نقسم كلامنا في ذلك الى اربعة اقسام (١) تاريخ الجرائد في اوروبا منذ نشأتها الى الآن (٢) تاريخ الجرائد العربية (٣) آداب الجرائد وواجباتها (٤) الجرائد المصرية وتهورها

(١) تاريخ الجرائد في اوربا

ذكرنا في الهلال الثاني والعشرين من السنة الثالثة ان الجرائد نشأت اولاً في الصين سنة ٩١١ قبل الميلاد وهو قول يحتاج الى اثبات ولكن المعوّل عليه ان يوليوس قيصر الروماني في اواسط القرن الاول قبل الميلاد اصدر نشرة يومية سماها (Acta Diurna) « اكتادورنا » ومعناها « الاعمال اليومية » ينشر فيها اعمال المشيخة الرومانية الرسمية وحوادث الشعب الروماني وما زالت تصدر الى زمن الامبراطور يوليان في اواسط القرن الرابع للميلاد فكانت بمنزلة مثال للجرائد التي صدرت بعد ذلك في اوربا

أما الجرائد في العصر الحديثة فنشأت اولاً في جرمانيا في القرن الخامس عشر للميلاد وكانت تصدر في فينا واوغسبرج ونورنبرج على شكل صحف فيها ملخص الاخبار الجارية في تلك المدن وما والاها . ولكن الجرائد لم تتمثل بالشكل المعروفة به الآن الا في البندقية واول جريدة صدرت فيها اثناء الحرب التي قامت بينها وبين الدولة العلية سنة ١٥٦٣ م دعوها (Gazetta) غازتا وهو اسم لقطعة من نقود البندقية تساوي ما يقرب من المليم المصري وقد دعوها به نسبة الى ثمنها لانها كانت تباع بهذه القيمة

ثم تشبه الانكليز بهم فأصدروا في لندن سنة ١٦٢٢ جريدة (Weekly News) (اخبار الاسبوع) وكان المظنون ان الانكليز اصدروا جريدة سنة ١٥٨٨ في زمن الملكة اليصابات سموها (The English Mercury) « عطارد الانكليزي » ولكنهم وجدوا بعد البحث والتنقيب ان تلك الجريدة صدرت بعد ذلك التاريخ بأزمان ومنها نسخ محفوظة في المتحف البريطاني

ثم انشأ الفرنساويون جريدة سموها « غازتة فرنسا » صدرت بباريس في ابريل سنة ١٦٣١ م وقد نشطتها الحكومة ورفعت منزلتها حتى ان الملك لويس الثالث عشر نشر فيها مقالة بقلمهِ واقتدى بهِ في ذلك ايضاً الكردينال ريشليو الشهير ولا تزال هذه الجريدة حية الى الآن وقد مرَّ عليها ٢٦٤ سنة

فيظهر مما تقدم ان اوَّل من انشأ الجرائد على النمط الحديث البندقيون ثم الانكليز ثم الفرنساويون ولكن اخبار الاسبوع المتقدم ذكرها كانت اشبه بالخطابات الخصوصية منها بالجرائد العمومية حتى قد يليق بنا تقرير السبق للفرنساويين واما اوَّل جريدة انكليزية انشئت على مثال الجرائد حقيقة فهي جريدة غزيتة لندن صدرت سنة ١٦٤٢ لكنها لم تعش طويلاً ثم انشئت « غزيتة اوكسفورد » صدرت في اوكسفورد سنة ١٦٦٥ ثم نقلت الى لندن ودعيت غزيتة لندن (London Gazette) وهي لا تزال تصدر بهذا الاسم حتى الآن . ثم صدرت جرائد اخرى في انكلترا وغيرها من ممالك اوربا واميركا واقدم جريدة أُنشئت في اميركا « بوستون نيوستلر » صدرت سنة ١٧٠٤ . فقد مرَّ على الجرائد منذ اوَّل ظهورها الى الآن اكثر من ثلاثة قرون قاست في اثنائها مشقات جسيمة حتى بلغت ما هي عليهِ من الكثرة والانتشار والحرية وكان في جملة العراقيل التي وقفت في سبيل نشر الجرائد عند اوَّل صدورها الضرائب التي كانت تضرب عليها فقد بلغت النفقة على العدد الواحد منها في بلاد الانكليز في اواخر القرن الماضي اربعة بنسات (نحو غرشين) وجعلوا ضريبة على كل اعلان ثلاثة شلينات ونصف شلين فضلاً عن المراقبة الشديدة التي كانت عليها فضايق ارباب الصحف من ذلك كثيراً حتى صاروا ينتحلون الوسائل الغريبة في نشر جرائدهم وتجنب نفقاتها الباهظة

ومما يحكى من هذا القبيل ان رجلاً انكليزياً يقال له كربنتر اصدر في اوائل هذا

القرن جريدة على شكل كتاب خصوصي سماه «كتاباً سياسياً» يوجه الخطاب فيه الى احد اعيان الانكليز ثم يطبع منه نسخاً عديدة يبيعها باسم كتاب سياسي وليس جريدة فكان يبيع من كل طبعة آلافاً من النسخ والحكومة لا تستطيع مطالبته لخروج نشرته هذه عن تعريف الجريدة ولكنها اخيراً توسعت في تحديد الجرائد فاوقعته تحت طائلة القصاص وحكمت عليه بدفع الضرائب التي ظن نفسه تخلص منها فاضطر الى اصدار جريدته كسائر الجرائد الاخرى يدفع عليها النفقات الاعتيادية

ومن اساليب الحيل التي اتخذوها هرباً من الضرائب ان احدهم المستر هترنتون اصدر جريدة كان يطبعها على مناديل رخيصة الثمن يسميها «منديلاً سياسياً» فنشرها مدة وكان يبيعها بثمن بخس فانتشرت انتشاراً حسناً حتى نالته اخيراً ما نال كربتر المتقدم ذكره. على ان الحكومة نفسها بعد ذلك شعرت بفوائد الجرائد وانتشارها فاخذت تنشطها وتسهل طبعها ونشرها حتى بلغت ما هي عليه ففي بلاد الانكليز وحدها الآن ٢٤٠٠ جريدة سياسية يصدر منها في اليوم مئات الملايين من النسخ وقس عليه الممالك الاخرى

(٢) تاريخ الجرائد العربية

ذكرنا في اوّل عدد صدر من الهلال كلاماً مسهباً عن الجرائد العربية واتينا على اسماء الجرائد العربية التي صدرت في العالم منذ اوّل عهدها الى تاريخ صدور ذلك الهلال وليس من غرضنا العدول الى هذا الموضوع الآن ولكن المراد الاقتصار على تاريخ نشأة الجرائد العربية بالاختصار

علمت مما تقدم ان الجرائد نشأت ونمت في اوروبا ونحن اقتبسناها عنها كما اقتبسنا سائر العلوم الحديثة. ومعلوم اننا لم نعكف على احياء علوم اسلافنا واقتباس العلوم الحديثة الا في اواسط هذا القرن على اثر احياء المعالم العربية في الديار المصرية والسورية بعد تولي العائلة المحمدية العلوية وافتتاح المدارس الاهلية والتوسعة للاجانب في الاقامة بيننا والدخول في مدارسهم وتعلم لغاتهم

والفضل الاوّل في انشاء الجرائد العربية للمغفور له محمد علي باشا مؤسس العائلة المحمدية العلوية فانه هو الذي اسس اوّل جريدة عربية في العالم منذ خمس وستين سنة وهي جريدة «الوقائع المصرية» ولا تزال جريدة الحكومة المصرية الرسمية ثم

اصدرت الحكومة العثمانية جريدة عربية رسمية في بيروت منذ ٢٨ سنة سمتها حديقة الاخبار ثم صدرت الجريدة الرسمية لتونس الغرب وقد مرّ عليها الى الآن زهاء ٢٥ سنة ولا تزال هذه الجرائد الثلاث حية ولكنها رسمية تصدر على نفقات حكومتها وتنشر اوامرها ومنشوراتها واعمالها

أما الجرائد السياسية غير الرسمية فأقدمها جريدة الجوائب التي انشأها المرحوم الشيخ احمد فارس الشدياق في الاستانة العلية عام ١٨٦١ م وقد تعطلت بعد الحوادث العرابية وتليها جريدة وادي النيل أُنشئت بمصر سنة ١٢٨٣ ه (١٨٦٧ م) وكانت تصدر مرتين في الاسبوع على شكل كراس ومواضيعها سياسية وعلمية وادبية ومحررها أبو السعود افندي وتلي هذه مجلة الجنان التي انشأها المرحوم المعلم بطرس البستاني ببيروت عام ١٨٧٠ وكانت تصدر مرتين في الشهر على شكل كراس بقطع الهلال ومواضيعها علمية وادبية وسياسية توقفت منذ بضع عشرة سنة وجريدة البشير للآباء اليسوعيين وهي صحيفة دينية اخبارية نشأت مع مجلة الجنان في عام واحد ولكنها لا تزال حية

ثم توالى صدور الجرائد في مصر والشام فصدرت بالاسكندرية جرائد روضة الاسكندرية والاهرام والكوكب الاسكندري والمحروسة . وبمصر روضة المدارس والوطن وغيرها . وببيروت صدرت النشرة الاسبوعية او لعلها صدرت مع البشير او قبله كما يؤخذ من عدد اعدادها الصادرة الى الآن ولكنها لا تدل على سنة نشأتها صريحاً ثم ثمرات الفنون والمقتطف ولسان الحال والمصباح وغيرها فيظهر مما تقدم ان اوّل جريدة عربية رسمية صدرت بمصر ثم ببيروت ثم بتونس واوّل جريدة عربية غير رسمية صدرت في الاستانة العلية ثم بمصر ثم ببيروت

وقد بلغ عدد الجرائد التي صدرت بالعربية في سائر اقطار العالم نيفاً ومائتي جريدة بين سياسية وعلمية وادبية وفكاهية وطبية وغيرها صدر نحو خمسين منها في السنوات الثلاث الاخيرة ولا يزال عددها آخذاً في الازدياد وخصوصاً بعد ان اطلق لها العنان في الديار المصرية حتى لم تعد تعرف لها حدّاً تقف عنده

(٣) آداب الجرائد وواجباتها

لا نعلم ان احداً دوّن للجرائد حدوداً تتعامل بها من حيث الآداب العمومية

فيما خلا القوانين التي سنتها لها الحكومة ولكننا اذا عرفنا ما هي الجرائد سهل علينا معرفة آدابها . والجرائد « لسان حال الامة ينطق به فرد او جماعة من عقلائها » فهي كالمرآة تمثل بها احوال الامم وعوائدهم وآدابهم ولما كانت الامم تختلف في كل ذلك كانت الجرائد مختلفة في مباديها على تلك النسبة فالجريدة الانكليزية تنطق بلسان حال الانكليز وتمثل اخلاقهم وآدابهم والجريدة المصرية تمثل اخلاق المصريين وآدابهم وهكذا يقال في كل جريدة عند كل امة . فمن انشأ جريدة في الديار المصرية واراد الاقتداء بجرائد انكلترا او انشأ جريدة في انكلترا ومثل بها اخلاق المصريين فانه يسير على ضلال وشأنه في ذلك شأن من يلبس البدوي لباساً افرنجياً او يخلع على الافرنجي عباءة وعمامة وهذا هو منشأ التضاد بين الجرائد المصرية الحديثة فان محرريها يختلفون مشرباً واخلاقاً وكل يسير على شاكلته

فآداب الجرائد المصرية تقضي بسيرها على خطة المشارقة في عوائدهم واخلاقهم وسائر احوالهم مع اختيار الحسن منها وانتقاد القبيح التماساً للاصلاح ولا بد في كل ذلك من ظهور اخلاق المشارقة بين سطورها وفي خلال الفاظها واظهر تلك الاخلاق المجاملة والتأدب وكرم الاخلاق

واهم واجبات الجرائد السعي في كل ما يأول الى مصلحة الامة واصلاح شؤونها بانتقاد اعمالها واعمال من يتولى امرها مع مراعاة آدابها واخلاق اهلها وعوائدهم ومن اهم تلك الواجبات احترام شخص الملك فانه القائم بأمرها الموكل برعايتها وهو النائب عن الخالق جل وعلا في تدبير شؤون خليقته فاذا رأوا فيه اعوجاجاً فليقوموه بغير مساس بشخصه

ومن واجبات الجرائد البحث في كل امر عمومي وانتقاده انتقاداً عادلاً وتجنب المسائل الشخصية ولا سيما المتعلقة بالدين فان التعرض للامور الشخصية او الدينية اول ما يشين الجرائد ويحط من منزلتها ويذهب بها الى الشطط والتهور وما عاقبة ذلك الا التنافر والبغضاء وسوء المصير

فمن ينشىء جريدة يركب مركباً خشناً ويعرض نفسه لواجبات يجدر به ان يتعلمها قبل اتقان فن الانشاء والتبحر في التحرير والتعبير لئلا يقود قراءه الى مهاوي الضلال ويلوث وطنه بعواقب الغرور اذا لم نقل انه يذهب به الى الضياع والعياذ بالله

(٤) الجرائد المصرية

قد علمت مما تقدم ان الجرائد المصرية وسائر الجرائد العربية حديثة العهد لم تكد تبلغ نصف قرن من العمر بين ان الجرائد الافرنجية قد تجاوزت ثلاثة قرون فما الصحافة العربية بالنسبة الى الافرنجية الاّ كطفل رضيع لم يكد يفتح عينيه امام شيخ هرم حنكته التجارب وهذبته الايام. أليس من الغريب ان نرى طفلاً رضيعاً يحاول اعمالاً لم يبلغها شيخه الاّ بمر القرون. هذا هو شأن الجرائد المصرية الآن فانها على حداثتها ونعومة اظفارها تسابق الجرائد الافرنجية وتحاول ان تعمل عملها وتسير على خطواتها ولكن ذلك مخالف لشرائط النمو الطبيعي فان عودها رطب وعظمها لا يزال غضروفاً فلا تأمن الانكسار والنشل الاّ ان يقام عليها وصيٌّ يتولى امرها ويراقب اعمالها ويقوّم معوجّها ريثما تبلغ اشدها وتدرك كنه الحرية

نراها معجبة بما نالته من تلك الحرية اقتداءً بجرائد الافرنج وتمتعاً بما أُوتيته من اطلاق العنان لها ولكنها بالغت في ذلك الى حد حبّب الينا الاستعباد وقد فاتها ان الحرية بين اسنة اقلامها كالسيف بيد الطفل يسطو به على رقاب الناس ويخبط خبط عشواء ولا نحتاج في تأييد ذلك الى كبير مشقة وهذه الجرائد المصرية قد اتخذت تلك الحرية ذريعة للسباب والشتم ونهش الاعراض والطعن في الامم والممالك والتعريض بالمذاهب والاديان مما لا يترك محلاً للريب في ان الحرية جاءتها هبة في غير محلها وثمرة في غير اوانها . فاذكرتنا اياماً تفشت بها الحرية بوادي النيل منذ بضعة عشر عاماً فجرّت عليه ما هو منشأ اختلاف الصحف الآن

أليق بها وقد اقامت نفسها رقيبة على اعمال الحكام ناصحة للملوك والسلاطين مهذبة لاخلاق الناس مطالبة بحقوق الامم ان تكون مثالاً للشطط والتهور ومعرضاً للطعن والثلب . ويعلم الله اننا نخط هذه الاسطر والقلم يرتعش بين اناملنا ولم نقدم عليه الاّ بعد ان فرغت جعبة اصطبارنا ونحن نوّسي النفس في كف جرائدنا عن تلك الخطة ويسوءنا ان نجرد قلمنا لتأنيب زملائنا الافاضل ارباب الصحف المصرية وهم من نخبة ادبائنا وعمدة فضلائها ولا ندري ما جرّهم الى النزال فيما يؤاخذون عليه الاّ ان يكون ذلك من قبيل ما قلناه من حداثة فن الصحافة بيننا واساءتنا استخدام الحرية نقول ما نقوله اجمالاً بغير تسمية ولا تخصيص لئلا نقع فيما آخذناهم عليه ولا نظن

قارئًا يطلع على هذه الحروف في مصر والشام ويخطئ قصدنا ولم يحملنا على الخوض في هذا العباب الاّ الغيرة على آداب الصحف والتنبيه الى واجباتها لا لان زملاءنا الافاضل يجهلونها ولكن ما يلاحظهُ المراقب خارج المعمعة من حركات المتحاربين قد يفوت المتحاربين ملاحظتهُ ولا نريد الاّ تذكيرهم باشياء هم اعلم منّا بها واولى بالقائها علينا

فبعض تلك الصحف تبالغ في انتقاد عمال الحكومة حتى يشمّ من خلال سطورها رائحة التعريض بالملك بما قد يمس كرامتهُ وهم يعلمون ان انتقاد اعمال العمال شيء ومس كرامة الملوك شيء آخر وبين ان الاوّل فضيلة يمدحون عليها فان الثاني حطة يؤاخذون عليها لان في انتقاد اعمال الحكومة نفعًا واصلاحًا واما مس كرامة الملوك فمجلبة للبغضاء والتنافر

ونرى صحفًا اخرى تملأ اعمدتها تعريضًا ببعض الامم ظلمًا وعدوانًا وتجاهر بسبّها واهانتها وتحقيرها ولا نعرف شرطًا من شروط الادب ولا قانونًا من قوانين الشرع والعرف يبيح الطعن في امة برمتها والامم على اختلاف اصقاعها ولغاتها ومذاهبها لا تخلو من الحسن والقبيح وغاية ما يقال فيها انها تحتمل المدح والذم ولا يعقل ان امة باجمعها تستوجب الاهانة والتحقير الاّ ان يكون المراد التشفي منها لحزازات في الصدور وهذا امرٌ نجلّ الصحف عنهُ ومن كان هذا غرضهُ فليتخذ سلاحًا غير الصحف وليركب جوادًا غير القلم

ونرى صحفًا أُخرى قد سودت صفحاتها بمقالات ضافية في المسائل الشخصية فتطعن في اشخاص تسميهم باسمائهم وتنهال عليهم بالسب والاهانة حتى قد تتطرق الى انتقاد ما يأكلون او يلبسون او يطبخون وأي علاقة بين ذلك والمصلحة العامة التي انشأوا جرائدهم لاجلها وما يهمّ القراء ما يقولونهُ عن فلان وما يأتيهِ في منزلهِ او كيف شبّ في صغرهِ وما لنا وللبحث عن اصلهِ وفصلهِ وقريتهِ وجيرانهِ فان آداب الصحف تمج هذه الابحاث وتنفر من رائحتها وقد يتبادر لمحرري تلك الصحف ان ذلك من قبيل تشديد اللهجة التي تساعد احيانًا في تقوية الحجة واقناع الخصم والقراء بصحة دعواهم ولكنهم اخطأوا المرمى ووقعوا في عكس ما يؤملون فان القرّاء اذا رأوا في ما يقرأونهُ تعريضًا او طعنًا أمسكوا عن قراءتهِ لانهم انما يهمهم من الجرائد اخبارها وابحاثها السياسية على انهم لو صبّروا النفس على مطالعتها فانما يطالعونها وهم يعتقدون تحامل

الكاتب على مناظره ومبالغته في تحقير رأيه فلا يثقون بمقدماته ونتائجه ومهما اشتهرت الجريدة بصدق اخبارها وصحة آرائها فلا تلبث اذا اكثرت من الطعن والشتم ان تحط منزلتها ويرتاب القراء في صدقها

وهناك صحف تطاولت في ابحاثها الى الاعراض وهو من اقبح ما تنفر منه الاذواق الشرقية فاننا معاشر الشرقيين نغار على الارض ونصونها ونفديها بارواحنا ونجتنب كل ما يمسها ونمقت كل من يعرض بها يدلك على ذلك ميلنا الى التحجب دون سائر الامم فما بالنا نتولى خرقها بيدنا ان ذلك من جملة غرائب الجرائد المصرية الحرة

ونرى في بعض تلك الصحف الفاظاً لا نسمعها الاّ من ابناء الازقة لبذاءتها والفاظاً يخجل من تلاوتها الاديب فضلاً عن العذراء والجرائد يتداولها الناس على اختلاف درجاتهم واعمارهم وفيهم التاجر والصانع والقسيس والعالم والشاب والشابة فاستعمال الالفاظ البذيئة اذا لم يفسد الاخلاق فانه يقلل من منزلة الجريدة فيستخف الناس بها وبأقوالها

واقبح ما رأيناه في بعض الجرائد المصرية التعريض بالاديان والمذاهب وهو امر يذكرنا بايام خلت نود نسيانها ايام جرت فيها الدماء انهرًا وكان الجهل ضارباً اطنابه والتعصب سادلاً غشاوته وما صدقنا ان اقلعت تلك الغيم وانحسر ظل ذلك الغشاء وعرف كل ما حدوده افنعود اليها ودون ذلك قراع الالسنة وسفك الدماء وتشويه وجه الانسانية أما آن لنا ادراك كنه التمدن الحقيقي فكيف نجعل ما يتخذه غيرنا حصناً لتمدنهم وواسطة لعقد اجتماعهم عارًا على تمدننا وسبباً في تفريق شملنا

وقد نلتمس لتلك الصحف عذرًا في احتدام نار الجدال بينها وطول الاخذ والرد في ما يختلفون فيه من الابحاث السياسية او الادبية ولكننا لا نرى موجباً للخروج من المجادلة الى المشاتمة والمطاعنة واثارة الشحناء والبغضاء واذا زعموا انهم يفعلون ذلك اقتداء بمن تمتع بحرية الجرائد قبلهم من الافرنج فهؤلاء قد يتناظر جماعة منهم في مسألة وتحتدم شعلة الجدال بينهم حتى يحتاجوا الى التحكيم وهم مع ذلك لا يتجاوزون حدود المناظرة ولا يخلون بواجبات الجرائد ولا يخرقون حرمة الآداب بل يعودون بعد المناظرة وقد تمكنت بينهم علائق المودة وزاد ائتلاف قلوبهم وقد عرف الناس نتيجة ابحاثهم اما نحن فلا نكاد نبدأ بمناظرة سياسية حتى نخرج منها الى المطاعنات الشخصية

فنخوض فيها اشهرًا وننسى الموضوع الذي كان مدار البحث فيه وقد تتصل الحدة ببعضنا الى تهديد الآخر بالقتل او المبارزة او المحاكمة او ما شاكل ذلك. اهذه حقوق المناظرة ام هي واجبات الصحف وآدابها. ولو فرضنا ان الافرنج يخرجون مثل خروجنا فالآداب الشرقية اساسها المجاملة والتأدب وكرم الاخلاق كما قدمنا فهي تقضي براعاة احساسات مناظرينا والاغضاء عن هفواتهم ومعاملتهم باللين واللطف وتجنب الجفاء والقول المراء

على اننا نستميح العذر من حضرات الافاضل اصحاب الصحف ومحرريها لقيامنا لديهم مقام الناصحين ونحن احوجهم الى النصح ولكنها خطرات افكار مرت بذهننا فحركت هذا القلم على هذا القرطاس فلعلها اذا مثلت بين ايديهم اذكرتهم اموراً هم اعلم منا بها . وقد توخينا اظهار الحقيقة وابداء رأينا عملاً بواجباتنا نحو الامة والوطن غير ان ذلك كله لا يحط شيئاً من منزلة اشخاصهم لدينا فاننا نجل ارباب الاقلام ونقدرهم حق قدرهم فهم قادة الافكار وقدوة اهل الادب وزهرة غرس الامة وما آخذناهم عليه ان هو الا هفوة يكفرون عنها بما يخدمون به البلاد من جهة أخرى ولكننا اردنا تذكيرهم حتى اذا رأوا رأينا وارادوا الرجوع الى الصواب كانوا اقرب الى الكمال وذلك اجدر بأهل العلم والادب مما سواهم من طبقات الناس والسلام

باب المراسلات

عادة مضرة

حضرة الفاضل منشئ الهلال الزاهر

لقد احسنتم واحسن مراسلوكم الكرام بما خضتم فيه من البحث العائد بالنفع الجزيل على الهيئة الاجتماعية اريد به التحذير من العادة المضرة الفاتكة بتلك الابدان الناعمة البشرة الطرية الاهاب المشرقة الطلعة بنور الشباب فيحول بهاؤها ويذهب ماؤها ويعود كل من اربابها غائر العينين مزرق الجفون منقوف الوجه شاحب اللون خائر القوى لا تكاد ارجله الضعيفة تقوى على حمل ذلك الظهر المعوج والايدي المرتجفة

كيف لا وفيها نفاد اهم ما اودع في هذا المخلوق من تلك القوة التي لم يحفظ لحرمتها عهودًا ولم يرع لها وجودًا بل جاد بها كما يجود بأبخس الاشياء فساق نفسه بذلك الى عذاب مرّ وعناء مستمر . وحسب الطالب دليلاً على اهميتها اذا تأمل التأثير الحادث عنها في المرء بدء ظهورها من اختلاف الصوت وتغير الهيئة وتبدل الملامح وسرعة نمو الشعر وترقي العضلات ثم نظر فيما يصير اليه اذا امتنع حدوثها وانقطع حبل غائها من وقوف حركة نموه وتقهقر بنيته كما تبين ذلك فيمن عرف بهذه الحالة كالخصيان اذ سقط شعر اللحية وعاد الصوت اشبه بصوت الغلمة منه بصوت الرجال . اذا ادرك هذا عرف ان لذهاب هاته القوة تأثيرًا في القوى الانسانية كلها لما يعتورها من الضعف ويلابسها من الوهن ويساورها من الخور والانحطاط . وذلك ان في الجسم اعضاء هي كالآلات عملها الافراز والابراز وكل من هذه الاعضاء يحمل اليه الدم المواد المغذية فيتناول منها حاجته . فاذا فرضنا ان آلة من تلك الآلات زادت حاجتها الى الدم فكان ينصرف اليها كلما دعته اشغلته نوعًا ما عن غيرها واذا تكرر ذلك أدّى الى ظلم سائر الآلات واثر فيها فتكون الزيادة في حاجة الواحدة سببًا لضعف الاخرى

والزيادة في الحاجة آتية عن زيادة في العمل ولا يخفى ان العادة المضرة التي نحن في صددها تدعو الى زيادة عمل ما لتجديد ما تذهب به فتزيد حاجة الآلة القائمة بهذا العمل الى الدم ويتأتى عنه ما بيناه من ضعف سائر الآلات في اتمام وظائفها فيضعف الجسم وهاءنذا آتي القرّاء بتعداد مخاطر هاته العادة على وجه الاجمال تاركا ما ليس من غرض هذه المجلة لمراجع فيه الكتب الطبية ذكرًا ما يمكن ذكره من الامراض الناجمة عنها اتمامًا للفائدة وبلاغًا في التحذير

هذه العادة تسوق صاحبها الى ضعف القوى العقلية جمعاء فتضيع الذكرة وتنبو الفاكرة وتعيى المتصرفة فيعود المصاب عاجزًا عن الذهاب في بحث ما غير قادر على اطالة التفكر في مسألة تقتضي ذلك سريع التضجر كثير الملل بارد الذهن مظلم القريحة وكثيرًا ما يصيبه الوسواس وتعروه السوداء فيقضي ساعاته حزينًا مشتت الافكار قلقًا متعوب الخاطر يسعى الى الاعتزال فيبكي وينتصب الوحدة يذرف فيها الدموع ثم يصبو الى النوم ويستهويه النعاس فلا يكاد يغمض عينيه حتى تغشاه الاحلام المفزعة هذه العادة تشوه محياه بآفات المرض والضعف وتضرب على مشاعره بأيدي

الخمول ولا سيما السمع والبصر فيزول من عينيهِ بريقهما بعد ان يخف بصره ويتعب نظره ويصاب بوقر في اذنهِ وضعف في شعوره ورعاف من انفهِ

هذه العادة تقلق جهازه العصبي فيتعاقب عليهِ النعاس والارق ويتنازعهُ النشاط والكسل وتأخذ اليهِ الامراض العصبية سبيلاً كالهيبوخندريا والهيستريا والصرع والشلل وغير ذلك فترافقهُ اعراض هذه من حزن وبكاء وخوف وعياء وصداع واختلاج وغيبة وخفقان الخ

هذه العادة تضغط على صدره فيضيق تنفسهُ ويختنق الصوت ويكثر اختلاجه ويقوى السعال ويستفحل امره ويضعف القلب فيصير بطيء العمل سريع التهيج والتأثر

هذه العادة تحدث تشويشاً في نظام المعدة واختلالاً في وظائف الامعاء فتارة قبض وطوراً اسهال وهذا يشكو نفوراً من الاكل او تقلباً في القابلية وذاك يلتهم الطعام التهاماً حتى اذا صار في جوفهِ عض بنان الندم وصاح من الالم وتمنى لو لم يطعم

هذه العادة تفتح لتابعها ابواب العناء وتقوده في طريق الفناء بما يصل اليهِ اخيراً من الانحطاط ويصيبهُ من الهزال فتراه فاتر الهمة بليداً موصوفاً بالبله غالب الاحيان مصاباً بالحمى اكثر الايام معذباً بالسعال معظم الاوقات معرضاً للسل الرئوي وغيره من الامراض الهائلة ضعيف الاعصاب مختلج الاعضاء واقفاً على حافة القبر

مهلاً أيها القارئ ولا تذهل لهذا المشهد المخيف ولا يأخذك العجب مما اتيتك بهِ بل لا تتوهم مغالاةً في الامر ومبالغة في الحقيقة فاني لم أصل الغاية ولم ادرك النهاية من ذكر ما يعانيهِ الشاب من اهوال تلك الهوة التي يقذف بنفسهِ فيها ولولا خوف الشرود عن موضوع هذه المجلة لنقلت للقرّاء ملاحظات الاطباء واخبار المجرّبين مثبتة غوائل هذه العادة التي هي وايم الحق آفة البشرية ومرض الانسانية فليعتبر الفطن وليتنبه الغافل فالحياة قصيرة الاجل ضيقة الامل لا تمنح المهمل من الوقت كفاية ولا تنتظر المقصر عند غاية فقد لا يجد المريض فرصة للشفاء وإن شفي فلا يمكنهُ تملي الراحة والهناء قبل انقضاء العمر وحلول الفناء · وليعلم المفرط في شهوتهِ المفرّط في صحتهِ ان الصحة زاد المسافر في هذه الحياة فالسعيد الذي يصل آخر تلك الشقة بلا مشقة من انتبه لصحتهِ وكان حكيماً

« نقولا يوسف فياض »
(أحد طلبة الطب في المكتب الفرنسوي ببيروت)

سنة الملك هجرية	اسم السلطان	سنة الملك هجرية	اسم السلطان
١٢٩٣	عبد الحميد الثاني وهو السلطان الحالي ايد الله سلطانه	١٢٩٣	مراد الخامس

الحواة

(القاهرة) صليب افندي يوسف

نرى احيانًا في الشوارع والحواري رجالاً ينادون « يا رفاعي مدد » ويزعمون انهم يخرجون الثعابين من المنازل فهل هذا صحيح

(الهلال) كتبنا في الحواة ومدعاتهم في الهلال التاسع عشر من السنة الثالثة جوابًا على اقتراح مثل اقتراح حضرتكم فراجعوه هناك



أرمانوسة المصرية

رواية تاريخية غرامية

عوّلنا منذ اصدرنا الهلال أن نخصص فيهِ بابًا للرّوايات التاريخية ننشرها فيهِ تباعًا فنشرنا رواية استبداد المماليك في السنة الاولى ثم رأينا العدول عن ذلك فصدر الهلال في سنتيهِ الثانية والثالثة بلا رواية ثم اوعز الينا جماعة من القراء الادباء ان نعود الى عزمنا الاوّل ومما كتبهُ الينا بعضهم يدعونا الى اعادة نشر الرّوايات قولهُ « لا نعدُّ رواياتكم التاريخية الاَّ تاريخًا طليًا يقرأهُ المطالع بغير ملل والتاريخ من اهم مواضيع الهلال وأفيدها »

والواقع اننا نتوخى في تأليف الرّوايات ان لا تخلو صفحة منها من حقيقة تاريخية او اكثر وقد شهد بذلك من طالع رواياتنا التي نشرت حتى الآن وخصوصًا « المملوك الشارد » و « أسير المتمهدي » و « استبداد المماليك » حتى استأذننا بعض الكتاب الادباء في ترجمة احداها « المملوك الشارد » الى اللغة الروسية وآخر الى الانكليزية وقد ورد علينا بالأمس كتاب من مترجمها الى الروسية وهو حضرة الاديب البارع

خليل افندي بدس أحد اساتذة المدرسة الروسية في الناصرة بيتنايه بما تمّ للرواية ولا بأس من ذكره قال بعد الديباجة

«قد انهيت ترجمة المؤلف الذي اهديتموه اللاد وهو المملوك الشارد الى اللغة الروسية وبيضته وارسلت جانباً منهُ الى عاصمة روسيا الى ادارة جريدة نوفوفريميا بعد ان طوّقت عنقهُ باسمكم الكريم وبعد خمسة اشهر وصلني الجواب بالايجاب ولكن قبل ذلك بيضت منهُ الجانب نفسه وارسلتهُ الى ادارة جريدة بسكوفسكي ليستوك (مخافة ان لا انال من الاولى جواباً) وهذه اجابتني بعد شهرين ان ارسل الرواية كلها او نصفها على الاقل فتطبع اولاً في اعمدة الجريدة ثم على حدة بعد الاتفاق بين الفريقين فأخذت بتلبية الطلب . الاَّ ان ناظر المدارس الروسية في فلسطين المؤسسة بمساعي الجمعية الامبراطورية الارثوذكسية الفلسطينية قد اشار عليَّ باهدائها الى رئيس الجمعية المذكورة عم القيصر الحالي الامير العظيم سرجيوس فرضيت بذلك وها انا آخذ بتبييضهِ»

ونغتنم هذه الفرصة للثناء على حضرتهِ لسعيهِ في نشر هذه الرواية بين قرّاء اللغة الروسية ونتقدم اليهِ ان يقابل ترجمتهُ هذه على الطبعة الثانية التي صدرت حديثاً لعله يرى تحوير شيء منها

وأما «ارمانوسة المصرية» فربما فضلت سائر رواياتنا السابقة لاشتمالها على أهم حوادث التاريخ الاسلامي واكثرها تعلقاً بالقطر المصري اعني ظهور الاسلام وفتوحاته وخصوصاً فتح مصر وبيان حقيقة اسباب ذلك الخ وما كان من حال القبط مع الرّوم وشرح احوالهم وعوائدهم واخلاقهم وملابسهم منذ ثلاثة عشر قرناً وما كان من حال العرب في جاهليتهم وما قاموا بهِ وما كان لظهور الاسلام من التأثير في سائر احوالهم وعوائدهم واخلاقهم مما لا يمكن الوقوف عليهِ الاَّ بمطالعة المجلدات الضخمة والامعان فيها وتدبر اقوالها بالاستنتاج والتطبيق والقياس . فما رواية ارمانوسة هذه الاَّ تاريخ فتح مصر في صدر الاسلام مع تمثيل حركات الجند وملابسهم ومداولات القواد في خيامهم وقصورهم وما جال في خواطرهم مكتوباً على اسلوب حكاية يقرأها المطالع ولا يمل بل يزداد تشوقاً لمطالعتها وهو يحسب انهُ يقرأ قصة فكاهية فلا يأتي على آخرها الاَّ وقد فهم تاريخ الفتح وحوادثهِ كأنهُ شهدهُ بنفسهِ وسنوالي نشرها في الهلال تباعاً

ونسأل الله ان يلهمنا الصواب ويبعدنا عن الخطأ انهُ سميعٌ مجيبٌ

الفصل الأوّل

الرّومانيون والأقباط

فتح الرّومانيون وادي النيل واقاموا فيه قرونًا ظهر اثناءها الدين المسيحي وانتشر في العالم ودخل الديار المصرية فاعتنقهُ المصريون وتمذهبوا به وهم الأقباط ثم تمذهبت به الدولة الرّومانية وانقرضت الديانة الوثنية وهدمت هياكلها وكسرت تماثيلها

ولكن ما لبثت الحال مدة حتى وقع خلاف ديني بين كهنة القسطنطينية عاصمة المملكة الرّومانية الشرقية وكهنة الاسكندرية عاصمة الديار المصرية وتعاظم ذلك الخلاف حتى مكنت الضغائن بين الرّومانيين وهم القوة الحاكمة والاقباط وهم الشعب المحكوم وعرفت ديانة الرّومانيين بالملكية وديانة المصريين باليعقوبية[١] واشتدّ ذلك الخلاف حتى آل الى نفور الاقباط من دولتهم واستبداد الرّومانيين فيهم وتعاظم ذلك النفور حتى كره الاقباط الرّومانيين وصاروا يودون التخلص منهم بأية وسيلة كانت

ولكن الرّومانيين بما انهم الحاكمون كانوا يسومون المصريين مرّ العذاب ولا يتركون درجة تمكنهم للايقاع بهم والانتقام منهم

ففي اوائل القرن السابع للميلاد كان على المصريين والٍ يوناني الاصل اسمهُ المقوقس حنا بن قرقب ولكنهُ كان متشيعا للوطنيين قائلا بقولهم داعيًا الى دعوتهم[٢] وكانت اقامتهُ في الاسكندرية كسائر ولاة الرّومانيين الى ذلك العهد لانها عاصمة الديار المصرية ومركز الامارة ولم تكن اذ ذاك القاهرة ولا مصر القديمة ولا الفسطاط وكان في محل القاهرة بساتين وغياض يتخللها بعض الاديرة والكنائس وقليل من البيوت منتشرة بين المقطم والنيل[٣] والى جنوبها بلدة صغيرة اسمها بابل على اسم عاصمة مملكة بابل بناها الفرس عند قدومهم هذه الديار قبل الميلاد ودعوها على اسم عاصمة بابل لأنها كانت في حوزتهم وكانت بلدة بابل هذه فيما هو الآن دير النصارى وما جاورهُ من البيوت وجامع عمرو وبعض مصر القديمة

وكان في وسط تلك البلدة حصن كبير يدعى حصن بابل او قصر الشمع مبني على

(١) المقريزي (٢) تاريخ مصر لشارب (٣) مارسل (٤) المقريزي

النمط الرّوماني وفي مكانهِ الآن البناء المعروف بدير النصارى او دير مار جرجس وكان النيل يجري امامهُ تلاطم امواجهُ بابهُ الغربي وكان باباً كبيراً لا يزال رسمهُ باقياً هناك الى هذا العهد وقد طمرت الاتربة جزءاً السفلي حتى لم يعد ظاهراً منهُ الاّ عتبتهُ العليا(١)

والباب قائمٌ بين برجين هائلين مستديري الشكل في أحدهما كنيسة تعرف بكنيسة المعلقة لا تزال باقية الى هذه الغاية

أما مصر القديمة ما بين هذا الحصن الى النيل فلم يكن لها اثر البتة لأن النيل كان يجري بموضعها بجوار الحصن كما قدمنا وكان بين الحصن الغربي المتقدم ذكرهُ وجزيرة الرّوضة الباقية الى الآن جسر من السفن يمرّ عليهِ الناس من البر الشرقي الى الجزيرة وجسر آخر من الجزيرة الى البر الغربي يمرّون عليهِ الى الجيزة ومنها يذهبون الى منف(٢) عاصمة مصر قديماً وكانت في ولاية المقوقس المشار اليهِ قد انحطت وكادت تؤول الى الخراب يقيم فيها المقوقس بعض السنة

ولم يكن للأقباط همٌّ في تلك الايام الاّ لخلاص من الروماniين لا يفترون نهاراً ولا ليلاً عن التحدث بأعمالهم وظلمهم واستبدادهم ولكنهم كانوا لا يستطيعون المجاهرة بعدوانهم خوفاً من بطشهم وزيادة التضعيف عليهم

الفصل الثاني

﴿ أرمانوسة ﴾

وكان للمقوقس فتاة بديعة الحسن في ريعان الشباب جمعت بين الجمال الروماني واللطف المصري اسمها ارمانوسة خصها الله بلين الجانب وحسن الخلق حتى ضرب المثل بجمالها وذكائها وكان والدها يحبها لانهُ لم يكن لهُ سواها الاّ ولداً اسمهُ ارسطليس(٣) فاباح لها التصرف في بيتهِ وعهد اليها الامر والنهي في خدمهِ وحاشيتهِ

وكانت لفرط جمالها قد سمع بها هرقل ملك القسطنطينية امبراطور الرومانيين فخطبها لابنهِ قسطنطين(٤) وشاع ذلك وذاع حتى تحدث بهِ الخاص والعام وحسدها

(١) تاريخ مصر الحديث (٢) المقريزي والسيوطي (٣) الواقدي (٤) الواقدي

امثالها عليهِ لكنها لم تكن راضية بهذا النصيب لاسباب ولم تكن تتظاهر بذلك لدى احد لئلاً يصيبها او يصيب والدها سوء من غضب الامبراطور فكظمت غيظها وصبرت على مضض الايام حتى يأتي الله بامر من عنده

وقد تقدم ان المقوقس كان يقيم بعض السنة في منفس ومعظم السنة في الاسكندرية عاصمة الديار المصرية الى ذلك العهد اما منفس فكانت اقامته بها غالبًا في فصل الشتاء هربًا من برد السواحل

ففي سنة ٦٤٠ للميلاد كان المقوقس في الاسكندرية كالعادة وكانت ارمانوسة في قصر والدها في منف في البر الغربي من النيل وراء الجيزة وكان ذلك القصر مشرفًا على النيل تحف به حديقة فيها من اغراس الكرم والنخيل وسائر الاثمار والرياحين ما يبهج النظر والقصر عظيم هائل قد اقيم بانقاض هيكل من هياكل المصريين القدماء

وكانت حاشية المقوقس كلها من المصريين والمصريات وبعض الحبشة وليس فيهم أحد من الروم لأن المقوقس كان على مذهب الوطنيين كما تقدم ولكنهُ لم يكن يستطيع المجاهرة بذلك

ففي يوم من ايام تلك السنة قضت ارمانوسة في قصرها متنعمة تارة في غرفتها وطورًا في الحديقة حتى امسى المساء وطلع البدر وكانت ليلة صافية الجو فاحبت الخروج للتنزه في النيل فأمرت خادمتها الخصوصية واسمها بربارة ان تأمر بعض الخدم باعداد قارب تنزل فيهِ فاعدوه لها فنزلت وقد لبست لباس الليل يجرُّ ذيلهُ وراءها وضفرت شعرها من اعلاه باكليل صغير من الحجارة الثمينة مصنوع على شكل رأس الحية على مثال صنع المصريين القدماء وجعلت الشعر ضفيرة واحدة على اكتافها والجواري محدقات بها وخادمتها الخصوصية قد تناولت طرف ثوبها وراءها ورفعتهُ لئلاً يمس الارض ولا خوف عليهِ لو مسها لان ارض البيت مرصعة بالرخام النقي وطرق الحديقة مرصوصة بالفسيفساء فتجاوزت الحديقة الى بابها الشرقي وكان شاهقًا وعلى عتبتهِ العليا نقش رسم اوزيرس باسطًا جناحيهِ ودرفتا الباب من خشب الجميز [1] الصلب وعليهِ من النقوش البديعة ما يشغل النظر وامام الباب من كل ناحية تمثالان كبيران لابي الهول . فخرجت من ذلك الباب الى الشاطيء ماشية

(١) ولكنسن

بين صفين من شجر الجميز الغض حتى انت الشاطئ. فنزلت القارب على رصيف قديم البناء عليه نقوش هيروغليفية [1] وكان القارب مفروشاً باحسن الاثاث من البسط المزركشة فنزلت اليه وجلست في صدره و بين يديها الضاربات بالربابة والنافخات في الناي [2] وارخى النوتية الشراع واخذ القارب يسير بهن الهوينا يخترق عباب النيل والجو صاف واشعة القمر تنعكس عن سطح النيل وتكسر وتتلألأ والى كل من جانبي النيل غياض ومغارس للنخيل والدوم والى ورائها كروم العنب وغيرها تخللها قرى صغيرة وابنية هائلة معظمها من الهياكل والتماثيل واعظم تلك الابنية ابنية منف و بينها الهياكل الباذخة والتماثيل العجيبة لان منف معما انقل الدهر عليها وعملت بها عوامل الحدثان ما زالت ابنيتها شامخة شائخ للسحاب ولاسيما اهرامها المعروفة الآن باهرام سقارة

وكان مسير القارب بجانب الشاطئ. وقد جلست ارمانوسة في صدره وحوازيها بين يديها واخذن في ضرب الآلات وعلى ضفة النيل شجر البردي متكاثف يتمايل كالسكارى ولم يكن يسمع عند مسير القارب الا صوت الموسيقى يتخلله حفيف ورق البردي حيناً ضعيفاً ونقيق الضفادع بين اغصان البردي وقد سكن التمساح وآوى الى مأمن له وكان لسير القارب صوت ضعيف في اختراقه عباب الماء. والطبيعة هادئة والنسيم لطيف ومرشارة لا تنفك لحظة عن التحلاء مرضعة سيدتها بلطيف حديثها وغريب اقاصيصها ولكن ارمانوسة كانت مضطربة البال لا تبتسم الا تكلفاً كأنها تريد نسيان هواجس تخامرها وتود الاشتغال عنها بمناظر الطبيعة وهي لا تستطيع وادركت خادمتها منها ذلك فجعلت تبالغ في تسليتها ومحادثتها تارة بالاحاديث المضحكة وطوراً بالاطناب في جمالها وتارة في غير ذلك وكانت قد لحظت انقباضها من قبل وحاولت استطلاع حقيقة امرها فلم تستطع

فبعد ان سار بهن القارب مسافة رأت ارمانوسة أنها قد بعدت عن المدينة فخافت التوغل في البعد لئلا ينال التمساح نصيباً ممن في القارب على علمها انه لا يتلك فريسة الا بعد الشاطئ. فأمرت ان يرجع بالقارب فادار النوتية الدفة فعادوا والضاربات قد وقفن عن الضرب فاستولى السكوت على من في القارب وكل منهن تنظر الى ما حولها من الماء والشاطئ. وتتأمل بجمال الطبيعة بتأنس سنيق

(١) شارب (٢) وكن

الضفادع وعلى وجوههنّ امارات الانبساط الاّ ارمانوسة فانها ما برحت منقبضة النفس ثابتة النظر الى جهة من جهات الشاطىء عن بعد وبربارة تسارقها اللحظ وتراقب حركاتها وسكناتها فاذا بارمانوسة قد استخرجت منديلاً من جيبها مسحت به عينيها بخفة تحاذر ان يراها احد فامعنت بربارة النظر في تينيك العينين المكحولتين بالسواد (١) فاذا بهما تتلألآن وقد تناثرت الدموع منهما بغتة

فاضطرب قلب بربارة وارادت الاستفهام منها عن السبب ولكنها امسكت نفسها خوفاً من غضب سيدتها لعلمها انها تود كتمان ذلك عن الغير ولكنها عوّلت على استطلاع سبب هذا عند عودهن الى القصر على انها اخذت تتقاذفها الهواجس اذ ليس من موجب لذلك البكاء وقد توفرت لسيدتها كل اسباب السعادة وليس في وادي النيل من هو احسن حالاً منها ولا اسعد معيشة وهي ابنة الحاكم الآمرة الناهية وكل اهل القطر في خدمتها وقد خصتها العناية بجمال وصحة وسعة عيش وقد نالت حظاوى في عيني امبراطور الروّمان حتى خطبها لابنه فخافت بربارة ان يكون سبب ذلك امرًا سرياً ذا بال

الفصل الثالث

استطلاع السرّ

فلما وصل القارب الى منف ورسا بهنّ الى جانب القصر هم الجميع وانزلن ارمانوسة وسرنَ في خدمها فمرت بين شجر الجميز والخدم بالمصابيح امامها حتى اتت باب الحديقة فوقفت برهة مسندة يدها الى احد التمثالين والتفتت الى النيل كأنها لم ترتوِ من منظره ثم دخلت الحديقة وتحولت الى بعض طرقها ففهمت الجواري انها تريد التجوال بين الازهار والرياحين قبل الصعود الى القصر فتحولن الى اماكنهنّ الاّ بربارة فرافقت سيدتها وهي لا تزال تلاحظ حركاتها وسكناتها وبعد ان مشت في الحديقة قليلاً لا تدري الى اين تسير ولا يلهيها صوت النعام السارح في حظيرة ببعض جوانب الحديقة ولا اصوات الكراكي وغيرها من الطيور السارحة في الحديقة ثم تحولتا

---

(١) وكنّسن

نحو القصر فدخلناه وسارتا توًا الى غرفة الرقاد وكانت الجواري قد اضأنها بالشموع والمصابيح وجعلن باقة من الزهور في اناء على مائدة فاخرة كانت في وسطها مصنوعة من خشب الارز صنع سوريا تفح منها رائحة زكية وهي هدية بعث بها الى والدها بعض اصدقائه الرّومانيين في صيدا(١)

فانصلنا من الغرفة الى شرفة مشرفة على الحديقة والنيل وراءها ورائحة زهور الحديقة قد ملأت الجو هناك وعلى الشرفة كرسي مجلل بالحرير جلست عليه ارمانوسة ولبثت بربارة واقفة متأدبة تنتظر امرها وتسترق النظر اليها فاذا هي لا تزال مضطربة الخاطر ولم يزدها ذلك التنزه الاَّ انقباضاً ثم تركت ارمانوسة الشرفة وتحولت الى السرير واتكأت عليه بعد ان جاءتها بربارة بثياب النوم ونزعت عنها حليها ولم تكن لابسة من الحلي الاَّ رأس الحية المرصع على رأسها واتكأت ارمانوسة كأنها تريد الاستراحة لا النوم وكانت بربارة في انتظار امرها بالخروج فلم تأمرها فلبثت واقفة تهم بمخاطبة سيدتها بشأن سبب اضطرابها ويمنعها التأدب ثم نظرت اليها فاذا هي تشاغل نظرها بما في جدران الغرفة من الصور الملونة وفيها رسوم الطيور والحيوانات وبعض الايقونات(٢) ثم حولت نظرها الى ارض الغرفة كأنها تتأمل اشكال الرسوم الجميلة المطرزة على الابسطة وهي تردد الزفرات وتتنهد خفية وقد اعياها الانقباض فلم تعد بربارة تتمالك عن البكاء لفرط حبها لسيدتها وغيرتها عليها وجعلت تمسح عينيها فادركت ارمانوسة ذلك منها فشعرت كأنها افاقت من سبات وخافت من افتضاح امرها فخاطبت بربارة قائلة

ما بالك يا بربارة ما الذي الجأك الى هذا اني اراك باكية

فتقدمت بربارة الى جانبها كأنها تحاول مغالطتها وقالت العفو يا سيدتي ما الذي يبكيني وانت من نعم الله في صحة تامة وعيش رغيد ولا يليق بي الاَّ ان اكون سعيدة طالما كنت انت كذلك

قالت ولكنني اراك تبكين

قالت كلا يا سيدتي واذا رأيت في عيني دموعا فانما هي دموع الفرح والسرور اذ كل ما منَّ الله به عليك من انعامه وبركاته انما هو مجلبة لسروري الا تعلمين ان

(١) ولكنسن وشامبليون (٢) شارب

اصدقاءك يغبطونك واعداءك يحسدونك على ما قدر الله من وقوعك موقع الاستحسان لدى مولانا الامبراطور حتى خطبك لابنهِ ولا ريب عندي انك اهل لهُ وهو اهل لك فان قسطنطين من احسن الناس جاهًا وكفاه فخرًا انهُ ابن مولانا الامبراطور وعما قليل يعود من حروبهِ مع العرب فتتم سعادتك بالاقتران بهِ

فتنهدت ارمانوسة تنهدًا خفيًا كأنها تذكرت مصائبها واسفت لما هي فيهِ من الكدر مع ما خصها بهِ العناية من اسباب الرفاه ومالت بكليتها الى مكاشفة خادمتها هذه بمكنونات قلبها لتفرج كربتها لانها كانت تثق بها كل الوثوق اذ انها مربيتها منذ نعومة اظفارها وقد اختبرت صداقتها واخلاصها ولكن الحياء غلب عليها فامسكت عن التكلم برهة وهي شاخصة الى نافذة غرفتها المشرفة على النيل وقد دخلت أشعة القمر منها ولكنها لم تتمالك عن الاجهاش للبكاء رغماً عنها

فتقدمت بربارة الى جانب سريرها وجثت على ركبتيها وامسكت يدها بين يديها وجعلت تقبلها تكرارًا ودموعها تتساقط عليها وهي تقول من هي الباكية منا يا حبيبتي اتسأليني عن سبب بكائي وانت الباكية استحلفك بالله وبابنهِ ان تطلعيني على سبب اضطرابك فقد ضاق صدري وانا ممسكة نفسي عن الاستفهام حتى عيل صبري قالت ذلك ونظرت الى سيدتها فاذا بها قد اوغلت في البكاء وجعلت المنديل على عينيها لتخفي ذلك عنها فامسكت يدها الثانية والحت عليها وقبلت يديها ثم قبلتها بين عينيها وترامت على اقدامها باكية وقالت لها استحلفك بحياة سيدي والدك ان تخبريني عن سبب بكائك ولا تخفي عني شيئًا وقد علمت شدة تعلقي بك واخلاصي لك لعلي استطيع تفريج كربتك ام انت لا تثقين بي

قالت اني واثقة بك كل الوثوق يا بربارة وانت تعلمين ذلك ولكن ليس ثمَّ ما اخفيهِ عنك وما انا باكية ولا . . . .

فقطعت عليها الكلام قائلة كفى اخفاء ومغالطة فقد عاينت منك هذا الانقباض منذ ايام وكنت اخشى التثقيل عليك بالاستفهام خوفًا من غضبك اما الآن وقد عيل صبري وصرت اخاف عليك لست كافة عنك حتى تخبريني او تطرديني من هذه الغرفة فلا أتجاسر بعد ذلك على سؤالك

فامسكتها ارمانوسة بيدها وقد همت بالجلوس قائلة حاشا لي ان اهينك بهل

ما تقولين فانك بمنزلة والدتي وأُؤكد لك انني احترمك احترام الوالدة لانك قد ربيتني منذ دببت الى ان شببت فهل اعاملك بهذه الخشونة ولكن يا بربارة ليس عندي ما اخبرك به او لعلي اذا اطلعتك عليه تضحكين مني او تهزأين بي

فوقفت بربارة وقد امسكت بيدها قائلة معاذ الله ان يصدر مني ذلك وانت سيدتي ومصدر نعمتي بل انت ولدي واعز من ولدي بل انت روحي ومجرى نفسي فلا تخشي بأساً من مكاشفتي بما في قلبك اني وحياتك كنز لاسرارك وسأكون مفرجة لكربك باذن الله فثقي بي واكشفي لي عن سبب هذا الاضطراب فقد نفد صبري

فصمتت ارمانوسة برهة ثم وقفت ودنت من الطاولة وجعلت تتشاغل بتقليب ما كان عليها من التماثيل الصغيرة وفيها تماثيل ابي الهول والجعلان من الذهب والفضة [1] ثم عادت الى السرير مرتبكة تتلاهى بتثنية منديلها بين اناملها وهي تنظر اليه وتحاول التكلم ويمنعها الحياء. فهمت اليها بربارة وقبلتها وقالت لها تكلمي يا حبيبتي لا تخفي عني شيئاً وانا اقسم لك بمريم العذراء صاحبة هذه الكنيسة (واشارت الى جهة حصن بابل حيث كنيسة المعلقة) اني احتفظ سرك في قلبي واكون لك عوناً فيما تريدين

فنظرت ارمانوسة اليها بطرف عينها وارادت الكلام فارتج عليها ثم قالت انظري الى الباب هل ترين هناك احداً من الخدم مستيقظاً ام هم نيام

قالت لا تخافي ليس من يجرأ ان يدنو من غرفتك ومع ذلك ها اني ذاهبة لتحقق الامر وخرجت والمصباح في يدها تاركة سيدتها وحدها في الغرفة

ولبثت ارمانوسة وحدها تنتظر عودتها ولكنها ابطأت فانشغل بالها واستولى عليها القلق ولما ملت الانتظار نهضت من السرير ودنت من الشرفة واطلت على الحديقة فسمعت ضوضاء وجلبة عند الشاطئ. فازداد اضطرابها فاصغت الى ما يتكلمون به فاذا بصوت رجال ولمحت عند الشاطئ قوارب عديدة وقد خرج منها نفر من الناس فأرادت ان تنادي احداً تستفهم منه عن سبب ذلك واذا ببربارة قد عادت الى الغرفة وعلى وجهها امارات البغتة

فابتدرتها ارمانوسة بالسؤال عن سبب ذلك وقالت ما سبب هذه الجلبة ومن

(۱) ولكنسن وشامبليون وماريت

(ستأتي البقية)

الهلال

الجزء الثاني من السنة الرابعة

(١٥ سبتمبر (ايلول) سنة ١٨٩٥) (٢٦ ربيع اوّل سنة ١٣١٣) (١٠ توت سنة ١٦١١)

اشهر الحوادث واعظم الرجال



الدكتور فان ديك

بلباسهِ الشرقي

الدكتور فان ديك

(تاريخ حياته ٠ اليوبيل الخمسيني)

ذكرنا في آخر ترجمة حياة الأستاذ ان السوريين احتفلوا بالعام الخمسين من دخوله بلادهم احتفالاً يوبيلياً اشترك فيهِ سائر الأقطار الشرقية العربية أدبياً ومادياً ولكي تجلي للمطالع منزلة هذا الرجل العظيم لدى المشارقة نذكر خلاصة ذلك الاحتفال

لما دنا يوم الثاني من افريل سنة ١٨٩٠ وهو اليوم الذي وطئت بهِ قدم الدكتور أرض الشام منذ خمسين عاماً اجتمعت فئة من وجوه بيروت على اختلاف مذاهبهم والفوا لجنة تجمع ما تيسر من المال لتبذلهُ في تقديم هدية لحضرتهِ دليلاً على اقرارهم بفضلهِ واعترافهم بمقدار خدماتهِ وترأس هذه اللجنة حضرة الوجيه الفاضل اسعد افندي شقير وتولى نيابتها السري الهمام عزتلو حسن افندي بيهم وعهدت امانة الصندوق الى الحسيب النسيب الامير سليم منصور شهاب والكتابة الى الفاضل مراد افندي بارودي. وقبل مباشرة العمل سارت اللجنة الى دولة الوالي اذ ذاك (عزيز باشا) واستأذنته فنشطها كثيراً ومما قالهُ لها « يسرني ان أرى السوريين يعترفون بالجميل و يقدرون خدم الرجال حق قدرها وهو دليل على تمدنهم ورقة عواطفهم ولا ريب ان سيدنا ومولانا الخليفة الاعظم يشترك مع رعيتهِ الامينة في مكافأة هذا الرجل الذي خدم الانسانية في بلاد جلالتهِ خمسين عاماً »

فعادت اللجنة وقد اشتدَّ عزمها و باشرت العمل بالاكتتاب فآنست من السوريين وغيرهم رغبة شديدة في تنشيط مشروعها وأنعم جلالة السلطان الاعظم في اثناء ذلك على حضرة الدكتور بالنشان المجيدي من الرتبة الثالثة مشاركة لرعيتهِ في اكرامهِ

وما زالت اللجنة تكاتب الجهات وتنشر اعمالها في الجرائد والمجلات حتى جاء يوم اليوبيل فاذا في صندوقها خمسمائة ليرة فتفاوضت في ماذا تعمل بها واستشارت دولة الوالي فاجمع الرأي على ان تقدم اليهِ نقداً على شريطة ان لا يبذلها في سبيل الخير كعادتهِ بل يبقيها في يدهِ بالوجه الذي يختارهُ علامة دائمة لما عند اهل الوطن من الشكر والمحبة لهُ

ولما كان صباح الاربعاء ٢ افريل (نيسان) سنة ١٨٩٠ سار اعضاء اللجنة الى

دار الأستاذ للقيام بفروض التهنئة وتقديم الهدية فاذا تلك الدار قد غصت بالوفود من المهنئين على اختلاف الأديان والنحل والدكتور وقرينته جالسان في صدر القاعة يقابلان المهنئين بما جبلا عليه من اللطف والانس فدخل اعضاء اللجنة وقدموا له عريضة مكتوبة على رق غزال تتضمن احساسات السوريين نحوه واقرارهم بفضله وتلاها الرئيس وهاك نصها

« أيها السيد الجليل الفاضل

" روت عنك أخبار المعالي محاسنًا كفت بلسان الحالِ عن الدنِ الحمدِ "

« لما علم السوريون بلوغكم نهاية السنة الخمسين منذ حضوركم الى سورية وعرفوا انكم شغلتموها بخدمة الوطن رأوا مما توجبه خدمة الانسانية اشعاركم بما في أفئدتهم من عواطف الشكر على ما لكم من الايدي البيضاء عندهم في كل هاتيك السنين ولم يفتهم انكم منذ وطئتم ارضهم نهجتم المنهج السوري حتى صرتم كأحد ابناء سورية وشربتم حبها ورغبتم في نفعها وجعلتم غاية حياتكم افادة سكانها فألفتم كثيرًا من مفيدات الكتب على اختلاف صنوفها من ادبية وعلمية وطبية وسعيتم في تشييد صروح العلم ونوادي الخير وعلاج الفقراء والمرضى فنشأ من مساعيكم واتعابكم عظيم الفوائد لشبان هذا القطر وقد صار كثيرون من تلامذتكم فيه كهولا وشاركتم بعضهم في الشيخوخة وهم جميعًا موقنون انه ما حملكم على ذلك سوى حب الانسانية بخلوص ائتنة شواهد السنين . وعلى ما ذكر اختاروا لجنة تنوب عنهم في التهنئة لكم بادراككم هذا اليوم الموافق ليوم دخولكم سورية في سنة ١٨٤٠ وفي التصريح اطيب الثناء عليكم لما سبق بيانه من مناقبكم ومآثركم . وفي سؤال المنيب الكريم ان يطيل بقاءكم ويجعل سائر ايامكم زمن راحة وسلام وفي تقديم هدية منهم على اختلاف الملل والمذاهب وهي وان تكن أمرا يسيرًا لا تقصر عن ان تكون آية ما في قلوبهم من خالص الشكر لجنابكم . وفي الختام نسأله تعالى ان لا يضيع لكم اجرا وان يجزيكم خير الجزاء . آمين »

فاجابهم الدكتور والدموع تتلألأ في عينيه من الفرح قائلا

" ليس لدي الفاظ تعرب عما في قلبي فالاجدر في قبول اكرامكم بالسكوت لانكم وهو شاهد لا تحتاج شهادته الى تزكية ومن اقوى حاسياتي اليوم اني لم افعل شيئا يستحق من حضراتكم كل هذا الالتفات واذا كان الله سبحانه وتعالى قد فسح في اجلي

حتى اقضي في هذه الديار ٥٠ سنة فلست أرى ان ادّعي لنفسي جميلاً على اني اصرّح قدام الله والناس اني اقمت بين اهل الشرق بكل نية صافية ولم اقصد غير نفع جيلي وترقيتهِ وتخفيف الاثقال على قدر الاستطاعة وهذا من فضل الله يؤتيهِ من يشاء » الى ان قال « فاقدم لحضراتكم الشكر الجزيل من صميم القلب وارجو ان تنوبوا عني في ابلاغ شكري وامتناني لكل من شارككم في هذا الاكرام ولا سيما اصحاب الجرائد الذين سعوا في المعونة على ما اجريتموه أي من الجرائد المصرية الاهرام والمقتطف والشفاء واللطائف والمقطم أما الجرائد السورية اعني لسان الحال و بيروت والثمرات والصفاء والمصباح والتقدم فلا اتجاسر ان اتفوه من جهتها بشيء لان (الناق في الجوزة) جزاكم وإياهم الله عني كل خير في الدنيا والآخرة وادام لنا مليكاً نرتع تحت ظلهِ بالامن والسلام »

ثم نهض جماعة من العلماء والشعراء وارباب المناصب العالية وغيرهم من وجهاء البلاد وتلوا القصائد والخطب في تهنئة حضرتهِ وتقديم الهدايا ومن جملة ما قدم اليهِ منها صورتهُ بالفوتوغرافية مرسومة كبيرة على صفيحة من البلور رسمها المصوّر الشهير جرجي افندي الصابونجي يحيط بها اطار مزركش جميل ومكتبة ثمينة مصنوعة من خشب الجوز وفيها تآليفهُ مجلدة تجليداً متقناً قدمها اليهِ المرسلون الاميركان في سورية وطاقم قهوة فضي قدمتهُ عمدة مستشفى ماري جرجس للروم الارثوذكس وكتاب فوتوغرافي (ألبوم) من عمدة المستشفى البروسياني وغير ذلك

(٣) أعمالهُ ومؤلفاتهُ

قضى الاستاذ العلّامة أطال الله بقاءهُ نيفاً وخمساً وخمسين عاماً في سوريا وهو (كما وصفتهُ جمعية الروم الارثوذكس) لا تنفخ في الصبح عباءهُ الا على لائذ بجنابهِ ولا تسير في النهار قدماه الا الى معونة اعدائهِ واصحابهِ. ولا يغلق في المساء بابهُ الا على منصرف مرتاح واقف في بابهِ. ولا يأوي في ليلهِ غرفتهُ الا لينكبّ على مكتوباتهِ وكتابهِ — حياةٌ امتلأت بطاعة الحداثة ونشاط الصبا ومروءة الفتوة وإقدام الشباب ومقدرة الكهولة وحكمة الشيخوخة. وهي في كل ادوارها ذكاءٌ وفطنة ودرس ومعرفة وعلم وعمل واستفادة وإفادة وعبادة لله وحبٌّ للقريب وخدمةٌ للانسانية

وزد على ذلك قيامهُ بتنشيط المشروعات العلمية والادبية فلم تقم جمعية علمية او أدبية الا كان هو المنشط في انشائها ولا انشئت مدرسة الا كانت لهُ يد بيضاء فيها

وهكذا قل عن المستشفيات والكنائس ولا يقتصر في مساعدته على التنشيط الادبي ولكنهُ يجود بالبذل والعطاء والخدمة الشخصية علمًا وعملاً لا ينظر في كل ذلك الى مذهب دون آخر او طائفة دون أخرى فهذا مستشفى القدس جاورجيوس للطائفة الارثوذكسية ببيروت فان الدكتور اوَّل من فتح جيبهُ لتنشيطهِ وقضى بضعة عشر عامًا يطبب مرضاه ويخفف أسقامهم و يلطف احزانهم برقتهِ وايناسهِ وهذه الجمعية السورية لا يذكر اسمها الاَّ مقرونًا باسمهِ فانها اوَّل جمعية تأسست في بلاد الشام وهو الواضع لاساسها اسأل جمعية شمس البر والمجمع العلمي الشرقي اسأل المجامع الدينية الانجيلية ناهيك عما افاده بعظاتهِ وخطبهِ ومراسلاتهِ بل ما قولك بما اثرهُ بقدوتهِ فان من يجاوره أو يعاشرهُ لا تلبث ان تراه قد اكتسب شيئًا من اخلاقهِ وهو لا يدري فيعكف على اكتساب العلم و خدمة الوطن ومما نذكره لهُ ونعدُّهُ خدمة كبرى ايعازه الى احد منشئي المقتطف ان ينقل كتاب سر النجاح الى اللسان العربي فان نشر هذا الكتاب النفيس بين قرائها أثر تأثيرًا كبيرًا في بعثة العلم والعمل بينهم لانهُ كتاب لم يكتب كتاب الاخلاق والاعمال على مثالهِ ولا ريب عندنا انهُ كان سببًا كبيرًا في انهاض الذين قرأُوهُ وخصوصًا الشبان فان مطالعة ما فيهِ من سير رجال العلم والعمل تثير في انفس الاحرار رغبة في الاقتداء بهم والنسج على منوالهم على ان في سيرة استاذنا ابقاه الله ما يغني عن مطالعة ذلك الكتاب

ومن اعمالهِ انهُ كان اكبر مساعد في تأسيس المدرسة الكلية السورية والمرصد الفلكي والمتربولوجي وكان دعامة اعمال المرسلين الاميركانيين في سوريا ومن اقوى اركانهم في نشر تعاليمهم و بث روح العلم والعمل بغير ان يمس كرامة طائفة من الطوائف الاَّ ما قد سيق اليهِ سوقًا مما يعد من قبيل المناظرة او المسابقة وهذا هو سبب اجماع الناس على اختلاف طوائفهم على احترامهِ وحبهِ

أما مؤَلفاتهُ فتشمل اهم العلوم الحديثة وهو اوَّل من نشر تلك العلوم بالعربية في سوريا فأَلف فيها واجاد فضلاً عما كان ينشره من قلمهِ في النشرة الاسبوعية ومما صححهُ او ترجمهُ من الكتب الدينية وخصوصًا التوراة واما مؤَلفاتهُ المطبوعة فهي

(١) الباثولوجية الداخلية الخاصة وبحث في مبادي الطب البشري النظري والعملي في مجلد ضخم

(٢) محيط الدائرة في العروض والقوافي

(٣) المرآة الوضية في الكرة الارضية طبعت غير مرة

(٤) الروضة الزهرية في الاصول الجبرية

(٥) الاصول الهندسية

(٦) التشخيص الطبي

(٧) الانساب والمثلثات المستوية والكروية ومساحة السطوح والاجسام والاراضي وسلك الابحر

(٨) اصول الكيميا.

(٩) رسالة الجدري للرازي مع ملحق بقلم الدكتور

(١٠) اصول الهيئة في علم الفلك

(١١) محاسن النبة الزرقاء.

(١٢) النقش في الحجر في تسعة مجلدات صغيرة كل منها يبحث في علم من العلوم الحديثة كالفلسفة الطبيعية والكيميا والجغرافية الطبيعية والنبات والفلك والجيولوجيا وغيرها يراد بها تعليم هذه العلوم في المدارس العالية او نشرها بين الذين شبوا وتعاطوا التجارة او الصناعة ولم يدرسوا شيئاً منها

(١٣) النفائس لتلامذة المدارس (١٤) قصة شوتبرج وبركا . وها ديوان

(٣) صفاته وأخلاقه

هو ربع القامة مع ميل الى القصر خفيف العضل سريع الحركة وقد امسى الآن شيخاً هرماً طويل اللحية والشاربين اشيبهما خفيف الشعر ولكنه ما انتك على شيخوخته طلق المحيا باشاً وديعاً لطيف الحديث رقيق الجانب لطيف المعشر او كما قيل فيه قد جمع الى حكمة الشيخوخة مقدرة الكهولة واقدام الشباب ومروءة الفتوة ونشاط الصبا وطاعة الحداثة

ومن أخلاقه حسن الطوية والاخلاص في عمله وهو السبب الرئيسي في ما ناله من الشهرة وملكه من قلوب السوريين وفي اعتقادنا ان المرء لا يفوز في عمله ولا يجمع الناس على مدحه الا اذا اخلص النية في خدمتهم ولا بلغ المراؤون

ومنها اقتداره على العمل وقد علمت ما تقدم انه عمل اعمالاً لا يستطيعها جماعة من الرجال وكان ذلك من اكبر اسباب نجاح الارسالية الاميركانية في بلاد الشام

فانها قامت بأربعة من افاضلهم امتاز كل منهم بصفات لا بد منها في قيام مشروعهم وهم عالي سميث ووليم طمسن وسمعان كلهون والدكتور فان ديك فامتاز الاول بالتأني والتدقيق والثاني بالسياسة والتدبير والثالث بالتقوى والورع وامتاز استاذنا حفظه الله بالعلم والعمل وهو يحب سائر العلوم وخصوصا علم الفلك

ومنها حرية الضمير قولاً وعملاً فهو ابعد الناس عن المداهنة والمواربة لا يحتمل الحقد ولا يطابق الاجحاف ومن اقرب الادلة على ذلك انه ترك المدرسة الكلية واحتمل ضيم فراقها وانكر ذاته وتنازل عن مصلحته الخصوصية اذعاناً لحرية ضميره فانه لم يستطع المشاركة في الحكم على شبان لم يطلبوا الا العدل والحق ومن هذا القبيل حدة طبعه في شبوبيته وحرية الضمير يغلب ان يكون حاد الطبع لعدم صبره على المداهنة والمماطلة · ومن قبيل ذلك ايضاً استنكافه من المدح وتحاشيه كل ما تشم منه رائحة الفخر

ومنها الاقدام والانجاز فانك لا تكاد تفض منه امرا حتى تراه قد باشره حالاً وهي صفة لا بد منها في قيام الاعمال ونجاح المشروعات فالاستاذ اطال الله بقاءه لا يزال حتى الآن مقصد الطلاب وملجأ السائلين والمستفيدين لا يخلو منزله من مستشير او مستفيد او ملتمس فضلاً عن مراسلات الادباء ومكاتبات تلامذته المتفرقين في اربعة اقطار المسكونة · ومن اكره الامور لديه التأجيل فهو لا يؤجل الى الغد ما يستطيع عمله اليوم ويبكر في عمله فيستيقظ باكرا ويقضي طول نهاره عاملا وقد قال انه اعتاد ذلك منذ صباه لان والدته غرست في ذهنه « ان من استيقظ باكرا ساق عمله امامه ومن استيقظ متأخرا ساقه عمله »

ومنها قوة الجأش فهو لا يهاب الاهوال وقد ربي الجالة على ذلك فكان يرسل احدهم للصيد او ركوب الخيل منفردًا وهو حوالي العاشرة من عمره وقد يبعث به الى بلد آخر ليلا ولا يخاف عليه شرًا فاذا لامته والدتهم على ذلك اجابها « أتريدين ان يتشبب اولادك على الجبن والضعف » وكان في شبوبيته يحب الخيل ويقتني الجياد منها

ومنها انه مغرم بأمرين الاول اشغاله وتآليفه والثاني اهله واولاده فهو لا يحب الدعوات الى الافراح ولا يأنس باللهو والطرب

ومنها النفور من الدَّين فهو يكره الدَّين كرهًا شديدًا وقد بالغ في ذلك حتى انه لا يلبس لباسًا قبل ان يدفع ثمنه وقد سمعناه مرة يلوم خياطة لانه ارسل الثوب اليه

ولم يرسل من يقبض ثمنهُ قائلاً « ألعلك تريد ان لا البس هذه البدلة » ومن امثالهِ « الحلاقة بالفاس ولا جميل الناس »

ومنها حبّهُ للامثال العامية والفصحى فلا يرد في حديثهِ معنى الاَّ اتى بمثل عامي ولا تسألهُ عن لفظ فصيح الاَّ اورد عليهِ شعراً فسئل كيف حفظ ذلك فقال انهُ اقتبسهُ من المرحوم الشيخ ناصيف اليازجي

ومن اهم اوصافهِ تخلقهُ باخلاق المشارقة والتزيي بزيهم واكتساب عوائدهم في الطعام والشراب واللباس وكان أثناء اقامتهِ في عبيه يلبس اللباس السوري الخاص بالامراء في ذلك العهد وهو السراويل من البفتا البيضا (العنبركبس) والمنطقة الحريرية الطرابلسية وكبران من الجوخ الازرق عليهِ تطريز بالقيطان الاسود وعلى رأسهِ طربوش مغربي ذو زر طويل (شرابة) فكان اذا مشى او ركب تحسبهُ من الامراء ولكنهُ اضطرّ الى العدول عنهُ الى اللباس الافرنجي كرهاً وسبب ذلك انهُ دعي مرة لتطبيب أحد وجهاء عبيه فركب وسار بركابهِ خادم ذلك الوجيه فاتفق في عودتهِ الشروع في الثورة التي حصلت قبل حادثة سنة ١٨٦٠ بين النصارى والدروز فرآه بعض الدروز بذلك اللباس فظنوهُ من امراء بني شهاب فهمُّوا بقتلهِ ولم ينجُ من بين ايديهم الاَّ بعد الجهد وعوَّل من ذلك الحين على اللباس الافرنجي على انهُ ما انفك ميالاً الى لباس المشارقة فيلبس في منزلهِ طربوشاً من المخمل الاسود او الازرق مطرزاً بالقصب تتدلى منهُ شرابة من القصب ويلتف بعباءة واسعة وفي صدر هذا الهلال رسمهُ بلباسهِ المشار اليهِ يدخن النارجيلاء في منزلهِ امام غرفة المطالعة وقد تخلق باخلاق المشارقة واحب اهل المشرق فالسوريون على اختلاف طوائفهم ومشاربهم يفدونهُ بانفسهم ونفائسهم أما هو فقد برهن على حبهِ لهم ببذل عمرهِ وصحتهِ في خدمتهم وما كسبهُ من اغنائهم انفقهُ على فقرائهم فخدم الفئتين جسداً ونفساً وعقلاً

وهو نقيُّ حسن العقيدة عن روية وحسن نظر لا عن تسليم وسذاجة ومن اثمن ما نطق بهِ وصيتهُ لنجلهِ الفضال المستر ادوار اثناء زيارتهِ لهُ في اواخر العام الماضي وهي « أحذر ان يخدعك احدٌ فيسلبك اعتقادك في مبادئ الديانة المسيحية فانها الركن الوحيد الذي يمكننا الاعتماد عليهِ في مصائبنا وامراضنا وشيخوختنا أما ما وراء تلك المبادئ مما هو موضوع اختلاف اللاهوتيين فكلهُ ابهام وظلمة »

الدول الاسلامية

منذ ظهور الاسلام الى الآن

(القاهرة) محمد افندي سليم

لقد شاقنا ما قرأناهُ في العدد الاخير من الهلال عن اسماء سلاطين آل عثمان الى معرفة عدد الدول الاسلامية التي نشأت منذ ظهور الاسلام الى الآن وكم هم ملوك المسلمين وما هي الدول الاسلامية الباقية فنرجو التكرّم بالافادة ولكم الفضل

(الهلال) الدول الاسلامية التي ظهرت في الاسلام يتجاوز عددها المئة وربما بلغ مئة وخمسين دولة وفيها دول العرب في الحجاز واليمن والشام والعراق ومصر والاندلس والمغرب ودول الفرس في بلاد فارس وما والاها ودول التتر والمغول في تركستان وجنوبي آسيا ودول الهند في بلاد الهند وغير ذلك من دول الاسلام مما لو اردنا التدقيق في عدها واحصائها لحال بيننا وبين ما نريد كثرة تفرعها واختلاطها وتشابه كثير منها بين الدولة والولاية ولكننا قد احصينا اشهرها في الجدول الآتي فاذا هي مائة واربع دول واكتفينا بالاشارة الى بعض الفروع وذكرنا الى جانب كل دولة كرسي ملكها وعدد ملوكها وسنة نشأتها وسنة انقضائها ليكون هذا الجدول جامعًا لخلاصة تاريخ الدول الاسلامية من ظهور الاسلام الى الآن واذا تأملته رأيت عدد ملوك المسلمين من ظهور الاسلام الى الآن زهاء الف وخمسمائة ملك وفيهم الخلفاء والسلاطين والملوك والامراء والاتابكة والخانات والشاهات تجمعهم مائة واربع دول

أما الدول الباقية حتى الآن فست وهنّ (١) الدولة العلية العثمانية وليس في سائر العائلات التي ملكت في العالم من المسلمين وغيرهم عائلة امد الله بقاءها كما امد بقاء دولة آل عثمان ابد الله ملكها (٢) الشرفاء وهم سلاطين مراكش (٣) العائلة المحمدية العلوية تحت رعاية الدولة العلية العثمانية (٤) ائمة صنعاء (٥) شاهات العجم (٦) امراء افغانستان . ولو وسع لنا المقام لذكرنا اسماء ملوك كل دولة وسني حكمهم وسلاسل عائلاتهم ولكننا نكتفي بما تقدم جوابًا على سؤالكم

جدول الدول الاسلامية منذ ظهور الاسلام الى الآن

اسم الدولة	كرسي ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هجرية	سنة انقضائها هجرية
الخلفاء الراشدين	مكة	٠٤	٠١١	٠٤٠
الاموية بالشام	دمشق	١٤	٠٤١	١٣٢
العباسية	بغداد	٣٧	١٣٢	٦٥٦
الاموية بالاندلس	قرطبة (الاندلس)	١٩	١٣٨	٤٢٢
الحمودية	مالقة "	٠٩	٤٠٧	٤٤٩
"	الجزيرة "	٠٣	٤٣١	٤٥٠
العبادية	اشبيلية "	٠٣	٤١٤	٤٨٤
المرابطين الزبريين	غرناطة "	٠٥	٤٠٣	٤٨٣
" الجهوريين	قرطبة "	٠٣	٤٢٢	٤٦١
العبادية ذو النونية	طليطلة "	٠٣	٤٢٧	٤٧٨
العامريين	تلمسان "	٠٧	٤١٢	٤٧٨
بني توجين	سرقوسة "	٠٩	٤١٠	٥٣٦
ملوك دنيا	دنيا "	٠٣	٤٠٨	٤٦٨
الناصرية	غرناطة "	٢١	٦٢٩	١٩٧
الادارسة	مراكش (افريقيا)	١٠	١٧٢	٣٧٥
الاغالبة	تونس وغيرها "	١١	١٨٤	٢٩٦
بني زيري	" "	٠٨	٣٦٢	٥٤٣
بني حماد	طرابلس الغرب "	٠٩	٣٩٨	٥٤٧
المرابطين	مراكش وغيرها "	٠٦	٤٤٨	٥٤١
الموحدين	شمالي افريقيا "	١٣	٥٢٤	٦٦٧
بني حفص	تونس "	٢٢	٦٢٥	٩٤١
بني زيان	طرابلس الغرب "	١٠	٦٣٣	٧٩٦
بني مرين	مراكش "	٣٥	٥٩١	٩٧٥

اسم الدولة	كرسي ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هجرية	سنة انقضائها هجرية
الشرفاء	مراكش (افريقيا)	٣٣	٩٥١	لا تزال
الطولونية	الفسطاط (مصر)	٠٥	٢٥٤	٢٩٢
الاخشيدية	" "	٠٥	٣٢٣	٣٥٨
الفاطمية	القاهرة "	١٤	٢٩٧	٥٦٧
الايوبية (١)	" "	٠٩	٥٦٤	٦٤٨
المماليك البحرية	" "	٣٦	٦٤٨	٧٩٢
« الشراكسة	" "	٢٣	٧٨٤	٩٢٣
العائلة الخديوية	" "	٠٧	١٢٢٠	لا تزال
الزيادية	زبيد (اليمن)	٠٩	٢٠٤	٤٠٩
اليعفورية	صنعاء الخ "	٠٩	٢٤٧	٣٤٥
النجاحية	زبيد "	٠٨	٤١٢	٥٥٣
الصليحية	صنعاء "	٠٣	٤٢٩	٤٩٥
الحمدانية	" "	٠٨	٤٩٢	٥٦٩
المهدية	زبيد "	٠٣	٥٥٤	٥٦٩
الزريعية	عدن "	٠١	٤٧٦	٥٦٩
الرسولية	اليمن "	١٧	٦٢٦	٨٥٨
الطاهرية	" "	٠٤	٨٥٠	٩٢٣
الائمة الرسية	صعدة "	١٧	٢٨٠	٧٠٠
ائمة صنعاء	صنعاء "	١٣	١٠٠٠	لا تزال
الحمدانية	الموصل وحلب الخ سوريا وبين النهرين	٠٩	٣١٧	٣٩٤
المرداسية	حلب "	٠٧	٤١٤	٤٧٢
العقيلية	الموصل وغيرها "	٠٧	٣٨٦	٤٨٩

(١) لهذه الدولة فروع كثيرة حكمت مدات متفاوتة في دمشق وحلب وبين النهرين وحماه وحمص وبلاد العرب وعددهم كلهم ٣٧ سلطاناً

اسم الدولة	كرسي ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هجرية	سنة انقضائها هجرية
المروانية	ديار بكر »	٠٥	٣٨٠	٤٨٩
المزيدية	الحلة »	٠٨	٤٠٣	٥٤٥
الدلفية	كردستان (فارس)	٠٥	٢١٠	٢٨٥
الساجية	اذربيجان »	٠٤	٢٦٦	٣١٨
العلية	طبرستان »	٠٤	٢٥٠	٣١٦
الطاهرية	خراسان »	٠٥	٢٠٥	٢٥٩
الصفارية	فارس »	٠٣	٢٥٤	٢٩٠
السامانية	الفرس وغيرها »	١٠	٢٦١	٣٨٩
خانات ايلاك	تركستان »	٢٦	٣٢٠	٥٦٠
الزيارية	جرجان »	٠٦	٣١٦	٤٣٤
الحسنويهية	كردستان »	٠٣	٣٤٨	٤٠٦
بني بويه	العراق وغيرها »	٢١	٣٢٠	٤٤٧
الكاكويهية	كردستان »	٠٣	٣٩٨	٤٤٣
السلاجقة وفروعهم	بلاد آسيا	[illegible]	٤٢٩	٧٠٠
الاتابكة البوريين	دمشق	٠٦	٤٩٧	٥٤٩
« الزنجيين	سوريا وبين النهرين	٢٠	٥٢١	٦٤١
« البكتكينيين	اربلا وغيرها	٠٣	٥٣٩	٦٣٠
الارتقية	ديار بكر	٢٥	٤٩٥	٧١٢
شاهات ارمينية	ارمينية	٠٨	٤٩٣	٦٠٤
اتابكة اذربيجان	اذربيجان	٠٥	٥٢١	٦٢٢
السلغارية	فارس	٠٩	٥٤٣	٦٨٦
المزارسبية	لورستان	١٤	٥٤٣	٧٤٠
بني خوارزم شاه	خوارزم	٠٨	٤٧٠	٦٢٨
الخانات القتلغية	كرمان	٠٨	٦١٩	٧٠٣
آل عثمان	الاستانة العلية	٣٤	٦٩٩	لا تزال

اسم الدولة	كرسي ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هجرية	سنة انقضائها هجرية
خانات المغول	زنقارية وغيرها	٢٤	٦٠٣	١٠٤٣
مغول الفرس	فارس	١١	٦٥٤	١٠٥٠
خانات العشائر الذهبية	قاراخيطاي	٤٠	٦٣١	٩٠٧
« القرم	كرمان	٤٦	٨٢٣	١١٩٧
« شاغتاي	تركستان	٢٦	٦٢٤	٧٦٠
الجليريين	العراق وغير فارس	٠٦	٧٣٦	٨١٤
المظفريين	كرمان وكردستان	٠٦	٧١٣	٧٩٥
السربداريين	خراسان	١٢	٧٣٧	٧٨٣
الكرتيين	هراة	٠٨	٦٤٣	٧٩١
القراقيونليين	اذربيجان	٠٦	٧٨٠	٨٧٤
اق قيونليين	"	١٣	٧٨٠	٩٠٨
شاهات العجم	ايران وغيرها	٣٧	٩٠٧	لا تزال
التيموريين	تركستان والتتر	١١	٧٧١	٩٠٦
الشيبانيين	"	٣٠	٩٠٦	١٠٠٧
المنجيين	"	٠٦	١٢٠٠	١٢٨٤
خانات خيوا	"	٣٦	٠٩٢١	١٢٨٩
« خوقند	"	١٧	١١١٢	١٢٩٣
الجانيين	استراخان	١٢	١٠٠٧	١٢٠٠
الغزنويين	افغانستان وبنجاب	٢٣	٣٥١	٥٨٢
الغوريين	« وهندستان	٠٠	٥٤٣	٦١٢
سلاصين دهلي	هندستان	٣٨	٦٠٢	٩٦٢
ملوك البنغال وحكامها	البنغال (الهند)	٥٥	٥٩٩	٩٨٤
« جانبور الشرقيين	جانبور «	٠٦	٧٩٦	٩٠٥
« مالوا	مالوا «	٠٧	٨٠٤	٩٣٧
« كجرات	كجرات «	١٤	٧٩٩	٩٨٠

اسم الدولة	كرسي ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هجرية	سنة انقضائها هجرية
ملوك خانديش	خانديش (الهند)	١٣	٨٠١	١٠٠٨
البهمانية	دكان »	١٨	٧٤٨	٩٣٣
الشاهات العمادية	برار »	٠٥	٨٩٠	٩٨٠
» النظامية	احمد نجر »	١٠	٨٩٦	١٠٠٤
» بريد	بيدر »	٠٧	٨٩٧	١٠١٨
» العادلية	بجابور »	٠٩	٨٩٥	١٠٩٧
» القطبية	غولكند »	٠٧	٩١٨	١٠٩٨
امبراطرة المغول	هندستان »	٣٦	٩٣٢	١٢٧٥
امراء افغانستان	افغانستان »	١٥	١١٦٠	لاتزال

﴿ الجوهر الفرد ﴾

(وهابو بالولايات المتحدة) ابراهيم افندي رحباني

ورد في الجزء التاسع عشر من هلال السنة الثالثة مقالة منقولة بالفوائد الثمينة موضوعها « المادة » وهو فرع مما كتبتموه تحت عنوان « أركان العلوم الطبيعية » وبما انني من طالبي الفوائد العلمية على طريقة سهلة كالتي تتوخونها في سائر كتاباتكم أحب الأ يفوتني شيء من فوائد مجلتكم الزاهرة وعليه أبنت في هذا السؤال طالبًا ايضاح ما اشكل عليّ فهمهُ مما كتبتموه بشأن الجوهر الفرد وهو

(١) ان التصديق بوجود الجوهر الفرد يستلزم تصوره بلا حركة داخلية كالتي تشتغل في الاجسام غير مدركة بالحواس اذ ان تلك الحركة هي من خصائص المركبات وسبب حصولها هو تغير اوضاع اجزاء الجسم . وبقولنا ان الاجسام مركبة من الجواهر الفردة يستلزم كون الاجسام المتحركة « داخلياً » مركبة من جواهر غير قابلة لتلك الحركة الداخلية وذلك كقولنا جسمٌ ملتهبٌ مركبٌ من دقائق باردة فكيف ذلك

(٢) قلتم في صفحة ١٣٧ من الجزء المذكور ان « بالرأي الجوهري يتعلل سائر ما يظهر لنا من خصائص العناصر كعدم تلاشي المادة وقابليتها للانضغاط الخ » فهل

يمتنع تعليل تلك الخصائص بقولنا ان الاجسام تقبل القسمة الى ما لا نهاية له وهلاّ يكون هذا من المسهلات لذلك التعليل وما المانع من اعتبار طالب الوصول الى نهاية تلك « القسمة » كطالب معرفة نهاية الفضاء او الوقت

(٣) قلتم في الصفحة ذاتها ان العلماء قالوا وربما رجعت كل هذه العناصر الى عنصر بسيط في غاية اللطافة هو المادة الاصلية ومن تركب جواهره بعضها مع بعض على نسب مختلفة تكونت العناصر العديدة ومركباتها المختلفة

فلنفرض صحة قولهم هذا وتتوهم ذلك العنصر البسيط فاننا بلاشك نجد ان جواهره متماثلة بسائر الصفات فهل يمكن لنا مهما اختلفت النسب ان نركب من المتماثلات غير متماثلات خذ مقدارين من الزئبق مثلاً وغير النسبة الى ما تشاء فلا يمكن لك اما تركب منها غير زئبق · فهل يقبل العقل صحة مقال السادة العلماء في هذا المقام

(الهلال) اولا · ان التصديق بوجود الجوهر الفرد لا يستلزم تصوّره بلا حركة (داخلية) بل قد جعلوا الحركة من خصائصه اللازمة فهو يتحرك حركة مستمرة تختلف نوعا ومقدارا باختلاف حال الاجسام من الحرارة والكهربائية والجمودة والسيولة والغازية وغير ذلك ولا ندري ما اوجب ان تكون الحركة من خصائص المركبات فقط والمركبات مؤلفة من العناصر والحركة ملازمة للجواهر المؤلفة منها تلك العناصر وربما كان لدقائق المركبات حركة غير حركة الجواهر فدقيقة الماء مؤلفة من جوهرين من الهيدروجين وجوهر من الاكسجين وكل من هذه الجواهر يتحرك بنفسه حركة مستقلة والجواهر الثلاثة تتحرك معا حركة مشتركة وبنسبة ذلك حركة القمر حول الارض وحركة الارض على نفسها فانهما حركتان مستقلتان ولكن الارض والقمر يتحركان معًا حول الشمس حركة مشتركة مع بقاء حركتهما الخصوصية وربما كان النظام الشمسي كله يتحرك معا حول مركز آخر وهكذا يقال في حركة الجواهر والدقائق · ثم اننا لم نفهم مرادكم بتعيين الحركة بلفظ « الداخلية »

(ثانيًا) ان القول بانقسام المادة الى ما لا نهاية لا يعلل كل ما يظهر لنا من خصائص العناصر والمركبات ولا بعضه واذا لم تسلموا معنا بذلك سألكم تعليل تركب العناصر بعضها مع بعض بنسب محدودة وزنا وحجمًا وقابلية الاجسام للتقلص والتمدد وتحولها من الجامد الى السائل والى الغاز وما معنى الحرارة الكمنية وكيف تعللون

اختلاف خصائص الاجسام مع تشابهها في التركيب وما معنى النسبة الكائنة بين خصائص الاجسام الطبيعية وخصائصها الكيماوية وترتب ذلك على هيئة سلاسل تكاد تكون محكمة النسبة بين حلقاتها

أما اعتبار تلك القسمة غير متناهية فاقرب الى انطباقه على ما نراه في ابحاثنا عن نهاية كل شيء في هذا الكون فقد رأينا في كلامنا عن المكان والزمان وغيرهما ان لا نهاية لهما ولم نستطع معرفة اوائل الاشياء ولا ادركنا غاياتها فيجدر بنا ان نحمل الرأي في انقسام المادة على ذلك فنقول بعبارة اخرى كما ان المادة لا نهاية لها في الكبر فلا نهاية لها في الصغر ولكن ذلك لا يفيدنا في تعليل الظواهر الطبيعية او الكيماوية التي اشرنا اليها ولا يخفى على حضرتكم ان القول بالجوهر الفرد فرض تصوريٌّ يراد به تعليل تلك الظواهر ولم يبلغ حد اليقين او الاعتقاد

(ثالثًا) اما اعتراضكم من حيث رجوع العناصر الى عنصر واحد وقولكم « لا يتركب من المتماثلات غير متماثلات مهما اختلفت النسبة » فمردود بما نشاهده من خصائص العناصر المعروفة مما لا سبيل الى نقضه فالكبريت يتركب مع الاكسجين على نسب مختلفة فيولد مركبات مختلفة الخصائص بعضها غاز وبعضها سائل وبعضها جامد ويتركب من الكلور والزئبق مركبان احدهما دواء وهو الكالومل والآخر سمٌّ زعاف هو السليماني على أن هناك مركبات معلومة مركبة من عناصر محدودة على نسبة واحدة تختلف خصائصها بعضها عن بعض كل الاختلاف كالنشاء والسكر وكثير من المواد الآلية

وأغرب من ذلك ان العنصر الواحد قد يكون ذا خصائص مختلفة كالكبريت على اختلاف احواله وعناصر اخرى يعرفها من عانى فن الكيمياء ولا يخفى على حضرتكم ان هذه الظواهر ايضًا لا تعلل الاَّ بالرأي الجوهري وتعليلها ان شكل العناصر وخواصها تتوقف على وضع جواهرها وترتبها بالنسبة بعضها الى بعض ففي عنصر واحد ذي حالتين مختلفتين يقال ان ذلك الاختلاف مسبب على اختلاف ترتب جواهر ذلك العنصر في احدى الحالتين عما في الاخرى كأن تكون مرتبة في الحالة الاولى على اشكال مربعة وفي الثانية على اشكال مسدسة او مثلثة او غير ذلك. فالقول بالمادة الاصلية التي يظنون انها اصل كل هذه العناصر يستلزم تعليل اختلاف خصائص العناصر

باختلاف ترتيب جواهرها ومجاميعها . اما قولكم ان مقدارن من الزئبق مهما غيرنا النسبة بينهما لا يمكن ان يتركب منهما غير الزئبق فهو غير ما نحن فيه لاننا نتكلم عن الجواهر لا عن الاجسام فاذا مزجنا قطعاً من الكبريت بكمية من الزئبق ولو مهما اختلفت النسبة فالمزيج باق وخصائص كل من العنصرين كما كانت قبل المزج اما اذا احمينا المزيج فانهُ يتحوّل الى مركب جديد يختلف بخصائصهِ عن كل من الكبريت والزئبق وتختلف خصائص ذلك المركب باختلاف النسبة بين عنصريهِ . ففي الحالة الاولى كان العمل مزجاً بين الاجسام وفي الحالة الثانية صار عملاً كيماوياً بين الجواهر

التعريب

(الناصرة) خليل افندي ابراهيم بدس

اذا عرَّب انسان رواية اوروبية فنقل معانيها الى عبارة عربية فصيحة لا يشتم منها رائحة التعريب وتصرَّف بالرواية كيفما شاء ولكنهُ ابقى الحوادث التاريخية على أصلها والاسماء كذلك لان الاعلام العربية في مثل هذه الروايات كبرقع من القماش المعروف بالالاجه في ثوب من التنتنا . وبالاختصار اذا قرأ الرواية الافرنجية وطبقها وكتبها كما جادت قريحتهُ مستعملاً الامثال العربية والازبار الشعرية واصطلاحات العرب وكلامهم فما ذا يسمى عملهُ هذا تعريباً ام تصنيفاً ام ماذا

(الهلال) كل كتاب بل كل مقالة او عبارة لا بد في تأليفها من شيئين اساسيين المعنى واللفظ والمعنى اصلي واللفظ عارض فمن نقل كتاباً من لسان الى آخر فقد غير اللفظ وهو مترجم ولا عبرة في انهُ نقل رواية افرنجية الى اللسان العربي بغير ان يشم منها رائحة التعريب لان ذلك امر واجب اذ التعريب نقل المعنى من عبارة افرنجية الى عبارة عربية لا من لفظ الى لفظ فان لم تخلص العبارة العربية من صبغة العجمة فذلك نقص في صناعة التعريب . أما ما يدخلهُ عليها من الاشعار والامثال العربية فاذا لم يغير شيئاً من معناها فالعمل تعريب ولكنهُ قد يسمى تعريباً مبرقشاً او تعريباً حسناً فاذا غير شيئاً من معناها كاختصار بعض حوادثها وحذف بعض او اضافة بعض فهو تعريب بتصرّف ولا يقال لذلك العمل تصنيفاً الاَّ اذا كان مبتكراً من اصلهِ أي ان يكون الكاتب هو الذي اوجد الفكر الاصلي ورتب سياق الحكاية

أرمانوسة المصرية (تابع ما قبله)

م هؤلاء الرّجال يا بربارة اخبريني

قالت طيبي نفساً يا سيدتي ولا تضطربي ليس هناك غير الخير ان شاء الله

قالت قولي ما سبب ذلك وما الداعي لهذه الجلبة

فقالت ان هذه الجلبة انما هي من موجبات سروري وسرورك فان سيدي والدك قد بعث جماعة من خاصته مع معدات الاحتفال ليسيروا بك الى عين شمس حيث يلاقيهم والدك فيسيرون جميعاً الى بلبيس لتقيمي في انتظار خطيبك فيأتي ويسير بك الى القسطنطينية (١)

الفصل الرّابع

قسطنطين والقسطنطينية

فاضطربت ارمانوسة عند سماعها الخبر واشتد بها اليأس حتى تناثرت الدموع من عينيها وغلب عليها البكاء فازداد تعجب بربارة لذلك وهي لا تفهم له سبباً فتقدمت اليها وقبلتها وضمتها الى صدرها وجعلت تتوسل اليها ان تخبرها بحقيقة الامر الى ان قالت الملك شعرت بالوحشة عند ما علمت بأمر السفر ومفارقة والدك ومنزلك ألا تعلمين يا سيدتي انك ستنتقلين من قصر الى قصر اعظم منه ومن بيت مجد الى بيت مجد أرفع

وكانت يد ارمانوسة على عينيها تمسح بها دموعها فلما سمعت كلام بربارة مدت اليها يدها وقبضت على ذراعها قائلة لا تذكري القصور والمنازل فان السعادة ليست في الابنية ولا في العواصم ولكنها في القلوب والعواطف دعيني يا بربارة من هذه الاوهام وعزيني بغيرها

فعجبت بربارة لذلك الكلام واستغربته ولم تفهم ما وراءه وهمت بها وقبلتها وقالت بالله يا سيدتي ان تفصحي عن حقيقة مرادك فقد اشكل عليّ فهم الواقع فهل تكرهين الاستعمار ....

(١) الواقدي

فقطعت بربارة عليها الكلام قائلة لا ليس ذلك مما يكدرني ولكنني لا اريد السفر الى بلبيس والسلام

قالت وهل تكرهينها فاخبري والدك بذلك فلا يبعث بك اليها بل يكتب الى الامبراطور ان يكون نقلك رأساً من هنا الى القسطنطينية

فصاحت ارمانوسة لا ولا احب القسطنطينية ولا ساكنيها ولا من نحن باسمها ولا احب البقاء في الدنيا من اجلها

فادركت بربارة ان سيدتها لا تريد الاقتران بقسطنطين ولكنها تجاهلت وعاودتها السؤال بالحاح وقالت لها الى هذا الحد تخفين مقاصدك عني يا سيدتي الملك لا تريدين قسطنطين . فاجابتها على الفور نعم لا أريده لا أريده لا أريده

فبهتت بربارة عند سماعها ذلك وقالت ولماذا يا مولاتي .... فقطعت بربارة كلامها قائلة لا تسأليني فاني لا أريده ولا أريده واخذت في البكاء حتى علا صوتها

فجعلت بربارة تخفف عنها وتهون عليها قائلة اذا كنت لا تريدينه فدعيه وشأنه ولا تحرقي ولا تقهري نفسك

فتنفست ارمانوسة الصعداء وقالت نعم لا أريده ولكنني لا استطيع التخلص منه ووالدي قد عقد عهداً مع والده أن يلقيني بين يديه ولا أدري غرضه من ذلك

فقالت بربارة اذا بقي والدك مصرًّا على عزمه ولم تري مندوحة للتخلص فلا ارى الاّ ان تطيعيه وانا اثق كل الوثوق انه لم يقبل زواجك به الاّ لاعتقاده ان ذلك سيكون سبباً لسعادتك اذ تكونين كنة الملك الاعظم وهي منية قلّ ان ينالها احد ولا أظن تمنعك الاّ خوفاً من التغرب والاسفار والابتعاد عن البيت الذي ربيت فيه وهذا ما تشعر به كل فتاة تنتقل من بيت الى آخر او من مدينة الى اخرى بعد الزواج اما اذا تمّ الامر وصرت كنة الامبراطور فتنسين هذا التخوف ويسكن روعك

فتنهدت ارمانوسة وقالت كيف يسكن هذا القلب وهو ليس معي فاذا سافرت الى القسطنطينية فاني اسافر بلا قلب

فلحظت بربارة انها معلقة القلب بغير قسطنطين وهذا هو سبب تمنعها عن الاقتران به فارادت استطلاع مكنونات قلبها فامسكتها بيدها وخرجت بها الى الشرفة ارادت بذلك أن تلهيها عن هواجسها ثم تعود فتستطلعها حقيقة امرها فلما اطلت على النيل

وقد انعكس نور القمر على سطحهِ حتى تلألأ كالبلور واظلال شجر البردي والنخيل القائم على الشاطئ يخال للناظر انها سابحة في ذلك الماء فلبثت ارمانوسة مدة صامتة تتشاغل بذلك المنظر وقد غرقت في بحار الهواجس لا يشغلها شاغل ولا انتبهت الى حركة القوارب الراسية هناك ولا لغط الذين جاؤا لحملها الى بلبيس أما بربارة فبقيت برهة ايضًا صامتة تنتظر ما يظهر منها وهي تتأمل حال سيدتها وتجول بافكارها وتراجع سيرة حياتها لعلها تتذكر حكاية تكشف لها هذا المعنى فلم تهتد فعادت الى حديثها فقالت وقد ارادت ان تمازحها ولكن يا مولاتي لم افهم مرادك من قولك انك تسافرين بلا قلب فاين تتركين قلبك ألا تخافين عليهِ العدو ونحن في حال حرب

فقالت لا اخاف عليهِ الحروب وكيفما كانت حالة فانهُ يكون في حال آمن من حالهِ في القسطنطينية

فارادت مداعبتها ثانية فقالت ولكن القسطنطينية آمن له واما البلاد هنا فهي بين خطرين عظيمين اذا سلمت من أحدهما لا تسلم من الآخر

فوقع قول بربارة من ارمانوسة موقعًا مهمًا كثيرًا فاحبت معرفة حقيقة الواقع فقالت وكيف ذلك

الفصل الخامس

الدعوة الى الاسلام

فلما آنست بربارة من سيدتها اصغاء ارادت استلفات انتباهها الى حديثها حتى تنسيها ما هي فيهِ ثم تعود فتستطلع حقيقة امرها فقالت هل يخفى عليك يا سيدتي حالنا مع الروم واضطهادهم ايانا وما بين سيدي والدك وبينهم من الضغائن وكم ساموا نحن الوطنيين من انواع العذاب لاختلاف مذهبي بيننا وبينهم فانهم منذ ذلك الاختلاف ما برحوا يقتلون كهنتنا وينفون بطاركتنا ويذيقوننا انواع العذاب (١) ونحن كاظمون الغيظ صابرون على البلوى وكم سمعت سيدي والدك يتمنى ان يأتينا أيٌّ كان يتسلط علينا فنتخلص من جور هؤلاء الحكام

(١) الخريدة النفيسة

فقطعت عليها ارمانوسة الكلام قائلة ولكني اعجب لشكواها وشكواكم يا بربارة فأنتم المصريين اكثر عدداً من هؤلاء الرّوم وانتم اهل البلاد وهؤلاء غرباء ولماذا لا تخرجونهم من بلادكم

فتبسمت بربارة وقالت صدقت يا حبيبتي اننا اكثر عددا ولكن هؤلاء هم اصحاب السلطة وفي أيديهم الحصون والمعاقل وهم الحاكمون ومنهم العساكر والحكام ولا تظني ان المصريين لم يحاولوا هذا الاستقلال ولكن الرّوم دولة كبيرة فكانت تبعث الينا جنودا يتغلبون علينا بالقوة [1] وانت تعلمين ان والدك اصلهُ منهم ولكنهُ يحب ابناء البلاد [2] ويميل الى الاحزاب الوطنية لانهُ يرى الحق في جانبهم . وخلاصة القول اننا كلنا ابناء هذا البر لا نقدر ان نحب هؤلاء الرّومانيين ولو همها بالغوا في اكرامنا فقد كرهتهم نفوسنا وخصوصاً لانهم اهانوا بطاركتنا ولا يزال بطريركنا بنيامين فارّاً من وجوههم ولا يعرف مقرهُ الاّ القليلون فكيف يمكننا ان نحبهم [3]

فسيدي والدك حفظهُ الله هو الحاكم على الوطنيين في الصعيد والوجه البحري كافة وكلهم يحبونهُ لانهُ يحبهم ولكنهم جميعاً يشكون جور البطريق وهو الحاكم الرّوماني المقيم في الاسكندرية مع رجالهِ وعساكرهِ وقد سمعت سيدي مراراً يتحدث عن قرب حلول الاجل والتخلص من هؤلاء . ومما احكاه مرة لرجال مجلسهِ وقد سمعتهُ خفية انهُ جاءهُ منذ بضع سنين رسول من بلاد العرب وهم يسكنون جنوبي هذه البلاد ويتكلمون اللغة العربية والرسول يحمل رسالة ترجمها الترجمان الى لغتنا القبطية فقرأها واذا هي واردة من كبير العرب وهو رجل عظيم سنّ ديانة جديدة وتبعهُ جمع غفير وكل رجالهِ اشداء اقوياء . ويقول لهُ في ذلك الكتاب ان يترك ديانة السيد المسيح ويتبع ديانتهُ هو [4] وبينا كان سيدي يقص هذه القصة استخرج الكتاب من جيبهِ واذا هو جلد جاف مكتوب بقلم غير قلمنا وهي كتابة عربية يتكلمها العرب الذين يركبون الجمال ويرعون المواشي

والخلاصة انهُ سرّ بمجيء هذا الرسول ولم يرد ان يغير دينهُ ولكنهُ بعث الى ذلك الكبير هدايا وفي جملتها ثلاث جوار احداهنّ مارية التي كانت عندك

---

(1) شارب (2) مارسل (3) المكين (4) ابن هشام وابن الاثير وابن خلدون والسيوطي والمقريزي الخ

وكنت تحبينها كثيرًا ألا تذكرينها

فقالت ارمانوسة أحقيقةً ان مارية ايضًا ارسلت في جملة الهدية فقد طالما فكرت في امرها ولم أدرِ الى ابن سارت

فقالت بربارة نعم انها ارسلت مع جاريتين أخريين هدية ومعهنّ ايضًا كمية من العسل الذي كانوا يحملونهُ الينا كل سنة من مدينة بنها [١] وأجابهُ انهُ لا يستطيع ان يسلمهُ البلاد بدون امر صاحبها هرقل ملك الرّومانيين وهو في القسطنطينية

وبعد ان أتمّ سيدي قصتهُ اخبرهم انهُ يفضل ان يستولي العرب على هذه البلاد ونتخلص من هؤلاء الظالمين وسمعت جميع الحاضرين يصوّبون كلامهُ ولكنهم أصرّوا جميعًا على ان لا يغيروا مذهبهم في الدين [٢]

وقد مضى على ذلك عدة سنوات فمنذ بضعة أشهر أتاه رسول سرّي رأيتهُ انا قدم في قارب وعليهِ لباس البدو وهي الشملة قد التف بها وثوب ملفوف على رأسهِ وطلب مقابلة سيدي فأذن لهُ فدخل واعطاه كتابًا ولا ادري ما دار بينهما ولكنني رأيت سيدي سافر الى الاسكندرية في اليوم التالي وطلب الى كل من رأى ذلك البدوي ان لا يذكر عنهُ شيئًا وكنت من يوم ذهابهِ وانا افكر في سبب قدومهِ ولكنني ظننتهُ جاء بمهمة خصوصية

وقد مضى على سيدي الآن بضعة اشهر في جهات الوجه البحري وفي الاسكندرية ونحن لا ندري ما جرى وما يجري وقد فهمت من بعض هؤلاء القادمين ان العرب قد قاموا من بر الشام ولعلهم يقومون الى مصر ولكننا لا نعلم من اي طريق يأتون وقد فهمت من هؤلاء الرجال ايضًا ان مولاي امر العساكر التي تحت امارتهِ ان يذهبوا مع قائدهم الرّومي المدقور الأعيرج [٣] وان يقيموا في حصن بابل القائم مقابل الجيزة في بلدة بابل وقصده بذلك ان يمنع العرب اذا وصلوا الى هنا من الوصول الى هذه المدينة لانها عاصمة البلاد [٤]

وكانت ارمانوسة اثناء كلام خادمتها مصغية كل الاصغاء وعلى وجهها امارات الوجل فلما وصلت الى قولها وامر العساكر ان يذهبوا مع قائدهم الرّومي الأعيرج علا وجهها الاحمرار بغتة ولكنها اخفت ذلك وقالت كيف تقولين ان والدي يريد أن

(١) الطبري وغيره (٢) المقريزي (٣) الواقدي (٤) تاريخ مصر الحديث

يسلمهم البلاد ويخلص من الروم ونقولين انهُ يستعد لقتالهم ودفعهم فقالت بربارة نعم انهُ يود ذلك ولكنهُ لا يقدر ان يصرح بهِ وانما هو سرٌّ في ضميره لان القوة الفعالة هنا كلها من الروم وكل جند القطر المصري منهم فاذا علموا بقصده لا شك انهم يقتلونهُ ويقتلوننا كلنا ولا يقدر ان يفعل مراده الا بالتأني والحيلة

الفصل السادس

ارکادیوس

فلما سمعت ارمانوسة ذلك صمتت لا تبدي خطاباً وكانت قد جفت دموعها وانصرفت هواجسها ولكنها عند ما ذكرت بربارة الحصن والأعيرج عادت هواجسها اليها وعاد الانقباض الى وجهها وقالت بلهفة وهل اتى الاعيرج الآن الى الحصن

قالت نعم اظنهُ قدم ومعهُ كل رجالهِ

فقالت ارمانوسة كل رجالهِ واولاده

قالت لا اعلم وربما كان ذلك ولكن ما ذا يهمنا من اولاده لا ابقاه الله ولا ابقى اولاده فانهم يستوجبون النار

فامسكتها ارمانوسة بيدها وقالت بالله عليك لا تلعني ولا تسخطي وترقرقت الدموع في عينيها

فعجبت بربارة لهذه المظاهر ولكنها حملتها على اضطراب الفتاة من الخوف وانها ابت اللعن تورعاً لكيلا يصاب والدها بسوء فقالت لها الا تجوز اللعنة على القوم الظالمين يا ولدي

قالت هي انها تجوز ولكن .... وصمتت وهي تبكي

فقالت بربارة ما بالك تبكين يا سيدتي وما الذي حملك على البكاء ونحن لم نكد نصدق انك كففت عنهُ

فتنهدت الفتاة تنهداً عميقاً والقت بنفسها على صدر بربارة وقد خارت قواها واخذ منها الهيام مأخذاً عظيماً ثم تحولت الى الغرفة وهي تقول انا وقيعة بك يا خالتي دربي

رأيك وأكتمي امري وساعديني في مصيبتي فان كانت حالتي تستحق البكاء قبل حكايتك هذه فانها الآن تستوجب النوح والندب آه من هذا القلب آه ..لك يا اركادبوس

فهمت بها بربارة وضمتها الى صدرها وقبلتها ومسحت دموعها وعرقها المتساقط من جبينها واخذت تهون عليها ولكنها فهمت من خلال ذلك ان الفتاة مولعة باركادبوس ابن الاعيرج الروماني وهو شاب جميل شجاع يحبه كل من عرفه وكان احياناً يأتي لزيارة المقوقس مع ما بين هذا وسائر الرومانيين من التنافر ولكنها تجاهلت وعادت فضمت ارمانوسة الى صدرها قائلة مرحباً بك يا سيدتي وحبيبتي وولدي اني رهينة امرك قولي ما بك واشرح حالك ولا تخافي على سرك فقد قلت لك مراراً ان هذا الصدر خزانة اسرارك وهذه الحواس كلها مستعدة للقيام بخدمتك لا اراك الله ضيماً

فجلست ارمانوسة على مقعد وتناولت المنديل بيدها ومسحت عينيها ووجهها وارسلت شعرها الى الوراء وكان قد استرسل على خديها عند ما ترامت على مربيتها ثم اجلست بربارة الى جانبها ونظرت اليها بطرف ذابل قد تكسرت اهدابه من البكاء وغلب عليها الحياء وقالت ماذا اقول لك وحالي ظاهرة مع مبالغتي في اخفاء حقيقتها عنك ..آه من الحب ما احلاه وما امره

فامسكتها بربارة بيدها واخذت نفسها قائلة قولي يا حبيبتي ليس في الحب عار وقد قلت لك انك بمنزلة ولدي وقد ربيتك وعقدت النية على خدمتك الى آخر حياتي

فتنهدت ارمانوسة واسندت راسها الى كتف بربارة برهة صامتة ثم قالت لها اني قد وقعت في شراك الحب ولكن لا سبيل الى بلوغ مرامي لاني احب من هو عدو لوالدي كما تظنين انت من قبلك .اني احب حبيبي اركادبوس بن الاعيرج فكيف لا اندب نفسي وانوح على صباي وانا مقتولة حباً لا محالة

فقبلتها بربارة وجعلت تخفف عنها قائلة لا تيأسي يا ولدي من نعمة الله فانا نصيرة لك ولحبيبك الى الممات اما انت فبالغة مرامك باذن الله فلا تخافي وعلي تدبير هذا الامر فكوني براحة ولا تجزعي

فانتعشت ارمانوسة وصاحت قائلة اصحيح ما تقولين هل تسمح الايام لي بذلك آه اني اذا نلت مرامي اكون اسعد فتاة على وجه هذه البسيطة والا فانا اشقى خلق الله

فقالت لها لا سمح الله بما يضرك كوني مطمئنة وتمسكي بالصبر الجميل وانا الضامنة

لما تريدين ولكن اخبريني كيف عرفت هذا الشاب وكيف علقت به وهل هو يحبك مثل حبك له

فتأوهت أرمانوسة وقالت لا تسألي عما جرى كيف جرى وإنما هذا هو الواقع أما حبه لي فلا اشك به وربما كان عنده ضعف ما عندي وقد عرفت ذلك جيدًا فدبري الامر بحكمتك لا حرمت من معونتك

فقالت بربارة سكني روعك الآن ولنعمل الفكرة في وسيلة توصلنا الى المرام فدعي عنك هذه المخاوف وهلمّ الآن الى الفراش فقد آن وقت الرقاد وفي الغد نرى ما يتم

فقالت ارمانوسة من أين يأتيني الرقاد وانا في هذه الحال ولكنني سأذهب الى فرشي التماسًا للراحة وإنما ارجوان تحققي اذا كان اركاديوس في جملة من دخل الحصن مع المدافعين أم هو باق في الاسكندرية او في مكان آخر لنرى ما ذا يكون من أمره وامرنا وامر والدي وذلك الخطيب آه منه

فقالت طيبي نفسا وقرّي عينا والاتكال على الله . أما والدك فلا تعارضيه واذهبي الى بلبيس كما اراد هو وسترى كيف ينتهي الأمر ولا تظهري شيئًا من نفورك لئلا يزداد الخرق اتساعا

فقالت ارمانوسة كيف استطيع الرضوخ لهذا الحكم الجائر ام كيف اذهب وانا إخشى ان لا اعود اما اذا تحققت وقوعي في ذلك الشراك فلا ارى لي خلاصا الا بالموت . قالت ذلك واخذت في البكاء

فضمتها بربارة الى صدرها وجعلت تطيّب خاطرها وتعدها انها تتعهد بانقاذها من كل شر مخافة وأن تدبر ذلك بنفسها وكانت ارمانوسة شديدة الاعتماد عليها فوافقتها وذهبت الى فراشها

ولما خلت بنفسها عادت اليها هواجسها ولم تستطع الرقاد تلك الليلة الا قبيل الفجر

أما بربارة فذهبت الى غرفتها وهي تعجب لما لاقته من امر ارمانوسة وقد خافت عليها من وطأة الحب ولا سيما وأن حبيبها من اعداء والدها والحالة حالة حرب لا تؤذن لها بالسعي كما تريد ولكنها وطنت النفس على بذل ما في وسعها خدمة لسيدتها

﴿ سيأتي البقية ﴾

الهلال

الجزء الثالث من السنة الرّابعة

(١ اكتوبر (ت ١) سنة ١٨٩٥) (١٢ ربيع ٢ سنة ١٣١٣) (٢١ توت سنة ١٦١٢)



سليم بك تقلا مؤسس جريدة الاهرام

سليم بك تقلا

مؤسس جريدة الاهرام

(ولد سنة ١٨٤٩ وتوفي سنة ١٨٩٢)

في سفح لبنان مما يلي ساحل مدينة بيروت قرية حسنة الموقع جيدة الهواء والماء كثيرة البساتين والغياض اسمها كفرشيما نبغ فيها جماعة كبيرة من العلماء ملأت شهرتهم الاسماع منهم العلاّمة اللغوي المرحوم الشيخ ناصيف اليازجي وسائر آل اليازجي والعلماء الافاضل آل شميل الكرام ومنهم في القاهرة الاصولي الفاضل امين افندي شميل وشقيقه العالم النطاسي الدكتور شبلي شميل وغيرهم من الشعراء والادباء ومن هذه القرية نبغ صاحب الترجمة المرحوم سليم بك تقلا مؤسس جريدة الاهرام

ولد رحمهُ الله في اواسط سنة ١٨٤٩ وربي في حجر والديهِ على الصلاح والتقوى وحسن السيرة وظهرت عليهِ مخائل النجابة منذ نعومة اظفاره فتلقى مبادئ العلوم في مدرسة القرية ففاق اقرانهُ فلما رأى والده فيهِ ذلك سعى في ادخاله مدرسة عبيه التي أسسها الدكتور فان ديك والمعلم بطرس البستاني كما قدمنا في ترجمة حياة الدكتور ولكن المدرسة لم تكن تقبل في صفوفها من كان دون الخامسة عشرة من عمره فاستنجد الدكتور فان ديك فانجده وتوسط في ادخالهِ فقبلتهُ المدرسة واغتفرت له صغر سنهِ بما توسمتهُ من توقد ذهنهِ واستعداده فاقام في المدرسة يتلقى علومها ومعارفها حتى اعجب اساتذتها بذكائهِ وتعقلهِ على صغر سنهِ مع سهولة في خلقهِ ولين في طبعهِ وهمة في الدرس واجتهاد في مسابقة اقرانهِ

وما زال مكبًا على كتابهِ وكتابتهِ حتى كانت سنة ١٨٦٠ فانتشبت في ربوع الشام الثورة المعلومة فاتصل لهيبها بعبيه وما جاورها فبرح المدرسة ونزل مدينة بيروت ودخل المدرسة الوطنية التي انشأها الطيب الذكر المرحوم المعلم بطرس البستاني وعكف على الدرس والمطالعة مجدًا ساهرًا حتى اصبح مثالاً بين اقرانهِ والتلامذة بالثبات والاجتهاد لانهُ كان يعمل ساعات الفراغ اعمالاً يستعين بها على نفقات التعليم شأن من يلتمس العلى بجدهِ واجتهاده

فلما أتمَّ دروسهُ تعين استاذًا في المدرسة البطريركية في بيروت يعلم بها ما اتقنهُ

و يتقن ما فاتهُ وخصوصاً الفنون العربية فانهُ كان يتلقاها على الشيخ ناصيف اليازجي وكان الشيخ رحمهُ الله معجبًا بذكائهِ وحدة ذهنهِ وكان يعتمد عليهِ احيانًا في شرح بعض الدروس على طلبتهِ دلالة على ثقتهِ بهِ وركونهِ الى صحة مباديهِ وسمو مداركهِ . ولم يمض عليهِ في المدرسة البطريركية مدة حتى صار رأس اساتذتها ووكيل اعمالها ومدبر شؤونها والف اثناء ذلك كتابًا في النحو والصرف على اسلوب مبتكر طبع ونشر وكان الاعتماد عليهِ في تلقي هذين العلمين في المدرسة البطريركية

وكان رحمهُ الله مفطورًا على حب الرفعة والسعي في طلب العلى فلما رأى انهُ بلغ من مهنة التدريس اعلى درجاتها مال الى التماس مهنة تروي مطامعهُ فلاح لهُ ان يقدم الى الديار المصرية وهي اذ ذاك في عصر المغفور لهُ الخديوي الاسبق اسماعيل باشا الذي كان يحبب الى السوريين وغيرهم من جالية الافرنج الاقامة في مصر لما يبذلهُ في صلاتهم وتنشيط مشروعاتهم وخصوصًا المشروعات الادبية فنظم قصيدة تاريخية رنانة في مدح الخديوي اسماعيل وغادر ربوع الشام قاصدًا القطر المصري حتى جاء القاهرة فرفع قصيدتهُ المشار اليها الى الخديوي الاسبق وتعرف بجماعة من اهل الفضل وذوي المناصب فقربوهُ منهم فلاح لهُ ان ينشئ جريدة عربية والجرائد العربية لا تزال الى ذلك العهد جرثومة لا تكاد تنفق عن جنينها والناس لا يعرفون من الجرائد الاَّ اسمها مع تردد الحكومة في الاذن بنشرها فقضى سنة يتردد بين مصر والاسكندرية يجاهد في الحصول على امتياز الجريدة فمنحتهُ الحكومة امتياز جريدة الاهرام سنة ١٨٧٥ فاصدرها بالاسكندرية وليس لديهِ من معدات التحرير والتحبير والنشر والطبع الاَّ ما فطر عليهِ من الثبات وحسن التصرف والاستقامة وما اكتسبهُ من العلم والاختبار مع شيء يسير من المعدات المادية فقاسى في سبيل نشر الاهرام مشقات جسيمة مع علمك باستهجان الناس اذ ذاك الجرائد لحداثة عهدها مع قلة وسائل النشر لديهِ ولكنهُ ذلل كل تلك الصعاب بثباتهِ وحسن سياستهِ ومما قالهُ لنا مرة في سياق حديث دار بيننا عن الجرائد العربية وتاريخ نشأتها قولهُ « انشأ ت الاهرام وانا عالم بما يحول دون نشرها من المصاعب فكنت اقضي النهار والليل عاملاً بدنًا وعقلاً فكنت احررها وادبرها والاحظ عملتها واكتب اسماء مشتركيها واتولى معظم اعمالها مما يقوم بهِ الآن عشرة من العمال »

وصدرت الاهرام اولاً مرة في الاسبوع ولم يستطع نشرها يومية الاَّ بعد زمن طويل وذلك انهُ بعد اصدار الاهرام ببضع سنوات اصدر جريدة يومية سماها صدى الاهرام والاهرام تصدر اسبوعياً كالعادة فلاقى في اصدار الصدى فوق ما لاقاه في اصدار الاهرام ومما يحكى من هذا القبيل وفيهِ دليل على ثباتهِ انهُ طبع من صدى الاهرام لعدده الاوَّل اربعة آلاف نسخة وزعها على نخبة اهل القطر واعيانهِ كجاري العادة في الجرائد عند اوَّل صدورها فرجعت اليهِ الاَّ بضع عشرات منها على ان ذلك لم يثنِ عزمهُ بل ما انفك مواظبًا على اصداره حتى صدر امر الحكومة بالغائهِ واقفال المطبعة لانهُ درج امرًا ساء الخديوي الاسبق فاستتر صاحب الترجمة من وجه الحكومة مدة وسجن اخوه صاحب السعادة بشاره باشا ثم توسط بعض اهل النفوذ فافرج عن المطبعة واصحابها فاصدر رحمهُ الله جريدة الوقت يومية ولكنها لم تعش طويلاً فصدر الامر باقفالها ولكنها عادت فظهرت حالاً واخيرًا استبدلها بجريدة الاهرام فصارت من ذلك الحين يومية

وما زالت الاهرام تحتفظ منذ ذلك الحين في العمل لا تزداد الاَّ انتشارًا ورفعة حتى كانت الحوادث العرابية سنة ١٨٨٢ فاضطر رحمهُ الله للمهاجرة الى سوريا كما فعل سائر نزالة هذا القطر غير المصريين فلما أُحرقت الاسكندرية اصابت النيران مطبعة الاهرام فاحرقت شيئًا كثيرًا من اعمالهِ وكتاباتهِ ومؤلفاتهِ فلما انقشعت غياهب تلك الثورة عاد الى الاسكندرية واعاد اصدار الاهرام وعوض عما فات وما زالت تصدر الى الآن وخطتها وطنية عثمانية منتصرة لفرنسا ومجاهرة بالمقاومة للاحتلال الانكليزي

وفي سنة ١٨٨٦ سافر الى دمشق واقترن بسيدة من كرام الدمشقيين اشتهرت بالجمال واللطف ثم عاد الى الاسكندرية يمارس اعمال الجريدة ويعاني تحريرها وفي سنة ١٨٩١ سافر الى فرنسا فزار عاصمتها وكثيرًا من مدنها وقراها وكان يكاتب الاهرام منها وفي السنة التالية (١٨٩٢) اصيب بالم في القلب فاشار عليهِ الاطباء بالذهاب الى سوريا لتبديل الهواء فسار ولكن القضاء المبرم كان في انتظاره هناك فقضى وطار نعيهُ في الآفاق ودفن بما لاق بمقامهِ من التجلة والاكرام ولم يخلف ذرية وكان رحمهُ الله هماماً حازماً مخلصاً مسالماً سهل الاخلاق وديعاً رقيق الجانب

ما عاشره أحد او عاملهُ الاَّ اثنى على رقة جانبهِ ودماثة اخلاقهِ وحبهِ للمسالمة ورغبتهِ في ارضاء الناس ولو تحمل منهم ضيماً او تكبد خسارة وقد كان ذلك من اهم الوسائل التي ساعدت في نشر الاهرام واقبال الناس على مطالعتها حتى بلغت ما بلغت من سعة الانتشار على اننا لو دققنا البحث في العوامل الاساسية التي ايدت الاهرام ونشرتها لرأيناها ثلاثة (١) حسن سياسة صاحب الترجمة وميله الى المسالمة (٢) نشاط سعادة شقيقهِ بشاره باشا مدير الاهرام اذ ذاك واقدامهُ وهو القائم الآن بكل مهام الجريدة (٣) مساعدة بعض ارباب المناصب العالية فانهم كانوا ينشطونها الى درجة لا تكاد تقلُّ عن حمل الناس على الاشتراك فيها فضلاً عن اشتراكات الحكومة نفسها فانها كانت تعد بالمئات

وكان حائزًا لرضاء الدولة العلية متمتعًا بانعاماتها وانعامات الدول الاخرى وبعض المجامع العلمية وحاز من الرتب العلية الرتبة الاولى من الصنف الاوَّل ونال من النياشين النيشان المجيدي الثاني ونيشان اللجيون دونور من رتبة شفاليه ونيشان الافتخار التونسي من رتبة كومندور ونيشان الشمس والاسد من تلك الرتبة ونيشان المجمع العلمي الفرنساوي من رتبة اوفيسيه وغير ذلك

وكان سليم الذمة صادق الوعد ومما يذكره العارفون من هذا القبيل ان والده توفي عن دين عليهِ ولم يكن اصحاب الدين ينتظرون الوفاء من اولاده فلما انعم الله عليهم وسهل لهم ابواب الرزق اتفق الاخوة وصاحب الترجمة في مقدمتهم على وفاء ما في ذمة والدهم من اموال الناس فسافر هو بنفسهِ الى بلاد الشام ولاقى الدائنين ودفع اليهم اموالهم

وكان محباً للاخذ بناصر الشبان الذين يلتمسون الاشغال ولا سيما ابناء وطنهِ فيبذل كل مرتخص وغالٍ في سبيل مساعدتهم ادبياً ومادياً

وكان كاتباً فاضلاً وشاعرًا مجيدًا تشهد بذلك مقالاتهُ وقصائدهُ في صفحات الاهرام وقد جمعت منتخبات اشعاره ومقالاتهِ بعد وفاتهِ وطبعت على حدة في ديوان ضخم وجمعت اقوال الجرائد وقصائد الاصدقاء ومقالاتهم في تأبينهِ ورثائهِ في كتاب آخر

باب المقالات

تاريخ الانسان

في أوائل العمران

وعدنا في الهلال الماضي ان ندرج في صفحات الهلال مقالات متتابعة في تاريخ الانسان في اوائل العمران نبين فيها ما تدرج فيهِ من الاحوال في لباسهِ وطعامهِ ومسكنهِ وتكلمهِ وكتابتهِ وعلومهِ وغير ذلك مما لا بد لهُ عنهُ في تدرجه من حالتهِ الاولى الى ما هو عليهِ الآن ويجدر بنا قبل كل شيء التكلم في نشأتهِ الاولى وكيفية تفرقهِ في الارض بقبائلهِ وعشائرهِ على قدر ما تصل اليهِ معرفتنا

(١) ما هو الانسان

عرّف المنطقيون الانسان تعاريف مختلفة لا ينطبق واحد منها عليهِ انطباقاً جامعاً مانعاً فقالوا مثلاً انهُ «حيوان ضاحك» فوجدوا بعض انواع القردة يضحكون وقالوا انهُ «حيوان اجتماعي» اي انهُ يمتاز بميلهِ الى الاجتماع فوجدوا بعض انواع الحيوان كالكراكي وغيرها تجتمع مئات والوفاً في اماكن معلومة في ازمنة معينة كانها تجتمع الى مؤتمر او مجمع سياسي او ندوة علمية · وقالوا انهُ «حيوان منتصب القامة» فوجدوا بعض القردة تنتصب مثل انتصابهِ فقالوا انهُ «حيوان صانع» فوجدوا بين انواع الحيوان ما يستطيع صنائع يعجزهو عنها فقالوا انهُ «حيوان كاتب» فاعتُرض عليهم ان الكتابة ليست في الانسان صفة لازمة وقد عاش دهوراً لا يكتب وكم من الناس اليوم يولدون ويعيشون ويموتون ولا يكتبون فالكتابة صفة عارضة وقالوا اقوالاً اخرى لم تخرج عن هذا الاعتبار فرجعوا اخيراً الى القول بانهُ «حيوان ناطق» وهو تعريف لا نرى اقرب منهُ الى الحقيقة اذا اعتبرنا النطق شاملاً للوازم التكلم من الاجتماع والتعقل وما شاكل ذلك لان الانسان من حيث تركيب جسمهِ طبيعياً وكيماوياً وبالنظر الى تناسب اعضائهِ وانواع غذائهِ وكيفية الاعمال الحيوية

فيهِ وكل ما يتعلق بذلك حيوانٌ كسائر الحيوانات لكنهُ يمتاز عنها ببعض الظواهر العارضة كما تختلف سائر انواع الحيوان بعضها عن بعض . أما النطق فلا يراد بهِ مجرَّد التكلم او التفاهم اذ قد يكون بين بعض انواع الحيوان لغة يتفاهم بها افرادهُ وما ادرانا ان نباح الكلب ومواء الهر وخوار الثور وصهيل الفرس ونهيق الحمار وتغريد الطير ونقيق الضفدع ليست لغات يتفاهم بها افراد كل نوع منها فيما بينها اذ لا يشترط في اللغة ان تكون اصواتها مقطعية كلغة الانسان انما شرطها امكان التفاهم بها . والتفاهم بين انواع الحيوان حاصل لا ريب فيهِ ولكن اصوات الحيوانات غنمية واصوات الانسان مقطعية

على ان اصوات الانسان اذا امتازت بتقطعها ففي بعض انواع الحيوان خصائص صوتية يتصر عنها الانسان كاصوات بعض انواع الطيور وبعض الهوام فامتياز اصوات الانسان بالمقاطع لا يجعلها متفردة ولا يمنع وقوع التفاهم بين سائر انواع الحيوان فالنطق الذي ميزنا بهِ الانسان هو غير اللفظ وربما صح تعريفهُ بانهُ القوى الخاصة بالمتكلمين او هي القوى المنطقية التي يدركون بها الاحكام المنطقية كالقياس والبرهان وما جرى مجرى ذلك على اننا لانستطيع الجزم بان الحيوان الاعجم خلوٌ من هذه القوى او بعضها او ما يقاربها او يشاكلها ومن رأي بعض العلماء ان القوى العاقلة في الحيوان انما تختلف عن القوى العاقلة في الانسان بالمقدار وليس بالنوع اي ان للحيوان عقلاً كعقل الانسان ولكنهُ يختلف عنهُ بالكمية فقط كأنهم يقولون ان عقل الحيوان قد يبلغ مبلغ عقل الانسان وهو قول العلماء الطبيعيين ولا سيما القائلين بالارتقاء الطبيعي انصار المذهب الداروبني وأما علماء العقليات والادبيات فعندهم ان عقل الانسان يختلف عن عقل سائر انواع الحيوان بالنوع وليس بالمقدار وبعبارة أُخرى ان عقل الحيوان مهما ارتقى لا يمكنهُ ادراك عقل الانسان . ولا يزال الخلاف قائمًا بين الفئتين وربما وجدت فئة ثالثة تقول غير قوليهما

(٢) متى وجد الانسان الاول واين وكيف

في الاصحاح الاوَّل من سفر التكوين حكاية الخليقة بابسط عبارة وهي اقدم المصادر التاريخية القائلة في كيفية وجود الارض وما عليها وبمقتضى تلك الحكاية خلق الله الارض وما عليها بستة ايام منذ ستة او سبعة آلاف سنة على ان العلوم

الحديثة وخصوصاً علم طبقات الارض (الجيولوجيا) مع تأييدها تعاقب خلق الموجودات كما ورد في سفر التكوين قد قالت ان تكوُّن الارض وما عليها لم يتم الاَّ بآلاف الآلاف من السنين منذ آلاف الآلاف من السنين كما قد تقدم في كلامنا عن الزمان من اركان العلوم الطبيعية في هلال السنة الماضية ولكنهم سعوا في تطبيق الحقائق العلمية على النصوص الدينية فعكفوا الى التأويل فقالوا ان المراد بايام الخليقة الستة ادوار او دهور يتناول الدور منها آلافاً من السنين وهم انما عدلوا الى هذا التأويل اذعاناً للاحكام العلمية بقطع النظر عما هو في امكان الخالق جل وعلا فانهُ القادر على كل شيء ولا يستبعد على قدرتهِ خلق الكون برمتهِ بلحظة واحدة ولكنهم انما ينظرون في موجودات هذا الكون واحكامها نظراً علمياً مؤيداً بالادلة العقلية والشواهد الطبيعية فلا يصح دفع اقوالهم بمجرد ايراد النصوص الدينية

ومثل ذلك يقال في كيفية خلق الانسان ففي النصوص الدينية ان الله سبحانهُ وتعالى جبلهُ من تراب ونفخ فيهِ نسمة حياة والعلم يقول بمرور القرون المتطاولة قبل ان بلغ الانسان حالتهُ المعروفة من التكوين البدني والعقلي ووجه التطبيق بين القولين ان المراد بالنص الديني بيان اصل الانسان انهُ تراب وفيهِ روح حية والعلم يؤيد ذلك فالانسان كيفما كانت خلقتهُ فهو تراب وفيهِ روح حية هي الحياة التي حارت العقول فيها كما قدمنا في باب الحياة من اركان العلوم الطبيعية وفي مكان آخر

أما المكان الذي وجد فيهِ الانسان الاوَّل فتابع في ابهامهِ لما قدمناه على اننا قد نستطيع النظر في ذلك نظراً اقبل للبرهان واجلى للبصيرة والمرجع فيهِ الى التاريخ وآثار الامم ومراقبة اصناف الناس وكيفية تفرقهم في الارض والنظر في لغاتهم واخلاقهم وعوائدهم وصنائعهم وادبائهم وسائر احوالهم نظراً تحليلياً مما يستدل بهِ على جامعة تجمع اصناف البشر وتدل على كيفية تفرعهم ومن لوازم النظر في مكان وجود الانسان البحث في هل كان اصلهُ واحداً او اصولاً متعددة اي هل تسلسلت اصناف الناس من انسان واحد او اكثر

فيؤخذ من المصادر التي تقدم ذكرها ان الانسان تسلسل من اصل واحد وُجد أولاً في قارة اسيا بين العراق العربي وارمينيا وهي البقعة المعروفة بما بين النهرين وهو قول يؤيد حكاية الخليقة ويطابق نصوص التاريخ فان مملكة بابل التي قامت

هناك من اقدم ممالك الدنيا وارض شنعار التي سكنها الانسان بعد الطوفان واقعة هناك وجبل اراراط الذي استقرت عليه سفينة نوح واقع في ارمينيا · ومن هذه البقعة نزح الناس افرادًا وعائلات وقبائل الى سائر جهات المعمورة · ويؤخذ من نصوص التوراة ان الناس تفرقوا في الارض بعد الطوفان نهم كلهم من نسل نوح · واولاد نوح ثلاثة سام وحام ويافث فالبشر الآن يرجعون في اصلهم الى هذه الاصول الثلاثة وقد بحث العلماء في أصول الامم القديمة والحديثة وعلاقتها بكل من هذه الاصول الثلاثة فوجدوا بالاجمال ان اهل افريقيا من نسل حام واهل اسيا من نسل سام واهل اوربا من نسل يافث اما عند التخصيص والتفصيل فيقال ان نسل حام عمروا الاراضي المحدقة بالنيل من منشاه الى مصبه ويرجعون في انسابهم الى سبا وفوط ولوديم وفتروسيم وكفتوريم ومصرايم ونفتوحيم ولهابيم وكسلوحيم · وسواحل سوريا وهم الفلسطينيون والكنعانيون واهل حماه ويرجعون في اصلهم الى كنعان وفلسطيم وصيدون وحمات · وسكان العراق قديمًا ومرجعهم الى نمرود وسكان غربي شبه جزيرة العرب من الجنوب ويرجعون الى ددان وبعض اهالي جنوبي تلك الجزيرة ويرجعون الى سبتة وحويلة وشبا

واما نسل سام فقد سكنوا ما بين النهرين وهم الاشوريون ابناء اشور وسكان ما وراءها من أعالي سوريا وهم الاراميون واللوديون من نسل ارام ولود · والفرس وهم من نسل عيلام وبعض اهل اسيا الصغرى في شماليها فيما هو الآن بلاد سيواس وهم من نسل مشيش واهالي اواسط بلاد العرب فيما هو اليمامة ونجد وهم من نسل عوص وقبائل جنوبي بلاد العرب فيما هو اليمن وحضرموت والحجر وتهامة والحجاز ويرجعون الى يارح وسبا وحضرموت واوزال واوفير وشالف ويقطان وحويلة وسكان ما يلي برزخ السويس بين سوريا ومصر وهم من نسل عابر

واما يافث فنسلة منتشر في معظم اسيا الصغري وتركستان وبلاد مادي وارمينيا ورومانيا وبلاد اليونان والرومان وسائر بلاد اوربا وقبرص وهم يرجعون في انسابهم الى مادي وتوجرما واشكناز وتوبال وبوان ومأجوج وترشيش وكتيم ودودانيم وأليشة وتيراس وجومر · هذا ما يؤخذ من نصوص التوراة وما يستنتج من بعض الآثار الكتابية وغيرها غيران الامم قد اختلطت بعد ذلك حتى لم يكن الحكم

في مرجع كل امة

وترى من جهة اخرى ان جانبًا كبيرًا من امم الارض لم يرد ذكره هنا والسبب في ذلك اننا انما اشرنا الى ما يستنتج من نصوص الكتاب ولم يرد في الكتاب ذكر الصين او الهند او اليابان او استراليا او اميركا او غير ذلك مما لم يكن معروفًا قديمًا فسكان هذه الاماكن يمكن ردهم الى ما يقرب منهم من الامم المعروفة وللعلماء ابحاث طويلة في معرفة اصول هذه الامم وادلتهم على ذلك اكثرها يتعلق باللغة وانواع العبادة والعوائد وسيرد تفصيلها في كلامنا على تاريخ كل من هذه الامور في حينو

وخلاصة القول ان الانسان وجد اولاً في اواسط اسيا ومنها نزح الى سائر اقطار الارض واخذ يؤسس الممالك ويبني المدن ويهيء اسباب العمران حتى بلغ ما هو عليهِ الآن



التمدن والمشدّ

حضرة الفاضل منشىء الهلال الاغر

قال أحد فلاسفة هذا العصر ان الحضارة قد بلغت في المغرب اوجها وادركت منتهاها وفي زعمهِ انهُ لا يمضي زمن طويل حتى تأخذ في التقهقر فتعود تلك البلاد رويدًا رويدًا الى حالتها الهمجية الاولى . واسند قولهُ هذا الى ما جلبتهُ الحضارة من الحيف والمضار على النوع الانساني مما يدل على انقلابها ودنو اجلها وبرهانهُ على ذلك قياسي وذلك ان كل امر يحدث في الكون يمر في ادوار اشبه بادوار الحياة فاذا بلغ منتهاه من الارتقاء يعود فيأخذ في التقهقر حتى تعمل بهِ يد الاضمحلال فيزول تمامًا فالانسان مثلاً يبتدئ بدور الطفولية ويتدرج منها الى الشبيبة فالكهولة ومنها يأخذ في التقهقر تدريجًا الى الشيخوخة فالهرم الى ان يضمحل . وعلى ما ارى ان ذلك القول حق اذ لا يخفى على المراقب المختبر ان المضار الناتجة عن التمدن آخذة في الزيادة

وسرعة الانتشار يوماً فيوماً حتي لحق بعضها بشرقنا ولا تلبث ان تنشب اظفارها في كل بقعة ارتقت فيها الحضارة . وانواع تلك المضار كثيرة لا اقصد البحث فيها لان ذلك يستدعي فصولاً ضافية مما تقصر عنهُ هذه العجالة انما المراد الكلام عن واحدة منها وهي استعمال المشد (Corset)

المشد جزء مهم من ثياب النساء الافرنجيات والمتفرنجات تشد بهِ المرأة خصرها لتخفي غلظهُ الطبيعي او تكسبهُ نحولاً اصطناعياً يروق منظره . ولفظة مشد التي يسمي بها السوريون هذا الحزام ينطبق معناها على المراد منهُ تماماً على ان البعض يطلق عليهِ كلمة كورسه وهي اسمهُ الافرنجي كما ندعو اكثر الاشياء الدخيلة علينا من المغرب ولم يكن يعرفها آباؤنا واجدادنا باسمائها الافرنجية

والمشد حديث العهد يقال ان السبب في استنباطهِ ان امرأة افرنسية ذات جمال فتان وقوام عادل يضرب بها المثل داهمها السمن فغلظ خصرها وحط من قدر حسنها فعيرتها رفيقاتها المناظرات لها في الجمال فعملت بها الغيرة فاخذت تشد خصرها بحزام عريض لتكسبهُ شكلاً حسناً فنجح عملها وكفت رفيقاتها عن تعييرها وقد اعجبت حيلتها هذه كل غليظات الخصور ومحبات العقول اللواتي سمعن بها فحذون حذوها . وزادت كل واحدة في اتقان صنعهِ حتى انتهى الى الشكل الذي هو عليهِ الآن . وقد انتشر استخدام المشد في المغرب بسرعة كلية وعمَّ كل البلاد التي دخلها الافرنج حتى اصبحت تلك الآلة الضاغطة في ايامنا هذه من أهم لزوميات النساء والبنات الافرنجيات والمتفرنجات تلبسهُ غليظات الخصر ونحيلاتهُ على حد سواء وكل منهن تبالغ جهدها في زيادة الضغط لتحرز المقام الاوَّل في رقة الخصر وقد يأخذك العجب اذا وجدت بين رهط من لابسات المشد ما تراه من رقة الخصر وضخامة الصدر والاوراك فيخال لك ان المرأة نحلة مجسمة يكاد خصرها ينقد ان هي حاولت الانحناء فتتذكر حينئذ قول الشاعر

ومخصرها هيفٌ يزينهُ فاذا تنوء يكاد ينقدُّ

والغريب ان بعض النساء اعتدن لبس المشد منذ الصغر فلا يكتفين بلبسهِ في الاندية والاحتفالات التي تستدعي اتقان الملبوس بل يلبسنهُ اينما كنَّ حتى في بيوتهنَّ ومن النساء من تلبسهُ منذ قيامها من النوم ولا تبدأ عملاً بدونهِ واغرب من هذا وذاك ان من المتفرنجات من يتعذر عليها الرقاد اذا خلعتهُ فهي تلبسهُ نهاراً وليلاً ولا تنزعهُ

الاّ اذا انسخ فتبدله بآخر نظيف كما تفعل بباقي ثيابها الضرورية فتأمل

واذ قد عرفت ما هو المشد والسبب الذي وجد لاجلهِ اعرني اذنًا صاغية فاذكر لك الاضرار التي تنتج عن استعمالهِ فاذا امعنت النظر في لابسة المشد تحققت انهُ ضاغط بكتنف قسمين من جسمها أعلى البطن وأسفل الصدر وهما يحتويان اعضاء التنفس الرئيسية في حفظ الحياة وهي القلب والرئتان والكبد والمعدة والامعاء. فتضييق المشد على هذه الاعضاء يسبب اضرارًا تختلف باختلاف العضو الذي انهكهُ الضغط واضعف عملهُ. فوقوع الضغط على الرئتين يضعف حركتهما فينتج ضيق النفس والخفقان وقد يضعف نموها في الفتيات اللواتي يستعملن المشد قبل ادراك سن الحلم مما يأول احيانًا الى الهزال والنحول وربما ساقهن الى داء السل لعجز الرئتين عن القيام بوظيفتهما وهذه حقائق لا ريب فيها اثبتتها دقة الباحثين ونباهة المراقبين من اطباء عصرنا الذين لا يسعنا الاّ الرضوخ لما يقولونهُ. اما القلب فتضعف حركتهُ من شدة الضغط فيعتري الامرأة خفقان شديد ويتعب القلب من الجهاد في العمل للمحافظة على نظام الدورة الدموية التي تتوقف الحياة عليها. واذا طالت مدة الضغط عجز القلب عن المقاومة فتختل حركة الدورة الدموية وتصبح الحياة على شفير هار. ووقوع الضغط على الامعاء يعيق سير المواد الغذائية فيها وربما نتج عن ذلك امساك شديد يكثر حدوثهُ في لابسات المشد. اما المعدة فيقع عليها معظم التضييق لوجودها في منتصف الخصر فيضعف عملها وبعض النساء اذا لبست المشد لا تقوى على تناول اسهل الاطعمة هضماً ومتى تكرّر عسر الهضم نشأت النزلات المعدية الحادة التي لا تلبث ان تصير مزمنة وهي من اقبح الامراض لتعذر شفائها. والكبد لا يصيبهُ اقلُّ مما يصيب المعدة لوقوعهِ في جوارها فتكثر فيهِ الاحتقانات وربما لحقهُ من استمرار الضغط ضمور او انحراف فقد ذكر احد المشرحين انهُ شاهد في جثث نساء افرطن من لبس المشد في حياتهنّ آثار الضلوع مرسومة في الكبد على شكل خطوط قنوية غائرة في سطحهِ. وفي جسم الامرأة عضو آخر مهم غير التي ذكرتها يضرُّ بهِ فعل المشد وهو الرحم لا سيما مدة الحبل حيث يقع الضغط عليهِ مباشرة فينتج عن ذلك اضرار جمة اهمها الاجهاض والانزفة والانقلابات الرحمية. ثم ان المشد اذا استعمل منذ الحداثة يعيق نمو الثديين ويغير شكلهما فتغور الحلمة وتفقد وظيفتها فيتعذر الارضاع بها بعد الزواج لقصور

الطفل عن التقاطها ولا يخفى على ذوات الحملات الغائرة من عرائس ايامنا ما ينتج عن ذلك من الصعوبة في ايجاد طريقة لارضاع المولود واخرى للتخلص من احتقان الثدي

هذه هي بعض اضرار المشد مشروحة بلا غلو ولا مبالغة وأُوجِّه الكلام الآن الى الجنس اللطيف علهنّ ينبذن المشد جانباً مكتفيات بما اعطين من الجمال الطبيعي تاركات التجمل الاصطناعي على اني لم آت بما تقدم الا حباً بالنفع العام وخلاصة ما يقال ان الجمال الحقيقي لا يتم الا بالصحة الجيدة والمشد مضر بالصحة والسلام

(القاهرة) « الدكتور شدودي »

الوقت

حضرة الفاضل منشىء الهلال الأغر

الوقت كنز سريع النفاد تسلمه الكل وهو يفيض على الكل والكل ينفقون منه غير مراعين جانب الاقتصاد فلا حريص عليه ولا ضنين بل هو طريق الحياة نسير فيه قاطعين مسافات الايام ومراحل العمر حتى اذا انقضى الزمان وقربنا من نقطة الانتهاء ندمنا آسفين ورمنا للرجوع سبيلاً ولكن هيهات فقد كان ذلك مستحيلاً . بل هو في الحقيقة عين الوجود ومظهر الحياة لكل موجود والكثيرون لا يشعرون

كلنا نعلم ان الوقت ثمين ولكننا ننفقه بايدي التعمد ونفرط به كل تفريط بل نعرضه للفقدان ونبيعه باخس الاثمان او نفتش عمن يضيعه لنا حتى غدا ذلك من أهم شواغل حياتنا فاذا ظفرنا به كنا فرحين . كلنا نقدر الدراهم حق قدرها ونحرزها ونضنُّ بها ضناً بليغاً غير انا لسوء الحظ نسخى بوقت طويل نقضيه مع الغير او لاجل الغير ونفادي به جزافاً او نكون شاكرين لمن يسلب منا وقتنا او يجعلنا ان ننفقه ونحن غير مشعرين كان الوقت حملٌ ثقيل اتعب كاهل الجميع فهم يبغون منه خلاصاً ويتفننون متسابقين لايجاد الاسباب التي تؤدى الى افنائه وما هذا الا من ضعف الانسان

تمرُّ الايام وتتوارى السنون وراء حجاب العصور ولا يبقى منها في مخيلتنا الا ذكرام الحوادث التي مرَّت علينا بها وهو ذكر ضعيف مأثور كذكر باقي الحوادث

التي نقرأها في عالم التاريخ ونحن لا نعرف من سابق ايام حياتنا منذ نشأتنا في عالم الوجود الاّ اللحظة التي نحن فيها واما ما مضي من العمر فقد غاب في عالم الاجيال ولم يبقَ له الاّ تأثير ضعيف في حالة كل فرد منا تبعاً لاهميتهِ واعمالهِ فيها . نذكر ونفتخر انهُ كان ثمة ما يوجب الذكر والافتخار اذ كل فرد يأتي الى مسرح الوجود ليشخص دوراً ثم يمضي ليأتي غيره وهكذا لا نزال متعاقبين . ولا شك ان اهمية كل واحد تكون بالنسبة للدور الذي يشخصهُ ان كان في العلم او في السياسة او في الشجاعة او في الصناعة او الاختراع او غيرها وفي نفس هذا المرسح نرى صورة الامم المتقدمة والشعوب الغابرة ورجال العالم العظام ومشاهير الاولين الى ان يأتِ يوم لا نكون به من المشخصين لان سرعة عظيمة تدفعنا دوماً الى نقطة الانتهاء فلا نزال نسير مدفوعين . ومع هذا فنحن نبدد ما يفيض لدينا من الوقت ونضيع فرص الزمان عبثاً بل نقضي الايام واحداً بعد آخر املاً بمجيء الغد وما يليهِ كاننا ننتظر بتمضية الايام فرجاً وما في ذلك من فرج بل هو العمر يمضي ونحن غير منتبهين مما يدل على ان الناس قد اساؤوا استعمال الوقت ولم يقدروهُ قدرهُ وما كانوا لعمري بمنصفين . نرى كثيرين يقضون الاوقات في اللهو والمسرات فيجهدون النفس لايجاد ساعة بالطرب يحبونها وفرصة للذات يغتنمونها حاسبين ان سعادة الحياة قد انحصرت بهذه الغاية وآخرين يقضون الايام بين المشاغل وسائر الامور التي يقضيها الوقت سريعاً عامدين الى قتل الاوقات عمداً وآخرين ما عرفوا قط للوقت قيمة فافنوه ويبددوه بغير هذه الاسباب والكل قد اشتركوا بالمخالفة ضد الوقت كأنهُ عدوٌّ عمومي للجميع وما هو لعمري عدوٌّ بل هو الصديق الامين الذي باحرازه نحرز المعرفة والعقل والجاه وحسن الذكر . ونحن دوماً نعزّ الايام قبل مجيئها فاذا جاءت ذممناها وان مضت اسفنا عليها فالوقت دوماً معززٌ لدينا في الاستقبال مذموم في الحاضر مأسوف عليهِ في الماضي فاعجبوا لحبيب مذموم

وأشهر رجال العالم الذين امتازوا في عالم التاريخ الماضي والحاضر بالعلم والعرفان والفضل والفخار والبسالة والاقدام والشجاعة والسياسة والصناعة والاختراع هم الذين كانوا يعرفون قيمة وقتهم فلا يضيعون منهُ لحظة عبثاً ولا يتركون دقيقة منهُ تذهب سدى وهكذا تقدموا والناس واقفون وساروا والآخرون متأخرون

فنبه الذين في رقاد الغفلة وانذر الذين بنشوة الاهمال والسكون ان يهبوا لاغتنام الوقت واكتساب فرص الزمان فهو عزيز اذا مضى لا يعود وان ابلى بالحرمان لا يجود بل كل دقيقة تمرُّ منهُ تنقص من العمر المحدود

(دمشق) « موسى صبدح »

الجرائد وواجباتها وآدابها

لم تكد تظهر مقالتنا في العدد الاول من هلال هذه السنة في « الجرائد وواجباتها وآدابها » حتى تقاطرت علينا رسائل الادباء تستزيدنا بحثًا في هذا الموضوع وتستحثنا على تعنيف الصحف المصرية ومواخذتها مرة اخرى لتهورها وتجاوزها حدود الصحافة ولو اردنا اجابة اقتراحهم لضاقت صفحات الهلال على ان حضرات الافاضل ارباب الصحف المصرية لا يجهلون تعرضهم للمؤاخذة والتعنيف بما يكتبونهُ في جرائدهم من عبارات الشتم والسباب بألفاظ تخل بأدب الصحافة عمدًا ولا تدري ما اوجب غفلتهم او تغافلهم عن تجنبها · ومن الغريب ان كل صحيفة تندد بالصحف الاخرى وتعنفها لخروجها عن آداب المناظرة وقد ترى في مقالة التعنيف نفسها الفاظًا اكثر خروجًا عن اللياقة ما تؤاخذ زميلاتها عليهِ

واغرب من ذلك ان تلك الصحف تعترف بخروجها عن حدود الصحافة ولكن كلاًّ منها تتنصل من تبعة ذلك التهور بانها انما تدافع عن نفسها وان اللوم على المهاجم فهب ان كلاًّ منها مدافع وليس فيها مهاجم فهل يسوغ للمدافع الاديب ان يجاري مهاجمة السفيه في السباب والشتم وهب ان سفيهًا من ابناء الازقة اغار عليك ظلمًا وعدوانًا وسلقك بسفاهتهِ و بذائهِ المجيبة على سبابهِ بالفاظ مثل الفاظهِ ام تسكت عنهُ وتلتمس تأديبهُ من ارباب الحل والعقد · ويسوءنا ان نعود الى الكلام في هذا الشأن ولكن كثرة الرسائل الواردة علينا الجأتنا الى الاجابة بهذه الكلمات القليلة واما رجوع تلك الصحف عن تهورها فلا نخالهُ ممكنا الاَّ بمداخلة الحكومة اذ قد بلغ السيل الربى ونخشى ان تكون العاقبة تقييد المطبوعات فنكون قد أُعطينا نعمة فاسأنا التصرُّف بها فانقلبت الى ضدها اجارنا الله من عواقب الغرور

(الهلال) لا يخرج قول الامام القزويني واقوال غيره من المتقدمين والمتأخرين في هذا الشأن عن الحدس والتخمين الاَّ ما كان منها مسنداً الى حقيقة طبيعية راهنة كاسناد ذلك الى عدد نبضات قلب الجنين كما قدمنا في الهلال الماضي ولولا ما يعترض استطلاع عدد النبضات من العراقيل التي قدمناها هناك لاستطاعوا الحكم على جنسية الجنين حكماً يقرب من الاعتقاد واما ما خلا ذلك فلا دليل علمي على صحته

﴿ الخمر ﴾

(الجديدة · شرقية) محمد بك توفيق اباظه

أرجو الافادة عن اسماء الخمر واصلها ومنافعها ومضارها واوّل من عصرها وشربها وأشهر معاملها واوّل دخولها قطرنا المبارك

(الهلال) لم نفهم مرادكم باسماء الخمر فاذا اردتم أسماءها في اللغة العربية فهي كثيرة قال بعضهم انها تبلغ الف اسم ولكننا نذكر هنا أشهرها نقلاً عما جمعهُ الامام النواجي في كتابه حلبة الكميت وهي

الخمر والراح والمدام والزرقف والعقار والخندريس والصهباء والقهوة والشراب والطلا والرحيق والشمول والحميا والكميت والمروقة والمعتقة والمشعشعة والصافية والشمولة والصرف والعتيق والعاتق والبكر والعذراء والعروس وأمّ الدهر وأُخت المسرة وابنة العنب والسلسال والسلسبيل والسكر والبنين والنضوح والعجوز والشمطاء والكليساء والدم والجريال والاسفنط والعقور والمزة والمعرّقة والمعرّق والدرياق والزنجبيل والناموز والمازية والسبا والسبية والحطمة والمصطار والمصطلق والمصفق والمصفقة والخرطوم والقطب والسخامة والعاتبة والحانية والجانية والخيلة والمطيبة والمجيبة والمازي والنشأة والمنشية والهنية والبابلية والبلسانية والمزنية والزينبية والثملية والحنية والسامرية والساهرية والمرية والمغدية والمغدبة والمسلية والسارية والمعينة والاسرة والقاهرة والخلة والنامة والذبابة والنمومة والمصرعة والطاردة والبيهمة والمقدمة والمؤخرة والنبهج والصرخد والقندبل والكسبس والزرجون والشموس والمغري والغرب والرساطون والقارص والماقع والناقع والمبهج والنسيد والسويف والصومع والمفاج والحجة والعسجد وفؤاد الدنّ وأمّ عنا وأمّ زنبق وأمّ ليلى وأمّ الخبائث والحرام

والاثم والمثلثة (وهي التي غُليت على النار حتى صارت على الثلث) والمخترمة (وهي التي عصرت بقصد الخلية) والتبع (وهو نبيذ العسل) والجعة (نبيذ الشعير) والمزر (نبيذ الحنطة) والسركة (نبيذ الذرة وهو شراب الحبشة)

أما أصلها فمن العنب وتستحضر ايضاً من كل مادة سكرية لان الاصل الفعال في الخمر الكحول وهو يتولد باختمار السكر حيثما وجد ولذلك فانهم يصطنعون خمر التمر من البلح وخمر العسل من العسل وخمر الشمندور من الشمندور وقس عليه . ومنافع الخمر ومضارها تتوقف على الكحول الذي فيها فالكميات القليلة منها مغذية ومنبهة تقوي شهوة الطعام وتنبه المجموع العصبي فتجلي الذاكرة وتقوي الذهن أما الكميات الكبيرة فتخدّر وتسكر واذا زادت سببت القيء والسبات على ان الادمان على شربها مجلبة لكثير من الامراض القبيحة كاحتقان الكبد وسائر الاحتقانات المعوية وضعف المعدة وكثير من انواع الزكامات كالزكام المعدي والمعوي وزكام المثانة وامراض الكلى والخمول العام وضعف المجموع العصبي فتضعف الذاكرة ويخمل الذهن وغير ذلك من الامراض والعلل التي يقصر المقام عن تعدادها

أما اوّل من عصرها وشربها فهو نوح على ما ورد في سفر التكوين ويؤخذ من ذلك ايضاً ان الكرم قديم جداً وربما كانت الخمر ايضاً قديمة قبل نوح ومما يدل على قدم الخمر ان الامم القديمة تنسب اختراعها الى اقدم رجالها او الى آلهتها فالمصريون القدماء ينسبون اصطناع الخمر الى اوزيريس أحد آلهتها والفينيقيون واليونانيون ينسبونه الى باخوس اله الخمر عندهم والرومانيون الى ساتورن (زحل) والصينيون يزعمون ان الامبراطور شنغ نونغ اصطنع خمراً من الارز سنة ١٩٩٨ ق م

والخمر في وادي النيل قديمة جداً كما علمت من نسبتها الى اوزيريس على اننا نشاهد على آثارهم رسوم معاصر العنب والناس يعصرونه ومن تلك الرسوم ما هو من عهد العائلة الرّابعة ونقرأ في التوراة عند الكلام على يوسف في سجن مصر ان احد المسجونَين رأى في الحلم انه يعصر خمراً وذلك نحو القرن الثامن عشر قبل الميلاد ولكن الخمر عندهم كانت عزيزة لا ينالها الاّ الاغنياء والكهنة وكانت تقدم على هياكلهم

أما اشهر معاملها فتختلف في المدن باختلاف انواعها فان الخمور قد اصبحت تعد بالمئات ولا تزال المعامل في اوربا واميركا تستحدث منها انواعاً جديدة تحت

اسم الدواء ثم لا نلبث ان نراها صارت مسكرًا يتناولهُ الناس على قارعة الطريق كما حدث بالعرقي والكونياك وغيرهما فانهما انما اصطنعا دواء لنفع الناس فاتخذوهُ مسكرًا لضررهم

أما دخول الخمر مصر فقد علمت انها قديمة جدًّا فيهِ فاذا اردتم دخولها على الصورة الحديثة بمعنى الاتجار بها وافتتاح الحوانيت لبيعها فهو مرافق لدخول الافرنج هذه الديار واوّل من اباح لهم الدخول اليها والاقامة فيها من ملوك المسلمين السلطان صلاح الدين الايوبي ولكنهم لم يكونوا يستطيعون المجاهرة بالخمرة لا بيعًا ولا شربًا أما اوّل من افتتح الحوانيت لبيعها جهارًا فجماعة من الاروام وغيرهم في اوّل هذا القرن عند دخول الفرنساوية هذا القطر وهاك ما ذكرهُ الشيخ عبد الرحمن الجبرتي بهذا المعنى وهو مؤرخ شاهد عين لتلك الايام قال في اثناء كلامهِ عن دخول الفرنساوية القاهرة وفيهِ كلام عن افتتاح المطاعم (اللوكندات) في اوّل عهدها ما نصهُ

«وكانوا (الفرنساوية) يأخذون ما يحتاجون اليهِ بزيادة في الثمن فنجر السوقة وصغروا من اقراص الخبز وطحنوا الحنطة بترابها وفتح الناس عدة دكاكين بجوار مساكنهم يبيعون فيها اصناف المأكولات مثل الفطير والكعك والسمك واللحوم وغير ذلك وفتح النصارى الاروام عدة دكاكين لبيع انواع الاشربة وحانات وقهاوي وفتح بعض الافرنج البلديين بيوتًا لصنع الاطعمة والاشربة على طرائقهم في بلادهم وجعلوا على ابوابها علامات يعرفونها بينهم فاذا مرَّت طائفة تريد الاكل بذلك المكان دخلوه وهو يشتمل على عدة مجالس بين دون وعالٍ ووسط وعلى كل مجلس علامتهُ ومقدار الدراهم التي يدفعها الداخل وفي تلك المجالس موائد من الخشب عليها الطعام وحولها الكراسي فيجلسون عليها ويأتيهم الفرّاشون بالطعام على قوانينهم فيأكلون ويشربون على نسق لا يتعدونهُ ثم يدفعون ما وجب عليهم من غير نقص ولا زيادة ويذهبون لحالهم»

الزّواج بين الاخوة والاخوات

(نيار باميركا) الياس افندي يعقوب انطون

اذا كانت الخليقة والانسان يبتدئان بآدم وحواء كما رواه المؤرخ الشهير موسى

النبي فما قول صاحب الهلال في كيفية تناسل الانسان من ذلك العهد وهل ترون ان شريعة ذلك العصر كانت تبيح عقد نكاح أخ على أُختهِ اذ المفهوم من ذلك التاريخ بانهُ لم يقم شاهد بوجود عائلة أُخرى غير عائلة آدم وحواء فكيف اذا كان هذا التناسل العظيم الذي ما زلنا نحن من بقاياه اثارًا شاهدة ناطقة بصحة عقد ذلك النكاح العجيب وان كان كذلك فكيف كانت تلك الشريعة تجيز هذا العقد الذي تمنعهُ وتحرمهُ الشرائع على اختلافها ولو كانت نفس الشريعة الوثنية وهل ترون طول زمن ذلك العهد الذي اجاز هذه المحرمات وما هي مدتهُ وهل على ذلك نصوص كتابية وفي اي جيل من تلك الاجيال تحرّم ذلك الجواز افيدونا افادكم الله

(الهلال) لا ريب في ان عقد النكاح بين الاخوة والاخوات وسائر الاقارب الاقربين كان امرًا اعتياديًا في الازمنة الغابرة قبل نزول الشريعة الموسوية واما الشريعة التي جوزت ذلك النكاح فهي عدم وجود الشريعة التي تمنعهُ أما الحامل عليهِ فهو الضرورة في اوّل عهد الانسان وقد كان نكاح آدم اوّل حامل على ذلك فانهُ تزوّج امرأة هي ضلع من اضلاعه ولحم من لحمهِ فهي أقرب اليهِ من الاخت واولاده تزوّج الذكور منهم الاناث بحكم الضرورة اذ لم يكن الزواج على غير هذه الكيفية ممكنًا واقتدى بذلك سائر الآباء بين آدم وموسى . فابراهيم تزوّج أُختهُ من ابيهِ واخوهُ ناحور تزوّج أُخت أخيهِ حاران او هي ابنة اخيهِ . ويعقوب تزوّج امرأتين اختين في وقت معًا وهما ابنتا خالهِ . وعيسو تزوّج ابنة عمهِ بنت اسماعيل . وعمرام تزوّج عمتهُ يوكابد ومنها ولد موسى النبي . ويهوذا تزوّج كنتهُ تامار ارملة ابنهِ . ولم يكن ذلك مقصورًا على آباء اليهود ولكن الامم القديمة كانت تجيز الزّواج بالاقارب الاقربين ايضًا فالاثينيون كانوا يجيزون الاقتران بالاخوات من الاب والسبارطيون اجازوهُ بالاخوات من الام والاشوريون والمصريون القدماء كانوا يجيزون الاقتران بين الاخوة والاخوات من الاب والام وهكذا يقال في كثير من الامم الاخرى قبل دخول الشرائع الالهية فيما بينهم واوّل شريعة وضعت للزّواج حدودًا الشريعة الموسوية ثم الشريعة المسيحية ثم الاسلامية حتى بلغت ما هي عليهِ الآن

فترون مما تقدّم ان الاقتران بالاخوة والاقارب الاقربين لا يوجب الاستغراب بل هو طبيعي ضروري كما رأيت ولكن منعهُ حادث بحدوث الشرائع ولا يمكن الحكم

في الزمن الذي أُبطلت فيهِ تلك العوائد فان لكل أُمة تاريخًا خاصا من هذا القبيل فاليهود مثلاً أبطلوه عند نزول شريعتهم في القرن الخامس عشر قبل الميلاد واما المصريون فانهم ما زالوا عليهِ حتى اعتنقوا الديانة المسيحية فان الملكة كليوبترا التي تولت سلطان مصر في القرن الاخير قبل الميلاد تزوّجت اخاها وهكذا يقال في سائر الامم القديمة على ان التزوّج بالاخوات والاقارب الاقربين جارٍ الآن بين كثير من القبائل المتوحشة في اواسط افريقيا واميركا واوستراليا وجزائر المحيط جريًا على الطبيعة اذ لم يتعلموا شريعة تحظر عليهم ذلك

بيتان من الشعر · استفتاء

(طرابلس الشام) امين افندي الشاوي بمدرسة كفتون

فذلي عزٌّ في الهوى وعذابهُ ارتياح وعذبٌ والمنية منيتي
وبالروح ان جادت يدي كنت باخلاً وبالدم ان شحت عيوني شحت

هما بيتان من قصيدة لاحد افاضل طرابلس اختلف جماعة من الادباء في حسنها وعكسهِ حتى آل الامر الى الجدال الشديد فأجمع الكل على تحكيم حضرتكم وانتدابي لمكاتبتكم في هذا الصدد فتجاسرت بهذه الاسطر راجيًا النظر فيها بعين الانتقاد فتولون فضلاً الى ما شاء الله

(الهلال) البيتان رقيقا اللفظ مستقيما المعنى وقد زانها البديع لفظًا ومعنى ولكننا نرى في الشطر الثاني من البيت الاوَّل تكلفًا في المعنى وحشوًا في اللفظ فان كلمة «عذب» لا حاجة اليها هناك وكأن الناظم انما جاء بها لاتمام الجناس بينها وبين «عذابهُ» في آخر الشطر الاوَّل فارتكب تساهلاً في عطف عذب على ارتياح ومثل ذلك أيضًا في رجوع ضمير «عذابهُ» الى «الهوى» اذا كان هو المراد كما يقتضيهِ المعنى نوعًا واما اللفظ فيقتضي رجوعه الى الذل وفيهِ تكلف

واما البيت الثاني فانهُ ارقُّ معنى وادق مبنى واحسن بديعًا على ان معنى البيتين قديم يكاد يكون مبتذلاً ولكن ذلك مغتفر في جانب دقة مبنى البيتين لولا ما ذكرنا من التكلف في الشطر الثاني من البيت الاوَّل · هذا ما نراه بالاختصار ونظنهُ وافيًا في الجواب على اقتراحكم الاَّ اذا كان مرادكم انتقادها من وجهة غير هذه

الشعر المتساقط

(الاسكندرية) مصطفى افندي طاهر بالقباري

و(طنطا) الياس افندي عجان

أخبرني أحد اصدقائي بأنهُ كلما نبتت شعرة في شاربيهِ وطالت تشققت وانقسمت الى ثلاث او اربع شعرات وعقب هذا التشقق سقوط اطراف الشعر ولذا فيرى شاربيهِ دائمًا قصيرين فالرجا افادتنا عن الاسباب والعلاج ولكم الفضل

(الهلال) يقال لهذا المرض في بلاد الشام الحصة وسببهُ حال في الدم تجعل في مادة الشعر جفافًا يتسبب عنهُ تشقق الشعرة وسقوطها ويعالج غالبًا بالدهون الخارجية الملينة للشعر فاذا لانت الشعرة لا تنقصف ويعالجهُ بعضهم ايضًا بحلق الشعر من اصلهِ فالشعر النابت بعدهُ لا يكون جافًا قصفًا وقد لا يفيد الحلق مرة واحدة فليكرر

التمدن الاسلامي وبماذا قام

(الاسكندرية) مصطفى افندي طاهر بالقباري

لا نزال في انتظار ما وعد بهِ حضرة السري الفاضل عزتلو رفيق بك العظم من الكتابة في التمدن الاسلامي فصلاً وافيًا وقد اشتد بنا الشوق الى مطالعة ذلك الفصل حتى لم نعد نستطيع صبرًا فما سبب هذا التأخير

(الهلال) لعلَّ السبب غياب سعادتهِ في دمشق الشام اثناء هذا الصيف ونرجو مباشرة ذلك عند عودتهِ ان شاء الله

الجرائد ونشرها

(القاهرة) جرجس افندي عطاالله بقلم قضايا المالية

ذكرتم في الجزء الاوَّل من السنة الرابعة الصادر في غرة سبتمبر الجاري في المقالة التي عنوانها الجرائد وواجباتها وآدابها « ان الجرائد نشأت اولاً في الصين سنة ٩١١ قبل الميلاد وهو قول يحتاج الى اثبات ولكن المعوَّل عليهِ ان يوليوس القيصر الروماني في اواسط القرن الاوَّل قبل الميلاد أصدر نشرة يومية سماها (Acta Diurna)

ومعناها الاعمال اليومية ينشر فيها اعمال المشيخة الرومانية الرسمية وحوادث الشعب الروماني وما زالت تصدر الى زمن الامبراطور بوليان في اواسط القرن السابع للميلاد فكانت بمنزلة مثال للجرائد التي صدرت بعد ذلك في اوربا »

فنرجو الافادة عن كيفية نشر هذه الجريدة حيث ان في تلك العصور الخوالي لم يكن ورق ولا مطابع ولا اقلام بل كانت الكتابة تصنع على الواح من شمع وبهذه الواسطة يصعب نشر جريدة يومية وتفريقها على الاهالي والاّ فما معنى النشرة اليومية هل كانت تكتب فقط لتحفظ في دفاتر الحكومة او ليعلم الاهالي ما يحدث في بلادهم

(الهلال) لم تكن مواد الكتابة في عصر يوليوس قيصر الروماني مقصورة على الشمع بل كان الشمع اقلها استخداماً الاّ فيما يكتب لغرض وقتي واما المواد التي كانوا يستخدمونها للكتابة اذ ذاك وخصوصاً لما يريدون حفظه وتدوينه فالبابيروس وهو الورق المصري القديم الذي اصطنعه المصريون في القرن العشرين قبل الميلاد وكان في عهد الرومانيين قد كثر اصطناعه وشاع استعماله حتى صاروا يحملونه من بلاد الى اخرى للتجارة وهو يصنع من قشر نوع من الشجر المصري كان كثيراً في وادي النيل قديماً يقال له شجر البردي . ومن ادوات الكتابة القديمة في الصين قشر قصب البامبو وهو يشبه البردي وفي القرن الاول للميلاد اصطنع الصينيون ورقاً من الياف النباتات وغيرها عجناً وطبخاً كما يصنعونه الآن في معامل اوربا وكان الصينيون يصنعون ورقاً من الحرير واليابانيون من القطن والكتان وقشر التوت وقشر الرز

ومن تلك الادوات ايضاً جلود الحيوانات وهي الرقوق . وكان اليونان يكتبون حفراً على صفائح من النحاس او كتابة على الواح رقيقة من الخشب المدهون ثم صاروا يستخدمون الشمع للكتابة بان يطلوا به الواحاً من الخشب ويحفروا عليه ما يريدون كتابته او يطبعوه طبعاً . ومنها القماش فقد كان المصريون يكتبون على نوع منه يقال له القباطي وهو نسيج مصري خاص مصنوع قطعاً محدودة يقال لاحدها قبطية وعلى هذا القماش كُتبت المعلقات السبع وعلقت في الكعبة

فجريدة يوليوس قيصر لم تكن تنشر كما تنشر جرائد هذه الايام ولكنها كانت تكتب وتنشر في اماكن معلومة ليطلع عليها الناس ثم تدوّن في سجلات الحكومة او تبقى معلقة ليطلع عليها الناس اما المواد التي كانوا يكتبون عليها فبعض ما تقدم ذكره

منها ولا نعلم بالتحقيق أيها كانت اكثر استعمالا . ومما يحسن ذكره ان صناعة الورق الحديثة في اوربا مرجع الفضل في استنباطها او نقلها الى العرب فهم الذين احيوا هذه الصناعة في اوائل الهجرة وحملوها الى اسبانيا في القرن الحادي عشر للميلاد ومنها حملت الى سائر ممالك اوربا

﴿ الجرائد وواجباتها وآدابها ﴾

(القاهرة) اسكندر افندي تادرس بنظارة الداخلية

رأينا في الهلال الصادر بتاريخ ١ سبتمبر سنة ٩٥ مقالة شائقة عن « الجرائد وواجباتها وآدابها » وفيها قولكم « ونرى صحفا اخرى تملأ اعمدتها تعريضاً ببعض الامم » وقد تبادر الى ذهن محرر جريدة الحق انكم تقصدون بها جريدة « المرشد » فهل هذا صحيح ام كيف نرجو الافادة بكل حرية ولكم الفضل

(الهلال) لم نقصد بالمقالة المشار اليها الا الجرائد المصرية السياسية ونعترف لحضرتكم انا كتبنا تلك المقالة والحق والمرشد لم يخطرا ببالنا وربما كان السبب في ذلك اعتقادنا ان المرشد والحق في غنى عن يرشدها الى الحق اما وقد علمنا الآن من امرها ما لم يكن في علمنا ما قام بينهما من المجادلات العنيفة التي قد تأول الى شر اعظم مما تأول اليه مطاعنات الجرائد السياسية لعلاقة ابحاثها بالدين رأساً فلم نر بداً من ابداء الاسف الشديد والوقوف امام محرريها الافاضل وقفة المتردد بين ان نبدي لهم نصحاً وهما انشأوا هاتين الجريدتين لنصح الناس وارشادهم او نعلمهم واجبات الجرائد وقد اوقفوا حياتهم لتعليم الناس وتهذيبهم او ان نلتمس لهم عذراً ونحن لا نعرف عذرهم الا ان يكون السبب في حال الجرائد المصرية عموماً ميكروباً مهيجاً تخلل مياه النيل في فيضانه هذا العام فأصيب بداء التهوّر كل من شربها من المستعدين له

ونتقدم الى حضرات الافاضل ارباب الصحف المصرية مرة اخرى ان يعتقدوا اخلاصنا في ما قلناه ونقوله من الدفاع عن آداب الجرائد ونرغب اليهم ان لا يأخذوا شيئاً من كلامنا مأخذ التخصيص ولو سئلنا بعد الآن عن مرادنا بعبارة من عباراتنا ما اجبنا بغير السكوت لئلا يجرّنا الجدال الى ما نجتنبه ونتجنبه من الخوض في المسائل الشخصية لا سيما وان موضوع الهلال وخطته لا يؤذنان بذلك فنرجو المعذرة سلفاً

أرمانوسة المصرية (تابع ما قبله)

وكانت بربارة ذات رأي صائب وحيلة نافذة وسيطرة على سائر من في القصر من الخدم لأنها من اكثر الناس تقربًا من المقوقس وكان المقوقس يحترمها ويصغي الى مقالها وكانت تحب ارمانوسة كثيرًا لأنها ربتها وعلقت بها وهي مصدر نعمتها

فلما أصبح الصباح جاءت الى سيدتها وقد افاقت فاعدت لها ثيابها وامرت الخدم ان يهيئوا معدات السفر فأعدوا المراكب وانزلوا فيها المؤن وجاؤوا بقارب خاص بارمانوسة وحاشيتها ومضى ذلك اليوم بالاستعداد وارمانوسة لم تذق طعامًا ولما جنّ الليل اظلمت الدنيا في عينيها وازداد بلبالها لعلمها انها تاركة قصر والدها في الصباح وربما لا تعود اليه وقضت ذلك الليل بالبكاء والعويل خفيةً وأهل القصر فرحون بسفرها لملاقاة خطيبها لا يعلمون بمكنونات قلبها الاّ بربارة فانها سألتها قائلة أأذهب برفقتك أم ابقى هنا لاستطلع أمر اركاديوس قالت ان كلا الامرين صعب عليّ يا بربارة فذهابي وحدي يشق عليّ كثيرًا اذ ليس بين هؤلاء من اركن اليه فاشكوه امري وأودّ ذهابك الى الحصن لكي تشاهدي حبيبي ونور عيوني لعله اذا علم بما سيحل بي شاركك في تدبير وسيلة لانقاذي من مخالب ذلك الرجل فافضل بقاءك هنا فاذا شاهدت اركاديوس اطلعيه على ما سيحل بي وتدبري الامر لانقاذي وانا اعلم انه باسل شجاع اذا اراد امرًا اكبّ عليه بكليته ولا ينفك عنه حتى ينال مرامه منه وها اني سائرة الى عين شمس حيث ارافق والدي الى بلبيس وسأنتظر خبرًا نهائيًا منك قبل وصول ذاك الذي لا أحبه ولا أريده واعلمي ان الفرج اذا ابطأ عليّ سمعتِ عني خبرًا يسوءك . قالت ذلك وترقرقت الدموع في عينيها . فبكت بربارة لبكائها وهوّنت عليها قائلة لا لا سمح الله يا سيدتي لا يحدث الاّ ما يسرك باذن الله فاذهبي على بركة الله وعليّ تدبير الأمر

وباتوا تلك الليلة ولكن الجارة لم يناموا الاّ قليلاً استعدادًا للمسير باكرًا

فلما أصبح الصباح لبست ارمانوسة ثيابها الفاخرة واحاط بها الخدم والجواري وانزلنها الى قاربها الخصوصي بين الالحان والانغام وهي تجر ذيل ثوبها المزركش بالوان تبهج الناظرين وقد عقصت شعرها وضفرته وتقلدت حليها الفاخرة وفيها رأس الثعبان المرصع على رأسها تشبهًا بقدماء المصريين والاقراط في اذنيها وجعلت على

صدرها قلادة من الذهب تتدلى منها زوائد من الذهب وفي يديها اسوارات من الذهب الخالص مصنوعان على شكل ثعبانين ملتفين على معصميها في مكان عيونها حجارة من الزمرد الثمين وتمنطقت بمنطقة من الحرير المزركش بالقصب النقي الخالص وارخت طرفيها الى جنبها يجران مع الرداء تيهاً وبذخاً

فلما وصلت قاربها اجلسها الجارة في مكانها وجواريها بين يديها وفيهنّ الحبشيات والنوبيات وبعض الروميات [١] ونزل الرجال في قواربهم ثم سارت القوارب وقد نشر الشراع وتحركت المجاذيف فمرت القوارب بالقرب من حصن بابل واضطرت للوقوف هناك برهة ريثما يفتحون لها الجسر الموصل بين الحصن وجزيرة الروضة وهو مصنوع من القوارب مشدود بعضها الى بعض [٢] فوقها الواح غليظة من الخشب فاغتنمت ارمانوسة تلك الفرصة لمراقبة وجود اركاديوس هناك فشاعت عيناها نحو باب الحصن الجنوبي لعلها ترى حبيبها ماراً او واقفاً فمرّت القوارب ولم تره

الفصل السابع

دير المعلقة

أما بربارة فمكثت بقية ذلك اليوم في القصر وفي اليوم التالي همت بالمسير الى الحصن قبل قدوم الجيش لتدبير بعض الامور استعداداً لانفاذ مرامها فركبت القارب من منف حتى اتت الجسر الممتد بين الجيزة وجزيرة الروضة [٣] فقطعته على اقدامها الى الجزيرة فقطعتها ثم عبرت الجسر الآخر الممتد بين الجزيرة والحصن فوصلت الحصن ودخلته من بابه الجنوبي الكبير ولم يعترضها الحرس لانهم عرفوها فصعدت الى كنيسة المعلقة فلاقتها الراهبات هناك واحتفين بقدومها لما يعلمن من منزلتها عند المقوقس غافلات عما هو جار فتظاهرت بمجرد رغبتها في زيارة الكنيسة وتقبيل الايقونات فصدقن دعواها أما هي فلبثت تفكر في طريقة توصلها الى مرامها فلما كانت الظهيرة انتشر خبر قدوم الجنود في الحصن واخذت الراهبات يتساءلن عن سبب ذلك ثم علمن بحقيقة الحال فجعل يصلين ويتضرعن الى الله تعالى ان يلطف بهن

---

(١) ولكنسن وشارب (٢) المقريزي (٣) المقريزي والسيوطي وغيرهما

ويقرّب ما فيهِ الخير

أما بربارة فرأت ان تمكث هناك تلك الليلة لترى ماذا يتم فلما كان المساء وصل الجنود مدججين بالسلاح وفي مقدمتهم موكب يتقدمهُ اركادبوس ابن الأعيرج وعليهِ لباس قوّاد الرومانيين فلما رأتهُ وتحققت قدومهُ خفق قلبها خوفًا على سيدتها ومكثت تلك الليلة في الدير تدبر الحيلة ولكنها لم تستطع رقادًا لا هي ولا سائر اهل الدير لكثرة الجلبة والضوضاء الناتجين عن دخول الجند واعداد معدات الدفاع من تحصين الحصون والهدم والبناء فاخذت كل من هؤلاء النساء تتضرع الى الله ان ينجيها من عاقبة تلك الحرب لا يدرين ايدعين لجند الرّومانيين او لعدوّهم

وفيما هنّ في ذلك وقد خيم الغسق اذ سمعن طرقًا على باب الدير واصواتًا مختلفة وقرقعة نصال فخفن خوفًا لا مزيد عليهِ وهمت احداهن بالباب لتفتحهُ وفرائصها ترتعد فلم تكد تفتحهُ حتى دخل فيهِ جماعة من الجند الرّوماني يتقدمهم شاب في لباس فاخر على رأسهِ الخودة الرّومانية والى جنبهِ السيف الصقيل وقد تقلد الخنجر في منطقتهِ وتردّى بالطيلسان يجرّ ذيلهُ وراءهُ فلما رأتهُ بربارة عرفت انهُ اركادبوس اما باقي الراهبات فذعرن ودخلن بعض غرف الدير فرارًا من وجه القادمين اما بربارة فلبثت تنتظر ما يكون من امرهم فاذا بهم يكلمونها بلسانهم ويشيرون بايديهم وهي لا تفهم مرادهم ثم تقدم واحد منهم وكلمها باللغة القبطية قائلاً ان حضرة القائد يأمركن باخلاء هذا المكان ليجعلهُ معقلاً لفرقة من الجند لانهُ واقع فوق باب الحصن فنادت رئيسة الدير وافهمتها ما جاؤوا من اجلهِ فجعلت تتضرّع اليهم ان يختاروا مكانًا غيره اذ لا يعلمن مكانًا يلتجئن اليهِ سواه فلم يسمعن منهم الا الاصرار على عزمهم على انهم لم ينتظروا رضاءهن بل اشار اركادبوس الى رجالهِ ان يخرجوهن من المكان فجعلوا ينتهرونهنّ ويصيحون بهن فخرجن يولولن ويبكين وهنّ باكيات ينقمن على الرّومانيين ويدعين عليهم بالويل والثبور

فخرجت بربارة معهنّ وهي لا تعلم كيف تعمل ولم يكن احد من هؤلاء الرّومانيين يعرفها ولو عرفها اركادبوس او عرف ما جاءت من اجلهِ لاذعن لما ارادت فذهبت الراهبات وبربارة معهنّ الى مأوى تحت الكنيسة كنّ يذخرن فيهِ مؤونتهنّ من الطعام والشراب وجلسن هناك وقد علا صياحهنّ وعويلهنّ فدنت بربارة من الرئيسة

وخاطبتها على انفراد و وعدتها باعداد وسيلة تنجيهن من تلك الحال

فقالت الرئيسة وما الوسيلة وقد اصبح هؤلاء الجند ابغض الينا من أي عدو يغتالنا أما كفاهم ما يسوموننا من الخسف والجور واهانة رجالنا وقتل بطاركتنا(١) حتى جاؤا يخرجوننا من هذه الكنيسة ليجعلوا اماكن العبادة معاقل وحصونًا

فقالت بربارة طيبي نفسًا ولا بد من ان يقتص الله من اهل الجور والفجور ولا بد لحكمهم علينا من نهاية وارجو ان تكون بخروج هذه البلاد من ايديهم وما على الله امر عسير

فوقفت الرئيسة وقد خنقتها العبرات وقالت وهي تمسح دموعها بمنديلها اطلب الى الله بكرامة صاحبة هذا الدير العذراء مريم ان يسقط في يدهم ويخرجوا من هذه البلاد على اعقابهم واية امة حكمتنا غيرهم فانها اخف وطأة علينا منهم(٢) فقالت بربارة امين وكل آتٍ قريب

كل ذلك وهنّ يسمعن جلبة الجند فوقهنّ ينقلون العدة والذخيرة وادوات الحرب ولكن بربارة ما فتئت تفكر في وسيلة تضمن لها الفوز في ما جاءت من اجله وتذكرت سيدتها والحالة التي فارقتها عليها فانفطر لها قلبها فجعلت تبحث عن طريقة توصلها الى اركاديوس ثم رأت انها ولو وصلت اليه لا تستطيع مخاطبته لانها لا تعرف اللغة اللاتينية ثم تذكرت انه ربي في مصر وتعلم لغتها وهو يفهمها ويحسن التكلم فيها خلافًا لسائر ابناء جلدته لانهم كانوا يحتقرون لغة الوطنيين وينفرون من تعلمها اما هو فكان ميالاً الى معرفة تاريخ البلاد ويحب اهلها اكرامًا لحبيبته فقالت في نفسها ولكن كيف اتصل اليه الليلة وهو فيما رأيته فيه من الانهماك والتأهب للحرب على انه لو عرف من انا لسعى في ملاقاتي واستطلاع حال حبيبته .

فقضت معظم ذلك الليل في هذه المواجس لا تستطيع رقادًا وهكذا كانت حال كل اهل ذلك الدهاليز

أما اركاديوس فقد تركناه في الكنيسة(٣) مع رجاله يجعلونها معقلاً لهم فرموا الايقونات وكسروا كل ما وقف في طريقهم من الآنية مهما كان نوعها واركاديوس

(١) الخريدة النفيسة (٢) مارسل (٣) ذكر بعض المؤرخين ان دير المعلقة هو غير الكنيسة ولم يعينوا مكانه ولكنهم قالوا انه كان بالقرب من الحصن فجعلناه والكنيسة واحدًا تبعًا لسياق الرواية

يهيء اماكن رجاله و يرتب فرقهم فجعل كلاً منهم في موقفهِ بسلاحهِ وعدتهِ ثم نزل الى الاماكن الاخرى يرتب الجند بالنيابة عن ابيهِ وما زال كذلك الى منتصف الليل فلما انتهى من مهمتهِ هذه عاد الى كنيسة المعلقة للرقاد لانهُ اختارها مقرًّا لهُ لمناعتها وموقعها الحربي فوق باب الحصن تماماً وكان الجند قد اعدوا لهُ فيها غرفة صغيرة مشرفة على النيل بنافذة صغيرة فدخل الغرفة ونزع خوذتهُ وسلاحهُ وجلس بجانب النافذة واطل الى النيل واذا بهِ يجري الهوينا الى جانب الحصن والحصن محاط من غربيهِ بالنيل ومن الجهات الاخرى بالبساتين والغياض وفيها شجر النخيل والكرم وقد امتد شجر الدوم على الشاطىء يتخللهُ البردي ثم مد بصرهُ الى البر الثاني عن بعد فاشرف على ضفتهِ الغربية بر الجيزة وما وراءها وكانت الليلة مقمرة كما قدمنا فوقع نظرهُ على الهرم المدرج في جهات سقارة بقرب منف فاستأنس بهِ لقربهِ من منام حبيبتهِ فتذكر حالهُ معها وحبهُ لها فهاجت عواطفهُ وود لو انهُ ذو اجنحة تحملهُ اليها وهو على يقين انها تحبهُ مثل حبهِ لها ولولا ما بين والدهِ ووالدها وبين شعبهِ وشعبها من النفور لهان عليهِ الامر ولكن المركب خشن ودون بلوغ المنى شرط القتاد

الفصل الثامن

أرسطوليس وأركاديوس

فأسند اركاديوس يدهُ الى النافذة والقى رأسهُ على كفهِ وغرق في بحار الهواجس ولبث في تلك الحال مدة لا يتحرك وقد هدأ الجو ورق النسيم واستولى السكوت على ذلك الحصن لا يسمع فيهِ صوت غير خرير الماء وملاطمة مجراه لجدار الحصن من جهة وحفيف سعف النخيل على ضفاف النيل من جهة أخرى ثم صحا من سباتهِ بغتة فتذكر صديقهُ ارسطوليس شقيق ارمانوسة [1] وما بينهما من المحبة والالفة وتآلف الاذواق فقال في نفسهِ لماذا لا أكاشف هذا الصديق بما فيَّ من لواعج الغرام لعلهُ يفرّج كربي او يرفع عني اثقال هذا الكتمان وهو اذا عرف بميلي الى اختهِ الى هذا الحد لا شك في انهُ يأخذ بيدي وينصرني . وفيما هو في تلك الهواجس اذ سمع وقع اقدام عند باب الغرفة

(1) الواقدي

فسأل من القادم فاذا بأحد رجالهِ قد وقف بين يديهِ متأدبًا فسأله عن أمرهِ فقال ان القائد ارسطوليس في الباب فعجب لتوارد الأفكار وأمر بادخالهِ فدخل فتصافحا وتعانقا وسلما وقد عجب اركاديوس لمجيء ارسطوليس في ذلك الوقت وسأله عن امرهِ فقال انما جئتك ايها الصديق ملتمسًا منك امرًا لا يصعب عليك قضاؤهُ

قال قل ما شئت اني فاعل ما تريد

قال جاءني بعض من كان في هذه الدير من الراهبات يشكين ما قاسينهُ من الاهانة باخراجهنَّ من بيتهنَّ وأنت تعلم انهنَّ محترمات لانقطاعهنَّ للعبادة والتقشف وقد كان في امكانكم حفظ كرامتهنَّ فانقدم اليك ان تخلي لهنَّ مكانًا يقمن فيهِ او ان يخرجن من هذا المكان باكرام

فقال اركاديوس ولكننا لم نخرجهنَّ الاَّ لاتخاذ هذا المكان حصنًا ندفع بهِ الاعداء عنا وعنهنَّ فهل اذا بقين فيهِ يعملن عملنا او يدفعن مهاجمًا

قال لا يدفعن مهاجمًا ولكن كدرهنَّ ونقمتهنَّ على الجند بسبب ما لاقينهُ من الاهانة ودعاءهنَّ على المسيء اليهنَّ يقف عثرة في سبيل دفاعنا فاننا نعتقد بهنَّ الكرامة واستجابة الدعاء

قال نحن لا نعتقد ذلك ولكن اكرامًا لك لا اتوقف عن العمل بما تأمرني بهِ على شرط ان لا يكون في ذلك ضرر على الجند أما هذا المكان الحصين فلا يمكنا التخلي عنهُ لاحد فاذا رأيت ان يخترن لهنَّ مكانًا غيرهُ فاني اساعدهنَّ في الحصول عليهِ

قال سأستخيرهنَّ في مكان يخترنهُ غير هذا واذا رأين الخروج من الحصن فاني ارسل معهنَّ من يوصلهنَّ الى حيث شئن

ثم أمر بعض الجند فأخلى لهنَّ مكانًا بالقرب من الدير اقمن فيهِ وعاد اركاديوس الى مخاطبة صديقهِ فقال . وانت ما ذا فعلت هل اعددت كل شيء يتعلق بفرقتك

قال قد اعددت كل شيء تقريبًا ومتى جاء والدانا فاننا نتم تدبير الامر فأسبق متى يأتيان

فقال اركاديوس اما والدي فأظنهُ يصل الحصن غدًا واما والدك فلا ادري زمن مجيئهِ ولا ريب انك اعلم مني بأمرهِ ولا اراه الاَّ مترددًا في شأن هذه الحرب

ولم يغرّني منه التظاهر في الاستعداد وادخالك في هذه الحملة ولا كونه يوناني الاصل فان ماجريات اعماله تخالف كل ذلك فهو قبطي المشرب قائم بدعوة الوطنيين لا يريد سلطاننا عليهم

فوقف ارسطوليس واظهر البغتة يحاول رفع هذه التهمة عن والده وقال وكيف تقول ذلك ووالدي اول مدافع عن حقوق دولتنا ولذلك فانه حالما سمع بقدوم العدو اخذ في التأهب للدفاع ووجودي بين جندكم اكبر دليل على رغبته هذه

فتبسم اركاديوس مستخفاً بتلك الحجة وقال له مهلاً ايها الصديق انت تعلم مقدار حبي لك ولا تجهل اني احترم حضرة والدك ولا انكر عليك تحامل رجالنا ودولتنا على جماعة الاقباط وما انا بمخالٍ ان نفورهم منا لان نفور اصحاب البلاد من فاتحيها امر طبيعي لا مفرّ منه وخصوصاً اذا لاقوا منهم ما لاقاه اهل هذه البلاد من تحامل بعض حكامنا وما سبب ذلك الا الاختلاف الديني الذي تعلمه ولكنني لا اسلم بان والدك المقوقس غير قائل بقولهم او داعٍ الى دعوتهم وهو يود من صميم فؤاده خروج هذه البلاد من حوزتنا ودخولها في حوزة غيرنا مهما كان نوعهم اما دخولك في جندنا فلا تتخذ حجة لدفع هذه التهمة عنه بل قد تكون مؤيدة لها ولكن ما لنا ولذلك الآن فسوف يظهر الحق ويزهق الباطل اما نحن فسندافع عن هذه البلاد جهد طاقتنا الى آخر نسمة من حياتنا وفي ايدينا اوامر مشددة بالمحافظة على هذا الحصن ودفع العرب عنه واظنهم يحسبون التقادير تساعدهم هنا كما ساعدتهم في بلاد الشام وبيت المقدس ولو كان في رؤس حامية تلك البلاد الشهامة الرومانية ما سلموا منها حجراً ولا من اهلها شعرة ولكنهم فسدوا وغدروا ولم يكن عندهم مثل هذا الحصن المنيع ولا رجال مثل رجالنا . قال ذلك وكأنه شعر بما تخلل عبارته هذه من الحدة فصمت برهة ريثما انثنأت حماة الحدة ثم عاد فخاطب ارسطوليس قائلاً اخبرني الآن هل بعثت الرجال لتحصين الحصن كما اخبرتك

قال ارسطوليس قد بدأوا بتحصينه منذ وصولنا ولكنهم الآن نيام التماساً للراحة ولا يصبح الصباح الا وهم قيام على اتمامه وقد جئنا بكل معدات التحصين من حسك الحديد لنبذره في افنية الخندق [1] فلا يستطيع البدوي عبوره قبل ان تدمو أقدامه

(١) المقريزي

ويعجز عن المشي هذا اذا لم تقتله سهامنا من الاسوار

فقال اركاديوس واين هم الاعداء الآن يا ترى

قال انبأنا الجواسيس انهم قاموا من العريش بعددهم ورجالهم ولكن نخنف عنك ان دون وصولهم الى هذا الحصن شرخ القتاد وها اننا باذلون الجهد في الدفاع لاننا مطالبون بذلك

وكان ارسطوليس عالماً بمقاصد ابيه حق العلم وقد تحقق ان البلاد لا يمكنها دفع العرب وكان يحب اركاديوس كثيراً ويضنّ به فاراد ان يكاشفه بذلك لئلاً يكون في جملة من تقع عليهم المكيدة ولكنه خاف انكشاف الامر قبل اوانه فتضيع اتعاب والده سدى فأبقاهُ مكتوماً الى حينه ونهض فودع صديقه وخرج يلتمس الرقاد بقية ذلك الليل فودعه اركاديوس وعاد الى مقعده فعادت اليه هواجسه



الفصل التاسع

﴿ بربارة وأرسطوليس ﴾

أما ارسطوليس فتحوّل من الغرفة ونزل السلم وهو يفكر في حال والده مع الرّومانيين وقد حمل سيفه بيده لئلا يطرق بجدران السلم فيوقظ احداً من الجند فلما بلغ آخر درجة دخل في زقاق ضيق مظلم فسار فيه قاصداً غرفته فسمع صوتاً منخفضاً يناديه من جانب الزقاق فوقف فاذا بشبح قادم اليه امسك بيده وهو يقول هل انت سيدي ارسطوليس فجذب ارسطوليس يده قائلاً نعم وانت من انت فقال انا خادمتك بربارة يا سيدي فعرف صوتها فقال لها وما الذي جاء بك الى هذا المكان يا بربارة وكيف تركتِ البيت قالت جئت بامر ذي بال ساطلعك عليه اذا اذنت لي بخلوة قال تعالي معي الى غرفتي

فسارا حتى دخلا بعض جوانب الحصن وارسطوليس يحاذر ان يرى بربارة احدٌ خوفاً من وقوع الشبهة عليه فلما دخلا الغرفة واضاء المصباح تأمل بربارة فاذا هي هي بعينها فقال لها وما خبرك يا بربارة اطلعيني على جلية الامر

﴿ ستأتي البقية ﴾

الهلال

الجزء الرابع من السنة الرابعة

(١٥ اكتوبر (ت ١) سنة ١٨٩٥) (٢٦ ربيع ٢ سنة ١٣١٣) (٥ بابه سنة ١٦١٢)

باب أشهر الحوادث وأعظم الرجال



جان دارك

جان دارك

فتاة أورليان

(ولدت سنة ١٤١٢ وتوفيت سنة ١٤٣١)

هي الفتاة التي حار المؤرخون في تسميتها وتلقيبها فقد جمعت الى رقة الجنس اللطيف بسالة كبار القواد وحكمة أعاظم الفلاسفة وكادت تسابق الانبياء

ولدت في قرية دومرمي على ضفاف نهر الميز من اعمال فرنسا في ٦ يناير سنة ١٤١٢ وما زال اهل تلك القرية اجيالاً يتحدثون بما حدث يوم ولادتها من علامات السعادة وما حلت به والدتها قبيل ذلك اليوم ولعل ذلك عاديٌّ في تاريخ اعاظم الرجال او النساء. فانك قلما تقرأ ترجمة رجل عظيم ولاسيما القواد والابطال الاَّ رأيت فيها حوادث يقولون انها وقعت قبيل ولادته او ساعة الولادة تدل على سبوق التنبؤ بمجيئه يريدون بذلك تعظيم قدره بما يخلل رواياتهم من اهتمام الطبيعة بولادته او سبوق الارواح للتبشير بمجيئه وقد لا يكون في تلك الروايات من الصحة الاَّ عبارة قالتها الوالدة او الجارة او الداية وقلَّ ان تحضر ولادة ولا نسمع مثلها ولكنها تعظم او تحقر تبعًا لما يكون من مستقبل ذلك المولود فاذا شب حقيرًا نوسي الحديث واذا شب رجلاً عظيماً بالغوا في تلك العبارة واخذوا يبنون عليها العلالي. والقصور حتى تشبع كما نسمعها ونرتاح الى سماعها لميلنا الفطري الى سماع الغرائب وتصديقها

وكان لجان دارك ثلاثة اخوة واخت ربوا جميعًا بتقوى الله في حجر كنيسة رومية وكانت صاحبة الترجمة منذ نعومة اظفارها رقيقة الجانب دقيقة الاحساس قضت زمن طفوليتها بين يدي عرابتها (شبينتها) لانشغال والدتها بمهام منزلها وتدبير شؤون زوجها واولادها فكانت عرابتها هذه تقص عليها في ساعات الفراغ اقاصيص عجائز تلك الايام عن الجان والعفاريت وقديسي اسلافهم الغالبين الذين كانوا (على زعمهم) في محاربة دائمة مع بني الانسان ونظرًا لحدة ذهن الفتاة ورقة احساسها ودقة عواطفها كانت تتأثر لتلك الاقاصيص وتميل بكليتها الى استماعها فاذا كفَّت عرابتها عن الحديث استزادتها وتقدمت اليها ان تعيد ما قالته فثبت على الاعتقاد بالارواح وعلاقتها مع بني الانسان ونظرًا لتعلقها بالتقاليد الدينية واشتغالها بالصلوات بكرة

وعشية اصبحت في استعداد تام لما صارت اليه في مستقبل ايامها من سماع هتاف الهاتف ومحاورة الروح

واول مرة سمعت صوت الهاتف كانت في الثالثة عشرة من عمرها وذلك انها بينما كانت مع بعض اترابها يتسابقن ركضًا في الحقول كانت هي في مقدمتهن فبعدت عنهنّ فخيل لها انها سمعت هاتفًا يقول لها « ارجعي الى والدتك » فلم تستغرب ذلك لما كان مغروسًا في ذهنها من امر الارواح كما قدمنا وما انفكت من ذلك الحين تسمع هتاف الارواح تشير عليها او تأمرها وهي تصدع بأمرها · وازدادت جان دارك على اثر ذلك تقىً وتدينًا حتى كانت تقضي بضع ساعات متوالية في الكنيسة جاثية تتضرّع الى الله ان ينقذ فرنسا مما ألمّ بها و يعيد كرسيها الى ولي عهدها ابن شارل السادس وكان الملك قد خرج من يديه الى الانكليز · وسمعت هاتفًا يقول لها مرة بصوت رخيم « كوني حكيمة وتقية واتكلي على الله فانك ستذهبين الى باريس لا محالة وستنقذين فرنسا من عدوها » وكان الشائع على السنة العامة اذ ذاك ان فرنسا تخلص من عدوها على يد امرأة · فشعرت جان دارك من ذلك الحين انها مدعوة لامر ذي بال وهي اذ ذاك في السادسة عشرة من عمرها على انها لم تجاهر بشيء من ذلك امام احد ولكن بعض جيرانها استطلع من محمل احاديثها انها عازمة على السفر الى باريس فاخبر والدها فساء الظن بها وعزم على تزويجها بشاب كان يحبها كثيرًا وادعى انها وعدته بالاقتران ولكنها صرحت امام الاسقف جهارًا انها نذرت العفة

ثم أمرها الهاتف ان تذهب الى فوكولير فتظاهرت انها تريد زيارة خالها هناك فاذن لها والدها فلما التقت بخالها اسرّت اليه كل ما في ضميرها فظنها تهذي او اصيبت بجنة واوصاها ان لا تذكر شيئًا من ذلك امام احد لئلاّ يحسبها مجنونة ولكنها ما انفكت تعيد الحديث على آذانه وتقربه من اعتقاده حتى صدق دعواها فعرض امرها لأحد زعماء الحزب الملكي واسمه بودريكور واقنعه بصدقها فكتب الى ولي العهد فلم يعبأ بقوله فاسقط بيدها ولكنها أعادت الكرة وثبتت في عزمها حتى اكتسبت ثقة اثنين من كبار الملكيين فوعداها بايصالها الى الملك فقصت شعرها وتزيت بزي الرجال وركبت جوادًا ابتاعه لها خالها و بعض اصدقائه · وفي ربيع سنة ١٤٢٩ سارت قاصدة مقام ولي العهد في شينون

فلنتركها في طريقها ولنبسط للقارئ حال فرنسا اذ ذاك ليظهر المراد من مهمة جان دارك تماماً فنقول

كانت تلك الايام ايام الحروب بين فرنسا وانكلترا وكان هنري الخامس ملك انكلترا اذ ذاك قد تغلب على شارل السادس ملك فرنسا وتمكن من معاهدة ابرمها مع دوق بورغنديا يقال لها معاهدة تروا تقضي بزفاف كاترين بنت شارل الى هنري واعتزال شارل عن الملك لسنهِ وقيام هنري وصياً عليهِ فاذا مات شارل كان هنري الوارث الملك وينتقل الملك بعد هنري الى نسلهِ ولا يملك ولي عهد فرنسا اما اذا حاول التملك بالقوة فتحشد جنود هنري وشارل ودوق بورغنديا لدفعهِ فكان ولي العهد اصبح عدوّ لفرنسا ولسائر الدول والغريب ان والدهُ اقرّ على ذلك ايضاً على ان من عرف ما كان عليهِ شارل السادس من ضعف الرأي لا يستغرب صدور هذا الامر منهُ اما ايزابلا امرأة شارل ووالدة ولي العهد فانها كانت طماعة واغتنمت ضعف زوجها وسيلة لجمع الاموال لنفسها وقد وقعت امور اوجبت نفورها من ابنها فلذلك لم تتعرّض للدفاع عن حقوقهِ بل كانت فرحة بخروج الملك من يدهِ. واما دوق بورغنديا فانهُ كان يكره ولي العهد لان والدهُ (والد الدوق) قتل على مشهد منهُ . هذه هي خلاصة الاسباب التي اوجبت اتحاد كل هذه القوات على ولي عهد فرنسا والاجماع على حرمانهِ من الملك . اما هنري الخامس فبعد ان تزوج كاترين واصل فتوحاتهِ في فرنسا وما زال حتى افتتح باريس ودخلها مع شارل ثم اخذ يطارد ولي العهد حتى ابعدهُ الى ما وراء نهر لوار . وكان ولي العهد ضعيف الرأي محاطاً بالمتملقين والمدلسين ولكنهُ ما لبث ان شعر بضعفهِ فانسحب الى اوفرن وفي تلك السنة ولد لهنري ولدٌ وبعد تسعة اشهر توفي هنري وبعد وفاتهِ باربعة اشهر توفي شارل وكان ولي عهد فرنسا اذ ذاك في العشرين من عمرهِ ولم يبلغ ولي عهد انكلترا (هنري السادس) السنة فاقيم عليهِ دوق بدفورد وصياً في فرنسا ودوق غلوستر وصياً في انكلترا وكل منهما عمهُ اخو ابيهِ وكان بدفورد شجاعاً محنكاً وقد وطن نفسهُ على تأبيد سلطة ذلك الطفل على فرنسا

اما ولي عهد فرنسا فان احزابهُ ما زالوا يلقبون حولهُ ويعترفون بملكهِ عليهم فلما توفي والدهُ نصبوهُ ملكاً عليهم وتوجوهُ في بواتيه فعظم ذلك على بدفورد فجند

جنداً قوياً وسار لمطاردتهِ وفي اوكتوبر سنة ١٤٢٨ حاصر مدينة اورليان وكانت حصينة منيعة كثيرة السكان ولكن الانكليز اصرّوا على افتتاحها وتملكها وقد علم الفرنساويون ان في افتتاح اورليان سقوط مملكتهم وهبوط مسعى ملكهم فبذلوا كل مرتخص وغالٍ في الدفاع عنها ومازالت اورليان محاصرة الى آخر الشتاء واهلها ينتظرون قدوم ملكهم لنجدتهم حتى يئسوا من قدومهِ فعوَّلوا على تسليم المدينة الى دوق بورغنديا وخابروه بذلك فلم يجبهم خوفاً من ان لا يروق ذلك في عيني بدفورد فاصبح الاورليانيون في حال شديدة من اليأس وحول المدينة عشرون ألف جندي انكليزي . وبلغ ذلك شارل السابع فاسقط في يدهِ حتى حدثتهُ نفسهُ ان يتخلى عن مطالبهِ ويهجر فرنسا . هكذا كانت حال فرنسا عند ما انتدبت جان دارك نفسها او انتدبها الرّوح لانقاذ فرنسا وملكها من مخالب الانكليز

فسارت من فوكوليرٍ كما قدمنا وقد تزيت بزي الابطال قاصدة شينون وبين المدينتين مسافة طويلة معظمها في قبضة الانكليز ولكن ذلك لم يثن عزمها ولا اثر في ثباتها وشجاعتها وبعد ان كانت رخيمة الصوت رقيقة الحديث محبة للاعتزال اصبحت رنانة الصوت جريئة لا تخاطب احداً الا بالأمر والنهي واحست انها لم تعد جان دارك بنت الراعي بل اصبحت جان دارك المنتدبة لانقاذ فرنسا من ايدي المتغلبين على انها لم تنفك عن الصلوات الاعتيادية وما وصلت مدينة او قرية الاَّ جثت تصلي وتطلب الى الله مساعدتها في ما هي فيهِ وكان لها في قلوب رفاقها تأثير ورهبة لم يشعروا بها لدى اكبر القواد

وكان شارل السابع في شينون وحولهُ جمهور المملقين وفي مقدمتهم لاتريموبل فانهُ كان يخادع الملك رغبة في مصلحتهِ الخصوصية فلما وصلت جان دارك الى شينون حاول لاتريموبل جهده ان يمنع الملك من مشاهدتها ولكنها تمكنت من مقابلته وترامت على اقدامهِ وقالت ان الله انتدبها لتعيد ملك فرنسا اليهِ وان تحارب هؤلاء الانكليز فانهضها شارل وتلطف في خطابها وسألها كيف عرفتهُ من بين جماهير الجلوس في مجلسهِ فقالت ان الرّوح انبأها بهِ ويقال انها اخبرتهُ بخفايا كثيرة لم يكن احد عالماً بها سواه فصدق دعواها وشعر كأنهُ أوتي قوة فوق العادة واوعز الى اصحابهِ بان لا يمنعوا جان دارك من زيارتهِ متى شاءت ومكثت هناك مدة فاكتسبت ثقة سائر

اعضاء العائلة الملكية وكان الفرسان معجبين بركوبها الخيل وتقلدها السيف وحملها الرمح والسنان واجتمع الاساقفة في جلسة خصوصية لامتحانها وتحقق دعواها فشاهدوا من اجوبتها وتقواها و بسالتها وثباتها ما حملهم على الاقرار بصحة دعواها فاقروا بأنها حقيقة منتدبة من الله لانقاذ فرنسا واوعزوا الى الملك انها يجب ان ترسل الى اورليان لاتمام مهمتها و بعد التردد مدة اذن الملك بارسالها في وفد يحمل زادًا ومؤونة الى سكان اورليان فركبت وتقلدت حسامًا اختارته في من مكان زعمت ان الروح انبأها به واصطنعت راية من الحرير الابيض مزركشة بالذهب رسمت فيها صورة السيد المسيح جالسًا على عرش وفي يده كرة وامامه ملاك حامل زهرة زنبق وكتبت فوق ذلك هاتين الكلمتين «يسوع مريم» ورسمت على الوجه الآخر من الراية صورة مريم العذراء

وفي ٢٥ ابريل سنة ١٤٢٩ سارت جان دارك بوفدها وهي في الثامنة عشرة من عمرها وكتبت كتابًا ارسلته الى قائد الجنود الانكليزية المحاصرة لاورليان تقول فيه «يا ملك انكلترا كن عادلاً امام الله بشأن دم فرنسا الملوكي وسلم مفاتيح المدن التي فتحتها عنوة الى هذه الفتاة» فهزأ القائد بتلك اللهجة الندبية ولكنه سأل عن امرها فقيل له ما كان شائعًا عنها فانتشر خبر قدومها في المعسكر وبلغ سكان اورليان فسروا كثيرًا وتوسموا الفرج على يدها ولم تمض مدة حتى وصلت هذه الفتاة الى اورليان ودخلتها بما تحمله اليها من المؤن فاستقبلها اهلها باحتفال عظيم فذهبت توًّا الى الكنيسة والناس يتبعونها زرافات يزاحم بعضهم بعضًا

واقامت في اورليان بضعة ايام لا تكف عن الصلاة والدعاء والناس ينتظرون ما ذا يكون من امرها ففي الرابع من مايو (ايار) هبّت من رقادها بغتة وقالت ان هاتفًا اخبرها ان بعض الاورليانيين هجموا على حصن من حصون الانكليز فاسرعنا الى عدتها وركبت جوادها واغارت باسرع من لمح البصر حتى كان الشرر يتطاير من وقع اقدامه على الحصى وسارت توًّا الى مكان الواقعة وتبعها بعض اهل المدينة واحتدمت شعلة الحرب عدة ساعات فتقهقر الانكليز من اماكنهم فطاردتهم جان دارك بفرقتها وابلت بمن كان في الحصن فقتلت منهم سبعمئة جندي فلما انتهت الموقعة وشاهدت القتلى اخذت تبكيهم. وفي السادس منه استولت على حصن آخر قُتل جده عن آخره وبقي بيد الانكليز حصن منيع جدًا فعولت على مهاجمته دفعة واحدة فاعترضها قواد

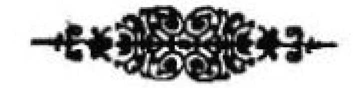
الفرقة وانذروها بالخطر المحدق بذلك واجتمعوا اجتماعاً خصوصياً لم تحضره جان دارك واتفقوا على ان لا يهاجموا ذلك الحصن

اما هي فلما اصبحت تقلدت حسامها ولم تخبر احداً الا رجالها الخصوصيين وسارت لمهاجمة الحصن وكان فيه ثلاثة من اكبر قواد الانكليز فاشتد عليها الخطر كثيراً فعلم رفاقها القواد الفرنساويون بذلك فتقدموا برجالهم لنجدتها وابتدأت الواقعة في الصباح باكراً فلما كانت الظهيرة آنست في جندها ضعفاً مخافت الفشل فهجمت بنفسها على خندق الحصن وألقت عليه سلماً وهمت بالصعود الى السور واذا بسهم اصابها بين العنق والكتف فوقعت وصاحت من شدة الالم صياح الطفل ولكنها استخرجت السهم بيدها وضمدت الجرح بالزيت فتشدد الانكليز وضعف عزم الفرنساويين فلما عادت الى معسكرها اعتذر لها القواد بانهم انما كانوا يريدون تأجيل الحرب الى الغد فقالت لا تكفوا عن القتال حتى تظفروا فلما رأوا ثباتها مع ما هي فيه من الالم تشددوا ووافقوها فلبثوا هنيهة يتناولون بعض الغذاء فتركتهم هي وسارت الى كرم قريب وجثت تصلي فلما عادت قالت لرجل كان واقفاً بجانبها "راقب حركة رايتي هذه فاذا رأيتها مست الحصن اخبرني" وكأنها اطلقت الراية فحملتها الريح حتى صدمت الحصن فأنبأها الرجل بذلك فصاحت في الفرنساويين "هلموا الى القتال فان النصر لنا" فاعادوا الكرة على الحصن فلما شاهدهم الانكليز وتلك الفتاة في مقدمتهم ذهلوا وفشلوا لعلمهم انها سقطت جريحة ولم يمس المساء الا وقد وقع الحصن في ايدي جان دارك ورجالها وبوقوعه رفع الحصار عن اورليان وتقهقر الانكليز واحتفل الفرنساويون بذلك اليوم احتفالاً شائقاً في ٩ مايو سنة ١٤٢٩ ودعيت جان دارك من ذلك الحين "فتاة اورليان" وشاع صيتها في انحاء فرنسا وسائر اوربا حتى لم تعد تسمع في الاحاديث العمومية الا اسمها وحكايتها

ولما تمّ لها النصر هنالك اخذت تهتم في اتمام مهمتها مع ما كانت تشكوه من ألم الجرح فسارت لمقابلة شارل فالتقت به في طور فاحتفل بلقياها وعرض عليها الرتب والالقاب فلم تعبأ بشيء منها ولكنها الحت عليه ان يسير معها الى ريم ليمسح بالزيت المقدس وكانت العادة في فرنسا اذ ذاك انهم اذا نصبوا ملكاً لا يعتبر نصيبه رسمياً الا اذا سار الى ريم ومسح بالزيت المقدس هنالك. وكانت ريم هذه في ايدي الانكليز فلم

يصغ الى مقالها ولكنه انصاع الى مشورة لاتريمويل واصحابه فانهم اوعزوا اليه ان لا يخرج من مكانه حتى يتقهقر الانكليز الى ما وراء نهر لوار فشق ذلك على الفتاة ولكنها ما لبثت تعتبر شارل هذا ملكها فاذعنت لارادته ثم جند جندًا عهد بقيادته الى دوق النسن وامره ان يتبع مشوراتها وسارت الحملة فحاربت مدينة جرجو فافتتحها واسرت قائد حاميتها وفتحت مدنًا اخرى فظنت جان دارك ان الملك يوافقها الآن في الذهاب الى ريم فاجاب انه لا بأس من الخروج الا بعد الاستيلاء على حصن كان لا يزال ممتنعًا عند نهر لوار فلما شاهدت منه هذا الجبن تناثرت الدموع من عينيها خوف الفشل وخرجت من مجلسه مغضبة واقامت في المعسكر وشاركها بذلك كل من حارب معها من رجالها الاقوياء فشاع امر غضبها حتى بلغ الملك فاطاعها خجلاً فساروا جميعًا في اثني عشر الف مقاتل يريدون ريم فمرّوا ببلدة اوكسير وكانت في حوزة الانكليز فلم تسلم لهم ولكنها امدتهم بالمؤونة ثم مرّوا بتروا فلم تسلم لهم فاشار شارل بالرجوع فخافت جان دارك الفشل فتعهدت لهذا انها لا تمضي ثلاثة ايام حتى تصبح تروا في قبضة يده فقبل فهاجمت المدينة وافتتحها عنوة وقد شهد لها العارفون بالفنون الحربية انها كانت تدرب الجند في ساحة الحرب تدريبًا لا يستطيعه قائدان من اعظم قواد الارض . ولم يعترضهم بعد ذلك معارض حتى دخلوا ريم ولا تسل عن فرح هذه الفتاة ببلوغ الامنية التي جاءت من اجلها فاحتفلوا بتتويج شارل حتى اذا تم الاحتفال خاطبته والدموع ملء عينيها قائلة « أيها الملك اللطيف ها قد تمّ لي السرور بمجيئك الى ريم وتتويجك فانت الآن الملك الحقيقي ولك يجب ان تكون المملكة » فشكرها لحسن صنيعها وسألها عما تتمناه من الخير مكافأة لها فقالت اطلب اليك ان تعفي مسقط رأسي (دومرمي) من سائر انواع الضرائب وما زالت تلك القرية ثلاثة قرون وقد دوّن بجانب اسمها في دفتر جابي الضرائب هذه العبارة « معفاة من الضرائب لاجل فتاة اورليان »

« ستأتي البقية »



باب المقالات

تاريخ الانسان

في أوائل العمران

ذكرنا في الهلال الماضي ماهية الانسان وكيفية وجوده وتفرقه تمهيدًا للموضوع الذي نحن فيه وسنتكلم فيما يلي عن تدرجه في الوصول الى اوليات العمران ولا بدَّ لنا في ذلك من البحث عن كلٍّ من حاجاته الضرورية على حدة وكيفية وصوله الى كل منها وتدرجه فيها من ابسط حالاتها الى ما هي عليه الآن مستندين ذلك الى الادلة العقلية المؤيدة بالشواهد الطبيعية والنصوص التاريخية فنأتي على تاريخ غذائه ولباسه ومسكنه ولغته وكتابته وصناعته وعلومه وغير ذلك من ضروريات العمران ونوجه التفات القارئ سلفًا الى ان ما سيرد من ابحاثنا في تاريخ الانسان مبني على المبدإ العلمي القائل بان الانسان وجد في اول عهده مجردًا عن كل ما نعلمه من صنائعه وفنونه وسائر انواع معائشه فلم يكن يعلم كيف يصطنع طعامه او يحوك لباسه او يبني منزله او يتلفظ بمقاطع الكلام او يصوّرها على الحجر او القرطاس وانه انما توصل الى ذلك كله بالتدريج تبعًا لمقتضيات احواله وحاجاته جريًا على ناموس الارتقاء العام ونبدأ بالغذاء فانه أقدم حاجياته

(١) الغذاء

معلوم ان الانسان من حيث حاجاته الجسدية لا يفرق في شيء عن سائر انواع الحيوان فالغذاء من اقدم حاجاته. وانواع الحيوان تختلف في انواع غذائها فمنها آكلة الاعشاب وآكلة الاثمار وآكلة الحيوان وآكلة الاسماك وغير ذلك وتقسم من هذا القبيل الى قسمين عظيمين آكلة النبات وآكلة اللحوم فالكلاب والهر والذئب وسائر الحيوانات المفترسة مثلاً تدعى آكلة اللحوم لأنها لا تأكل الاَّ اللحوم. والماعز والبقر وسائر الماشية والخيل والحمير تدعى آكلة النبات لأنها لا تأكل الاَّ الاعشاب كالشعير

والذرة والبرسيم وما شاكل ذلك ويندر ان ترى حيوانًا يقتات على النبات والحيوان معًا . ولا يشرب الحيوان غير الماء

أما الانسان فانهُ لم يغادر نوعًا من انواع الطعام نباتيًا كان او حيوانيًا الا تناوله فهو يأكل الاعشاب والاثمار وسائر انواع النبات ويتناول لحوم سائر انواع الحيوان من الاسماك والطيور والدبابات والهوام ولم يغادر نوعًا من السوائل الغذائية الا شربهُ فهو يشرب الماء والعسل واللبن والخمر على انواعهِ ويشرب عصير الاثمار وكثيرًا من مركباتها ويتناول كل ذلك ناضجًا او غير ناضج مطبوخًا او نيئًا حارًّا او باردًا فقد شارك الحيوانات المفترسة والداجنة من اكلة اللحوم وآكلة النبات ويكاد يشارك النبات في غذائهِ

على ان ذلك ليس فطريًا فيهِ وانما سبق اليهِ بطبيعة عمرانهِ وما اقتضتهُ بيئتهُ من التوسع في الحضارة والانغماس في الترف والاكثار من انواع الاطعمة والاشربة اما من حيث فطرتهُ فهو من اكلة النبات او انهُ من طبيعتهِ قادر على تناول الغذائين ولكن الغالب انهُ لم يتناول في اول ادوار وجودهِ الا النبات فبدأ اولاً بالاعشاب يأكلها اقتداء بآكلة الاعشاب ثم تدرج الى الاثمار يتناولها من الاشجار المرتفعة . والنصوص الدينية تؤيد هذا القول ففي سفر التكوين قال الله لآدم « من جميع شجر الجنة تاكل الخ » ولم يرد ذكر اكل الحيوان الا على اثر حكاية الطوفان بعد ان بارك الله نوحًا وبنيه حيث قال لهم « وكل حي يدب يكون لكم مأكلاً وكبقول العشب اعطيتكم الكل » كأنهُ يشير الى انهُ اذن لهم اولاً بأكل العشب فقط وقد اذن لهم الآن بأكل اللحوم على ان ذلك لا يدل دلالة قاطعة على ان الانسان لم يتناول لحمًا قبل الطوفان وانما اوردنا هاتين الآيتين تأييدًا لقول اهل العلم وتوفيقًا بين النصوص الدينية والحقائق العلمية

فالانسان اكل العشب اولاً ثم الثمر لاستغنائهِ في ذلك عن الادوات والعدد او السعي والمشقة فكان اذا استظل بفيء شجرة تناول ثمرها طعامًا واتخذ هيكلها ملجأ وحصنًا وخاط اوراقها كساء واستخدم اغصانها سلاحًا يدفع بها عنهُ غائلة الوحوش الضارية

ويمتاز الانسان عن سائر الحيوان بقواهِ العاقلة المساعدة لهُ في اختراع الطرق

للدفاع عن نفسه او السعي وراء رزقه فبعد ان عاش ازماناً يقتات على الاعشاب حدثته نفسه ان يتناول الحيوان طعاماً اقتداء بالحيوان المفترس وجرّه ذلك الى اختراع الادوات القاتلة وابسط تلك الادوات الاحجار والعصي فكان اذا اراد حيواناً رماه بحجر او ضربه بهراوة فيقتله ثم يعمد الى لحمه فينهشه نيئاً كما تفعل الوحوش والغالب انه أكل من انواع الحيوان اولاً الاسماك كان يلتقطها عن ضفاف الانهر أو شواطىء البحور فيقطعها باحجار محددة سيأتي ذكرها في الكلام على الصناعة ثم تفنن في نصب الشراك ورمي النبال واقتناء الحيوانات الداجنة ومعالجة لحومها على النار والتفنن في تناولها شياً وطبخاً مع النبات او بدونه ولا غنى له في كل ذلك عن النار

والنار من قدم اختراعات الانسان لا نستطيع ادراك زمان اختراعها لقدم عهدها عند سائر الامم القديمة والحديثة وهي كما لا يخفى صناعة اي ان اشعال النار يحتاج الى عمل صناعي لا يستطيعه الانسان الاَّ بالتعلم فاوّل ما يخطر على بال القارئ الاستفهام عن اوّل من اخترع النار او اكتشف اصطناعها والجواب على ذلك عسر لاعراق عهد النار في القدم حتى يستحيل الحكم في تعيين اوّل من اخترعها او زمن اختراعها . اما كيفية توصل الانسان الى النار فتدلنا عليها قرائن الاحوال مما نراه من حال بعض القبائل المتوحشة في اواسط اوستراليا وافريقيا واميركا على ان الانسان قد عرف النار اوّلاً مما كان يشاهده في الطبيعة من مقذوفات البراكين او ما يتفق حدوثه من الاشتعال كانفجار بعض المعادن او ما جرى مجرى ذلك ثم تعلم ايقادها بالتدريج فعلم بالاختبار اوّلاً ان الخشب او الحجر اذا لطم بعضه بعضاً او حك بعضه ببعض تولدت فيه حرارة . وكان يلتمس النار بادئ بدء للدفء فكان اذا دلك خشبة بخشبة شعر بشيء من الحرارة ثم جعل يكثر من الدلك ويتفنن فيه حتى تمكن بتوالي التجارب من ايقاد النار في بعض المواد الميتة السريعة الاشتعال كيابس العشب او ما جرى مجراه . وتوليد النار على هذه الطريقة لا يزال مستعملاً بين كثير من القبائل المتوحشة الذين لا يعرفون شيئاً عن اختراع الزناد او عيدان الكبريت ومن تلك القبائل من لا تنطفىء نارهم نهاراً ولا ليلاً فاذا خافوا انطفاءها زادوا وقودها لئلاَّ تنطفىء فيقاسوا في ايقادها مشقة كبرى ومن قوانين الرومانيين ان النار المقدسة في مذابحهم اذا انطفأت يعاد وقودها باحتكاك الخشب وهو أثر يدل على ان اجدادهم

كانوا يوقدون النار بالفرك . وقدح الزناد من اقدم طرق الاشعال او هو حلقة موصلة بين الاشعال بالفرك وبين عيدان الكبريت المعروفة . أما عيدان الكبريت هذه فقد بدأ باختراعها رجل انكليزي اسمهُ ووكر سنة ١٨٢٩ ولكنها لم تتم اصطناعها الاّ بعد سنة ١٨٣٤

فلما تيسر للانسان اشعال النار استخدمها للتدفئة والانارة ثم طبخ بها طعامهُ واقدم انواع الطبخ الشوي . بان تلقى قطع اللحم او السمك على النار مباشرة او على احجار محماة او ان توضع في جلد وتطمر في تراب محمى او غير ذلك من اساليب الطبخ وعلى هذا المبدأ اخترعوا الافران واهتدوا الى طرق السلق والتني . وكأن الانسان لم يكتف بتقليد الحيوانات الكاسرة في قتل الاحياء واكل لحومها وشرب دمائها حتى زاد عليها ان يقليها على النار ويشويها

ومن اهم الادوار التي مرّ بها الطعام في تاريخهِ اختراع الخبز وهو ايضاً قديم جدًا لا يدرك اولهُ والانسان لم يهتد الى طحن القمح وعجنهِ وتخبيزهِ وخبزهِ مرة واحدة او في وقت واحد والغالب انهُ اكتشف اولاً ان القمح اذا بُلَّ في الماء ثم عولج بالنار صار لدنًا لذيذًا سهل التناول كثير الغذاء فاستخدمهُ على هذه الكيفية اجيالاً ثم تدرّج من ذلك الى طحن الحنطة بين حجرين حتى اتصل الى عجنهِ وخبزهِ ارغفة واخيرًا اهتدى الى تخميرهِ على ما هو عليهِ الآن . على انهُ لم يصطنع الخبز من الحنطة فقط بل اصطنعهُ من الشعير والكرسنة والذرة وحبوب اخرى . اما كيفية اهتدائهِ الى كل من هذه الدرجات بالتفصيل والاسباب التي حملتهُ على اكتشافها كل ذلك من الامور الغامضة التي لا يرجى الاهتداء اليها

فاهمّ الدرجات التي تدرّج فيها الانسان بطعامهِ من اوّل ارتقائهِ الى الآن خمس (١) تناول العشب (٢) تناول الاثمار . وبين هاتين الدرجتين مسافة قصيرة وقد تختلطان (٣) تناول اللحوم نيئة (٤) طبخها بالنار (٥) اختراع الخبز . واخذ من ثم يتوسع في اساليب الطبخ والعجن ويتفنن في انواع المأكولات ثم تنوعت تلك التفننات وتعددت بتعدد الامم واختلاف احوالها حتى بلغت ما هي عليهِ الآن . على ان تلك الاختلافات ترجع الى مبدأ واحد هو الاغتذاء باللحوم والحبوب وانواع الخضرة ومهما اختلفت اساليب صناعة الطبخ فكلها راجع الى انضاج اللحم بالطبخ اما على حدة او

مع بعض انواع الخضرة والحبوب او ما شاكل ذلك · ويجدر بنا في هذا المقام ان نأتي على عوائد اشهر الامم القديمة في طعامهم وشرابهم ثم نذكر عوائد بعض الامم المتوحشة الآن فيها

طعام الامم القديمة

كان المصريون يأكلون السمك نيئاً مجففاً بالشمس او منقوعاً في الماء الملح ويتعاطون كثيراً من اللحوم نيئة كالسلوى والبط وبعض انواع الطيور بعد تمليحها وبعضهم كانوا يأكلون السمك مجففاً بحرارة الشمس فقط

وكانوا يتناولون طعامهم على انغام الموسيقى ويجعلون على موائدهم تماثيل صغيرة تمثل اجساماً محنطة كأنهم يريدون بذلك كبح جماح الشهوات بتذكير اصحاب المائدة ان نعيم الدنيا زائل وقد يطوفون بتمثال جثة محنطة حول المنزل يغنون الاغاني ويقولون كل واشرب وتمتع بملاذ الدنيا قبل ان يدركك الموت · وكانوا يبسطون موائدهم على الطرق ذكر ذلك هيرودوتس وقال انهم يحتجون عن ذلك بان الامور المعيبة اذا كان لا بد من عملها فلتعمل سراً اما غير المعيبة فجهاراً · ومما ذكره هذا الرحالة الشهير الذي زار مصر في القرن الخامس قبل الميلاد قوله وقد اراد المقابلة بين عوائد المصريين وعوائد الامم المعاصرة لهم « وسائر الامم يأكلون في محل لا تكون فيه بهائمهم واما المصريون فيأكلون مع بهائمهم · وفي كل البلاد يقتات الناس بالحنطة والشعير واما في مصر فالذي يأكلها يحسب نجساً وهم يأكلون الحنطة الحمراء (الحندقوقى) ويعجنون الدقيق بارجلهم لكنهم يرفعون الوحل والزبل بايديهم » ثم تكلم عن طعام الكهنة فقال « ولكل منهم نصيب خاص من اللحم المطبوخ المقدس وكل يوم يوزعون عليهم كميات كثيرة من لحم البقر والاوز وكانوا يعطونهم من الخمور خمر العنب ولكن لا يسمح لهم ان يأكلوا السمك والمصريون لا يزرعون الفول في ارضهم واذا ورد منه شيء من الخارج لا يأكلونه لا نيئاً ولا مطبوخاً والكهنة لا يطيقون ان يروه لانهم يعتقدون انه بقل نجس »

والبابليون ومن قطن بين النهرين كانوا كالمصريين في الاكثار من اكل الاسماك ولكنهم كانوا يزيدون على المصريين انهم يجففون السمك جيداً ويدقونه بالهاون ثم يغلونه بقماش ناعم ويصنعونه اقراصاً ويخبزونه كالخبز ويتناولونه

والفرس كانوا يأكلون قليلاً من اللحم ويتناولون الامار كيات قليلة على دفعات متعددة وكان من امثالهم « ان الاغريقي (اليوناني) يأكل ليسد جوعه لانه لو قدم له ما طاب اكله بعد الطعام وقد انقطع عن الاكل لاكله » وكانوا يكثرون من شرب الخمر

وكان اليونان في اقدم ازمانهم يقتاتون على تمر الارض ويشربون الماء القراح ولم يعتادوا تناول اللحوم الا في اوائل تمدنهم ثم اخذوا يتوسعون في الترف والتأنق بتوسع سلطانهم وانتشار نفوذهم على ان كثيرين من فقرائهم كانوا يقتاتون على الجنادب والفراش واطراف اوراق الشجر اما اغنياؤهم فكانوا متحمسين في الترف مكثرين من تناول اللحوم

وهكذا كان الرومانيون في اول ايامهم فانهم كانوا يقتاتون على ألبان الماشية والبقول ونوع من الحلوى مصنوعة من الدقيق والماء. فلما قامت دولتهم واتسعت سطوتهم تأنقوا في المآكل والمشارب واكثروا من اكل اللحوم وانواع المطبوخات والمعجونات وبالغوا في ايام جمهوريتهم في الاكثار من اكل الطيور وكان بعض اغنيائهم وولاة امورهم لا يرضون بالمائدة الا اذا كان عليها شيء كثير من رؤوس الببغاء وادمغة بعض الطيور الصغيرة النادرة الوجود

وكان العرب في جاهليتهم على جانب من شظف العيش لمحولة بلادهم وقد ذكر ابن خلدون ان مضر كانوا يأكلون العقارب والخنافس ويفاخرون باكل العلهز وهو وبر الابل يموهونه بالحجارة ويطبخونه في الدم أما طعامهم الاعتيادي بالاجمال فهو اللبن والتمر وبعض انواع الحبوب وكثيراً ما كانوا يطبخون دقيق الحنطة او الذرة باللبن او اللحم او ما شاكل فيصطنعون من ذلك انواعاً من الاطعمة تعد عندهم بالعشرات وانواع الحلوى تصنع عادة من الدقيق والعسل او السمن والعسل او الحليب والسمن والعسل او ما شاكل ذلك

طعام القبائل المتوحشة الآن

ونختتم الكلام في هذا الموضوع بخلاصة ما علمناه عن طعام الامم المتوحشة الآن في سائر اقطار المسكونة لمشابهتهم في حالهم هذه للانسان في اقدم ازمانه مستخرجة من اوثق المصادر مما كتبه القبطان كوك وباكر والكولونل دلتون ولسون وفوستر

وكولين وبنكرتن ومغيرج ونوكس وتنانت وبالي ومواث وداروين والسيرجون ليوك وغيرهم فنقول

(١) ﴿ الهوتنتو ﴾ وهم سكان جنوبي افريقيا مما يلي رأس الرجاء الصالح وطعامهم الاسماك والاثمار البرية ولحوم بعض الماشية ويطبخون طعامهم سلقًا بالماء في اجربة من جلد على حجارة حامية واحيانًا يسلقونه في القدر وقد يستعيضون عن الماء بالدم او يضيفون اليه قليلاً من اللبن وهذا الخير طعام لديهم

(٢) ﴿ سكان جزائر الاندامان ﴾ وهي جزائر واقعة شرقي بوغاز بنغالا يقتات اهلها على الاثمار البرية والمحار (ذوات الاصداف) ونوع من الشجر اسمه مان غروف ويصطادون أحيانًا صغار الخنازير ويأكلونها وهم لا يعرفون الخزافة (صناعة الخزف) وإنما آنيتهم الاصداف وقصب البامبو يحملون بها الماء ويصطادون الاسماك اما بالسنارة او يسجون في طلبها فيلتقطونها بايديهم

(٣) ﴿ الاوسترالبون ﴾ سكان جزيرة اوستراليا الاصليون وهم قبائل متعددة يختلفون في انواع طعامهم ولكنهم بالاجمال يقتاتون على بعض انواع الجذور والاثمار والفطر والمحار والضفادع والحيات والعسل والتراب والطيور وبيوضها والاسماك والبام والكلاب واحيانًا الحيتان وعجول البحر وقد يحومون حول جيفة الحوت كالوحوش الكاسرة ينتفون منها قطعًا يتناولونها . ولا يعرفون الخزافة وإنما آنيتهم الجلود وقشور الشجر ويوقدون النار بحك الخشب بعضه ببعض

(٤) ﴿ التسمانيون ﴾ وهم سكان جزيرة تسمانيا الواقعة مقابل جزيرة اوستراليا من طرفها الجنوبي ويعيشون على بعض انواع المحار كالحلزون والقوقع .

(٥) ﴿ الفيجيون ﴾ سكان جزائر فيجي في الاوقيانوس المحيط وطعامهم الاسماك والبام وذوات الاصداف والسرطان ويأكلون من الاثمار الموز وجوز الهند واما المترفون منهم فيأكلون لحم الخنزير والطيور وهم يأكلون ايضًا لحوم الآدميين اذا استطاعوا اليه وصولاً ومن امثالهم « ان الشيء الذي لا اشهى من لحم الانسان »

(٦) ﴿ الماوريون ﴾ وهم سكان جزيرة نيوزيلندا وأطعمتهم جزور السرخس او الخنشار يشوونها على النار ثم يعالجونها ضربًا بالعصي حتى يتساقط قشرها ويبقى منها بقية رخصة يتناولونها . وفي بعض انحاء الجزيرة يأكلون البطاطا الحلوة

ونظراً لجهلهم الخزافة يتخذون بعض انواع القرع آنية لحمل السوائل وغيرها واما اطعمتهم الحيوانية فاكثرها الخنازير والسمك وكثيراً ما يصطادون الدراج وغيره من انواع الطير ويولدون النار بفرك الخشب . وهم كالفيجيين يأكلون لحوم الانسان والفرق بينهما ان الفيجيين يأكلونها قوتاً كسائر انواع الاقوات واما الماوريون فانهم يأكلونها لغرض ديني خاص لاعتقادهم ان من اكل لحم رجل عظيم عظم قدره في الآخرة او في مستقبل حياته ولذلك فانهم لا يأكلون الا لحم من عظم قدره في اعينهم ويقيمون لذلك احتفالاً عظيماً

(٧) ﴿ التاهيتيون ﴾ سكان جزيرة تاهيتي اكبر جزائر المحيط جنوباً ويقتاتون على لحوم الكلاب وهم يربونها لهذه الغاية كما يربي الضأن لا يطعمونها الا الاعشاب ويأكلون ايضاً لحم الخنزير ولكنهم يفضلون لحم الكلب عليه ويتناولون الاسماك ويأكلون من النبات الموز وجوز الهند وقصب السكر والبطاطا وعندهم شجرة يسمونها شجرة ثمر الخبز تحمل اثماراً غزيرة تقوم عندهم مقام الخبز يقتاتون عليها ثمانية اشهر من السنة وفي الاربعة الباقية يقتاتون على نوع من المعجون يقال له (ماهي) يصطنعونه من مختمرات بعض الاثمار

وعليه فان معظم طعامهم من النبات ويولدون النار بالفرك ونظراً لجهلهم الخزافة لا يعرفون السلق في طعامهم ولكنهم يطبخونه بالشيّ وذلك انهم يحفرون حفرة يبطنونها بالحجارة ويجعلون فيها اللحم مغطى باوراق الشجر ويوقدون النار فوقه حتى ينضج فاذا جلسوا للطعام فرشوا بعض اوراق الشجر على الارض وجاؤوا بسلة فيها الطعام مغطى بورق الشجر وبينهم قشور جوز الهند يضعون في بعضها ماء عذباً وفي البعض الآخر ماء ملحاً ويغسلون افواههم وايديهم قبل الطعام بالماء العذب

(٨) ﴿ الاسكيمو ﴾ سكان شمالي اميركا الاصليون وطعامهم نوع من الوعل او الغزال يقال له الرنة وثور المسك وعجل البحر وبعض الطيور والسلمون (نوع من السمك) على انهم لا يعافون نوعاً من انواع اللحوم ولكنهم يحبون الدهن أما الاثمار فقليلة عندهم ولا سيما في الشمال . اما سكان الجنوب فيتناولون شيئاً منها على ان اهل الشمال يتناولون الثمر او العشب من معدة الرنة وقد هضم بعض الهضم ويتفاخرون بالحصول عليه . ويجففون الاسماك ويأكلونها نيئة . واما شرابهم فالماء

أو الدم وهم يعمدون الى شرب الدم لقلة المياه عندهم مع انهم يسكنون ارضاً مغطاة بالجليد

(٩) ✻ هنود اميركا الشمالية ✻ يقتاتون غالباً على لحوم الحيوان والاسماك وعندهم الجاموس والغزال والسلمون ومنها يتألف معظم طعامهم وقد يصطاد بعض أهل سواحل المحيط منهم الحيتان

(١٠) ✻ البتاجونيون ✻ سكان جنوبي اميركا الجنوبية ويقتاتون على لحوم الزرافة وعجول البحر وبعض الطيور ولا يعرفون الخزافة فيجعلون الماء او غيره من السوائل في مثانات الحيوانات وأهل السواحل منهم يعيشون على السمك يصطادونه رمياً بالنبال او يلتقطونه بايديهم ويأكلون ايضاً لحم الفرس وبعض انواع الجذور ولا يعرفون شيئاً من الاشربة المخمرة وانما شرابهم منقوع الشلاس وهو نوع من النبات عندهم وعصير بعض الاثمار ممزوجاً بالماء

(١١) ✻ النوجيون ✻ وهم سكان الجزائر الخضراء الواقعة في الاوقيانوس الاتلانتيكي الى الغرب من سواحل افريقيا الغربية مما يلي الرأس الاخضر من قارة افريقيا المعروف باسم (كاب فرد) يعيشون على الاسماك وبعض انواع الحيوان واما الخضرة فهي قليلة عندهم وارضهم قاحلة حتى انهم كثيراً ما يشكون القحط وهم يأكلون لحوم الآدميين اذا استطاعوا اليها سبيلاً

باب المراسلات

النارجيلة

سيدي الفاضل منشىء الهلال الاغر

رأيت رسم فيلسوف الشرق الاستاذ الاكبر الدكتور فان ديك بمجلتكم الزاهرة يدخن النارجيلة كما نوهتم في ترجمة حياته المباركة ونظراً لاني لا ادخن أي نوع من انواع التبغ كثيراً ما حصل بيني وبين مدخنيه وخصوصاً النارجيلة مناقشات طويلة فأردت ان اكتسب شهادة حضرة الدكتور نصيحة لابناء الشرق عامة الى

سيادتهِ بكتاب وتشرّفت بالجواب عليهِ مسطرًا بانامله المباركة حاويًا من عبارات الرقة واللطف ما أيد قولكم عنهُ في ترجمة حياتهِ ولكون مجلتكم قائمة بنشر الادب وبث النصائح بين الامم بخلوص نية تجاسرت بتسطيرهِ مشتملاً على سؤالي وجواب حضرتهِ آملاً نشرها بالهلال الاغر مع حفظ كتاب حضرة الدكتور المسطر باناملهِ ليكون بركة لي من مكارمهِ . وهاك صورة الخطاب المرسل مني

حضرة استاذنا العلامة فيلسوف الشرق الدكتور كرنيليوس فان ديك ببيروت

حسن اعمالك وانتشار معارفك دلاّني عليك . فجئت ارفع الشكر والثناء اليك بلسان يترنم بذكر مكارمك الحسان لاهل الشرق وسائر بني الانسان اطال الله بقاك . . . واني بهذه العجالة اطلب منك وانا محترم لمقامك مؤدب في وقوفي امامك اجابتي على سؤالي ليكون الجواب درسًا جيدًا لنا معاشر الشرقيين . من طبيب تغذى بالحكمة شابًا وشاب في بحارها وفيلسوف في كافة المعارف وفروعها وها هو السؤال

رأيتك تدخن النارجيلة وقد غازلت هواها جيلاً . فهل تعاطيها مليح ام قبيح متعب للصدر ام مريح . مضرّ بالصحة ام مفيد . افد الشرقيين بحكمتك يا دكتور الحكمة والفلسفة ولك الشكر الجزيل واسمح لي في الختام ان اقبل اياديك والسلام

٢٩ ربيع اوّل سنة ١٣١٢ كاتبه

محمد حسني العامري

كاتب بسابورنات السويس

وهاك الجواب الوارد من حضرتهِ

حضرة السيد الشريف محمد حسني العامري دام فضلهُ

بعد التحيات أُبدي اني تشرفت منذ يومين بألوكة ودكم المرقومة ٢٩ ربيع اوّل تستفهمون بها عن تدخين النارجيلة هل هو مليح ام قبيح متعب للنفس ام مريح مضر بالصحة ام مفيد فاجيبكم عن تروّ وتجربة واختبار ان التدخين من أي نوع كان عادة قبيحة مضرة ورذيلة كريهة متعبة للنفس ومؤذية للهضم مضرة بالصحة غير مفيدة ولا بدّ لكم من سؤال آخر ولو في الضمير اي « اذًا لماذا . . . . . الخ » فلا جواب عندي الاَّ ان النفس أمارة بالسوء . فبل من ساواك بنفسهِ ما ظلمك واذ ذاك فسمحت لكم بنفس بعد العشاء وانتهاء شغل النهار اماه لكم عن تشغيل النظر على النور الاصطناعي

كنتُ في ايام الشبيبة ادخن التبغ والتنباك كثيرًا فاذا دخل مكتبي احدٌ كاد لا يراني من عوق الدخان ثم وجدت من ذلك اضرارًا فتركته تركًا تامًا ولما اعتولى عليَّ ضعف البصر من كثرة المطالعة نهارًا واضطررت الى تركها ليلاً فدفعًا للزعل وتسلية للفكر نوعًا صرت ادخن نفس تنباك بعد العشاء وآخر قبيل النوم لتخدير الدماغ بعض التخدير جلبًا للنوم وكثيرًا ما ابطلت هذه العادة شهورًا متتابعة ثم غلبت النفس الامارة بالسوء مرة فعدتُ وعلى قول العامة « والعمل عمّال »

ولكن اسمح لي ايضًا سيدي بسؤال وهو ابن واي متى رأيتموني ادخن النارجيلة أفي اضغاث الاحلام او وشى بي عندكم من كان اولى بكتم السر ·

سألني كثيرون قبلكم ايها انفع تدخين النارجيلة او تدخين التبغ فاجبتكم بقول المثل الرقاقي . (كما حا كما حُين لعنة الله على الاثنين)

هذا سيدي مع المعذرة عن التصور عما تخفة ألوكة ودكم الكريمة الداعي

بيروت كرنيليوس فان ديك



باب السؤال والاقتراح

الطبيعة والطبيعيون والكتب المقدسة

(طوخ الترامُوس) الشيخ احمد محمد الالفي خادم العلم الشريف

جمعتنا الصدفة مع أحد الاصدقاء واذا بصاحب له اديب جاء وجلسنا معًا ولما تغاوصنا في الحديث في القديم والحديث أدى بنا الكلام الى الكلام على الطبيعة وما ذهب اليه علماؤها من المباحث المتنوّعة ثم الى الكلام على الكتب المقدسة فقال الاديب ان الطبيعيين ينكرون على هذه الكتب بانها ذكرت اشياء جليلة وحقيرة لم يذكرها التاريخ رأسًا بل ولم يشر اليها وانه يوجد بها اشياء لم تطابق على العلم الأ بعد ركوب مشقة التأويلات والتطبيقات العنيفة وهو بعيد عن الحكمة اذ الحكمة تقضي

على مثل هذه الكتب المقدسة بالتطابق بصريح اللفظ مع العلم الصحيح وانبعث بخوض في هذا الموضوع الى ان قال وعندهم يعني الطبيعيين انهُ لا حاجة الى هذه الكتب فان العقل يكفي في الهداية الى المعرفة بالحسن والقبح والدلالة على الصانع المسمى بالطبيعة عندهم فقلنا لهُ أهم يقرّون بالصانع جل وعلا فاجاب نعم يقرّون بهِ ولكنهُ يسمى عندهم بالطبيعة المؤثرة في جميع الكائنات الصلاح والفساد كما هو مسمى عند اهل الاديان بالاسماء الحسنى فقلنا لهُ لم نطلع على مدعياتك هذه في كتب الطبيعيين ولم نسمعها من علمائهم فكيف علمتها انت وعمن أخذتها فاجاب بأنكم لم تبحثوا في كتبهم المعوَّل عليها ولم تجتمعوا مع علمائهم الراسخين فقلنا لهُ هل تقول ما يقولون وتعتقد ما يعتقدون فاجاب لا ولكني لا أقدر على الحكم على بطلان معتقدهم لاحتمال صحتهِ في نفس الامر وبطلان ما عداه فنهيناه عن هذه العقيدة وقلنا لهُ الطبيعة وما اشتملت عليهِ في صنعة الباري جل وعلا وهو الاله الحق وعلومها مؤيدة لما جاءت بهِ الكتب المقدسة في نفس الامر وان لم يظهر للقاصرين فقد اظهرت المباحث العلمية كثيرًا من غوامض هذه الكتب فكيف تجاهر بهذا الزعم وتنسبهُ الى الطبيعيين وهم براء منهُ الآ من كان مادياً يقول بالمادة والقوة ولم نعلم ان الطبيعة عندهم اسم لصانع الخلق كما تدعيهِ والعلم الحقيقي لا بد من مطابقتهِ للدين الحقيقي كما جاهر بذلك المقتطف الاغر مرارًا فاجاب بأني احكم المقتطف بيني وبينكما في هذا الامر فتقرّر قرارنا على ذلك وكلفاني بأن استفتيكم فيهِ فنلتمس الاجابة على هذه المقترحات وهي هل الطبيعيون مقرّون بوجود الله سبحانهُ وتعالى ام لا وهل الطبيعة عندهم اسم من اسمائهِ تعالى ام لا وهل الكتب المقدسة مسلمة لديهم او لا واذا كانت مسلمة هل يؤمنون بالرسل او لا واذا كانوا لم يؤمنوا بالرسل الكرام ولا بالكتب المقدسة ولا بالله سبحانهُ وتعالى فهل عندهم دلائل عقلية تساعدهم على زعمهم او لا وما حدّ كل من المادة والطبيعة وهل هما شيئان أو شيء واحد ومن هم من الطبيعيين المنكرون لما ورد في الكتب المقدسة وهل يوجد في الكتب المقدسة ما لا ينطبق على التاريخ او العلم نرجو كشف اللثام عن وجه هذا المقام بكل حرية حسب ما هو مقرّر عند الطبيعيين ولا بأس من ايراد ما ترونهُ من الملحوظات في شأن هذا المبحث الجليل والله يتولى هدانا اجمعين

(المقتطف) لا بد لنا قبل الاجابة على اقتراح حضرتكم من ايضاح المراد بلفظ

الطبيعة والطبيعيين فالطبيعة تشمل الكون بما فيهِ من المادة والقوة والحياة باعتبار ماجريات الحوادث على مقتضى النواميس الجارية في الخليقة فهي غير الخالق جل وعلا والعلماء الطبيعيون هم العلماء الذين ينظرون الى هذا الكون من حيث النواميس المشار اليها ويسمونها النواميس الطبيعية ولا يعتقدون امرًا لا يطابق في اسبابهِ ونتائجهِ احكام تلك النواميس فاذا عرض لهم رأي نظروا الى احكامهِ من حيث مطابقتها للنواميس الطبيعية فاذا رأوه مطابقًا لها اعتقدوه او مناقضًا لاحكامها نبذوه او مخالفًا غضوا الطرف عنهُ ريثما تثبت لهم مطابقتهُ او مناقضتهُ . فاساس آرائهم المشاهدة والاختبار بالاسناد الى النواميس الجارية في الطبيعة ما قد ثبتت لديهم صحتهُ بقطع النظر عن الدين وكتبهِ اما اذا سئلوا عن صحة تلك الكتب فينقسمون الى فرق يخالف رأي كل منها عن رأي الأخرى كما سيجيء .

والكتب الدينية بالنظر الى ما نحن فيهِ تشتمل على ثلاثة امور (١) التاريخ وهو الحوادث التي وقعت للانبياء والرسل وغيرهم من حيث وجهها التاريخي وعلاقة ذلك بالحوادث التاريخية الاخرى (٢) الشرائع والسنن التي وضعها الانبياء والشارعون (٣) المعجزات وهي الحوادث التي ذكرت في تلك الكتب مما هو مخالف للمألوف عند الناس كافة بالنظر لما يشاهدونهُ او يسمعونهُ عادة

أما الأمر الاوَّل فلا دخل للعلماء الطبيعيين بهِ اذ هو من متعلقات علم التاريخ والمؤرخون اولى منهم بنقدهِ لبيان صحتهِ او فساده ولعلماء الآثار ابحاث دقيقة في شأنهِ لا علاقة لها بهذه الفقرة من سؤالكم

والأمر الثاني اما ان يراد بهِ وضع تلك الشرائع من حيث هي بقطع النظر عن علاقتها بالوحي فليس ثمَّ للعلماء الطبيعيين وجهٌ للنظر فيها او نقدها لانها لاتختلف في هذا الاعتبار عن وضع القوانين المدنية والسنن القضائية . او ان يراد وضعها بالنسبة الى الوحي وعند ذلك فالعلماء الطبيعيون فئتان فئة لا تسلم بالوحي وتزعم ان تلك الشرائع انما وضعها واضعوها من عند انفسهم او اقتبسوها من شارعين آخرين سبقوهم وحكمها عندهم حكم الشرائع المدنية وما جرى مجراها وحجتهم في ذلك ان الوحي مخالف للنواميس الطبيعية المعروفة . وفئة تسلم بالوحي وتعللهُ تعليلًا مسندًا الى تلك النواميس

أما الأمر الثالث فالطبيعيون بالنظر اليهِ فئتان ايضًا فئة تنكر حدوث المعجزات

لانها تناقض ما يعلمونهُ من النواميس الطبيعية وفئة تقول بامكانهِ استناداً الى اعترافهم بالقصور عن معرفة اسرار الطبيعة كلها فهم لا يقولون بصحة المعجزات لانها تخالف ما يعلمونهُ من احكام الطبيعة ولا ينكرون حدوثها مطلقاً لامكان علاقة ذلك بما يجهلونهُ من النواميس الطبيعية

فقد علمت مما تقدم ان الطبيعة ليست اسماً من اسمائهِ تعالى بل هي خليقتهُ ولا هي المادة بل تشمل المادة والقوة والحياة وسائر النواميس الطبيعية واما ايمان الطبيعيين بالرسل والانبياء فقد ورد الجواب عليهِ ضمناً في ما تقدم اذ هم ينقسمون في ذلك كما ينقسمون في ايمانهم بالوحي والمعجزات

بقي علينا الاجابة على فقرتين من اقتراحكم وهما (١) هل يسلم الطبيعيون بوجود الله (٢) هل يوجد في الكتب المقدسة ما لا ينطبق على العلم والتاريخ . فعلى الفقرة الاولى نجيب ان الطبيعيين من حيث التسليم بوجود الخالق ثلاث فئات كبرى . الفئة الاولى لا يسلمون بوجود شيء لا يقع تحت حواسهم وبعبارة اخرى لا يسلمون بوجود الخالق جل وعلا وهم الماديون وقد تقدم الكلام عليهم في كلامنا على مذهبهم في هلال السنة الثالثة . والفئة الثانية يقولون بوجوده ويستندون باقوالهم الى الادلة الطبيعية والبراهين العقلية ولكنهم يختلفون باختلاف تصورهم لصفاتهِ فمنهم جماعة لا يسلمون باوصافهِ الواردة في الكتب المقدسة كلها وينكرون علاقة السببية بماجريات هذا الكون فهم يقولون انهُ خلق الخلق ووضع فيهِ النواميس وتركهُ يجري بمقتضى تلك النواميس فكل ماجريات الكون انما تجري بعلمهِ وليس بأمرهِ وجماعة يسلمون بوجودهِ ويعتقدون ببعض صفاتهِ الواردة في الكتب المقدسة كالقدرة على كل شيء والوجود في كل مكان ويترددون في ما خلا ذلك وجماعة يقرُّون بوجود الخالق ويعترفون باوصافهِ الواردة في الكتب المقدسة ويطبقونها على النواميس الطبيعية تطبيقاً عقلياً جهد طاقتهم فاذا عجزوا عن تعليل بعض تلك الاوصاف نسبوا ذلك الى قصور العلم وعجز الانسان عن ادراك كل اسرار الطبيعة . أما اصحاب الفئة الثالثة فيترددون في حكمهم على الوجود بين الشك واليقين فاذا سئلوا عن رأيهم فيهِ قالوا لا ندري ويقال لهم من اجل ذلك « اللاأدرية »

أما مطابقة الكتب المقدسة للتاريخ والعلم او عدمها فيحتاج الى تفصيل فالعلوم

إما طبيعية او رياضية او عقلية فالطبيعية هي العلوم المبنية على احكام الطبيعة ونواميسها وقد تقدم الكلام عليها وإما الرياضية فلا علاقة لها بالكتب رأساً ولا ضمناً وإما العلوم العقلية فاساسها الفلسفة وموضوعها تعليل حوادث هذا الكون وتطبيقها على الحكمة في الخلق ومرجعها الى النواميس الطبيعية التي تقدم الكلام عليها . أما التاريخ المتعلق بالكتب الدينية فهو تاريخ الامم القديمة وهو لا يناقض الكتب الدينية اذا لم نقل انهُ يطابقها على ان الاكتشافات الحديثة في الآثار المصرية والاشورية والفينيقية وغيرها قد ابدت كثيراً من النصوص الواردة في التوراة وكانوا في ريب من صحتها . على ان معظم التاريخ القديم مأخوذ عن نصوص التوراة وفي اوربا الآن جمعيات كثيرة اهم واجباتها التنقيب في الآثار والاطلال لتأييد تلك النصوص ولا يمرّ عام لا يجدون فيهِ دليلاً جديداً على صحة التاريخ الديني على ان بعض حوادث التوراة لا تزال في حاجة الى التأييد ولكن ذلك لا يمنع صحتها ولا نظننا نحرم اكتشافاً يؤيد ذلك في المستقبل

نوع من العنب الاسود

(دمنهور) مراد افندي السودا المحامي

ارسلنا اليكم برفقة هذا البريد صندوقاً من التنك فيهِ جزء يسير من عنب اسود لا يوجد منهُ الا شجرة واحدة عند احد اعيان هذه المديرية وقد علمنا منهُ ومن احد اصدقائنا ان من اكل منهُ قدر ربع اقة او نصف اقة تأثر تأثير المسكر كانهُ شرب خمراً والذي رأيتهُ بهذا العنب ولم أره بخلافهِ الرائحة والطعم الموجودين فيهِ وقد شهد بذلك كثيرون ممن شاهدوهُ وأكلوا منهُ فالرجا افادتنا (بالهلال) عن خواصهِ المسكرة مع شرح ذلك علمياً ولحضرتكم الفضل

(الهلال) لا يظهر في المثال الذي ارسلتموهُ شيء يميز هذا العنب عن سواه من انواع العنب الاسود ما خلا الرائحة والطعم اللطيفين اللذين اشرتم اليهما اما الفرق بين تركيبهِ وتركيبها فلا نستطاع معرفتهُ معرفة دقيقة الا بالتحليل الكيماوي وهو غير ميسور لنا الآن ولكن يظهر مما ذكرتم من خصائصهِ ان تأثيره المسكر متوقف على تحول بعض سكره بالاختمار الى الكحول او تهيئهِ للاختمار السريع في المعدة لاسباب لا يمكن

﴿ أرمانوسة المصرية ﴾ (تابع ما قبلهُ)

قالت جئت يا سيدي بالامس لزيارة كنيسة المعلقة على جاري العادة ثم لم أشعر الاَّ وقد جاءت الجنود ودخلوا الحصن ثم جاء ابن الأعيرج فاخرجنا من الكنيسة قسرًا فخرجت مع سائر الراهبات وكان من أمرنا ما قد علمت فلبثت في ذلك الدهليز انتظر اشراق الصباح لاعود الى منف وفيما كنت أخاطب رئيسة الدير اخبرتني ان راهبًا جاء في صباح الامس يسأل عن سيدي والدك وان معهُ كتابًا لهُ فسألت عن ذلك الراهب فأخبرتني الرئيسة انهُ خرج من الكنيسة في ضحى هذا اليوم وانها لم تعد تراهُ ولا ادري أين ذهب ولكنها اخبرتني انهُ من رهبان دير .... في برية تيبايس يحمل كتابًا من البطريرك بنيامين الذي فرَّ من بطريق الاسكندرية الى هناك كما تعلم[1] وانهُ لما علم بقدوم الجنود الرومانية الى الحصن خاف ان ينكشف أمر الكتاب فدفعهُ اليها لكي تخفيهُ عندها ريثما يستطيع الخروج بهِ الى والدك فأخفتهُ الرئيسة في صندوقها بين ثيابها لئلا يعلم بهِ اولئك الظالمون ولم تكن تعلم انهم سيخرجونها مع سائر الراهبات ويحتلوا الدير فلما جاؤوا الدير واخرجوهن منهُ لم تتفق لسرعتها ودهشتها ان تستخرجهُ فبقي في الصندوق وأخاف اذا وصل الى ايديهم ان يحنوا عليهِ العلائي والقصور اذ ربما كان فيهِ ما يؤاخذ سيدي عليهِ

فلما سمع ارسطوليس كلامها سكت برهة يفكر وهز رأسهُ كأنهُ ادرك المراد من قدوم ذلك الراهب بذلك الكتاب ولكنهُ خاف سوء العاقبة فارتبك في امرهِ وقال لبربارة وما السبيل الى الحصول على هذا الكتاب الآن وانا لا اقدر ان اطلبهُ من اركادبوس صريحًا فهل تستطيعين حيلة توصلنا اليهِ

قالت اقدر باذن الله اذا اعطيتني كتابًا الى اركادبوس تقول فيهِ ان رئيسة الدير تريد استخراج إيقونة من صندوقها لتصلي لها كجاري عادتنا وان يأذن لي بالدخول الى الكنيسة لاستخراج تلك الايقونة منهُ بدون ان يتعرض لي احد وانا اتم الحيلة

فسرَّ ارسطوليس بحيلتها وهمَّ بقطعة من البابيروس كانت في جيبهِ وكتب عليها ما اشارت بهِ بربارة فتناولتها وخرجت فرحة فقال لها ارسطوليس ولكن لا تطيلي

(١) الجريدة النفيسة

الغيبة بل ارجعي اليَّ بالكتاب حالاً فقالت طب نفساً لان غيابي لا يتجاوز فجر الغد ثم قبلت يده وخرجت والكتاب في يدها

فتذكر ارسطوليس شقيقته فنادى بربارة وقال لها اخبريني هل سافرت سيدتك ارمانوسة الى بلبيس

قالت نعم يا سيدي

قال ولماذا لم تذهبي برفقتها

قالت استأذنتها بالبقاء بضعة ايام هنا لاني تذرت عليَّ ثم الحق بها

قال اسرعي اذاً بما انت ذاهبة به فودعته وخرجت

ولبث ارسطوليس بعد ذهابها وقد خلا بنفسه فنزع خوذته وسلاحه وتوسد متعداً يلتمس الراحة بعد ما قاساه من التعب في ترتيب الجند وتدبير اماكنهم اثناء النهار واخذ يفكر في امر الراهب وكتابه وقد ادرك ان الكتاب مرسل من بنيامين بطريرك الاقباط الى والده يحثه فيه على مسالمة العرب وبذل الجهد في التخلص من نير الرومانيين ولكنه احب تحقق ظنه فصبر نفسه الى الصباح (١)

أما بربارة فسارت تواً الى الرئيسة فتناولت منها مفتاح صندوقها وسارت الى كنيسة المعلقة فاعترضها الخفر فاراهم كتاب ارسطوليس الى اركاديوس فتحول لها الباب

وكان اركاديوس لا يزال غارقاً في هواجسه وقد اطل من النافذة على النيل يفكر في محبوبته ويبحث عن وسيلة للوصول اليها فاخذت تتقاذفه الافكار متردداً بين اليأس والامل لا يدري كيف يصل اليها او يبلغها مقاصده وأكبر همه لديه ان يطلعها على عظم حبه لها ويغرس في ذهنها ان ما بين والده ووالدها لا يحول بين اقترانها اذا ثبتت في حبه على انه كان من الجهة الثانية خائفاً من عاقبة أمره اذا اطلع والده عليه لعلمه بما في قلبه من الضغائن على المقوقس وما بين الامتين من النفور ولكن الحب سهّل عليه كل صعب حتى انه احب امة الاقباط كافة من اجل محبوبته ومال الى التشيع لم رغبة في مرضاتها وتم على الساعة التي ولد فيها رومانياً والاحوال التي تشيع بها والدها للاقباط لان كلا الامرين حال بينه وبينها

وفيما هو في تلك الهواجس اذ دخل عليه احد رجاله يخبره بأمر العجوز وكتابها

(١) مارسل

فعجب لامرها وقال هاتي الكتاب منها فقال لم تشأ ان تسلمنا اياه وقالت انها غير مأذونة الا بتسليمه اليكم يدًا بيد قال فلتدخل فدخلت تحمل ذلك الكتاب وقبلت يد اركاديوس فحالما رآها استأنس بمنظرها وتذكر انه شاهد مثل ذلك الوجه ولكنه لم ينتبه لها ولا لاسمها ولا للمكان الذي شاهدها فيه ولكنه شعر بارتياح الى منظرها فابتسم لها وتناول الكتاب منها والرجل الذي جاء بها لا يزال واقفًا فاشار اليه ان يخرج فخرج ثم نظر الى العجوز وسألها عن امر الكتاب فقالت نسينا الايقونة يا سيدي في الصندوق وهذا هو المفتاح فهل تأذن لي بفتحه واستخراج الايقونة فلما سمع اركاديوس كلامها ازداد استئناسًا بها واحب استطلاع حقيقة امرها فقال لها ولكن كيف تدخلين بنفسك بين الجنود وهم مالئون الغرف

قالت وماذا يخيفني اذا كنت ذاهبة بأمر سيدي اركاديوس . وكانا يتخاطبان باللغة القبطية لانه كان يعرفها جيدًا كما قدمنا . فقال لها ألعلك من اهل هذا الدير ولكني لا أرى عليك لباس الراهبات

قالت لست من اهل الدير ولكني نزيلة فيه جئت للصلاة ووفاء بعض النذور فلما جاءت الجنود خرجت في جملة من خرج وقد كلفتني رئيسة الدير ان آتيها بالايقونة

فقال ولماذا لم تأت هي بنفسها او ارسلت احدى راهباتها

قالت لانها لا تجرأ على مخاطبة سيدي ارسطولبس بشأنها فبعثت بي لمخاطبته فاعطاني هذه التوصية اليك

فقال وكيف تجرأت انت على مخاطبته

قالت لاني من بعض خدم قصره

فلما سمع اركاديوس ذلك خفق قلبه وتنسم الخبر من بينها فعوّل على ان يستخدمها في تبليغ عواطفه الى محبوبته فقال وأي قصر تعنين

قالت قصر يعقوب لاني خادمة خصوصية لشقيقته سيدتي ارمانوسة

فلما سمع اسم محبوبته انتعشت جوارحه وشعر بالفرح توسمًا للفرج ولكنه تجلد وقال لها هل انت خادمة ارمانوسة الخصوصية

قالت نعم يا سيدي بل انا مربيتها واذا شئت قل إني بمنزلة والدتها

فتنهد حينئذٍ اركاديوس وجلس ودعا بربارة للجلوس فجلست واخذ يخاطبها

محاذرًا لئلاَّ يسمعهُ أحد . اما هي فقالت في نفسها ها قد قربنا من بلوغ المرام

فقال اركادبوس قد اصابت ارمانوسة بوضع ثقتها فيك لاني قد قرأت سورة الاخلاص على محياك فهل عندك للسر مكان

قالت اني جعبة اسرار عميقة فقل ما بدا لك ولا تخف

قال هل تعلمين من تخاطبين

قالت نعم يا سيدي اني اخاطب اركادبوس ابن الاعيرج قائد الجيوش الرُّومانية في مصر

قال وهل تعلمين ما بين الرُّومانيين والاقباط في مصر

قالت اذا كنت تعني غير النفور القائم بينهما فربما لا اعلم

قال لا بل اياه اعني و يظهر لي انك تعلمين من الاسرار ما لا يعلمهُ اعاظم رجالنا فهل تعلمين ما في قلب أرمانوسة

قالت نعم اعلم انها تحب والدها ووطنها

قال لا تخبي ظني فيك فانا لم اسألك عما يخالج صدر كل قبطي ولكني اسألك سؤالاً ارجو ان تجيبني عليه جوابًا يفتح لي مجالاً للتكلم معك فيما لم اكلم بهِ احدًا سواك

قالت وما الداعي للمدافعة في الكلام قل وافصح ولا تخف فها ان نفسي في قبضة يدك واقسم لك بحياة حبيبتي ارمانوسة ان سرَّك لا يتجاوز هاتين الشفتين الاَّ باذنك

قال قد احسنت الجواب فاعلمي ان لي مأربًا بسيدتك ارمانوسة وقد احببتها حبًا شديدًا فهل تعلمين شيئًا من ذلك قبلاً

قالت وأي شيء تعني

قال (وقد ملَّ المدافعة) اعني الاستفهام منك اذا كنت تعلمين بهذا الحب قبلاً او بلغك منها او لمحتِ من حديثها شيئًا مثل ذلك

قالت يجدر بي ان اكون السائلة هذا السؤَال

قال وما ذا تعنين

قالت اعني انك يجب ان تكون اعلم مني بذلك فهل تشعر انت انها تحبك

قال اراك تدافعين وتحاولين اخفاء الحقيقة لاني لم اسألك اذا كنت انا احبها ولكني سألتك اذا كانت هي تحبني

قالت وهذا ما اردتهُ من سؤالي اذ من القلب الى القلب دليل فاذا كنت تشعر انك تحبها حباً حقيقياً فلا بد من ان تكون هي ايضاً تحبك مثل حبك لها

قال قلت اني احبها فاذاً هي تحبني وهذا ما كنت اعتقده واتحققهُ وقد احسنتِ بالدفاع عنها وكتم حبها خوفاً مما يخافهُ كل محب في مثل هذه الحال فاذاً هي تحبني وقد تحقق ظني فانا اعترف لك اعترافاً قلبياً اني احب ارمانوسة حباً شديداً يهوّن عليّ كل صعب

فارادت بربارة ان تستطلع مقاصده ونواياه . فقالت ولكن يا سيدي ما الفائدة من حبك لها وانت تعلم ما يحول دون الوصول اليها ولا يخالُ لي ان حضرة والدك يقبل باقترانك بها لما قدمت من الاسباب فما الفائدة من هذا الحب

فهزّ رأسهُ وتنهد وقال لا أرى دون الوصول الى ارمانوسة صعباً لا يذللهُ هذا السيف واشار الى سيفهِ

فقالت انا اعلم عزائم الرجال الاشداء وانها تذلل الصعاب ولكن الامر لا يقضيهِ السيف وانما هي حقوق والدية قد تكون ارهف حدّاً من الصوارم فهل تعصو والدك يا سيدي فارى ان لا تعرض بنفسك لغضبهِ وانت ادرى بما ينجم عن ذلك . ولكن هب انك ذللت كل هذه الصعوبات فما ذا تصنع بقسطنطين

فادرك مرادها وكان قد سمع بخطبتها لهُ ولكنهُ كان في ريب من حقيقة ذلك فاراد ان يتحققهُ فقال واي قسطنطين تريدين

قالت قسطنطين ابن هرقل الامبراطور

قال وما علاقتهُ بهذا الامر

قالت يا للعجب كيف تتجاهل عن هذا الامر وهو معلوم لدى كل مصري

قال وما ذلك قولي

قالت ألا تعلم انها مخطوبة لهُ

قال مخطوبة ؟ واظهر التعجب . . . وهل قبلت هي به ؟

قالت لا ادري ولكني اعلم انها سارت في صباح الامس من قصرها بجانبها مع سيدي والدها الى بلبيس حيث تكون في انتظار خطيبها

فلما سمع اركاديوس ذلك هبَّ عن كرسيهِ بغتة وصاح بها ويلك ماذا تقولين

قالت أقول الصدق يا سيدي فانها برحت القصر قبل ان ابرحه انا وهي الآن في طريقها الى بلبيس. فحمي غضبه وجعل يخطر في الغرفة ذهاباً وإياباً ينظر تارة الى بربارة وطوراً الى النافذة ثم يقف فيتشاغل بفتل شاربيه واخيراً وقف بغتة وقال لها هل قبلت ارمانوسة بقسطنطين فكيف تقولين انها تحبني اهذه هي المحبة العل قسطنطين اقرب الى قلبها مني ...

فقالت لم اقل يا سيدي انها احبتة او فضلته عليك ولكني قلت انها سارت مع والدها الى بلبيس واظنها فعلت ذلك اذعاناً لامره وهو لا اظنه يستطيع مخالفة أمر الامبراطور وعلى كل فانها الآن ذاهبة الى بلبيس ولا ندري اي متى يأتي خطيبها للاقتران بها . ها اني اخبرتك الامر كما وقع واما قلبها فاسأل قلبك عنه

وكان اركاديوس لا يزال يخطر في ارض الغرفة وقد اخذ منه الغضب ماخذاً عظيماً فلما قالت له ذلك نظر اليها مغضباً وقال اما قلبي فيحدثني بانها لا يمكن ان تنظر الى سواي ولو كلفها ذلك مخالفة امر والدها

فقالت كيف تنتظر منها ذلك وهي فتاة وقد رأيتك وانت شاب باسل تتردد في مخالفة والدك اذا منعك منها

فحملق وقد احمرت عيناه وقال كيف تقولين اني اتردد وانا اقول لك ان لا شيء يمنعني منها الا الموت ووضع يده على قبضة حسامه وقال وما دام هذا الحسام الى جانبي لا ارى صعباً في البقاء على ودها ولو قاومني قسطنطين بل لو قامت عليَّ جنود ابيه برمتها ما رجعت عن عزمي الا اذا كانت هي راضية بقسطنطين ومن يخبرني بما في سرها عنه

فادركت بربارة انه مصم على الاقتران بها ولو حالت دونه المصاعب فقالت وما الفائدة اذا عرفت ما في ضميرها

قال ان في معرفة ذلك حلاً لهذا المشكل. قالت اجعل انها لا ترضاه وانها باقية على حبك فما يترتب على ذلك

فالتفت اليها وقد استل حسامه من غمده وشهره بيمينه وهزه قائلاً اما اذا تحققت بقاءها على ودي فاني احارب في سبيل الوصول اليها جنود هرقل برمتها ولا انثني عن ذلك حتى انالها او اقتل

قالت خفف عنك واعلم ان دون بلوغ ذلك ليس فقط جنود هرقل ولكن دونه ايضاً غضب والدك وربما ايضاً غضب والدها

فقال ولكن يا بربارة اذا كان قلبها مثل قلبي فانا لا نخشى دركاً ولو قامت علينا الارض بالطول والعرض فاخبريني عن حقيقة نواياها ولكن في كلامك هذا القول الفصل فاما ان اوطن النفس على ارمانوسة واناضل عنها بحد هذا السيف واما ان اقول عليها وعلى الدنيا السلام . قولي ولا تطيلي الكلام

فلما رأت ما هو فيه من الغضب وقد علمت انه ثابت في محبتها ثبوت الجبال نظرت اليه مبتسمة وقالت اذا كنت تحب ارمانوسة تفضل واجلس لا نبئك بمكنونات قلبها فاجابها وقد هدأ غضبه قائلاً نعم اني احبها قولي . وجلس مصغياً اليها

فقالت له اعلم يا سيدي ان ارمانوسة تحبك حباً ليس بعده غاية اما قسطنطين فهي لا تعرفه ولا تريد ان تعرفه وقد قلت لك انها سارت برفقة والدها ولكنها انما سارت رغماً عنها اذعاناً لامره واحتراماً له اما قلبها فهو عالق باركاديوس البطل الهام ولم آت هذا الدير الا لاستطلاع مكنونات قلبك واعلم مقدار حبك لها اما وقد عرفت شغفك بها فقد هان الصعب وخاب قسطنطين وطالما كنا على وفاق ووداد فلا يدرك ذلك الرجل شعرة من رأسها وها قد اخبرتك الحقيقة فتدبر الامر ولا ريب عندي انها ثابتة في حبك ولا ترضى بسواك ولو مهما كلفها ذلك من المشاق ولا سيما اذا علمت بما دار بيننا وقد فارقتها على ان اقابلك ونتواطأ على وسيلة تنقذها من مخالب ذلك الرجل

فابرقت أسرة اركاديوس ونظر الى بربارة وقد فرح قلبه وأشرق وجهه وقال اما والحال على ما تقولين فلا نخاف احداً وانا لها وهي لي ولا عبرة فيما يسعى فيه الناس فانهم انما يضربون في حديد بارد . اما قسطنطين فاذا لم يقتل بسيوف العرب بحرب الشام فاني قاتله بحد هذا الحسام ولكنني احب ان تعلم ارمانوسة ذلك لتزداد ثبوتاً حتى يقضي الله امراً كان مفعولاً . وما علينا الآن الا ان تذهبي اليها وتخبريها بعزمي وتقولي لها ان اركاديوس حبيبك ثابت في محبتك ثبوت الجبال فاثبتي انت وانتظري الفرج من عند الله او من سيف اركاديوس

فقالت اما اخبارها بذلك فعلى هذه العاجزة التي تتعهد ببذل نفسها في سبيلكما

فطيبا نفساً وقرّا عيناً وغداً ان شاء الله ادبر حيلة في الذهاب اليها واطلعها على ما دار بيننا واعلمك بما سيكون و بسرُّني كثيرا ارتباط قلبيكما

ثم فكرت قليلاً وقلبها فرح بما علمت فرأت ان تثبت قوله بالعمل وتعود الى سيدتها بما يحقق أملها فقالت . ولكن يا سيدي ما الذي يثبت قولي لها و يوطد علائق المحبة بينكما وانتما الى الآن لم تتشافها

فلبث اركادبوس مدة صامتاً يفكر ثم قال صدقت ولكن ما ذا عساي ان ارسل اليها وما انا في استعداد لذلك ثم مد يده الى خاتم في يده يريد اخراجه ولكنه لبث برهة ممسكاً الخاتم كأنه يهم باخراجه و يعترضه خاطر فيمنعه. واخيرًا نزع الخاتم وقدمه الى بربارة وقال خذي هذا الخاتم فانه خاتمي وقد نقش عليه النسر الرّوماني واسمي وسلميه اليها يداً بيد واحذري ان يعلم بذلك احد واعلمي اني قد سلمتك شرفي و وضعت فيك ثقتي وهي اول مرة خاطبتك فيها فلا تخيبي املي بك واطلب اليك ان تحفظي ما دار بيننا واحذري ان تومئي به امام أحد فانك اذا اصغيت الى مقالي وسلكتِ مسلكاً يرضيني نلت خير الجزاء اما اذا بحت بالامر او خالفت وصيتي فانت تعلمين جزاءك

فتناولت الخاتم وقبلته وقالت طب نفسا وقرّ عينا فاني الخادمة الامينة لك ولسيدتي فانها اعزّ من روحي

الفصل العاشر

البطريرك بنيامين

ثم نهضت فقبلت يديه وطلبت اليه ان يأمر بمن يوصلها الى صندوق رئيسة الدير وان لا يتعرَّض لها احد بشيء . فنادى خادمه الخصوصي واوصاه ان يرافقها الى حيث تريد فسارت واخرجت الكتاب خلسة وتظاهرت بحمل الايقونة وترلت حتى اتت مقام الرئيسة وسائر الراهبات فسلمتها الايقونة

سنأتي البقية

العلامة باستور البكتريولوجي الفرنساوي

(ولد سنة ١٨٢٢ وتوفي سنة ١٨٩٥)

(١) تاريخ حياته

هو لويس باستور ولد في دول من أعمال فرنسا في ٢٢ دسمبر سنة ١٨٢٢ وكان ابوهُ دباغاً انتقل بعدئذ الى اربوا وإقام فيها فتلقى لويس مبادئ العلوم في مدرستها ثم في بسانسون حتى نال رتبة البكالوريا وتولى التعليم على انهُ كان طامعاً في العلى لما فطر عليهِ من الذكاء وعزة النفس فسار الى باريس ودخل كلية سان لويس سنة ١٨٤٣ فمكث في المدرسة الاعدادية بضع سنوات فتعين سنة ١٨٤٦ مساعداً في تدريس الكيمياء ونال رتبة الدكتورية سنة ١٨٤٧ وفي السنة التالية تعين استاذاً للطبيعيات في مدرسة ديجون وانتدب لنيابة جمعية العلوم في ستراسبورج ثم عهد اليهِ تنظيم جمعية العلوم التي تأسست اذ ذاك في ليل وبعد ثلاث سنين عاد الى باريس وتولى ادارة الدروس العلمية في مدرسة المعلمين العليا

وفي سنة ١٨٦٣ تعين استاذاً للجيولوجيا والطبيعيات والكيمياء في مدرسة الفنون الجميلة وفي سنة ١٨٦٧ تعين استاذاً للكيمياء في سوربون وما زال هناك الى سنة ١٨٧٥ فانتخب عضواً في اكاذيمية العلوم وقلده المجمع العلمي في بون رتبة الدكتورية وفي سنة ١٨٦٩ تعين عضواً اجنبياً لجمعية لوندرا الملكية وفي سنة ١٨٧٣ تعين عضواً في المجمع العلمي وفي سنة ١٨٨١ انتدب لعضوية الاكاذيمية الفرنساوية ليقوم مقام العلامة ليتري وفي سنة ١٨٩٢ منحتهُ جامعة اكسفورد لقب دكتور في العلم وفي سنة ١٨٨٧ اجمعت اكاذيمية العلوم على انتخابهِ سكرتيراً لها لكن حالتهُ الصحية وكثرة اشغالهِ الخصوصية لم تؤذنا لهُ بمعاناة هذه المهمة فاستعفى على انهم سموه سكرتير شرف لها طول حياتهِ

وقد عمل هذا الرجل اعمالاً ذات شأن اوجبت انهيال الالقاب والنياشين عليهِ من سائر الجمعيات على اختلاف مواضيعها وتواردت عليهِ الانعامات من معظم الدول فاهدتهُ جمعية لوندرا الملكية نيشان رومفور مكافأة على ابحاثهِ في التبلور سنة ١٨٥٦ ونيشان كوبلي سنة ١٨٧٤ . ومنحهُ وزير الزراعة بالنمسا سنة ١٨٧٤ جائزة مقدارها

عشرة آلاف فلورين مكافأة على اكتشافهِ الوسيلة الفضلى لمعالجة مرض دود الحرير ووهبتهُ الجمعية التنشيطية الفرنساوية اثني عشر الف فرنك مكافأة لخدماتهِ في دودة الحرير والخمر والخل والجعة وقرَّر له مجمع الامة راتبًا سنويًّا مقداره ١٢ الف فرنك يتولى قبضهُ ما دام حيًّا فضلًا عن معاشهِ التقاعدي الذي كان يتناولهُ عن الاستاذية وانعم عليهِ جلالة السلطان الاعظم بمئة الف فرنك تنشيطًا له في بحثهِ بداء الكَلَب وفي سنة ١٨٨٢ عينتهُ جمعية الاقتصاد السياسي الروسية بالاجماع عضو شرفٍ فيها واهدتهُ نيشانًا ذهبيًّا . وفي تلك السنة اهداه مجلس جمعية الصناعة والمعامل والتجارة نيشان ألبرت مكافأة على اكتشافهِ في الاختمار

ولما بلغ العام السبعين من سنيهِ تألفت لجنة من اشهر علماء فرنسا وغيرها واحتفلوا بتذكاره السبعيني احتفالًا رأسهُ رئيس الجمهورية اذ ذاك الموسيو كارنو . وبين اوراق الحكومة الفرنساوية امر عالٍ بتاريخ ٢٧ يوليو سنة ١٨٧٠ ممضى من نابوليون الثالث والموسيو اوليفيه يقضي بترقيتهِ الى رتبة المشيخة . وقد نال نيشان اللجيون دونور سنة ١٨٥٢ بدرجاتهِ المتدرجة بعد الاخرى الى رتبة غران كروا هذا فضلًا عن النياشين والالقاب التي منحت له من الدول والجمعيات الفرنساوية وغيرها مكافأة على خدمتهِ

وللعلامة باستور فضلًا عن مذكراتهِ التي كانت تنشر في المجلات العلمية وتقارير الجمعيات عدة مؤلفات طبعت على حدة منها كتاب في الاختمار وآرائهِ الحديثة فيهِ وآخر في الكرم وآفاتهِ واسبابها وآخر في الجعة وآفاتها واسبابها وآخر في الخل وآفاتهِ وطرق الوقاية منها وآخر في مرض دودة الحرير وآخر في الميكروب وآخر في انتقاد ما كتبهُ كلود برنار في الاختمار وغير ذلك وقد كتب تاريخ العلامة باستور في حياتهِ كثيرون وافضل ما كُتب عنهُ كتاب الفهُ صهره الموسيو فاليري رادو سنة ١٨٨٢ وسماه «كتابة جاهل عن عالم» : جمتهُ الى الانكليزية لادي كلود هملتون سنة ١٨٨٥

ولما كان منتصف هذا العام اصاب صاحب الترجمة اعتلال لم ينجع فيهِ دواء فقضى في ٢٨ سبتمبر (ايلول) الماضي بين اصدقائهِ وتلامذتهِ واهلهِ واولاده فاحتفلوا بجنازتهِ احتفالًا جديرًا بمقامهِ ودفنوه بمدفن عائلتهِ موقتًا ريثما يبنون له مدفنًا خاصًا في معملهِ وكانت الحكومة الفرنساوية عازمة على دفنهِ في البانثيون مدفن العظماء والامراء ولكن عائلتهُ اظهرت رغبتها في دفنهِ بالمعمل تذكارًا لخدماتهِ فيهِ

(٢) أعماله وخدماته

لا غرو اذا رأينا الجرائد الفرنساوية بل جرائد العالم باسرها تندب فقد هذا الرجل فقد خدم العالم خدماً قلّ ان يتأتى لغيره مثلها لانها تتعلق بحياة الافراد وحفظ الانواع ولا عجب اذا رأينا الامة الفرنساوية تشق الجيوب اسفاً عليه فانه خيرة علمائها ونخبة فضلائها وقد نبغ بين الفرنساويين في اواسط هذا القرن ثلاثة من اقطاب العلم والفلسفة وهم فيكتور هيكو وارنست رينان ولويس باستور صاحب الترجمة وهو آخر من توفي منهم ولعله افضل من خدم العالم والعلم من ابناء هذا القرن وهاك شهادة العلامة هكسلي الانكليزي بذلك وهي شهادة مناظرٍ له علماً ووطناً قال « ان اكتشافات باستور تكفي وحدها لتعويض الغرامة الحربية التي دفعتها فرنسا الى المانيا ومقدارها خمسة مليارات فرنك »

قضى العلامة باستور معظم حياته عاملاً باحثاً مكباً على كتبه ومعمله لا يعرف راحة الاَّ باكتشاف يتوفق اليه او تجربة يجربها او حقيقة يعثر عليها ومما يوجب له الشكران ابحاثه تتعلق راساً بالانسان ووقايته من الامراض والآفات فقد اماط اللثام عن كثير من الحقائق الطبية اثناء بحثه الكيماوي

واوّل درجة ارتقاها في سلم الاكتشاف تعليل الاختمار واسبابه فقد كان القدماء يظنون الاختمار مسبباً عن ارواح تحاول الخروج من الجسم المختمر فتعترضها مواده فتمددها وتنفخها حتى تفتح لها سبيلاً ومن رأي العلامة ليبغ الكيماوي الالماني الشهير ان الاختمار حركات باطنية تنبعث من مواد البومينية في حال الانحلال ورأى غيره آراء اخرى كلها ابهام وخلط فابان باستور بالتجربة والاختبار ان الاختمار تفاعل كيماوي يتم بواسطة احياء ميكروسكوبية تعيش وتتغذى ببعض عناصر المادة المختمرة

وتوصل اثناء بحثه في الاختمار الى اكتشاف نوع من الاحياء الميكروبية تعيش بغير هواء سماها (انايروبي) وهي التي يتوقف عليها الاختمار وساقه البحث في ذلك الى نفي التولد الذاتي وقد فصلنا هذا البحث في جوابنا على اقتراح في بعض اعداد الهلال

وبحث في اختمار اللبن وتحوّل سكره الى حامض لبنيك فتوصل الى طريقة لمنع اختمار اللبن الذي كثيراً ما سبب امراضاً مميتة للاطفال والطريقة هي غليه على النار وقد استفاد الهيئة الغذائي فوائد جمة من نتائج بحثه في اصطناع الخمر والجعة

وعندهم لتنقية الخمر من الميكروب طريقة يسمونها التبستراي معالجتها بطريقة باستور

وبعد ان اثبت ان الآفات المرضية التي تتولد في المواد المختمرة لا تتولد تولداً ذاتياً بل تنشأ عن جراثيم حيوية سابحة في السائل قبل اختماره قال ان الامراض الوبائية المعدية ايضاً لا تتولد من ذاتها بل تنشأ عن جراثيم حيوية سابقة لها وتابع ابحاثه لتقرير هذه الحقيقة فاكتشف سنة ١٨٧٠ الاحياء الحلمية المسببة لآفة دود الحرير وفي سنة ١٨٧٧ اكتشف ميكروب الجمرة والبكتيريا الجمرية التي كان يبحث فيها دافين قبله واجرى تجارب كثيرة بشأنها وشأن ميكروب كوليرا الدجاج وجمرة الخنازير والحمى العفنية والدمامل وغيرها واكتشف طرقاً ومهد السبيل الى طرق للوقاية منها بالتطعيم من الحيوانات او الآدميين المصابين بها ومن أهم نتائج ذلك الاكتشاف تطعيم داء الكلب وهي خدمة جعلت ذكر العلامة حياً مدى الدهور فالوفيات بهذا الداء من المصابين به كانت قبل اكتشافه خمسين بالمئة فاصبحت خمسة في الالف وفي سنة ١٨٨٨ شاد معمله المشهور لتطعيم الكلب فاخذ الناس يتقاطرون من سائر انحاء العالم التماساً للعلاج او للتطعيم . اما ذلك المعمل فهو اشبه بمدرسة عملية للبحث في اسباب الامراض وعلاجها وخصوصاً الامراض المعدية ومن اشهر تلامذته في ذلك المعمل الدكتور رو مكتشف العلاج المصلي لداء الخناق وقد تقدم ذكره في السنة الماضية من الهلال . ومن افضاله على الطب والاطباء (وان لم يكن هو طبيباً) اكتشافه تطعيم الجمرة فانها تنجي ملايين من الارواح كل سنة وكان داء الجمرة كثير الانتشار في جزائر الغرب وتونس والمجر واوستراليا وروسيا وغيرها

ومن افضل مآثر ابحاثه في الميكروب وعلاقته بالامراض المعدية فاثبت ان اسباب الامراض المعدية احياء ميكروبية كما قدمنا وان استنبات تلك الاحياء تتولد مفرزات مضادة لسم تلك الامراض وعلى هذا المبدأ توصل الدكتور رو الى اكتشاف العلاج المصلي للدفتيريا وينتظر توصلهم الى معالجة سائر الامراض المعدية بالتلقيح

ومن اثمار ابحاثه الوقاية من حمى النفاس لانه اثبت حدوثها عن جراثيم عفنية تمتصها الجروح الناتجة عن الولادة فباستخدام المواد المضادة للنساد اثناء التوليد تمتنع الحمى وقد علم من التقارير الطبية ان ثلث الوالدات في باريس كنّ يذهبن فريسة الحمى على اثر الولادة اما بعد هذا الاكتشاف فقد عني زملاؤه وتلامذته في استخدام

المواد المضادة للفساد في التوليد حتى اصبحت وفيات الولادة في مستشفيات باريس نادرة جدًّا ناهيك عما استفاده الطب المنعي (الهيجين) من ابحاثهِ ومن جملة ذلك ترشيح مياه الشرب بطريقتهِ بالمرشح المعروف باسمهِ وخلاصة القول انهُ اكتشف عالمًا جديدًا فاضاف على العلوم الطبية علمًا جديدًا هو علم الميكروب جزاه الله خيرًا

(٣) صفاتهُ الشخصية

كان العلامة باستور ربع القامة ممتلئ الجسم ثابت الجنان صبورًا على الابحاث العلمية دقيق النظر صحيح الحكم وديعًا متواضعًا ميالاً الى البساطة نفورًا من الفخفخة لصغر في نفسهِ ولكنهُ كان يرى نفسهُ اكبر من ان تتأثر لاطراء المادحين وارفع من ان تلتمس اجرًا في خدمة الانسانية وكان يلتذ لتذكر اوائل حياتهِ ويطرب لترداد ذكرها . وكان مخلصًا حسن السريرة مجدًّا في عملهِ قلما تراه ضاحكًا او مبتسمًا الاَّ لنجاح شاهدهُ في عملهِ او نجابة آنسها في بعض تلامذتهِ او رفاقهِ وكان لسعة شهرتهِ كثير الحساد ولكنهُ لم يكن يشعر بالانانية ولا حدثتهُ نفسهُ بالسوء على احد وكان اذا خدم وطنهُ انما يخدمهُ التماسًا لخيرهِ لا اجتلابًا لاحترامهِ مؤثرًا المحبة العائلية على الشهرة الطائرة ولم يكن يتمتع بالراحة الاَّ اذا اجتمع باهلهِ واولاده واحفاده

وكان حسن العقيدة لم يفه بكلمة تدل على ارتيابهِ بوجود الخالق بل كان متين الاعتقاد بوجودهِ جل وعلا الى آخر نسمة من حياتهِ وفي ذلك عبرة لمن يظن المنافاة بين العلم والدين وكان غيورًا على وطنهِ قائلاً بقولهِ داعيًا الى دعوتهِ يدلك على ذلك ما كان منذ عهد قريب عند ما ازمع امبراطور المانيا على اهدائهِ وسامًا ساميًا فانهُ اعتذر عن قبولهِ بدعوى وطنيتهِ الفرنساوية . وكانت روسيا قد منحتهُ شهادة مدرستها الطبية فلما كانت حادثة سنة ١٨٧٠ الشهيرة رد تلك الشهادة الى اصحابها كل ذلك دليل على صدق وطنيتهِ ناهيك عما اكسب فرنسا من الفخر بخدمتهِ لبني الانسان

جان دارك

(تابع ما قبلهُ)

فلما اتمت جان دارك مهمتها هذه حسبت نفسها اقامت بما انتدبت له وكان المنتظر ان تعود الى قريتها للهدو والسكينة ولكن يظهر انها احبت ان تتم عملا كانت فرنسا في غاية الاحتياج اليهِ اذ ذاك وذلك ان تخرج الانكليز من فرنسا كلها وتعيد زمام

احكامها الى ملكها ومع ذلك فقد طرأ على الفتاة تغيير في اخلاقها فاصبحت منقبضة النفس ضيقة الخلق لا تسمع هتاف الهاتف الا قليلاً لكنها قامت لاتمام ما عزمت عليه فاوعزت الى الملك ان يسرع رجاله الى باريس لاستخراجها من ايدي الانكليز ولكن جماعة المملقين الجبناء حوله كانوا يخوفونه من غائلة تلك الحملة ولكنه خرج لاستلام مفاتيح بعض البلدان التي سلمت له بعد ذلك التتويج فطاف كثيراً منها فقضى مدة اضاع بها الفرصة لافتتاح باريس وقد اجمع العارفون جملة انه لو اصغى لمشورة جان دارك لافتتح باريس واخرج الانكليز منها ولكنه جاءها بعد فوات الفرصة على انه تردد قبل الوصول اليها كثيراً اما الفتاة فاتفقت مع دوق السن على المسير الى باريس وافتتاحها فوافقها وسارت الحملة ولكن نجم سعدها كان قد افل والجند قد انغمسوا في الترف والسلب والنهب وانشغلوا عن طلب المجد بالعذاء على انها هاجمت المدينة بضع مرات واذا بأمر من الملك بان تنسحب الجنود فلم تصغ الى امره وكانت تعرف جسراً يصلح للهجوم على المدينة منه ولكنها دهشت لما رأت ذلك الجسر قد هدم بأمر الملك نفسه وهو ضعف ما زال المؤرخون يذكرونه لشارلس السابع هذا ويقولون انه ارتكب به خيانة كبرى ضد فرنسا اما جان دارك فانها خلعت سلاحها ودروعها وعلقتها جميعاً عند صورة مريم العذراء في كنيسة القديس دينس

واتفق ان بعض الحامية الانكليزية على نهر لوار تعدوا حدود فرنسا فبعث شارلس جنداً لقمعهم وارسل جان دارك في الحملة فعادت ظافرة ثم اعتزلت الاعمال ومكثت اشهراً منقبضة النفس لا يعزيها الا اعالة الفقراء . اما ادوارد وصي مالك انكلترا في باريس فانه ما انفك يبذل الوسائل الخفية ويعد المعدات لقهر الفرنساويين فبعث جنداً لمحاصرة ريمس فشكا اهلها للملك فلم ينجدهم فتحركت الحمية في رأس جان دارك فسارت خفية في حملة صغيرة ولم تودع الملك ثم علمت ان جنود دوق بورغنديا محاصرون لحصن كومبيان فسارت اليه ووقعت بينها وبينه غير وقعة واخيراً اضطرت الى المحاربة بشرذمة قليلة من رجالها وكان البورغنديون اكثر عدداً والانكليز ينجدونهم فلم تقبل على نفسها الفرار فثبتت في ساحة الحرب حتى قبض عليها وسيقت اسيرة الى بين يدي جون لوكسمبرج احد عمال دوق بورغنديا فلبث هذا مدة ينتظر مخابرة او مكاتبة من شارل او غيره لتخليص هذه الفتاة بالفدية او غيرها فلم يرد عليه

علم ولا خبر فباعها للانكليز بعشرة آلاف جنيه فاخذ بدفورد يسعى في وسيلة الحكم عليها بالاعدام وخابر بذلك بعض رؤساء الدين فوعدوه بتنفيذ مرامه وكان لبعضهم ثار عليها اما هي فلما سمعت بانها بيعت للانكليز غاب رشدها واصابها نوع من الجنون فألقت بنفسها من محبسها الى الارض مسافة ستين قدماً انكليزياً فأصيبت باضرار جسدية وعقلية وكانت تقول انها بليت بهذا الشر لانها عصت هاتفها

وفي ٣٠ دسمبر سنة ١٤٣٠ سيقت الى روين لمحاكمتها وبعد شهرين حاكموها في مجلس جمع نخبة اللاهوتيين ورجال الدين بفرنسا وطالت المحاكمة اربعة اشهر وكانوا قد منعوها الصلاة شهرين قبل المحاكمة والقوا اليها اثناء المحاكمة مسائل يعجز عن الاجابة عليها فحول الرجال فاجابت عليها بشجاعة وبسالة ولم يجدوا في كل اقوالها ما يستوجب الاعدام فشددوا عليها التجارب لعلها تعترف بما بقي في سرها فقالت لهم « لو قطعتموني ارباً ما سمعتم مني غير ما قلته » وفي ٢٤ مايو سنة ١٤٣١ صدر عليها الحكم وصادق عليه مجلس التفتيش وجامعة باريس فساقوها والناس يزاحم بعضهم بعضاً ليشاهدوا فتاة اورليان ذاهبة الى مقتلها ومما يذكرونه عن ذلك المشهد ان قسيساً وقف يلقي خطاباً على مسمع منها فسلقها بالتأنيب والتوبيخ وهي لا تجيب حتى ذكر الملك شارل وقال انه هرطوقي فنطقت في عليه الكلام قائلة « اقسم بايماني ان ملكي هذا كان مسيحياً حقاً » ثم تلوا عليها صورة الحكم واعادوها الى السجن على شرط ان لا تعود الى لباس الرجال وانها ستبقى في السجن مدة حياتها فاحست بصغر النفس ولم تحتمل ذلك الحكم فوجدوها مرة اخرى بلباس الرجال فجاؤوا بها في ٣٠ مايو سنة ١٤٣١ وقد كتبوا على صدرها هذه الالفاظ « هرطوقية ناكثة رافضية وثنية » ثم وضعوها على اكمة من الحطب واوقدوا فيها النار حتى احترقت وآخر كلمة سمعوها منها « يسوع »

هكذا كانت نهاية هذه الفتاة العجيبة فانها عملت كل ما عملته ولم تبلغ العشرين من عمرها فهي من عجائب الزمان وغرائب مواليد النساء ويزعم بعض الكتاب انها لم تقتل بل ابدلوها بغيرها وبقيت حية اعواماً عديدة ولهم على ذلك ادلة لا محل لها هنا

باب المقالات

تاريخ الانسان

في أوائل العمران

(٢) المأوى

تكلمنا في الهلال الماضي عن تاريخ غذاء الانسان وهو أوّل ما اضطر اليهِ من حاجيات حياتهِ. والمفروض في بحثنا ان الانسان وجد مجرَّدًا من كل ما رآه فيهِ من اوليات العمران لا يمتاز في شيء عن سائر انواع الحيوان الاَّ بقواه العاقلة واستعداده للتعاقل وانهُ انما تدرج الى تلك الاوليات بحكم الضرورة حفظًا لحياتهِ واستبقاء لنوعه

قلنا في المقالة الماضية انهُ وجه التفاتهُ اولاً الى الطعام فتناول منهُ ما وصلت اليهِ يداهُ لحفظ قوتهِ البدنية. ويلي الطعام من ضروريات الحياة المأوى وليس ذلك حكمًا عامًا في الحيوان كحكم الغذاء فان كل حيوان يحتاج الى الطعام ولكن نزرًا يسيرًا منهُ يحتاج الى المأوى والانسان اكثر الحيوان حاجة الى ذلك على ان بعض انواع الحيوان لا طاقة لها بمفارقة مأواها ليلاً ولا نهارًا وبعضها تجعل بيوتها كساء لها كالسلاحف والقوقع وسائر انواع المحار فان الاصداف التي تكسوها انما هي بيوت تبنيها بغريزة جعلها الخالق فيها تقيها من الطوارق الطبيعية

أما الانسان فقد توصل الى بناء المأوى تدريجًا تبعًا لمقتضيات بقائهِ فشعر اولاً بحاجة الى ملجإ يقيهِ حمارة القيظ صيفًا وصبارة البرد شتاء وكان يرتعد لقصف الرعد وهبوب الريح ويخاف وثوب الوحوش الكاسرة فلجأ اولاً الى اظلال الاشجار فاتخذها مبيتًا لهُ فكان اذا سمع قصف الرعد مثلاً ظنهُ هاجمًا يريد افتراسهُ فيسرع الى شجرة يستظل بها او صخر يختبئ وراءه فان رأى شبحًا بعيدًا ظنهُ وحشًا مفترسًا فيتسلق الشجرة يستتر بين اغصانها مذعورًا وعيناه شاخصتان الى ما حولهُ لئلاَّ يذهب فريسة الوحوش فرأى مقامهُ بين الاغصان قد يمنعهُ من الضواري ولكنهُ لا يقيهِ المطر والريح

فتفنن في بناء هذا المأوى متمثلاً بالطير في بناء عشو فجعل يرتب الاغصان على شكل جدران تساعد في دفع تلك المحذورات وربما كان ذلك غالبًا في الاصقاع الخصبة ذات الاشجار اما سكان البلاد القاحلة فاضطروا اولاً للالتجاء الى الصخور ثم ما لبثوا ان اهتدوا الى الكهوف والمغاور الطبيعية فاذا هي اكثر مناعة واقوى على دفع طوارق الطبيعة فاتخذوها مأوى يقيمون فيها ليلاً فاذا طلع الفجر خرجوا يطلبون الغذاء. ولا يزال كثير من الكهوف القديمة باقيًا الى يومنا هذا وفيها آثار الآدميين وادواتهم تدل على سكناهم تلك الاماكن دهورًا

على ان الانسان قادر بفطرته على الاختراع والاستنباط في ما تسوقة اليه ضرورة معيشتهِ وهو مطبوع على التقليد والاقتداء فلما رأى الكهوف سكنها ثم لما سكن ارضًا لا كهوف فيها جعل يتقلد الطبيعة فنحت الكهوف وبنى البيوت بالعصي والاغصان تقليدًا للطيور في بناء اعشاشها ولا تكاد ترى امة نشأت في بلاد قاحلة الاَّ اتخذت الكهوف والمغاور مأوى لها ويؤيد ذلك ما رواه مؤرخو المسلمين فقد قالوا عن قبيلة عاد انهم كانوا ينحتون بيوتهم في الصخر بين الحجاز والشام وان حضرة صاحب الشريعة الاسلامية بينما كان عائدًا من غزوة تبوك مرَّ بها فنهى عن دخولها. وفي انحاء الصعيد المصري كثير من امثال هذه المغاور كان يتخذها المصريون مدافن ولعلهم سكنوا بعضها

أو لعلهُ اراد تقليد الطيور في بناء اعشاشها فغرس عصيًا على شكل دائرة وملأ ما بينها بالاغصان ثم رأى اوراق الشجر لا تلبث ان تتساقط اذا جفَّت فغطاها بتراب مجبولاً بالماء تشبهًا ببعض اصناف الطير فصار ذلك البناء كوخًا والغالب ان بنيتهُ على شكل مخروطي او هرمي لاستغنائهِ في ذلك عن السقوف

وربما كان ابسط ما خطر للانسان في بناء المنازل بالاحجار انهُ حمل بضعة احجار ضخمة او دحرجها وجمعها فرتبها على شكل مربع او ما يشبههُ ثم جاء ببعض الاعمدة والاغصان او جزوع الشجر فجعلها سقفًا او استعان بجيرانهِ وابناء قبيلتهِ على رفع صخر كبير اقامهُ مقام السقف ولا يستطيع ذلك منهم الاَّ شيخ القبيلة او كبير العائلة ولو اتيح لنا تصور قرية اولئك القوم في عالم الوهم لرأيناها عبارة عن عشرات من الاكواخ المبنية بالاغصان والاعمدة على اشكال مخروطية او هرمية او موشورية اشبه شكلاً ببعض الخيم البدوية وفي وسطها بيت قائم من الصخور المشار اليها .

وفي اطلال بعض جهات اوربا وغيرها ابنية يتألف الواحد منها من خمسة احجار اربعة للجدران وحجر للسقف وابنية أُخرى يتألف احدها من دائرة من الاحجار الضخمة سقوفها احجار مثلها وقد عثروا على مثل هذه الابنية في بعض انحاء الهند واميركا وافريقيا وبلاد العرب وفي اكثر الآثار القديمة السابقة لزمن التاريخ على ان بعض قبائل الهند لا تزال حتى الآن تقيم مثل هذه الابنية تابيدًا لقسم او تذكارًا لعهد

كل ذلك والانسان لم يهتدِ الى نحت الحجارة او اصطناع القرميد . على انهُ لما اهتدى الى نحت الاحجار بنى اولاً البيوت الهرمية كالاهرام المصرية وما شاكلها وفي بعض اصقاع اوربا اثار لابنية قديمة العهد اشبه شكلاً بالاكواخ المصرية مصنوعة من الطين او الطين والحجر والاغصان او ما شاكل ذلك سقوفها مستديرة او مخروطية كما ترى في هذا الشكل



أما اصطناع القرميد ونحت الحجارة على الاشكال المعروفة فقديم جدًّا لم يدركهُ التاريخ وبعض الآثار المصرية الباقية الى هذا العهد في انحاء الصعيد قد مرَّ عليها آلاف من السنين وبعضها من ابدع ما صنعتهُ يد الانسان

فيستنتج مما تقدم اجمالاً ان الانسان تدرَّج في صناعة البناء من تقليد الطبيعة في نحت الكهوف وتقليد الطيور في اصطناع الاكواخ الى اصطناع الجدران من الصخور الضخمة على غير انتظام ثم اصطناع الجدران المنتظمة على اشكالها البسيطة واخيرًا توصل الى بناء الاشكال الكروية كالاقواس والقناطر وسائر الاشكال الهندسية في البناء ونحت التماثيل المشابهة لبعض انواع الحيوان كالاسود واعظم ما بقي منها تمثال ابي الهول القائم بجانب اهرام الجيزة وهو تمثال اسد برأس انسان نحتتهُ العائلة المصرية الثالثة وهو اقدم التماثيل المعروفة واضخمها

ثم جعلت صناعة البناء تتسع وتتفرَّع تبعًا لاحوال العمران حتى تعددت انواعها ولكل نوع منها نمط خاص كالنمط المصري والاشوري والعبراني واليوناني والرّوماني

والبيزانتي والغوطي والكاثي والعربي وغيرها وللاحاطة باطراف الموضوع نصف للقارئ اشهر انواع البناء فنقول

أشهر اشكال الأبنية

تنقسم الابنية باعتبار المراد بها الى ثلاثة اقسام (١) الابنية المدنية (٢) الابنية البحرية (٣) الابنية الحربية وتنقسم باعتبار اشكالها الى عدة اقسام تبعاً للامم التي تنسب اليها تلك الابنية وهاك اشهرها

(اولاً) الشكل المصري . وهو اقدم اشكال البناء ويمتاز عنها كلها بالاهرام والمسلات ولا يزال كثير منها باقياً الى هذا العهد واشهر الاهرام اهرام الجيزة اما المسلات ففي جهات الصعيد كثير منها وهي اعمدة مستطيلة ذات اربعة سطوح تنتهي بقمة هرمية الشكل والمسلة مؤلفة من حجر واحد صلب منحوت نحتاً متقناً عليه نقوش هيروغليفية واقرب المسلات الينا مسلة المطرية الشهيرة . ومن اشهر الابنية المصرية الهياكل ومنها ما هو مؤلف من غرفة واحدة بسيطة او غرفة يحيط بها عدة اعمدة ومنها الهياكل ذات الاروقة بعضها ذات رواق امامي مؤلف من عامودين واربعة اعمدة ومنها ذات الاروقة الكثيرة الاعمدة ومنها الهياكل ذات الابنية المخروطية مفردة او متعددة ويتقدم الهياكل المصرية غالباً صحن متسع محيط بسور . واشهر الهياكل المصرية هيكل الكرنك وهيكل ادفو وهيكل أُنس الوجود وغيرها وفي بعض تلك الهياكل اعمدة عظيمة الحجم يبلغ قطر بعضها ١١ قدماً او يزيد والابنية المصرية القديمة مبنية بالحجر الصلب يعرف اكثره بالحجر الاسواني لانه مقطوع من مقلع بالقرب من اسوان واكثر تماثيلها ومسلاتها مصنوع من الحجر الصواني المعروف بالغرانيت ولا يكاد يخلو أثر مصري من نقوش هيروغليفية او رسوم مصرية

(ثانياً) الشكل الاشوري . تمتاز الابنية الاشورية بانها مبنية غالباً على مرتفعات اصطناعية كانوا يبنونها بالقرميد والطين ثم يقيمون عليها البناء ليكون ناتئاً عما يجاوره من الارض ويصنعون له سلماً يصعدون به اليه وتمتاز الابنية الاشورية ايضاً بانها مبنية من القرميد وندر الحجر في بنائها والقرميد كانوا يصنعونه بجبل الطين واصطناعه قطعاً يجففونها بحرارة الشمس والابنية الاشورية قائمة الزوايا وليس في جدرانها شيء من النوافذ او ما يشبهها والمظنون ان نوافذها كانت في سقوفها والآثار الاشورية

لا نكاد نخلو من النقوش الاسفينية وفي الكتابة الاشورية او رسوم بعض الحوادث الحربية او غيرها

(ثالثًا) الشكل اليوناني · للابنية اليونانية القديمة نمطان احدهما قديم جدًّا وهو في غاية البساطة يشاهد شيء من امثلته في ارغوس وميسينا وغيرهما والنمط الآخر وهو المشهور يمكن ردُّه تاريخيًا الى الشكل المصري والغالب ان اليونانيين اقتبسوه من المصريين كما اقتبسوا سائر العلوم والفنون واقرب الابنية اليونانية الى المصرية الشكل المعروف منها بالدوري فالهياكل اليونانية مبنية على باحة يصعد اليها بثلاث درجات كبيرة لا يكاد الانسان يستطيع الخطو من الواحدة الى الاخرى بغير توسط درجات صغيرة بينهما وفي الابنية اليونانية كثير من الاعمدة الرخامية والصوانية وتمتاز بأنها ليست عمودية الوضع تمامًا لكنها مائلة يسيرًا نحو الداخل ومن اشهر الابنية اليونانية الباقية آثارها الى الآن البناء المعروف بالبارثنون في اثينا وهيكل مينارفة في اجينا وغيرهما

(رابعًا) الشكل الرّوماني · الشكل الرّوماني ايضًا نمطان قديم وحديث وكلاهما مقتبس فالقديم مأخوذ عن الاتروسكانيين والحديث عن اليونانيين وعليهِ فلا حاجة الى وصف الابنية الرّومانية ولكننا نذكر منها نمطًا اشتهر كثيرًا وهو المعروف بالنمط البيزانتي نسبة الى بيزانتيون (القسطنطينية) حدث بعد انقسام المملكة الرّومانية الى المملكتين الشرقية والغربية وينسب منشأهُ الى الامبراطور قسطنطين عند ما اعاد بناء القسطنطينية واشهر امثلة الشكل البيزانتي جامع اجيا وصوفيا في الاستانة فانهُ من بناء الامبراطور يوستينيان سنة ٥٣٢ م

(خامسًا) الشكل العربي · لا ريب في ان شكل الابنية الاسلامية مقتبس عن الشكل البيزانتي المتقدم ذكره الاَّ الاقواس المشابهة لحدوة الفرس بشكلها فهي خاصة بالعرب اما ما خلا ذلك فيصح القول بانهم اخذوا صناعة البناء كما هي عن مهندسي القسطنطينية لانهم لما قامت دولتهم في صدر الاسلام وما بعده واخذوا في بناء الجوامع والقصور والمدن كانوا يستقدمون البنائين والمهندسين من القسطنطينية ثم اقتبسوا فن البناء عنهم وادخلوا فيهِ بعض التغيير تبعًا لمقتضيات احوالهم حتى نشأ الشكل الذي سميناه بالعربي ويسميهِ الافرنج بالمراكشي او الاسلامي او الاندلسي واشهر

الابنية الباقية على الخط العربي بناء الحمراء في اسبانيا

وهناك اشكال للبناء غير ما تقدم لا يسعنا المقام لذكرها فضلاً عن استيفاء وصفها فاننا انما اردنا في ما تقدم الاشارة الى الموضوع تتمة للكلام على تاريخ المأوى واما الاستيفاء فيحتاج الى باب خاص او كتاب خاص وربما عدنا الى ذلك في فرصة اخرى

الجمعية الماسونية

ومما يستحق الذكر في تاريخ المأوى نشأة الجمعية الماسونية المعروفة بجمعية البنائين الاحرار ولفظ الماسون معناه البنّاء لان هذه الجمعية كانت جمعية بنائين عمليين يبنون المدن والحصون والكنائس والهياكل . والفضل في تأسيسها للرومانيين فان مهدها مدينة رومية ومؤسسها نوما بومبيليوس ثاني ملوك الرومانيين سنة ٧١٥ ق م وذلك انه لما توفي روملس مؤسس رومية اختار الرومانيون نوما هذا وكان حازماً عاقلاً فجعل للصناعة شأناً مهماً فاستقدم الصناع من سائر اقطار العالم المتمدن اذ ذاك وفيهم اليونان والمصريون والفينيقيون وقسم الصناعة الى حرف وطوائف وجعل لكل طائفة امتيازات وفي جملة ذلك طائفة البنائين فخصصها بامتيازات خاصة وعهد اليها بناء الهياكل وما تحتاج اليه الدولة من الحصون والمعاقل وانشأ لها المدارس وخوّلها وضع الشرائع لنفسها واعفاها من سائر انواع الضرائب ورتبها على شكل كان مثالاً لما صارت اليه . فكانت الدولة الرومانية اذا ارادت بناء قلعة او هيكل او مدينة عهدت بذلك الى جمعية البنائين فترسل الجمعية فئة يقومون بهذا العمل . وكانوا يرافقون الجند الروماني حيثما حل كما ترافق فرق المهندسين جند هذه الايام فانتشروا في انحاء الارض وهم الذين بنوا جميع الهياكل الرومانية والمدن والقلاع والكنائس والاسوار الباقية آثارها الى الآن تدل على اتقان صناعة البناء

وكانت تلك الصناعة سرًّا مكتوماً فيما بينهم لا يبوحون به لاحد الاّ بعد اختباره والاقرار على قبوله عضواً في جمعيتهم وما زالت هذه الجمعية تنتشر وتتقوى وتتفرّع حتى عظم امرها وصار يخافها الملوك والامراء .

على ان صناعتها لم يمكن حفظها مكتومة كتماناً تاماً فضعفت الرابطة التي كانت تربط هذه الجمعية بعضها ببعض حتى خيف انحلالها وتلاشيها فاجتمع جماعة من كبار

رؤسائها سنة ١٧١٧ م في انكلترا واقروا على تحويل موضوع هذه الجمعية من البناء العملي الى البناء الرمزي وصارت الجمعية الماسونية من ذلك الحين جمعية رمزية وهذا معنى استعمال المسميات الهندسية في سائر اعمالها استعمالاً رمزياً وكانت في طورها العملي لا تقبل بين اعضائها الاَّ البنائين واما في الرمزي فلم تعد تميز بين الصانع والعالم فهي تقبل الجميع على حد سواء على شرط اتصافهم بالادب والاستقامة وشروط اخرى لا محل لها هنا (راجع كتابنا تاريخ الماسونية العام)

انواع المساكن عند الامم المتوحشة الآن

وتتمة للموضوع نذكر انواع المأوى عند معظم الامم المتوحشة الآن فنقول

(١) الهوتنتو — يقيم جماعة الهوتنتو في اكواخ بيضية الشكل طولها ١٤ قدماً في عشر وقلما يزيد ارتفاعها على اربع او خمس اقدام يبنونها بالعصي والحصر كما يبني بعض اهل الشام الاخصاص لتربية دود الحرير فيغرسون العصي في الارض و يشدون اليها الحصر ويصنعون الحصر من بعض انواع الحلفاء المجففة بالشمس ويحكمون نسجها على كيفية تمنع الماء من اختراقها ويتركون ببعض جوانب الكوخ فوهة يريدون بها الباب

(٢) سكان جزائر الاندامان — يبنون اكواخهم من اربعة اعمدة طول الاثنين الاماميين من ست الى ثماني اقدام واما الخلفيان فلا يزيد ارتفاعها على قدمين وليس لاكواخهم جدران ولكنهم يسقفونها بقصب البامبو او بسعف النخل يشدونها بعضها الى بعض

(٣) الاوستراليون — وهم اصناف كثيرة يتفاوتون في عوائدهم واخلاقهم ولكنهم يتساوون بالهمجية والسذاجة في انواع معائشهم فسكان الشواطئ الشمالية الغربية من جزيرة اوستراليا يسكنون الخلاء و يشاهد حول مقامهم ركام من الانقاض او هي بقايا الاصداف التي يقتاتون عليها وجماعة منهم يسكنون الاكواخ المصنوعة من ورق الشجر او الطين او يقيمون في بعض الحفر او الكهوف

(٤) التسمانيون — والتسمانيون على رواية القبطان كوك الرحالة الشهير يسكنون الخلاء و يكتسون بالهواء وادواتهم اظافرهم وهم من اعرق الامم في الوحشية

(٥) النجيون — يسكن النجيون بيوتاً مستطيلة يختلف طولها بين ٣٠

و ٢٠ قدماً وارتفاعها عشر اقدام يبنونها من خشب الجوز الهندي وبعض انواع السرخس وكثيرًا ما يكون بينها بيوت حسنة الهندام يجعلون لكل بيت منها بابين متقابلين لا يزيد الواحد منها على اربع اقدام علوًّا بمثلها عرضاً · واذا تأملت جدرانها رأيتها مبنية من اعمدة قائمة بين الواحد والآخر ثلاث اقدام مشغولة بنسيج الخوص اما السقوف فتصنع من جزوع النخيل فوقها قصب السكر ويغلون ابواب بيوتهم بحصير يعلقونها عليها · وهم يبنون هياكلهم على اشكال هرمية وقد يختارون لبنائها اماكن مرتفعة كما كان يفعل الاشوريون

(٦) ❊ أهل نيوزيلاندا ❊ يبنون بيوتهم بالعصي والاعشاب غرفاً كبيرة ويجعلون في الغرفة باباً صغيرًا لا يدخله الانسان الاَّ ساجدًا او دابًّا ونافذة لا يكاد الرأس يدخلها لصغرها وكثيرًا ما يقيمون ببعض جوانب البيت قطعة من خشب كبيرة يريدون انها تمثال صاحب المنزل ويرشون ارض البيت تبناً

(٧) ❊ الاسكيمو ❊ تقسم ابنية الاسكيمو الى قسمين صيفية وشتوية فالابنية الصيفية خيام يولون ابوابها الجنوب او الجنوب الشرقي والبيوت عبارة عن جلود قائمة من منتصفها على عمود من جزع الشجر او من قرون الوعل والعظام مشدودة بعضها الى بعض فاذا تدلى الجلد من اطرافه شدوه الى الارض باحجار يثقلونه بها واشكال هذه الخيام مخروطي غالباً · واما الابنية الشتوية فيصنعونها من الطين مجولاً بحطام خشبية من مقذوفات بعض الجوارف او الشواطىء وذلك غالب في جهات الجنوب اما في الشمال فالخشب نادر فيبنون منازلهم هناك بالجليد او الثلج على اشكال جميلة وبعضها شفاف يشف عما في داخله كأنه مصنوع من زجاج وفي بعض الجهات الغربية يصنعون بيوتهم انفاقاً تحت الارض والباب عبارة عن فوهة في الجدار تقابل الجنوب

(٨) ❊ هنود اميركا الشمالية ❊ وهم قبائل شتى يختلف بعضها عن بعض ويسكنون اكواخاً بعضها صيفي وبعضها شتوي فالصيفية يصنعونها من قشور الشجر والاعشاب يرفعونها على اعمدة قائمة على شكل مستدير والشتوية من الجلد وشكلها اما مخروطي او اسطواني ويغطونها احياناً بطبقة من الطين · وقد وصفهم السياح كونهم بالقذارة والنتانة · وبعض هنود كولومبيا يحفرون حفرة في الارض عمقها ١٢ قدماً ومحيطها

خمسون ويسقفون تلك الحفرة بالخشب والطين على شكل قبة يجعلون في اعلاها نقرة يتخذونها بابًا ينحدرون منه الى المنزل

(٩) ﴿هنود بارغاي﴾ يبنون بيوتهم (اذا جاز لنا ان نسميها بيوتًا) على شكل هو ابسط انواع البناء فانهم يقطعون غصنين او ثلاثة ويغرسونها من اطرافها في الارض فتتألف منها اقواس يغطونها بجلد بقر واذا جلسوا او ناموا توسدوا جلدًا آخر وهذا هو كل اثاثهم ورياشهم

(١٠) ﴿البتاجونيون﴾ يبني البتاجونيون بيوتهم على اشكال قائمة الزوايا وكيفية البناء انهم يغرسون في الارض اعمدة على شكل البيت المطلوب ويجعلون في رؤوسها ثلومًا ينزل بها اعمدة اخرى بالعرض للسقف فاذا تم هيكل المنزل على هذه الصورة غطوه بجلود الحيوان

(١١) ﴿التوجيون﴾ يمتاز التوجيون بانهم يصنعون بيوتهم من الشجر على شكل خيام يجعلون في اعلاها نافذة لخروج الدخان ويحتفرون لها في الارض حفرة عمقها ثلاث اقدام فيكون بعض البيت تحت الارض وبعضه فوقها

الوباء في دمياط

ظهر منذ بضعة عشر يومًا وباء في دمياط وما جاورها اعراضه كاعراض الكوليرا على ان مصلحة الصحة قررت بانه الكوليرا الاسيوية عينها ولعلها استندت قرارها الى ادلة قوية ولكننا لا نزال نسمع من بعض كبار الاطباء انها اشبه ان تكون هيضة عارضة لا تخلو دمياط وضواحيها منها في مثل هذه الايام تصيب من يتناول نوعًا من السمك بسبب هذه الاعراض وقال آخرون انها نسبة نوعًا من الحمى التيفو يدية على ان البحث في حقيقة ذلك ليس من متعلقات مجلتنا والاقرب الى الحرص على الحياة ان نعتبر ذلك العارض وباء محيفًا ونتخذ الوسائل الواقية منه والوسائط الصحية مهما كان نوعها لاتخلو من فائدة عمومية لولا ما نخشاه من تعطيل الاشغال وتوقيف حركات الاعمال ولنا أمل وطيد ان تنقشع غياهب هذا الداء قريبًا باذن الله لا سيما وان الاصابات لم تزد منذ ظهور الوباء الى الآن عن بضع عشرات في ما ينيف عن عشرين

بلدة وأما الوفيات فقليلة

ولكن على فرض انها الكوليرا بعينها فلا نرى موجباً لما يستولي على الناس من الرعب عند ذكراسمها وماهي من حيث الانتشار والعدوى الأ كسائر الامراض المعدية وتجنبها ميسور لكل انسان فالبلاد لا تخلو من الحميات المعدية كالتيفويد والتيفوس ولا خلت مدينة من امراض السل والجدري والدفتيريا وغيرها وكلها اوبئة قتالة تنتقل بالعدوى كانتقال الكوليرا او اكثر سرعة فلماذا لا يهجر الناس منازلهم ويعطلون اشغالهم هرباً منها . هذه بلاد الهند لا تخلو من الكوليرا مطلقاً واهلها ساكنون مطمئنون ولعل السبب في ما غرس باذهاننا من الخوف ان الكوليرا لما ظهرت في بلادنا قديماً انتشرت انتشاراً سريعاً وتعددت وفياتها لقلة الوسائل الصحية واختلاط الاصحاء بالمرضى على غير انتباه فخاف الناس كثيراً والخوف اكبر مساعد على انتشارها

وقد اتخذت الحكومة المصرية الوسائل الصحية المتبعة وهي تبذل من الجهد والعناية ما ليس بعده غاية في تعميم النظافة والوقاية . وقد اقتطفنا من رسالة في الكوليرا لحضرة العالم النطاسي الدكتور شبلي شميل فصلاً في الوقاية الخاصة البيتية وهاك نصها

« (اولاً) ينبغي على كل انسان ان يعلم ان خطر العدوى بالهواء الاصفر ليس اكثر من خطر العدوى بالامراض الاخرى المعدية كالحمى التيفوئيدية مثلاً وان الخوف الكثير ما يوهن القوى العصبية ويضعف البدن ويعده لقبول المرض فالمخلوع القلب الذي لا يستطيع ان يشد قلبه ينبغي عليه عند حلول الوباء او عند خوف حلوله ان يعمل بوصية جالينوس حيث قال « ان انجع علاج ضد الوباء الهرب من وجهه وكان اول الهاربين » ولذلك كان يطلب من الجرائد عموماً ان لا تكثر التهويل في مثل هذه الاحوال فان كثيرين من الناس يقعون مرضى من شدة الخوف .

« (ثانياً) ينبغي مراعاة جميع اسباب النظافة فان القذارة اصلح شيء لتربية مكروب هذا المرض فيعتني كل انسان بان يحفظ بدنه نظيفاً بالغسل بالماء البارد كل يوم اما بالدوش ان كان معتاداً عليه واما بمسحه باسفنجة مبلولة لازالة الاوساخ والدهون التي تعلق به من العرق . وان يغسل يديه بالصابون تكراراً في اليوم ولا سيما كلما عمل بهما عملاً خصوصاً قبل الطعام لما هو معلوم من ان جراثيم هذا

الداء بل جراثيم الامراض تصل الى البدن بالطعام والشراب عن طريق الفم ويجوز ان يضيف الى الماء الذي يغسل يديه به بعض النقط من الحامض الفنيك الصرف اذا كان عنده فيهما ادنى شبهة وهي واسطة صحية حسنة لو اصطلح الناس عليها دائماً لنفعلها جداً · وليس الحامض الفنيك وحده الذي يجوز بل الخل ايضاً من المزيلات للفساد الكثيرة النفع ولا نشير على عموم الناس باستعمال غير هذه الوسائل المأمونة اكثر من سواها لئلا يقع ضرر من سوء استعمالهم الوسائل الاخرى السامة كالسليماني مثلاً مع أنه نافع جداً ولكنه يحفظ لامر الطبيب في احوال خصوصية · وكما يعتني بنظافة البدن ينبغي الاعتناء بنظافة الثياب ايضاً

«(ثالثاً) الرياضة المعتدلة والتعرض للهواء النقي من الامور الصحية الجزيلة النفع وكذلك تهوية البيت وتعريضه للنور خلافاً لاولئك الذين يدفعهم احتياطهم الى مزاولة البيت واقفال نوافذه حتى يفسد هواؤه

«(رابعاً) ينبغي تطهير بيوت الراحة وصب الحامض الفنيك فيها واستعمل لذلك الحامض الفنيك التجاري وحده او ممزوجاً بالماء او صب عدة غالونات (الغالون نحو خمسة ارطال) من الماء المذوب فيه رطلان من كبريتات الحديد لكل غالون ووضع مجنبقات فيها تسدها سداً محكماً

«(خامساً) الاعتدال في المعيشة في كل شيء في الطعام والشراب والراحة والعمل امر ضروري والحمية في غير محلها كتركها عند لزومها والافراط من كل شيء مضر كالافراط من السهر وشرب المسكر لان ذلك يجلب على البدن تعباً يعرضه لقبول المرض

«(سادساً) اجتناب مخالطة المرضى · واذا اضطر احد لمخالطتهم فيحذر خصوصاً مواد برازهم وقيئهم وينبغي دائماً ان يضاف الى هذه المبرزات شيء من محلول السليماني «جزء الى الف» او الحامض الفنيك التجاري او محلول معنات البوطاسا او الحامض السليسليك او الحامض التيميك اي الصعتريك لقتل جراثيم الداء فيها وافضل الطرق للتخلص من خطر مواد البراز والقيء هو من دون شك حرقها بالنار ويسهل ذلك بوضع هذه المواد على قطعة قماش لا قيمة له كخيش قديم او خلطها بنشارة الخشب وايقاد النار فيها وهذه الطريقة نوصي بها عموم الناس على نوع خاص

«(سابعاً) اذا احس احد باقل انحراف في صحتهِ او اقل اسهال في زمن الوباء فعليهِ ان يهتم بهِ ويحتاط له كأنهُ مرض شديد لان هذا الاسهال الخفيف يكون مقدمة للمرض الشديد فيلزم فراشهُ ويحتمي جيداً و يستعمل بعض نقط من اللودنوم « ١٠ الى ١٥ نقطة » في منقوع عطري كمنقوع النعنع او الشاي او البابونج · — اما المساهل فالبعض يحذر منها في زمن الوباء والصحيح ان الانسان ينبغي عليهِ ان يحذر كل دواء اذا كان صحيحاً واما اذا كان مريضاً فليستعمل الدواء بحسب مدلولاتهِ فان كانت المدلولات مما يوجب شرب الدواء المسهل فليتمل اذ ليس لاستعمال المسهلات وعدمهِ قاعدة مطلقة وربما نفعت جيداً ايضاً لمقاومة الاسهال نفسهِ بطرد الاسباب المرضية المجمعة في الامعاء والمحدثة له

«(ثامناً) واخيراً ان المآكل والمشارب التي ينبغي اجتنابها في زمن الوباء هي كل ما يخشى منها ان يحدث فساداً في القناة الهضمية فلا يشرب الاَّ المياه المرشحة المغلية ولا خوف من شربها مثلوجة خلافاً لوهم البعض بشرط ان يستمر على استعمالها كذلك والموسرون من الناس يمكنهم ان يستعملوا المياه المعدنية الكثيرة ويجوز مزجها بقليل من الخمر وتجتنب جميع اللحوم المقددة والاسماك المملحة « كالفسيخ » وسائر المحفوظات (Conserves) خصوصاً الحيوانية وعموم الاثمار الغير الناضجة او المهترة لما يتولد فيها من السموم العفنية المعروفة بالبتومائين » انتهى

وقد وقفنا على اعلان نشره الدكتوران الفاضلان ابراهيم افندي شدودي وحبيب افندي كرم بالقاهرة يقولان فيهِ انهما عثرا على دواء افاد كثيراً في الاوبئة الاخيرة التي ظهرت في روسيا مؤلف من زجاجتين احداهما للشرب والاخرى للشم يرفقان طالبيها بشرح كيفية الاستعمال وهما يطلبان من اجزاخانة هنا بالفجالة واجزاخانة المقتطف بالموسكي · أما رسالة الدكتور شبلي فتطلب من ادارة الهلال وثمن النسخة غرشان واجرة البوسطة عشرون بارة

بيتان نرجو من حضرات الأدباء تشطيرهما

ومهفهف عني يميل ولم يمل يوماً اليَّ فقلت من ألم الجوى
لما لا تميل اليَّ يا غصن النقا فاجاب كيف وانت من جهة الهوى

(ابراهيم فهمي بمحطة المترة)

أرمانوسة المصرية (تابع ما قبله)

وأخبرتها انها اطالت المكث هناك ربما تمكنت من تدبير الحيلة لاستخراج الكتاب وكانت قد خبأته في جيبها فارادت الذهاب به الى سيدها ارسطوليس فخافت وقوعها في يد احد الخفر فتكشف الحيلة فمكثت بقية ذلك الليل حتى اذا اصبح الصباح ذهبت بالكتاب الى سيدها فاذا هو في انتظارها على مثل الجمر فلما رآها مقبلة هم بملاقاتها وادخلها غرفته وسألها عن الكتاب فمدت يدها الى ثوبها واخرجت اسطوانة من القصب الفارسي دفعتها اليه فتناولها وقد علم ان الكتاب في داخلها ففتحها من احد طرفيها واخرج الكتاب وهو رق من جلد ملفوف على نحو لفة اسطوانية وكان اكثر استخدام الرق للكتابة في بلاد العرب وعند سائر اهل البادية اما المصريون فكانوا يكتبون على البابيروس (البردي) ففض الكتاب وقرأه فاذا هو مكتوب بالقبطية من البطريرك بنيامين الى والده المقوقس فتلاه فاذا هو يقول فيه ما ترجمته

« ولدنا بالرب يوحنا بن قرقب حاكم مصر

« قضي عليَّ منذ مدة بالاقامة في هذا الدير وانت تعلم اني انما ارسلت اليه ظلماً وعدواناً بامر اعدائنا دينا ووطناً ورئيسهم البطريق الاسكندري لانهم ضلوا عن سواء السبيل وحرفوا كلام الله عن مواضعه ولست انا اول من تحمل هذا الاضطهاد من اجل الهرطقات تعلم ان كثيرين من البطاركة قبلي قد ذهبوا ضحية هذا الضلال وانا لا اطلب لهم الا الهداية الى طريق الحق لاني لا ادينهم ولكن الله يدينهم واما ما اوجب كتابة هذا اليك انني علمت عن ثقة ان العرب الذين قد ظهروا في هذه الايام بالدعوة الى الاسلام والقيام في سبيل الجهاد قد حاربوا الروم في العراق وفارس وسوريا وفلسطين وتغلبوا عليهم واخذوا البلاد من ايديهم والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء من عباده . وقد علمت انهم قادمون الى مصر لاستخراجها من ايدي اعدائنا واعلم ايضاً انك لا تستطيع المجاهرة بالانحياز اليهم كما اخبرتني غير مرة خوفاً من عود ذلك وبالاً علينا وقد اعجبني ذلك منك فانه دليل على الحزم والدراية ولكنني واثق بشأنك مع جماعة الاقباط الذين قد اثقل الدهر كاهلهم بالاستبداد والعسف وقد مضى عليهم قرون متطاولة وهم يئنون من وطأة هذا الظلم ولا مجير لهم

«وقد رأيت في ليلتي هذه حلمًا تفاءلت منه خيرًا وعلمت ان هؤلاء العرب ارسلهم الله لانقاذنا من ايدي الرّوم على اننا لو اردنا دفاعهم ما استطعنا اليه سبيلًا اذ قد منحهم الله النصر فيما قاموا به فلم يهاجموا حصنًا الّا فتحوه ولا نازلوا جندًا الّا هزموه ولا يخفى عليك ان الرّوم قد دالت دولتهم ولو اراد الله نصرتهم ما خرجت بلاد الشام من ايديهم . واعلم ايضًا ان هؤلاء العرب قد قاموا يدعون الناس الى دينهم فاما ان يقبلوا الدعوة او يحاربوهم الى آخر نسمة من حياتهم او ان يسلموا ويدفعوا الجزية . اما انا فلا ارى ان تخرجوا من دينكم الذي ولدتم فيه ولكن التسليم ودفع الجزية لهؤلاء العرب اولى بنا واقرب الى تخلصنا من مخالب الظلم فاذا كنت لا تزال على ما اعلم فافعل وانقذ البلاد من هذا الشر واحذر ان تحوّل عن عزمك وها اني اصلي ليلًا ونهارًا وادعو الله ان يأخذ بيدك ويلهمك ما فيه خيرك وخير البلاد

«واخيرًا اهديك البركة وادعو لك ولسائر ابائنا واخوتنا بالرّوح والرب يحفظكم

البطريرك

بنيامين

فما جاء على آخر الكتاب حتى كلل العرق جبينه وتذكر ما هو قائم بين القبط والروم من الضغائن وما قاسوه من عواقب الاستبداد والجور ثم لفّ الكتاب وخبأه في مأمن وقال لبربارة اذهبي بسلام واذا رأيت والدي اخبريه ان لهُ معي كتابًا اريد اطلاعهُ عليهِ فقبلت بربارة يده وعادت تريد الخروج فناداها فرجعت فقال والى اين تذهبين الآن قالت الى الدير يا سيدي . فقال لا تطيلي مقامك هنا لئلا تستبطئك سيدتك فيشتغل بالها بسبب ما نحن فيه فاسرعي في الرجوع واخبريها انا في خير

قالت ولكن يا سيدي اخشى ان لا ادركها في عين شمس فيصعب عليّ المسير وحدي الى بلبيس

فقال وما العمل اذًا

قالت الرأي رأيك يا مولاي فاذا اذنت ان يرافقني اثنان من رجالك الى عين شمس فاذا كان الركب لا يزالون هناك انضممت اليهم وعاد الرجلان والّا رافقاني الى بلبيس والامر امرك

فقال هل علمتِ ان والدي سار برفقة ارمانوسة

قالت بعث الينا ونحن في منف ان نبعث سيدتي الى عين شمس حيث يكون هو في انتظارها فيرافقها الى بلبيس

قال الارجح انك تشاهدين سيدك في عين شمس فاليك هذا الكتاب سلميه اليه يداً بيد واحذري ان يراه احد غيره ومد يده وسلمها الاسطوانة وفيها الرق المعهود

فتناولتهُ وقالت ولكن اين اخبئه فاني اخاف اذا رآه احد من الروم ان يأخذه مني وينكشف الامر قال اجعليه في ثيابك وهم لا يفتشونك لانك امرأة وانت من خدم والدي · ثم أمر باثنين من رجاله فحضرا فاوصاهما ان يرافقا بربارة الى عين شمس وهي على مسافة ساعتين او ثلاث من الحصن فاذا ظفرا بركب والدها هناك تركاها وعادا اما اذا كان الركب قد اقلع فليرافقاها الى بلبيس واعطاهما كتاباً الى اركاديوس ليصرح لهم بالخروج من الحصن وامر لها بمركبة يجرها ثوران قويان فاخذا الكتاب وسارا الى دير المعلقة وكان اركاديوس هناك يفكر في بربارة وارمانوسة فلما جاءه كتاب ارسطوليس اذن لها ونظر الى بربارة بطرف خفي كأنه يوصيها بتتميم الامر مع ارمانوسة والعود اليه بالجواب حالاً فاشارت اليه بعينيها مجيبة

الفصل الحادي عشر

عين شمس

وخرج الثلاثة من الحصن وقد مالت الشمس نحو الاصيل وليس في طريقهم الى عين شمس الا الغياض والبساتين من الكرم والجميز والنخيل وبعض الابنية ومعظمها كنائس واديرة وفي بعض هذه المسافة مما يلي جبل المقطم بُنيت بعد ذلك الفسطاط والقاهرة اما في ذلك الحين فلم يكن لهما ذكر البتة

وركبت بربارة المركبة وتناوب الجنديان الركوب على الثورين فمروا بتلك الحقول وما زالوا يجدون السير حتى دنوا من عين شمس وكانوا قد عرفوا مكانها من مسلاتها التي تشاهد عن بعد والمدينة اذ ذاك قد تداعت الى الخراب وتهدم سورها الا جزءاً صغيراً منه أما هيكلها الذائع الصيت فبعد ان كان مدرسة تتسابق اليه الامم من سائر اقطار العالم لاقتباس علوم المصريين وفلسفتهم وكهانتهم اصبح

خرابًا ينعق فيه البوم لم يبقَ منه الّا بعض الجدران والاعمدة واما المسلتان العظيمتان عند بابه فكانتا لا تزالان قائمتين شامختين. تناطحان السحاب بكلل رأس كل منهما تاج من النحاس قد صدئ واخضرّ فتنزل المطر عليه فسال الصدأ على مستوى المسلة (١) اما الاصنام الماثلة التي كان المصريون القدماء يعبدونها في ابان دولتهم فكانت لا تزال قائمة وقد غشاها الذل وغطاها التراب على ان ضخامتها ما برحت داعية الى الرهبة

فلما وصلوا المدينة ترجلوا ودخلوا السور فاذا بالمدينة خالية خاوية فارادوا الاستفهام عن امرها فشاهدوا بيوتًا حقيرة قائمة على انقاض ذلك السور من الخارج فتقدم الرجلان الى بيت منها وهما في لباس الجند فلما رآهما اهل البيت ذعروا وفروا وتركوا البيوت وشأنها · ثم سمع الجنديان نباح الكلاب وشاهدا كلبين كبيرين هجما عليهما ينبحان نباحًا شديدًا فناديا اهل المنزل ان يقفوا فلم يظهر احد

ثم سمعا خوار الثورين فالتفتا فاذا بهما قد ذعرا لنبح الكلاب فخافا ان يفرّ الثوران بالمركبة ويتيها بين الاشجار فرجع احدهما وامسك الثورين وشدهما الى شجرة بحبل من ألياف النخيل وعاد الى رفيقه وبربارة فاذا بهما قد مشيا وهما يحاذران ان يعضهما كلبٌ حتى وصلا بيتًا منها فاذا بالباب مغلق فطرقاه فلم يجبهما احد فعجبا لذلك وخافا ان يكون في الامر سرٌّ فمضيا الى بيت آخر والكلاب تنبح فلاقاهما رجل شيخ يتوكأ على عصاهُ وقد احناه الكبر وكلله الشيب وغطى شعر حاجبيه عينيه وتدلت لحيته على صدره · فتقدما اليه وطارحاه السلام فحياهما وقد جلس الى حجر يلتمس الراحة فسألاه ان يسكت الكلاب ويوقفها عنهما ففعل فسألاه عن سبب ما شاهدوه من نفور هؤلاء الفلاحين وفرارهم

فقال وهل حضرتكم من جنود الروم · قالا بل نحن من جنود مولانا المقوقس وما سبب سؤالك

قال ان على سؤالي هذا يتوقف جوابي اما وقد علمت انكم من اخواننا القبط وتحققت ذلك من لهجتكم فاخبركم ان سبب نفور هؤلاء الناس منكم انهم رأوكم بلباس الجند فظنوكم من جنود الروم ولا يخفى عليكم ما آلت اليه حالنا من معاملتهم لنا

(١) عبد اللطيف البغدادي

بالقسوة والجفاء وكم مرّوا بنا مثل مرتكم هذه وكلفونا ما لا طاقة لنا به من الاثقال واذا رأوا عندنا متاعاً اخذوه او حيواناً ساقوه او طعاماً اكلوه وآخر ما لاقيناه منهم منذ بضعة ايام انهم مرّوا جماعة كبيرة يريدون قصر الشمع فلم يغادروا شيئاً في طريقهم الاّ افسدوه فداسوا الزرع وساقوا المواشي ولما خاطبهم ولدي وتضرّع اليهم ان يشفقوا على حالنا اوسعوه ضرباً ولكماً فلا تلومهم على الفرار ياولدي وانا والله لولا عجزي عن الركض ما وقفت امامكم فالحمد لله على ما حصل واعلموا اننا رهينو اشارتكم بكل ما تريدون فانزلوا على الرحب والسعة

قال احد الجنديين واسمهُ مرقس ألى هذا الحد تخافون رجال حكومتكم . فتأوه الشيخ تأوهاً عميقاً ورفع نظره اليهما وقد تبللت عيناه بالدموع وقال كاني بكم لغضاضة شبابكم وحداثة سنكم لم تذوقوا ما ذاقتهُ هذه الشيبة ولا قاسيتم ما قاساه هذا الشيخ ان حالتنا يا اولادي مع هؤلاء الروم لما يتفتت له الصخر وقد مضى عليّ ثمانون عاماً لم اذق فيها يوم راحة ولا سمعت خبراً مفرحاً وقد وقعت في الخطر مراراً وذقت العذاب الواناً وكم تمنيت ان يملك بلادنا هذه اهل الجة او اهل الحبشة فانهم اقرب الى الشفقة والرحمة من هؤلاء ولكن يلوح لي ان الزمن المنتظر قد اقترب . وكان يكلمهم وهو مطرق لانحناء ظهره وهم مصغون لكلامه حتى شغلوا عن سؤاله عن سيدهم اما بربارة فذكرتهما بما جاءا من اجلهِ فقال مرقس للشيخ لقد سرنا حديثك وشاقنا كلامك الذي قد هذبتهُ الايام وحنكتهُ السنون ولكننا نسألك قبل اتمام الحديث عن ركب مولانا المقوقس هل علمت بمرورهم من هذا المكان

قال نعم انهم باتوا البارحة هنا واصبحوا في فجر هذا اليوم واقلعوا شرقاً وهم الذين بشروني بقرب الفرج

فلما رأى الجنديان ان لا بد لهما من الذهاب الى بلبيس مع بربارة وان الشمس قد مالت الى المغيب عولا على المبيت هناك تلك الليلة فاذا اصبحا ساروا الى بلبيس فمكثوا وقد طاب لهم حديث ذلك الشيخ فقال له مرقس هل تأذنون لنا بالمبيت عندكم الليلة

قال على الرحب والسعة يا ولدي ونادى اولاده فظهروا من وراء الجدران حيث كانوا مختبئين واسرعوا مهرولين بعضهم راكب على ثور يجر خلفهُ حماراً يحمل بعض البرسيم وآخر يسوق امامهُ الماشية وفيهم شاب قد ربط يده وعلقها بعنقهِ وهو مع

ذلك حامل بيده الاخرى عصا طويلة يسوق بها سربًا من الاوز فالتفت الشيخ الى مرقس وقال هذا هو اصغر اولادي الذي اصيب بالضرب كما اخبرتك فتقدم الاولاد وارادوا تقبيل ايدي الجنديين وهم يرتجفون خوفًا فابتدرهم والدهم قائلاً الآن هؤلاء يا اولادي من اخوتنا رجال مولانا المقوقس فلا تخافوا وامرهم ان يعدوا لهم مقامًا للمبيت وطعامًا وان يقدموا علفًا للثورين و يربطوهما بعمود بالقرب من البيت

فقال الجنديان هلم بنا يا شيخنا ندخل هذا الهيكل فنتم حديثنا هناك واذا تعبت اسندناك فنهض على عكازه وساعده بعض اولاده فدخلوا جميعًا من ثغرة في السور فوصلوا الهيكل المتقدم ذكره فاذا باثار خيام وطعام واقدام فعلموا انها آثار المقوقس وحاشيته ثم جلسوا على احجار ملقاة هناك وكانت من احجار الهيكل فسقطت وفي جملتها قطعة من مسلة . وقد قام في صحن الهيكل شجرة من الجميز هائلة تظلل ذلك المكان فجلس كل منهم على حجر واخذوا باطراف الحديث والشمس قد مالت الى الغروب واخذ الشفق بالظهور واستولى السكوت على تلك الخرائب يكاد الرجل يخشى رهبة المكان وخصوصًا اذا التفت حوله فلا يرى الا انصابًا هائلة تناطح السحاب واصنامًا عظيمة ترعب قلوب الابطال ولولا ذلك ما دان لها الفراعنة العظام

فلما استتب بهم المقام قال مرقس للشيخ رأيناك تبشرنا بقرب الفرج فماذا عنيت

قال قلت يظهر ان الفرج قد اقترب واعني ان الله قد اراد انقاذنا من هؤلاء الظالمين ولكنني اتكلم الآن واخاف ان يسمعني احد منهم . فقال الجنديان قل ولا تخف ليس احد منهم هنا واخفض صوتك

فقال الشيخ سمعت من بعض جالية الشام انه ظهر في بلاد العرب رجل عظيم دعا الناس الى ديانة جديدة والتف حوله عصابة قوية وانهم قد حاربوا الروم في بلاد الشام وغلبوهم و يلوح لي انهم لا يقعدون عن مصر فانها احسن بلاد الروم خصبًا ونتاجًا ولا اظنهم يلاقون في فتحها مشقة . وقد سمعت بالامس من بعض رجال مولانا المقوقس ان هؤلاء العرب قد عولوا على القدوم الينا والظاهر انهم لا يزالون بعيدين

فقال مرقس وكان افصح من رفيقه جرجس خطابًا واكثر منه جرأة ما الموجب لظنك ببعدهم

قال لاني أرى سيدي المقوقس ذاهباً بموكبه يهتم بتزويج ابنته ارمانوسة بقسطنطين بن هرقل ملكنا وهذا ما علمته ايضاً من هؤلاء فلو كان العدو على الابواب ما حمل ابنته الى بلبيس وهي في طريق العدو اذا جاء من بر الشام

فقال مرقس ان هذه المصائب قد كتبت علينا ولا ندري عاقبة هذه الحرب ولكننا نرجو النصر لنا لان حصوننا ومعاقلنا منيعة وليس هؤلاء العرب الاَّ فئة قليلة من البدو يركبون الجمال ويرعون الماشية

واما جنود الروم فرجال محنكون وخصوصاً ملكنا هرقل فانه شديد البطش وقد حدثني والدي انه هو الذي اخرج جيوش الفرس من مصر بعد ان ملكوها وتوطدت قدمهم فيها

فهزَّ الشيخ رأسه وجعل يمشط لحيته باصابعه كأنه تذكر امراً ساءه ونظر الى مرقس وقال لقد اذكرتني يا ولدي اموراً كادت تذهب من ذاكرتي نعم ان هرقل اخرج الفرس من مصر بالقوة ولكنه لا يستطيع دفع العرب عن بلاده والظاهر من حاله وحالهم ان دولته دنا اجلها فان النصر مرافق لهؤلاء الاقوام ولم يهاجموا مدينة الاَّ فتحوها حتى ملكوا الشام والقدس والعراق واليمن وغيرها ولم تستطع جنود الروم الوقوف امامهم وما ذلك الاَّ لما اراد الله من انقسامنا وقيامنا بعضنا على بعض والاَّ فلا كان العرب ولا غيرهم يقوون على جندنا . وكيف يستطيع هرقل دفع هذا العدو عن بلاده وهو كما نعلمه من حاله معنا انظن القبط اذا جاءهم العرب محاربين يدافعونهم حباً بالروم بل اقول اني وانا احد الاقباط افضل اية دولة تحكم هذه البلاد على دولة الروم وما ذلك الاَّ لما قاسيناهُ من جورهم واستبدادهم نعم انهم مسيحيون مثلنا ولكن الوثني خير منهم اسألوا هذه الشيبة فتنبئكم بما قاسيناه من ذلك فكم هدموا من كنائسنا وكم اهلكوا من بطاركتنا وكم جرّدونا من املاكنا أهذه اعمال المسيحيين

انظروا الى هذه البساتين فاني اشتغل في فلاحتها مع اولادي واحفادي فنزرعها كرماً ونخيلاً فلا يبقى لنا من النخيل الاَّ بعض الجسور نجعلها سقوفاً لبيوتنا وقليل من التمر نأكله ولا يكاد يفضل لنا من الكرم الاَّ بعض العنب نصطنع منه شيئاً من الخمر واما الباقي فيأكله المارُّون من جند الروم ويغتصبه الجباة وغيرهم هذا فضلاً عما يسوموننا من الخسف والذل . اما غنمنا وماشيتنا فنصيبها مثل نصيب الزرع

ايضًا و بعد ان كان لنا من الثيران عشرة نستخدمها بعضًا للركوب و بعضًا لجر الاثقال لم يبق الأ هذا الثور . وقد سمعت من رجل عرفته قادمًا من الشام حديثًا ان العرب بعد ان فتحوا الشام امنوا النصارى على اموالهم وعرضهم واباحوا لهم الصلاة في معابدهم لا يعارضهم احد في ذلك أليسوا اذًا خيرًا من الروم

ولكن آه من حظنا نحن المصريين ويخال لي ان الشقاء قد كتب علينا فاني اذكر يوم جاء الفرس بلادنا منذ اربعين سنة وقد كنت كهلاً وكان مقامي في الاسكندرية تاجرًا بالغلال والذرة وكنت في سعة من العيش فسمعنا يومًا ان دولة الفرس قامت على الرّوم وكان ملك الرّوم اذ ذاك يدعى فوقا وكان ضعيفًا فحاربوه وفتحوا الشام وقدموا مصر وكان ملك الفرس يدعى كسرى وقد اشتهر بشدة البأس فلما سمعنا بقدوم جنده الى مصر قلنا في انفسنا لعلهم يكونون خيرًا لنا من الرّوم فنخلص من جورهم ولكن وا اسفاه لم يمض زمن حتى علمنا بدخولهم بلادنا وكانوا كلما دخلوا بلدة قتلوا اهلها واخربوا كنائسها وكسروا نخيلها وقد احصي عدد ما احرقوه من الدبور فبلغ سمائة دير فأ سقط في يدنا وخفنا عاقبة امرهم الى ان وصلوا الاسكندرية واخذوها فاظهروا لنا في بادىء الرأي انهم يريدون بنا خيرًا ولكنهم عاملونا بعدئذ معاملة لم يعاملنا مثلها الرّوم وذلك انهم دعوا اهل المدينة الى مكان قالوا انهم يريدون الانعام عليهم واكرامهم فتقاطر الناس افواجًا الى ذلك المكان واما انا فلحسن حظي لم استطع الذهاب لانشغالي وبُعد المكان [1] فجمعوا اهل المدينة في قاعة كبيرة منيعة السور في المكان الذي كان اجدادنا المصريون يعبدون فيه الصنم سرابيس وحكاية هذا الصنم تذكرني بما اتاه امبراطرة الرّومان الاقدمون من الخير لبلادنا وما جاء به هؤلاء المتأخرون من الشر

فقال مرقس (وقد حلا له حديث الشيخ لكثرة ما فيه من الفوائد التاريخية) وما هي حكاية الصنم سيرابيس يا سيدي

قال الشيخ لا يخفى عليكم يا اولادي ان اجدادنا المصريين كانوا يعبدون الاصنام التي ترونها امامكم وغيرها من الاصنام في سائر انحاء القطر الى ما بعد ظهور السيد المسيح باجيال

(١) الخريدة النفيسة

« سيأتي البقية »



الجزء السادس من السنة الرابعة

(١٥ نوفمبر (ت ٢) سنة ١٨٩٥) (٢٧ جماد اول سنة ١٣١٣) (٦ هاتور سنة ١٦١٢)

باب أشهر الحوادث وأعظم الرجال

يوسف غاريبالدي

(ولد سنة ١٨٠٧ وتوفي سنة ١٨٨٢)

يوسف غاريبالدي وتحرير ايطاليا

« تمهيد »

ايطاليا واقعة في جنوبي اوربا واهم أقسامها القديمة (١) سردينيا في الشمال ومن مدنها جنوا وسافوا ونيس وتورين ويدمونتي (٢) لومبارديا ومن مدنها ميلان وفيرونا والبندقية (٣) بارما (٤) مودينا (٥) توسكانا وقصبتها فلورنسا (٦) املاك البابا وقصبتها مدينة رومية (٧) نابولي وقصبتها نابولي (٨) جزيرة صقلية وغيرها وتعدُّ ايطاليا الآن بين الممالك العظمى وهي اعلى درجة بلغتها منذ نشأتها الى الآن لأنها بقية من بقايا الدولة الرومانية أو هي جزء من مخلفاتها قضت قروناً متطاولة منقسمة الى امارات او مقاطعات يحكم كلاً منها اميرٌ ينازع الآخرين الملك على اماراتهم وهم كافة تحت نير الرومان فلما انحسرت سلطة الروم عنها سنة ٤٧٦ م استولى عليها اودواكر ملك الهرول وهو اوّل من دعاها مملكة ايطاليا ثم ما زالت تنتقل من حوزة دولة الى حوزة دولة اخرى بين استقلال واستعباد حتى ظهر نابوليون الاوّل وكانت بين سلطتين تتنازعانها وهما النمسا واسبانيا فضمّ نابوليون بيدمونتي وسافوا الى فرنسا واخرج ميلان من النمسا وجعلها جمهورية مستقلة ضمّ اليها البندقية وسماها مملكة ايطاليا واقام ابن زوجته الاولى البرنس اوجان نائباً عنه في الملك عليها ثم جعل امارة نابولي مملكة مستقلة واقام عليها صهره واضاف توسكانا ورومية وجنوا الى مملكة فرنسا فعلقت آمال الايطاليان باستقلال دولتهم ورفع شأنها . فلما سقط نابوليون سنة ١٨١٤ سقطت كل آمالهم ورجعت رومية وملحقاتها الى البابا واستولت النمسا على ميلان والبندقية وسمتها مملكة لومبارديا والبندقية ورجعت سائر الامارات الى اربابها تحت رعاية النمسا ولكن الانقسام كان سائداً والنزاع قائماً بينهم حتى قطع عقلاء الايطاليان كل رجاء باتحاد كلمتهم وقيام دولتهم . لا سيما وان الدول الاخرى كانت تقف في سبيل كل مشروع توسم فيه استقلالهم قياماً بمعاهدة ابرمتها فيما بينها تقضي بمنع الامم عن الاستقلال على ان تلك المعاهدة ما لبثت ان انفصمت عراها بنفي شارلس العاشر على اثر ثورة سنة ١٨٣٠ بفرنسا فتوسم الايطاليان نوراً ضئيلاً جعلوا يتلمسون الطريق به فاسسوا في نابولي جمعية سرية سموها جمعية

الفحامين (كاربوناري) موضوعها جمع كلمة الايطاليان تحت حكومة شوروية او جمهورية فلاقت تلك الجمعية مقاومة شديدة وقاسى اعضاؤها عذاباً اليماً حتى مُلئت السجون منهم ومن انصارهم وفي اثناء ذلك ظهر يوسف غاريبالدي صاحب الترجمة

(ترجمة حياته)

هو يوسف غاريبالدي بن دومينيك غاريبالدي ولد في نيس (من اعمال فرنسا الآن) في ٢٢ يوليو سنة ١٨٠٧ وكانت والدته فاضلة اعترف هو نفسه انها كانت السبب الاعظم في تنشيط مواهبه ولم يذكروا له حسنة الاَّ نسبها الى والدته وكان ابوه نوتياً في مركب له فشب يوسف محباً لمهنة الملاحة مغرماً بالاسفار لا يلذ له مقام الاَّ بالبحار وكانت نفسه كبيرة منذ نعومة اظفاره فاذا عاشر رفاقاً تولى زعامتهم وشعروا هم بانقيادهم اليه رغماً عنهم . وحاول والداه تعليمه لعله يعدل عن مهنة الملاحة فذهب سعيهم عبثاً ولم يكن يزداد الاَّ رغبة في البحار والاسفار ولم تمض عليه مدة وجيزة حتى صار قبطاناً على ان ذلك كله لم يكن ليشبع مطامعه فكان اذا سار به المركب في عرض الافق والجو صاف والبحر قد هدأ موجه وصفا ماؤه وسكنت ريحه عمل فكرته متأملاً في حال بلاده وكان قد قرأ كثيراً من اخبارها فحدثته نفسه ان يسعى في جمع كلمتها وتحريرها ودخول رومية (المدينة الابدية) وكان اذا خطر ذلك له خفق قلبه واشرق وجهه كأن القدر انبأه بنيل ذلك على يده ومما كان يوطد آماله ويزيده سروراً وثباتاً تحرر الفرنساويين على أثر ثورتهم سنة ١٨٣٠ وكانت تلك الثورة شعلة اتصل لهيبها بالقدوة الى كثير من شعوب اوربا في ذلك العهد كاهل البلجيك وهولاندا فنهضوا يلتمسون الاستقلال

وكانت سردينيا اقرب الى تلك الامنية من سائر اقسام ايطاليا لان ملكها كارلو ألبرتو الاوَّل الذي تولاها سنة ١٨٣١ كان ميالاً الى حكومة الشورى محباً للاصلاح فتنسم عقلاء الايطاليان خيراً بتوليه ولكنه يدٌ واحدة لا تستطيع التصفيق . ونشأت في اثناء ذلك جمعيات سرية كثيرة غير الفحامين كالجمعية الدينية والجمعية الكاثوليكية الرسولية الرومانية وغرضها توحيد كلمة الايطاليان واستقلالهم ولكنها خابت كلها ولحسن حظ غاريبالدي انه لم يكن من اعضائها لانها انحلت قبل ان ادرك سن العمل ولكن جمعية اخرى نشأت على انقاض جمعية الفحامين اسمها جواني ايطاليا

«La Giovane Italia» ايطاليا الصغرى او ايطاليا الفتاة رأسها يوسف مانسيني ابن احد كبار الاطباء في جنوا اشتهر بحبهِ لتحرير ايطاليا وانشأ جريدة تدافع عن مبدإِ الجمعية سماها باسمها فاحدقت بهِ الجواسيس وألقي القبض عليهِ وحوكم فلم تثبت عليهِ جريمة توجب قتلهُ فنفوهُ الى خارج بلاد ايطاليا فكان نفيهُ داعيًا الى زيادة الخطر لانهُ ازداد تمسكًا بمبادئهِ وعظم في عيني نفسهِ على حين ان الحكومة لو اغفلت امرهُ او تركتهُ مقيمًا في جنوا تحت المراقبة ما استطاع امرًا ذا بال ولكن نفيهُ هذا دعا الى نشر مبادئهِ في البلاد وزاده همةً واقدامًا فكثرت احزابهُ وقويت جمعيتهُ حتى خاف الملوك سطوتها وكان في جملة اعضائها العاملين يوسف غاريبالدي صاحب الترجمة وكيفية توصلهِ اليها انهُ مرَّ سنة ۱۸۳۳ بمرسيليا على سفينة تجارية كان هو قائدها وكان مانسيني مقيمًا هناك تحت حماية حكومة لويس فيليب . فالتقيا واعجب غاريبالدي بمبادئ الجمعية واتفق مع مانسيني على الجهاد المكن في سبيل تحرير ايطاليا ثم رأت الجمعية ان امرها لا يقوم الاَّ اذا اجتمعت تحت لواء زعيم ذي منصب سياسي خطير يجمع كلمتها فترجع اليهِ وتلتف حولهُ فرفع احد زعماء الجمعية الى كارلو البرتو ملك سردينيا يطلب اليهِ ان يتخذ قيادة هذه الجمعية وما قالهُ لهُ « تقلد رئاسة الامة واكتب على رايتك الاتحاد والحرية والاستقلال واجعل نفسك المطالب بحقوق الامة والآخذ بثأرها وادعُ نفسك محيي ايطاليا وانقذها من البرابرة الظلمة وشيد لها مستقبلاً مجيدًا واجعل يوم حكمك تاريخًا جديدًا يبدأ المؤرخون بهِ »

فتردَّد كارلو ولم يفقه لما دعي اليهِ بلسان الامة وخاف سطوة النمسا فاجاب بعد التردد الطويل انهُ لا يجسر على هذا المشروع . وكان محاطًا بجماعة من المتملقين مريدي الاستبداد فاوعزوا اليهِ ان بعض انصار الجمعية يسعون في دسيسة لقتلهِ فقبض على جماعة كبيرة منهم وقتلهم بعد محاكمة عسكرية وفي جملتهم جاويش قتلوهُ لانهُ كان يطالع ملخص مقالة منقولة عن جريدة مانسيني ولم يكونوا يحتاجون في اثبات التهمة الى اكثر من شهادة احد افراد البوليس ولو كان من اكذب خلق الله ثم سعت حكومة سردينيا في حمل فرنسا على طرد مانسيني من مرسيليا فانذرتهُ الحكومة الفرنساوية ان يترك الثغر حالاً فهاج اهل جنوا وماجوا ومد غريبالدي يد مساعدتهِ لهم سرًّا ولم يكن امامهم الاَّ المناداة بالجمهورية فيقتفي الايطاليان في الامارات الاخرى آثارهم فيتم لهم ما

يريدون ولكن الاحوال قضت بان لا تكون تلك النهضة قاضية بتحرير هذه الامة فخابت مساعي الجمعية بما كان الجواسيس ينقلونه من اخبارها سرًّا الى حكومة سردينيا فأُسقط في يدهم وكان مازيني قد عاد الى جنوا فحكم عليه بالنفي حالاً الى سويسرا واما غاريبالدي فنفوه الى اميركا الجنوبية فسافر الى مرسيليا خلسة وتنكر وسمى نفسه يوسف باني اما ماتسيني فاقام مدة في سويسرا ثم جعل يتنقل بين باريس ولندرا وكان غاريبالدي يجتمع به احيانًا ويتخابران ولكنه رأى اخيرًا ان ساعة العمل لم تأت بعد فركب البحر الى ريوجانيرو عاصمة البرازيل فالتقى هناك بكثير من الايطاليان القائلين بقوله وفي جملتهم "روسي" وصار بعدئذ اكبر نصير لغاريبالدي على ان هذا آنس في البرازيل مشروعا يشبه مشروعه في ايطاليا وذلك ان ولاية ريوغراندي كانت قد خرجت من طاعة مملكة البرازيل واسست جمهورية تحت قيادة قائد اسمه زمبكاري فاحتاج هذا الى نجدة غريبالدي وروسي فانجداه وحاربا عن تلك الجمهورية الصغيرة مرات عديدة محاربة الابطال لا يبغيان عوضًا ولا اجرًا فاكتسب غريبالدي ثقة انصاره واشتهر بينهم بالشهامة والاخلاص وبانه انما يسعى لمجرد الرغبة في خدمة الانسانية والوطن وكان اذا اصاب مالاً فرقه في اصحابه فاذا نفد ماله عمل في تحصيل سواه بجده وعرق جبينه وفي اثناء اقامته هناك تزوج بفتاة برازيلية اسمها انيتا على أثر نظرة واحدة وقعت في قلبه موقع السهم وولد له منها ذكران اسماهما مينوتي وريكوتي وانثى اسمها تريزا

وفيما كان غاريبالدي يدافع عن جمهورية ريوغراندي في البرازيل كانت جمعية ايطاليا الفتاة تنمو وتتقوى مع ان اضدادها اشداء وفيهم حكومة الايطاليان والنمسا وبون والجزويت واتفق في اثناء ذلك وفاة البابا غريغوريوس السادس عشر فآنست الجمعية من خلفه البابا بيوس التاسع تنشيطًا لم يعهدوا مثله في اسلافه لانه اطلق سراح المطبوعات وادخل في اعمال حكومته اصلاحات جمة وانتقى ارباب مجالسه من خيرة رجال الاعمال الذين يرجى بهم الاصلاح فتوسم الايطاليان به خيرًا ولكنه شق على امراء ايطاليا وملوكها ورجال الاستبداد فيها. وبلغ خبر تلك الآمال الى غاريبالدي في البرازيل فكتب الى البابا يشكره ويتبرع لخدمته ثم برح شواطئ البرازيل مع من بقي من رجاله وشخص الى اوربا «ستأتي البقية»

باب المقالات

تاريخ الانسان

في أوائل العمران

(٣) الكساء

يراد بالكساء ما يتخذه الانسان من انواع اللباس كساء يدفع به طوارئ الطبيعة او ستراً يحجب به عوراته حياء او زينة يفاخر بها انداده ولا نرى التماس الكساء الا خاصاً بالانسان اما الحيوانات الاخرى فلها من فطرتها الطبيعية انواع من الكساء تقيها غوائل الطبيعة على اختلاف انواعها ولكل من انواع الحيوان نوع من الكساء فبعضها يكسوها الصوف كالضأن والماعز والابل وبعضها يكسوها الشعر كالخيل والحمير والهر والكلب وبعضها تكسوها الحراشف كالاسماك وبين تلك الحراشف ما لا يخرقه الرصاص كحراشف التمساح وما جرى مجراها وبعضها يكسوها الريش كالطيور وبعضها تكسوها رواسب كلسية او قرنية تقوم مقام الجلد كاكثر انواع الهوام ناهيك عن المحار والنوقع والسلاحف فان بيوتها تصح ان تسمى كساء على ان بعض انواع الحيوان لا يكسوها شيء غير الجلد ولكن جلدها يكون متيناً قوياً يقيها طوارق الطبيعة كبعض انواع الاسماك والسحافات وما شاكلها

أما الانسان فقد خلق عارياً وجلده ليناً حساساً يتأثر لعوامل الحر والبرد وسائر التغيرات الجارية في الطبيعة وزد على ذلك انه مطبوع على الحياء وستر العورات فهو مضطر من طبيعته الى التماس الكساء تبعاً لما اقتضته حالة وأذنت به حاجته وقد مرّ على الانسان في تاريخ كسائه ادوار تدرج فيها من الكساء بالتراب فاوراق الشجر فجلود الحيوان حتى أتيح له اختراع الحياكة فاصطنع الاقمشة وتدرّج في اتقانها حتى بلغت ما هي عليه الآن ٧

وللاحاطة بهذه الاحوال وتدرجها نقسم الكلام الى ثلاثة اقسام (١) الكساء قبل الحياكة (٢) اختراع الحياكة (٣) الكساء بعد الحياكة

أ تاريخ الكساء قبل اختراع الحياكة

قلنا ان الانسان وجد عارياً رقيق البشرة يتأثر لعوامل الحر والبرد وكان كما قلنا غير مزق على النطق لا يعرف شيئاً من صناعة الحياكة ولا كان في اول امره يستطيع القبض على الحيوان ليسلخ جلده ويكتسي به فالغالب انه لما شعر باحتياجه الى الكساء عمد الى ما تصل يده اليه من مواد الارض واقرب تلك المواد التراب فلعله جبل شيئاً من التراب بالماء ومرح به جلده ولا غرابة في ذلك فان بعض القبائل المتوحشة الآن لا تعرف من انواع الكساء الاّ الطين تمزجهُ ببعض المواد الملونة او بالشحم وتكتسي به جلودها فان سكان جزائر الاندامان يتخذون هذا الكساء للوقاية من الحر ولسع البعوض (الناموس) وبعضهم يتأنق في ثوبه هذا فيزينه بخطوط طولية او عرضية يصطنعها خياطهم بجر اصابعه على الطين قبل ان يجف واغرب من ذلك ان بعضهم اذا كسا وجهه طيناً صبغ نصفه باللون الاحمر والنصف الآخر باللون الاخضر وجعل بين اللونين خطاً طولياً يمتد على صدره الى اسفل بطنه . ومن آثار هذه العادة عند اسلافنا الاقدمين الوشم فانه يدل على ميل الانسان الى تغطية جسمه اما للكساء او للزينة وبعض القبائل تتخذ الوشم وحده كساء وفي بعض الكهوف باوربا حفر استدلوا على انها كانت اجراناً يدقون بها المغرة وهي ضرب من الطين يمزجونه بالمواد الملونة . وقد يقال انهم انما يريدون بذلك مجرد الزينة ولكن الحقيقة انه يغنيهم عن الكساء . والوشم منتشر الآن في سائر اقطار الدنيا والناس بين مكتف منه برسم على زنده او خط على خده او علامة على صدره وبين متخذ الوشم لباساً فيرسم على جلده الخطوط والزوايا والاشكال والصور على طرق شتى

ويلي ذلك الكساء الترابي الذي تخلف الوشم عنه كساء من النبات وابسط انواع ذلك الكساء ان يقطع الرجل غصناً باوراقه فيغطي به عورته او يستظل به او اذا عثر على شجرة كبيرة الاوراق كالموز او ما شاكله اتخذ ورقة او بضع اوراق فخاطها بعضها ببعض بمسلك نباتي او شدها بعضها الى بعض برباط من قشور الاغصان

الدقيقة ولنا في حكاية آدم مثال على ذلك

وبعض القبائل المتوحشة الآن يتخذون قشور الشجر كساء وفي البرازيل شجرة يقال لها (شجرة القميص) يتخذ منها بعض البرازيليين كساء كالقميص وكيفية ذلك انهم يقطعون من جزع تلك الشجرة او من بعض اغصانها الغليظة قطعة طولها اربع اقدام او خمس يجردون قشرها قطعة واحدة على شكل اسطوانة فيبلونها ويطرقونها حتى تلين وتتسع ثم يجعلون بها ثقبين على الجانبين العلويين لادخال الذراعين بهما. فاذا كان الثوب قصيرًا لا يغطي الجسم كله جعلوه كساء سفليًّا فيشدونه عند الخصر كما يفعلون بالتنورة (الجونيلا)

ومما يدل على ان هذا الكساء النباتي كان مستخدمًا عند اسلافنا الاقدمين ان التقاليد الدينية المدونة في شرائع مانو بالهند وهي كتب قديمة العهد تفرض على البرهمي اذا شاخ واحب الاعتزال لقضاء بقية حياته في العبادة والتنسك ان يتخذ لباسًا من الجلد او قشر الشجر. وفي اقصى الشرق جزيرة يقال لها جزيرة برونيو واقعة بين بحر الصين وبحر جاوا اهلها يتقلدون العدول الافرنجي فيلبسون الاقمشة الافرنجية اما اذا فقدوا عزيزًا فعلامة الحداد عندهم العدول عن الاقمشة المنسوجة الى قشور الاشجار

على ان بعض الامم قد تفننت في هذا النوع من الكساء حتى جعلته قسمًا من صناعتها وتجارتها فان في بولونيسيا معامل يقال لها معامل تابا يعالجون فيها قشر نوع من التوت يقال له توت الورق وكيفية ذلك ان نساءهم يطرقن القشر بنبابيت مخددة حتى يلين فيشبه بقوامه وشكله اللباد ثم يزينّه ببعض الاصباغ الملونة ومما يحكى عن هؤلاء الاقوام انهم لما رأوا الورق وكانوا لا يعرفونه قبلاً ظنوه صنفًا منتقًا من التابا فخاطوا منه اردية ولكنهم ما لبثوا ان عرفوا خطأهم لما امطرت سماؤهم وابتلت ثيابهم فاذا هي تتساقط مهترئة قطعًا قطعًا. وفي بعض جهات الهند والسودان يحوكون اوراق النبات نسيجًا يتخذون منه بعض انواع اللباس ولكن في مدراس جماعات يخلعون ثيابهم في يوم من ايام السنة معين ويستترون بالاغصان ولا ريب ان هذه العوائد تنم عن عادة اسلافنا الاقدمين في الارتداء بالاغصان او القشور

ثم ما لبث الانسان ان اخترع بعض الادوات الحادة وتغلب على الحيوان فافترسهُ وتناول لحمهُ طعاماً واتخذ جلدهُ كساء · والارتداء بالجلود اسهل تناولاً وادفع للغوائل واقوى على الاحتمال ولذلك فانهُ شاع كثيرًا في الامم القديمة وخصوصاً بين الذين لم تظللهم الحضارة كاهل اثيوبيا واواسط افريقيا فانهم كانوا يأتزرون بالجلود حتى بعد اكتشاف النسج فان القماش المنسوج لم يكن بلبسهُ الَّا اكابرهم وبقيت الجلود لباساً للعامة

(الشكل الاوَّل)



وفي الشكل الاوَّل صورة اربعة من الزنوج مغلولي الايدي والاعناق نقلاً عن الآثار المصرية القديمة فترى احدهم مؤتزرًا نسيجاً والآخرين جلودًا · والاكتساء بالجلود كثير الانتشار في سائر اقطار العالم الآن فان اهل المكسيك لا يزالون يلبسون اثواباً كلها من الجلد ولكن العالم المتمدن قد استبدلهُ بالاقمشة الناعمة على ان الناس مجمعون تقريباً على كساء اقدامهم بالجلد اذ لا يقوم القماش مقامهُ الَّا نادرًا على ان آثار اللباس الجلدي لا تزال ظاهرة على بعض ملابسنا وبعضها يتفاخر بهِ الملوك كالفرو وما شاكلهُ

٢ اختراع الحياكة

للحياكة شأن عظيم في تاريخ الكساء وهي خطوة ذات بال في صناعة اللباس ولكن من ينبئنا باسم مخترعها بل من انا بمن يخبرنا عن اوَّل ما اصطنع الخيطان وهي اعظم اهمية من الحياكة اذ لا تتم الحياكة بدونها فهؤلاء المخترعون مع ما لهم من الفضل على بني الانسان لم يذكرهم التاريخ ولا انبأتنا بهم الآثار وشأنهم في ذلك شأن مخترع النار ومكتشف ملح الطعام وغيرهما من قدماء المخترعين الذين توفقوا الى اختراعات

واكتشافات كانت اساس التمدن وروح الحضارة والعمران وقد طمست الايام اخبارهم لان التاريخ لم يدركهم ولا ادرك اخبارهم

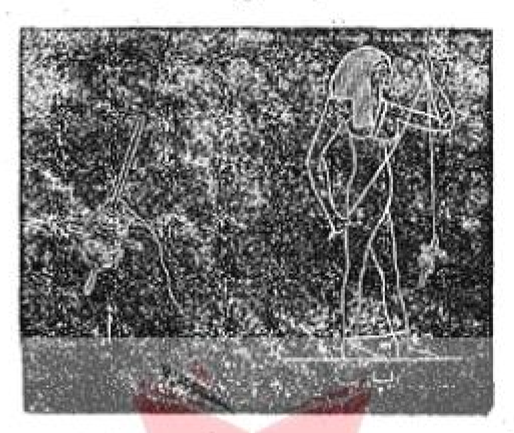
ولو تأملنا الحياكة وسائر انواع الانسجة لتبين لنا ان للحياكة دورين احدهما قبل اختراع الخيطان (الغزل) والثاني بعد اختراعها فالاول كانت الحياكة فيه مقصورة على اصطناع الحصر او بعض الابسطة من اوراق الشجر المستطيلة كسعف النخل يحبكونها طولاً وعرضاً كما يصنع اهل السودان الآن الابسطة ونوعاً من القبعات وكما يحبك المصريون والسوريون القفف (المقاطف) من سعف النخل في انحاء السودان فوائد لا تقدر فقد رأيناهم يصنعون منه ابسطة يفرشون بها الارض ويحبكون منه آنية كالصواني والقصع وانواعاً كثيرة من العراقيات والقبعات ويبنون بها الجدران والسقوف والخيام ويجدلون الياف النخيل حبالاً يحملون بها الاثقال ويحبكون بها الاكياس لحمل التبن وغيره ويصطنع بعض اهل الخرطوم من سعف النخل اقداحاً وواجين بغاية الدقة والضبط والاحكام لا يخرقها الماء ويحبكون من تلك الاوراق انواعاً من الاحذية والاحزمة وغير ذلك مما يقوم عندهم مقام كثير من الانسجة عندنا ·

والتوصل الى الحياكة سهل ربما توفق اليه الانسان صدفة او اتخذه تقليداً لبعض انواع الحيوان كالعنكبوت او بعض الطيور التي تبني الاعشاش اما اتخاذ تلك المنسوجات كساء فبديهي لا يحتاج الى فكرة فهي لا تزال قائمة مقام الاقمشة حتى الآن

أما صناعة الغزل او اصطناع الخيطان فهي أهم خطوة في تاريخ الكساء والتوصل اليها معقول بالنظر الى بساطة مبدإها فلو نظرت الى خيط بالميكروسكوب لرأيته مؤلفاً من الياف دقيقة ملتفة بعضها على بعض بالبرم والفتل ولو عكست فتلها لانحل الخيط الى اليافه الشعرية الدقيقة ومثل هذا الخيط مثل الحبال التي تصنع من ورق النخيل او اليافه (السلبة) فهذه الحبال تظهر للعين المجردة انها مؤلفة من الياف ملتفة بعضها على بعض وهكذا في بعض انواع الحبال المصنوعة من الياف النبات او اوراق الشجر الدقيقة فاننا لا نحتاج في اصطناعها الى اكثر من ان نضم بعضاً منها ونفتلها بين كفينا ازواجاً فاذا انتهينا الى الطرف الآخر اعدنا الكف بعد ان نضم الزوجين معاً كما يفعل صناع الاحزمة في اصطناع خيطانهم الخصوصية قبل نسجها · فاول من اخترع الخيطان اصطنعها من الشعر او الصوف فتلاً بين كفيه كما قدمنا ولكننا

لا نزال في حاجة الى اختراع ذي شأن في صناعة الغزل وهو المغزل فهو على بساطة تركيبهِ وسهولة الحصول عليهِ يفضل في اهميتهِ الآلة البخارية التي لم يتم اختراعها الاَّ في عشرات من الاعوام · لا نعرف مخترع المغزل ولكننا نعرف انهُ قديم جدًّا

(الشكل الثاني)

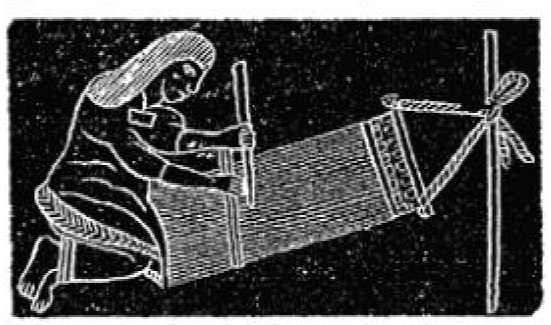


وترى في الشكل الثاني رسم المغزل على حدة وهو مغزل اوسترالي حديث والى جانبهِ رسم امرأة من نساء المصريين القدماء تغزل بيدها كما يفعل كثير من نساء بلادنا في مصر والشام وسائر المشرق فالمغزل استخدمتهُ الامم من قديم الزمان وهو شائع بين سائر الامم المتمدنة والمتوحشة الآن ومعامل الغزل الكبرى في اكبر عواصم اوربا لا غنى لها عن المغزل القديم وانما تفضل آلة غزل آلةً اخرى بعدد مغازلها

أما المواد المغزولة فاقدمها الشعر والصوف لاننا لا نحتاج في الحصول عليها الاَّ الى الجز ويليها الحرير فقد وجد منسوجًا قبل الميلاد باجيال ولكن القنب (الكتان) اقدم منهُ لانهُ نقل من مصر الى صور في القرن السادس قبل الميلاد وكان يصطنع في مصر قبل ذلك باجيال متطاولة لا نعرف حدها · ويليها القطن ووطنهُ الهند وقد ذكرهُ هيرودوتس في رحلتهِ بالقرن الخامس قبل الميلاد وهناك مواد كثيرة يحيكون بها الاقمشة الآن غير التي ذكرناها ولكن هذه اشهرها

وامامنا درجة اخرى لا بد لنا من تخطيها حتى نصل الى اصطناع الانسجة وهي الحياكة · والحياكة في الحقيقة لا تختلف عن صناعة الحصر والفرق بينهما متوقف على المواد المؤلف النسيج منها فيتين ان تكون المواد ذات قوام يمكن نسجها باليد بلا شد او ربط كالقش وسعف النخل والحلفاء او ان تكون لينة لا قوام لها كالخيطان

الدقيقة فهذه لا يمكن سحبها الاَّ بمدها وشدها من اطرافها حتى يمكن ادخال اللحمة فيها على مثال الانوال التي يستخدمها الحياكون في سائر اقطار العالم والحياكة تكاد تكون عامة عند الامم كافة من متمدنين وغير متمدنين (الشكل الثالث)



وترى في الشكل الثالث رسم نول اوسترالي تنسج به فتاة اوسترالية وبينهُ وبين ارقى آلات الحياكة بون عظيم ودرجات متفاوتة ولكن المبدأ واحد فيها كلها

«ستأتي البقية»



باب المراسلات

صنع الأثواب في أوربا أو في مصر

شقيقي الفاضل منشىء الهلال الاغر

يظهر من سؤال حضرة الاديب اديب افندي جرجس في الهلال الماضي انهُ بنى حكمة في غلاء الاثواب الموصى عليها على مقابلته بين المصنوعة في اوربا والموصى عليها عند بعض الخاطة او انهُ اخذ عما هو متسلط على عقول البعض منذ اوَّل دخول هذه البضاعة مصر وكانت لا تزال محصورة في يد افراد قلائل من الاجانب لم يكن متوفرًا عندهم شيءٌ من طرق الاقتصاد ومن المعلوم ان المصنوعات ترتفع اثمانها بغلة عملتها وصعوبة استجلاب ما تتطلبهُ الصناعة من الادوات والاقمشة وخلاف ذلك ونبخس بكثرتهم مع توفر ما تقدم ذكره

أما الآن فلو قابل احد الاثواب المصنوعة في اوربا باثواب مثلها موصى عليها في مصر مع تساوي النوعين بالقماش والبطانة واختلافها مع احكام التفصيل واتقان الصناعة في الموصى عليها لوجد منه لا تزيد عن تلك وان زادت فلزيادتها اسباب سيأتي ذكرها . ولايضاح ذلك اقسم كلامي الى قسمين الاول في الاثواب المصنوعة باوربا والثاني في الموصى عليها عند الخاطة مع اظهار الفرق بينهما

(١) تنحصر طرق الاقتصاد في الاثواب المصنوعة باوربا في وجهين الاول انهم يبتاعون القماش لهذه الغاية بثمن بخس نظرًا لكثرة مقطوعيتهم ولانهم يترصدون لابتياع الاقمشة الكاسدة . والثاني ان اجرة التشغيل فيها اقل مما في الموصى عليها وسبب ذلك عدم اتقان الشغل لان الوقت الذي يشتغل فيه الخياط المتقن بدلة واحدة يشتغل فيه العامل في البضاعة الجاهزة ثنتين وربما ثلاثًا اذا تساويا في الاجتهاد

هذه معظم طرق الاقتصاد في الاثواب الجاهزة التي ليست متوفرة في الموصى عليها واما النفقات الزائدة فهي . اولاً ان باعة هذه البضاعة اما ان يكون لهم وكيل في اوربا لتشغيلها او انهم يبتاعونها من صاحب معمل هناك وفي كلا الحالين يضطرون الى نفقات لا تقل عن العشرة في المائة فوق الثمن الاصلي وهذه الزيادة تتناول معظم الجزئيات من اقمشة وبطائن واجرة عملة الى غير ذلك مما يطول شرحه فلو اضيف مرتب الوكيل الى الزيادة فيما ذكر لزاد عن الكمية المعينة . واما اذا كانوا يستجلبونها من المعمل رأسًا فلا اظن الزيادة تكون اقل من ذلك . ثانيًا ان مقدار كمرك البضاعة المصنوعة في اوربا اكثر من كمرك قماشها اي ان البدلة التي يقدرون ثمنها بمائتي قرش لا يكون فيها من القماش والبطانة اكثر من مائة فقط فكأنهم اضافوا اليها زيادة لا تقل عن ثمانية في المائة . (ثالثًا) ان باعة الاثواب الجاهزة هنا يضطرون الى نفقات لا يحتاج اليها الخاطة كاجور عملة لتصليح البدلة غير المحكمة على مبتاعيها ورواتب كتبة ومساومين فلا يستطيع بائع البدلة الجاهزة مع هذه النفقات ان يحفظ مركزه بربح يقل عن الاربعين في المائة فتكون جملة النفقات المضافة على الثمن الاصلي ستين بالمائة على التقريب

(٢) أما الاثواب الموصى عليها بمصر فهاك تفصيل نفقاتها . واول هذه النفقات ان القماش الذي يبتاع لهذه الغاية يكون في اكثر الاحيان كميات قليلة اثمانها اغلى من

الكميات الكبيرة فلنفرض ان هذه الزيادة لا تقل عن سبعة عشر في المائة فنخصمها من الزيادة في الاثواب المصنوعة باوربا فيبقى معنا ثلاثة واربعون (والثاني) ان البدل الموصى عليها تحتاج الى نفقة في شغلها اكثر من تلك لانه يراد بها الاحكام في التفصيل والاتقان في الصنعة ونفقة الشغل المتقن قد تكون مضاعف نفقته في الجاهز او تزيد لانه يستغرق من الوقت اكثر كثيراً مما يستغرق ذلك فلنفرض ان النفقة في التفصيل تزيد عن الجاهز عشرين في المئة فنستخرجها من الثلاثة والاربعين فيبقى معنا ٢٣ فينتج ما تقدم ان البدلة الموصى عليها اذا بيعت بثمن البدلة المصنوعة في اوربا مع تساوي القماش والبطانة تربح ما لا يقل عن ثلاثة وعشرين في المائة وهو ربح جيد

ثم ان الوقت في مصر ابخس منه في اوربا بمعنى ان العامل الماهر من الخاطة المصريين اجرته اقل من اجرة العامل في اوربا اذا تساويا في الوقت والنسبة وربما كانت النفقات التي ينفقها الخياط على عشرين من العملة يشتغلون في الشهر مائة بدلة مثلاً لا تزيد عن النفقات التي ينفقها احد باعة الجاهز على مستخدميه بين عملة وكتبة وباعة فلو اغضينا عن كل هذه الملاحظات وتساهلنا مع الخاطة ما شئنا لوجدنا ان الربح لا يقل عن العشرين بالمائة اذا اشتغلوا بثمن الجاهز

ورب معترض يقول اذا كانت الحال على ما ذكر فعلى مَ الخاطة في مصر يأخذون اثماناً زائدة بهذا المقدار فأقول ان الخاطة في مصر ثلاث فئات الاولى يحصر شغلها في سراة البلاد وعقائلها وهذه الفئة لادخل لها في موضوع مقالتنا لانها لا تزال تتاجر بغلاء اثمانها وكثرة نفقاتها وارتفاع اثمان اقمشتها واستقدامها العملة من اوربا وصرف الاجور الفاحشة حفظاً لمركزها في عيون زبائنها

والفئة الثانية وهي التي لا تزال اثمانها زائدة زيادة معتدلة تحصر في ثلاثة اسباب غلاء الاقمشة وغلاء الاجور والدين فالاوّل لان الاقمشة التي يستجلبونها اجود من اقمشة البدل الجاهزة لانهم يوصون عليها في المعامل الاوربية على حسابهم ويشترطون بها ثبوت الالوان ومتانة القماش ولطافة الاشكال مع قلة كمياتها

واما غلاء الاجور فلأنهم كانوا في مصر وقت كانت الاثمان غالية والعملة قليلين وكلهم من الاجانب فلا يزالون محافظين على خطتهم القديمة ومكتفين بالشغل الذي عندهم لا يسعون في الاقتصاد بالاثمان لان زبائنهم اعتادوا على اثمانهم مهما كانت وهم

لم تدفعهم الحاجة او المناظرة الى الاقتصاد في الاجور

أما الذين فهواشد وبلاً مما تقدم لانهُ اصبح قاعدة عند الخياطين فيضيئون مستهلكاتهِ الى ثمن البدلة قبل اضافتهم نفقتها حتى ولو وجد عندهم (زبائن) يدفعون الثمن فوراً لما قدروا ان يبيعوا بأقل من ثمن المستدينين خشية ان يدري بعضهم بذلك فينقموا عليهم ويخسروا ثقتهم فلو استهلك الخياط من اولاء ما شاء في المئة تجاه هذا الداء لكان قليلاً لانهُ فوق ما يضر بهِ يذيع عنهُ غلاء الاثمان حتى تكون في المستقبل عثرة في سبيل تقدمهِ واما الفئة الثالثة وهي التي قد توفرت عندها هذه الاسباب واستحضرت قماشاً يقرب من نوع القماش في الجاهز او احسن منهُ قليلاً فامكنها ان تبيع باثمان الجاهز وربما اقل منهُ في بعض الاحيان

فياليت جميع الخياطين في مصر يعتنون بهذه الملاحظات فيستقدمون مع بضاعتهم اقمشة تقرب في اثمانها من الاقمشة في الاثواب المصنوعة باوربا او اكثر قليلاً ويبذلون الجهد في ملاشاة تلك الاسباب فتنهال عليهم الاشغال وتكثر عملتهم فتقل اجورهم الى ما يقارب نصفها ولا يقل ربحهم لان العامل الذي متوسط شغلهِ في الاسبوع (جكتتين) وكثرت عندهُ الاشغال حتى صارت ارباحهُ على قدر اجتهادهِ ربما انهُ في الوقت الذي كان يشتغل فيهِ (جكتتين) يشتغل ستاً وسبعاً حسب تدربهِ واجتهادهِ فعلى ذلك تتقدم الصناعة ويكثر الخاطة وتزداد الارباح وتعم الفائدة فلو سار الخياطون على هذا النمط لاتسع نطاق الصناعة في مصر واقتصر بيع الجاهز على الغرباء او المسافرين الذين يضيق وقتهم عن انتظار التفصيل كما هو الحال في اكثر البلاد المتمدنة في الشرق ففي بيروت قلما ترى واحداً غنياً او فقيراً عظيماً او حقيراً يبتاع ملابس جاهزة بل كلهم يوصون على اثوابهم عند الخاطة ويلبسون على آخر زي مع ان باعة الجاهز في بيروت يتوخون كل طرق التوفير التي ليست متوفرة في مصر فان بعضهم يشتغلون البدل في بيروت فيوفرون نفقات الكمرك وارباح عملائهم في اوربا ومع ذلك فان شغلهم اصبح قاصراً على الغرباء او بالاحرى ان محلات باعة الجاهز في بيروت اصبحت مركزاً تجارياً يبيعون منهُ في الخارج كالقرى والبلاد البعيدة عن المدن (القاهرة) « يوسف زيدان »

« خياط افرنجي بشارع الفجالة »

باب السؤال والاقتراح

اليمن وحضرموت

(القاهرة) مصطفى افندي محمد

نظراً لما انتم آخذون في تأليفه من تاريخ العرب قبل الاسلام نرجو الافادة عن المصادر التي اعتمدتم عليها في استخراج جغرافية شبه جزيرة العرب الحديثة وخصوصاً اقسامها الجنوبية كاليمن وحضرموت فان اخبار تلك البلاد منقطعة عنا تمام الانقطاع والسياح لم يطأوها الا منذ عهد قريب جداً على ما نعلم

(الهلال) لا نحتاج في تأليفنا المشار اليه الى جغرافية بلاد العرب الحديثة لانه يتناول الزمن القديم فقط وعليه فاعتمادنا ينحصر في الجغرافيين الاقدمين كاسترابون وبطليموس وما يؤخذ مما كتبه ابو الفدا وياقوت وغيرهما من جغرافيي العرب ورحالتهم على اننا لا نستغني عن اكتشافات السياح المتأخرين لما عرف من تدقيقهم

أما الذين رادوا بلاد العرب من الافرنج في القرون الاخيرة فكثيرون بعضهم رادوا شبه جزيرة العرب كلها وبعضهم اقتصروا على الحجاز وبعضهم على اليمن وحضرموت او ومهرة وعمان وبعضهم على نجد فقط . وهاك اشهر من ساح بلاد اليمن وحدها او مع سواها وكتب سياحاته ونشرها مرتبة اسماؤهم على سني سياحاتهم ولو اردنا ذكر اسماء الذين طافوا الحجاز او نجد او عمان او غيرها ولم يزوروا اليمن لضاق بنا المقام

(١) جون ري . هو رجل انكليزي اطلعنا على رحلة له مطبوعة في لندرا سنة ١٦٩٣ م اي منذ نيف وثلاثة قرون وهي في جزئين صغيرين الجزء الثاني منهما يبحث عن اليمن ونجد واحوالها

(٢) شركة تجارية (فرنساوية) في سان مالو بعثت الى اليمن سنة ١٧٠٨ م مندوباً اسمه القبطان مرفيل فسار في مركبين الى مخا احدى فرض اليمن المشهورة بتجارة

البن فعقد اتفاقًا مع حاكم المدينة افاد الشركة فائدة كبيرة ثم عاد الى بلاده وفي سنة ١٧١١ انفذت الشركة وفدًا آخر وفي جملتهم ضباط فرنساويون توغلوا في داخلية اليمن حتى وصلوا الى اقصاها وكانت لهم مع امام اليمن اجتماعات ومخابرات وقد نشرت ملاحظاتهم في سياحتهم هذه في جريدة لاروك الفرنساوية سنة ١٧١٦ وهي تتضمن كثيرًا من التفاصيل المهمة عن بلاد اليمن واهلها ومحصولاتها وتجارتها

(٣) نيبوهر الرحالة الالماني الشهير . وهو اوثق من كتب عن اليمن في القرن الماضي فانه كان مرسلاً مع جماعة آخرين بمهمة رسمية من فريدريك الخامس بناء على ايعاز العالم الفيلولوجي ميكاليس استاذ اللغة العبرانية في غوتنجن اذ ذاك وكان غرض هذا الارسالية تحقق بعض القضايا الواردة في التوراة عن بلاد العرب وكان الوفد مؤلفًا من لغوي ورياضي وطبيعي وطبيب ومصور وهم فون هافن ونيبوهر وفورسكول وغرامرو بورنفيند فسافروا من كوبنهاغن سنة ١٧٦١ عن طريق السويس فجدة فاليمن وهناك توغلوا في بلاد اليمن الى بيت الفقيه والحديدة ومخا وصنعاء ثم اصيبوا بمرض مات منهم اربعة بمدة قصيرة وبقي نيبوهر وحده حياً فكمل السياحة وكتب في ذلك كتابًا اشهر من ان يذكر سماه وصف بلاد العرب وكتابًا آخر اسمه سياحة في بلاد العرب وما جاورها والكتابان كتبا بالالمانية ولدينا منها ترجمة فرنساوية مطبوعة طبعة ثانية سنة ١٧٧٩ بباريس مقتصرة على وصف بلاد العرب في مجلدين كبيرين يشتملان وصف بلاد اليمن وحضرموت ومهرا والحجاز مع ايضاح ذلك بالخارطات والرسوم وضبط اسماء المدن والاشخاص بالحرف العربي وفيهما كثير من الملاحظات على تاريخ تلك البلاد واخلاق اهلها وعوائدهم ومحصولاتهم ولغاتهم واديانهم وكل ما يتعلق بذلك ولا يزال نيبوهر ثقة في احوال اليمن حتى اليوم

(٤) هنري روك . وهو انكليزي سافر من بلاد الانكليز سنة ١٧٨١ في اسطول الاميرال جونستون ونزل على ساحل بلاد العرب الجنوبية مما يلي حضرموت فتعهد آثارها وزار مخا فجدة وكتب سنة ١٧٨٤ كتابًا بالانكليزية سماه سياحة على سواحل بلاد اليمن وسواحل البحر الاحمر

(٥) سيلاس جيمس . وكان على الاسطول المتقدم ذكره مع روك ولكنهما لم يعرف احدهما الآخر وقد كتب هذا سياحة سماها سياحة في بلاد العرب نشرها

سنة ١٧٩٧ وفيها ملاحظات دقيقة عن اهالي بلاد اليمن وحضرموت وما جاورها

(٦) رنزو مانسوني · وهو ايطالي ساح في بلاد اليمن واقام بها ثلاث سنين من سنة ١٨٧٧ الى سنة ١٨٨٠ والف في ذلك كتاباً بالايطاليانية زينة بالرسوم والخارطات بغاية الاتقان وطبعهُ برومية سنة ١٨٨٤

(٧) ولترهريس · وهو انكليزي زاد بلاد اليمن وطبع رحلتهُ في لندرا سنة ١٨٩٣ وفيها رسوم منصلة بالغة من الاتقان والضبط ما لا يترك في نفس القارئ شوقاً الى الاستطلاع

(٨) شارل هوبر · كتب سياحة ببلاد العرب جملة طبعتها الجمعية الجغرافية الاسيوية سنة ١٨٩١ ومعها اطلس ورسوم وتقاويم

(٩) بنيت الانكليزي · زار حضرموت العام الماضي وكتب سياحتهُ بالانكليزية ونشرها بالانكليزية وهو آخر من زار بلاد العرب حتى الآن

﴿ العلم الانكليزي ﴾

(الفيوم) ابراهيم افندي جرجس نخله

ما بالنا نرى على العلم الانكليزي هذه العبارة (Dieu et mon droit) باللغة الفرنساوية ولماذا لم تبدلها الدولة الانكليزية بعبارة من لغتها مع ما هو مشهور عن هذه الدولة من حبها للغتها ورغبتها في انتشارها

(الهلال) هي عبارة كانت شائعة على السنة الفرنساويين ومن خالطهم من الامم في الاعصر المظلمة وكانت بمثابة مثل او حكمة تروى بلفظها كما نروي كثيراً من الامثال الافرنجية بلفظها الافرنجي أثناء حديثنا العربي اما كتابتها على العلم الانكليزي فسببها ان ريكاردوس الاوَّل ملك انكلترا الملقب بقلب الاسد نطق بها في ٢٠ سبتمبر سنة ١١٩٨ م على أثر انتصاره في موقعة جيزور بينهُ وبين الفرنساويين وذلك انهُ لما علم بالنصر وقف في رجالهِ وقال بأعلى صوتهِ مفتخراً (Dieu et mon droit) (الله وأهليتي) يريد انهُ انما تولى العرش الانكليزي وظفر في حروبهِ بامر الله واهليتهِ فيهِ ولياقتهِ وليس بالوسائط او (المحسوبية) وما زال

﴿ أرمانوسة المصرية ﴾ (تابع ما قبله)

الفصل الثاني عشر

﴿ الديانة المسيحية بمصر ﴾

وبعد ان ظهرت الديانة المسيحية ودخلت هذه الديار واعتنقها الاقباط اهل هذه البلاد بغي جماعة الروم حكامنا على اعتقادهم الوثني واذاقونا العذاب والاضطهاد الوانًا واشد تلك الاضطهادات وطأة ما هو مشهور بيننا من امر الامبراطور ذيوقليطيانوس المشهور بظلمهِ وهو الذي قتل الشهداء منذ ثلاثة قرون او اكثر وكان ذلك شرّ ما جناه الرّوم علينا ثم لما تولى قسطنطين الاكبر اعتنق الديانة المسيحية وحمى المسيحيين واخته القديسة هيلانه هي التي ذهبت الى بيت المقدس وعثرت على صليب المسيح كما تسمعون. غير اننا ما زلنا نقاسي الاضطهاد من خلفه الى ان تولى عرش الامبراطورية الامبراطور الطيب الذكر ثيودوسيوس الاعظم منذ قرنين ونصف وكان حسن العقيدة فافرج عن الاقباط وبعث الى مصر فامر بهدم الهياكل الوثنية وبناء الكنائس بالرغم عن سائر الشعب الروماني وكان في الاسكندرية هيكل اسمه هيكل سيرابيس فامر بهدمهِ وكان فيهِ صنم هائل لما كسروا فكه بالفوس تراكضت الجرذان منه وكانت معششة فيهِ فسقطت منزلته لدى الوثنيين انفسهم ومن عهد ثيودوسيوس هذا ثبتت الديانة المسيحية واخذت تنتشر وعمد المصريون الى اقامة الكنائس حتى قام ما قام من الانشقاق بين لاهوتيي الاسكندرية ولاهوتيي القسطنطينية على مسألة المشيئة والمشيئتين وجرّ علينا هذا البلاء والبقية تعرفونها

فلنعد الآن الى ما كان من امر الفرس واخواننا الاقباط بعد ان جمعوهم في ذلك المكان. فقد سمعنا بعدئذ انهم هموا بهم وقتلوا الآلاف منهم صبرًا فلما سمعتُ بالواقعة حملت اولادي واهلي وما خف حمله من المال وخرجت من الاسكندرية حتى جئت هذا المكان واقمت فيهِ وقد خسرت كل ما ملكت يداي وقبلت بالفقر والمسكنة تخلصًا من الموت اما الفرس فانهم تمكنوا من دخول القسطنطينية وتملكها وهي عاصمة الروم كما تعلمون

ثم علمت ان الرّوم لما رأوا ضعف ملكهم فوقا عزلوه ونصبوا هرقل هذا وكان قبلاً والياً على افريقيا [1] فجاء القسطنطينية وقتل فوقا واخوته وحارب الفرس مراراً حتى يئس من الفوز فعوّل على ان ينقل تخت ملكه الى تونس فعظم ذلك على الرّوم وقام البطريرك اذ ذاك وشد ازره وشجعه وثبته فرجع الى محاربة الفرس فمكنه الله منهم فدفعهم عن بلاده وعادت مصر الى حوزته

ولكنه عاد الى ما كان عليه سلفاؤه من الاستبداد بنا واضطهاد بطاركتنا وكان على الاسكندرية البطريرك بنيامين التقي الورع فاضطهده هرقل واستبدله ببطريرك اسمه كورش واراد هذا القبض على بنيامين ففر من الاسكندرية الى برية اسقيط واقام في تبايس حيث يكثر نصاراه وهو هناك الى هذه الغاية

على ان هرقل لم يكتف بهذا العمل فلما فاته القبض على البطريرك قبض على اخيه مينا وكان لا يزال في الاسكندرية وارسله مغلولاً الى القسطنطينية وقد سمعت ان هرقل عمل على تمليقه اولاً استجلاباً له حتى يسلم برأيه وهو التعليم بالمشيئة الواحدة والطبيعتين فلم يذعن له فامر به فطرح في النار حتى كاد يحترق ثم اخرجه منها وجعل بالكمة على فكيه حتى سقطت اسنانه وامر بتايس فملئ رملاً وجعلوا مينا فيه والقوه في البحر فمات شهيداً

هذه هي حكايتنا يا ولدي وقد احكيها لكم كما شاهدتها وتحدثني النفس احياناً ان هؤلاء العرب ربما عاملونا معاملة الفرس فتكون البلية الثانية شراً من الاولى ثم يخطر لي معاملتهم للبلاد التي افتتحوها الى الآن فاراهم افضل لنا من الرّوم

ولم يتم الشيخ حديثه حتى ملّ الكلام لشيخوخته وضعفه وكان الجنديان وبربارة وسائر الحضور مصغين اليه وقد ارتاحوا الى حديثه واستأنسوا به فالتفت مرقس اليه وقال قد سرنا حديثك ايها الشيخ وشكرنا ما جئتنا به من الفوائد وقد صدقت باننا خلقنا لنشقى ولكننا نتوسم في قدوم هؤلاء العرب خيراً اما اذا غلبهم الرّوم فاننا في حوزة الرّوم نحارب بينهم لنا ما لهم وعلينا ما عليهم والا فاننا نكون مع الغالب

ثم نهض من مجلسه ودنا من الشيخ وهمس في اذنه قائلاً ان مولانا المقوقس مصمم على ما ذكرت فاذا رأى الغلبة للعرب انحاز اليهم وهو سيدنا وولينا ولولا الحامية الرّومية المراقبة لاعماله لانخ للعرب صدر بلاده ولم يرم عليهم نبلاً

---

(1) تاريخ الكنيسة

فقال جرجس (الجندي الآخر) وكان يسمع حديثهما همساً . ولكن كيف يكون هذا عزمه ويزوّج ابنته لقسطنطين بن هرقل ويحملها بنفسه الى بلبيس كما علمنا

فقطع الشيخ عليه الكلام قائلاً لا تتجاهل يا ولدي عن الحقيقة . كيف تستغرب ذلك وانت تعلم ان تمنّعه بجرّ وبالاً على سائر الاقباط وهو يود كتمان هذا الامر عن كل انسان الى ان يقضي الله بما يشاء

أما بربارة فكانت مستأنسة بالحديث خفيةً فلما ذُكرت حكاية ارمانوسة وقسطنطين تذكرت سيدتها وما تحمله اليها من الاخبار المهمة وخافت ان يسبق السيف العزل فيأتي قسطنطين ويأخذ سيدتها قبل وصولها اليها بخبر اركاديوس فقالت للشيخ اسمح لي ان انطفل عليك بالسؤال عن أمر يهمني . سمعتك تقول في خلال كلامك انك عرفت رجلاً قادماً من الشام وهو الذي اخبرك عن معاملة العرب لاهلها فهل اخبرك شيئاً عن مجيء قسطنطين

قال الشيخ اظنه قال لي ان قسطنطين قتل في بعض المواقع ولكنني لم أتحقق الخبر[1]

فلما سمعت بربارة ذلك اختلج قلبها في صدرها من الفرح واحبت ان ترى ذلك المخبر فقالت ان الخبر اذا تحقق كان من الاهمية بمكان اذ يترتب عليه عود سيدتي ارمانوسة الى منف

فقال جرجس هل تظنين انها تحزن اذا مات قسطنطين

قالت لا ادري يا سيدي وربما تتأسف لان اقترانها بابن امبراطور الرومان شرف عظيم ولكن الله يفعل ما يشاء وأود كثيراً ان اعرف الحقيقة لان ارمانوسة سيدتي وانا خادمتها الخصوصية ويهمني هذا الخبر كما يهمها فهل يمكننا ملاقاة صديقك هذا الآن واين هو

قال الشيخ لا اعرف مكانه ولكنه كان هنا منذ بضعة ايام وقد سافر لزيارة بعض الاديرة ولا ادري اين هو الآن ولكن الخبر اذا كان صحيحاً لا اظنه يخفى على مولانا المقوقس والمواصلات جارية بينه وبينهم والجواسيس منبثة في سائر الانحاء ويغلب على ظني ان هذا الخبر منقول عن العرب ولعلهم اشاعوه تثبيطاً لعزائم الروم وعلى كل حال لا خفي الا ويظهر

(١) الواقدي

وفيما هم في الاحاديث اذ جاء احد ابناء الشيخ حاملاً حُقاً من الخشب قدمه الى الشيخ وفيه بعض الخمر المصنوع من التمر وهو لذيذ الطعم فتناوله الشيخ واعطى الجنديين قائلاً اليكما بقليل من الخمر فانه من بقايا غلة نخيلنا هذا العام وهو لذيذ فتناولا وشربا قليلاً واعطيا الشيخ فشرب

ثم قال الغلام ان الطعام قد حضر فهل تتفضلون لتناوله فنهض الجميع وكان الجوع قد اخذ منهم مأخذاً عظيماً وعادوا الى البيت فاذا بمصطبة صغيرة قد مد عليها سماط بسيط عليه بعض الطعام في آنية من خشب الجميز واقداح من الخزف وبعضها من الخشب ايضاً فيها بعض الخمر والمصطبة مصنوعة من شقف آنية الخزف وقد مد فوقها سقف من جزوع النخيل وسعفه قائم على دعائم من خشب السنط [1]

وجعل الشيخ يعتذر لضيوفه عن قصوره في ضيافتهم فتناولوا ما حضر وقضوا هزيعاً من الليل في الاحاديث المتنوعة الى ان جاءهم النعاس فناموا

الفصل الثالث عشر

بقرب بلبيس

فلنتركهم نياماً ولنذهب بالقارئ لمرافقة موكب المقوقس الى بلبيس . اما الموكب فكان مؤلفاً من عربة المقوقس وهودج ارمانوسة والحاشية بعضهم ركوب وبعضهم مشاة . اما الهودج فكان يحمله ستة من العبيد اربعة من الوراء واثنان من الامام ووراء المركبة رجل يحمل مظلة من ريش النعام . ومركبة المقوقس يسوقها فرسان من جياد الخيل عليها السروج الفضية يقودهما سائسان بلباس خاص بالسياس وكلما مرّ الموكب بقرية او بلد خرج الناس يستقبلونه بالزهور والطيوب . وكانوا قد برحوا عين شمس في الفجر على نية ان يدركوا بلبيس مساء ذلك اليوم فمالت الشمس نحو المغيب وقد اشرفوا على بلبيس وهي قائمة على ارض مرتفعة قليلاً في منتصفها قصر متشامخ اعدُّوه لاستقبال العروس وما دنوا من المدينة حتى خرج حاكمها وجندها ورجال

(۱) ولكنسن

حكومتها بالزهور والموسيقى فاستقبلوا الموكب وتقدم جماعة من الجواري تتقدمهن نساء الحاكم باكاليل الزهور فاستقبلن الموكب خارج السور ورافقنة حتى اقتربن من القصر فانزلن العروس من هودجها ودخلن بها الحديقة بين عزف الموسيقى وترتيل المرتلين حتى وصلن القاعة المعدة لاستقبالها وهي مفروشة باحسن الاثاث من الخز والديباج ومزينة باحسن الرسوم ثم جاءت جواريها يعددن لها ملابسها لتبديل ملابس السفر بعد ان قدمن لها المرطبات والمنعشات وقد كانت امرأة الحاكم تعد نفسها سعيدة لنزول تلك الضيفة عليها

أما الحاكم فاستقبل المقوقس وحاشيته وانزلهم على الرحب والسعة واعد لهم ما يحتاجون اليه وباتوا تلك الليلة باكرًا طلبًا للراحة من وعثاء السفر

وفي الصباح التالي اوصى المقوقس حاكم بلبيس خيرًا بابنته وودعها على امل اللقاء قريبًا فبكت هي لفراقه بكاء مرًّا خوفًا من ان يكون الوداع الاخير لعلمها بما هي فيه وما قد أعد لها من الشقاء وجلست بعد سفره منفردة في غرفتها تفكر في حالها وقد تعاظم بلبالها وهي لا تستطيع بث شكواها لاحد وشعرت عندئذ بافتقارها الى بربارة خادمتها الامينة وهي لا تعلم بما تم لها بعد دخولها الحصن . ولما تصورت الحصن تذكرت حالها مع اركاديوس وقسطنطين فاشتد بها الحزن حتى بكت وهي تحاذر ان يراها احد

فقضت سحابة ذلك اليوم في تلك الهواجس لا يهدأ لها بال ولا تنفك مُطلة تارة من هذه النافذة وطورًا من تلك تنتظر مجيء بربارة وهي تحسب شجر النخيل عن بعد اشباحًا آدمية لفرط قلقها فقضت ذلك اليوم على تلك الحال

اما بربارة فتركناها مع الجندبين في عين شمس وقد باتوا على نية التبكير الى بلبيس فلما اصبح الصباح أعدوا المركبة واطعموا الثورين علفًا كافيًا ولكنهم خافوا ان لا يكونوا على بينة من الطريق فسألوا الشيخ اذا كان احد اولاده يعرف الطريق فقال ان ولدي هذا يعرفها جيدًا وكثيرًا ما ذهب اليها لابتياع بعض الاقمشة وبيع ما يفضل عندنا من غلة ارضنا ثم ناداه فحضر فقال عليك يا ولدي بمرافقة اصحابنا الى بلبيس راكبًا على الثور أبيس فتصل بهم الى بلبيس ثم تعود ولا تبطىء لئلا يشتغل بالنا عليك

فلما سمع مرقس اسم ابيس تذكر انهُ اسم للعجل الذي كان المصريون يعبدونهُ في جاهليتهم فقال اراك قد دعوت ثورك باسم اله المصريين القدماء . فضحك الشيخ وقهقه ثم قال قد دعوناه بذلك لحكاية غريبة اتفقت لنا وكانت سببًا لنفع عظيم

قال وما هي حكايتهُ فقال ان هذا الثور قد عودناه المناطحة وهو قوي العضل ففاق سائر الثيران بالنطاح ولا يخفى عليكم ان عادة مناطحة الثيران قديمة في هذه البلاد ولكنها اليوم نادرة اما هذا الثور فانهُ على ما كان عليهِ اجداده من اتقان هذا الفن واتفق ان بعض الناس ممن يأتوننا المبادلة على الغلة بالكرم كان عندهم ثور مناطح وكانوا معجبين ببطشهِ فطلبوا الينا ان نراهنهم على مناطحة ثورنا فراهنَّاهم على بقرة اما ان نأخذها اذا غلب ثورنا او نعطيهم غلة نخيلنا العام كلهُ اذا غلب ثورهم فقبلنا الشرط وتناطح الثوران وكانت الغلبة لهذا الثور فكسر قرن ذاك واستولينا على البقرة ودعوناه من ذلك الحين ابيس اشارة الى انهُ بارع بالمناطحة مثل اجداده ثيران المصريين القدماء

فعجب الجنديان لهذه الحكاية ولكنهم اسرعوا بالرحول بعد ان تناولوا شيئًا من الطعام وحملوا معهم بعض التمر الجاف يتناولونهُ اثناء الطريق اذا جاعوا اذ ربما لا يجدون طعامًا في طريقهم وملأُوا قربتين من الماء وساروا يتقدمهم ابن الشيخ راكبًا على ابيس وقد كمَّمهُ لئلاَّ تخطر لهُ المناطحة في الطريق فيضر في الثورين الاخرين وودعوا الشيخ والقرية وساروا ووعدوه بما اراد وجعل الجنديان يتناوبان الركوب على الثورين وكانا ضخمين قويين يجران الاثقال ويحملان الجبال

وكان احد الجنديين المسمى مرقس ما انفك مذ برحوا الحصن في شاغل وقد تمنى منذ خروجه من الحصن ان لا يجدوا المقوقس في عين شمس رغبةً منهُ في الشخوص الى بلبيس لغرض لهُ بالقرب منها يهمهُ كثيرًا ولكنهُ لم يخبر احدًا بذلك فلما جاؤوا عين شمس وعلموا باقلاع المقوقس سرَّ كثيرًا وعند ركوبهم في الصباح عوَّل على ان يمر بالبلدة التي لهُ فيها ذلك الغرض ولا يعلم رفيقيهِ

فساروا سحابة ذلك اليوم وبربارة قلقة خوفًا من تأخرها بالرسالة فلما كانت الظهيرة وقفوا للاستراحة والغداء بالقرب من مزرعة بعض الفلاحين وفيها ساقية تظللها جميزة كبيرة ثم نهضوا وواصلوا سيرهم حتى امسى المساء وهم على مسافة طويلة من بلبيس

فارادت بربارة ان يواصلوا السير حتى يصلوها ولو ليلاً فقال مرقس دعونا نبيت الليلة في هذه البلدة ونصابح بابيس في الغد افضل من ان نسير ليلاً والطريق لا يخلو من الخطر فاستحسن الرفاق رأيه وعرجوا الى بلدة بالقرب منهم وطلبوا مبيتاً في منزل قسيسها فرحب بهم وخصوصاً لما عرف انهم من جند المقوقس فنزلوا عنده واقامت بربارة في غرفة النساء وهنّ لا يعرفن حقيقتها ولكنهم استأنسوا بها واكرمنها غاية الاكرام . اما صاحب ابيس فانه استأذنهم بالعود لاستغنائهم عنه بعد فاذنوا له وحمّلوه السلام لوالده

الفصل الرابع عشر

﴿ضحية النيل﴾

أما مرقس فسرّ كثيراً لنجاح مقصده وما صدق ساعة وصلوا بيت القمص فترك رفيقيه هناك وسار الى الطرف الآخر من البلدة الى منزل على ترعة صغيرة فوصل البيت وقد خيم الغسق والباب مقفل بالقرب منه بعض الجند فلم يعبأ بهم فطرق الباب طرقاً خفيفاً فناداه مناد من داخل من الطارق فاجاب انا مرقس افتحوا وكان ينتظر انهم عند ما يسمعون صوته يتهللون فرحاً و يبادرون الى الباب و يترحبون بالقادم ولكنهم لم يفتحوا الباب الاّ بعد برهة وسمع لغطاً وصوت بكاء خفيف ثم فتح الباب واذا بصاحب البيت واقف به وفي يده مصباح فلما رآه مرقس سلم عليه وهم بتقبيل يديه اكراماً لشيخوخته فقبله الشيخ في عنقه فشعر مرقس بدموعه تتساقط فبغت ونظر اليه متعجباً وسأله عن سبب ذلك فقال ادخل يا ولدي لانبئك بواقعة الحال فدخلا الى غرفة الاستقبال واقفلا الباب وراءهما فاذا بامرأته جالسة حزينة ومنديلها بيدها تمسح به دموعها فازداد اندهاله واشتاق لمعرفة السبب وقال ما بالك يا خالة ماذا جرى لكم واين هي مارية فصاحت الوالدة وقد علا صياحها وابة مارية تعني يا ولدي فاجاب مبغوتاً وكيف ابة مارية اين هي مارية قولي لي . . . . قالت وقد خنقتها العبرات ان مارية يا ولدي سيأخذونها بعد يومين ولن تراها عيوننا . . . . . آه منهم قالت ذلك وشرقت في البكاء

فصاح مرقس وقد كادت تخنقهُ العبرات والى اين يأخذونها ومن يأخذها

قالت سيأخذونها منا ويدفعونها ضحية للنيل يا ولداه وليس لمرقس

فعلم مرقس ان الاختيار قد وقع عليها هذه السنة لتلقى في النيل كجاري العادة عند المصريين فقد كانوا يلقون كل سنة فتاة في النيل بحلاها ومصاغها استدراراً للغيث ورغبة في الفيضان (١) وتحقق لديهِ ان حبهُ لها وخطبتهُ اياها ذهبت ادراج الرياح ولكن الحب غلب عليهِ ونادى باعلى صوتهِ انهم لن يأخذوها واني لافتديها بروحي ومالي ولا يمكن ان أسلم بها دعوني اراها الآن وندبر طريقة للنجاة بها

قالت والى اين تذهب بها الم ترَ الشرطة واقفين بجوار البيت يترقبون حركاتنا وسكناتنا فاننا اذا اتينا امراً انما نجني على انفسنا

فقال ولكن العادة ان لا يأتوا هذا الامر الاَّ بعد رضاء والدها فهل رضي عمي بذلك

فقطع عمهُ عليهِ الكلام قائلاً وكيف يرضونني بل كيف ارضى بهذا الامر ولكنهم لما حاولوا ارضائي ولم ارضَ ارادوا اخذها بالعنف بدعوى ان ذلك انما يحدث بقضاء من الله تعالى وقد كانت القرعة السنة الماضية وقعت على الابنة الاسرائيلية كما علمت وهذه السنة جاء الدور على النصارى وكانت المصيبة عليَّ

فصاح مرقس لا فاض النيل ولا ارتوت الارض اذا عطشت انا . واما انتم فطيبوا قلبكم واتركوا الامر عليَّ وانا انقذها من هذه الوهدة كونوا براحة ولكن اروني اياها اين هي الآن

فقالت الوالدة هي في غرفتها تندب وتبكي يا ولداه ولا يقدر ان يراها احد ولا ان يكلمها

قال دعوني اراها لعلي استطيع تعزيتها وانا اعلم اني قادر على انقاذها . وكان قد خطرت ببالهِ بربارة وانها من المقربين من المقوقس فلاح لهُ ان يستنجدها فتذكرها امام المقوقس او ابنتهِ فيشفق عليها ويأذن باستبدالها باخرى . فقال اروني اياها ولا تيأسوا من رحمة الله فاني قادر على انقاذها باذن الله

(١) المقريزي وغيره

(سيأتي البقية)

الهلال

الجزء السابع من السنة الرّابعة

(١ دسمبر (ك ١) سنة ١٨٩٥) (١٤ جماد الثاني سنة ١٣١٣) (٢٣ هاتور سنة ١٦١٢)



اشهر الحوادث واعظم الرجال



فيكتور عمانوئيل الثاني

اوّل ملوك ايطاليا بعد تحريرها

(ولد سنة ١٨٢٠ وتوفي سنة ١٨٧٨)

فيكتور عمانوئيل الثاني وتحرير ايطاليا

(تابع ما قبله)

وكان الحزب الحر قد تنشط فثار اهل صقلية يطلبون الحرية واصرّوا على طلبها مع ما قاسوه من ضغط الحكومة فوصلت اصواتهم الى نابولي فاضطر ملكهم ان يعدهم باقامة الشورى تسكيناً لهاجهم وفرّ دوق مودينا من وجه الحزب الحر خوفاً على حياته أما البابا فلم يثبت على عزيمته في نصرة حزب الاستقلال ولكن كارلو البرتو كان قد محا العار الذي لحق به في المرة الماضية وعادت اليه شهرته الاولى بحب الاصلاح فعادت آمال الايطاليان الى تسليم قيادة احزابهم اليه حتى اذا اجتمعت كلمتهم اقاموه ملكاً عليهم فقبل الدعوة. وفي سنة ١٨٤٨ نُشر العلَم الايطالياني المثلث الالوان وهو علَم الاستقلال فانضم تحته اهل لومبارديا والبندقية وحاربوا حصن بيشارا وفتحوه وكارلو البرتو في مقدمتهم وقامت ايطاليا كلها على ساق وقدم تدعو الى الحرية والاستقلال فانشأوا حكومة وقتية في ميلان فلقبت غاريبالدي بلقب جنرال وعهدت اليه تجريد حملة من متطوعي لومبارديا ولكن اهل سردينيا كانوا لا يزالون على اعتقادهم في مانسيني بانه رجل متهوّر وان طريقته في اثارة العواطف شديدة الخطر وكانوا يعلمون ايضاً ما بينه وبين غاريبالدي من العلائق فساؤوا ظنهم في هذا حتى امتنعوا عن تقديم المؤن والذخيرة لجنده ففشل قومه فشكا امره الى كارلو فاجابه معتذراً بأن المسألة تتعلق رأساً بمجلس تورين أما المجلس فلم يصغ الى مطاليبه فترتب على ذلك فشل الحزب الحر فانقسم على نفسه واضطر شارلس في ختام سنة ١٨٤٨ ان يخرج من ميلان فعاد النمساويون اليها

ودخلت سنة ١٨٤٩ والاحوال تزداد تعقيداً وخطراً وحصلت في تلك السنة واقعة نوفارا الشهيرة قضي فيها على كارلو وجيشه فتنازل عن الملك لابنه فيكتور عمانوئيل الثاني ونفته النمسا الى نيس فمات فيها بعد بضعة اشهر حزيناً كئيباً فازداد حزب الاصلاح فشلاً وحبوطاً اما في رومية فكانت الافكار مضطربة فسعى البابا بيوس في اصلاح ذات البين فاختار مستشاراً توسم فيه الاعتدال اسمه روسي ولكن حزب الاصلاح لم يرض به فقتلوه طعناً بالخناجر وهاج الشعب وماج حتى ان جماعة كبيرة

من الديموقراطيين نادوا بالجمهورية فخرج البابا من رومية الى جايتا واصدر هناك منشورًا يقيم فيهِ الحجة على ذلك الحزب وفي اثناء ذلك وصل مانسيني الى رومية واستلم زمام الاحكام ومعهُ صافي وارمليني وبعث يستقدم غاريبالدي فجاء مع بقية رجالهِ الذين حاربوا معهُ في البرازيل وجند من المتطوعين يبلغ عددهم ٢٥٠٠ رجل فانتصرت النمسا ونابولي وفرنسا للبابا وبعثوا بالجنود لقمع الحزب الحر وكان غاريبالدي متوليًا الدفاع عن رومية فقاسى عذابًا شديدًا ولكنهُ دافع دفاع الابطال وقهر اعداءهُ في مواقع كثيرة اما رومية فخرجت من يدهِ بخيانة لم تكن في حسبانهِ بعد حصار ثلاثة أشهر على ان ذلك لم يفلَّ عزيمتهُ فلما سلم المدينة خاطب رجالهُ قائلاً «أيها الجنود ليس لدي ما اقدمهُ لكم بعد جهادكم وشقائكم الاَّ الجوع والعطش وارضًا جرداء تتوسدونها وشمسًا حارة ترتعون في ظلها اما الرواتب والثكنات والمؤن والذخائر فلا وجود لها وما لديَّ الاَّ الرعب والشقاء والضرب في الارض واطلاق الرصاص فمن احب المجد منكم ولم ييأس من الفوز فليتبعني» فتبعهُ زهاء خمسة آلاف رجل وكان عازمًا على الشخوص الى البندقية فعلم ان الجنود النمساوية في طريقهِ تمنعهُ من المرور وفي اثناء ذلك توفيت امرأتهُ انيتا على اثر تعب الاسفار فاسف لفراقها واعتزل في جزيرة صغيرة اسمها كبريرا بالقرب من سردينيا ولم يرَ بدًّا من معاطاة عمل يقوم باود حياتهِ فهمَّ بالمسير الى اميركا فوصل نيويورك سنة ١٨٥٠ وجعل يتعاطى صناعة الشمع وبيعهِ في حانوت صغير ثم سافر الى بيرو وعاد الى صناعة الملاحة فتولى قيادة سفينة تجارية سافر فيها الى الصين وفي سنة ١٨٥٤ عاد الى اميركا وقد تولى قيادة مركب تجاري وعاد من هناك الى اوربا وما زال قائدًا لباخرة تجارية بين نيس ومرسيليا عدة سنوات اما ايطاليا فعادت الى حكومتها الاولى. واتفق في اثناء ذلك حرب القرم فنالت جنود سردينيا فيها شهرة طائرة وفي سنة ١٨٥٩ قامت الحرب بين نابوليون الثالث والنمسا وكان فيكتور عمانوئيل الثاني ملك سردينيا حليفًا لنابوليون فانكسرت جنود النمسا وتخلت عن لومبارديا لفرنسا فتنازلت فرنسا عنها الى فيكتور عمانوئيل في مقابل تنازلهِ لها عن نيس وسافوا فلم يشعر غاريبالدي الاَّ وقد اصبح من رعايا فرنسا لانهُ ولد في نيس وكان اثناء ذلك قد نال ارثًا طائلاً من تركة والدتهِ واقام في كبريرا فرأى فيكتور عمانوئيل ان يستغنم تلك الفرصة

لاستخدام غاريبالدي في جنده فاستقدمه اليه وتفاوضا ملياً وتآلف ذوقاهما فولاه فيكتور قيادة فرقة من المتطوعين ومنحه رتبة فريق فعاد انصار غاريبالدي اليه وقد اشتد ازرهم واتحدوا جميعاً على حرب النمسا فظهروا عليها وقد ساء منقلبها ودخلت دوقيات توسكانا ومودينا و بارما في حوزة عمانوئيل وفرّ امراؤها يقتفون اثر السيطرة النمساوية ثم توفي فردينان ملك نابولي وخلفه ابنه فرنسيس الثاني وكان ضعيف الرأي فانقسمت مملكته على نفسها فاغتنم غاريبالدي تلك الفرصة واستولى على مملكة نابولي وفي سنة ١٨٦٠ سار من جنوا في حملة الى صقلية وافتتحها فاستنجد الملك فرنسيس بانكلترا وفرنسا فلم يُسمع استنجاده

فلما بلغت اخبار هذا النصر شمالي ايطاليا تقاطر الناس طوعاً لنصرة غاريبالدي وعمانوئيل وتوحيد مملكة ايطاليا واجتمع وزراء عمانوئيل بنابوليون الثالث وتفاوضوا ملياً فاتصلوا الى وفاق يقضي بان يحل البابا جنوده الاجنبية اما هو فلم يقبل فحاربته جنود عمانوئيل وتغلبت على جنوده فقبل ثم نهض غاريبالدي حالاً لافتتاح نابولي نفسها ففر فرنسيس وجنده والتجأوا الى حصن جايتا

وهكذا تم النصر لغاريبالدي ونال الغاية التي قام من اجلها على انه لو ترك وشأنه ما استطاع ذلك الا بمشقة وخطر نظراً لما فطر عليه من الشهامة والبساطة والبعد عن اساليب السياسة وقد قال محدثاً عن نفسه « لا اعرف الا تجريد الحسام » ولكن بعض رجال السياسة في مجلس عمانوئيل وخصوصاً كافور وفاريني سدوا ذلك النقص اما اخلاص هذا الرجل في خدمته لوطنه فتظهر من رغبته عن السلطة والفخر فانه بعد ان تغلب على نابولي لم يدخلها الا مع الملك عمانوئيل فدخلاها باحتفال باهر ومعهم الجند يهللون فرحين بما اوتوه من النصر وحضر الاحتفال فرقة من الجنود الانكليزية فدخل غاريبالدي وعمانوئيل معاً متصافحي الايدي ووراؤهما كبار العمارة الانكليزية والناس يضجون بالتهليل وينادون « ليحيي اخواننا الانكليز » ولما تم الاحتفال زار غاريبالدي اميرال العمارة الانكليزية ثم صافح فيكتور عمانوئيل ملك ايطاليا الجديد وتنازل عن رتبه والقابه وحقوقه وكان الشعب قد ولاه منصب ديكتاتور اي الشارع المتصرف المطلق فتنازل عنه الى عمانوئيل وودع رجاله وانصاره في الحروب وعاد الى معتزله في جزيرة كبريرا والدموع تشيعه . ويقال ان السبب الحقيقي في اعتزاله خوفه من ان يسبب

وجوده حسد يشأ عنه انقسام فيذهب نعمة سدى واما سكنة في تلك الجزيرة فكان مثال البساطة ومعيشته مثال الاقتصاد والحكمة

وفي سنة ١٨٦١ التأم مجلس البرلمان الايطالياني في تورين وهي المرة الاولى لاجتماعه واقرَّ فيهِ على تسمية فيكتور عمانوئيل ملكًا على ايطاليا وهي اوَّل مرة دعي فيها بهذا اللقب وانتخب غاريبالدي نائبًا عن نابولي فلم يستطع الحضور لانحراف صحتهِ ولكنه حضر في جلسة اخرى وكان في نفسهِ شيء على كونت كافور لانهُ صادق على التنازل عن نيس وسافوا لفرنسا فلما اجتمعا هذه المرة تصافحا وتصالحا ولكن التقادير امتحنت بمصلحة ايطاليا بوفاة كافور لانهُ كان عمدها وخيرة ساستها فخلفهُ ريكازولي ورتاتزي ولم يكن للشعب فيهما مثلما كان لهم في كافور من الثقة وكان الشعب الايطالياني لا يزال راغبًا في اتمام بغيتهِ باستخراج رومية من فرنسا والبندقية من النمسا فاراد رتاتزي ان يسترضي الحزب الراغب في ذلك فاقرَّ على حملة تذهب لمحاربتهما ولكنهُ لم يكن عازمًا الاَّ على محاولة ذلك ظاهرًا فجند الجند تحت قيادة غاريبالدي اما هذا فما فهم المراد حقيقة فسار بحملتهِ وباشر حروبهُ فوردت عليهِ الاوامر بالوقوف فلم يذعن وظل سائرًا نحو رومية وفي مسيره هذا من الخطر على مركز ايطاليا ما كاد يذهب بها الى الدمار لمعاداتها دولة فرنسا العظمى وايطاليا لا تزال طفلة فلم ترسبيلاً لتجنب ذلك المحذور الاَّ بالقبض على غاريبالدي قهرًا وسوقهِ اسيرًا جريحًا الى فاريجنانو ولم يكن اسره الاَّ ظاهرًا ولكن معاملته على هذه الصورة حركت عواطف دول اوربا فارسلت اليهِ الاطباء من لندرا وباريس لتطبيب جراحهِ فلما شفي عاد الى كبريرا وقد عادت اليهِ صحتهُ وسرَّ بما لاقاه من مواساة اصدقائهِ ثم فهم المراد من هذه المعاملة فصفح عما فات وفي سنة ١٨٦٤ زار انكلترا فاحتفلوا بزيارتهِ كثيرًا

وفي سنة ١٨٦٤ قامت الحرب بين النمسا وروسيا وكانت ايطاليا محالفة لروسيا وآلت تلك الحرب الى تنازل النمسا عن البندقية لفرنسا ثم تنازلت عنها فرنسا لايطاليا وفي سنة ١٨٧٠ انتشبت الحرب بين فرنسا وبروسيا فاضطر الفرنساويون الى سحب حاميتهم من رومية فلم يعد البابا قادرًا على الدفاع وكان الايطاليان واقفين بالمرصاد فاغتنموا تلك الفرصة ودخلوا مدينة رومية في ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٧٠ مهتلين بما اوتوه من النصر المبين ولا يزال هذا اليوم يومًا يحتفلون بهِ كل

عام تذكاراً لدخولهم رومية

وكان غاريبالدي قد تجاوز الستين من عمره ولكنه مع ذلك تولى قيادة الجند ورأى تمام الفوز بعينو اما الفرقة التي دخلت رومية اولاً فكانت تحت قيادة كادورنا احد كبار قواد الايطاليان وفي ٩ يناير سنة ١٨٧٨ توفي فيكتور عمانوئيل ودفن في البانثيوم برومية على ان غاريبالدي لم يعش بعد وفاة عمانوئيل الا بضع سنوات قضاها في كبريرا وتوفي هناك في ٢ يونيو سنة ١٨٨٢ وقد تم له ما امله تماماً



باب المقالات

تاريخ الانسان

في أوائل العمران

(٣) الكساء (تابع ما قبله)

(٣) تاريخ الكساء بعد اختراع الحياكة

ذكرنا في الهلال الماضي تاريخ الكساء قبل اختراع الحياكة وبسطنا الكلام على الغزل والحياكة وكيف توصل الانسان اليها وبقي علينا القسم الثالث من تاريخ الكساء وهو تاريخه بعد الحياكة

فلما حاك الانسان الانسجة اتخذها كساء له بدلاً من اوراق الشجر وقشوره والجلد وغير ذلك من الاكسية الطبيعية وربما اتخذها معاً فكان اذا حاك ثوباً اتخذه فغطى عورته او التف به لتأ او ما شاكل ذلك مما يرجع الى الوقاية من البرد او دفع الحياء

(تاريخ الخياطة)

على ان الحياكة وحدها لم تكف الانسان لاصطناع الاكسية على انواعها ولكنه اضطر الى اختراع آخر لا غنى لنا عنه في اصطناع الاثواب على انواعها من اعظمها الى احقرها وهو ❊ الابرة ❊ فالابرة على دقتها وقلة نفقاتها وبساطة صنعها تضاهي

المغزل في اهميتهِ بالنظر الى صناعة اللباس فانها اساس الخياطة وبها تشد قطع الثوب بعضها الى بعض . والغرض من استخدام الابرة قديمٌ فالانسان كان يشد قطع اثوابهِ بعضها الى بعض قبل زمن الحياكة بل وقبل التردي بالجلود لانهُ لما اتخذ ورق الشجر او قشر كساء كان يضطر في كثير من الاحوال الى شد بعض اجزاء ذلك الثوب بالبعض الآخر ولا غنى لهُ في ذلك عن الابرة او الخيط او ما يقوم مقامها فاستخدم بدل الابرة الشوك او الحسك يشد بهِ قطع الثوب غرزًا بسيطًا بلا خيط او ربما ثقب حافتي الجزئين المراد خياطتهما من الثوب بشوكة من عظم وادخل في الثقبين قدة من جلد او قطعة من معاء جاف يشد طرفيها بعقدة وهي ادنى درجات الخياطة وهكذا يفعل النوجيون الآن فانهم يثقبون الجلود بعظمة محددة ويدخلون في الثقب خيطًا يربطون طرفيهِ احدهما بالآخر . فالشوكة او الحسكة او العظمة اقدم انواع الابر ولعل الانسان قضى ازمنة متطاولة يخيط اثوابهُ بهذه الابر فيثقب القماش او الجلد بها ثم يخرجها ويبعث الخيط او ما يقوم مقامهُ في ذلك الثقب كما يفعل صناع الاحذية في هذه الايام فانهم يثقبون الجلد بالخرز ثم يدخلون الخيطان في الخرز ويشدونها

ولكن الانسان ما لبث ان اهتدى الى اختراع الابرة ذات الثقب التي يدخل الخيط في ثقبها فاذا غرزت في الثوب خرجت من الجانب الآخر والخيط يجر وراءها وهي الطريقة المشهورة في الخياطة في سائر اقطار العالم والظاهر انها قديمة العهد كثيرًا ولا غرو فان اختراعها سهل لبساطتها وشدة احتياج الانسان اليها على ان الانسان قضى اعصرًا متوالية يخيط اثوابهُ بالابر من العظم والحسك حتى اهتدى الى معالجة المعادن فاصطنع الابر اولًا من البرنز وفي المتاحف الآثارية في اوربا امثلة من هذه الابر عثروا عليها في اطلال بعض المدن القديمة . ثم اصطنعوا الابر من الحديد وغيره وما زالوا يتفننون في صنعها واتقانها حتى بلغت ما نعلمهُ عنها . فلما خرج اهل اوربا من الاجيال المظلمة ونهضوا لاحياء العلم والصناعة كان في جملة اختراعاتهم الصناعية آلة الخياطة (الماكنة) والفضل في هذا الاختراع العظيم للانكليز فانهم هم الذين وضعوا اساسهُ واقدم آلة صنعت لهذه الغاية صنعها رجل انكليزي يقال لهُ شارلس وسينتال سنة ١٧٥٥ ثم اخترع توماس سانت آلة لخياطة الاحذية سنة ١٧٩٠

واول ظهور هذه الآلات في اميركا سنة ١٨١٨ وفي فرنسا سنة ١٨٢٤ على ان الفضل في اتقانها راجع الى الاميركان فان اوّل آلة متقنة صنعها رجل اميركاني اسمهُ الياس هاو في ماساشوست سنة ١٨٤١ وقد أُدخلت طريقتهُ هذه الى انكلترا على يد رجل اسمهُ توماس سنة ١٨٤٦ ولا يزال هذا النوع من آلات الخياطة يعرف باسمهِ وقد زادوا في اتقانهِ وتفننوا فيهِ كثيرًا

(الازياء)

لما اهتدى الانسان الى الغزل والحياكة وتمَّ لهُ اصطناع الانسجة استعاض بها عن الجلد واوراق الشجر وقشوره والغالب انهُ اكتسى بها اولاً بلا خياطة كما يفعل كثير من اهل البادية وقد رأينا جماعة كبيرة من اهل السودان يرتدون بثوب من نسيج القطن او غيره هو عبارة عن قطعة من قماش طولها بضعة اذرع يأتزرون ببعضها ويتركون طرفًا منها مستطيلاً يرسلونهُ على اكتافهم حتى يتدلى على ظهورهم فيغطي معظم الصدر والظهر

(الشكل الاوّل)



وترى في الشكل الاوّل رسوم بعض اسرى الحثيين منقولة عن الآثار المصرية ولباسهم يقرب من هذا النوع وفي بعضهم لا يتجاوز هذا الثوب اوساطهم وفي البعض الآخر يكسو اكتافهم وصدورهم وكان العرب في البادية يستخدمون هذا النوع من الكساء ويسمونهُ الشملة وبعضهم يستخدم قطعة اخرى من هذا النسيج لفًّا على رأسهِ هي العمامة تقيهِ حرَّ الشمس والعمامة من ابسط انواع الكساء للرأس تفننوا بها بعد ذلك على اساليب شتى حتى بلغت اشكالها عددًا لا يكاد يحصى كما سترى

ومثل الشملة في البساطة العباءة بلا اكمام وتسمى بلغة العامة المشلح وهي قطعة من نسيج تنشر على الاكتاف وتتدلى منها حتى تغطي الجسم وتلف من الامام على الصدر او تشد بعقدة او مشبك وهو اصل استخدام (البروش) من انواع الزينة يعلق في أعلى

الصدر ومعناه في اللغات الافرنجية (المشبك) وهناك انواع كثيرة من العباءة وما يجري مجراها ترجع كلها الى الاكتساء بالنسيج بلا تفصيل ولا خياطة

أما الالبسة المخيطة فالكلام فيها يطول شرحه وإيضاحاً لما سيأتي نقسم الكلام في اصل الازياء الى ثلاثة اقسام (١) لباس البدن (٢) لباس الرأس (٣) لباس القدم

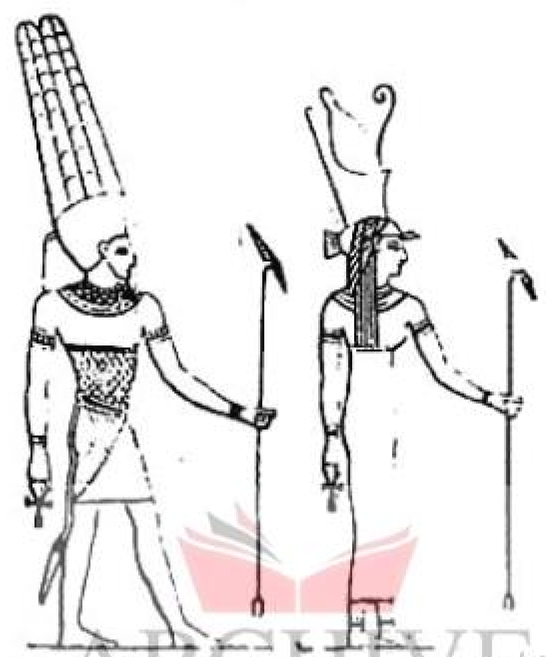
(١) ﴿ البسة البدن ﴾ وابسطها القميص او ما يشبهها ما هو عبارة عن كيس بطول الانسان فيه فتحة عليا للرأس وفتحتان جانبيتان للذراعين ولا اكمام له ثم ركبوا له الاكمام وتفننوا فيه على اساليب شتى لا تقع تحت الحصر فتألفت منها انواع الاكسية الواسعة الشرقية كالعباءة والجبة والقفطان وغيرها

ومن ادوار تاريخ اللباس البدني لبس الاردية بعضها فوق بعض فقد كان الانسان اولاً انما يريد باللباس سد حاجة ضرورية للكساء او لدفع الطوارئ الطبيعية من الحر والبرد فكان لباسه طاقاً واحداً على انه وجد بعد تدرجه في سلم العمران ان النظافة تقضي بان يتخذ لباساً سفلياً غير اللباس الاعتيادي فاصبح الكساء طبقتين او اكثر

ولو تأملت ملابس اسلافنا الاقدمين لرأيت عنايتهم توجهت اولاً الى كساء العورة فاتخذوا اولاً المئزر يغطون به اوساطهم الى الركبة كما رأيت في صور اسرى الزنوج بالهلال الماضي وربما اكتفوا بغطاء امامي فقط وقد شاهدنا في السودان اناساً عراة وهم في الغالب من الاحداث الذكور اما الاناث فيجعلن على اوساطهن وزرة من الشراريب المجموعة من قدد الجلد تتدلى من اوساطهن متوازية الى ما فوق الركبة ويسمونها الرهط

والغالب في الامم القديمة ان يجتهدوا في كساء الجزع الى الركبة ويندر عندهم كساء الذراعين والساقين ولو تأملت في سائر رسوم الآثار المصرية والاشورية واليونانية وغيرها من الامم القديمة لرأيت كساء الساقين والذراعين نادراً على ان رداءهم قد يتجاوز الركبة الى منتصف الساق ولكن لا يظهر انهم كانوا يلبسون السراويل المقفلة أما لباس الاناث فكان دائماً اطول واستر من لباس الرجال لانهن اقرب الى الحياء من الذكور ونرى ذلك ظاهراً في اقدم آثارهم حتى ان المصريين القدماء كانوا اذا رسموا آلهتهم جعلوا لباس الذكور منها قصيراً ولباس الاناث طويلاً

(الشكل الثاني)

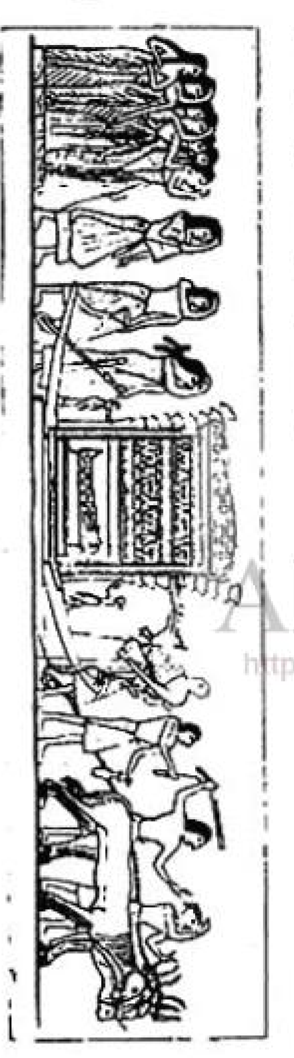


وترى في الشكل الثاني صورة الالهة ايزيس الى اليمين والاله امون رع الى اليسار والفرق بين تاجيهما ظاهر (الشكل الثالث)



وفي الشكل الثالث صورة رعمسيس الثاني وبعض رجاله يقاتلون الحثيين ولباسهم قصير جداً بلا سراويل

(الشكل الرابع)



وفي الشكل الرابع صورة جنازة مصرية قديمة والنساء وراءها وقد كستهن الثياب الى اقدامهن وقس على ذلك سائر الامم قديماً وحديثاً فقد قضت الفطرة ان تكون الانثى اكثر حياء وخجلاً من الرجل وترى آثار ذلك ظاهرة في الحيوان الاعجم ايضاً . ويلاحظ الباحث ايضاً ان لباس اهل اسيا اقرب الى السعة والطول من اهل اوربا فالرومان واليونان وسائر اهل اوربا كانوا يلبسون لباساً قصيراً لا يغطي ركبهم (الشكل الخامس)



وفي الشكل الخامس صورة رجلين بريطانيين من اهل انكلترا في زمن جاهليتها عاريي الساقين والفخذين واما اهل اسيا فانهم ما زالوا من اقدم ازمانهم يلبسون غالباً الالبسة الواسعة المنحنية ولا يزال الحال على مثل ذلك حتى الآن وقد ذكر هيرودوتس الرحالة اليوناني ان البابليين كانوا يتسربلون بكساء من كتان يصل الى اقدامهم . ولو اردنا تعداد انواع اللباس الذي لضاق بنا المقام فالموضوع واسع لا تقوم باستيفائه المجلدات الضخمة وكلامنا محصور في البحث عن اللباس في اوائل العمران وسنتكلم عن تاريخ لباس الرأس والقدمين في الهلال القادم ان شاء الله

باب المراسلات

الف ليلة وليلة

(جواب على اقتراح حكمت بك شريف في صفحة ٨٥٢ من هلال السنة الثالثة)

حضرة الفاضل منشىء الهلال الاغر

لا يخفى ما لأهل النظر من تشعب الآراء في تحقيق كيفية تأليف هذا الكتاب فاقتصر الآن على شذرات تغني عن اطالة الكلام واسهابه في هذا الموضوع

معلوم ان الدولة العباسية لما بلغت ذروة التمدن افرغت الجهد في اقتناء العلوم الاجنبية التي لم يبق للعرب المام بها ثم انهم لم يقتصروا على نقل العلوم الفلسفية فقط بل اختاروا من كل موضوع ما يشحذ الذهن ويبسط الخاطر . ولما كانت تلك الدولة مجاورة للفرس وكان جل اركانها فارسي العصبة واللحمة كان اعتناؤهم بعلوم الفرس اكثر من اعتنائهم بعلوم مصر واليونان والهند ونجد الكتب المترجمة عن اليونان مقصورة على الفلسفة والطب اما ما ترجموه عن الفرس فمعظمه من السير والتواريخ والفكاهات والامثال وغيرها . فمن كتب التاريخ كتاب رستم واسفنديار وكتاب بهرام جوبين وكتاب شهرزاد مع برويز وكتاب الكارنامه في سيرة انوشروان وكتاب التاج وكتاب دارا وصنم الذهب وكتاب دونامه وكتاب خداي نامه وكتاب بهرام ونرسي وكتاب كهن نامة وغيرها

ومن كتب الاسمار كتاب يوسفاس وكتاب خرافة وكتاب الدب والثعلب وكتاب روزبه وكتاب شاه زنان وكتاب نمرود وكتاب خليل

وكان من جملة كتب الاسمار كتاب يسمى « هزار افسانه » ومعناه الف سمر فان هزار بالفارسي الالف وافسانه السمر وكان سبب تأليفه على ما صرح به ابن النديم البغدادي في كتاب الفهرس « ان ملكاً من ملوكهم كان اذا تزوج امرأة وبات معها ليلة قتلها من الغد فتزوّج بجارية من اولاد الملوك لها عقل ودراية يقال لها شهرزاد

فلما حصلت معهُ ابتدأت تخرفهُ وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها ويسأَلها في الليلة الثانية عن تمام الحديث الى ان اتى عليها الف ليلة وهو مع ذلك يطأُها الى ان رزقت منهُ ولداً اظهرتهُ واوقفتهُ على حيلتها عليهِ فاستعقلها ومال اليها واستبقاها وكان للملك قهرمانة يقال لها دينارزاد فكانت موافقة لها على ذلك وقد قيل ان هذا الكتاب تأليف لحماني (الصحيح اها) ابنة بهمن»

(كتاب الفهرس صحيفة ٣٠٢ من النسخة المطبوعة في اوربا)

ثم قال ابن النديم بعيد ذلك «ان اوّل من سمر بالليل الاسكندر وكان لهُ قومٌ يضحكونهُ واستعمل لذلك بعدهُ الملوك كتاب هزار افسان ويحتوي على الف ليلة وعلى دون المائتي سمر لان السمر ربما حدث بهِ في عدة ليال وقد رأيتهُ بتمامهِ دفعات وهو بالحقيقة كتاب غث بارد الحديث»

وقال المسعودي في كتاب مروج الذهب في ذكر الهياكل العظيمة «وقد ذكر كثيرٌ من الناس ان هذه اخبار موضوعة من خرافات مصنوعة نظمها من تقرب للملوك بروايتها وان سبيلها سبيل الكتب المنقولة الينا والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرّومية مثل كتاب افسان وتفسير ذلك من الفارسية ويقال لهُ افسانه والناس يسمون هذا الكتاب الف ليلة وليلة وهو خبر الملك والوزير وابنتهِ وجاريتها شهرزاد ودينارزاد».

ثم انهم لم يكتفوا بذلك القدر بل وضعوا اسماراً عديدة على حذائهِ قال ابن النديم البغدادي «وابتدأ ابو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري صاحب كتاب الوزراء بتأليف كتاب اختار فيهِ الف سمر من اسمار العرب والعجم والرّوم وغيرهم كل جزء قائم بذاتهِ لا يعلق بغيرهِ واحضر المسامرين فاخذ عنهم احسن ما يعرفون ويحسنون واختار من الكتب المصنفة في الاسمار والخرافات ما يحلى بنفسهِ وكان فاضلاً فاجتمع لهُ من ذلك اربعماية ليلة وثمانون ليلة كل ليلة سمر تام يحتوي على خمسين ورقة ورأيت من ذلك عدة اجزاء بخط ابي الطيب اخي الشافعي وكان قبل ذلك من يعمل الاسمار والخرافات على السنة الناس والطير والبهائم جماعة منهم عبد الله بن المقفع وسهل بن هرون وعلي بن داود كاتب زبيدة وغيرهم»

فيظهر من هذا كلهِ ان الكتاب اصلهُ فارسي وان ما توهمهُ بعض الاجانب بانهُ

يوناني وهم باطل لا يرجع الى مستند فان التخمين والقياس غير مغن عند وجود النصوص الظاهرة اما الاصول الموجودة من هذا الكتاب فلا شك انهُ وقع فيها الحاقات ولعلها من نسخة الجهشياري او غيره من مؤاني الكتب على حذائهِ

أما ما قالهُ حضرة مراسلكم في الهلال الاغر حكمت بك شريف انهُ جاء في عدة مواضع منها ذكر القهوة مع ان القهوة لم تكن في ذاك الزمان فمردود بان القهوة تستعمل قديمًا بمعنى الخمر كما هو مشهور

(علي كده من بلاد الهند) « شبلي النعماني »

تشطير

(تشطير البيتين المندرجين في الجزء الخامس من السنة الرابعة مرتبة حسب تاريخ ورودها)

١ ومهفهف عني يميل ولم يمل (عنهُ الفؤَاد ولو تعذب بالنوى)
(رأت العوازل من بكاي وما رأى) يومًا اليَّ فصحت من ألم الجوى
لم لا تميل اليَّ يا غصن النقا (او ما سقى دمعي رياضك باللوى)
(كل الغصون تميل الاَّ انت لي) فاجاب كيف وانت من جهة الهوى

(القدس الشريف) « علي الريماوي »

٢ ومهفهف عني يميل ولم يمل في خلوة تدعو لقلب قد هوى
ورنا بلحظ قد رماه بشدة يومًا اليَّ فقلت من ألم الجوى
لم لا تميل اليَّ يا غصن النقا قلب المتيم في الغرام قد انكوى
اكذا تكون عهود ارباب الاخا فاجاب كيف وانت من جهة الهوى

(القاهرة) « أحد اعضاء جمعية العصر العباسي »

٣ ومهفهف عني يميل ولم يمل لي ساعة ولفرط هجري قد نوى
ألف النفار فلم يجد بوصالهِ يومًا اليَّ فقلت من ألم الجوى
لِمَ لا تميلُ اليَّ يا غصن النقا يا من بنار غرامهِ قلبي انكوى

هل من سبيل ان تميل لمغرم — فاجاب كيف وأنت من جهة الهوى

(قوص) « الدكتور احمد رفعت »

٤ ومهفهف عني يميل ولم يمل — للقرب من صبٍّ يملُّ من النوى
ظبي ضنينٌ باللقاء فلم يحن — يوماً اليَّ فقلت من ألم الجوى
لِمَ لا تميلُ اليَّ يا غصن النقا — والقلب من نار الغرام قد اكتوى
هل لا ترق وترحمنَّ فؤاديا — فاجاب كيف وأنت من جهة الهوى

(تلحوين) « عبد المجيد احمد الشربيني »

٥ ومهفهف عني يميل ولم يمل — (نحوي فاصلى القلب من نار الهوى)
(شمت العواذل فاستهان ولم يعج) — يوماً اليَّ فقلت من الم الجوى
لِمَ لا تميل اليَّ يا غصن النقا — (ولعلني رشف اللمى منك الدوا)
(فارحم وُقيت وعج بصبٍّ واله) — فاجاب كيف وانت من جهة الهوى

(السنبلاوين) « لطف الله لطفي »

« ناظر مدرسة الاميركان »

٦ ومهفهف عني يميل ولم يمل — بالتيم اضحى الوصال له دوا
عاتبته لما رأيته مقبلاً — يوماً اليَّ فقلت من ألم الجوى
لِمَ لا تميل اليَّ يا غصن النقا — يا من على عرش الجمال قد استوى
قلبي يميل لغصنكم فتعطفوا — فاجاب كيف وانت من جهة الهوى

(شربين) « احمد عبد المحسن »

٧ ومهفهف عني يميل ولم يمل — لأسير رقٍّ في المحبة قد هوى
أهدى لي الشوق المبرح اذ بدا — يوماً اليَّ فقلت من ألم الجوى
لم لا تميل اليَّ يا غصن النقا — يا بدر تمٍّ للمحاسن قد حوى
أتمنَّ يوماً للحبيب بزورة — فأجاب كيف وانت من جهة الهوى

(شربين) « حسن رمضان الشربيني »

٨ ومهفهف عني يميل ولم يمل — عن هجره حتى استعب ليَ النوى
وشكوت من نار الغرام وما رنا — يوماً اليَّ فقلت من ألم الجوى
لم لا تميل اليَّ يا غصن النقا — ولهيب حبك في فؤادي قد ثوى

مل واعتدل واشفي فؤادي مرة
فاجاب كيف وانت من جهة الهوى
(بلقاس) « البيلي علي »

٩ ومهفهف عني يميل ولم يمل
ابدًا لانسان ونحوي ما التوى
وقد انثنيت على هواه وما انثنى
يومًا اليَّ فقلت من الم الجوى
لم لا تميل اليَّ يا غصن النقا
وانا وقدّك لا اميل الى السوى
فارحم بكاي ومل اليَّ تعطفًا
فاجاب كيف وانت من جهة الهوى
(بيروت) « جرجي قسطنطين صباغه »

١٠ ومهفهف عني يميل ولم يمل
الاّ لمن في حبه رفض السوى
أحرقت فيه حشاشتي لاضمه
يومًا اليَّ فقلت من ألم الجوى
لم لا تميل اليَّ يا غصن النقا
والغصن يتبع اصله حيث التوى
عاتبته طمعًا بادراك المنى
فاجاب كيف وانت من جهة الهوى
(القرعون) سوريا « سليمان الخوري صليبا »

باب السؤال والاقتراح

بحيرة المنزلة

(المطرية بالبحر الصغير) اندريا افندي ليفاتينو بولو مفتش سواحل المطرية

ذهب الناس مذاهب شتى في اصل بدء وجود بحيرة تنيس المعروفة الآن ببحيرة المنزلة فمنهم من يقول انها وجدت منذ ستمائة سنة ومنهم من يقول سبعمائة سنة وهكذا من الاقوال المتناقضة وقد اجهدنا النفس في البحث املاً في الوصول الى التاريخ الذي حدثت فيه تلك البحيرة فلم نهتد وقد عثرنا اخيرًا في كتاب يوناني العبارة عن تاريخ الاسكندر المكدوني فوجدنا ان الاسكندر لما أتى منفيس من غزوة غزة ارسل اصطوله عن طريق النيل دخلها وهو برًا ولما تتبعنا سيره في الخريطة

الموضوعة بحسب الوضع القديم الملصقة بالكتاب المذكور وجدناه بعد خروجه من غزة مرّ ببلوز (Peluse) ثم وجدنا تلك البحيرة مرسومة بالخريطة المذكورة وكان مرور الاسكندر من شرقيها ومن هذا يتبين ان هاته البحيرة قديمة العهد وليست حديثة كما يزعمون اذ من عهد الاسكندر الى الآن نحو الفين ومائتي سنة تقريباً

وبما ان جريدة الهلال الغراء ينبوع العلوم فقد جئناها نرتوي من حوضها المورود ومنهلها المقصود راجين منها الاشارة الى ذكر طرفٍ من تاريخ حدوث تلك البحيرة وفي اي سنة كان لنكون لها من الشاكرين

(الهلال) بحيرة المنزلة قديمة جدًّا وكانت في بادىء امرها اصغر مما هي عليه الآن ثم جعلت تتسع بمرور الايام فكانت قبل الاسكندر ضيقة مستطيلة تمتد على موازاة ساحل الدلتا بين مصب فرع النيل البيلوسي ومصب فرع رشيد ونراها في خريطة مرسومة على عهد بطليموس الجغرافي اليوناني الشهير وقد اتسعت قليلاً وامتدت نحو تانيس وغيرها من المدن المجاورة لها وهي الآن اكثر اتساعاً على انها تزداد وتنقص تبعاً للفصول والايام

ولكنهم يقدرون محيطها بثلثين وثمانين كيلومترًا ومساحة سطحها ٢٥٠ الف هكتار (والهكتار يساوي عشرة آلاف متر مربع) وتمر فيها ترعة السويس مسافة ٤٤ كيلومترًا ومياهها عميقة تصلح لسير السفن التجارة الصغيرة

أما مرور اسطول الاسكندر فقد كان في الفرع البيلوسي الواقع شرقي البحيرة ويصب عند فرضة بيلوس شرقي بورسعيد ومنها اسمه فالظاهر ان الاسكندر نزل عند بيلوس فارسل اسطوله في ذلك الفرع وسار هو برًّا الى شرقيه في ما هو الآن مديرية الشرقية

وقد كان للنيل ما خلا الفرعين الدمياطي والرشيدي والفرع البيلوسي المتقدم ذكره فروع كثيرة كالفرع التانيتي وكان يصب فيما يجاور بورسعيد والفرع المنديسي وكان مصبه بين بورسعيد ودمياط وكان هذان الفرعان يصبان في بحيرة المنزلة وهي بحيرة تانيس . وكان بين فرع دمياط وفرع رشيد فرع يقال له السبانيتي وآخر يقال له البلبيتي ثم الكانوبي وفروع اخرى كانت تصب في البحيرات ولم يبق من هذه الفروع الآن الا الفرعان الدمياطي والرشيدي

أما تاريخ نشأتها فغير معلوم ونظائرها تكونت مع الدلتا قبل زمن التاريخ في ورفيقاتها البحيرات الاخرى على سواحل مصر السفلى فانها تتشابه كلها في طبيعتها واحوالها وكلها تستطرق الى البحر المتوسط بثغور تجري الماء فيها بينها وبين البحر

وكانت هذه البحيرة تعرف قديمًا ببحيرة تانيس نسبة الى مدينة عظيمة تعرف بهذا الاسم ثم عرفت ببحيرة المنزلة نسبة الى ناحية المنزلة المعروفة هناك

وقد ذكر العلامة المقريزي صاحب الخطط سبب تكون هذه البحيرة نقلاً عن ابن وصيف شاه نذكره هنا على سبيل الفكاهة والفائدة قال

« فلما مضت لدقلطيانوس من ملكه مائتان واحدى وخمسون سنة هجم الماء من البحر على بعض المواضع التي تسمى اليوم بحيرة تانيس فأغرقها وصار يزيد في كل عام حتى أغرقها باجمعها فما كان من القرى التي في قرارها غرق واما الذي كان منها على ارتفاع من الارض فبقي منه تونه وبورا وغير ذلك مما هو باق الى هذا الوقت والماء محيط بها وكان اهل القرى التي في هذه البحيرة ينقلون موتاهم الى تانيس فيدفنوهم واحدًا بعد واحد وكان استحكام غرق هذه الارض بأجمعها قبل ان تفتح مصر بمائة سنة »

الحب اختياري ام اضطراري

(ابو كبير) محمود افندي زهدي

جمعتني الصدفة ذات ليلة ببعض الاخوان فتجاذبنا اطراف الحديث فجرنا سياق الكلام الى الحب وما ينشأ منهُ وهل هو اختياري ام اضطراري فقال احد الحضور « اني اثبت لكم بما رأيت ان الحب اختياري وذلك ان لي صديقًا كان مولعًا بحب فتاة وكنت اراه دائمًا ينشد الاشعار فيها وكان يطلعني على كل شيء يجري بينهما فكنت اراه دائمًا في انذهال وتشتيت بال ففي ذات يوم دخلت عليهِ فوجدتهُ جالسًا في حالة مخالفة لما اعهده بهِ فسألتهُ عن السبب فقال لي

تركت حبيب القلب لا عن ملالة ولكن جنى ذنبًا يؤدي الى الترك
اراد شريكًا في المحبة بيننا وإيمان قلبي لا يميل الى الشرك

فقلت وما معنى ذلك قال تركت حبيبتي واقسم لي اقسامًا معظمة انهُ لم يبق عندهُ تأثير للحب فعلمت ان الحب اختياري »

فلما سمعت ذلك استغربته ولم اصدقه حتى الآن لعلمي ان الحب قتال فجئت اتلو هذه العبارة حرفياً على حضرتكم لكي تزيلوا عني الاوهام وتفيدوني هل الحب اختياري ام اضطراري

(الهلال) الحب انواع واشكال ودرجات وطبقات ترجع كلها الى ثلاثة اقسام كبرى (١) المحبة الوالدية بين الوالدين واولادهم (٢) المحبة الجنسية بين الرجل والمرأة (٣) محبة الاقران بين الشاب والشاب او بين الفتاة والفتاة ويظهر من سؤالكم انكم تريدون المحبة الجنسية فهذه اما ان تكون طاهرة او غير طاهرة فالمحبة غير الطاهرة لا تسمى محبة حقيقية لترتبها على غرض تزول المحبة بزواله كمن يحب انساناً محسناً فاذا كف احسانه نفر منه وفي هذا النوع من المحبة تكثر الظنون وتختلف الشكوك فهي عرضة للفساد او الزوال

أما المحبة الطاهرة ونريد بها تآلف القلوب تآلفاً نقياً طاهراً لا يخامره دنس ولا يعترضه ظن فهي اختيارية في اولها اضطرارية في آخرها على حد قول الشاعر

والحب اوّل ما يكون مجانة فاذا تمكن صار شغلاً شاغلاً

فالحب الطاهر اذا تمكن لا ينزعه سبب من الاسباب فهو اضطراري رغم انف المحبين والدليل على ذلك ما نسمعه ونقرأه عن احوال العشاق العذريين الذين يحبون حباً خالصاً من كل غرض حيواني . فمجنون ليلى لم ينل وطراً من ليلى بل تزوّجت بسواه ولكنه ثبت في حبها الى آخر نسمة من حياته وهي لم ترد شريكاً في المحبة فقط بل تركت الواحد وتمسكت بالآخر وقد قضى مجنون ليلى هذا معظم ايامه تائهاً باكياً ولم يتحوّل عن حبها وهو القائل

أحنّ الى ليلى وان شطت النوى بليلى كما حنّ اليراع المثقبُ
يقولون ليلى عذبتك بحبها ألا حبذا ذاك الحبيب المعذبُ
فلو تلتقي في الموت روحي وروحها ومن دون رمسينا من الارض منكبُ
لظلّ صدى رمسي وان كنت رمة ارمس صدى ليلى يهشّ ويطربُ
ولو ان عيني طاوعتني لم تزل ترقرق دمعاً او دماً حين تسكبُ

كل ذلك وهو يعتقد انها لا تحبه بمقدار حبه لها لانها قبلت بسواه وهاك قوله

فيا رب سوّ الحب بيني وبينها يكون كفافاً لا عليّ ولا لي

وزد على ذلك انهم كانوا كلما منعوها منهُ ازداد حباً لها وثباتاً على ودها ومن ذلك قولهُ

فان تمنعوا ليلى وطيب حديثها   عليَّ فلن تمحوا عليَّ القوافيا
فاشهد عند الله اني احبها   فهذا لها عندي فما عندها ليا
قضى الله بالمعروف منها لغيرنا   وبالشوق مني والغرام قضى ليا
يقولون ليلى اهل بيتي عدوَّةٌ   وافديك يا ليلى بنفسي وماليا
يقولون ليلى بالعراق مريضةٌ   فيا ليتني كنت الطبيب المداويا
يقولون سوداء الجبين ذميمةٌ   ولولا سواد المسك ما كان غاليا
خليلان لا نرجو لقاء ولا ترى   خليلين الاَّ يطلبان التلاقيا
واني لاستغنيك ان اعرض المنى   بوصلك او ان تعرضي في المنى ليا
فيا رب اذ صيَّرت ليلى هي المنى   فزنّي بعينيها كما زنتها ليا
والاَّ فبغضها اليَّ واهلها   فاني بليلى لقد لقيت الدواهيا
على مثل ليلى يقتل المرء نفسهُ   وان كنت من ليلى على اليأس طاويا

وهاك ما قالهُ كثير في عزة

فقلت لها يا عز كل مصيبة   اذا وطنت يوماً لها النفس ذلت
أسيئي بنا او احسني لا ملومة   لدينا ولا مقلية ان تقلت
هنيئاً مريئاً غير داء مخامر   لعزة من اعراضنا ما استحلت

ومما يدل على اضطراره للحب مع انهُ يود التخلص منهُ قولهُ

أريد لانسى ذكرها فكأنما   تمثل لي ليلى على كل مرقب

وهاك ما قالهُ جميل في بثينة

خليليَّ فيما عشتما هل رأيتما   قتيلاً بكى من حب قاتلهِ قبلي
أبيت مع الهلاك ضيفاً لاهلها   واهلي قريب موسعون ذوو فضل
فلو تركت عقلي معي ما طلبتها   ولكن طلابيها لما فات من عقلي

وقولهُ . يا ليتني القى المنية بغتة   ان كان يوم لقاكم لم يقدر

وقس على ذلك ما يقولهُ الشعراء الذين ابتلوا بالهوى العذري على ان الناس يتفاوتون شعوراً واخلاقاً فمنهم المخلص والثابت والمتردد والفاتر وتختلف شدة الحب باختلاف الاعمار فالانسان في اوائل شبابهِ اكثر ميلاً الى الحب فاذا لم تجب فتاة احب

شيئاً آخر وقد يحب صناعة او تجارة ونرى اللواتي لا يتزوّجن من بنات الافرنج يربين الكلاب او بعض انواع الطير ويحببنها حباً شديداً فكم سمعنا بمن ناحت على كلبها او طيرها لفراقه او موته ذلك لان المحبة من جملة الحاجات الطبيعية على اننا نعرف اناساً لا أثر لعاطفة الحب الحقيقي فيهم وهم قليلون

﴿ الحشرات ﴾

(طنطا) توفيق افندي رزق الله بو رصلي

ما العلاقة الطبيعية بين الحشرات والطيور فدود القز مثلاً يكون دوداً ثم يصير فراشاً باجنحة ومثله دود الربيع والحشرات المائية وما اشبهها

(الهلال) لا يقتصر هذا التغيير على دود القز او دود الربيع ولكنه يتناول الذباب والبعوض (الناموس) وسائر انواع فراش الحقل والجعلان والجيزان والنحل والزنابر وسائر الحشرات وذلك ان الحشرات تمر في مدة حياتها على ثلاثة ادوار تنقضي حياتها بانقضائها فتكون اولاً دودة فتصير شرنقة ففراشاً والفراش يبيض بذراً . والتحول المشار اليه ليس ظاهرياً فقط ولكنه يتناول كل جزئيات ذلك الحيوان فبينما تكون الدودة دويبة لينة القوام قبيحة المنظر يتحول الى فراش يتلألأ بالالوان الجميلة وفيها الذهبي واللازوردي والبنفسجي وبعد ان تقضي دورها الاوّل تقتات على اوراق الشجر تصبح اذا صارت فراشاً لا تقوى على تناوله وانما غذاؤها ما تمتصه من رحيق النبات وعصير الزهور ولو اكرهنا الفراش على المكوث لحظة في مقره الاوّل لمات حالاً

والجعلان وهي الخنافس التي كان يعبدها المصريون القدماء حتى اصطنعوا لها التماثيل المختلفة (سكاربيه) انما هي متخلفة عن ديدان دنيئة للغاية ولعل الكهنة المصريين قالوا بالتقمص على اثر تتبعهم ادوار هذه الحشرات فقاسوا تحول الانسان الى حيوان او الحيوان الى انسان على تحول الدودة الى شرنقة والشرنقة الى فراش

وتتصل حياة الحشرات المشار اليها ان الحشرة تنقف جرثومتها عن دودة صغيرة تعيش مدة تختلف طولاً باختلاف انواع الحشرات ولا عمل لها اثناء هذه المدة الا الطعام والنمو فاذا بلغت آخر الدور الاوّل بطل عملها فكفت عن الطعام والحركة

أرمانوسة المصرية (تابع ما قبله)

فامسكته امرأة عمو بيده وقادته الى غرفتها وهي ترتجف من شدة التأثر ولما دخلوا الغرفة وسمعت الفتاة وقع اقدامها نادت بصوت ضعيف اشبه شيء بالانين لكثرة ما ناحت وبكت وقالت « آه يا أماه انقذوني من مخالب الموت او اروني مرقس قبل مماتي » ثم خنقتها العبرات فاجابها مرقس قائلاً لا تخافي يا مارية ها أني جئتك وقد جاءك الفرج من عند الله

فلما سمعت صوته نهضت من ساعتها وترامت على اقدامه قائلة آه يا سيدي انظر الى مارية كيف اصبحت حالها فانه لم يبق لها في هذه الدنيا الأ يوم وليلة اشفق على ضعفي وانقذني اذا كان هناك أمل بالحياة انقذوني يا أبتاه ويا أماه انتشلوني من مخالب الموت اشفقوا على صباي آه من الحياة ما احلاها وما أمرّها

فلم يتمالك مرقس عند سماع كلامها عن البكاء ولكنه تجلد وامسكها بيدها فاذا هي ترتجف باردة كالثلج والفتاة قد غمي عليها فرشوها بالماء حتى افاقت واجلسوها وعينا مرقس لا تفارقانها وقلبه يكاد ينفطر عليها ثم نظر اليها قائلاً قلت لك يا مارية لا تخافي فاني قد دبرت وسيلة لانقاذك وانا واثق بان الله لا يحرمني من قربك

فلما سمعت الفتاة كلامه رجعت قواها اليها وتجلدت وجلست وهي تنظر اليه بعينين ملآتين دموعاً سخينة وقد ذبلت جفونها وتكسرت اهدابها وامتقع لون وجهها ولكن الجمال ما زال يتجلى فيه فازداد هيام مرقس بها اي ازدياد حتى استهان الموت في سبيل انقاذها ولكنه فكر في الامر فاذا الوقت قد نفد ولم يبق لميعاد اخذها الأ يوم وبضع ساعات فوقف بغتة ونظر الى الفتاة ثم امسكها بيدها وقال لها قلت لك لا تخافي يا مارية فان الذي انقذ يوسف من البئر ودانيال من جب الاسود قادر ان ينقذك من مخالب الموت وها اني ذاهب لادبر الحيلة وسأرجع اليكم في الغد باذن الله

قال ذلك واراد الخروج فامسكت الفتاة بثوبه قائلة لا لا تذهب اذ لا ارى حيلة تستطيعها لانقاذي وقد قدّر الله ان اذهب فريسة العوائد والطقوس فدعني اتمتع برؤيتك هذه الساعات القليلة

فازداد هيام مرقس وثبتت المروءة في صدره واستسهل كل صعب وقال لها

تشددي يا عزيزتي وخففي عنك فقد قلت لك اني قادر على انقاذك اذا ذهبت الساعة اما اذا بقيت هنا فالوقت يسارعنا وتذهب الحيلة من يدنا فاستودعك الله الى الغد لان الميعاد الذي ضربوه لك لا ينتهي قبل صباح بعد غد وانا اعود اليكم في ظهيرة الغد ان شاء الله

قال ذلك وخرج فاحست مارية ان قلبها يتبعه واما والدها فرافقه الى الباب وقال له احذر ياولداه ان يشعر الخنزير بما انت عازم عليه فيشدد النكير علينا فاذا كان لنا امل بالنجاة قطعوه قال ذلك وتنهد · ولحقته امرأة عمه وهي تقبله وتقول اذهب يا ولدي بحراسة الله وهو يكون معك ويبارك عملك

فودعها وخرج وهو لا يكاد يرى طريقه لفرط ما ألمّ به وسار قاصدًا بيت قسيس البلدة على نية ان يخاطب بربارة تلك الليلة ويتضرع اليها ان تخاطب سيدتها ارمانوسة بالامر وهي تطلب الى والدها المقوقس ليفرج عن الفتاة اما بالاعفاء او بالاستبدال

وفيما هو خارج من البيت شاهد الخنزير واقفين بسلاحهم الى جوانبه وكان قد شاهدهم عند مجيئه فلم يعبأ بهم وظنهم من الشرطة يطوفون البلدة لغرض اما عند رجوعه فحاذر ان يلحظ احد منه شيئًا وسار وهو لا يعرف كيف يتوجه فتشابهت عليه الطرق فسار في طريق غير التي جاء بها مع انه ربي في تلك البلدة وعرفها حق المعرفة ولكنه لشدة تأثره تاه ولم يصل بيت القسيس الاّ بعد العشاء. وهو الى ذلك الحين لم يذق طعامًا فطرق الباب ودخل فاذا بالقسيس قد اعد طعام ضيوفه واستبطأ مرقس فلما رآه عائدًا ترحب به واستقبله وهو يقول لقد ابطأت علينا يا ولدي وها انا في انتظارك على المائدة فشكر له ودخل وامارات الكدر والكآبة تلوح على وجهه وهو يحاول اخفاءها فلحظ القسيس فيه ذلك فسأله عن سبب كدره فغالطه ودخل واياه الى المائدة وكان رفيقه جرجس بانتظاره وقد قلق لغيابه فسلم عليه وسأله ايضًا عن سبب غيابه فقال انه ذهب لزيارة بعض اقاربه وعاد

واما مرقس فلم يكن يستطيع طعامًا واراد ان يخاطب بربارة فعلم انها مع القسيسة في الغرفة الاخرى تتناولان العشاء. ولا يستطيع مقابلتها الاّ في الصباح فصبر نفسه وجلس على المائدة وتظاهر بانه يؤاكلهم ولكنه كان مشتغل البال لا يفوه بكلمة

حتى خاطبة القسيس قائلاً هل عرفتم على من وقعت القرعة هذه السنة لتكون ضحية للنيل

فخفق قلب مرقس وارتعدت فرائصه عند سماعه كلمة ضحية النيل ولكنه تجلد وتجاهل وقال لا يا سيدي لم اعلم

فقال جرجس يا للعجب كيف لم تعلم

فقال القسيس ومن اين يعلم ذلك وهو قادم معك ونحن لم نعلم بالخبر الاّ امس

أما مرقس فغلب عليه الكدر حتى غصّ بالطعام ولكنه اراد اتمام الحديث فقال ولكنك لم تقل لي على من وقعت

قال القسيس وقعت على مارية بنت المعلم اسطفانوس العسّال وهي فتاة من التهذيب والتقوى والجمال على جانب عظيم وقد جاء والدها اليّ بالامس وطلب مساعدتي في انقاذها من هذه الورطة وقد تفطر قلبي لما شاهدته فيه من اللهفة على ابنته ولكن من اين لي ان اساعده

فقال مرقس وهو يحاول التجلد وتكاد تغلبه عواطفه ولكن ما هذه العادة القبيحة وهل نظن النيل يعقل حتى يكون لهذه الضحية تأثير في جريه

قال لا يا ولدي انها من العوائد الوثنية التي تنفر منها اذواقنا ويأباها الطبع ولا تسلم بها الديانة بل هي تنهى عنها لانها بمنزلة قتل النفس

فقال جرجس مسكينة هذه الفتاة كيف تكون حالها الليلة وكيف يأتيها الرقاد بل كيف حال والديها ولا ادري ما يكون من امرها اذا نفذ الامر بها لانها وحيدة لهما

فقال القسيس واني لاعجب ايضاً كيف انهم يحكمون باختيارها وينفذون الحكم عليها بغير ان يرضى والدها والعادة انهم اذا اختاروا فتاة ارضوا والدها بمال او شيء آخر حتى يسمح لهم بابنته (١) وانا اعلم يقيناً ان المعلم اسطفانوس لا يرضى ببيع ابنته فارتكاب ذلك ظلم وعدوان

فقال جرجس ولكن يا سيدي القسيس اي شيء يجري بيننا على مقتضى العدالة ونحن كل يوم نقاسي من الامور ما تنهى عنه الديانة والطبيعة

---

(١) المقريزي

فقال القسيس قلت لكم اني اعجب للحكم عليها بذلك بدون ارضاء والدها ولكنني اعترف لكم بامر عرفته سرًّا وهو الذي اوجب عليها هذا الحكم فهل توعدونني بكتمانه اذا اخبرتكما به

فلما سمع مرقس ذلك توسم بابًا للخبر وقد كان وهما يتحادثان غارقًا في بحار الهواجس فقال نعم تكلمه

فقال القسيس علمت ان شيخ هذه البلدة طلب هذه الفتاة المسكينة زوجة لابنه فلم يرضَ والدها فحقد عليها فوشى بها الى حاكم بلبيس وحمله على قتلها بهذه الطريقة انتصاصاً

فقال جرجس ولماذا لم يرضَ والدها بابن الشيخ وهو احسن اهل هذه القرية

قال القسيس سمعت ان الفتاة عالقة القلب بفتى تحبه هي و يحبه والدها كثيرًا وقد عقد النية على تزويجها به وهما لا يعلمان الآن ان سبب هذا الغضب عليها رفضها ابن الشيخ وانا انما سمعته من بعض الناس على انه ليس بمكان اليقين عندي

فلما سمع مرقس ذلك اقشعرَّ جسمه وهبت الغيرة في بدنه وخنقته العبرات فامسك عن الطعام متظاهرًا بانحراف صحته ونهض عن المائدة كأنه يريد الخروج لقضاء حاجة في حديقة البيت فلم يعترضه احد فخرج حتى خلا بنفسه فسح دموعه وجعل يتردد بين ان يطلع القسيس على حقيقة امره او ان يبقي الامر مكتومًا حتى يقضيه هو بنفسه فعاد متجلدًا يريد تتبع الحديث الى آخره فاذا رأى مندوحة وفائدة من الكلام تكلم

فلما دخل الغرفة عاد القسيس الى كلامه فقال ومن الغريب ان هذه المسألة لاهميتها لم تجرِ العادة بالقطع بها الأ بعد البحث والتدقيق ومصادقة مولانا المقوقس عليها ولكنني عرفت انه لم يطلع على هذا الامر هذه المرة ولعل ذلك ناتج عن انهماكه الآن بأمر ابنته و زواجها و بالاخبار التي قد تكاثرت عن قدوم العرب على ما بلغنا ولذلك فهو لن يحضر الاحتفال بضحية النيل هذا العام ولن يحضره الاعيرج ولا رجاله لانهم في شاغل كما قدمنا ولكن شيخ هذه البلدة سيذهب هو بنفسه لحضور هذا الاحتفال وهي فرصة قد تمكن منها بسبب شواغل المقوقس ووراءه مسرعًا في كتمانها خوفًا من فواتها . ثم اظهر القسيس الملل من هذا الحديث واراد تحويله فقال هل سمعتم شيئًا عن العرب

فقال جرجس اما العرب فقد تحقق لدينا قدومهم لمحاربتنا ونرى جندنا في استعداد لملاقاتهم ولكنهم لم يبلغوا حدودنا بعد على ما علمنا ومولانا المقوقس قد ارسل جانباً من الحامية الى الحدود وجعل القسم الاكبر منها في حصن بابل ليدفع بهم الاعداء عن مدينة منف

فتبسم القسيس متهكماً ولم يجب

فقال له جرجس وما الذي اوجب تبسمك ايها الاب المحترم

قال أتبسم لقولكم ان مولانا المقوقس يعد رجالة لدفع العرب عن هذه البلاد والظاهر انكم على كونكم من رجاله لا تعرفون حقيقة مقاصده مع انكم من اولادنا الاقباط الذين هم من حزبه او بالحري هو من حزبهم

فتجاهل جرجس خيفة ان يكون في مجاهرته ضرر عليه لانه من الجند وقال للقسيس وما الذي يعلمنا وهل لمثلنا ان يعلم بمقاصد رئيس السرية نحن نعلم اننا نتهيأ للدفاع عن بلادنا ومحاربة العرب اذا جاؤونا هذا ما يظهر لنا من مقاصده

فقال القسيس اما مقاصده الحقيقية يا ولادي فهي ان يسلم هذه البلاد لاي كان تخلصاً من جور الروم وسوء معاملتهم لنا معاشر الاقباط

فبالغ جرجس بالتجاهل لكي يتحقق ما سمعه فقال وربما كان قول حضرتك مبنياً على التخمين لان كل الظواهر الحالية تغاير هذا القول فان المندفور الاعيرج بعدته ورجاله الروم ورجالنا الوطنيين قد تحصنوا في حصن بابل ونحن منهم فكيف تكون هذه مقاصده

فهز القسيس رأسه مستهزئاً وقال يظهر لي يا ولدي انك لم تختبر الدنيا أتحسب هذا التظاهر دليلاً على حب المقوقس الدفاع عن البلاد ولا تعلم انه انما يفعل ذلك خوفاً من الاعيرج نفسه لانه قائد الحامية الرومانية وقد قلت لي اثناء حديثك ان جنود الروم في الحصن مع الوطنيين ولكن هل من الوطنيين جند بمصر

قال اريد حاشية مولانا المقوقس

قال اما حاشية المقوقس فهي نفر قليلون لا يعتد بهم كما لا يخفى عليك والعمدة على الجند الروماني فهم حامية البلاد فاذا علموا بمقاصد المقوقس الحقيقية قتلوه لا محالة وانا اخبرك الخبر اليقين واؤيد قولي بالبرهان ولكنني اكرر عليكم التنبيه بحفظ

ذلك سرًّا ثم خفت صوته وتطاول بعنقه نحوها وقال «ان المقوقس نفسه قد جمعنا نحن القسس الاقباط جمعية سرية لم يعلم بها احد واطلعنا على مقاصده الحقيقية واوصانا بالكتمان ودرّبنا كيف نتصرف عند الاقتضاء فما رأيك بعد ذلك »

فقال جرجس اما وقد قلت هذا فحضرتك اعلم بالحقيقة

وكان مرقس اثناء تلك المحادثة صامتًا تائهًا في بحار الهواجس وافكاره سابحة في أمر حبيبته ووالديها والطريقة المثلى لانقاذها من هذه الشراك فادرك القسيس ارتباكه فقال له ما لي اراك صامتًا يا ولدي

قال وقد انتبه من هواجسه اني افكر بتلك الفتاة وما وقع عليها من الظلم واراني شديد الميل لنصرتها فاني اذا فعلت ذلك انقذ نفسًا من القتل

قال نعم ياولدي وحبذا لو كان ذلك بيدي فلا اتوقف لحظة عن اغاثتها ولكنني اذا تظاهرت بهذا الميل وقعت في شر مثل شرها فان حاكمنا ينتمي الى الرّوم وهم يصغون الى مقاله ويعملون به وفضلاً عن ذلك فان الوقت قد فات ولا وسيلة لانقاذها الاّ بامر من المقوقس نفسه وبمصادقة الاعيرج اما المقوقس فانه بعيد منا الآن لانه كان في بلبيس هذا الصباح ورأيناه عائدًا في هذا المساء جنوبًا واظنه يريد منف ولا حيلة في الامر

فعظمت المصيبة على مرقس كثيرًا ولكنه تذكر بربارة وانها مربية ارمانوسة الخصوصية فهان عليه بل مرغوبه على يدها وود لو يبعث اليها تلك الساعة ويخاطبها ولكنه خاف ان يكون في الامر ما يخافه فلبث مدة يفكر ثم قال للقسيس هل تسمح لي بمخاطبة سرية قال تفضل يا ولدي فخلا به وقص عليه القصة كما هي واخبره انه هو خطيب الفتاة وانه تعهد بانقاذها من مخالب الموت وان الموت اهون عليه من التقاعد عن ذلك ثم قص عليه قصة بربارة وانها خادمة ارمانوسة الخصوصية فلعلها تتوسط له عند سيدتها

فقال القسيس ولكن يا ولدي لا ارى ارمانوسة قادرة على مساعدتك في ذلك اذا ارادت وحاكم هذه البلدة ينتمي الى الرّوم ولا يعمل الاّ بامرهم وخصوصًا لأن له مصلحة خصوصية بقتل الفتاة ومع ذلك فلندعُ هذه المرأة لعلها تعرف وسيلة اخرى ثم بعث الى بربارة فحضرت فتقدم اليها مرقس وقص عليها حكايته من اولها الى آخرها

وتوسل اليها ان تبذل جهدها في الغد لانقاذ هذه الفتاة

فقالت بربارة اما انا فاني اشارككما في الشفقة عليها وسابذل ما في وسعي لانقاذها والاتكال على الله اما سيدتي ارمانوسة فاني على يقين انها تعمل بكل ما اقوله لها فاذا كان هذا الامر في يدها ثقوا ان الفتاة ناجية باذن الله والاَّ فالامر لله يفعل ما يشاء .

ثم فكرت قليلاً كأنها تذكرت باباً للفرج فقالت اني اضمن امر انقاذها ونحن في صباح الغد نكون في بلبيس وموعد اخراج الفتاة الى النيل بعد غد فلا يمضي نصف نهار الغد حتى انهي الامر مع سيدتي ونرى ماذا يكون

ولما انتهوا من حديثهم ذهب كل الى منامه واما مرقس فلم يغمض له جفن كل تلك الليلة فبات تتقاذفه الهواجس بين اليأس والامل والخوف والرجاء . وبكر في الصباح الى بربارة فاعد المركبة هو ورفيقه وودعوا القسيس وساروا قاصدين بلبيس



الفصل الخامس عشر

الاحتفال بالضحية (١)

أما حاكم تلك البلدة فقد تقدم انه اراد اعدام مارية انتقاماً منها فاتخذ امر ضحية النيل ذريعة لتنفيذ ما ربه فسعي جهده لدى حاكم بلبيس حتى اذن له بالنيابة عن المقوقس وهو اذ ذاك في شواغله ان تلقى الفتاة في النيل وقد عين الزمن في غد ذلك اليوم وجعل الخفر حول منزلها حرصاً على غنيمته لعلمه انهم لو تمكنوا من الوصول الى المقوقس ربما عرقلوا مساعيه اما الخفر فكانوا ساهرين تلك الليلة كما قدمنا فلما جاء مرقس ودخل المنزل جعلوا يتجسسون ويتنصتون لما يدور من الحديث فسمعوا توعده وعزمه على انقاذها فلما خرج من البيت ذهب بعضهم واخبر الحاكم بما سمعوه فخاف اذا أبطأ ان تذهب مساعيه عبثاً فبكّر في صباح اليوم التالي وبعث

(١) ان القول بضحية النيل عند المصريين لم يثبت وانما جئنا به هنا للاشارة الى ما يقال من هذا القبيل وفيه لذة وفكاهة أما رأينا فيه فتراه مفصلاً في الجزء الرابع والعشرين من السنة الثالثة من الهلال الصادر في ١٥ اوغسطس سنة ١٨٩٥

الى بيت الفتاة وامرهم ان يعدوا ابنتهم لمقتلها في ذلك اليوم وقال ان دواعي خصوصية الجأته الى الاسراع وامر ببعض النساء المعدات لمثل ذلك الاحتفال ان يذهبن الى الفتاة فيلبسنها احسن ما لديها من اللباس ويجعلن عليها احسن ما لديها من الحلي والجوهرات ويهيئنها بالهيئة اللازمة لمجاري العادة في ضحية النيل وبعث الى قسس تلك البلدة ان يسيروا في ذلك الاحتفال بالملابس الرسمية على ان العادة ان يحضر هذا الاحتفال البطاركة والاساقفة والحكام وسائر الاعيان والوجهاء ولكنه اراد الاسراع في الامر لئلا تفوته الغنيمة وبعث الى صاحب القارب الخصوصي المعد لحمل ضحية النيل ان يكون على اهبة الرحيل وكان قد احضر قاربه بقرب تلك القرية الى ترعة متصلة بالنيل . ثم زينوا القارب باحسن انواع الزينة كالاعلام والصور الملونة وجعلوا فيه اكاليل الزهور والرياحين وجاؤا به الى القرب من بيت الفتاة وفيه الخفر والجند بسلاحهم من الرماح والنبال والسيوف

أما الفتاة فلا تسل عما حل باهلها عند ما جاءهم النساء ليلبسن الفتاة الثياب الفاخرة فانهم وقعوا في وهدة اليأس وتحقق لديهم نفاذ الحيلة ولم يعد لديهم باب ينتظرون منه الفرج ومما زاد مصيبتهم كونهم انهم لم يكونوا يستطيعون البكاء ولا الندب لئلا يقال انهم استكثروا الهدية على النيل فيغضب ويمسك عنهم ماءه

فدخلت النساء كما قدمنا والبسن الفتاة احسن رداء عندها من الحرير الاحمر النقي وجعلن على رأسها واكتافها اكليلاً كبيراً من الازهار يتدلى منه فروع على ذراعيها وعلقن على رأسها وصدرها كل ما كان عندها من الحلي الثمينة واغللن يديها ورجليها بسلاسل من الحديد علقن فيها اشياء ثمينة وجللنها بازار من النسيج الابيض الرفيع غطاها من رأسها الى اقدامها وانزلنها في القارب ونزل معها القسس بالملابس الرسمية ويصلون وينشدون ونشروا الشراع فمشى القارب جنوباً قاصداً رأس الدلتا عند التقاء فرعي النيل وقد غادروا الوالدين في حالة يرثى لها من البكاء والعويل على انهم لم يستطيعوا البكاء الا بعد ان مشى القارب وامنوا سماع نحيبهم

أما القارب فانه سار يخترق عباب الماء وقد علقوا على صدر الفتاة صكاً ادعوا انه صك الرضاء من والدها ومعه الامر الصادر بوقوع الاختيار عليها ان تكون غنيمة باردة لماء النيل

« ستأتي البقية »

الهلال

الجزء الثامن من السنة الرابعة

(١٥ دسمبر (ك ١) سنة ١٨٩٥) (٢٨ جماد الثاني سنة ١٣١٣) (٦ كيهك سنة ١٦١٢)

اشهر الحوادث واعظم الرجال



مارتين لوثيروس

مارتين لوثيروس

مؤسس الطائفة الانجيلية (البروتستانت)

(ولد سنة ١٤٨٣ وتوفي سنة ١٥٤٦ م)

ولد لوثيروس في بلدة ايسلبن من ولاية سكسونيا من اعمال المانيا في العاشر من نوفمبر (ت ٢) سنة ١٤٨٣ وكان ابوهُ عاملاً في بعض المناجم واسمهُ حنا واسم والدتهِ مرغريت وكانا كاثوليكيين سمّيا ولدهما مارتين نسبة الى اسم القديس الذي اتفقت ولادتهُ في يوم عيده لكنهما لم يبقيا طويلاً بعد ولادتهِ في ايسلبن فانتقلا الى منسفيلد وهناك تلقى مارتين مبادئ العلوم فحفظ التعليم المسيحي والوصايا العشر وامانة الرسل والصلاة الربانية ومبادئ النحو اللاتيني وكانت تربيتهُ الدينية صارمة حتى لم يكن يخاف غير العصا

فلما بلغ الرابعة عشرة من عمره ادخلوه مدرسة مجدبورج ثم مدرسة ايسناخ وكان ابوه قد نهض من هوة الفقر فعوّل على تعليم ابنهِ جهد طاقتهِ ولكن ابنهُ قاسى في ايسناخ عذابًا شديدًا لانهُ كان يطوف الشوارع مرتلاً متسولاً حباً بالله وعملاً بالاوامر الدينية وكان صوتهُ رخياً فاحبتهُ سيدة شريفة اسمها ارسولا امرأة كونراد كوتا فاوتهُ الى منزلها وكان ذلك اوّل كرامة احسّ بها لوثيروس في صباه

وفي صيف سنة ١٥٠١ م دخل جامعة ارفورت وكانت من اشهر مدارس جرمانيا يتفقه فيها استعدادًا لمهنة المحاماة فما لبث مدة هناك حتى ظهرت مواهبهُ ونبغ بين اقرانهِ في الذكاء والاجتهاد فحفظ التعاليم الدينية وكل ما كانوا يلقنونهُ من مبادئ اللاهوت والقضاء فنال سنة ١٥٠٢ درجة بكلوريا في الفلسفة واشتهر بين معارفهِ بحدة الذهن وخفة الروح وحب الموسيقى والترتيل أما من حيث الدين فكان لا يرتاح له بال ولا يقر له قرار مع انهُ كان يلتمس ذلك من كل قلبهِ فاتفق وفاة احد اصدقائهِ بغتة بصاعقة انقضت عليهِ على مشهد منهُ فزهد في الدنيا وعوّل على ان يترك العالم ويأوي الى الدير للنسك فدعا اصدقاءه الى وليمة قضوها في الاحاديث والترتيل والموسيقى وفي ختام الوليمة اطلعهم على قصده وودعهم وقد اخذ بيده كتابين فقط وهما فرجيل وبلوتوس وخرج في ذلك الليل المادي وطرق باب الدير الاوغسطيني

فاستقبلهُ الرهبان بكل ترحاب واعجبوا بانضامهِ اليهم وسموهُ اوغسطين ولكنهم ارادوا ان يختبروا حال الرهبنة ففرضوا عليهِ الاعمال التي على كل طالب للرهبنة القيام بها فحمل المكنسة وجعل يكنس غرف الدير وينظفها وحملوهُ جرابًا على ظهرهِ يطوف بهِ الشوارع يتسوَّل التماسًا لفضيلة التواضع ولكنهُ ما زال يشعر بتعب داخلي مع انهُ كان يلتمس الراحة بكل وسيلة ولم يكن يزداد الاَّ قلقًا حتى حكي انهُ نهض مرة من فراشهِ مذعورًا كانهُ اصيب بجنة ولم يكن يهدأ لهُ بال حتى سمع كلامًا من بعض كبراء ذلك الدير وكان قد ادرك سبب اضطرابهِ فعزاه بكلام يناسب حالهُ

وقضى لوثيروس في ذلك الدير سبع سنوات حتى ارتقى في درجات الرهبنة وتمكن من علم اللاهوت وتعين استاذًا في جامعة ويتنبرج وكانت مشهورة بتعليم تفسير الكتب المقدسة وكان لوثيروس ماهرًا في ذلك كثيرًا فتولى تدريس الفلسفة فيها . وقد اسس هذه المدرسة البرنس فريدريك دوك سكسونيا وكان يلقب بالايلكتور اي المنتخب وهو لقب كان ينالهُ امراء المانيا اشارة الى حقوقهم في انتخاب الملك وكان الايلكتور يحب لوثيروس ويميل اليهِ وقضى لوثيروس في تلك المدرسة مدة يلقي دروسًا في الفلسفة واللاهوت وتلامذتهُ يعجبون بشروحهِ ويشعرون بلذة عظيمة عند سماع اقوالهِ ولعل السبب في ذلك انهُ ذاق مرَّ التردد وعرف طرق التعزية في كلام الله وكان يلقي خطبًا ومواعظ في كنائس ويتنبرج فيتقاطر الناس افواجًا لسماعها وهو الى ذلك الحين ابن مطيع لكنيسة رومية العظمى وكان قد ذهب اليها لبعض مهام الدير ولما عاد نال رتبة دكتور في اللاهوت

وكان على كرسي البابوية اذ ذاك البابا ليون العاشر المشهور بسعة علمهِ وحسن طويتهِ وكان قد اخذ في اتمام بناء كنيسة القديس بطرس برومية فاحتاج الى نقود لاتمام بنائها فكلف الكردينال البرتوس رئيس اساقفة ماغونسا ومنحها بنشر البراءة التي كان يمنح بها الغفرانات ومنحها للذين يعضدون ذلك المشروع بصدقاتهم فعهد البرتوس نشر هذه الغفرانات الى يوحنا تتزال من رهبنة مار عبد الاحد .

فبالغ تتزال في منح هذه الغفرانات حتى صار يبيعها بيع السلع لكل من يلتمسها على شرط ان يدفع النقود وتوسع في ذلك الى حد خرج بهِ عن الحدود المعطاة لهُ فنتج عن ذلك تشوش في جمع الاحسان وخامر الشعب شك فبلغ ذلك لوثيروس فاستغربهُ

وينهض لمقاومته ولكنه انتقل من كلامه في تأنيب تتزال على سوء تصرفه في منح الغفرانات الى الطعن في صحتها

فكتب سنة ١٥١٧ الى رئيس اساقفة ماغونسا المتقدم ذكره رسالة يخطئ القول بان نائل الغفران يحقق خلاصهُ ويُحل من جريمة خطاياه كلها وينجو من عقابها وذيّل الرسالة بخمس وتسعين نتيجة بين بها ان مادة الغفرانات تحت ريب كلي وطبع هذه الرسالة وعلق نسخة منها في كنيسة ويتنبرج ووزع الباقي في جرمانيا كلها وكان تلامذته انصارًا له في تأييدها فرد عليه تتزال في فرانكفورت منتصرًا لرأي الكنيسة واعلن ان قول لوثيروس هذا بدعة (هرطقة) فاجابه لوثيروس بعبارة اشد لهجة من الاولى واشتد اللجاج بينهما وكان ذلك البحث اوّل شرارة من الشعلة التي اتصلت نيرانها بعد ذلك في سائر انحاء جرمانيا وما والاها

فلما بلغ ذلك الكرسي البابوي بعث البابا يستقدم لوثيروس الى رومية ليبرّر نفسهُ فاعتذر عن الذهاب بانحراف صحتهِ وطول مشقة السفر وانهُ يرتاب بقضاة رومية وساعده في التماس العفو عن ذهابه دوك سكسونيا واهل مدرسة ويتنبرج وتوسلوا الى البابا ان تُنظر دعواه هذه في جرمانيا فبعث البابا الكردينال توماقيوس وكان يسمى غيطانوس ليحضر محاكمة لوثيروس ويراقب الحكم عليهِ وفوض اليهِ اذا رجع لوثيروس عن اقوالهِ ان يعفو عنهُ والاّ فليجرمهُ فلما وصل الكردينال مدينة اوغسطة استقدم لوثيروس اليها فاتى ولم يلتمس منشور الامان على حياته وهي شجاعة يذكرها له المؤرخون فطلب اليهِ الكردينال ان يسترجع اقوالهُ التي تضاد تعاليم الكنيسة الرومانية فاجاب لوثيروس انهُ لم يقل شيئًا يضاد عقائد الكنيسة فطال الجدال بينهما واخيرًا اوعز الكردينال اليهِ ان يجيبهُ جوابًا قطعيًا فاستمهلهُ فامهلهُ يومًا كاملاً فجاء في اليوم التالي واجاب انهُ يتبع كنيسة رومية في كل اقوالهِ واعمالهِ ولكنهُ مع ذلك ما زال مصرًّا على انه لم يقل شيئًا يضاد الكتاب المقدس او الآباء القديسين او الاوامر الرسولية او العقل فكأنهُ بقي مصرًّا على صحة اقوالهِ على انهُ التمس ان تُنظر قضيتهُ هذه في مجمع عام مؤلف من الجمعيات الملوكية الثلاث وهي جمعيات باسيليا وريتبرج ولوفانيوس وجمعية باريس

وفي سنة ١٥١٨ اصدر البابا حرمًا ضد الذين لا يسلمون بسلطته في منح الغفران وكان لوثيروس لا يزال على عزمهِ فخرج من اوغسطة الى ويتنبرج وكتب الى

الكردينال انهُ لا يزال على قولهِ فكتب الكردينال الى فريدريك دوك سكسونيا ان يكف يدهُ عن امداد لوثيروس لانهُ صاحب بدعة في الدين وليرسلهُ الى رومية او على الاقل فلينفهِ من بلاده فارسل الدوك تلك الرسالة الى لوثيروس وكتب اليهِ انهُ لا يزال آخذاً بناصرهِ وكان انصاره آخذين في الازدياد كل يوم وفي جملتهم جماعة كبيرة من الكهنة والرهبان والاساتذة وكان اقواهم عزيمة في نصرتهِ الاستاذ فيليب ميلانكتون العالم الشهير استاذ اللغة اليونانية في ويتنبرج

وفي سنة ١٥١٩ حصل جدال عنيف بين لوثيروس واكيوس استاذ اللاهوت في انكولستاد وكان عالمًا عظيمًا واشتد اللجاج بينهما فحكّما جمعيتي ارفوديا وباريس فحكمت جمعية باريس لاكيوس

وفي سنة ١٥٢٠ اصدر البابا حكمًا على لوثيروس وامر باحراق كل كتبهِ في رومية فعظم ذلك على لوثيروس فتناول الحكم المشار اليهِ واستدعى اساتذة المدرسة وطلبتها وقد اخذ الحنق منهُ مأخذًا عظيمًا واحرق الحكم على مشهد منهم فاصدر البابا منشورًا آخر يحكم عليهِ بانهُ صاحب بدعة (هرطوقي) وان كل من ينصرهُ يقع تحت طائلة العقاب المفروض على انصار البدع وبعث الى شارل الخامس امبراطور جرمانيا ان يكتب الى دوك سكسونيا لينفي لوثيروس من بلاده فاجاب الدوك «بما ان المجلس سينعقد قريبًا في وورمس فلنترك الحكم في شأنهِ اليهِ» فعقد المجلس عام ١٥٢١ وبعث الامبراطور يستقدم لوثيروس وارسل اليهِ منشور الامان فتقدم حتى اذا صار على مقربة من المدينة بعث اليهِ الدوك ان لا يدخلها خوفًا على حياتهِ فاجابهُ «اذا كانت الابالسة في وورمس بعدد قرميد سطوحها لا بد لي من دخولها»

فدخلها في ١٤ افريل عام ١٥٢١ في مركبة مفتوحة وهو في لباس الرهبنة وكان لقدومهِ تأثير عظيم في وورمس فتقاطر الناس افواجًا حتى ملأوا الشوارع والنوافذ لمشاهدة ذلك الراهب الجسور وفي ١٧ منهُ وقف في المجلس فسألوه اولًا هل يعترف انهُ كتب ما كتبهُ وثانيًا هل يريد ان يسترجع ما كتبهُ ويعتذر فاجابهم على السؤال الاوَّل بالايجاب اما على الاسترجاع فاستمهلهم يومًا قبل الجواب عليهِ فامهلوه فلما حضر في اليوم التالي سألوه عن عزمهِ فاجاب بانهُ لا يسترجع شيئًا مما كتبهُ ولكنهُ يقرُّ بان الحدة كانت تجرهُ احيانًا الى عبارات اشد مما يليق وانهُ لا يتردد

استرجاع كل ما ظهر منهُ مخالفًا لتعاليم الكتاب فطلبوا اليهِ استرجاع كل ما قالهُ جملةً فأبى فاعادوهُ الى ويتنبرج واصدروا حكمًا ضدهُ وضد كل من يقول بقولهِ ولكن الدوك خاف عليهِ من القتل لان الحكم يقضي بان يكون دمهُ بعد عشرين يومًا من صدوره مهدورًا فاستقدمهُ اليهِ واجلسهُ متنكرًا في قلعة ووتبرج فقضى هناك عشرة اشهر لا يعلم احد بمكانهِ وقد دعا ذلك المنفى بطموس ثم سار الى ويتنبرج فوصلها في ٩ مارس عام ١٥٢٢ والناس هناك قيام قعود وقد اختلفوا فيما بينهم فجمع كلمتهم

وكان هنري الثامن ملك انكلترا قد اصدر كتابًا ضدهُ في سر العشاء الرباني فرد عليهِ لوثيروس ردًّا عنيفًا وفي اثناء ذلك نشر ترجمةً للاناجيل الى الجرمانية وفي سنة ١٥٢٣ قام جدال حبيٌّ بينهُ وبين العلامة اراسموس العالم الالماني الشهير فكتب هذا رسالة في حرية الارادة البشرية فرد عليهِ لوثيروس فاجابهُ اراسموس ويقال ان اراسموس كان يستحسن مذهب لوثيروس ولكنهُ لم يشأ التصريح برأيهِ لاسباب خصوصية فاتهمهُ لوثيروس في بعض ردوده بالرياء

وفي سنة ١٥٢٥ تزوج لوثيروس بمارية فون بورا وكانت راهبة فرَّت من ديرها فعرَّض نفسهُ بذلك لمطاعن مناظريهِ فسلقوهُ بالسنة حداد لان عملهُ هذا يخالف تعاليم الكنيسة الكاثوليكية وسائر الكنائس القديمة مخالفة كلية

وفي سنة ١٥٢٩ جمع الامبراطور شارلس مؤتمرًا في مدينة اسبيرا للحصول على مدد من دوكات جرمانيا في حربهِ مع العثمانيين وللنظر في الوسائل اللازمة لملافاة المجادلات الدينية فقرَّر المؤتمر ان يقام القداس الكاثوليكي في سائر مملكة جرمانيا وبحضره اللوثيريون وغيرهم وان يبقى تفسير الاناجيل على تفسير الآباء المثبتين في الكنيسة فلم يقبل دوك سكسونيا ولا غيره من دوكات جرمانيا الآخرين الرضوخ الى هذا الامر واقاموا الحجة وسموا من ذلك الحين بروتستانت ومعناها المحتجون من بروتست (Protest) حجة واتحد الدوكات المشار اليهم يدًا واحدة في مقاومة الامبراطور . وفي سنة ١٥٣٠ اصدر العلامة ميلانكتون اعتراف اوسبرج وهي صورة الايمان التي اعترف بها جمع البروتستانت في جرمانيا وفي سنة ١٥٣٥ نشر لوثيروس ترجمةً للتوراة في اللغة الجرمانية وفي سنة ١٥٣٧ اصيب بداء شديد لكنهُ تعافى منهُ وعاد الى التأليف والتصنيف لتأييد مذهبه حتى توفاه الله في ايلسبن مسقط رأسهِ في

١٨ فبراير سنة ١٥٤٦ وقد اجمع المؤرخون على اختلاف اغراضهم انهُ كان حاد الذهن متوقد القريحة دقيق النظر كثير المطالعة خطيبًا فصيحًا وكاتبًا بليغًا وشارعًا جريئًا شديد التمسك برأيهِ قوي الحجة في المناضلة عن مذهبهِ وقد قضى حياتهُ عاملًا فكتب المجلدات الضخمة ولولا ذلك ما استطاع نشر مذهبهِ وتأييدهِ وقد اقاموا لهُ تمثالًا في وورمس سنة ١٨٦٨



باب المقالات

تاريخ الانسان

في أوائل العمران

(٣) الكساء (تابع ما قبلهُ)

(٢) لباس الرأس

لباس الراس احدث من لباس البدن لان الشعر كساءٌ طبيعي لهُ فالانسان من هذا القبيل مثل سائر الحيوانات ذات الشعر او الصوف او الوبر لان المراد بالكساء دفع الطوارئ الطبيعية والشعر يفي بهذا الغرض فقضى الانسان قرونًا متطاولة لا يعرف كساءً لرأسهِ غير الشعر ولا يزال الحال كذلك في الامم المتوحشة حتى الآن

وأوّل ما اتخذ الانسان كساءً لرأسهِ انما اتخذ للزينة او علامة لرتبة او منصب كالتيجان والاكاليل وانواع الحلي ولو تتبعنا عوائد اللباس عند الامم التي تمدنت قديمًا لرأينا الشعر وحدهُ كساء رؤُوسهم نساءً ورجالًا فالمصريون القدماء كانوا يصطنعون شعورهم على هيئات مختلفة بين جدل وعقص تبعًا لما يخال لهم فيهِ من اشكال الزينة والنساء الغنيات والاميرات يجعلن على رؤُوسهن شعورًا مستعارة على شكل ضفائر مختلفة وهو تفنن في الزينة . وفي المتحف المصري ضفائر من الشعر مختلفة الاشكال كان المصريون القدماء يتخذونها لباسًا مستعارًا لرؤُوسهم ولا فرق بين اشكالها الَّا بطريقة

صنعها فترى بعضها معقوصاً عقصاً بسيطاً خالياً من كل زينة و بعضها معقوصاً على اشكال مختلفة بين مستطيل وغليظ ومدرج وما بين ذلك وترى في البعض الآخر انواعاً من الحلي تغرس بالشعر او تحيط به على شكل العصابة او الخمار او ما جرى مجراه واكثر ذلك في النساء

أما الرجال فالغالب ان تكون شعورهم قصيرة غليظة وقد شاهدنا اهل السودان يرسلون شعورهم متلبدة يدهنونها بالشحم او الدهن او الزيت فتتكاثف وتتلبد وتنبعث منها رائحة كريهة لما يمر عليها من الازمنة بلا غسل او تنظيف فتتراكم فيها الاوساخ والاقذار حتى تنتن وهم يدهنون جلود ابدانهم ايضاً بالشحم فتنبع منهم رائحة خصوصية يعرفها من خالطهم وفي اسواق القاهرة الآن كثير من اهل السودان جاؤوها على اثر الحوادث السودانية فلا تخلو شوارع القاهرة من روائحهم

أما ملوك المصريين القدماء وكهنتهم وعظماؤهم فكانوا يجعلون على رؤوسهم البسة خاصة تميز طبقاتهم ودرجاتهم فقد كان عندهم تاج على شكل خاص لملك الوجه البحري وآخر لملك الوجه القبلي فاذا ملك احدهم الوجهين لبس التاجين معاً وفي الشكل الثالث بالهلال الماضي صورة رعمسيس الثاني يقاتل الحثيين وعلى رأسه تاج الوجه القبلي وفي الشكل الثاني هناك نحو اليمين صورة الالهة ايزيس وعلى رأسها التاجان معاً ولكن الذين يلبسون التيجان او غيرها عندهم يحلقون رؤوسهم

وما يقال في المصريين يقال في غيرهم من الامم القديمة فالبابليون ذكر هيرودونس الرحالة انهم كانوا يرخون شعورهم وعلى رؤوسهم قلنسوة اما القلنسوة فلا يلبسها الا الملوك والكهنة اما العامة فقلنسواتهم شعورهم وربما شدها بعضهم بعصابة حول الجدارين أما قلنسوة ملوك بابل واشور فاشبه شيء بقلنسوة الفرس في هذه الايام (انظر رسم الملك الاشوري في مركبته في الهلال الرابع من السنة الثالثة)

والفينيقيون ايضاً لم يكن يلبس القلنسوات منهم الا كبراؤهم وربما كانوا اقرب الامم القديمة الى اتخاذ لباس الرأس على اشكاله المختلفة لكثرة تجوالهم وضربهم في الارض ومخالطتهم اماً مختلفة في سبيل التجارة

وترى في الشكل الاول صورة الفينيقيين في تجارتهم وعلى رؤوس كبرائهم قلنسوات مختلفة الزي واما صغار الصناع فقلنسواتهم شعورهم و بعضهم يعصبونها بعصابة



(الشكل الاول) الفينيقيون في تجارتهم

على ان معظم الامم لا يلبس ملوكها التاج الاَّ في اوقات معينة اما في ساحة الحرب او في احتفال عمومي او عند تقديم الذبائح او ما شاكل ذلك

وترى في الشكل الثاني صورة هنيبال القائد القرطجني الشهير لا يكسو رأسهُ غير الشعر غضاً كثيثاً بلا جدل ولا ضفر (انظر الشكل الثاني)

ومثل ذلك يقال في اليونان والرومان فانهم لم يكونوا يتخذون كساء لرؤوسهم



(الشكل الثاني) ✱ هنيبال ✱

غير المخوذة في ساحة الحرب او ما يقوم مقامها في بعض الاحتفالات العمومية واما الامبراطور فيلبسون التيجان على اختلاف اشكالها ومعظمها بسيط الشكل للغاية



(الشكل الثالث) ✱ ثيودوسيوس الاكبر ✱

وترى في الشكل الثالث صورة الامبراطور ثيودوسيوس الاكبر لا يكسو رأسهُ الاَّ عصابة مرصعة تحيط بشعره ولو اعدت النظر على رسوم مشاهير اليونان والرومان القدماء المندرجة في اعداد الهلال لرأيت معظمهم عاري الرؤوس وهاك رسم اوقليدس الرياضي الشهير



على ان اهل الاقاليم الحارة او سكان البراري والقبائل الرحل من الناس احتاجوا الى لباس الرأس قبل اهل الاقاليم المعتدلة وابسط نوع من انواعه ان يجعل الازار الذي يرتدي بهِ مستطيلاً ليغطي رأسهُ ايضاً

ومن آثار ذلك لباس اهل المغرب فانهم لا يزالون الى الآن يرتدون برداء كالعباءة او البرنس وفي الشكل الخامس رسم الامير عبد القادر الجزائري مرتدياً بهِ

(الشكل الرابع) اوقليدوس



(الشكل الخامس) الامير عبد القادر

ثم صار ذلك الغطاء قطعة من نسيج مستقلة يغطى بها الرأس تغطية بسيطة فلما خشي ان تقع او تحوّل عن موضعها بجري الريح او اذا ركض او ساق جواده اتخذ عصابة يشدها برأسه فتولدت الكوفية والعقال وهو لباس البدو في سائر انحاء العالم حتى الآن فهم يغطون رؤوسهم بكوفيات يشدونها بعصابة يقال لها العقال

وتلي الكوفية العمامة وهي من لباس اهل الاقاليم المائلة الى الحرارة لان المراد بها حجب اشعة الشمس عن الرأس مع بقاء العنق وأعلى الظهر والصدر مطلقة للهواء والعمامة تغطي قمة الرأس وتظلل جوانبه بغيران تمنع عنها الهواء بخلاف الكوفية فانها تغطي الرأس وجوانبه والعنق وبعض الظهر فتحجب الهواء عنها . على ان العقال والعمامة من ملابس الرأس الشرقية من قديم الزمان الى الآن وقد استخدمتا في حالي الحر والبرد

أما القاعدة العمومية في تاريخ لباس الرأس فهي ان يكون اولاً علامة رسمية لرتبة او منصب ثم تصير رويداً رويداً عامة فتصبح مبتذلة فيقوم مقامها زي آخر . ولو تتبعنا سائر البسة الرأس لرأيناها على اختلاف اشكالها ترجع الى علامات رسمية في اوّل امرها ثم يعم استعمالها مع الزمن كسائر الرتب والالقاب والنعوت (راجع تاريخ المناصب والرتب والالقاب في السنة الثانية من الهلال)

واكثر الازياء انتشاراً بين الناس ازياء رجال الحل والعقد والجند او رجال الكهنوت فان الناس يقلدون ولاة امورهم ورؤساءهم في ذلك وخوفاً من اطالة الكلام نقتصر على مثال في انتقال الناس في المشرق من لبس العمامة الى الطربوش فالعمامة كانت كساء الرأس في سائر العالم الاسلامي يلبسها الخلفاء والسلاطين وفي جملتهم سلاطين آل عثمان فانهم كانوا يلبسون العمامة من عهد ساكن الجنان السلطان عثمان الغازي وكان جندهم من ذلك الحين ايضاً يلبسون عمامات يختلف شكلها ووضعها باختلاف الزمان والحال وعلى مقتضيات ترتيب الفرق والحرس فمرّ على لباس الرأس في الجند العثماني اطوار تقلب فيها على اشكال لا تعد ولا تحصى

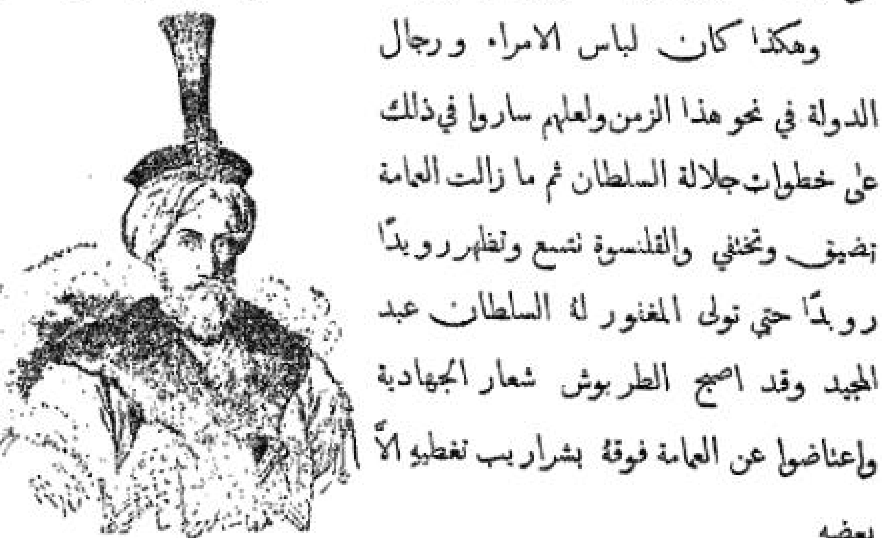
وفي الشكل السادس سبعة منها ننشرها على سبيل المثال فالاوّل لباس رأس اغا الانكشارية في القاهرة والثاني امير من امراء المماليك والسادس رأس ابو طبق وهو المندوب الذي كان المماليك يبعثونه لتبليغ الباشا في قلعة القاهرة عزلة وإسمة



(الشكل السادس)

يدل على نوع لباس رأسو فقد سمي ابا طبق لان عمامتهُ تشبهُ القصعة وكل ذلك في اواخر القرن الماضي ٠ اما الرابع والخامس والسابع فهي اشكال ملابس فرقة من الجند العثماني كانت تمشي بركاب سلاطين آل عثمان في خروجهم الى الصلاة او الى مكان آخر في القرن السادس عشر للميلاد اما الشكل الثالث فهو رأس احد رجال الانكشارية نحو ذلك الزمن ٠ والعمامة مع ذلك ما زالت لباس القسم الاعظم من الجند ورجال الدولة وسائر اصناف الناس حتى اقتضت النظامات العسكرية في الاستانة في اوائل هذا القرن وصول الجند الانكشارية الى عمامة تلف على قلنسوة يختلف شكلها باختلاف الوجاق او الفرقة فتلف العمامة عند حافة القلنسوة السفلى ويبقى اعلاها ظاهرًا فلما رأى الناس هذه العمامة تقلدوها والسلطان محمود الثاني جعل عمامتهُ اصغر مما كانت على عهد سلفائهِ وجعل القلنسوة بارزة فوق العمامة الى الاعلى كما نرى في الشكل السادس

وهكذا كان لباس الامراء ورجال الدولة في نحو هذا الزمن ولعلهم ساروا في ذلك على خطوات جلالة السلطان ثم ما زالت العمامة تضيق وتختفي والقلنسوة تتسع وتظهر رويدًا رويدًا حتى تولى المغفور لهُ السلطان عبد المجيد وقد اصبح الطربوش شعار الجهادية واعتاضوا عن العمامة فوقهُ بشراريب تغطيهِ الاَّ بعضه



(الشكل السابع) السلطان محمود الثاني



(الشكل الثامن) مصطفى رشيد باشا

وترى في الشكل الثامن صورة مصطفى رشيد باشا الشهير لابساً ذلك الطربوش (توفي سنة ١٢٧٤) وفي زمن السلطان عبد المجيد شاع الطربوش في سائر انحاء المملكة العثمانية ولكنه كان في بادئ الرأي محصوراً في الجند ورجال الحكومة ثم شاع بين الناس رويداً رويداً حتى بلغ ما هو عليهِ الآن

أما النساء في الشرق فقلما وقع في زي لباس الرأس عندهن تغيير لان عادة التحجب التي فطر عليها الشرقيون جعلته تابعاً للباس البدن بمعنى انهنَّ كنَّ ولا يزلن يتغطين برداء يكسو البدن والرأس معاً وهو الازار او الرأس وبعض البدن وهو النقاب او البرقع او ما يقوم مقامها وذلك قديم جداً واما تحت الازار او البرقع فكنَّ يعالجن شعورهنَّ فيضفرنها على اساليب شتى كما يقتضي الزمان والمكان . ومما يحسن ذكره ان النساء في مصر ولا سيما الاغنياء كن في اوائل هذا القرن يلففن حول رؤوسهن عمامة ضخمة كعمامة الرجال تسمى ربطة ويرخين فوقها النقاب او الازار وكان في سوريا نحو ذلك الزمن لباس للرأس يسمونهُ الطنطور وهو اشبه شيء بقرن مخروطي الشكل قاعدتهُ عند الرأس ورأسهُ يصعد منعطفاً نحو الامام ربما بلغ طولهُ احياناً نصف ذراع او اكثر كانوا يصنعونهُ من الفضة والذهب يلبسهُ على الغالب نساء الامراء والاغنياء ولا سيما في الاحتفالات العمومية كالاعراس وغيرها

فيرسلن فوقه الازار او النقاب او الشال فيغطيه ويغطي الرأس ويكسو البدن كله او بعضه

ثم اصاب البرنيطة والطنطور ما اصاب عمامة الرجال فاضمحلاَّ وعادت النساء الى البرقع وهو يختلف باختلاف الاصقاع . أما نساء النصارى الآن ولا سيما المتفرنجات فلباس الرأس عندهنَّ البرنيطة واشكالها لا حد لها ولا نهاية

أما لباس الرأس في اوروبا فقد تقدم الكلام عن حاله عند اليونان والرومان وما زال زمناً طويلاً بعد ذلك على ما ذكرنا وهو يكاد يكون محصوراً في رجال الدولة وجماعة الاكليروس وسائر ارباب المناصب ورجال الجندية اما البرنيطة فكان ظهورها اولاً في الاجيال المظلمة وكانت كساء بسيطاً للرأس اشبه شيء بما يسمونه (كسكات) الآن ثم جعلت تتنوع وتتغير حتى صارت اشكالها تعد بالمئات . وموضوع مقالتنا لا يأذن لنا بالافاضة في تاريخ لباس الرأس حتى الآن ولكننا نشير الى امر لا يخلو ذكره من فائدة وذلك ان ملوك اوروبا اخذوا في اواخر القرن السادس عشر يرخون شعور رؤوسهم ويرسلونها على اكتافهم مستطيلة فاقتدى بهم شعوبهم فلم يدخل القرن الثامن عشر الا واهل اوروبا طويلو الشعور ولا سيما العظماء والامراء والعلماء



(الشكل التاسع) فولتير





(الشكل العاشر) ملتن

وترى في الشكل الثامن رسم فولتير الفيلسوف الفرنساوي (توفي سنة ١٧٧٨) وفي الشكل التاسع صورة ملتن الشاعر الانكليزي (توفي سنة ١٦٧٤) وطول شعرهما مثال لتلك العادة ثم اخذوا يقصرون الشعر رويدًا رويدًا حتى دخل القرن التاسع عشر وقد كادت شعورهم تبلغ حالها الآن

باب المراسلات

المرأة الجديدة في العالم الجديد

سيدي الفاضل منشئ الهلال المنير

قد يستغرب القارئ تلقيبي المرأة في اميركا بالجديدة وهي وسائر نساء العالم من بنات حواء متساويات في القدم وانما اردت بها ما اتخذته من العوائد والاخلاق الجديدة حتى صارت كأنها خلقت خلقًا جديدًا واهم تلك العوائد ما نتج عن الحرية الشخصية التي نالتها المرأة في اميركا في هذا القرن ولا تزال تتوسع بها كل يوم عما قبله حتى زادت عن الحد واراني اذا شاهدت عواقب تلك الحرية فضّلتُ القيود عليها وازددت رغبة في عوائدنا المؤسسة على تحجب المرأة ولعل الاميركان ارادوا باطلاق سراح الحرية للمرأة خيرًا لها فجاءت بعواقب وخيمة

فأول كل شيء وجهت نظرها اليه مجاراة الرجل في شغله الجسدي والعقلي فاقبلن على الصنائع بانواعها فاشتغلن في الفنادق والمعامل باجور بخسة فسبقن الرجل وطردنه من شغله فاصبح حائرًا ولا يخفى ما لذلك من الاضرار التي لا يسعنا الوقت لتبيانها · واقبل بعضهن على الدرس والمطالعة واحرزن علمًا وافرًا فسابقن الشبان المتهذبين الى نيل الرتب واخذن محلهم بالبيع والشراء ومسك الدفاتر في المحلات التجارية فخرج الشاب من مكتبه واخذت المرأة الجديدة مكانة ليس عن افضلية واستحقاق بل بداعي انها من الجنس اللطيف وانها تشتغل بأبخس الاثمان · ثم مالت

استاذي صاحب الهلال لانهُ لم يولد في الارياف ولا خالط اهلها

قد ثبت في اعتقاد نساء الارياف ان الافعى اذا كانت في نزع الموت تبين لهنَّ ما في بطن الحامل ذكرًا او انثى . فاذا سمعن بقتل افعى او صيدها بادرن اليها فيجتمعن حولها وهي في سكرات الموت لا تبدي حراكًا غير التألم من مرارة الفراق فتعمد واحدة من النسوة بعصاة تضرب بها الافعى على رأسها وتقول (يا حيه يا محوبه ان كان في بطن فلانه بنتًا حوّ الحوايه وان كان ولدًا شيلي الرايه) فتتألم الافعى من الضرب وتلوى تارة تنكمش فتلتف على نفسها فيقلن (بنت) لان الحواية عندنا خرقة تلف كالدائرة وتوضع على رأس البنت عند حمل جرة الماء. وطورًا ترفع ذيلها فيقلن (ولد) وهو اعتقاد فاسد عرفتهُ بالتجربة . . وفي الختام ارجو من حضرات السائلين ان يكفوا عن مثل هذه الاسئلة (كنعجة تلد طيرًا او امرأة تلد كلبًا) ولا يشغلوا ابواب الهلال العلمية بها « محمد حسني العامري بالسويس »



باب السؤال والاقتراح

ديانة اليهود

(سدرول بالفيوم) ابراهيم افندي عبد الملك

توصل العلماء الى كشف الطبيعة واطلعوا على سائر اديان العالم من الوثنيين وغيرهم قديمًا وحديثًا وهذه الكتب المقدسة مشهورة ومتداولة بايدي الناس وهي التوراة والانجيل والقرآن يطلع عليها الخاص والعام الاَّ ديانة اليهود التي لا تزال محجوبة عن غير اليهود فارجو الافادة عما يمكن الوصول اليهِ منها ومما يقضي بالعجب ان اسرار الطائفة الماسونية كادت تظهر للناس مع مبالغة اصحابها في اخفائها واسرار اليهود لا تزال غامضة . ثم ان معبد اليهود يقال لهُ كنيس بحذف التاء من كنيسة اسم معبد النصارى فما هو اصل هذه اللفظة . وهل ما يروونهُ عنهم من الفظائع حقيقي نرجو الافادة

بكل حرية ولا غرض لنا بذلك الاّ مجرد العلم بالشيء

(الهلال) لا نرى بابًا للقول بغموض الديانة اليهودية او تسترها وهي اشهر من نار على علم فالتوراة واعية لكل احكامها وشرائعها المنزلة والتلمود حاوٍ للشرائع والسنن والفروض والشروح التي يعترف بها اليهود فضلاً عن التوراة وهو لا يتضمن المباحث الدينية فقط ولكنهُ يتناول كل موضوع مفيد ففيهِ فلسفة اليهود وطبهم واحكامهم وتاريخهم وسائر احوالهم وبالاطلاع عليهِ لا يبقى ستر غامض . وهو مطبوع ومنشور في العبرانية المنسودة او في الارامية التي اشرنا مرة الى انها مزيج من العبرانية والكلدانية . على ان التلمود نسختان تسمى احداها البابلية والاخرى الاورشليمية وبينهما فرق في الشرح لا في المتن وقد طبعت النسخة البابلية سنة ١٥٢٠ في البندقية كاملة في ١٢ مجلدًا ضخماً وهي اضبط الطبعات واتقنها وتسمى طبعة بومبرج وعنها اخذت سائر الطبعات لأنها طبعت بعد ذلك بضع عشرة طبعة . واما النسخة الاورشليمية فقد طبعت مرتين فقط الاولى في بومبرج سنة ١٥٢٣ والثانية في كراكو سنة ١٦٠٩ فكل هذه الطبعات وعدد نسخها يعد بالآلاف منشورة بين الناس على اختلاف طوائفهم . ولعل السبب في اشتهار امر غموضها عند غير اليهود انها منشورة في اللغة الارامية غير ان ذلك لا يمنع اطلاع غير اليهود عليها وبين المسيحيين من اتقن تلك اللغة واطلع على التلمود وتفهمهُ . وعلماء الديانة المسيحية يستعينون بهِ كثيرًا في فهم بعض الآيات المبهمة من التوراة والانجيل فلو عثروا فيهِ على شيء مخالف لظواهر ديانتهم لاذاعوه وانتقدوه على ان التلمود قاسى في الاجيال المظلمة باوربا اضطهادًا شديدًا فذهب فريسة النار مرارًا عديدة ولا موجب لذلك غير التعصب الديني حتى اذا كان عصر الاصلاح في القرن السادس عشر اطمأن وظهر مطبوعًا طبعة بومبرج المتقدم ذكرها بعد ان احيا معالم اللغة العبرانية في ذلك القرن العالم فون رشلين استاذ اليونانية والعبرانية في مدرسة دنكولستاد . ولكن التلمود لم يترجم كلهُ الى لغة من اللغات الاخرى الى مؤخرًا فعني في ترجمة النسخة الاورشليمية الى الانكليزية الدكتور موسى شواب فتم طبعها سنة ١٨٨٥ وقد نشر جزء منها باللغة الفرنساوية ايضاً

أما التوراة فلا نزيدكم علمًا بانتشارها وكثرة ترجماتها وفي اوربا جمعيات شتى دينية لا عمل لها الاّ البحث في التوراة وتدبر حقائقها تاريخيًا وفلسفيًا ودينيًا

أما «كبيس» فهي لفظة سريانية او ارامية ومعناها المجتمع وقد حدثت في العبرانية بحدوث الترجوم واماقبلاً فكان اسم الكبيسة عندهم «ديه» ومعناها الاجتماع ولزيادة الايضاح راجع ما كتبناه عن اصل لفظ كبيسة في صفحة ٧٥٨ بالسنة الثانية من الهلال

أما الفظائع التي اشرتم اليها ولعلكم تريدون مسألة الدم والنعاير وما جرى مجراها فذلك من جملة ما بقي في اذهان الناس من الاعصر المظلمة ولا نعتقد بل لا يمكننا ان نعتقد ان امة بأسرها يمكن ان تتفق على ارتكاب مثل هذه الفظائع وخصوصاً امة اليهود التي عاصرت التمدنين القديم والحديث وهي منبع الشريعة واساس الاديان الصحيحة وعلى الاخص بعد ان بزغ نور التمدن وانبعثت اشعة الحرية والعلم على ان حدوث مثل ذلك من بعض افراد اليهود لا يستحيل كما انه لا يستحيل حدوثه من غير اليهود ولكن المراد البحث في هل تجري هذه الفظائع باحكام دينية رسمية او هل تجيز لهم ديانتهم ارتكابها والجواب كلاَّ والله اعلم

مقرّ العقل

(القاهرة) احمد افندي الباجوري بنيابة الاستئناف الاهلي

اطلعت في الصحيفة ٣٢٤ في العدد السادس من السنة الرابعة من جريدتكم الغراء على سؤال عن مقرّ العقل واجابة حضرتكم بان مقره الرأس فاتقدم اليكم بملاحظة وان لم أكن من رجال هذا الميدان ولكن التشبه بالرجال فلاح فأقول

أجمع العلماء والحكماء ان العقل مقره القلب وله اشعة متصلة بالدماغ وقد قال الله تعالى وهو اصدق القائلين (أفلم يكن لهم قلوب يعقلون بها) وقال تعالى (ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب) أي عقل بخلاف قول العامة (عقلك في راسك تعرف خلاصك) فان هذا امر اصطلاحي بينهم لا يعوَّل عليه ولو اردت سرد ما عندي من البراهين لطال الشرح فاكتفيت بما تقدم

(الهلال) ان القول باستقرار العقل في الدماغ ليس من اقوال العامة ولكنه من الحقائق الطبيعية الراهنة التي قرَّرها العلم واثبتتها التجارب الفيسيولوجية والتشريحية

أرمانوسة المصرية (تابع ما قبله)

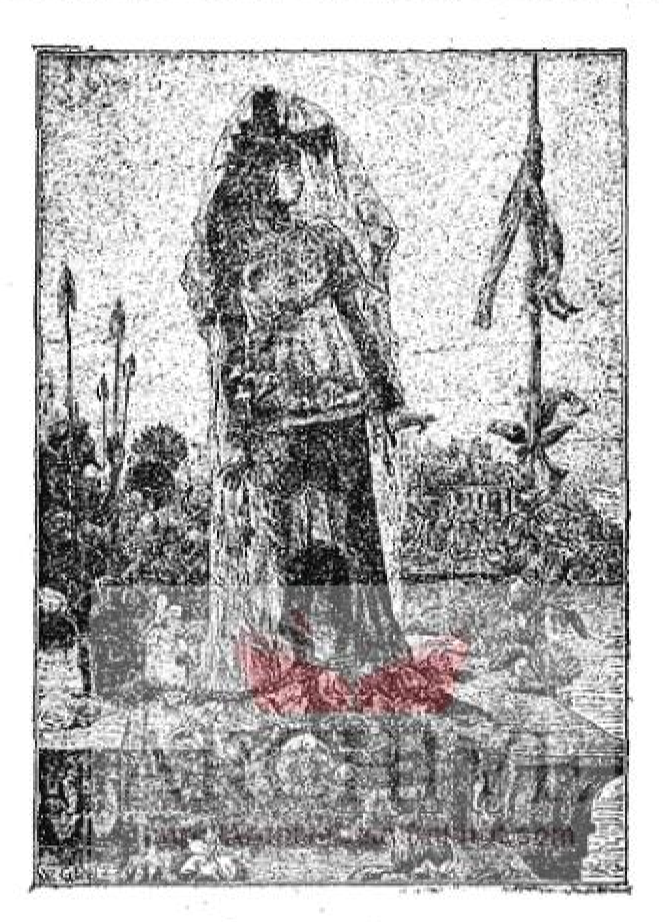
فوصلوا عند المساء الى ضفة النيل فرسا القارب بجانب رصيف مبني من حجارة ضخمة عليه نقوش هيروغليفية فانزلوا الفتاة الى البر وقد نصبوا خياماً لمبيتهم تلك الليلة على نية التبكير في الصباح التالي لتقديم ضحيتهم

أما مارية فقد كانت كل تلك المدة بين اليقظة والحلم فلما انزلوها الى البر قدم لها بعضهم طعاماً فلم تأكل وكانت لفرط ما بها كلما رأت شبحاً ظنته مرقس قادماً لانقاذها وباتت تلك الليلة والناس يتأهبون للاحتفال بتضحيتها

وكان ابن الحاكم لا ينفك لحظة عن التشفي من مارية فاوسعها تكراً ولكماً ولما باتوا اتى اليها وتهددها قائلاً ابن مرقس الآن ها انك في قبضة يدي وغداً تذهبين ضحية للنيل الاّ اذا رجعت عن غيك فصمتت ولم تجبه فظنها رضيت فدنا منها وامسكها بيدها واراد ان يحقق ظنه فنفرت منه واعرضت عنه مغضبة وتنهدت وقد تساقطت الدموع من عينيها سخينة وقالت وهي لا تعي ما تقول آه يا مرقس ابن انت فغضب الرجل منها وانتهرها قائلاً ألا تزالين تذكرين مرقس يا خائنة ها انك ستذهبين طعاماً للاسماك وليأت بعد ذلك مرقس او غيره ويستخرجك من قرار هذا النيل قال ذلك وتركها وخرج

وفي الصباح التالي حملوها باكراً واوقفوها على حافة الرصيف وعلقوا باغلال قدميها ثقلاً من حديد للاسراع في اغراقها ووقف القسس بباخرهم وصلواتهم يتوسلون الى الله تعالى ان تكون ضحيتهم مقبولة لدى النيل وكان في خاطر الحاكم ان يلقيها فيه بغير احتفال ولا صلاة فدار القسس حولها دورة يصلون وينشدون ويبخرون ثم داروا الدورة الثانية وقد احاط الجند والخفر بالناس وكانوا قد تكأكأوا هناك الوفاً والحاكم يحرض القسس على اتمام الصلاة

(أنظر ضحية النيل في الصفحة التالية)



ضحية النيل

وفيما هم في الدورة الثالثة بسمعوا صوت نفير عسكري يؤذن بالتوقف عن الاحتفال فالتفت الحاكم واذا بمركبة قادمة بسرعة البرق عليها جنديان يحملان علماً عليه صورة المقوقس وكتابة يونانية وقبطية فاخترقت المركبة صفوف الجماهير وكان كل من رأى المركبة والعلم وسع لها حتى دنت من الحاكم فنزل احد الجنديين باسرع من البرق واستخرج ملفاً من البابيروس من صندوق صغير من خشب الصندل واعطاه الى الحاكم وكان الوقوف لما شاهدوا المركبة بهتوا وتطاولت اعناقهم ليروا ما جاء به الرجلان

أما الحاكم فتناول الكتاب وفضه ونظر الى التوقيع فاذا هو ختم اركاديوس ابن الاعيرج فبغت حالاً وعلا وجهه الاصفرار رغماً عنه وجعل يقرأ الكتاب ويداه

ترتعشان وإذا هو مكتوب باللغة اللاتينية وهاك ترجمته

من اركاديوس ابن المندقور الاعيرج الى حاكم بلدة (كذا)

آمرك باسم والدي المندقور قومندان جند الروم بمصر ان تكف عن الاحتفال الذي اقمته لضحية النيل بمجال وصول هذا الكتاب اليك. وعليك ان تحل عقال الفتاة وترجع بها الى بيت ابيها ريثما يصدر لك امر آخر وان ابطأت في تنفيذ امرنا وقعت تحت طائلة العقاب الصارم وقد امرت حامل كتابي هذا وهو من خاصتي براقب عملك وينبئني بما تجريه

كتبه

كتب في حصن بابل سنة كذا لحكم الامبراطور هرقل (اركاديوس ابن الاعيرج)

(الختم)

فلما قرأ الكتاب اصبح الضياء في عينيه ظلاماً وعجب لامر هذا الكتاب واخذ يتأمل الختم ويعيد النظر اليه ويكرر تلاوته فلم يرَ مندوحة عن العمل به خوف العقاب فامر حالاً بحل عقال الفتاة والرجوع بها ومن جاء معه الى بلدته كاسف البال وقد اسقط في يده

اما مارية فلما اخذوا يحلون قيودها ظنتهم يريدون القاءها في النيل وان الساعة قد دنت فجعلت تتوسل اليهم ان يتمهلوا ولكنهم اخبروها انهم انما يحلون القيود للرجوع بها الى بيت ابيها فلم تصدق بل حملت ذلك منهم محمل الخداع فازدادت في البكاء ولم تحقق الامر الا لما رفعوا عنها الازهار فالتفتت الى الجماهير فاذا بحبيبها مرقس بالقرب منها ينظر اليها والمركبة الى جانبه وعليها علم المقوقس فرجع صوابها اليها وايقنت بالنجاة وهدأ روعها فانزلوها الى القارب ونزلوا جميعاً ومرقس واقف ازاء المركبة ينظر الى مارية مبتسماً وعيناه تدمعان من الفرح وهي تنظر اليه وتود ان يرافقها بالقارب ولكنها علمت انها ستلاقيه في بيت ابيها وقد فهمت من احاديث الجند بالقارب ان نجاتها كانت بامر من اركاديوس ابن الاعيرج فتحققت ان ذلك انما كان بمساعي خطيبها فازدادت حباً له وتعلقاً به

اما مرقس فركب المركبة مع رفيقه جرجس وعادا تواً الى بلدة مارية واخبرا والديها واهل منزلها بما كان فطاروا من الفرح وشكروا الله على ذلك وخرجوا لملاقاتها على مسافة من البلدة ولا تسل عن ساعة اللقاء ما كان احلاها وكم بكى الجميع بدموع الفرح

اما الحاكم وابنهُ فما زالا حاقدين يؤملان تنفيذ ما ربهما في فرصة اخرى على ان الحاكم كان عالماً بتعدبهِ حنوقهُ بما اجراه ولذلك ما زال خائفاً على نفسهِ

ولما نزلت الفتاة الى بيتها مع والديها اخذت تبحث عن كيفية نجاتها وعيناها شائعتان نحو الباب تنتظر قدوم خطيبها لتبث لهُ ما خامر فؤادها من الامتنان والشكر لتلك المساعي وهي تستغرب حدوث ذلك منهُ وتعجب بشهامتهِ وهمتهِ وقد كان قد خرج في حاجة وما لبث ان عاد والتقى بمارية وجلسا يتشاكيان الغرام

الفصل السادس عشر



ارمانوسة في بلبيس

فلنتركهم في فرحهم وسرورهم ولنعد الى ارمانوسة فقد تركناها في قصر حاكم بلبيس في مساء وصولها وهي على مثل الجمر في انتظار بربارة لتعلم ما اجرتهُ او ما كان من امرحبيبها فلما خيم الغسق اظلمت الدنيا في عينيها وهي جالسة الى النافذة تفكر في حالها وما هي فيهِ من الخطر بين ان تذهب ضحية عواطفها او تسلم نفسها الى من لا تحبهُ نفسها

وفيما هي كذلك جاءتها احدى الجواري فوقفت بين يديها فقالت ما وراءك فقالت ان امرأة الحاكم تسأل عن حضرتك وهي تريد المثول بين يديك فتكدرت ارمانوسة لتلك الزيارة لرغبتها اذ ذاك في الخلوة لتفكر في حالها ولكنها رأت ان تأذن لها بالمثول لئلا تستنكر امرها او تحسب ذلك خشونة منها فقالت لها لتدخل فدخلت الامرأة وقد تزينت باحسن ما لديها من اللباس احتفاء بنزيلتها وكان لباسها رومانياً على انها ليست رومانية الاصل ولا مصرية ولكنها من عائلة فارسية قديمة وكانت مشاركة للمصريين في معتقدهم وعوائدهم وهي تناهز الاربعين من العمر فوقفت لها ارمانوسة ورحبت بها واجلستها الى جانبها واخذت تبش بوجهها وتحادثها

فقالت المرأة لقد نزلت اهلاً ووطئت سهلاً ونحن نعد انفسنا سعداء بنزولك بيننا ونطلب اليهِ تعالى ان يتم اسباب سعادتك باقترانك بابن امبراطورنا المفخم (قالت

ذلك وهي تظن انها تسرها به)

فاضطربت ارمانوسة عند سماعها امر الاقتران ولكنها تجلدت واظهرت ارتياحها لذلك التلطف بغير ان تجيبها حياء ولكنها غيرت الحديث قائلة اني اعد نفسي سعيدة بمجاورتك ايتها السيدة الفاضلة

فقالت المرأة وارجو ان تكوني مسرورة من قيامك بيننا وان تدعي بما تريدينهُ وتأمرينا بكل ما ترتاحين اليهِ فاننا اوقفنا انفسنا لخدمتك

فقالت ارمانوسة اشكرك شكرًا جزيلًا فقد استأنست بك كثيرًا واشعر بارتياح كلي الى لطيف حديثك ولا غرو فان هذا اللطف طبيعي بنساء الفرس الذين نعدهم شركاءنا بالسراء والضراء

فقالت المرأة وان اكن ياسيدتي فارسية الاصل فاني اعد نفسي وطنية اذ قد ولدت في هذه البلاد وربيت فيها وأنست من اهلها رقة ودعة تنسي الغريب بلاده وخصوصًا ما نلاقيهِ من مولانا والدك من الانس واللطف والاهتمام بشؤوننا وقد سمعت زوجي يقول انهُ مسرور سرورًا عظيمًا لاختيارك بلبيس موطنًا لقدميك لانهُ سيزداد شرفًا بقدوم مولانا قسطنطين ابن امبراطور الرومان اليها وهذا شرف قلما تحصل عليهِ مدينة فنطلب اليهِ تعالى ان يعجل بمجيئهِ لنفرح بك ونراك عروسًا لابن الامبراطور

فوقعت هذه الكلمات في اذني ارمانوسة وقوع الصاعقة وكادت تتناثر الدموع من عينيها لعظم تأثرها فحولت وجهها الى النافذة ولم تبدِ جوابًا فحملت المرأة ذلك منها محمل الحياء للتكلم بامر الزواج وارادت ان تبالغ في ملاطفتها فقالت يظهر انك ايتها السيدة غير مرتاحة الى حديث العجائز فهل ادعو لك ابنتي قسطنطينة لتجالسك فانها فتاة في سنك فلعلك ترتاحين الى حديثها وخصوصًا لان اسمها يشابه اسم خطيبك

فازدادت ارمانوسة كدرًا لتلك الملاطفة وودت لو ترفض ذلك الاقتراح ولكنها لم تستطع الا اظهار الاستحسان والارتياح لما قالت فصفقت المرأة بيديها واذا بجارية حبشية قد حضرت فامرتها باستدعاء السيدة قسطنطينة فجاءت تجر ذيل ثوبها الارجواني وكانت قد خاطتهُ بنوع خاص لتقابل ارمانوسة بهِ عند ما سمعت بقدومها

الى بلبيس وجعلت عليها كل مصاغها وحليها فحيتها ارمانوسة و بشت بوجهها واظهرت الاستئناس بحضورها فجلست الفتاة متأدبة وهي تعد نفسها سعيدة المثول بين يدي ابنة المقوقس وكانت قد سمعت بجمالها وتعقلها واخذت تتأملها وتنظر الى ملابسها ومصاغها لعلها تؤانس فيها شكلاً اجمل مما تراه وكانت تسمع بحسن زي اهل منف خاصة ولا سيما ابنة حاكم البلاد

أما ارمانوسة فحالما رأت الفتاة وتذكرت ان اسمها مثل اسم ذلك الرجل نفر قلبها منها وتشاءمت برؤيتها وندمت على قبولها بدخولها عليها ولكنها تجلدت واخذت تحادثها وتلاطفها وافكارها منشغلة ببربارة واركاديوس واوّل حديث باشرته فسطنطينة وجهته الى والدتها قائلة هل سمعت يا اماه على من وقع الاختيار هذه السنة لتكون ضحية النيل

قالت امها سمعتهم يتحدثون في ذلك وقد فهمت من والدك انهم اختاروا مارية ابنة المعلم اسطفانوس من قرية (كذا) ولكن الامر قضي على عجل بغير استعداد

فقالت ارمانوسة ولكن ما هذه العادة القبيحة التي جريتم عليها في هذه البلاد هل يحسبون النيل ذا عقل يغضب ويرضى حتى يهلكوا بنات الناس من اجله فاني لم انفك عن مخاطبة والدي في أمر هذه العادة وحثه على ابطالها وهو يعتذر بانها عادة متمكنة من اهل هذه البلاد فلا يمكنه نزعها منهم بسهولة ولكني لما اتصوّر ذلك العمل الفظيع يقشعر له بدني

فقالت الفتاة بالحقيقة يا سيدتي انه عمل فظيع وخصوصاً لان هذه الفتاة مخطوبة وكانت تتأهب للاقتران فكيف يكون حال خطيبها اذا علم بامرها

فلما سمعت ارمانوسة ذلك انفطر قلبها على تلك الضحية وودت لو تستطيع انقاذها من ذلك المهلك ولكنها عادت الى هواجسها وودت اقفال الحديث لتخلو بنفسها وتفكر بحبيبها على انفراد

وقضت برهة في مثل تلك الاحاديث حتى آن وقت الرقاد فذهبوا بها الى غرفة اعدوا لها فيها سريراً مجللاً بالاغطية الثمينة فذهبت الى الرقاد وهي تخاف ان لا تستطيع رقاداً تلك الليلة لفرط ما بها من القلق وما يتنازعها من الهواجس ولكن تعب الطريق سهل عليها النوم فنامت الى الصباح ولم تفق الاّ على صوت اهل القصر

وهم يترحمون بربارة فنهضت من فراشها مذعورة واخذ قلبها بالخفقان لتعلم ما تمّ من امر اركاديوس وفيما هي في ذلك اذ سمعت قارعاً يقرع الباب فاذنت له فاذا بربارة قد دخلت وهي لا تزال بثياب السفر فقالت لها ارمانوسة اغلقي الباب وراءك وتعالي فاغلقت الباب وجمت الى سيدتها واخذت تقبلها والدموع تتساقط من عينيها ولكن بشائر الخير كانت تلوح على وجهها

فقالت لها ارمانوسة اخبريني يا بربارة عما فعلتهِ فاني قد قلقت لغيابك

قالت لا تقلقي يا مولاتي فاني جئتك بالاخبار الحسنة وابشري بنجاتك ونيل مرامك فان البطل اركاديوس حبيبك مصمم على حبك ثابت في ودك لا يستصعب امراً في سبيل الحصول عليك

قالت اصدقيني الخبر يا بربارة واشرحي الحكاية كما هي فمدت يدها الى جيبها واخرجت الخاتم وقالت خذي هذه الامانة اولاً

فتناولتهُ ارمانوسة ولما قرأت اسم اركاديوس عليها جعلت تقبلهُ وهي تقول اعذريني يا بربارة اني سلمت امري الى عواطفي وهذا خاتم حبيبي فكيف لا اقبلهُ ولكن كيف سلمهُ اليك وهو خاتم لا يستغني عنهُ في معاطاة اعمالهِ

قالت دفعهُ اليَّ على عجل ولم يفكر في عاقبة ذلك وقد اراد ان تتخذيهِ دليلاً على ثقتهِ فيك وقصت عليها الحكاية من اولها الى آخرها وارمانوسة مصغية كل الاصغاء الى تمام الحديث فسرت لثبوت حبيبها وعزمهِ على الاستهلاك في سبيل انقاذها وقالت اشكرك يا بربارة على هذه الخدمة فانها ثمينة لديَّ وسأكافئك عليها أحسن مكافأة .

فقالت بربارة هل تشعرين باني عملت عملاً يستحق رضاك

قالت كيف لا وقد غمرتني بفضلك

قالت اذا كنت تشعرين بذلك وتحبينني اتقدم اليك ان تساعديني في انقاذ فتاة النيل . مسكينة

قالت وما تعنين بفتاة النيل

قالت اعني الفتاة التي سيلقونها في النيل غداً ظلماً وعدواناً وحكايتها تشبه حكايتك على ما سمعت

قالت كنا في حديثها امس ولكن كيف تشبه حكايتي

فاحكت لها كل ما سمعته عن حال مرقس واخذت تطنب بشهامته وتبالغ في شرح ظلم الفتاة الى ان قالت فاذا انقذتها من يد هذا الظالم ينقذك الله من مصيبتك

فقالت ولكن كيف العمل يا بربارة هل اكتب الى والدي ليأمر بانقاذها

قالت ولكن الوقت لا يساعدنا على ذلك لانهم سيحتفلون باخراجها غدًا صباحا وسيدي والدك قد سافر الى منف على ما علمت فلا يمكننا الوصول اليها والرجوع بامره قبل فوات الفرصة وزد على ذلك ان هذا الحاكم روماني وربما لا يكتفي بامر والدك وحده بل يطلب امرًا من الأعيرج

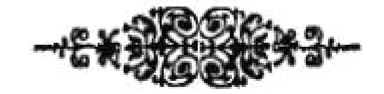
فقالت وما العمل اذًا اراني شديدة الميل لانقاذ هذه الفتاة دبري الحيلة وانا افعل كما تقولين

قالت اليس هذا الخاتم خاتم سيدي اركاديوس واسمه عليه

قالت بلى فهل ابعث به الى الحاكم قالت لا ولكننا نكتب امرًا عن لسانه نأمره بايقاف هذا العمل الى وقت آخر ونختمه بهذا الختم فانت تعرفين اللغة الرومانية وانا آتيك بورق تكتبين عليه الامر وانا الضامنة لنفوذ الحيلة ولا اظن سيدي اركاديوس يعاتبك على استعمال ختمه في انقاذ هذه البريئة من القتل

فسرت ارمانوسة لهذه الحيلة وكتبت الورقة كما قرأناها وختمتها وسلمتها الى بربارة فتركت سيدتها في الغرفة ونزلت الى الحديقة وكان مرقس في انتظارها عند الباب وقلبه يتقد قلقًا وخوفًا لئلا يذهب سعيه عبثًا فلما جاءته بربارة بالكتاب سر كثيرًا وتناوله وشكرها وخرج يريد القرية وفيما هو خارج من بلبيس سمع الناس يتحدثون بخروج القسس والاحتفال للذهاب بفتاة النيل في ذلك اليوم فعاد الى بربارة وانبأها بالخبر فاستأذنت سيدتها ان يركب مرقس ورفيقه مركبتها الخصوصية ليدرك النيل قبل فوات الفرصة فاذنت لها فركب المركبة وسار حتى ادرك الفتاة كما تقدم

« ستأتي البقية »



الهلال

الجزء التاسع من السنة الرابعة

(١ يناير (ك ٢) سنة ١٨٩٦) (١٦ جماد الثاني سنة ١٣١٣) (٢٢ كيهك سنة ١٦١٢)





رستم باشا

رستم باشا

متصرّف جبل لبنان الأسبق

(ولد سنة ١٨٠٦ م وتوفي سنة ١٨٩٥)

اقترح علينا بعض القرّاء نشر ملخص تاريخ جبل لبنان غير مرة وكان يقعدنا عن اجابة اقتراحهم ضيق صفحات الهلال عن استيفاء تاريخهِ فرأينا بمناسبة وفاة رستم باشا واليهِ الاسبق ونشرنا ترجمة حياتهِ ان نأتي على فذلكة من تاريخ لبنان على قدر ما يسمح بهِ المقام أما تفصيلهُ فلا يقوم بهِ الاَّ المجلدات الضخمة فنقول

(لبنان)

هو سلسلة جبال متشامخة كثيرة الوعر واقعة غربي سواحل سوريا ولكنها على وعورتها كثيرة الخصب تغشى آكامها الغياض والبساتين وتتفجر من جوانبها الينابيع والعيون وتتراكم على اعلى قممها الثلوج فتكسوها حلة بيضاء معظم ايام السنة . وجبل لبنان قديم العمران جدًّا سكنتهُ أمم التوراة في اقدم ازمان التاريخ وهو عذب الماء نقي الهواء جيد الاقليم وينقسم الى احدى وعشرين مقاطعة وهاك اسماءها من الشمال الى الجنوب (١) الزاوية شرقي جبال طرابلس (٢) الكورة الى جنوبي طرابلس (٣) جبة بشرّة الى الجنوب الشرقي من الكورة (٤) جبة المنيطرة وهي في رأس الجبل الى شرقي جبيل (٥) بلاد البترون وهي فيما يلي مدينة البترون الى الجبل (٦) بلاد جبيل (٧) الفتوح الى جنوبي بلاد جبيل (٨) كسروان (٩) المتن (١٠) ساحل بيروت (١١) الغرب وهو قسمان الاعلى والادنى (١٢) الجرد الى شرقي الغرب (١٣) الشحار (١٤) المناصف وعاصمتها دير القمر (١٥) العرقوب وهو قسمان الاعلى والادنى (١٦) الشوف (١٧) غربي البقاع واعظم بلادها زحلة (١٨) اقليم جزين (١٩) اقليم التفاح (٢٠) اقليم الخرنوب (٢١) جبل الريحان

وكل من هذه المقاطعات يحتوي على عدة قرى وبلاد تتفاوت في العظم والشهرة وكانت هذه المقاطعات تحت حكم عائلات او عشائر تحكم كل منها مقاطعة او اكثر وترجع احكامها كلها الى حاكم عام يقال لهُ امير الجبل وهو يخاطب والي ولاية صيدا لان لبنان كان يعد سنجقية من سنجقياتها . وكانت هذه الامارة في القرون الاخيرة سبق

قبضة امراء بني معن وانتقلت في اوائل القرن الثاني عشر للهجرة الى امراء بني شهاب وأوَّل من حكم منهم الامير حيدر وكيفية وصول الحكم اليهِ على ما رواه المرحوم جودت باشا ان اخت الامير احمد آخر امراء بني معن تزوجت باحد امراء بني شهاب حكام وادي التيم الى ذلك العهد واسمهُ موسى فوضعت ولدًا سماه حيدر فورث امارة الجبل سنة ١١١٨ ه

وكان سكان لبنان قبل ولاية الشهابيين مقسومين الى حزبين كبيرين يقال لهما القيسية واليمنية ففي ولاية الامير حيدر ضعف شأن اليمنية ثم تغلب هو على القيسية واستقلَّ بالنفوذ منفردًا · وكأن طبيعة الاقليم في لبنان تدعو الى التحزب والانقسام فعاد اهله الى التحزب فانقسموا قسمين عرفا بالجنبلاطية نسبة الى بني جنبلاط واليزبكية نسبة الى يزبك كبير بني العماد وتمكنت البغضاء بين هذين الحزبين وكثرت الحروب والفتن بينهما والكل مع ذلك يصدعون بأمر الامير حيدر حتى توفي سنة ١١٤٠ ه فخلفهُ ابنهُ الامير ملحم وفي ايامهِ عصا حكام المقاطعات فقضى مدة حكمهِ في محاربتهم فخلفهُ اخوه الامير منصور فحكم ٢٤ سنة ثم استعفى مراعاة لشيخوختهِ فخلفهُ الامير يوسف ابن الامير ملحم سنة ١١٦٤ ه

وكانت حكومة الجبل في الاصل محصورة في جبل الشوف وهو يحتوي على سبع مقاطعات تقدم ذكرها وهي الشوف والمناصف والعرقوبان الاعلى والادنى والجرد والمتن والشحار والغربان الاعلى والادنى وكل من هذه المقاطعات تحكمها عشيرة من ذوي الحسب والنسب · فكان في الشوف بنو جنبلاط وفي المناصف بنو ابي نكد وفي العرقوب الاعلى بنو العبد وفي العرقوب الادنى بنو العماد وفي الجرد بنو عبد الملك وفي المتن بنو اللمع وفي الغرب الاعلى بنو تلحوق وفي الغرب الادنى بنو ارسلان وكان كل منهم متصرفًا في مقاطعتهِ وكان بنو ابي نكد يحكمون الشحار

وجميع هذه العشائر من طائفة الدروز فسمي الشوف بسبب ذلك بلاد الدروز او جبل الدروز الَّا ان بني اللمع تنصروا بعد ذلك · وتقسم هذه العشائر من حيث الالقاب والرتب الى قسمين الامراء والمشائخ · والامراء ارفع منزلة وامراء بني شهاب اعلى مقامًا من سائر الامراء ويليهم بنو ابي اللمع ثم بنو ارسلان ثم فرقة تعرف بالمقدمين وهم بنو مزهر ثم المشائخ على اختلاف درجاتهم وكان لكل من هذه الطبقات

رسوم خصوصية اذا دخلوا على حاكم الجبل فاذا كان القادم اميرًا من بني شهاب نهض له الحاكم ونزل عن بساطهِ فيتقدم الداخل ويلقي التحية ثم يقبل كتف الحاكم واذا كان من الامراء الآخرين فلا ينهض له الحاكم الاَّ بعد ان يلقي التحية فاذا كان من بني ابي اللمع قبل ذراع الحاكم واذا كان من بني ارسلان قبل ساعده اما المقدمون والمشائخ فيقبلون طرف ابهام كفهِ اما اذا كان من العامة فلا يقوم له الاَّ اذا جثا لتقبيل يده وقد لا يقوم لهم وبعضهم لا يرضى دخولهم عليه مطلقًا .

وكان من عوائد امير الجبل الشهابي اذا كتب الى احد الامراء او المقدمين او المشائخ ان يخاطبهم بالاخ العزيز . ولكنهُ كان يميزهم بعضهم من بعض ببعض الاحوال فاذا كان المخاطَبُ من بني اللمع قال في صدر كتابهِ اليهِ « جناب حضرة الاخ العزيز الامير فلان المكرَّم حفظهُ الله تعالى ابدي » ثم قال « اولاً مزيد الاشواق لمشاهدتكم في كل خير وثانيًا كذا وكذا » ويجعل الكتاب على نصف طلحية من الورق ويكتب هكذا ايضًا الى بني ارسلان ولكنهُ يجعل الكتاب على ربع طلحية ولا يذكر قولهُ « وثانيًا » وكان امضاؤُه « اخ ومحب مخلص » واما المشائخ فيخاطبهم مخاطبة بني ارسلان بعد حذف لفظ « جناب » اما سائر اعيان الجبل فكان يكتب اليهم « حضرة عزيزنا » ويجعل في محل « حفظهُ الله » « سلّمهُ الله » وفي محل « لمشاهدتكم » « لرؤياكم » ويكتب الى اهالي قراياه الخاصة والى مشاهير القرى « عزيزنا » والى سائر الناس « اعز المحبين »

وما زالت هذه المقاطعات سبعًا تعرف باسم « سنجقية الشوف » ثم تفرَّعت منها مقاطعات اخرى واضيفت اليها مقاطعات اخرى من التي تقدم ذكرها تبعًا لمقتضيات الاحوال وفي ايام الامراء الشهابيين كانت المقاطعات الداخلة في حكومة الجبل بالقسم الغربي منهُ اقليم الخروب واقليم التفاح واقليم جزين وفي القسم الجنوبي جبل الريحان مع البقاع وفي القسم الشرقي كسروان والفتوح وبلاد جبيل والبترون وجبة المنيطرة وجبة بشرة والكورة والزاوية وكانت حكومة المقاطعات متوزعة اذ ذاك بين المشائخ فالقسم الغربي كان بحكمة المشائخ الجنبلاطية أما القسم الجنوبي وبلاد جبيل والبترون من القسم الشرقي فكان يحكمها الامير الشهابي رأسًا واما كسروان فكان بحكمة مشائخ بني الخازن وجبة المنيطرة يحكمها مشائخ بني حمادة والكورة العليا مشائخ بني العازار والزاوية مشائخ بني الظاهر . ومن اعيان مشائخ لبنان فضلاً عن

تقدم ذكرهم مشائخ بني حبش في كسروان ومشائخ بني حيمور في البقاع ولكنهم لم يحكموا وكان المشائخ كافة مسيحيين الاَّ بني حيمور فقد كانوا سنيين وبني حمادة شيعيين

وكان مقرُّ حكومة الامراء الشهابيين دير القمر وقد يقيمون في بيروت وكانوا مسلمين ينتسبون الى قريش ثم تنصر بعضهم واوَّل من فعل ذلك منهم الامير بشير الشهابي الثاني المعروف بالكبير او المالطي وكان والده قد تنصر قبله في آخر ايامهِ



الامير بشير الشهابي الكبير

وتولى الامير بشير حكومة لبنان بعد الامير يوسف المتقدم ذكره سنة ١٧٨٨ م وسنهُ ٢٢ سنة وهو اعظم الامراء الشهابيين سطوة واثبتهم جاشاً واعظمهم هيبة واشدهم بطشاً واطولهم حكماً لانهُ حكم زهاء ٥٢ سنة ورافقت حكومتهُ حوادث ذات شأن اهمها قدوم ابراهيم باشا بن محمد علي باشا الى بلاد الشام سنة ١٨٣١ م وكان الامير بشير عوناً كبيراً له وقد ذكرنا ترجمة حياة الامير مطوَّلة في الجزء السابع من السنة الاولى من الهلال . وما زال حاكماً على لبنان حتى اقتضت الاحوال اخراجهُ واخراج ابراهيم باشا وسائر الجنود المصرية من سورية سنة ١٨٤٠ فسيق الى مالطة ومنها الى الاستانة ثم نفي الى بورصة في اسيا الصغرى فمكث هناك سنتين ثم عاد وتوفي في الاستانة ودفن في غلطة سنة ١٨٥٠ . وكان ربع القامة كثير الشعر حاد العينين عظيم الهيبة جدا ويروى عن هيبتهِ وشدة بأسهِ وصرامتهِ روايات اشبه بالخرافات منها بالحقائق ذكرنا بعضها في ترجمة حياتهِ

وفي زمن الامير بشير ساد الامن في ربوع لبنان وانتصف الضعيف من القوي كل ذلك خوفًا من هيبتهِ فلما أُخرج تولى الامارة الامير بشير الثالث وكان يحتقر اعيان البلاد ووجهائها وقد يسيء في مخاطبتهم فاضمروا لهُ السوء حتى حاصروه في دير القمر فتوسط مشير بيروت فارسل السيد عبد الفتاح اغا حماده فاخرجه من الدير وحضر به الى بيروت سنة ١٨٤٢ وكان هو آخر من تولى لبنان من امراء بني شهاب

وكان الانقسام بين احزاب الجبل قد تحوَّل الى وجهة دينية فانقسم اهلهُ الى حزبين كبيرين هما حزب الدروز وحزب النصارى وقامت بينهما الفتن واعظمها حدثت سنة ١٨٤١ فارسلت الحكومة العثمانية المرحوم عمر باشا الذي نشرنا رسمهُ في الهلال الخامس من هذه السنة واليًا عليها فلم يطل مقامهُ ولم يزدد الحزبان الاَّ نفورًا فرأت الدولة العلية ان تجعل لبنان قائمقاميتين احداهما درزية في القسم الجنوبي والاخرى نصرانية في القسم الشمالي يحكم الدرزية درزيٌّ والنصرانية نصرانيٌّ تلافيًا لذلك الخصام فتولى الامير حيدر ابي اللمع قائمقامًا على النصارى والامير احمد ارسلان قائمقامًا على الدروز على ان ذلك لم يفِ بالغرض المطلوب فما زالت الفتن تتعاظم حتى كانت حوادث سنة ١٨٦٠ الشهيرة بين الدروز والنصارى فتوسطت الدول فاستحسنت الدولة العلية بموافقة الدول ان تضع للجبل نظامات جديدة فقررت أن تكون امارة لبنان متصرفية يحكمها مشير مسيحي من غير اهالي لبنان وتكون علاقتهُ مع الباب العالي رأسًا · واوَّل من تولى حكومتهُ على هذه الصورة المرحوم داود باشا الارمني فحكم ست سنين حدثت في اثنائها الفتنة الكرمية نسبة الى زعيمها يوسف بك كرم وانتهت بتسليمهِ ونفيهِ · وتولى حكومة لبنان بعد داود باشا فرنكو باشا حتى توفي سنة ١٨٧٣ فتولى مكانهُ المرحوم رستم باشا الذي نحن في صدده وهاك ترجمة حياتهِ ملخصًا

(رستم باشا)

هو الوزير العثماني الشهير سفير الدولة العلية في لندرا مؤخرًا واصلهُ ايطالي ولد سنة ١٨٠٦ من عائلة كونتية عريقة في الحسب والنسب ولكنهُ انتظم في خدمة الدولة العلية وتخلق باخلاق رجالها واتقن لغتهم فضلاً عن لغتهِ ولغات اخرى كما فعل كثير من خدمة الدولة العلية من الاوروبيين وكانوا غالبًا اذا انتظموا في سلك خدمتها

اعتنقوا الاسلام اما رستم باشا فبقي على مذهب آبائهِ وهو النصرانية وكان منذ نعومة اظفاره جريئًا مقدامًا حاد الذهن ذكيًا فما لبث ان انتظم في خدمتها حتى اخذ يرتقي و يتقلب في المناصب حتى تعين سفيرًا للدولة العلية في ايطاليا على عهد ملكها فكتور عمانوئيل الثاني وما زال في ذلك المنصب الى سنة ۱۸۷۳ فاستقدمهُ الباب العالي ليتولى متصرفية لبنان كما قدمنا

وكان الجبل كما علمت من حالهِ وقد حال بين احكامهِ والعدل نفوذ ذوي الوجاهة والرئاسة وخصوصًا طائفة الاكليروس وكان رستم باشا لحزمهِ وصرامتهِ يتوخى القسط ولا يقبل الوساطة فشق ذلك على بعض جماعة الاكليروس وحاولوا استخدام نفوذهم فلم يرولهُ منهُ الا البقاء على عزمهِ فنتج عن ذلك نفور بينهُ وبين جماعة منهم وتمكن النفور حتى آل الى حكمهِ على المطران بطرس البستاني بالنفي الى يافا سنة ۱۸۷۹ والمطران المشار اليهِ من ذوي العلم والوجاهة والكلمة النافذة في الطائفة المارونية فتزعزعت اركان لبنان واشتدت الازمة فتوسط قنصل فرنسا في الامر فتقرر ان يكون مقام المطران بطرس في بيروت بدلاً من يافا وكان هذا الحادث عبرة لسائر الاحزاب والعصب في لبنان فاذعنوا جميعًا وسارت الاحكام على ما يرام من العدالة والقسط وساد الامن وعرف كل ذي حق حقهُ وبقي رستم باشا في ولايتهِ هذه عشر سنوات ولا يزال اهل الشام كافة وخصوصًا اهل لبنان يتذكرون حكمهُ وعدالتهُ وقد شهد عقلاؤهم على اختلاف اغراضهم ونزعاتهم ان ولايتهُ على لبنان خطت بهِ خطوة كبرى نحو الاصلاح والتمدن . وفي سنة ۱۸۸۳ عند انتهاء المدة المعينة لحكمهِ ابدل بالمرحوم واصه باشا فتوفي في سنة ۱۸۹۲ فخلفهُ دولتلو نعوم باشا المتصرف الحالي

أما رستم باشا فتعين سفيرًا للدولة العلية في لندرا وهي اخطر سفاراتها وذلك دليل على ثقة الدولة بهِ وما زال هناك حتى توفاه الله كما ذكرنا في الهلال السابع من هذه السنة ولهُ من العمر زهاء تسعين سنة ولم يخلف عقبًا

وكان ربعةً نحيفًا سريع الحركة حاد العينين والذهن صارمًا حرًّا وقد نال بسبب ذلك شهرة كبرى لدى رجال اوربا حتى صرح اللورد سالسبوري وهو يذكر وفاتهُ ان بموتهِ ماتت رجال الدولة العثمانية كأنهُ يريد انهُ فريد في الدولة وهو قول لا يخلو من المبالغة ولكنهُ يدل على منزلة هذا الرجل عند جهابذة السياسة في اوربا

(لبنان الآن)

ذكرنا المقاطعات التي يتألف منها لبنان وهي تجمع الآن تحت سبع اقضية ومديرية ويقسم القضاء الى نواح وبلغ عدد هذه النواحي ٤٢ ناحية ويسمى حاكم القضاء قائم مقام وحاكم الناحية مديراً فالمديرون يخابرون القائمقاميين وهؤلاء يخابرون المتصرّف وهو يخابر الباب العالي . اما عدد سكانه فيؤخذ من السالنامه العثمانية التي صدرت سنة ١٣٠٧ ه ان عدد الذكور منهم ٩٩٨٣٤ وقد حققت الاحصاآت الاخيرة ان عدد سكان جبل لبنان الى العام الماضي بلغ ٢٤٥ر٠٠٠ ومساحته ٢٢٠٠ ميل مربع . أما الاقضية فهاك اسماءها (١) قضاء الكورة وفيه اربع نواح واكثر اهله من طائفة الروم الارثوذكسية ومركزها قرية كفرحزير (٢) قضاء البترون وفيه ثماني نواح واكثر اهله موارنة ومركز القضاء مدينة البترون (٣) قضاء كسروان واكثر اهله موارنة ومركزه في الشتاء فرضة جونية وفي الصيف غزير (٤) قضاء المتن وفيه ست نواح واكثر اهله من الموارنة ومركزه في الشتاء قرية الجديدة وفي الصيف برمانا (٥) قضاء زحلة مركزه مدينة زحلة وهي من اكبر مدن لبنان واكثر اهل القضاء روم كاثوليك (٦) قضاء الشوف فيه ١٢ ناحية واكثر اهله من الدروز ومركز القضاء بعقلين (٧) قضاء جزين فيه ثلاث نواح مركزه في الصيف قرية جزين وفي الشتاء قرية البرامية واكثر اهله من الموارنة . اما مديرية دير القمر فواقعة في قضاء الشوف ولكنها مستقلة في اعمالها واحكامها عن سائر القضاء ومركزها مدينة دير القمر وكانت قبلاً مركز امارة لبنان واما مركز المتصرفية الآن ففي بيت الدين صيفاً وفي قرية بعبدا شتاء . واما اللبنانيون فهم اصحاء العقول اقوياء الابدان معروفون بالحزم والاقدام ولو تدبرت حقيقة النهضة السورية الاخيرة لرأيت اكثر رجالها وخيرة علمائها المسيحيين من اللبنانيين فضلاً عن مهارتهم في التجارة والصناعة والادارة واقدامهم على المشروعات على اختلاف مواضيعها وتجشمهم الاسفار في سبيل الرزق فلما ضاقت بهم باحة الرزق في الاعوام الاخيرة تفرّقوا في اقطار الارض ونزلوا القارات الخمس وكانوا اذا نزلوا بلداً سابقوا اهلها في اعمالهم فمنهم الآن تجار في اميركا واوربا واوستراليا والسودان والهند والصين واليابان وجزائر فيلبين ومداغسكر وزنجبار والحبشة ورأس الرجاء الصالح وفي سائر اقطار الارض

باب المقالات

تاريخ الانسان

في أوائل العمران

(٣) الكساء (تابع ما قبله)

(٢) لباس القدمين

لباس القدمين او الحذاء أحدث البسة الانسان لان مشية حافي القدمين في اوّل عهد وجوده جعل جلد اخمصيها غليظًا متينًا بما كان يطأه من خشن الارض ووعرها فنما وتخشن رويدًا رويدًا حتى اذا تمدن وبنى القصور وركب الخيل والمركبات وانغمس في الترف عاد ذلك الجلد الى النعومة فاضطر الى ما يقيهما حر الرمال ونواتئ الصخور فاتخذ النعال من جلد الحيوان وغيره وقاية لهما واوّل من احتاج الى ذلك الملوك والكهنة ورجال الغنى والترف ثم تشبه بهم العامة وعلى توالي الاجيال صار الحذاء عاماً بين اهل الحضارة اما الامم المتوحشة فلا يزالون حفاة حتى الآن

على انه لولا ميلة الفطري الى الحضارة والترف لازداد جلد اخمصيه ثخانة ومتانة واستغنى عن الحذاء مطلقًا كما حدث للحيوانات الاخرى فان الظلف والحافر والخف انما هي عبارة عن تسمك بعض اجزاء البشرة بمرور الادهار حتى صارت غليظة صلبة كما تراها فالظلف للشاة والبقرة والظبي والحافر للفرس والحمار والخف للبعير انما هي ناميات البشرة وتسمكها بتكرار الوطء ومعاناة المشي على خشن الارض ووعرها فلو نظرت الى قائمة الفرس مثلاً لظننتها لاوّل وهلة تقابل رجل الانسان باجزائها من اصل الفخذ الى اسفل القدم فتحسب الحافر قدمًا وما بين الحافر الى الثنية الاولى ساقًا وتحسب تلك الثنية ركبة كركبة الرجل او كوعًا مثل كوعه وما بينها وبين الثنية الاخرى فخذًا او ذراعًا وتحسب تلك الثنية منصل الفخذ او منصل الكتف ولكنك لو امعنت النظر قليلاً او نظرت فيها نظرًا تشريحياً لعلمت ان الحافر يقابل ظفرًا من

اظافر رجل الانسان او يده وما بينهُ وبين الثنية الاولى يقابل سلامية من سلاميات الاصابع والثنية التي ظننتها ركبة او كوعاً انما تقابل الرسغ في يد الانسان او رجلهِ وما بينها وبين الثنية الاخرى انما يقابل الزند او الساق والثنية الاخرى تقابل الكوع في اليد او الركبة في الرجل واما عظم الذراع او الفخذ في الفرس فقصير غليظ لا يظهر لاوّل وهلة انهُ يشبه ذراع الانسان او فخذهُ . وقس على ذلك قوائم الحمار او الشاة او البقرة او الماعز فالاظلاف هناك مزدوجة تقرب المشابهة بينها وبين اصابع الانسان فما الظلف والحافر الاَّ اظافر نمت وغلظت وتصلبت حتى شابهت الحذاء. أما الحيوانات الاخرى غير ذوات الظلف والحافر فيقوم في أرجلها مقام الحذاء ثخانة جلد اخامصها او ما شاكل ذلك

أما الانسان فقضى عليهِ ميلهُ الى الحضارة ورغبتهُ في انواع الترف ان يتخذ لاقدامهِ ما يقيها حرّ الرمال ووعورة الصخور فاتخذ اوّلاً قطعة من جلد او خشب شدها الى الاخمص قدمهِ فاذا مشى حالت بينها وبين الارض ثم جعل يتفنن في صنعها حتى حاكها من اوراق الشجر او سعف النخل او الياف القنب (الكتان) او بعض انواع النسيج على ان ذلك كان قاصراً في اوّل امرهِ على الملوك وكبراء الامة وعظمائها وربما كانت المرأة اسبق الى الاحتذاء من الرجل لانها اكثر تأثراً لعوامل الطبيعة واقرب الى الترف والتنعم ويظهر من بعض نصوص التوراة انها كانت تتاخر بحسن حذائها ففي نشيد الانشاد ص ٧ عدد ١ « ما اجمل رجليك بالنعلين يا بنت الامير »

فالنعال وهي الجزء السفلي من الحذاء ما برحت على حالها منذ اوّل اختراع الحذاء الى الآن فقد كانت من الجلد ولا تزال منهُ الى الآن ولكنهم تفننوا في صنع ما يشدها الى القدم فاتخذ بعضهم لذلك سيراً من جلد وبعضهم اتخذ الامراس والذين نسجوا نعالهم من سعف النخل او الياف القنب جعلوا ما يشدونها بهِ حبلاً من ذلك النسيج يمرّون بهِ على ظاهر القدم او حول منصل العقب . وظهر القدم في كل ما تقدم عارٍ والاصابع والابهام ظاهرة وما زالت الحال على هذا المنوال الى الاعصر الاخيرة فجعلوا ما يشدون بهِ النعل الى القدم فرعة من جلد او غيره تغطي ظاهر القدم والعقب ومنها ما يغطي رسغ العقب ومنها ما يكسو الساق الى الركبة او ما فوقها . ثم تفنن الانسان فاتخذ للقدم لباسين الواحد باطني وهو الجراب وآخر ظاهري وهو الحذاء. وكل ذلك

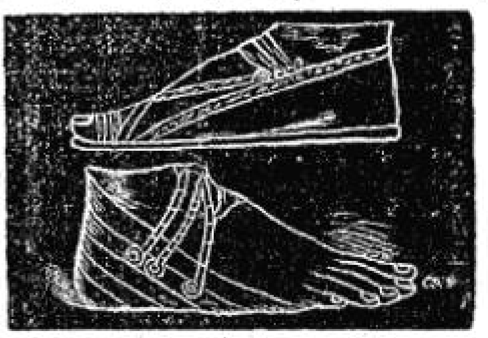
من متولدات التمدن الحديث . أما التمدن القديم فلم يتجاوز الحذاء فيه حالة الاولى الاّ نادرًا ولتتمة الفائدة نذكر اشهر انواع الاحذية عند الامم القديمة

(١) المصريون القدماء . كان حذاء المصريين القدماء عبارة عن النعال تشد الى القدم بسير قصير يمتد مما بين الابهام والسبابة الى اعلى القدم وسير آخر مشدود من طرفيه بجانبي النعال عند اسفل العقب فيمر بأعلى ظهر القدم فيشد به السير الاوّل واما مادة النعال فكانت على الغالب من الجلد ولكنهم كانوا يحيكونها احيانًا من سعف النخل او الياف القنب او البردي (البابيروس)

ففي الشكل الاوّل اشهر انواع الاحذية المصرية ومعظمها مصنوع من الجلد وبعضها من نسيج سعف النخل او البردي وهي الثلاثة الاولى من الصف الاسفل ويلبسها في الغالب الكهنة و في المتحف المصري كثير من امثلة هذه الاحذية

(الشكل الاوّل) أحذية مصرية

(٢) الأشوريون . وكانت احذيتهم تختلف عن الاحذية المصرية بأنهم كانوا يصنعون نعالها احيانًا من الخشب فضلاً عن الجلد وقلما صنعوها من نسيج كالمصريين و بين ان الاحذية المصرية كانت تستطيل من الامام حتى تنعكف الى الاعلى فوق الابهام فان الاشورية لم تكن تتجاوز رأس الابهام من الاسفل . وهي تخالف المصرية بأنها تشد الى القدم بسيور مخرفة تكسو العقب كما ترى في الشكل ٢



(الشكل الثاني) أحذية أشورية

(٣) اليونان والرومان · وتمتاز احذية اليونان والرومان بأنها من الجلد غالبًا وان نعالها تشد بسيور تلف ليس فقط على ظهر القدم او العقب بل تجاوزها الى اعلى الكاحل واحيانًا الى منتصف الساق



(الشكل الثالث) أرسطو الفيلسوف اليوناني

وترى في الشكل الثالث رسم ارسطو الفيلسوف اليوناني وترى حذاءه نعالاً مشدودة بسيور ملتوفة على ظهر القدم فالعقب فاعلى الكاحل

أما الأمم الاخرى كالفينيقيين والاسرائيليين وغيرهم فكانت احذيتهم ترجع الى بعض هذه الاشكال

أما العرب فالاغلب فيهم ان لا يلبسوا النعال فتتصلب بطون اقدامهم حتى تقوى على تحمل حر الرمال ولكنهم اذا ساروا في الجبال الوعرة شدوا الى اقدامهم نعالاً من جلد الغنم

باب السؤال والاقتراح

الكتابة الهيروغليفية وحلُّها

(الفيوم) ابراهيم افندي جرجس نخله

قد اتفق العلماء ان شمبليون العالم الفرنساوي هو الذي احيا اللغة الهيروغليفية بعد اندراسها دهرًا طويلا فكيف اتصل الى معرفتها نرجو الافادة ولكم الفضل

(الهلال) الكتابة الهيروغليفية كتابة صوَرية كان يستخدمها الكهنة المصريون في زمن الفراعنة القدماء ولفظ الهيروغليف مركب من لفظين يونانيين هيروس (مقدس) وغلوفو (أنقُش او احفر) ويراد بها المنقوشات المقدسة وقد يكون لفظها بالاصل هيروغراف فترَدُّ الى لفظين يونانيين معناهما الكتابة المقدسة على ان المصريين القدماء لم يستخدموا الكتابة الهيروغليفية فقط فان الكتابة المصرية القديمة كانت تقسم الى ثلاثة اقلام (١) الهيروغليفي (٢) الهيراتي (٣) الديموطيقي فالقلم الهيروغليفي الذي نحن بصدده اقدم كتابة مصرية وهو صوري محض وكان استخدامه محصورًا في الكهنة واقدم ما عثروا عليه منه كتابة نقشت في عهد العائلة الثانية والمظنون ان هذا القلم ما زال مستعملاً الى القرن الثالث بعد الميلاد ويليه القلم الهيراتي وهو لا تميز فيه صور الحروف الاصلية فكأنه كان صورًا ثم تشوهت اشكالها وفسدت بالاستعمال واقدم ما عثروا عليه من امثلة هذا القلم كتابة كتبت في عهد العائلة الثانية عشرة (قبل سنة ٢٨٥١ ق م) اما الديموطيقي فهو اقرب شكلاً الى الكتابة الهجائية الحديثة بدأ استعماله في القرن التاسع قبل الميلاد وما زال هذان القلمان مستعملين الى القرن الرابع بعد الميلاد

على ان الكتابة المصرية جملة كانت آخذة في الدثور والزوال قبل ذلك العهد بازمان لان اليونان اخذوا مذ تولوا مصر في اماتة لغة المصريين وكتابتهم فاخذ ظل الكتابة الهيروغليفية يتقلص شيئًا فشيئًا الى القرن الثالث فزال تمامًا وفقدت صناعة

وتنوسيت العلاقة بين صور الحروف ومعانيها بتوالي الاجيال فلم تأتِ القرون الاخيرة الأ وقد اصبحت الكتابة الهيروغليفية طلاسم لا يمكن حلها وقد سماها الرحالة عبد اللطيف البغدادي «القلم المجهول» اما الاقباط فاضطروا الى اتخاذ الحروف اليونانية ليكتبوا بها لغتهم واستعاروا من القلم الديموطيقي بضعة احرف للدلالة على حروف لا يعبر عنها بالاحرف اليونانية وهي الابجدية القبطية الباقية الى هذا العهد

على ان علماء الآثار الشرقية وجهوا همهم الى حل رموزها من اوائل القرن السادس عشر فمضى القرنان والثالث وهم لم يدركوا منه شيئاً يذكر

وفي سنة ١٧٩٩ قدم نابوليون بونابرت بحملته لافتتاح الديار المصرية فعثر احد ضباطها في جهات رشيد على حجر اسود غير منتظم الشكل طوله ثلاث اقدام وقيراطان وعرضه قدمان وخمسة قرار يط له سطح مستو املس في اعلاه كتابة بالقلم الهيروغليفي تحتها كتابة بالقلم الديموطيقي وفي الاسفل كتابة باللغة اليونانية فحملة الى الاسكندرية فلما جاءت الجنود الانكليزية وافتتحتها دخل ذلك الحجر في قبضتهم فارسلوه الى انكلترا سنة ١٨٠٢ ثم وضعوه في المتحف البريطاني في لندرا وسموه حجر رشيد ولا يزال هناك الى الآن وقد شاهدناه في ذلك المتحف عام ١٨٨٦ موضوعاً في صدر الآثار المصرية في صندوق غطاؤه من زجاج حتى تظهر الكتابة وهي منقوشة في الحجر نقشاً وترى رسم هذا الحجر في كتابنا (تاريخ مصر الحديث)

فلما صار الحجر في لندرا نظر فيه الدكتور توماس يونغ احد علماء الانكليز هناك ثم رسمت جمعية العاديات رسمه وفرّقت نسخاً منها في جمهور علماء الآثار الشرقية لينظروا في قراءتها فاهتدوا اولاً الى قراءة الكتابة اليونانية فاذا هي شكر كتبة كهنة منف الى الملك بطليموس ابيفانيس سنة ١٩٤ على ما اسبغه عليهم من النعم الجزيلة وانهم وضعوا منه نسخة في كل من هياكل الطبقة الاولى والثانية والثالثة بجانب تمثال ذلك الملك

ثم تمكن العلامتان ديساسي واكرلاند من حل بعض رموز الحرف الديموطيقي وغاية ما وصلوا اليه انهم عينوا مواضع الاعلام في الكتابة المصرية المقابلة للاعلام اليونانية مع لفظ بعضها

ثم تمكن الدكتور يونغ من قراءة الكتابات الثلاث ونشر ترجمتها ونتيجة ابحاثه في ذلك سنة ١٨٢١ . وفي سنة ١٨٢٢ نشر الموسيو شمبوليون العالم الفرنساوي

الشهير المعروف بشمبوليون الشاب ترجمة هذه الكتابة واستخرج منها ما يشبه الحروف الهجائية وذلك بعد ان درس اللغة القبطية وجغرافية مصر القديمة درساً جيداً ولا يبعد انهُ استعان بكتابة يونغ

وكان الاستاذ بلزوني الايطالياني قد عثر في جزيرة البربة على مسلة عليها كتابة يونانية ومصرية وارسل صورة الكتابة الى اوربا فلما رآها شمبوليون ادرك ان الكتابة اليونانية ترجمة المصرية فتدبر كل ذلك حتى اهتدى الى معرفة لفظ المقاطع والحروف واساس عملهِ في ذلك انهُ وجد في الكتابة اليونانية على تلك المسلة اعلاماً ووجد مقابلاً لها في الكتابة المصرية نقوشاً محاطة بخطوط اهليلجية وكانت تلك الاعلام مكرَّرة في الكتابة اليونانية فوجدها ايضاً مكرَّرة في الكتابة المصرية فاستنتج ان النقوش المحاطة بالاهاليج يجب ان تكون اسماء لتلك الاعلام فوجد مثلاً في الكتابة اليونانية اسم بطليموس مكرَّراً كثيراً وتقابله اشكال اهليلجية فيها نقوش وموقعها في الكتابتين على نسبة واحد فترجح لديهِ ان تلك النقوش هي اسم بطليموس وتأكد ذلك لما رأى اسم بطليموس وارداً في الكتابة اليونانية على الحجر الرشيدي ويقابلهُ في الكتابة الهيروغليفية هناك نقوش محاطة بخط اهليلجي كالنقوش التي على المسلة تماماً فعلى ذلك تكون الصورة الاولى ضمن الخط الاهليلجي تقابل الحرف الاوَّل من بطليموس اي الباء والثانية الحرف الثاني اي الطاء وهلمَّ جرّاً ووجد ايضاً في الكتابة اليونانية اسم كليوبطرا ويقابلهُ في الكتابة المصرية نقوش ضمن خط اهليلجي . فقال شمبوليون بنفسهِ اذا كانت الاولى بطليموس فهذه كليوبطرا واخذ بالمقابلة مستعيناً باللغة القبطية لأنها بقية اللغة المصرية القديمة فرسم امامهُ الشكلين اللذين ظنهما اسمي بطليموس وكليوبطرا وجعل يقابل الاحرف المماثلة في الاسمين كاللام والباء وغيرهما فاذا بها متماثلة تماماً في الشكلين بمواقعها في الاسمين وهاك صورة اسم كليوبطرا و بطليموس في القلم الهيروغليفي

(انظر الشكل الأوَّل والثاني في الصفحة التالية)

(الشكل الاوّل) كلبو بطرا

(الشكل الثاني) بطليموس

فالحرف الاوّل من اسم كلبو بطرا صورة ركبة · واسم الركبة في اللغة القبطية يبتدئ بحرف الكاف فهو حرف الكاف · والحرف الثاني صورة اسد · واسم الاسد يبتدئ في اللغة القبطية بحرف اللام فهو صورة حرف اللام وهو الحرف الرابع في اسم بطليموس لان الثالث بمثابة الحركة · والحرف الثالث من اسم كلبو بطرا صورة قصبة وهو الحرف السادس والسابع في اسم بطليموس فهو بمثابة الالف او الياء واسم القصبة في اللغة القبطية يبتدئ بالالف · والحرف الرابع صورة عقدة وهو حرف الواو · والحرف الخامس مثل الحرف الاوّل من اسم بطليموس فهو حرف الباء · والسادس صورة نسر واسم النسر في القبطية يبتدئ بالالف فهو حرف الالف · والسابع صورة يد واسم اليد في القبطية يبتدئ بحرف الطاء فهو حرف الطاء · والثامن صورة فم واسم الفم في القبطية يبتدئ بحرف الراء فهو حرف الراء · والتاسع تقدم ذكره · والعاشر مثل الثاني في بطليموس فهو طاء او تاء · والحادي عشر لا حرف له باليونانية وقد عرف بعد ذلك انه علامة تلحق آخر الاسماء المؤنثة · وفي اسم بطليموس حرفان هما الخامس والثامن لم يردا في اسم كلبو بطرا فالاوّل هو الميم والثاني هو السين · وعلى هذه الصورة تمكن شمبوليون من معرفة كثير من حروف الهجا وقراءة كثير من الكتابات المصرية القديمة في مدة تسع سنوات كلها بحث وجد · واعلم ان الكتابة الهيروغليفية ليست واحدة فان من صورها ما هو حروف ومنها ما هو مقاطع او كلمات ويبلغ عددها كلها نحو الالف

هذا من قبيل حل الالفاظ اما المعاني فعُرفت بالمقابلة باللغة القبطية وببعض ما كان يكتبه المصريون القدماء من الرموز التي تدل على اشباهها كدلالة صورة الرجل على الرجل وما شاكل ذلك

فترى مما تقدم ان الالف اكثر ورودًا من سائر الحروف الهجائية وتليها الشين ثم الكاف فالميم فاللام فالواو فالراء فالزاي وهكذا كما ترى في الجدول حتى تنتهي الى الياء فهي آخر الحروف واقلها ورودًا

شجرة آدم

(ميت غمر) نجيب افندي شامي الصيدلي

ما هي الشجرة التي اكل منها جدنا آدم في الفردوس وطرد بسببها ويسميها الكتاب المقدس شجرة معرفة الخير والشر ولم يذكر اسمها

(الهلال) ظنها بعضهم شجرة التفاح او غيرها من ذات الثمر اللذيذ ولكن الاغلب ان حكاية تلك الشجرة رمزية يراد بها تمثيل الطاعة وعقاب العصاة فهي لم تقع حسب مفادها الظاهري على اننا لو فرضنا وقوعها لاقتضى ان تكون تلك الشجرة من الاشجار السامة او المسكرة التي تنمو الآن في بعض جهات الهند وافريقيا وعلى كل لا يمكننا الحكم قطعياً في ذلك فان التوراة لم تذكر شيئاً عن اوصافها لا رأساً ولا ضمناً فكل ما يقال عنها انما حدس وتخمين

جيوش الدولة العلية

(المنصورة) محمود افندي صالح

ما هو عدد جيش دولتنا العلية حفظها الله البرية والبحرية في حالتي السلم والحرب وكم هو عدد مدرعاتها الحربية نرجو الافادة ولكم الفضل

(الهلال) يؤخذ من السالنامة العثمانية الصادرة سنة ١٣٠٧ﻫ ومن التقارير الرسمية عن المملكة العثمانية لسنة ١٨٩٢ وغيرها ان الجند العثماني مؤلف من ٦٤٨ طابورًا و ٢٠٠ بلوك وبلوكين من الخيالة و ٢٩ فرقة مهندسين وهاك تفصيل عدد رجالها مع رجال الطوبجية

المشاة	٣٠٠ ر ٥٨٣
السواري	٣٠٠ ر ٥٥ ٠
الطوبجية	٧٣٠ ر ٥٤ ٠
المهندسون	٤٠٠ ر ٧ ٠٠
المجموع	٦٣٠ ر ٧٠٠

أما عدد الاسلحة فعندها من البنادق ٠٠٠ ر ٢٣٠ بندقية ومن المدافع ١٣٥٦ مدفعاً

وتقسم هذه الجنود الى سبعة اقسام يسمى كل منها اوردي وتعرف بالاوردي الاوّل فالثاني الى السابع ويقيم كل اوردي في ولاية من ولايات الدولة العظمى وهاك ترتيبها ومواضعها

الاوردي الاوّل في	الاستانة العلية	الاوردي الخامس في	دمشق
« الثاني «	ادرنه	« السادس «	بغداد
« الثالث «	موناستير	« السابع «	صنعاء
« الرابع «	ارزنجان		

أما القوة البحرية فمجموع رجالها ٣٠٨ قباطين و ٢٨٩ قومنداناً و ٣٢٨ ملازماً و ٠٠٠ ر ٤٠ جندي بحري أما المراكب الحربية فعددها ١٠٧ وهاك تفصيلها

	عدد
مراكب حربية من الصنف الاوّل	٠١
« « « الثاني	٠١
« « للدفاع عن السواحل	٠٧
« « جوّالة من الصنف الاوّل	١٠
« « « « « الثاني	٠٣
« « « « « الثالث	٥٥
زوارق للتوريد من الصنف الاوّل	٠٩
« « « « الثاني	١٥
« « « « الثالث	٠٧
المجموع	١٠٧

هذا ملخص قوة الدولة العلية العثمانية جملة اما مقدار ما يكون منها تحت السلاح في حال السلم فلا يمكن تحديده تماماً لانه يختلف باختلاف الاحوال والاماكن فربما كان المعدل ان يكون ثلثها او ربعها تحت السلاح

عيد رأس السنة

(القاهرة) محمد افندي سليم

بمناسبة ظهور الهلال التاسع في اول سنة ١٨٩٦ نرجو الافادة عن تاريخ احتفال الناس بعيد رأس السنة وهل هو قديم او حديث ولكم الفضل

(الهلال) ان الاحتفال بعيد رأس السنة قديم ومن اقدم المحتفلين به اليهود واول السنة عندهم اول شهر تشري ومن أسباب ذلك الاحتفال اعتقاد بعضهم انه اليوم الذي خلق فيه آدم وكانوا يسمونه يوم الابواق او تذكار الابواق والسبب في هذه التسمية انهم كانوا ينفخون الابواق فيه ويظن انهم بدأوا بهذا الاحتفال سنة ١٤٩١ ق م · وكان الرومانيون يحتفلون برأس السنة احتفالاً عظيماً يقدمون فيه الضحايا للاله يانوس ويتبادلون فيه التحيات ومراسم المعايدة ويقدمون التقدمات والهدايا وكانوا يعتبرون نجاح اعمالهم في يوم رأس السنة بركة وفوزاً عظيماً

واول من احتفل به منهم نوما بومبيليوس في اول يناير سنة ٧١٢ ق م ويقول نونيوس مارسلوس ان الرومانيين اقتبسوا هذه العادة من جيرانهم الصابيين وان اول من وضعها طيطوس طاتيوس ملك صابينا وذلك ان بعضهم قدم اليه في رأس سنة ٧٤٧ ق م اغصاناً مقطوعة من شجرة مكرسة للالهة ستربنا الهة القوة عندهم فتفاءل بها خيراً فأمر ان تتبع هذه العادة بعد ذلك وسميت تلك التقدمات ستربنا باسم تلك الالهة ولعل كلمة بستربنة التي يستعملها السوريون اسماً لهدايا رأس السنة مأخوذة من هذا الاسم · وكان البريطانيون وهم سكان بلاد الانكليز قديماً يحتفل كهنتهم (الدرويد) في اول السنة بتفريق اغصان شجرة مقدسة عندهم · وكان المصريون القدماء يحتفلون برأس السنة احتفالاً عظيماً وربما كانوا اسبق الى هذا الاحتفال من اليهود ولعل موسى اخذ تلك العادة عنهم كما اخذ غيرها من العوائد

وكان المسيحيون في القرون الاولى للميلاد يحرّمون هذا الاحتفال لاعتبارهم

أرمانوسة المصرية (تابع ما قبله)

الفصل السابع عشر

البحث عن قسطنطين

ثم تذكرت بربارة ما سمعته من ذلك الشيخ عن قتل قسطنطين فهرولت الى سيدتها وعلى وجهها امارات الانبساط وقالت تذكرت امرًا ذا شأن كان يجب ان اطلعك عليه قبل كل شيء ولا ادري كيف نسيته قالت وما هو . قالت سمعت ان قسطنطين قد قتل في حربه مع العرب في الشام

فلما سمعت ارمانوسة الخبر خفق قلبها له سرورًا وقالت ما ذا تقولين يا بربارة قالت سمعت ذلك يا سيدتي من الشيخ الذي بتنا عنده في عين شمس ولكنه قال انه لم يتحقق الخبر

فرفعت أرمانوسة يديها نحو السماء قائلة لا اريد بأحد سوءًا يا ربّاه ولكن لا بد لاحدنا من الموت حتى لا نجتمع فان كنت قد قضيت على قسطنطين فلتكن ارادتك ثم عادت الى بربارة وقالت لها وهل يمكننا ان نحقق ذلك فان تحققه يهمنا كثيرًا

قالت ليس لنا يا مولاتي الاّ ان نبعث رسولاً الى الشام يتجسس الخبر و ينبئنا

قالت هلمّ فلنبعث احدًا ومن تظنين اهلاً لذلك فاطرقت بربارة برهة ثم قالت ارى ان نبعث مرقس فانه شهمٌ مقدام ولنا عليه منة لاننا انقذنا له خطيبته من القتل فاذا عاد وقد نال مرامه بعثنا به يستطلع الحقيقة واظنه افضل رجل يمكننا الاعتماد عليه في هذه المهمة

قالت قد اصبتِ المرمى ولكن متى يعود قالت اظنه يعود غدًا قالت فاذا عاد كلفيه بذلك لعله يزيل عنا هذا العناء فتكون خدمته هذه مثل خدمتنا له

قالت حسنًا . ثم تذكرت كتاب البطريرك بنيامين الى المقوقس وانه لا يزال معها فقالت وقد نسيت شيئًا آخر لا ادري ما انسانيه

قالت وما ذلك قالت هذا الكتاب واستخرجت الملف من جيبها فتناولته أرمانوسة وفضته وقرأت ما فيه وقالت وهذا يجب ايصاله الى والدي سريعًا فما العمل فقالت

تبعثه مع جرجس فاني قد اختبرت صداقته ايضاً ولكنه ذهب مع رفيقو لانقاذ مارية

قالت حالما يعود ارسليه بالكتاب ولا تبطئي

قالت حسناً و باتوا تلك الليلة يفكرون في هذه الامور فلما اصبح الصباح التالي لبثوا ينتظرون رجوع الرجلين و في القاهرة كانت بربارة وسيدتها مطلتين من نافذة القصر تنظران الى جهة الطريق فشاهدتا المركبة وعليها الرجلان والعلم و بعد قليل وقفت المركبة بازاء القصر فنزلت بربارة واستقبلتهما وسألتهما عما كان فاخبراها بنجاة الفتاة من مخالب الموت وقال مرقس اني غريق افضالك وافضال مولاتنا ارمانوسة ولا ادري كيف اكافئها على هذه المنة فلم اكد اصدق اني رأيت مارية حية

فقالت بربارة هل انت مصمم على المكافأة

قال نعم اني مصمم من كل قلبي

قالت تمهل قليلاً فأخبرك وانت يا جرجس تعال معي فتبعها حتى اذا خلت به في غرفة من غرف القصر قالت له اتحب مولانا المقوقس قال نعم والله يشهد بذلك وانت تعلمين

قالت هل عندك للسرّ مكان

قال وهذا أمر لا تجهلينه ايضاً

قالت خذ هذا الكتاب وناولته الملف فتناوله فقالت هذا كتاب سريّ عليك الاحتفاظ به جيداً ونطلب اليك مولاتي ارمانوسة ان تخفيه بين اثوابك وتحمله الى والدها في حصن بابل وتدفعه اليه بغيران يشعر بك احد فهل تستطيع ذلك

فامسك جرجس الكتاب وقبله وقال عليّ القيام بامرك وليكن قلبك مطمئناً فان الكتاب سيكون بين يدي سيدي المقوقس غداً ان شاء الله

فقالت احذر ان ينكشف أمرهُ فان انكشافه يكون سبباً لهلاكنا جميعاً افهمت ما أقوله لك

قال نعم يا سيدتي قد فهمته جيداً وهل اذهب الآن قالت خير البر عاجله ولكن احذر يا جرجس ان يطلع احدٌ على هذا السر

فطأطأ وخرج وقد اخفى الكتاب تحت خوذته وتقلد سيفه وقوسه وسار يريد حصن بابل

أما بربارة فنادت مرقس وأجلسته في غرفة بالقرب من غرفة مولاتها ثم دخلت الى مولاتها وأخبرتها بما فعلت بشأن الكتاب ثم قالت وهذا مرقس بنتظر أمرك

قالت اريد ان يذهب حالاً الى الشام فاذا لاقى في طريقهِ احداً يستطلعهُ الخبر فليعد الينا حالاً والاَّ فليصل الى بيت المقدس فان العرب الآن في طريقهم من بيت المقدس الى هنا فلعلهُ يظفر بهم في الطريق او يواصل السير الى هناك

فخرجت بربارة ونادت مرقس فاسرع اليها فدخلت بهِ على ارمانوسة فقبل الارض بين يديها وتأدب في الوقوف فاذنت لهُ بالجلوس فجلس مطرقاً احتراماً

فقالت لهُ بربارة اتذكر يا مرقس ان شيخ عين شمس اخبرنا بقتل قسطنطين ابن هرقل

قال نعم يا مولاتي واذكر انهُ لم يتحقق الخبر

قالت صدقت ومرادنا الآن تحقق هذا الخبر على يدك لانهُ يهمنا كثيراً فهل تستطيع القيام بهذه الخدمة من اجل مولاتنا

فوقف مرقس وحنى رأسهُ مطيعاً وهمَّ الى خوذتهِ ليضعها على رأسهِ ويخرج فقالت وما ذا تفعل قال اني ذاهب لقضاء هذه الحاجة

قالت بورك فيك ايها الشاب وقد اعجبني مبادرتك ولك عليَّ ان احمي مارية من عدوها اثناء غيابك فسر بحراسة الله ولكن احذر ان يطلع احد على سبب ذهابك وما انت ذاهب من اجلهِ فانك اذا اطلعت احداً عليهِ وقع عليك غضب مولاتنا وانت تعلم ما ذا تكون النتيجة

قال سمعاً وطاعة وخرج يدبر وسيلة يسير بها ولكنهُ ما لبث ان خرج حتى ادرك خطارة تلك المهمة لانهُ سيسير منفرداً الى ارض عدوهم وهو لا يعرف لغة العرب ولا يفهم كلامهم ولا شيئاً من احوالهم ولكنهُ صمم على تنفيذ الامر قياماً بواجب الخدمة نحو من كانت السبب في انقاذ حبيبتهِ من القتل

فمكث بقية ذلك اليوم في بلبيس يفكر في ذلك حتى امسى المساء فذهب لوداع بربارة فحالما رأتهُ بشت لهُ وسألتهُ عما فعلهُ فقال ها اني ذاهب الليلة

قالت لا أرى ان تسير ليلاً خوفاً عليك من خطر الطريق ولكنني قد تذكرت شيئاً اقولهُ لك واظنهُ يساعدك كثيراً في اتمام هذا المشروع

قال وما هو قالت ارى ان تستحضر ثوبًا مثل اثواب العرب لانك اذا التقيت بهم وانت بهذا اللباس قتلوك

فقال ولكن لا اعرف ما هو لباسهم وانا لا اذكر اني شاهدت احدًا منهم الى الآن

قالت انا اعرف لباسهم لاني شاهدت عربياً جاء مرة الى سيدي المقوقس بكتاب وكان ملتحفًا شملة بيضاء وعلى رأسهِ عمامة من نسج تلك الشملة

فعليك بثوب من نسج القطن الابيض او من القباطي [1] وهو كثير عندنا وانا اصنعهُ لك ثوبًا واعلمك كيف تلف العمامة

قال فأْذني لي بالذهاب الآن لاستحضاره فاذنت لهُ فخرج وقد ازداد تهيبهُ لذلك السفر وخاف ان يقتل اولا يرجع الى حبيبتهِ ولا يراها فرأى ان يغتنم تلك الفرصة لوداعها فسار مسرعًا الى القرية وكان قد برح مارية رغماً عنهُ ليلاقي بربارة ويشكرها على صنيعها ويسلم المركبة اليها وكانت مارية تنتظر عودتهُ حالاً فلما ابطأَ انشغل بالها عليهِ وقلق والداها لغيابهِ فلما امسى المساء انقبضت نفس الفتاة وجعلت تتردد الى باب الدار وتطل على الطريق وتستشرف المارة لعلها تراه قادمًا وكلما رأت شبحًا ظنتهُ هو وفيما هي في ذلك رأت رجلاً مسرعًا نحو الباب فعرفت من حركاتهِ انهُ هو فدخلت واخبرت والديها ففرحا كثيرًا وخرجوا لاستقبالهِ فلما وصل ضمَّ والداها وقبلاه أما الفتاة فبقيت واقفة مطرقة وقلبها يختلج فرحًا فحوَّل وجههُ نحوها وحياها فمدت يدها فسلما فاحس يدها باردة كالثلج فشعر كل منهما بقشعريرة الحب أما هو فتذكر ما جاء من اجلهِ واضطراره الى الرجوع حالاً فانقبضت نفسهُ ولكنهُ تجلد واظهر الانبساط فدخل الجميع الى غرفة الاستقبال وهم يترحبون بمرقس ويبالغون في مدحه والثناء على شهامتهِ لما اتاه من الهمة في انقاذ مارية وهو لا يجيبهم خجلاً فلما اكثروا من المدح التفت اليهم قائلاً ولكن يجب علينا جميعًا ان نشكر الذي كان السبب الحقيقي في هذا الخير

فقالوا ومن هو حتى نذهب اليهِ ونشكره ونقدم انفسنا عبيدًا لهُ

قال وما ذا يستحق ذلك الفاعل عندكم

فاجابوا جميعًا بصوت واحد يستحق كل خير وامره علينا لا مرد لهُ

(١) العقد الفريد والقاموس

قال ان السبب في ذلك الخبر انما هي مولاتنا ارمانوسة ابنة مولانا المقوقس فما قولكم

فصاحوا بصوت واحد لتحيى ارمانوسة وهذه لا يمكنا مكافاتها لانها لا تحتاج الينا في شيء وعندها من الخدم مئات مثلنا

فقال ولكن هبوا انها احتاجت الى احدنا بخدمة فهل تقضيها لها

قال الوالد نعم هذا فرض واجب ولو الى القتل

فقال اذاً لا تستعظموا الخبر فقد كلفتني قضاء حاجة بعيدة الشقة وانا على يقين ان كثيرين غيري يودون ان تكلفهم اية خدمة كانت ابتغاء مرضاتها لانها ابنة الوالي الاكبر وزمام والدها بين يديها واقتراحها عنده لا يرد فاذا قضيت لها هذه الخدمة لا اظنها الاَّ تسعى امامه في ترقيتي وربما انعمت عليَّ انعاماً يريحني من شقاء الخدمة العسكرية

وقد اراد بذلك ان يهوّن عليهم امر ذهابه ويرغبهم فيه ولكنهم بهتوا وامتقع لون مارية خوفاً على حبيبها من طول الغياب بعد ان كانت ترجو بقاءه عندهم هذه المرة اياماً اوربما يبقى دائماً فارادت منعهُ عن السفر ولكنها رأت في ذلك جرأة غير محمودة فضلاً عما عاينتهُ من استحسان والديها للقيام بخدمة ارمانوسة فصمتت

أما الوالد فقال وما هي هذه المهمة قال الى مكان بعيد لا اقدر ان اذكره لكم لاني عاهدت ارمانوسة ان لا ابوح بهِ الى احد ولكنكم ستعرفونهُ بعد عودتي ان شاء الله تعالى فاطلب اليكم ان تصلوا وتطلبوا الى الله ان يأخذ بيدي

فجعل كل منهم ينذر نذراً لدير من الديور ولم يعرف الواحد ما نذره الآخر

وبقي مرقس برهة هناك وقد نسي ما جاء من اجلهِ ثم هبَّ بغتة وودعهم جميعاً وخصوصاً مارية فانهُ شدَّ على يدها عند الوداع كثيراً فتناثرت الدموع من عينيها واما هو فتجلد وقبل ايدي الوالدين وخرج وعيونهم تتبعهُ ولكن الظلام حال بينهم وبينهُ

فسار تواً الى مكان يعرفهُ فابتاع قطعة من القباطي وقصد بلبيس ماشياً

وكانت بربارة قد استبطأتهُ وشغل بالها عليهِ فخافت ان يذهب قبل الاستعداد وفيما هي جالسة الى سيدتها وقد مضى هزيع من الليل اذ جاءها بعض خدم القصر ينبئونها بقدومهِ فنزلت واستطلعتهُ الخبر فاراد التظاهر بحيلة ثم حدثتهُ نفسهُ ان

لا يلوث ضميره بالكذب وهو سائر الى غربة وخطر فاخبرها بجلية الخبر فعذرته ولكنها قالت له اعلم ان نيل خطيبتك معقود بتنفيذ هذه المهمة واخذت الثوب منه فقصت منه قطعة جعلتها مثل العامة وصنعت القطعة الاخرى على مثال الشملة والبسته اياها وقالت له فلتكن هذه الثياب معك مطوية حتى تدرك مكان العرب فتخلع لباسك هذا وتلبسها اما اذا لبستها منذ الآن فتكون في خطر من جندنا و ربما انكشف امرك

قال ولكن ربما سئلت في الطريق عن سبب سفري وعليّ لباس الجند فماذا اجيب

قالت قل انك ذاهب بأمر من السيدة ارمانوسة الى حاكم الفرما وهي في حدود مصر شرقًا فاذا تجاوزت الفرما قليلاً دخلت حدود الشام فاذا التقيت بالعرب وتمكنت من طريقة لاستطلاع حالهم فافعل اما خبر قسطنطين فائتنا اليه حالاً

الفصل الثامن عشر

الطريق يوقنا

فودعها ومضى فبات تلك الليلة في مكان بالقرب من بلبيس استعدادًا للسفر باكرًا فلما طلع الفجر نهض وسار ماشيًا وقد حمل ثياب البدو مطوية ومعها بعض الزاد الجاف ليغتذي به اذا جاع وفيه تمر جاف و بعض الخبز المجفف

فقضى سحابة ذلك النهار و بعض ليله فبات في بعض القرى و بكر في الغداة وما زال حتى امسى عليه المساء وقد علم انه على مقربة من الفرما . فتردد بين ان يبيت تلك الليلة هناك ثم يصابح البلدة او ان يواصل السير حتى يصلها فجلس تحت ظل نخلة يتناول بعض الثمر من جرابه فلاحت منه التفاتة في عرض تلك الصحراء فاذا بنار تضيء فقال في نفسه ما ذا عسى ان تكون تلك النار وجعل يفكر في امرها فقال في نفسه ربما كانت نيران بعض اهل هذه الناحية فلعلي اذا ذهبت اليهم ان اسمع منهم خبرًا او ابيت عندهم الليلة فنهض وقصد تلك النار وهو يحسبها قريبة ولكنه مشى ساعة وهي لا تقترب الا قليلاً وقد خيم الليل وهدأ الجو واستولى السكوت على تلك الانحاء فخاف ان يعترضه ذئب او ضبع في ذلك الخلاء فيفترسه

ولكنه تشدد وواصل السير ولم يسر الاَّ قليلاً حتى سمع صوتًا استغربه وهو صوت حيوان لم يذكر انه سمعه قبلاً فخاف ان يكون صوت بعض الوحوش الضاربة فوقف صامتًا والتجأ الى ظل شجرة من السنط فاذا بالصوت قد انقطع ثم عاد فسمعه فاخذ يمعن بنظره الى جهة الصوت وهو يجتهد ان يميزه لعله يعرف نوع ذلك الحيوان فلم يتفقه له قط وفيما هو يرسل نظره في عرض الصحراء لاح له شبح هائل عن بعد فدنا من الشجرة وتوسد الرمال هناك وجعل يتأمل ذلك الشبح من خلال الافق فاذا هو فارس راكب حيوانًا غير الجواد طويل العنق لا يسمع لوقع اقدامه صوت فكاد لاول وهلة يظنه زرافة لانه رآها في حديقة المقوقس في منف ولكنه لا يعهدها تصلح للركوب فتربص برهة واذا بالفارس يقترب من تلك الناحية وظهر من جهة قدومه انه آتٍ من مكان تلك النار وكان سيره حثيثًا فما عتم ان وصل الى تلك الشجرة ومرقس لا يزال متوسدًا الرمال ولم يكن يريد النهوض ظنًا منه ان الفارس يمرّ ولا يراه فاذا به قد ناداه عن بعد بلسان الروم قائلاً من الرجل

فلم يرَ مرقس بدًا من الاجابة وخصوصًا لما سمعه يخاطبه باللغة اليونانية وكان يعرفها جيدًا فنهض وقال جندي ومن انت قال وانا كذلك ثم سمعه ينخ مركبه بصوت الشخير واذا بالحيوان قد توسد الارض جثوًا واخذ بالجعير فتأمله فاذا هو الهجين ولم يكن رآه الاَّ قليلاً لان الهجن والجمال لم يكن يعرفها المصريون ولا رأوها الاَّ مع العرب اذا جاؤا مصر في قوافلهم وقدوم القوافل الى منف نادر ولكن مرقس شاهد الهجين مرة وقد جاء عليه رسول بكتاب من بلاد العرب الى المقوقس. فلما شاهد هذا الرجل قادمًا على الهجين علم انه آتٍ من معسكر العرب ولكنه عجب لتكلمه اللغة الرومية فأوجس خيفة فأعد خنجره للدفاع اذا اقتضت الحال ثم رأى الرجل قد شد حبلاً عند ثني ركبة الهجين ومشى نحوه فناداه قف عندك وقل من انت قبل ان تقرب. فقال اذا كنت من جند الروم بمصر لا تخف فاني ايضًا من جندهم في بلاد الشام واقسم له بالمسيح والقديسين انه لا يؤذيه فدنا منه مرقس وهو لا يزال يحاذر فاذا هو بلباس الجند الروماني ولكنه ما لبث مرتابًا بامره لركوبه الهجين فقال له ولكن كيف تقول انك روماني واراك راكبًا هجينًا قال سأقص عليك خبري متى جلسنا فدنا منه ولم يستطع تمييزه جيدًا لشدة الظلام ولكنه تحقق من ملامحه انه روماني

وخصوصاً لما رأى لباسه وسمع كلامه

فلما اقتربا سلما فسأله مرقس ما اسمك وما خبرك اني لا ازل مستغرباً ركوبك الهجين وهو خاص بالعرب ولم يدخل بلادنا الا قليلاً وانت من جند الروم ولسانك يشهد عليك

فامسكه بيده وجلسا على حجر وقال له اما اسمي فهو بروفس واما جندي من جنود البطريق يوقنا عامل الروم على حلب الشهباء واما ركوبي الجمل فهو حادث عن اسباب سأقصها عليك متى اخبرتني من انت

قال اني رسول من مولاي المقوقس ذاهب الى الفرما بمهمة خصوصية

قال ألعلك جاسوس

قال لا ولكني رسول كما اخبرتك

قال لا فرق عندي مهما كانت مهمتك ويكفيني انك من جند الروم واشكر الله اني التقيت بك هنا فاستفيد منك اموراً قد تكفيني مؤونة المسير الى بلبيس

قال ولذلك كنت ذاهباً اليها

قال نعم كنت ذاهباً اليها برسالة الى ارمانوسة بنت المقوقس

فلما سمع اسم ارمانوسة استأنس بالرجل واستبشر بالخير فقال ومن ارسلك اليها بهذه الرسالة فانك قد وقعت على خبير لان ارمانوسة سيدتي وقد كنت عندها اول البارحة فما غرضك منها

قال أما مرسلي فالبطريق يوقنا صاحب حلب وهو الآن في هذا المعسكر عند هذه النار واما رسالتي فهي على نوع ما خصوصية لا علاقة لها بالحرب

قال وما الذي جاء بكم الى هنا وانتم من حامية حلب

قال لما استولى العرب على حلب اخرجونا منها فالتقى سيدي بقسطنطين بن الامبراطور وهو في قيسارية (1) فبعث به مع جماعة من جنده حتى يحمل اليه ارمانوسة لأنها مخطوبة له

فقال واين قسطنطين الآن قال هو قادم في بحر الروم بمراكبه وسترسو عند دمياط حيث يكون في انتظارنا لنحمل خطيبته الى القسطنطينية

(1) الواقدي

« ستأتي البقية »

الهلال

الجزء العاشر من السنة الرابعة

(١٥ يناير (ك ٢) سنة ١٨٩٦) (٣٠ رجب سنة ١٣١٣) (٧ طوبه سنة ١٦١٢)

باب أشهر الحوادث وأعظم الرجال



بطرس البستاني

بطرس البستاني

أحد أركان النهضة العلمية الأخيرة في بلاد الشام

(ولد سنة ١٨١٩ وتوفي سنة ١٨٨٣)

في أقليم الخروب من قضاء الشوف في جبل لبنان قرية صغيرة على مسافة ثلث ساعة من دير القمر وثلاث ساعات من صيدا وسبع ساعات من بيروت يقال لها الدبيّة عدد سكانها خمسمائة نفس من طائفة الموارنة وقليل من البروتستانت نشأ فيها غير واحد من مشاهير اللبنانيين اكثرهم من آل البستاني أشهرهم المرحوم المطران عبد الله البستاني والمطران بطرس البستاني والمعلم بطرس البستاني صاحب الترجمة وقد اقتطفنا ترجمة حياته مما كتبته جرائد الشام على اثر وفاته وأثبتته دائرة المعارف في جزئها السابع ومما عرفناه بأنفسنا من آثار اجتهاده وفضله

(١) تاريخ حياته

هو بطرس بن بولس بن عبد الله بن كرم بن شديد بن ابي شديد بن محفوظ بن ابي محفوظ بن البستاني من اعيان الطائفة المارونية ولد في الدبية عام ١٨١٩ في عهد امارة الأمير بشير الشهابي الكبير في جبل لبنان وظهرت عليه مخائل النجابة والذكاء منذ نعومة اظفاره فاخذ في تلقي مبادئ العربية والسريانية على المرحوم الخوري مخائيل البستاني وكان المرحوم المطران عبد الله البستاني اذ ذاك مطرانًا على صور وصيدا وكان يقيم في بيت الدين فتبنى اليوان هذا الغلام وسميّه ابن الخوري يوسف البستاني (المطران بطرس البستاني الآن) قد تفردا بالذكاء والفطنة والاجتهاد بين اقرانهما فاستقدمهما اليه ثم بعثهما الى مدرسة عين ورقة بلبنان فقضيا فيها عشر سنوات حتى اتقنا آداب اللغة العربية مما تيسر الحصول عليه اذ ذاك كقواعد اللغة والمنطق والتاريخ والحساب والجغرافية وتناولا اللغات السريانية واللاتينية والايطالية وتلقيا الفلسفة واللاهوت الادبي والنظري ومبادئ الحق القانوني وكان صاحب الترجمة قد بلغ العشرين من سنه فاراد غبطة بطريرك الطائفة المارونية اذ ذاك ارساله مع رفيقه الى رومية للتبحر في العلوم الدينية وكان والده قد توفي وابنه هذا لم يتجاوز الخامسة من عمره وكان له ولدان آخران فلما احب البطريرك ارساله الى رومية لم تقبل والدته

بابعاده فتعين مدرساً في مدرسة عين ورقة مشمولاً بانظار البطريرك وكان البطريرك يعهد اليه قضاء بعض المصالح العامة الى سنة ١٨٤٠ وكانت حال الجبل في اضطراب لما كان في نفس الدولة العلية على الامير بشير وابراهيم باشا وكانت الدول الافرنجية قد بعثت مراكبها الى سواحل سوريا تعين الباب العالي على اخراج ابراهيم باشا منها وكان صاحب الترجمة قد درس اللغة الانكليزية في بيروت اثناء اقامته بمدرسة عين ورقة وبعدها فاستخدمه الانكليز للترجمة . وكان دعاة المذهب الانجيلي من الاميركان قد اخذوا في الاقامة ببيروت للتعليم ونشر مذهبهم فتعرف ببعضهم وجعل يختلف اليهم يعلمهم اللغة العربية ويعرّب لهم بعض الكتب حتى تمكنت علائق المودة بينه وبينهم ووافقهم على مذهبهم

وفي سنة ١٨٤٦ عزم استاذنا الخطير المرحوم الدكتور فان ديك على انشاء مدرسة عبيه فاستعان بصاحب الترجمة في انشائها فتولى التعليم فيها عامين ألف في اثنائها كتاباً مطولاً في علم الحساب سماه كشف الحجاب طبع مراراً عديدة وذاع استعماله في سائر مدارس سوريا

ثم قدم بيروت وتولى منصب الترجمة في قنصلية اميركا مع مباشرة التأليف والترجمة والوعظ والخطابة ودرس في اثناء ذلك او قبله اللغة العبرانية واليونانية وكان المرحوم الدكتور عالي سميث الاميركاني قد باشر ترجمة التوراة الى العربية فاستعان بصاحب الترجمة على ترجمتها ولكن الاجل عاجل الدكتور سميث فاتم الترجمة المرحوم الدكتور فان ديك وهي الترجمة الاميركانية المشهورة اما المعلم بطرس فانه شرع في تأليف قاموسه محيط المحيط

وفي سنة ١٨٦٠ نشر نشرة سماها نفير سوريا وهي أقدم نشرة عربية في سوريا وإذا جاز لنا ان نسميها جريدة فالبستاني اوّل من انشأ جريدة عربية غير رسمية بين قرّاء اللغة العربية

وفي عام ١٨٦٣ انشأ في بيروت مدرسة عالية سماها « المدرسة الوطنية » اسسها على الحرية الدينية ومبادئ الجامعة الوطنية العثمانية فتقاطر اليها الطلبة من سائر انحاء الشام ومصر والاستانة وبلاد اليونان والعراق وغيرها فذاع صيتها في الآفاق وظهر فضلها على رؤوس الاشهاد فانعمت عليه الحضرة السلطانية بنيشان عال تنشيطاً له

ومكافأةً لخدمتهِ وقد تولى ولده المرحوم سليم البستاني نيابة رئاسة المدرسة وكان متضلعاً في العلوم الحديثة فكان يدرّس التاريخ والطبيعيات والصف الاوّل في اللغة الانكليزية وكان والده رحمهُ الله يلقي على التلامذة الخطب والمواعظ مرّتين في الاسبوع

وفي سنة ١٨٦٩ فرغ من تأليف قاموسهِ محيط المحيط وقد أخذه عن اشهر متون اللغة ولا سيما الفيروزابادي ولكنهُ يمتاز عنها كلها بما يأتي (١) انهُ رتبهُ على حروف المعجم باعتبار الحرف الاوّل من الثلاثي المجرّد (٢) جمع فيهِ كثيراً من الالفاظ العامية وفسرها بالالفاظ الفصحى (٣) انهُ اوضح كثيراً من اصول الالفاظ الاعجمية كان اصلها مجهولاً او مهملاً (٤) انهُ ادخل فيهِ كثيراً من الاصطلاحات التي حدثت في اللغة بحدوث العلوم الحديثة المنقولة عن اللغات الاعجمية فضلاً عن بسط عبارتهِ وسهولتها فجاء كتاباً وافياً بغرض طلاب اللغة العربية تفهمهُ العامة وترضى بهِ الخاصة طبعهُ في مجلدين كبيرين واستخرج منهُ مختصراً سماه قطر المحيط اصغر منهُ حجماً خصصهُ لتلامذة المدارس فشاع استعمال الكتابين في سائر انحاء سوريا وغيرها ·

فلما تمّ طبعهما رفع نسخةً من محيط المحيط الى الحضرة الشاهانية ونسخةً الى الصدارة العظمى واخرى الى نظارة المعارف بالآستانة فوقع عملهُ هذا موقع الاستحسان فاجازتهُ الحضرة السلطانية بالجائزة الاولى التي ينالها المؤلفون وهي النيشان المجيدي من الدرجة الثالثة ووهبتهُ مائتين وخمسين ليرة عثمانية وترى في صدر هذا الهلال رسم البستاني والنيشان المشار اليهِ معلق في اعلى صدره

وفي اوّل عام سنة ١٨٧٠ انشأ مجلة علمية ادبية سياسية سماها الجنان وعهد بادارتها وانشائها في بادئ الامر الى نجلهِ المرحوم سليم البستاني وفي اواسط ذلك العام انشأ صحيفة سياسية سماها الجنة فهي من اقدم الجرائد السياسية العربية ببلاد الشام ثم اصدر جريدة الجنينة والجرائد الثلاث المشار اليها لا تصدر الآن

ووعد في آخر قاموسهِ بتأليف قاموس للاعلام اي مشاهير الناس ولكنهُ رأى بعدئذٍ ان يتوسع في مشروعهِ هذا فعوّل على تأليف قاموس شامل لسائر العلوم على اختلاف مواضيعها وازمانها فشرع فيهِ عام ١٨٧٥ بمعاونة بهِ ولده سليم وبعض الكتّاب وسماه «دائرة المعارف» وهو كتاب فريد لم ينسج على منوالهِ في اللغة العربية

فاصدر منهُ رحمهُ الله ستة مجلدات وتوفي وهو في بدءِ السابع وصدر منهُ بعد وفاتهِ السابع والثامن والتاسع وحالت دون اتمام العمل موانع أدت الى تأجيلهِ مدة ولكننا نرجو من حضرات انجالهِ الكرام بلسان قرَّاء العربية ان لا يحرمونا من فوائد هذا المؤلف المفيد وخير الاعمال بالاكمال · وكانت وفاتهُ في اوَّل ايار (مايو) سنة ١٨٨٣ فجأةً بعلة في القلب فطار خبر منعاه في البلاد فاهتزت لهُ انحاء سوريا لان بفقده فقد الوطن السوري ركنًا من اقوى اركانهِ في نهضتهِ الاخيرة فبكاهُ الاهل والاصدقاء وأبَّنهُ الخطباء والعلماء ورثاه الكتَّاب والشعراء رحمهُ الله وجعل الجنة مثواه

(٢) مآثرهُ وأعمالهُ

نبغ البستاني في سوريا والعلم لا يزال طفلاً في مهدهِ فاخذ في التعليم والتهذيب علمًا وعملاً فألف الكتب وأنشأ المدارس والجرائد فهو اوَّل من انشأ مجلة علمية وجريدة سياسية ومدرسة وطنية وأوَّل من اقدم على المشروعات الادبية بعزم ثابت فألف الكتب وسهل طبعها ونشرها واشهر مؤلفاتهِ دائرة المعارف ومحيط المحيط وقطر المحيط وكشف الحجاب ومسك الدفاتر ومصباح المصباح في الصرف والنحو وكتب اخرى ورسائل عديدة للتثقيف والتهذيب فضلاً عن ترجمة الكتب الدينية والادبية وانشأ ثلاث جرائد الجنان والجنة والجنينة ومن مشروعاتهِ المدرسة الوطنية وقد رأس مدرسة الاحد في بيروت خمس عشرة سنة وترجم لها عدة رسائل دينية دعا فيها الى تربية الاولاد والامساك عن المسكرات وسنَّ قانونًا للمدرسة الداوودية التي انشأها المرحوم داود باشا وكان كثير الحث على تعليم النساء وهو اوَّل من خطب في هذا الموضوع بالشرق ولهُ خطب كثيرة تلاها على منابر بيروت وفي جمعياتها ومقالات جمة نشرها في جرائدهِ كلها فوائد · وقد وصفنا كتبهُ في اثناء ترجمة حياتهِ

(٣) صفاتهُ وأخلاقهُ

كان ربعة مع ميل الى الطول ممتلىء الجسم سمينًا قوي البنية ولولا ذلك ما استطاع القيام بما عني بهِ من المشروعات العقلية والادارية وكان حازمًا نشيطًا لا يفتر عن التفكر في مشروع يشرع فيهِ او عمل يعملهُ لخدمة وطنهِ فاذا بدأ بعمل اكبَّ عليهِ بكليتهِ مواصلاً العمل للقيام بهِ وكانوا اذا افتقدوهُ ليلاً اونهارًا عثروا عليهِ في مكتبهِ بين كتبهِ واوراقهِ وكان ثابت الجنان قادرًا على الاعمال لا يأخذهُ ملل ولا ضجر مع

ما يعترض المشروعات العلمية والادبية في بلادنا من العقبات مما يثبط العزيمة ويضعف العزم وخصوصًا في ايامهِ فقد نبغ في عصر لم تتوفر فيهِ معدات الطبع والنشر ولا اعتاد فيهِ الناس مطالعة الجرائد والاقبال على المؤلفات ومع ذلك فانهُ عمل اعمالاً يقصر على القيام بها عدة من الرجال الاقوياء فكان يؤلف ويعلم ويترجم ويدير اعمالهُ ويكاتب عمالهُ واصدقاءهُ ويضبط حساباتهِ ويدير مدرستهُ علمًا وعملاً فضلاً عما كان يقوم بهِ من المساعدات الادبية لمن يقصدهُ من المستشيرين والمستعينين فيقضي حاجاتهم ويحضر اجتماعات الجمعيات ويقدم الخطب والمواعظ وهو مع ذلك يستقبل الزائرين بوجه باش فلا يرجع احدهم من بين يديهِ الاَّ شاكرًا حامدًا معجبًا بلطفهِ وغيرتهِ

وكان مخلص الطوية دمث الاخلاق لين العريكة صادق النية محبًا لوطنهِ ودولتهِ كريم الخلق بعيدًا عن التعصب كارهًا للتمليق والرياء وكان سخيًا ولا سيما على المشروعات الادبية بسيط المعشر سهل المعاملة حسن المحاضرة يسترضي جليسهُ شابًا كان او شيخًا ويخاطب كلاً بما يناسب ذوقهُ واخلاقهُ . وكان يعتقد ان المصالح العامة اساس كل تقدم فيبذل قصارى جهدهِ في تأييدها وتنشيطها متخذًا الصدق شعارًا والنشاط عمادًا

وكان مع ذلك رفيع الجناب وقورًا محترمًا لم يجالسهُ احد الاَّ خرج وفي نفسهِ انعطاف اليهِ وفي قلبهِ احترام لهُ فكان حيثما ذكر اسمهُ قرن بالمدح والثناء والتجلة والوقار فنال مقامًا رفيعًا في نفوس ذوي الوجاهة والمقامات الرفيعة واهل الفضل على اختلاف مذاهبهم ونزعاتهم . وكان من اشدهم صداقة لهُ استاذنا الخطير المرحوم الدكتور كرنيليوس فان ديك فقد ساكنهُ وآكلهُ وشاربهُ زمنًا طويلاً كانا معًا اخوين متصافيين ونعم الاخوين فلما توفي صاحب الترجمة رثاه الاستاذ بلسان الصديق وبكاه بدموع الاخ الشقيق ومما قالهُ وقد وقف لتأبينهِ في الكنيسة قولهُ

« ان لم يكن لك في نقد الرجال يد   انظر الى الموت كيف الموت ينتقد
يدور في الارض حول الناس ملتمسًا   كريم قوم ولا يرضى الذي يجد

« هذه مصيبتنا انهُ لا يرضى بما يجد ولو رضي لقدمنا لهُ بدل الواحد عشرة ولكنهُ ينتقي من الغابات اعلى ارزها ومن المروج ازكى رياحينها

« اني لمظلوم بوقوفي في هذا اليوم خطيبًا لان المقام الذي يليق بي وارغب فيهِ

انما هو ان اقوم في وسطكم باكيًا نائحًا على اخي وحبيبي الذي خلف من بيننا خلفًا بل هو معلمي واستاذي و رفيقي فكم حيينا من الليالي معًا في الدرس والمطالعة والتأليف وحلاوة المعاشرة الصادرة عن اتحاد المقاصد والاغراض فكيف اقف فوق جثتهِ خطيبًا ولا اركع بجانبهِ حزينًا كئيبًا »

ومما يدل على منزلتهِ الرفيعة بين اهل الادب والفضل انهُ لما وقع القضاء ومات البستاني تسابق الخطباء والعلماء على تأبينهِ ورثائهِ فملأت الجرائد اعمدتها رثاء وسودت صفحاتها حزنًا و وقف الخطباء على ضريحهِ يرددون ذكراه ويذكرون مأثره وآثاره وهاك ما قالهُ في تأبينهِ المرحوم اديب بك اسحاق اذ وقف على قبرهِ والناس وقوفٌ خشوع وكنا في جملة السامعين فانتصب الاديب رحمهُ الله وقد امتقع لونهُ وابتلت عيناه واخذ يقول

« كذا فليجلّ الخطب وليفدح الامر وليس لعين لم يفض ماؤها عذر

« ان هذا المصاب مصاب جسيم . ان هذا الخطب خطب عميم . انها لمصيبة وطنية يبذل في مثلها بذل الدموع انها لنائبة عمومية لا يكثر في نظيرها تمزق الضلوع . اجل ان المصيبة فيك مصيبة الوطن بامن انفقت العمر في خدمتهِ . متقدمًا مجتهدًا صابرًا متجلدًا متعففًا مستقيمًا . فلا بدع ان تبكيك العيون . ولا غرو ان تنفطر لفقدك القلوب . أولم تكن فينا مثال الفضل والاجتهاد . ونموذج البراعة والادب . وعنوان التجلد والثبات في خدمة العلم . بذلت في هذه الخدمة شبابك ووقفت على هذا السبيل اتعابك . وجعلت العلم غايتك القصوى من دنياك . فكان لروحك روحًا وكنت لذاتهِ قوامًا

« فأي أثر ادبي رأيناه ولم تكن انت الباذل يد او الداعي اليهِ . وأي مشروع مفيد شهدناه ولم تكن انت الشارع فيهِ او المعين عليهِ . او لست اول من خط على صفحات القلوب ورسم على صحف الجنان « حب الوطن من الايمان » واول من أقدم على المشروعات الجسيمة العلمية بهمة لا تخاف المصاعب والعقبات ولا تألف الاَّ صدق العزيمة والثبات

« بأي آثارك لا تذكر . وبايها اذا ذكرت لا تشكر . وأية عين ترى اعمال يديك . ولا تفيض دمعًا بل دمًا حزنًا عليك . وما الذي نذكره من آثار اجتهادك

في استمرار ارتيادك ولا نجد عظيماً . امواظبتك على خدمة العلم والادب اربعين عاماً او تزيد . ام تآليفك وتصانيفك الغنية بشهرتها عن الوصف . امحيط محيطك ام قطر محيطك . ام مدرستك الوطنية التي ملأت بها الوطن انوارًا . ورفعت فيها للادب الصحيح منارًا . ام جنانك التي غرست فيها اغصانًا من العرفان من كل فاكهة زوجان . ام جنتك الزاهرة الدانية القطوف . ام دائرة المعارف التي . . . كدنا نخاف ان تدور الدائرة عليها لولا الامل فيمن ابقيت لها خلفًا كريمًا . يحقق رجاء المحبين ويتم امنية المستفيدين . اجل يتم الامنية ويحقق الرجاء فيكون به للوطن عزاء

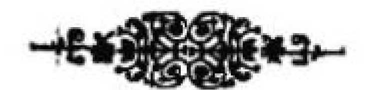
« في الاثر المأثور يا سادتي « من علمني حرفًا كنت له عبدًا » فمن منا لم يعلمه هذا الفقيد حروفًا . من منا لم يستفد منه فوائد صنوفًا . من تصانيفه في كل فن . من مدرسته الوطنية . من جرائده الزاهرة . من آثار معارفه في كل موضوع . ومن منا لم يدفع الملل في اوقات الفراغ . ويغلب الضجر في ساعات الراحة . ويريح الفكر بعد تعب الاشغال . بتلاوة ما كان فقيدنا يحيي لانشائه الليالي الطوال . فكيف لا نرثيه وكيف لا نبكيه . وكيف لا نستعظم المصيبة فيه

« أي هذا الراقد تحت ظلال الرحمة والرضوان . لقد عشت سعيدًا مفيدًا . وقضيت حميدًا فقيدًا . وإن كان عموم الاسف وشمول الحزن مما يبرّد ثرى ويجلب غفرانًا فقد جادتك سحب الرضوان والغفران مسوقة الى ثراك من كل مكان مستمطرة على ضريحك بكل لسان

نم سعيدًا يا من قضيت فقيدًا بجميل قدّمت بين يديكا
أنت أحسنت في الحياة الينا أحسن الله في الممات اليكا

« انتهى »

وكنت لا ترى الا عيونًا باكية ولا تسمع الا ندبًا وأسفًا ثم رجع الجميع يرددون ذكرى الفقيد ويعددون حسناته ويستمطرون على قبره سحائب الرحمة ومخائل الرضوان



باب المقالات

تاريخ الانسان

في أوائل العمران

(٣) اللغة

ذكرنا في الفصول الماضية كيف تدرج الانسان في اصطناع طعامهِ ومأواه وكسائهِ فلنتقدم الى اللغة لنرى كيف تدرج في التكلم لانهُ انما احتاج اليهِ بعد ضروريات الحياة المتقدم ذكرها . والمفروض في بحثنا كما قلنا غير مرة ان الانسان وجد عارياً من كل وسيلة وتوصل الى ما توصل اليهِ بالتدريج جرياً على ناموس الارتقاء العام

فلنتصوَّر الانسان في اوَّل ادوارهِ يطوف الحقول والغابات عارياً او نصف عارٍ يلتقط ثمر الارض وبقلها فاذا جنَّ الليل أوى الى كهف او مغارة او تسلق شجرة يلجأ اليها خوفاً من هجمات الوحوش الضارية فاذا اصبح خرج يسعى وراء رزقهِ بالنسبة بالاجتهاد واجتهادهُ انما هو التفتيش عن شجرة ذات ثمر يأكلهُ او حيوان يرميهِ بحجر فيقتلهُ ويتناول لحمهُ لا يمتاز في ذلك عن الحيوان الاعجم . الاَّ انهُ ما لبث ان اضطر الى الاجتماع وهي مزية خُص بها نوع الانسان . والسبب في ميلهِ الى الاجتماع قصوره عن مقاومة طوارئ الطبيعة ودفع غائلة الوحوش الضارية منفرداً فعكف على التعاون والتعاضد وهو الاجتماع فلما اجتمع اضطر الى تبادل المعاني والمقاصد وهي الغاية المقصودة بالاجتماع فساقهُ ذلك الى التفاهم فتدرج فيهِ من الاشارات الى الاصوات فالالفاظ فالجمل كما سترى

فيظهر مما تقدم ان ضعفهُ هو الذي ساقهُ الى التكلم ورب معترض يقول ألعلَّ الضعف خاص ببني الانسان حتى اضطر وحده الى الاجتماع فترتب على اجتماعهِ نشوء اللغة والعمران نقول ان بين انواع الحيوان انواعاً اكثر ضعفاً منهُ ولعلها اضطرت الى الاجتماع غير مرة ولكنها لم تستطع التكلم لتصورها الطبيعي عما امتاز بهِ الانسان من

المواهب الطبيعية جسداً وعقلاً ما يؤهله للنطق وتركيب الالفاظ وايضاح المعاني على اننا لا نظن انواع الحيوان الاخرى خلوّاً من التفاهم بل هو واقع بين افراد النوع الواحد وبين الانواع المختلفة على اساليب وطرق لم ندركها تماماً اذ ليس من الضرورة ان يتم التفاهم بالتكلم فقط فقد يتاتى ان يتوفق بعض انواع الحيوان الى وسيلة يتفاهم بها غير ما توفق اليه الآخر تبعاً لاستعداد كل منها كأن تتفاهم بحركات جلودها او بحركات آذانها او اذنابها او ما اشبه ذلك فلأنواع الحيوان لغات تتفاهم بها ولكنها يجب ان تكون ادنى من لغة الانسان بنسبة انحطاط قواها العاقلة عن قواه

فالاضطرار الى الاجتماع اصاب كل انواع الحيوان ولكن الانسان وحده فاز بغايته منه لاستعداده له ومقدرته على اختراع وسائل التفاهم على طريق الصوت وما ساعده على ذلك في بادئ الرأي لباقة حركات يديه وارتقاء اوتار صوته لانه قضى دهوراً يتفاهم بالاشارات وتقليد الاصوات

ولو تدبرت تاريخ اللغة لرأيت المبدأ في نشوئها وارتقائها راجعاً الى موهبة جعلها الخالق في الانسان وهي موهبة «التقليد» فالتقليد اساس اللغة واصل نشأتها ومدار ارتقائها لان التفاهم سواء كان بالاشارات او بالاصوات فهو راجع الى التقليد لان الاشارات تقليد صور الاشياء او معانيها والاصوات تقليد ما يسمعه الانسان من الاصوات الخارجية على اختلاف مصادرها فالتقليد قوة لم تبلغ في نوع من انواع الحيوان ما بلغته في الانسان والتقليد حقيقةً تمثيل صورة في ذهن المقلد اكتسبها من الخارج اما رأساً او ضمناً ولا غنى له في تقليدها عن استيضاحها في ذهنه مع توفر الوسائل اللازمة لتمثيلها للآخرين فالاستيضاح من اعمال العقل والتمثيل من اعمال اليدين او ما يقوم مقامها والانسان اقوى سائر انواع الحيوان عقلاً وألبقها تركيباً وهذا هو سبب تفرده بتوسيع دائرة التفاهم وتعدد وسائله فتأيد اجتماعه وكان ما كان من تمدنه وعمرانه فانشأ المدن والف الممالك والامم وتبحر في الخليقة فوضع الفلسفة فاختلفت آراؤه في سرّ الخليقة وخالقها فتفرقت المذاهب والاديان والطوائف والنحل وقامت الحروب فازداد الاحتياج الى الادوات والوسائل المساعدة على تسهيل الغلبة وتأييد القوة فكانت الاختراعات وما جرى مجراها مما ليس هنا محل الكلام عليه وانما يهمنا منه ان الانسان اضطرّ الى الاجتماع لضعفه فاحتاج الى تبادل الافكار

والمقاصد وهو التفاهم وتمكن بموهبة التقليد الى وضع اساس اللغة · ولاستيعاب الموضوع نقسم الكلام في تاريخ اللغة الى دورين (١) الدور التقليدي (٢) الدور النطقي

(١) الدور التقليدي

نريد بالدور التقليدي الزمن الذي قضاه الانسان يعبر فيه عن مقاصده واغراضه بتقليد ظواهر الاشياء التي يريد التعبير عنها كالدلالة على شيء بتمثيل صفاته كلها او بعضها فالاخرس يعبّر عن الفرس بمحاولة الوقوف على يديه ورجليه معًا تقليدًا للفرس في مشيه ومن هذا القبيل دلالة الاطفال على بعض انواع الحيوان بتقليد اصواتها الخاصة بها فاذا رأى الطفل كلبًا وسمع نباحه ثم اراد التعبير عنه فانه يقلد صوت النباح او الهر فيتقلد صوت المواء او الفرس فيتقلد صوت الصهيل وهو انما عمد الى ذلك لجهله اسم كل منها · وهكذا كان الانسان في اوّل ادوار وجوده فقد كان كالطفل المولود حديثًا في العالم يسمع ويرى ولا يتكلم ولكن لكل من الموجودات المحيطة به صورة في ذهنه حصلت من حال اقتضت بقاءها في ذاكرته اذ قد يكون لكل شيء او واقعة صورٌ كثيرة لا يبقى في الذهن منها الاَّ صورة او بضع صور يسبق الذهن الى الاستمساك بها اما لغرابتها او لملازمتها ذلك الشيء دون سواه او لامتيازه بها على سواه من نوعه فان للفرس مثلاً اوصافًا كثيرة من الشكل واللون والوضع والصوت وما شاكل ذلك ولكننا عند محاولتنا التعبير عنه بالتقليد يسبق الى ذهننا صوت صهيله لانه خاص به · وللرجل مثلاً اوصاف كثيرة يُعرف بها ولكن الخرس يعبرون عنه بمرور ابهام اليد وسبابتها على الشاربين · وللمرأة اوصاف كثيرة ايضًا ولكنهم يعبرون عنها بما تمتاز به عن الرجل اما بالاشارة الى طول الشعر او بالدلالة على خلو وجهها من الشعر او غير ذلك

فينتج مما تقدم ان الدور التقليدي ينقسم الى قسمين تقليد الاشكال وتقليد الاصوات فالاوّل لغة الاشارات وهي لغة الذين لا يستطيعون التكلم لعلة طبيعية كالخرس فانهم يتفاهمون فيما بينهم وبين غير الخرس بالاشارات فقط والثاني لغة الاصوات

التفاهم بالاشارات والاشارات نوعان اضطرارية واختيارية فالاشارات الاضطرارية ليست خاصة بالانسان بل تشمل كثيرًا من انواع الحيوان ولكنها مقصورة على التعبير عن الانفعالات النفسانية كتقطب الوجه من الغضب او الحزن

والابتسام عند الارتياح او السرور وهز الرأس للدلالة على التهديد او التعجب وحنيه على الذل او الخضوع وكدلالة النهوض بغتة على تأثر شديد من فرح او غضب او تعجب · ويروى عن المستر غلادستون خطيب انكلترا الشهير ان سامعيهِ كثيرًا ما كانوا يقفون بغتة عند سماع خطبهِ وهم لا يشعرون وقد يسبب الفرح حركات اخرى كالجمز او الرقص او الركض وقد يحنق الانسان عند تأثر نفساني بغتي كسماع خبر محزن او الانتباه بغتة الى خسارة وكالعض على السبابة ندمًا واحمرار الوجه خجلاً واصفراره وجلاً وكالارتجاف رعبًا وغير ذلك من الاشارات التي يجريها الانسان عن غير قصد ولكل منها دلالة خاصة ولكنها قليلة لا تخرج عن حدود الظواهر النفسانية حال حدوثها وتزول بزوالها وهي ليست من التقليد في شيء على انها تساعد في لغة الاشارات اذا تقلدها الانسان للدلالة على ما تدل عليها من طبعها فقد تعبر عن استنكافك من امر بتقطيب وجهك كأنك تقول «اني لا احب ذلك» فتقطيب الوجه اذ ذاك اشارة تقليدية اختيارية

أما الاشارات الاختيارية فهي التي يجريها الانسان عمدًا يقلد بها شكلاً او خاصة من خصائص الاجسام الخارجية للتعبير عنها تعبيرًا تقليديًا محضًا كمن يرسم صورة الشيء على الورق للدلالة عليهِ ولكن تلك الاشارات قد تحوَّل بالاستعمال والمزاولة من المعنى الحسي البسيط الى المعنى الرمزي · ولبيان ذلك نستلفت انتباه القارئ الى لغة الخرس الشائعة بينهم وقد بنهها سوام الأ ما كان منها قد تحول الى معنى رمزي لا علاقة ظاهرة بينهُ وبين الاشارة

فلغة الاشارات وهي لغة الخرس تقسم الى اشارات ذاتية واشارات معنوية او رمزية فالذاتية كالتعبير عن الشيء بتمثيل اوصافهِ باليدين فاذا شاء الاخرس التعبير عن الصندوق مثلاً رسمهُ لك بيديهِ موضحًا طولهُ وعرضهُ وعلوهُ وللدلالة على كونهِ خشبًا او حديدًا يشير الى مادة خشبية او حديدية من ادوات المكان الواقف هو فيهِ وهذا هو الاصل في لغة الاشارات ولكن الطبيعة لا تقبل البقاء على حال واحدة وناموس الارتقاء العام يتخلل سائر اعمال الحياة وهو يقضي بالنمو والتنوع والتفرع على اساليب شتى ترجع الى مبدإٍ واحد

فالاشارات الذاتية ما لبثت ان صارت معنوية او رمزية بمرور الايام على ان

التقليد الذاتي قليل في لغة الاشارات والغالب في التعبير عن الاشباح الخارجية بالاشارة ان يكون بتمثيل صفة من صفاتها او حالة ملازمة لها كما لو اطبق الاخرس اصابع احدى يديه وادناها من فمه كأنه يصب ماء فنفهم انه يريد «الماء» او «عطشان» او «اسقني» او «اشرب» اما التمييز بين هذه المعاني فموكول بالقرينة

فلغة الاشارات في هذه الحال لا تزال في ابسط احوالها بعضها تقليد ظواهر الاجسام او بعض احوالها وبعضها تقليد ظواهر الانفعالات النفسية وهي ما دامت على هذه الحال يفهمها كل انسان ولكنها قد تتحوّل بالتنوع والتفرع الى لغة لا يفهمها الاّ الذين يدرسونها مثل لغة التكلم وقد يقع في اشكال الاشارات ومدلولاتها تغيير وتبديل يشبه القلب والابدال في لغة التكلم من امثلة ذلك ان خرس برلين يقصدون بمحاولة كسر الراس باليد ما هو في لغتنا (رجل فرنساوي) وصغارهم يستعملون هذه الاشارة لهذا المعنى وهم لا يعلمون الاّ كونها كذا خلقت وقد ظهر بعد البحث انها مأخوذة عن محاكاة حادثة موت لويس السادس عشر فالخرس قرأوا في كتبهم انه مات مضروباً على رأسه فاستعملوا في بادئ الامر اشارة الضرب على الرأس كمحاولة كسره للدلالة عليه ثم حملوها مجازاً على كل فرنساوي . وبعض قاطني اميركا الشمالية يعبرون عن قولنا (كلب) بجرّ السبابة والوسطى منتوحتين على الارض وباقي الاصابع مقبوضة والناظر لا يرى علاقة بين هذه الاشارة والمعنى المقصود لكنه بعد البحث يرى انها مأخوذة عن حوادث جرت يوم كان الهنود هناك وقلت خيلهم فاضطروا لاستخدام كلابهم لحمل عواميد الخيم فكانوا يحمّلون كلاًّ منها عامودين واحداً من كل جانب فيمشي الكلب والعامودان يسحبان خلفه فقلد الخرس هذه الحالة بجر السبابة والوسطى منتوحتين على الارض وما بقي من الاصابع مقبوض وعبروا بها عن كلابهم . ولم يستخدم الهنود كلابهم لحمل عواميد الخيم من ذلك الحين اما هذه الاشارة فلم تزل مستعملة عندهم الى الآن للدلالة على اي كلب كان . وهكذا في كثير من اشاراتهم حتى تفرعت لغات الاشارات وحدثت بينها اختلافات لا تقل عما بين اللغات الشرقية . ولم تكن الاصطلاحات المشار اليها السبب الوحيد في ذلك بل هناك امر لا يقل اهمية عنه وهو الخلاف الاتفاقي في اختيار هذه الصفة من المعنى المقصود او تلك اذ قد تقدم انهم يعبرون عن اي معنى بتقليد صفة من صفاته او تلخيص حادثة رافقته اوّل عهدهم

به فقد تختار هذه القبيلة صفة وتلك صفة اخرى وقد يتأتى ان هذه تتصور معنى مصحوبًا بحادثة لم تخطر على بال تلك . فان هنود اميركا الجنوبية يعبرون عن الماء بقبض كفيهم وكبها نحو الارض كأنهم يسكبون ماء خلافًا لخرسنا الذين يقبضونها الاَّ الابهام ويديرونها نحو الفم كأنهم يحاولون الشرب

ويعبر الخرس عن الضمائر وادوات العطف والجر وما يشبهها وعن حركات الاعراب بتقديم بعض الاشارات او تأخيرها او غير ذلك من الطرق التي لا تقع تحت الحصر

فترى مما تقدم ان للغة الاشارات ايضًا دورين احدهما تقليدي والآخر نطقي مثل لغة التكلم ولولا صعوبة التوسع في لغة الاشارات لامتناع التفاهم بها ليلاً مع مشقة استخدام اليدين في التكلم لشاعت وكانت هي لغة البشر وتفرعت الى لغات كثيرة مثل لغات النطق الآن . لان الانسان في اوّل ادواره كان يتفاهم بالاشارات والاصوات التقليدية معًا وبتوالي الاجيال ارتقت لغة التكلم وتفرعت فبقيت وبادت لغة الاشارات ولم يبق منها الاَّ اثر عند الخرس الذين لا يستطيعون النطق . وطبيعي في الخليقة ان يبقى الانسب فسبحان الخلاق العظيم « سيأتي البقية »

باب المراسلات

ديانة اليهود

وردت علينا رسالتان ضافيتان احداهما من حضرة الفاضل الدكتور محمد بك صفوت ببور سعيد والاخرى من حضرة الفاضل توفيق افندي مخائيل سكرتير تفتيش ادارة السكة الحديدية باسيوط تتضمنان الرد على ما ذكرناه في جوابنا بشأن ديانة اليهود بالهلال الثامن ويظهر من سياقهما ان حضرتي المراسلين الفاضلين يتهمان الهلال بانه انما كتب ما كتبه في الدفاع عن اليهود تجنبًا لمس احساساتهم ثم اشارا الى وقائع وروايات يريدان انها تدفع قول الهلال وكان بودنا ان ننشر الرسالتين حرفيا

ونجيب على كل فقرة منها جوابًا كافيًا ولكن ذلك يُعد تطويلاً مملاً تضيق عنه صفحات الهلال فنقتصر على ما يأتي جوابًا على حضرتي المراسلين ومن يقول بقولها من هذا القبيل فنقول

(١) ان الهلال يترفع تنزهًا تامًا عن ان يخفي الحقيقة على مذبح المجاملة او المسايرة وان ما كتبه في ذلك الجواب انما هو اعتقاده . وقد تحققه بالادلة العقلية والنقلية

(٢) ان ما تتناقله الالسنة ويلهج به بعض الناس مما ينسبونه الى اليهود من الفظائع القبيحة انما هو ولا يزال أثرًا لعوامل التعصب الذي مدَّ رواقه في الاجيال المظلمة ولا حقيقة رسمية له في كتبهم او قوانينهم

(٣) قلنا في جوابنا السابق ونقول الآن ان وقوع مثل هذه الفظائع من بعض افراد اليهود لا يستحيل كما انه لا يستحيل حدوثها عن غير اليهود ولكننا ننزه امة اليهود وديانتهم عن اجازتها او اباحتها بوجه من الوجوه

(٤) هذا ما نعتقده ولا نزال عليه حتى يأتينا حضرات المعترضين بنص صريح في كتب اليهود الدينية او في وقائعهم الرسمية يثبت على امة اليهود ارتكابها هذه الفظائع والاَّ فلا عبرة بما تتناقله الالسنة ويبالغ فيه الرواة واذا فرضنا اتهام احد اليهود بشيء منها فذلك لا يثبت انها قاعدة دينهم ومحور دستورهم

وقد سألنا احد المراسلين لماذا قامت البغضاء بين اليهود وسائر الملل فاليهود على زعمه يكرهون كل الطوائف وكل الطوائف تكرههم فالجواب على ذلك ان ميل اهل المشرق الى المناظرة الطائفية اشهر من ان يذكر وليس هو خاصاً باليهود ولكن التعصب في الاجيال المظلمة زاد تلك المناظرة ظهورًا وربما كان النصارى البادئين بها لاعتقادهم ان اليهود هم الذين صلبوا السيد المسيح فكانوا يسومونهم مرَّ العذاب وما زالوا يفعلون ذلك في بعض ممالك اوربا حتى الآن . فتعوَّد اليهود الاحتمال وكظم الغيظ لانهم لا يستطيعون مقاومة التيار فكانوا اذا سنحت لهم الفرصة وانتقموا لانفسهم عدَّ الناس ذلك منهم خيانة او غدرًا . وزد على ذلك ان التباغض المزعوم بين اليهود وغيرهم بنوع خاص لا يتجاوز بعض بلاد الشرق

أما في المدن المتمدنة في المشرق والمغرب فاليهود والطوائف الاخرى سائرون معًا اخوة على السراء والضراء ولو صح ما يتهمونهم به لامحت آثارهم من اجيال متطاولة

أو على الاقل لطردوا من الممالك المسيحية وهذه مدن اوربا العظمى نراها تفتح لهم صدرها ومنهم اكبر اغنيائها واعظم عظمائها وقد اتخذت منهم وزراء ومشيرين فهل تظنون دول اوربا تغفل ذلك مع علمها بفظائع اليهود وهو جبن منها او تفعله وهي الى الآن لم تطلع على اخبار تلك الفظائع وهو جهل فاضح . اما الجبن فلا نظن احد يتهمها به واما الجهل فهي ابعد عنه كثيراً اذ لا يعقل ان الاخبار التي تصل الينا عن اليهود لا تصل اليها وقد قام منها الفلاسفة والعلماء على اختلاف الممالك واللغات وفتشوا كتب اليهود ودرسوها وترجموها وعاشروا القوم وعاملوهم اجيالاً متطاولة ولكن الحقيقة ان تلك الاشاعات لا اساس لها غير ما قدمناه او لعلها وقعت من بعضهم عن غير تواطؤ فحملوها على التواطؤ والله اعلم



حضرة الفاضل منشيء الهلال المنير

اليكم ما فهمته من معنى البيتين المدرجين في الهلال التاسع الوارد بالامس صحيفة ۳۲٤ بغاية الايجاز والاختصار

(قالت وقد رأت اصفراري من) انت مغرم (به وتنهدت فاجبتها) هو الشخص (المتنهد) اي هو نفس القائلة المتنهدة (فمضت وقد صبغ الحياء بياضها) صفرة مثل (لوني كما صبغ اللجين) الفضة (العسجد) الذهب . اي علا لونها الابيض صفرة حياء كالفضة المموهة بماء الذهب فاللجين بالفتح مفعول مقدم والعسجد بالضم فاعل مؤخر كما قال البوصيري كما مثل النجومَ الماء وكما قال ابن زهير كما يمسك الماء الغرابيلُ

(نحوين) « عبد المجيد احمد الشربيني »

اقتراحٌ على حضرات الأُدباء

هل تعلو منزلة المرأة بالعلم اكثر أم بالمال

قابليته للامتصاص فيعيق التبخير فاذا شبع تماماً أوقف التبخير بالكلية واذا توقف التبخير توقف الاشعاع فيقل شعورنا بالبرودة

فاذا بللت منديلاً ونشرته في الهواء وكان الهواء جافاً تبخر ماؤه بسرعة لان الهواء المحيط به غير مشبع فهو قابل لامتصاص البخار المتصاعد عن المنديل واذا كان الهواء رطباً ابطأ تبخر الماء عن المنديل فلا يجف الاّ بعد زمن طويل لان الهواء مشبع بالبخار المائي فلا يقبل الزيادة وتطول مدة جفاف المنديل بنسبة مقدار البخار المائي المستقر في الهواء فاذا كان الهواء مشبعاً به جيداً لا يجف المنديل الاّ بعد مدة طويلة جداً وقد يزداد رطوبة كما يحصل في جوّ الاسكندرية احياناً وقد تبتل الثياب الجافة وخصوصاً في الليل اذ يتساقط البخار ماء يعبر عنه بالندى

وسطوح اجسامنا يتصاعد عنها البخار المائي صيفاً وشتاء ويظهر ذلك البخار في الصيف عرقاً يسيل عن اجسامنا والعرق يكثر ظهوره في الاسكندرية لرطوبة هوائها فلا يتبخر منه الاّ شيء يسير أما في القاهرة وغيرها من الاماكن الجافة الهواء فيقل فيها ظهور العرق لان ذلك البخار يتصرف معظمه بخاراً الاّ شيئاً يسيراً يتحوّل الى عرق

وتختلف قابلية الهواء لامتصاص البخار باختلاف درجة حرارته فكلما ارتفعت حرارته ازدادت قابليته لامتصاص البخار واذا كان الهواء مشبعاً بخاراً ثم نزلت درجة حرارته ضاق ذرعاً عن استبقاء ذلك البخار فيه فيتحوّل بعضه الى ماء وينزل مطراً فكأن الهواء يخزن البخار المائي فيه مدة الصيف فاذا جاء الشتاء وبرد الهواء تحوّل بعض بخاره او كله الى ماء كان البرودة تعصره عصراً

وخلاصة القول ان هواء القاهرة جاف بالنسبة الى هواء الاسكندرية فيسرع فيه التبخر فتشع حرارة الجسم في القاهرة اكثر مما في الاسكندرية فنشعر ببردها اشد

انجيل برنابا

(القاهرة) خليل افندي ابراهيم

سمعت بعضهم يذكر انجيلاً غير الاناجيل المعروفة عند المسيحيين اسمه انجيل برنابا اسند اليه برهانه فما هو هذا الانجيل ولماذا لم يضم الى الاناجيل الاخرى

(الهلال) برنابا لفظ آرامي معناه ابن النبوة وقد لقب بهِ يوسف الذي ورد ذكره في اعمال الرسل ص ٤ ع ٣٦ بانهُ « لاويٌ قبرسيٌ باع حقلاً لهُ وجاء بدراهمهِ والقاها عند ارجل الرسل » وقد ترجم الرسل (برنابا) بابن الوعظ او التعزية يريدون انهُ انكر نفسهُ وانقطع للتبشير و يظهر مما قيل فيهِ في اماكن اخرى انهُ كان مجاهدًا في نصرة النصرانية مرافقًا الرسل في اعمالهم

والنجيل برنابا انجيل ينسب اليهِ وجد في العربية وترجم الى الايطالية والاسبانية والانكليزية ويظن علماء الكتاب المقدس انهُ مصطنع الفهُ بعض هراطقة المسيحيين في القرون الاولى للميلاد او محرّف عن أصلهِ لانهُ يخالف الاناجيل الاخرى ببعض القضايا المهمة فاعتبرهُ المسيحيون من الكتب الابوكريفية التي لا تسلّم الكنيسة بصحتها وقد حكم بذلك البابا جلاسيوس الاوّل في آخر القرن الخامس للميلاد فيظهر انهُ وجد في العربية قبل ذلك القرن ومن الغريب ان العرب الثقات لم يذكروهُ ولكننا قرأْنا عنهُ في بعض موسوعات التوراة على لسان الافرنج على ان القول بوجوده مكتوبًا بالعربية قبل القرن الخامس مما يلقي شبهة في الرواية ولعلهم يريدون انهُ وجد بلغة اخرى ثم نقل الى العربية بعد ذلك

وفي مكتبة البرنس اوجين دي سافوا نسخة قديمة من هذا الانجيل مترجمًا الى الايطالية وعثر العلامة سايل على ترجمة اسبانية مأخوذة عن الايطالية في كتاب ضخم مؤلف من ٢٢٢ فصلاً في ٤٢٠ صحيفة في صدره كتابة يؤْخذ منها انهُ تُرجم عن الايطالية بقلم مسلم اندلسي اسمهُ مصطفى

والانجيل المشار اليهِ يتضمن تاريخ حياة المسيح واعمالهِ من ولادتهِ الى صعوده ولكنهُ يخالف الاناجيل الاخرى من بعض الوجوه · ومن أهم الاختلافات بينهُ وبينها ان كلمة بارقليط اليونانية التي تكتبها الاناجيل المسيحية هكذا (Paraclete) باراقليط وردت فيهِ هكذا (Periclyte) بيريقليط ومعنى الاولى « المعزّي » ومعنى الثانية « المشهور او الذائع الصيت » ويؤْخذ منهُ ايضاً ان اليهود صلبوا يهوذا بدلاً من المسيح ولولا خوف الخروج عن موضوع الهلال لاتينا على ترجمة بعض ما وصلنا من فقراتهِ ولكننا اكتفينا بما تقدم جوابًا على سؤَالكم

ولبرنابا المشار اليهِ رسالة مثل رسائل الرسل الآخرين لها تاريخ طويل لا فائدة

من ذكره وخلاصته ان تلك الرسالة تنوقلت كثيرًا واحترقت مرارًا وترجمت الى بعض لغات اوربا في القرون الاخيرة على انها ما زالت ناقصة مضطربة حتى عثروا سنة ١٨٥٩ على نسخة تامة منها في دير طورسينا الشهير وهي مؤلفة من ٢١ فصلاً ويعتبرها المسيحيون من الكتب الابوكريفية

﴿ تذكير الأعداد وتأنيثها ﴾

(الاسكندرية) احمد افندي فريد بهندسة السكة الحديد بالقباري

ما الحكمة في تأنيث الاعداد اذا عدّت اسماً مذكرًا وتذكيرها اذا عدّت اسماً مؤنثًا فيقولون خمسة رجال وخمس نساء.

(الهلال) لا ينتظر ان نرى حكمة في كل قاعدة من قواعد اللغة لان اللغة انما وصلت الى ما هي عليه من القواعد والضوابط بالنمو الطبيعي بلا رابط ولا تواطؤ ولكن علماء اللغة جمعوا الفاظها وتدبروا طرق التعبير فيها ورتبوها في فصول وقسموا الكلام الى اقسام وجعلوا لكل منها حدودًا وجوامع تسهيلاً لتعلمها وخوفًا من ضياعها اما ما يوردونه من التعليل والتفسير في سبب وضع تلك القواعد انما هو من قبيل التقرب من الفلسفة لميل الانسان الى تعليل الحوادث . ومن هذا القبيل تذكير الاعداد وتأنيثها خلافًا ويظهر من مراجعة قواعد اللغات الشرقية ان هذه القاعدة عامة فيها كلها فهي كذلك في العبرانية والسريانية وسائر اخواتها فالظاهر انها حدثت في اللغات السامية قبل تفرقها وتفرعها . أما مخالفتها أحكام التأنيث والتذكير لسائر الاسماء والصفات فربما كان السبب فيه انهم اعتبروا العدد صفة تلحق الاسم ولما كانت الاسماء الواردة بعدها ترد جمعًا او بمعنى الجمع جعلوا الصفة التابعة لها بحالة المفرد المؤنث كما هي القاعدة في وصف الجموع غير العاقلة اذ يقال « بيوت حسنة » و « أشجار جميلة » فربما حملوا الاعداد هذا المحمل فجعلوها في حال المفرد المؤنث ثم اطلقوها على العاقل وغير العاقل ويؤيد ذلك ان لفظ « الاثنين » يرد بصيغة المثنى كما ترد الصفات امام المثنى عاقلاً كان او غير عاقل على ان استعمال لفظ الاثنين مع المثنى قد اهمل في العربية اما في اللغات الشرقية الاخرى فلا يزال جاريًا فهم يقولون « بيتان اثنان » و « شجرتان اثنتان » كما يقولون « بيتان كبيران » و « شجرتان كبيرتان » ولفظ الاثنين هذا يتبع

الموصوف به بالتأنيث والتذكير كما تبعة الصفة تماماً فلعل هذا هو السبب في تأنيث العدد امام جمع المذكر اما تذكيره مع جمع المؤنث فربما خالفوا فيه القاعدة تمييزاً له عن ذلك والله اعلم

طب العرب

(الاستانة العلية) حاجي افندي عارف ٠ كاتب بقلم محاسبة خزينة التقاعد العسكري

نشرتم في الجزء الثاني من السنة الثالثة من مجلة الهلال مقالة تحت عنوان طب العرب بامضاء داود افندي فتو ببغداد وقد ترجمتها جريدة « اقدام » التي تصدر في الاستانة الى اللغة التركية فاطلعت عليها فوجدت فيها وصفة لداء السل عجبت بسرعة الشفاء بها ولكن حضرة الكاتب لم يذكر اسم الورق الذي دخنه ذلك المسلول حتى نال الشفاء وقد سألنا ادارة جريدة اقدام عن اسمه فاحالتنا على حضرتكم فنرجو الافادة عن اسم ذلك الورق ومن أي نبات هو ولكم الفضل

(الهلال) قد سألنا غير واحد من حضرات المشتركين عن اسم ذلك النبات وكتبنا الى حضرة المراسل ببغداد فاجابنا ان اسمه « الحزنبل » وانه يوجد كثيراً في بلاد الشام وكنا قد طلبنا اليه ان يرسل الينا شيئاً منه لنعرف شكله فقال انه لا يوجد عنده منه الآن ووعد بارساله في فرصة اخرى . وفي القاموس « الحزنبل » نبات مرّ الطعم نافع في تفتيح السدد وتحليل الرياح وذكر له ابن فائد اربعاً وثمانين منفعة »

النوَر (أو الغجر)

(بيروت) سليم افندي الخوري

من هم النوَر وما هو اصلهم وما هي لغتهم واين هو موطنهم فان حالتهم تدعو الى العجب والاستغراب وطالما فكرت في امرهم فلم أزدد الا اشكالاً فهل منهم احد في غير هذه البلاد

(الهلال) النوَر جيل من رعاع الناس دأبهم التطواف في الارض ومنهم جماعات كبيرة في آسيا واوربا وافريقيا وعيشهم غالبًا بالسرقة والتكدي وإبصار البخت وصنع المناخل والغرابيل ولهم اسماء شتى حسب البلاد التي يقيمون بها فاسمهم في سوريا « نوَر » وفي مصر « نجر » وفي بلاد فارس وتركستان « زنجاري » وفي روسيا « زنجاني » وفي المانيا « زيجونر » وفي اسبانيا « جيتانوس » وفي ايطاليا « زنجاني » والجيم فيها كلها تلفظ كافًا فارسية ويظهر ان كل هذه الاسماء تنوعات اصل واحد ربما كان « زنكالي » ويسمون انفسهم به احيانًا وهو لفظ هندي قديم ومعناه « سود الهند » او السند وهم بالحقيقة سمر الوجوه

ولكن لهذا الجيل من الناس اسماً عمومياً يعرفون به باوربا وهو « جبسي » وربما دعوا بهذا الاسم ظناً بانهم مصريون بناء على دعواهم ومعرفة الوانهم

ولكن جماعة كبيرة من علماء اوربا بحثوا في اصلهم ومقامهم والفوا فيهم كتبًا عديدة احسنها ما الفهُ جورج بورو المتوفي سنة ١٨٨١ فقد خالط النوَر واخاهم ودرس لغتهم وسائر احوالهم والف بضعة كتب فيهم منها كتاب اسمهُ « الزنكالي » نشره سنة ١٨٤١ وآخر اسمهُ « النوراة في اسبانيا » وقاموسًا جامعًا للغة النور وغيرها . ويؤخذ من ابحاث هذا العالم ان اصل هؤلاء القوم من شمالي بلاد الهند يتكلمون لغة واحدة تشبه في أصولها وتركيبها لغة الهنود القديمة (السنسكريتية) بل هي اقدم منها وفيها كثير من الالفاظ الهندية القديمة وهم يسمونها و يسمون جنسهم « رُمَّاني » ومعنى « رم » في لغتهم زوج ورُمَّاني طائفة الازواج

وقد هاجر النوَر من الهند الى اوربا في اوائل القرن الثاني عشر للميلاد واقدم من ذكرهم من الكتّاب راهب جرماني كتب مقالة في الالمانية عن سفر التكوين سنة ١١٢٢ م اورد ذكرهم فيها على سبيل العرض . وفي القرن الرابع عشر هاجر جماعة اخرى منهم فرارًا من وجه تيمورلنك القائد التتري الشهير فاقام سوادهم في المجر وفي اماكن اخرى من جرمانيا وسويسرا وايطاليا ولم يظهروا في باريس الا سنة ١٤٢٧ فظهر منهم نحو ١٢٠ نوريا ادَّعوا انهم من مسيحيي المصريين وقد فروا من ظلم المسلمين ولعل هذا السبب في تسميتهم جبسيس (Gypsies) وقد ذكرهم احد كتاب الفرنسيس اذ ذاك ومما قالهُ فيهم « ان آذانهم مثقوبة وقد علقوا فيها اقراطًا من فضة

وشعرهم اسود جعدي ونساءهم في غاية القذارة يتعاطين التنجيم وابصار البخت » وكان الفرنساويون يسمونهم البوهيميين لان جماعة كبيرة منهم جاءت فرنسا عن طريق بوهيميا. ويدعي النوَر انهم سيقوا من مصر ليتيهوا في الارض انتقاماً منهم لانهم لم يحسنوا وفادة يوسف ومريم العذراء لما اتيا مصر ويزعم البعض الآخر منهم انهم كانوا مسيحيين فكفروا بدينهم فحكم عليهم البابا ان يتيهوا في الارض تكفيراً عن ذنبهم. فاذنت لهم فرنسا ان يقيموا في بلادها فاقاموا مدة ثم رأت كسلهم وسوء تصرفهم فاصدرت احكاماً تأول الى اخراجهم من بلادها فاضطروا الى سكنى الغابات والبراري وبعضهم هاجر الى المانيا والمجر وآخرون هاجروا الى اسبانيا. ومنهم جماعة كبيرة في روسيا يتعاطون تجارة الخيل ومعالجة اوبئة الماشية ونوَر موسكو قد عدلوا عن المعيشة البدوية وأووا الى المنازل والقصور وركبوا المركبات لا فرق بينهم وبين الروسيين وقد امتازوا خاصة بمواهبهم في فن الموسيقى واشتهرت نساؤهم بحسن الاصوات. أما نوَر المجر فيعيشون في اقذر الاحوال نساء ورجالاً ولكنهم مع ذلك يميلون الى الموسيقى وبعضهم يتعاطى مهنة الحدادة والسنكرية ولكن معظمهم يتعاطون السرقة والتنجيم

أما في بلاد الانكليز فقد اقام النوَر في بادئ الرأي على حذر ثم توطنوا وطاب لهم المقام ووهبتهم الحكومة امتيازات خاصة بهم يتعاطي ذكورهم تجارة الخيول وبعضهم يتعاطى السنكرية وأما نساؤهم فصناعتهن ابصار البخت وربما كان نوَر انكلترا اجمل نوَر الارض وهم يقسمون هناك الى فرق برأس كلاً منها رئيس ترجع اليه في احكامها وقد يكون ذلك الرئيس امرأة يسمونها الملكة وفي سنة ١٨٦٠ رأستهم ملكة اسمها استيرفا آ وقد خولتهم انكلترا حقوقاً ذات بال حتى ان ملكهم في ابدنبرج واسمه جورج حبث اعترض على لائحة وضعتها الحكومة الانكليزية سنة ١٨٩١. وفي بلاد الانكليز جمعية أدبية للنوَر اسمها « جمعية التهذيب النوَري » تأسست سنة ١٨٨٨ وقد بلغ عدد اعضائها الى سنة ١٨٩١ سبعين عضواً ينشرون جريدة سياسية باسم الجمعية

وقد هاجر بعض النوَر الى اميركا واقاموا هناك في مكان خاص بهم على طرق من المعاش ارقى من سائر نوَر الارض وقد رأستهم ملكة منهم في اوهيو سنة ١٨٨٨ اسمها متيلدا الثانية

أما ديانة النوَر فهم بالحقيقة لا يعرف لهم دين فيتظاهرون بديانة القوم الذين

يقيمون بينهم ولكنهم يجرون بعض الطقوس الدينية لموتاهم فينقطعون عن الطعام والشراب والتدخين مدة اكراماً للميت ويحرقون كل ثيابه ويكسرون آنيته

وقد ترجمت التوراة الى لسانهم واسم الجلالة عندهم « ديوُول » ويظن انهُ مشتق من « ديووس » وهي « دياس » باللغة السنسكريتية ومعناها اليوم وهم يحتفلون بزواجهم احتفالاً غريباً لا محل لايراده هنا وهم كثيرو الغيرة على نسائهم ويفاخرون بعفتهنَّ وبين النوَر علامات سرية يتعارفون بها فيما بينهم وبناء على ذلك زعم بعض كتاب الماسونية ان الجمعية الماسونية نشأت معهم ولكنهُ قول مبني على مجرَّد الحدس ولا دليل على صحتهِ

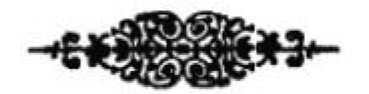
أما اصل لفظ « نوري » فقد ذكر القاموس انهُ مشتق من النار التي ظن انهم يعبدونها ولكننا نرى انها محرفة عن « لوري » اسم قبيلة من الهنود هاجرت الى بلاد فارس على عهد يزدجرد واقامت هناك ومنها تفرَّق نوَر المشرق وبقي اسمهم محفوظاً مع بعض التحريف فان اسم الواحد منهم في سوريا « نوري » وجمعهُ نوَر . ولعلهم هم الذين كانوا قبيلة رحالة في بلاد فارس على عهد شاعر الفرس حافظ وكانوا يدعون « لولي » ويحسنون الرقص والغناء

تاريخ حفر الخليج

(القاهرة) توفيق افندي حبيب

أرجو الافادة تفصيلاً عن تاريخ حفر الخليج المصري ولكم الفضل

(الهلال) ذكرنا تاريخهُ مطوَّلاً في الهلال الاوَّل من السنة الثانية فراجعوه هناك



أرمانوسة المصرية (تابع ما قبله)

فاتضح الامر لمرقس وعلم انه اصاب ضالته عفوًا فقال اذا كانت الحال كما ذكرت فاخبرك اني بالحقيقة رسول من مولاتي ارمانوسة وليس من المقوقس وكل ما تريد ان تعلمه عنها اطلعك عليهِ لاني عالم بكل شيء.

قال هل هي في خير ومستعدة للسير الى مولانا

قال نعم انها كذلك وقد جاءت بلبيس منذ ايام في انتظاره ولكنك لم تخبرني عن سبب ركوبك هذا الجمل وانت روماني

قال اراك مدققاً بالسؤال ولكنني قد استأنست بحديثك وتوسمت بك الصدق فاخبرك انه لما فتح العرب حلب امسكوا مولاي يوقنا وجماعة من رجالهِ وفي جملتهم انا فبقينا معهم نواكلهم ونشاربهم ونرافقهم في اسفارهم فتعودنا ركوب الجمال والهجن وقد رأيناها اسرع عدوًا من الخيل فعوّلنا عليها في السفر السريع

فقال مرقس وهل في معسكركم هذا جند من العرب قال لا

فقال وهل علمتم شيئاً عن عزمهم على مصر

قال علمنا انهم قادمون اليها بجملة ولعلهم الآن في العريش

فبهت مرقس مدة يتأمل ما سمعهُ من بروقس فلم يرهُ منطبقاً على احكام العقل ولم يفهم كيف انهم خالطوا العرب وآكلوهم وعاشروهم حتى تعلموا ركب الجمال وكيف انهم قادمون لحمل ارمانوسة الى قسطنطين فقال له وهل اعتنق مولاكم يوقنا ديانة هؤلاء العرب

فتوقف بروقس عن الجواب برهة ثم قال قد اتهمهُ بعضهم بذلك ولكنهُ براء منهُ

فادرك مرقس ان الحكاية ليست على بساطتها واساء الظن في ما سمعهُ من الرجل ولكنهُ خاف اذا أظهر له الارتياب ان يغدر بهِ فتظاهر بتصديق كلامهِ ثم قال ولكننا سمعنا خبرًا كدرنا كثيرًا عن قسطنطين واراد اتمام الكلام فابتدره بروقس قائلاً اما اذا اردت ما اشاعه العرب عن قتلهِ فهو خبر عار عن الصحة لان مولانا قسطنطين في خير وسلامة ينتظر وصول عروسهِ

فقال مرقس ألا تخافون ان يلاقيكم العرب في عودتكم من بلبيس وانتم تقولون انهم قادمون وقد وصلوا العريش فلا يلبثون ان يكونوا هنا قريباً

فقال بروفس وقد ارتبك في الجواب لا لا اظن شيئاً لأنهم يعتقدون فيّ الاخلاص لهم

فقال مرقس في نفسه قد تحققت بقاء قسطنطين حياً فهل ارجع بالخبر او اواصل الاستقصاء عن حال العرب وقوتهم لعلي اعود بشيء مفيد لسيدي المقوقس فاتال حظوة في عينيه فرأى ان يواصل السير

فقال لبروفس انك اذا قدمت الى سيدتي ارمانوسة وانبأتها ببقاء عروسها حياً تسرّ بك كثيرًا فعجل بالمسير واخبرها بانني قد علمت ذلك منك واني ذاهب لاتمام مهمتي في الفرما . وقد اراد ان يتم استقصاء اخبار العرب ولكنه رأى ان يغتنم تلك الفرصة للدخول الى معسكر يوقنا فيستفيد منهم شيئاً يساعده على مرامه فقال لبروفس هل لك ان ترافقني الى مولاك يوقنا لعله يريد ان يستخبرني او يسألني شيئاً

قال لا استطيع العود معك ولكنني اعطيك شعار الليل فاذا وصلت المعسكر وسألك احد من انت قل له « السلام عليكم » وافهمه لفظ هذه اللفظة بالعربية وهو لا يفهم معناها فظنها اسماً لرجل او بلد ولو فهم معناها لادرك انها كلمة تدل على اسلام قائلها او انتمائه للمسلمين فكرّرها مرارًا على سمعه حتى حفظها ثم فكر مرقس بثياب بروفس فاذا هي تختلف عن ثيابه فخاف اذا دخل معسكر يوقنا بثيابه ان ينكشف امره فاراد ان يحتال على بروفس ليأخذ ثيابه فقال ألا تخاف يا أخي اذا مررت بثيابك هذه ان يستغشك المصريون قال له ولماذا قال لانهم يرونك غريباً فربما اوقعوا بك شرًا وخصوصاً وانت لابس هذا اللباس وبما انك سائر الى سيدتي ارمانوسة ارى ان اخلع لك ثيابي هذه فتلبسها وهي لباس جند مصر فاذا مررت في البلاد لا يستغربك احد

قال وانت ما ذا تلبس قال اعطني ثيابك فألبسها والسلام

فاستحسن بروفس الرأي وتبادلا الثياب وقد فرح مرقس فرحاً لا مزيد عليه بنجاح حيلته

ثم نهض بروفس وركب هجينة وودع مرقس واخبره ان فسطاط يوقنا بالقرب من تلك النار وسار قاصداً بلبيس

أما مرقس فظل ناظرًا اليهِ حتى توارى عنهُ فجعل يفكر في حالهِ وما سمعهُ منهُ و بقيسهُ و يطبقهُ بعضهُ على بعض فادرك ان في الامر خداعًا او مكيدة فقال في نفسهِ هلم فاذهب الى معسكر بوقنا لعلي أتحقق ظني واعلم دخيلة الامر

فسار قاصدًا تلك النار حتى كاد يقترب منها فسمع جعير الجمال عن بعد فخيل لهُ انهُ ذاهب الى معسكر العرب لا معسكر الروم ولكنهُ توكل على الله ومشى واذا بفارس قد اعترضهُ قائلا من انت فاجابهُ مرقس « السلام عليكم » فاخلى سبيلهُ وقال لهُ اين كنت قال خرجت من المعسكر لامرٍ وعدت

قال ادخل وقد ظنهُ من معسكرهم وخصوصًا ان لباسهُ كلباسهم

فمشى مرقس وهو يتأمل المعسكر فاذا هو مؤلف من عشرات من الخيم بعضها بدوي وبعضها روماني فجعل يطوف بينها ينظر في حال الجند فاذا هم من الروم وفيهم بعض البدو فاستغرب ذلك فاختلط بهم وتظاهر انهُ واحد منهم كان قد تخلف في الطريق ثم لحق بهم وما زال يخطر حتى أتى خيمة البطريق فاذا بالخفر محيطون بها بسلاحهم وكانت فسطاطًا كبيرًا يسع جماعة كبيرة . فقال في نفسهِ لاصبرنَّ الى الغد فنرى ما ذا يكون

ثم عرج الى خيمة فيها جمع كبير فدخل بينهم وتناول الطعام معهم فظنوه من جندهم ولا عبرة بلونهِ وملامحهِ المصرية فقد كان ذلك الجند اخلاطًا من الروم واهل حلب وما جاورها وربما كان فيهِ بعض المصريين لان هرقل استنجد المقوقس اثناء حروبهِ مع العرب في الشام فأرسل المقوقس اليهِ مددًا وفيهم بعض القبط [1]

فبات تلك الليلة وهو يسمع الاحاديث و يحفظها فاستنتج منها ان بوقنا في وفاق مع العرب وان العرب قد اصطلحوا على مقربة من هناك

ولما اصبح الصباح بكر مرقس الى فسطاط بوقنا فاذا بالخفر وقوف عند بابهِ و بوقنا جالس في صدره وعليهِ رداء غير رداء الرومان فتأمل الرداء فاذا هو يقرب شكلهُ من البدلة التي جاء بها معهُ ولكنها احسن حالاً وفوق القفطان جبة وعلى رأسهِ عمامة وسمع الناس اذا ذكروهُ سموه باسم غير اسمهِ الاصلي فرجح لديهِ ان الرجل قد اعتنق الاسلام او هو في خدمتهم وأيد ظنهُ هذا خلو المعسكر من شعائر النصرانية واهمها الصلبان

(١) الواقدي

وكان الرّوم يتخذونها شعارًا لهم في الحروب فيحملونها مع الاعلام في مقدمة الجند فاذا عسكروا نصبوها بجانب الاعلام (١)

ثم تحوّل عن الخيمة وجعل يطوف المعسكر يتفقد حالة لعلهُ يقف على شيء من امر العرب فوصل اطراف الخيم فشاهد رجلاً جالساً على ربوة بالقرب من المعسكر ينكث الارض بعصا بيده كأنهُ يفكر في امر اقلق افكاره وقد قبض في احدى يديهِ على شيء شبيه بالرق . فوقف مرقس عن بعد يلاحظ حركاتهِ وسكناتهِ فاذا بالرجل في لباس جند يوقنا ينكث الارض تارة وينظر الى ذلك الرق طورًا وهو يحاذر ان يراه احد ثم التفت الى جهة المعسكر فرأى مرقس فعجل في اخفاء الرق وتظاهر بامر آخر اخفاء للحقيقة

وامعن مرقس النظر في وجههِ فاذا هو ليس رومانياً ولا مصرياً فعجب لامره واراد التقدم نحوه لعلهُ يقف منهُ على خبر جديد فخاف ان تحول جرأتهُ هذه بينهُ وبين ما يريد فتجاهل وتحوّل عن المكان ودخل المعسكر على ان يغتنم فرصة اخرى ليجتمع بهِ ويستطلعهُ حالهُ ولكنهُ ما برح يراقبهُ حتى رجع الى المعسكر في المساء واختلط بالجند

فلما امسى المساء التقى بهِ في بعض الخيم يتناول العشاء مع الجند فتأمل وجههُ فتذكر انهُ يعرفهُ ولكنهُ لا يذكر اين شاهدهُ ولا ما اسمهُ فبقي صامتاً ينظر اليهِ تارة ثم يتشاغل عنهُ بمناظر اخرى لئلا يلحظ منهُ ذلك . ثم رآه ينظر اليهِ كأنهُ يريد التعرف بهِ فتجاهل مرقس خيفة انكشاف امره ولكنهُ كان كثير التشوق الى معرفة حالهِ وما هو قادم من اجلهِ فلبث ريثما مضى وقت العشاء واخذ الناس يتفرقون فاذا بذلك الغريب قد خرج من تلك الخيمة ومشى الى خيمة من خيم العرب ودخلها وجلس الى بعض من فيها وجعل يكلمهم بلسانهم فعجب مرقس لمعرفتهِ اللغة العربية فضلاً عن اليونانية وازداد تشوقًا لمعرفة حكايتهِ ولا يعلم كيف يبادئهُ بالكلام فصبر نفسهُ ينتظر خروجه من الخيمة فمضى ربع من الليل ولم يخرج ثم كان منتصف الليل فقال في نفسهِ لننتظرنَّ الى صباح الغد فذهب الى منامهِ



(١) الواقدي

الفصل التاسع عشر

عمرو بن العاص

ولما كان الصباح التالي افاق مرقس على ضوضاء الجند فنهض مذعورًا وهو لا يعلم السبب فاذا بهم قد تجمهروا وخرجوا من المعسكر ينظرون الى جهة البر فاذا بالغبار يتصاعد في عرض الصحراء والناس يتطاولون باعناقهم وقد علا ضجيجهم وفي مقدمتهم بوقنا يجر طيلسانة تيهًا وقد احاطت بهِ حاشيتهُ وكلهم ينظر الى جهة الغبار فسأل بعض الوقوف عن ذلك فقيل لهُ ان العرب قادمون فتظاهر بانهُ عالم بقدومهم لئلا يستغشوه ثم علم انهُ جند عمرو بن العاص القادم لفتح مصر فلبث واقفًا في جملة الواقفين وقد نسي رجل الامس على انهُ حاول ان يراه فيمن حولهُ من الناس فلم يرهُ فعوَّل على ان يستطلع مكانهُ بعد ذلك

ونظر الى موكب بوقنا فاذا هو مؤلف من حاشيتهِ وكلهم لابس اللباس الرّوماني الاَّ بوقنا فقد لبس العمامة وتقلد الحسام وسمع الناس ينادونهُ باسم عبد الله فتحقق لديهِ اذ ذاك انهُ اعتنق الاسلام لا محالة وخصوصًا لما رآه مستبشرًا بقدوم جيش العرب

ثم جيء اليهِ بفرس من جياد الخيل ركبهُ وركب معهُ جماعة من رجالهِ وخرجوا للقاء العرب فلبث مرقس واقفًا ينظر الى موكب بوقنا ذاهبًا وجند العرب يتقدم حتى انكشف الغبار عن جند عظيم يتقدمهم الفرسان على خيول عربية تسابق الرّياح والاعلام تخفق فوق رؤوسهم يحملها القواد [1] وغيرهم وفي المقدمة رجلان على هجينين فعلم انهما الدليلان يقودان الجند ومن ورائهما الفرسان وفي مقدمتهم فارس على جواد من خيل اليمن وعليهِ العدة والسلاح وفي ركاب الفرسان جماعة من العبيد يسوسون الخيل [2] فلما التقى الفريقان ترجل بوقنا وترجل فرسان العرب وتقدم بوقنا الى واحد منهم هو كبيرهم وتصافحا وتعانقا ثم سلم على الباقين بين مصافح وغير مصافح وعاد بوقنا معهم وقد اخذ كبيرهم بيده فسأل مرقس عن اسمهِ فقالوا لهُ هذا هو البطل الشهير عمرو بن العاص وكان قد سمع بهِ كثيرًا فتقدم ليراه جيدًا فاذا هو قصير القامة وافر الهامة ادعج ابلج عليهِ ثياب موشاة كأن بهِ العقبان تأتلق عليهِ حلة وعمامة وجبة [3]

(١) ابن خلدون والطبري وغيرهما (٢) الواقدي (٣) المقريزي

وقد احاط به و بيوقنا رجال من كبار العرب وهم يهللون و يكبرون فتنحى مرقس جانبًا ليرى مقدار الجند فاذا هم مالئون تلك الصحراء وفيهم الفرسان والهجانة والمشاة وحملة الاعلام وقد لبس كبارهم العمائم الخضر وتقلدوا السيوف والخناجر واما المشاة ففيهم نقلة الرماح ونقلة النبال فجعلوا يتفرقون كل جماعة الى ناحية و يتقدمهم علم خاص بهم ينصبون الخيام و يضربونها واول خيمة ضربت فسطاط الامير وهو خيمة كبيرة مبطنة بالحرير الاحمر نصبوها على اعمدة من القصب الهندي وضربوا اطنابها وفرشوا ارضها بالبسط والطنافس وهيأوها لاستقبال الامير اما عمرو فسار مع يوقنا حتى دخلوا خيمته للاستراحة فلبث مرقس لمشاهدة بقية الجند وقد اراد ان يعرف مقدارهم فاذا هم لا يزيدون على اربعة آلاف و بعد ان تفرقت الجند فرقًا ونصبوا الخيام جماعات وصلت جمال الساقة ومعهم الهوادج والاحمال و في الهوادج النساء والاولاد وهم يضجون و يغنون او هو الحداء فانزلوهنّ على مسافة من الجند ونصبوا لهنّ الخيام

فتحوّل مرقس الى خيمة الامير فاذا بها قد ملأت مسافة كبيرة ولكنه لم يشاهد في فرشها كرسيًا ولا مقعدًا كما كان الحال بخيمة الروم اذا نزلوا وشاهد امام الخيمة علمًا هائلاً عليه رسوم كأنها كتابة باللسان العربي لم يفهمها

أما جند الروم فكانوا يتهللون و يترحبون بجند العرب كأنهم كانوا قد فارقوهم على موعد فنهم من جملة ذلك انهم كانوا قد جاؤوا هناك في انتظار وصولهم

ثم تحوّل نحو خيمة يوقنا فاذا بعمرو قد خرج منها وسار نحو خيمته بصحبة كبار قواده فاقترب منها على قدر ما مكنته حالة فاذا بعمرو قد جلس في صدرها على وسادة من الحرير متربعًا وجعل السيف على فخذه والى كل من جانبيه رجال من العرب في مثل لباسه و يوقنا بين يدي عمرو يترحب به و بينهما ترجمان كان قد شاهده قادمًا مع عمرو يحمل العلم فسمع عمرًا يناديه « وردان » فعلم ان ذلك اسمه

و بعد هنيهة سمع قراءة باللسان العربي وتجويدًا فنظر فاذا برجل عربي جالس في بعض جوانب الخيمة يقرأ عن ظهر قلبه بنغم مطرب والناس جلوس و وقوف مصغون يطربون لسماع ذلك النغم ثم التفت بغتة الى من حوله فاذا بالرجل الذي كان قد شاهده بالامس واقف الى جانبه فاراد ان يخاطبه فسأله

عن اسم الرجل الجالس في صدر المكان فقال باليونانية هو الامير عمرو بن العاص فلحظ مرقس من لهجته انهُ دخيل على اللسان الرّومي فخاطبهُ بالقبطية وسألهُ عن هذا التجويد فقال انهم يقرأُون كتاباً عندهم اسمهُ القرآن ويتغنون وهي عادة يتبرّكون بها فرأى مرقس ان اللسان القبطي ايضاً ليس لسانهُ فرغب في الاستفهام عن حاله فقال لهُ وبأي لسان يقرأُون قال باللسان العربي فقال وهل تفهم لسانهم قال نعم افهمهُ جيداً وهو لساني واما انت فما هو لسانك فقال اني من جند الرّوم

قال ولكني اراك تتكلم القبطية وملامحك قبطية فهل انت من اهل مصر

فاضطرب مرقس عند ذلك وخاف ان ينكشف امره فقال قلت لك اني من جند الرّوم وفيه من سائر الملل

فتبسم الرجل وقال بالقبطية همساً ولكن قل ولا تخفِ الحقيقة عني اني لا أريد بك سوءا ولعلك اذا صدقتني ان تنال خيراً

فتحير مرقس بماذا يجيبهُ وسكت برهة لا يتكلم

فادرك الرجل انهُ يد فعهُ و يريد اخفاء امره فعاوده السؤَال قائلاً قل ولا تخف فانني اعرفك ولو اخفيت حقيقة حالك ما خفيت عني

فقال مرقس واظنني اعرفك ايضاً وكانني رأيتك قبل هذه المرة في الاسكندرية

فقال عند ذلك انت اذاً مرقس تابع المقوقس فاختلج قلب مرقس في صدره وخاف عاقبة الامر فقال لهُ الرجل لا تخف اني لك نصير فهل عرفتك ام انا مخطئ

قال اصدقك الخبر اني الرجل الذي ذكرتهُ ولكن اين رأيتني

قال رأيتك وقد جئت بيت يحيى النحوي الاسكندراني بعد انحيازه لجماعة اليعاقبة مع سيدك المقوقس الا تذكر ذلك (١)

قال نعم اذكر ذلك جيداً فانت اذن زياد العربي

قال نعم انا هو زياد فلا تخف فهل جئت هذا المعسكر تتجسس حال العرب

قال لا والله وانما ساقتني اليهِ التقادير عن غير قصد مني وانت ما الذي جاء بك الى هذا المكان هل تأذن لي بالسؤَال عن ذلك

قال اما مجيئي الى هذا المكان فقد كان بمهمة لا أخفيها عنك على اني لا اخافك

(١) طبقات الاطباء

ولو علمت حقيقة حالي فقد آنست بك اخلاصاً

قال ان ظنك في محلهِ واني أعد نفسي سعيداً لاجتماعي بك وقد رأيتك بالامس وآنست فيك خيراً وكنت منشغل البال لاستطلاع حالك مذ كنت جالساً على الاكمة خارج المعسكر مساء الامس وبيدك الرق فافصح ولا تخف

قال انا زياد العربي ولا يخفى عليك ان وجودي في الاسكندرية كان بالاتفاق اذ قلَّ وجود العرب في بلادكم واما قصتي فسأقصها عليك على انفراد لئلا يسمعنا الجند الرومي نتكلم القبطية فيستغشونا والافضل تأجيل حكايتي الى المساء على انفراد

قال حسناً فلنتكلم الآن بالرومية فاني اريد الاستفهام منك عن بعض ما اشاهد في هذا الجيش وقد عجبت لحال هذا الامير وسررت لما ارى في وجههِ من الصباحة وما يتجلى في محياه من الشجاعة والشهامة ولا عجب اذا ساد العرب على الدنيا بأجمعها اذا كانت هذه حالهم وهل عرفت شيئاً عن حال يوقنا هذا فاني اراه رومياً ولكنهُ يلبس العمامة ويتزيا بزي العرب وهذا جندهُ في لباس الروم

فتبسم زياد كأنهُ يفتخر بجنس العرب وقال ان العرب اهل شهامة واقدام وشجاعة ولا غرو اذا فتحوا الامصار واخضعوا الملوك وانظر الى ابن العاص فانهُ من خاصة رجالهم وانا اعرفهُ مذ كان جاهلياً وهو يعرفني جيداً ولعلهُ اذا رآني الآن ان يناديني باسمي ويرحب بي ويجلسني الى جانبهِ ولكنني لا أريد ان يكون ذلك بمحضر من الناس اكراماً لمن ارسلني لانهُ يود ان تكون رسالتهُ سرية

فقال ومن هو هذا الترجمان الذي ينقل الكلام بين يوقنا وعمرو

قال هو وردان مولى عمرو وهو يعرف اليونانية والعربية جيداً ويعرف القبطية ايضاً وانا لا أعرفهُ قبل الآن ولكنني فهمت ذلك من كلامهِ وسأعرف الليلة حكايتهُ وحكاية هذا الجند واطلعك عليها

فقال مرقس احب كثيراً ان اعرف حقيقة حالك وما جئت من أجلهِ لكي يكون كلامنا اكثر ايضاحاً

قال تعالَ ننفرد جانباً . واخذهُ بيدهِ وخرجا من المعسكر والجند منشغل بشؤونهِ ولم يلتفت اليهما احد حتى وصلا الى مأمن فجلسا

« سيأتي البقية »

الهلال

الجزء الحادي عشر من السنة الرابعة

(١ فبراير (شباط) سنة ١٨٩٦) (١٧ شعبان سنة ١٣١٣) (٢٤ طوبه سنة ١٦١٢)

اشهر الحوادث واعظم الرجال





موليير

موليير

محيي فن التمثيل في فرنسا

(ولد سنة ١٦٢٢ وتوفي سنة ١٦٧٣)

تمثيل الروايات من الفنون القديمة واليونان أول من مثّل الحوادث وقلد وقائعها وأول من فعل ذلك منهم سوزاريون ودولون فقد مثّلا رواية في اثينا سنة ٥٦٢ قبل الميلاد وجرى على ذلك من جاء بعدهما من اليونان والرومان وهذا ما يسمونه فن التمثيل القديم وكان قاصرًا على بعض الالعاب او تمثيل بعض الوقائع التاريخية او شبه التاريخية المقتبسة من روايات هوميروس وغيره

أما فن التمثيل الحديث فقد نشأ في اوائل التاريخ المسيحي وكان في اول عهده محصورًا في تمثيل الوقائع الدينية نقلاً عن التوراة والانجيل او ما يترتب عليهما وأقدم رواية مثلت على هذا النحو رواية غريغوري نازيانزن احد رؤساء الكنيسة سنة ٣٦٤ م مثّل فيها آلام السيد المسيح . ومن هذا القبيل تمثيل واقعة الحسن والحسين في عاشوراء. ولتمثيل هذه الوقائع وقع عظيم في النفوس . ثم اتخذ التمثيل الحديث صبغات مختلفة لم يكن لها شأن يذكر . على ان هذا الفن لم يتخذ شكلاً قانونياً الاّ في القرون الاخيرة وأول من فعل ذلك تريسينو الايطالي فقد مثل رواية في رومية بحضور البابا ليون العاشر سنة ١٥١٥ م سماها صوفونيسبا وفي اواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر ظهر شكسبير في انكلترا وموليير في فرنسا فاحييا هذا الفن وجددا رونقه والبساه حلة لا يزال خلفاؤهما ينسجون على منوالها الى هذه الغاية

ولد موليير في ١٥ يناير (ك ٢) سنة ١٦٢٢ في باريس وكان ابوه منجدًا يتعاطى تجارة الانسجة الموشاة التي تعلق بجدران المنازل واسمه جان بوكلين فلما ولد له صاحب الترجمة سماه جان باتيست ثم لقب موليير بعد ذلك . وبعد ولادة موليير بقليل تعين والده منجدًا للملك لويس الثالث عشر على ان يكون لابنه الحق في الاستيلاء على ذلك المنصب بعده ففي سنة ١٦٣٧ اصبح صاحب الترجمة منجدًا للملك وهو لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره وقد تولى هذا المنصب موقتاً لانحراف صحة والده وأُتيح له بسبب ذلك مرافقة الملك اثناء تجواله في انحاء المملكة فاكتسب فوائد عظيمة من

مراقبة احوال الناس وملاحظة الاختلاف بين عوائدهم واخلاقهم

أما معارف موليير في صغره فقد قال فولتير وغيره ممن ذكروا ترجمة حياته ان والده لم يعلمه الاَّ مبادئ القراءة والكتابة وشيئًا من الرياضيات ولكن آخرين يؤكدون انهُ تفقه في مدرسة الآباء اليسوعيين فاتقن علوم اللغة والشعر وسائر العلوم الأدبية القديمة على ان جده كان قد توسم في الغلام نباهة وذكاء وميلاً خاصاً الى التمثيل ورأى فيهِ مقدرة عليهِ بمواهب خصوصية فطر عليها فكان اذا دعي الى اجتماع من هذا النوع صحبهُ وكان يعجب بما يعاينهُ من سرعة خاطره ودقة نظره في الملاحظة على ما كانوا يجرونهُ من التمثيل ولم يكن التمثيل اذ ذاك من الدقة والاتقان على شيء.

فلم يبلغ الثالثة والعشرين من عمره حتى اخذ في مباشرة التمثيل وكان اوَّل مباشرته اياه انهُ تضافر وبعض أصدقائهِ من الشبان على تأليف جوق ألَّفوه منهم واخذوا في التمثيل سنة ١٦٤٥ بمرسح سموه «المرسح الشهير» وفي اثناء ذلك أُطلق على صاحب الترجمة لقب موليير ولا يُعرف السبب الحقيقي لتلقيبهِ بهِ ولهم في تعليل ذلك اقوال مختلفة لا محل لها هنا . وكانت صناعة التمثيل في ذلك العهد تقضي على صاحبها بالتجوال من بلد الى آخر يقيم في البلد مدة فاذا فرغ من تمثيل رواياتهِ انتقل الى بلد آخر وقد تطول مدة اقامتهِ او تقصر بنسبة ما يلقاه من الاقبال او يتوسمهُ من الربح حيث يقيم فكان فن التمثيل من اكثر الفنون مشقة وفقرًا وقد شهد بذلك موليير نفسهُ في اواخر ايامهِ فكان ينصح لكل من استنصحهُ ان لا يتعاطى هذه المهنة وزد على ذلك ان التمثيل كان قاصرًا بفرنسا على تمثيل الروايات الهزلية المضحكة اشبه شيء بما يسمونهُ في اصطلاحهم (فارصا)

أما جوق «المرسح الشهير» فما زالوا عاملين على التمثيل يجيدون تارة ويفشلون اخرى ولكنهم كانوا على الحالين يكتسبون اختبارًا ومعرفة باسفارهم وتنقلهم ولعل ما بلغهُ موليير بعد ذلك من اتقان هذا الفن انما هو راجع الى اختباره وتمرنهِ في تنقلهِ فقد عاشر سائر طبقات الناس من الفلاح الفقير الى الماركيز الكبير وعاملهم وتدبر اخلاقهم وعوائدهم

فقضى في مثل هذه الحال ثماني سنوات يمثل روايات الفها الناس قبلهُ ففي سنة ١٦٥٣ مثل اوَّل رواية من تأليفهِ هو سماها «لينوردي» فوقعت لدى الناس موقعاً

حسناً وقد اتفق تمثيلها اوّل مرة في ليون بحضور احد كبار العائلة الملوكية فاعجب بها كثيراً فذاع صيتها في سائر انحاء فرنسا على انها لم تكن تصنيفاً محضاً بل كانت اقرب ان تكون ملخصة عن رواية ايطالية فى هذا المعنى ولكنها اكسبت موليير شهرة اعدت قلوب الفرنساويين وعقولهم لاحترامهِ والاقبال على ما يؤلفهُ او يمثلهُ فلما رأى اقبال الناس على روايتهِ هذه وسمع امتداحهم مواهبهُ في فن التمثيل نشط للمثابرة على العمل فالف في السنة التالية رواية ثانية سماها « دبي امورو » جاءت افضل من سابقتها وقد بدأ فيها بايضاح الفرق بين عواطف الناس باختلاف طبقاتهم فمثّل فيها نوعين من الحب احدهما بين سيد وسيدة والآخر بين خادم وخادمة وفي ذلك من تمثيل العواطف على اختلاف احوالها ما يدل على مهارة المؤلف واختباره

كل ذلك والرجل يطوف البلاد بجوقهِ كما قدمنا ولكن مطامعهُ كانت متجهة الى باريس العاصمة فكان اذا تصوَّر انهُ اقام فيها وتعاطى مهنتهُ ونال رضى الباريسيين خفق قلبهُ فرحاً . وكان زمام مملكة فرنسا قد عهد الى لويس الرابع عشر وكان شاباً محباً للهو فاذن لموليير بالاقامة في باريس هو وجوقهُ تحت حمايتهِ سنة ١٦٥٨ وسنهُ اذ ذاك ٣٦ سنة وهو اول ما نال ذلك الالتفات بعد شق الانفس فمثّل روايتهُ امام الملك وسائر ارباب دولتهِ والاشراف والوجهاء فاجاد اجادة لم يعهدها قبلاً فازداد شهرة ونشاطاً

وفي سنة ١٨٥٩ ألف رواية هجوية هو واضع موضوعها سماها « السخريات الثمينة » عرّض فيها بجمعية كانت مؤلفة من نخبة وجهاء باريس وعلمائها ولكنها كانت قابلة للانتقاد فعرض بها موليير بروايتهِ هذه وانتقد كثيراً من احوالها فاصلحها واصلح بها كثيراً من العوائد الباريسية التي لا تنطبق على التمدن الحقيقي فكثر تحدث الناس بموليير ورواياتهِ

ولكن القلم لا يأمن الزلل تارة بعد اخرى وخصوصاً اذا كان عهدهُ في صناعة التأليف قريباً فقد الف موليير بعد روايتهِ المتقدم ذكرها رواية سماها « سغانارل » اشبه بالسخرية منها بالروايات الجدية لم يمثلها الا مرة وكذلك رواية اخرى سماها « الزوج الغيور » فهاتان الروايتان لم تكادا تظهران حتى اختفتا

فعاد موليير وشحذ قريحتهُ ونظر الى ما يرضي الباريسيين ويوافق اذواقهم ويفيد

تمدنهم فالف رواية « مدرسة الازواج » مثلت في حفلة شائقة حضرها لويس الرّابع عشر ثم مثل رواية اخرى سماها « المزعجين » في حفلة اخرى مثل تلك عرض فيها بالمبارزة (دو بلو) وقد كان الباريسيون كثيري المبارزة لاقل سبب فانتقد تلك العادة وكان لانتقاده تأثير شديد وخصوصاً ان الرواية مثلت في حفلة ملوكية

وفي سنة ١٦٦٢ تزوّج موليير ابنة احبها كثيرًا ولكنها لم تكن تستحق محبتهُ ومن الغريب انهُ مثل الرّوايات لتعليم الناس وتدريبهم وهو صاحب رواية « مدرسة الازواج » وكان اقل الازواج معرفة في مقتضيات تلك المدرسة فقضى مع امرأتهِ هذه اعوامًا لا يهدأ لهُ بال وقد انقبضت نفسهُ وتنغص عيشهُ حتى كثيرًا ما كان ينفي لياليهُ ساهرًا ارقًا لكثرة الهواجس وكثيرًا ما حدثتهُ نفسهُ ان يحجر على امرأتهِ تأديبًا لها لعلها تدرك واجباتها نحوهُ ولكن رقة عواطفهِ وشدة حبهِ لها لم تكونا توءذنان لهُ بذلك وكان اذا صمم على تأنيبها او عقابها ثم التقى بها وحادثتهُ تغير قلبهُ ونسي كل سيئاتها وهاك كلام موليير يشكو حالهُ لصديق لهُ قال

« ان حضور هذه المرأة امامي ينسيني كل ما صممت النية عليهِ لأَدبها وهي لاتحتاج لدفع حجتي الى اكثر من كلمة واحدة تدافع بها عن نفسها فيخال لي اني اتهمتها زورًا وانها بريئة فأَعتذر لها والتمس الصفح عن جسارتي فاذا خلوت بنفسي عدت الى صوابي ورأيتني مسحورًا او كأَن خبلاً أصابني فاعود الى هواجسي » فما برحت هذه المرأة سببًا لشقائهِ الى آخر ساعة من حياتهِ

أما في صناعة التمثيل فما زال يتقدم يومًا فيومًا وشهرتهُ تتسع في سائر انحاء اوربا حتى حضر تمثيل رواياتهِ نخبة من عظماء الارض منهم لويس الرّابع عشر وهنريتّا ماريا امرأة ملك انكلترا ودوق اورليان شقيق الملك وغيرهم من الامراء والوزراء وما منهم الاَّ من أُعجب بمهارتهِ فانهالت عليهِ النعم والمدائح ثم توفي والدهُ فافضت وظيفة التنجيد الملوكي اليهِ ولكنهُ سمي « خادم غرفة الملك » ومن واجباتهِ المساعدة في اصلاح سرير الملك فاتصل بذلك الى مجالسة ارباب الدولة ومؤاكلتهم ولكنهم كانوا يستنكفون منهُ لانحطاط مهنتهِ في اعتبارهم عن مناصبهم فاحس الملك بالامر فدعا موليير مرة الى طعام الصباح ولم يكن غيرهما على المائدة ثم دخل عليهما جماعة من كبار ارباب الدولة فعجبوا لما شاهدوه من احتفاء الملك بذلك الممثل فاذا بالملك

قد تناول دجاجة فقطع احد جناحيها وناوله الى موليير وتناول الآخر هو والتفت الى الوزراء وتبسم قائلاً «أرأيتم كيف اني اهيّء طعام موليير بنفسي ولكن حضراتكم تستنكفون من مجالستهِ» فخجلوا جميعًا وجعلوا من ذلك الحين يحترمون موليير ويتسابقون لدعوتهِ الى ولائمهم

ثم ألف موليير رواية هجوية سماها «مدرسة الزوجات» قبح بها عادة الفرنساويين اذ ذاك في اهمال امر المرأة وتركها في حالة الجهل وحثهم على تعليمها وتثقيفها وكان الفرنساويون يعتبرون تعليم المرأة مفسدًا لسلامة نيتها فبيّن لهم ان الجهل شيء وسلامة النية شيء آخر وان التعليم يذهب الجهل ولا يؤثر على سلامة النية . ولكنهُ شدد اللهجة كثيرًا فشق ذلك على كثيرين من ارباب المناصب العالية واخذوا يعرّضون بهِ فلم يحرم ممن يدافع عنهُ من ارباب الاقلام واصحاب المناصب فاشتد اللجاج بين الفريقين وكان الملك في جانب موليير يشجعهُ وينشطهُ ومَن كان الملك نصيرهُ كيف لا يكون الفائز فلم يزدد في عيون الناس الاّ رفعة واحترامًا

فألف رواية اخرى على مثل ما تقدم سماها «الزواج قهرًا» وكان الملك نفسهُ أحد الراقصين فيها ثم ألف روايات اخرى كثيرة ومثلها فزادتهُ شهرة ورفعة منها رواية «ترتوف» عرض بها بجماعة من الاكليروس كانوا يستخدمون المظاهرات الدينية التماسًا للثروة وطمعًا بالمال لانفسهم وسامح المراثين وكان في مجلس لويس الرابع كثيرون من امثالهم فقاموا وقعدوا وهاجوا وماجوا واكثروا من الوشاية والسعاية ضدهُ ولكن الملك ما انفك آخذًا بناصرهِ فأثرت روايتهُ هذه تأثيرًا شديدًا في ما ينطبق على أخلاقهم فكانت لهم عظة وعبرة

ثم ألف سنة ١٦٦٥ رواية نالت شهرة عظمى سماها الوحشية «ميزانثروب» مثّل فيها اخلاق بعض الناس ممن هم اقرب الى الاخلاق البهيمية منها الى الانسانية وموليير يعتبر هذه الرواية من افضل مؤلفاتهِ

وظهر بعد ذلك رواية «التطبيب قهرًا» وهي مضحكة هزلية ثم رواية «البخيل» وهي من خيرة مؤلفاتهِ ثم رواية «الخواجه بورسنياك» وهي رواية مضحكة ثم ظهرت لهُ روايات اخرى صغيرة بمواضيع مختلفة اكثرها مضحك . ثم اقتضت الاحوال بينهُ وبين بعض حاسديهِ انهُ الف رواية هجوية سماها «النساء العالمات» فعرّض بهم

وقبح آراءهم على ان تقرّبهُ من الملك لم يمنعهُ من مواصلة التمثيل وجوقهُ ما زال عاملاً يمثل رواياتهِ ولما اشتد العتاب عليهِ ممن سلقهم بتوبيخهِ على سبيل التمثيل نصح لهُ بعض الاصدقاء ان يترك هذا الفن فأبى الاَّ مواصلة العمل وقال «ان الكف عن التمثيل بسبب خسارة كبرى لاكثر من مئة عائلة تكتسب طعامها من بقاء هذا الجوق» فبقي مواظبًا على هذه الخدمة

وآخر رواية مثلها رواية «المريض الوهمي» عرض بها بجهالة بعض اطباء تلك الايام وكان موليير مريضًا فاشتد عليهِ المرض حتى توفي سنة ١٦٧٣ بين اصدقائهِ وراهبتين من جمعية الاحسان كان كثير الاحسان اليهما في حياتهِ فلما ارادوا دفنهُ لم يصرّح لهم القسس بهِ الاَّ بتوسط الملك بدعوى ان الرجل خرج من شركة الكنيسة وكان محرومًا بسبب رواية «ترتوف» المتقدم ذكرها

وكان موليير حاد الذهن سريع الخاطر لطيف المعشر حرّ الضمير يمقت الرياء ويهجو مرتكبيهِ وكان مقتدرًا في فن التمثيل على انواعهِ وخصوصًا في الروايات المضحكة وكان هجاءًا مرًّا وقد رأيت منزلتهُ لدى الملوك والامراء. وكان لويس الرابع عشر يرتاح الى مشاهدة تمثيلهِ واستماع احاديثهِ وهو اوَّل من الف في فن التمثيل بفرنسا ولم يقم بعده افضل منهُ هناك حتى الآن

التماس من حضرات القرّاء

نرجو ممن يعثر على رسم فوتوغرافي أو غير فوتوغرافي لأحد الاشخاص الآتي ذكرهم أن يتكرّم بارسالهِ الينا أو ينبئنا عن محل وجوده لنستخصرهُ ويكون لهُ الفضل وهذه هي اسماء الاشخاص المطلوبة صورهم

المعلم غالي	سليمان باشا الفرنساوي
المعلم بطرس كرامه	ماريت باشا
حنا بحري بك	مارون نقاش
محمود باشا الفلكي	الشيخ ابراهيم الاحدب

باب المقالات

تاريخ الانسان
في أوائل العمران

(٣) اللغة

(١) الدور التقليدي (تابع ما قبله)

التفاهم بالاصوات ذكرنا في الهلال الماضي كيف يتمّ التفاهم بالاشارات في الدور التقليدي فلنتقدم الى الكلام على التفاهم بالاصوات

(الأصوات الطبيعية)

نريد بالاصوات الطبيعية الاصوات الجارية في الطبيعة وهي اما ان تحدث عن تفاعل القوى الطبيعية كاصوات الرعد وهبوب الريح وسقوط المطر وتصادم الاجسام الجامدة كالحجارة وغيرها او ان تحدث عن العالم الحي كاصوات الحيوان على اختلاف انواعه كصهيل الفرس ونقيق الضفدع ومواء الهر وما شاكل ذلك

فتقسم الاصوات الطبيعية بهذا الاعتبار الى اصوات حية واصوات غير حية

فالأصوات الحية تقسم الى اصوات الانسان واصوات الحيوانات الاخرى واصوات الانسان اما اضطرارية او اختيارية والاضطرارية هي التي يحدثها الانسان عن غير قصد او رويّة ويراد بها التعبير عن الانفعالات النفسانية وشأنها في ذلك شأن الاشارات الاضطرارية . وهي اما « غتمية » كالاصوات التي يخرجها الانسان عند الانفعالات النفسانية ولا تميز فيها المقاطع كالانين والعنين والاحيح وهي اصوات المتوجعين والمغمومين . والهمهمة وهو الصوت الحاصل من تردد الزفير همًّا او حزنًا . والزحير او اخراج النفس بشدة عند عمل شاق . والنحيم او النهيم وهو شبه انين يخرجه العامل المكدود فيستريح اليه

وامّا « مفصحة » وهي التي يخرجها الانسان عند الانفعال النفساني وقد تميز فيها

المقاطع كقولنا آه للتعجب او التحسر وأوه للتوجع وأوف للاشمئزاز او الضجر وآخ للانبساط وأر للغضب والتألم وبش للاستحسان وشه لعدم الاستحسان ووي للتأوه وقهقه صوت الضحك وغير ذلك

والاصوات الاختيارية هي التي يخرجها الانسان او غيره من الحيوان بقصد مثل تف حكاية صوت الباصق وأف حكاية صوت النفخ وهه حكاية صوت الزفير الاغتصابي وقس على ذلك اصوات الصفير والتصفيق والنحنحة والغرغرة والسعال والعطاس والشخير والغطيط والجشاء وما شاكل ذلك مما يعد بالعشرات

أما اصوات الحيوانات الاخرى فكثيرة جداً اذ لكل حيوان من ذوات الاصوات صوتًا يعرف به كمواء السنور وعواء الكلب وصرصرة البازي ونباح الكلب وصهيل الفرس وفحيح الافعى ونبيب التيس

أما الاصوات غير الحية فاكثر من ان يحصيها عدّ كقطقطة الحجارة وقعقعة الرحى وجعجعتها وطنطنة الجرس ورش الماء ودويّ الرعد ومن هذا القبيل قطْ حكاية صوت القطع ولطْ حكاية صوت اللطم وزيش حكاية صوت السهم اذا رمي وفَق حكاية صوت القربة اذا فتحت بغتة وغير ذلك مما لا يقع تحت الحصر . ومما نوجه ذهن القارئ اليه ان الاصوات الطبيعية على اختلاف مصادرها ليست من المقاطع الواضحة في شيء ولكنها تؤثر في اذهاننا تأثيرًا اذا اردنا التعبير عنه نطقنا بمقطع او لفظ يشبهه وهذا ما نريد به حكاية الصوت

فمن حكاية الاصوات الطبيعية الحية وغير الحية على اختلاف مصادرها ومظاهرها اقتبس الانسان لغة فاتخذها اولاً بالتقليد للتعبير عما يحدثها او ما يتعلق به وهذا ما نسميه اللغة الطبيعية ثم تنوعت وتفرعت بالنحت والابدال والقلب تبعاً لاحتياجات الانسان حتى صارت الى ما هي عليه بتوالي الاجيال

ولزيادة الايضاح راجع ما كتبناه عن النحت والابدال والقلب في مقالة « تحليل الالفاظ العربية » صفحة ٤٤٧ من هلال السنة الثالثة

وكيفية تألف اللغة من الاصوات الطبيعية ان يقلد الانسان تلك الاصوات او ما يحاكيها للدلالة على الاشياء التي تحدثها كما لو اراد الدلالة على الكلب بتقليد صوت عوائه او الاشارة الى الريح بتقليد صوت هبوبها او اذا اراد قولنا قدّ تقلد

صوت القطع وهو قَطْ او ما شاكل ذلك وشأن الانسان في اوائل عمرانهِ شأن الطفل الرضيع فمراقبة نمو الطفل وكيفية تعبيرهِ عن الظواهر المحيطة بهِ قبل تعلمهِ لغة والديهِ اشبه شيء بحال الانسان في طفولية الارض فالطفل لو ترك لفطرتهِ لدلَّ على كل حيوان بتقليد صوتهِ وعلى كل آداة بما تحدثهُ من الصوت وقد يستعين بالاشارة وهو في الواقع يفعل ذلك الآن ولكنهُ لا يلبث ان يتعلم لغة من هم حولهُ ويتناسى لغتهُ الطبيعية

وقد يعسر التسليم بنشوء اللغة عن الاصوات الطبيعية وحدها لأنها لا تكاد تذكر بالنسبة الى الفاظ اللغة واشتقاقاتها وأنواع تعبيرها مما يعد بمئات الالوف على حين ان الاصوات الطبيعية لا تكاد تزيد على المئة والجواب ان ذلك طبيعي جارٍ في الطبيعة يتناول سائر الاجسام الحية وما يتعلق بها فكلها تنمو وترتقي وتتنوَّع وتتفرَّع وتتكاثر جريًا على ناموس الارتقاء العام . فقد رأيت في ما تقدم من تاريخ الانسان انهُ تدرَّج الى سائر حاجياتهِ فارتقى من ابسط الادوات الى ما يتركب منها حتى صارت تعد بالمئات فكانت القطعة من الجلد مثلاً تقوم عندهُ مقام كثير من الثياب والاثاث فكان يتزر بها نهارًا ويلتحفها ليلاً ويستظل بها من حر الشمس او يعلق بها باب كهفهِ وقد يحمل بها ما يحتاج الى نقلهِ من الطعام او غيرهِ او يغطي بها رأسهُ وقاية من المطر او حر الشمس وربما اتقى بها رمي الحجارة عليهِ وقد يستعين بها على اعمال اخرى كثيرة لا تحصى فهي تقوم عندهُ مقام اللباس والفراش والبيت والستارة وآنية الحمل والدرع والمظلة وغير ذلك

وهو انما توصل الى هذه الادوات الكثيرة بعد ذلك تدريجًا بالنمو الطبيعي وهكذا يقال في الفاظ اللغة فقد كانت اللفظة الواحدة او المقطع الواحد يقوم مقام مئات من الالفاظ فيدل على ما لا يكفي للدلالة عليهِ الآن الاَّ عشرات او مئات من الالفاظ . من امثلة ذلك ان الانسان رأى الماعز مثلاً وسمع صوتهُ فدلَّ عليهِ بحكاية صوتهِ وهي مَعْ وهكذا يفعل الاطفال اليوم فانهم يدلون على الماعز بقولهم « مع » ولكنهم يدلون بها ايضًا على لحمهِ وعلى شعرهِ وعلى اشياء اخرى يختلف تعيينها باختلاف الاحوال . والانسان في اوَّل فطرتهِ سمع صوت القطع مثلاً فتفاه بمقطع « قطْ » وجعل يدل بهِ عما هو في لغتنا قطع او كسر ولكنهُ كان يدل بهِ ايضًا على كل ما

يتعلق بالقطع مثل فعل القطع والمادة المقطوعة واليد التي قطعت والاحوال التي قطعت فيها وما شاكل ذلك

ثم ان كل مقطع من المقاطع الطبيعية يتحوّل بالنحت والابدال والقلب و بالنمو والتفرّع والتنوّع الى الفاظ كثيرة مشتركة في المعنى الاصلي فيخصص الانسان كل تفرع لفظي بتفرّع معنوي على أساليب وطرق لا ضابط لها وسيأتي الكلام عليها

ففي الدور التقليدي تقتصر اللغة على تقليد حكايات الاصوات الطبيعية على اختلاف مصادرها وهي اللغة الطبيعية الصوتية وهي قليلة الالفاظ بسيطة البناء لا فرق فيها بين الاسم والفعل والحرف ولا ظرف فيها ولا اشتقاق ولا تصريف فيسهل التفاهم بها بين سائر اصناف الناس على اختلاف المناطق والاقاليم كما في الحال في لغة الاشارات الطبيعية على اننا لا نعلم بوجود لغة على هذه الحالة مطلقًا ولكن بعضها اقرب من البعض الآخر اليها . وادنى ما يعرف من لغات البشر لغة بعض سكان اوستراليا واواسط اميركا الجنوبية فانها نظرًا لقلة موادها لا تفي باغراضهم في التعبير عن كلما يحتاجون اليه على قلة احتياجاتهم فيضطرُّون لاستعمال الاشارات فتراهم اذا تكلموا صوّتوا واشاروا بايديهم وارجلهم واعينهم . والاشارات قسم مهم من لغتهم لا يمكنهم الاستغناء عنه فهم لا يستطيعون التفاهم ليلا . والفاظ لغتهم اقرب الى الاصوات الطبيعية منها الى الفاظ لغاتنا

ومن قاطني اوستراليا ايضًا من لا تسعفهم لغتهم في التعبير عما وراء الاثنين من الاعداد بلفظ واحد اذ ليس لديهم من الالفاظ العددية الا كلمتان فقط وهما نتات واحد و « نابس » اثنان فاذا ارادوا ثلاثة جمعوهما معًا وقالوا « نابس نتات » او اربعة « نابس نابس » او خمسة « نابس نابس نتات » او ستة « نابس نابس نابس » أما السبعة وما وراءها فيقفون عندها مندهلين وتضيق دونهم سبل التصوُّر فيعبرون عنها بقولهم « كثير » ومنهم من يعبرون عن كل تنوعات معنى القطع بكلمة واحدة وما يفيد في الاطلاع على كيفية تحوّل معاني الكلمات ما يعبر به بعضهم مما هو من الغرابة بمكان فان منهم من ليس في لغتهم لفظة تؤدي معنى الصلابة فاذا اضطرّوا للتعبير عن قولنا « صلب » قالوا « حجر » وآخرون لا يقدرون على تأدية معنى الطول والاستدارة فيعبررن عن قولنا « طويل » بقولهم « ساق » و « مستدير »

بقولهم «مثل القمر» · ولا يخفى ان هذه الكلمات في غاية المناسبة لما وضعت له لان الحجر هو الجسم الاكثر شيوعاً بصفة الصلابة والساق اوّل ما يخطر للانسان تصوّر الطول فيها كما هو معلوم · واللغات في اوّل امرها خالية من الادوات والحروف اذ يعوض عنها في بادئ الامر بالاشارات ثم يستعار لها الفاظ ذات معنى في نفسها الى هنا ينتهي تاريخ اللغة في دورها التقليدي وسيأتي الكلام على الدور النطقي

باب المراسلات

هل تعلو منزلة المرأة بالعلم اكثر أم بالمال

سيدي الفاضل منشئ جريدة الهلال الغراء

اطلعت في الهلال الماضي على اقتراح في منزلة المرأة هل تعلو بالعلم اكثر ام بالمال فجواباً على ذلك اقول

تختلف منزلة المرأة باختلاف الامم والشعوب ولو تتبعنا التاريخ منذ القدم لرأينا ان مقامها بين الامم القديمة كان رفيعاً و في عصرنا هذا زادت في علو المنزلة الى درجة لم تتصل اليها في الازمنة الغابرة بما اقتبسته من العلوم حتى انها قامت تجاري الرجل في اعماله وتنازعه في حقوقه وتطالب مساواته لا تطمع بالانتصار عليه في امور ليست من شأنها ولن تقوى على اتمامها لان الطبيعة لم تهبها اخلاق الرجل بل خصتها بفروض وجب عليها القيام بها · فمنزلتها تعلو بنسبة مقدرتها على القيام بتلك الواجبات فأي الاثنين اكثر مساعدة لها في اتمام تلك الواجبات العلم أم بالمال وهذا مدار البحث في هذه المسألة فنقول

ان سبب وجود المرأة في الخليقة هو حسب أمر الخالق الذي اوجد حواء ان تكون حليلته كأنه امرها منذ البدء بان تتحلى بالصفات الحسنة لكي تكون رفيقة للرجل على الارض تعاونه في اعماله وتنوب عنه بتأدية بعض لوازم المعيشة · فلهذا اعتنى

الرجل على توالي الايام باكتساب الوسائط المادية تاركًا للمرأة الاهتمام بالادبية منها فبعد ان عاشت اجيالاً تحت نير الجهل همت رويدًا رويدًا في اكتساب المعارف فخلعت عنها اثواب الخمول واجتهدت بان تسير على طريق التقدم والعلم حتى اظهرت كفاءة طبيعية لاقتباس العلوم على اختلاف مواضيعها فنالت منزلة اعترف بعلوها الرجل و زادت لديه بهاء وحسنًا . ولعلها بأنها لا تقوى على حفظ حقوقها ومركزها الاّ بصفاتها الادبية واظبت على التفنن والتقدم في هذا السبيل حتى شاركت الرجل في اعماله الادبية وصارت معينًا له يركن اليها في جميع الاحوال و يستشيرها عند الحاجة . فهل كان للمال من ذلك نصيب . كلاّ . لأنها لم تعتن بجمعهِ لتأكدها ان المال ليس من خصائصها كلياً فلهذا قل تدبيرها به حتى اشتهرت بتبذير المال اكثر من حفظهِ . وتأ ييدًا لما تقدم قد ورد في التواريخ ان الممالك اذا تقلد زمام احكامها النساء تقدمت ادبياً اكثر من تقدمها مالياً ونرى ايضًا ان اغلب العصور التي امتازت بتقدم العلوم في زمن الملوك كان الحامل على نشر العلوم فيها نساء اولئك الملوك وقد كنّ متصفات بحب الآداب يعتنين بنشر العلوم ويحملن ازواجهنّ على مساعدة الحكماء وتشجيع العلماء وهؤلاء كانوا يسعون بنفوذهن لنيل المرغوب فحفظ لهن التاريخ ذكرًا جميلاً ابدياً ودثر اسم الجاهلات منهن

ورب معترض يقول وما الحاجة اذًا الى طلب المال من النساء الآن والزيادة في اعتبار الموسرات منهن فالجواب

ان حب المال في عصرنا قد تغلب على الاميال الطبيعية فكثر المجتهدون في اكتسابهِ حتى لم يدعوا واسطة الاّ سعوا وراها للحصول عليهِ فاصبح نقد المرأة (الدوطه) امرًا عمومياً ولا أستهجنُ هذه العادة التي انتشرت بين الشعوب على اختلاف درجاتهم لاسباب كثيرة لا تخفى على من عرف عوامل المعيشة الحالية . على ان ذلك لا يدل على علو منزلة الغنية على العالمة لان من كان من الرجال عاقلاً كريم الخلق لا يرى الغنى كافيًا للمرأة فأوّل ما يرجوه في المرأة التي يريد الاقتران بها ولو كانت ذات ثروة انما هو ان تتزيا بحلى العلم ومهما كان المال وافرًا فهو ليس كافيًا لاخفاء عيوب الجهل وكم طمع الشبان بمال المرأة واغضوا عن فوائد العلم لها فباتوا يعضون الانامل ندمًا على وقوعهم في ما لا يرجون خلاصًا منهُ . هل يوجد على وجه البسيطة خليقة

ابهى من المرأة اذا تكلمت فيها اوصاف الآداب وأي سعادة اوقع في نفسك من فتاة تلقي على مسامعك من فصاحة معانيها ما يفتن الالباب بدرر الفاظها وكم من عظيم او امير اغضى عن الغنى والفخر وقد سحره ثغرٌ فصيحٌ حسن البيان ومهما اوردنا من الامثال في هذا الصدد لانفي بالشيء اليسير منها

فالفقر لا يحط بمقام الحكيمة العالمة لكن المال لا يرفع منزلة الجاهلة التي مثلها مثل المرأة القبيحة الخلقة التي مهما بالغت في اتقان لبسها لا يزيدها اللبس الاَّ قبحاً وقد تحققت اغلب السيدات الغنيات في عصرنا هذا علو منزلة العلم فبذلن المال في طلبهِ وسعين في اكتساب الفخر بلذيذ مؤاساتهن فصار لهن مقام رفيع بين ارباب الرتب والمناصب يتفاخرنَ بما حزنهُ من المعارف غير آسفات على ما انفقنهُ من المال في سبيلهِ

ونتيجة ما تقدم ان المال يزول والعلم يدوم والباقي اعلى قدرًا من الفاني والسلام

(المنصورة) « سليم بشاره خوري »

هل تعلو منزلة المرأة بالعلم اكثر أم بالمال

حضرة الفاضل منشيء الهلال المنير

اطلعت في الهلال العاشر على اقتراح يطلب فيهِ معرفة منزلة المرأة هل تعلو بالعلم اكثر ام بالمال · ولما كان العلم في حد ذاتهِ يشرف قدر المخلوق رأيت ان آتي ببعض الادلة التي تثبت علو منزلة المرأة بالعلم

(اولاً) من المعلوم ان المرأة هي الرّكن الاكبر في تدبير المنزل وتربية الاولاد وتأدبة لوازم الزوج واستقبال الزايرات واراحة الزائرين من حيثية المقابلة وتقديم الواجبات لكل منهم ونظافة المأ كل والمشرب والملبس وما شاكل ذلك وهي التي تزيل الاكدار عن زوجها اذا رأتهُ حزيناً او متضايقاً او مريضاً وتعاونهُ على السرّاء والضرّاء وتحسن تربية الاولاد فاذا كانت على علم يؤهلها لذلك تثقفت بمطالعة العلوم والتواريخ وعرفت واجباتها وليس كذلك اذا كانت غنية جاهلة فانها تفسد اخلاق اولادها وتقلق راحة زوجها وتنفر منها الاقارب والمعارف

(ثانياً) متى كانت المرأة متعلمة اكسبت نفسها الوقار والاعتدال وتجنب الرذائل والتبذير وكانت مصدر هناء وسعادة لزوجها واولادها واقتصدت في المعيشة وأمنت من كوارث الزمان وتباهت على غيرها فان المرأة الحكيمة اذا رأت زوجها معوجاً قومت اعوجاجه وحملته على عمل الخير واتباع الصراط المستقيم ولا تنفك ساهرة على خير شخصهِ ومستقبلهِ

(ثالثاً) اذا كانت المرأة غبية كلف زوجها النفقات الطائلة لأنها لا تعلم احتياجهُ من عدمهِ وتتبع انواع الموضة في كل حين حتى تكلفهُ ارتكاب الدين وتقطب وجهها اذا تأخر عن سد احتياجاتها ولا تبش في وجههِ وقد تستعين بمالها واهلها وبعد ان تنفر زوجها فتذيقهُ انواع الهوان والذل كما هو مشاهد بالعيان

(القاهرة) « حبيب طباب »

هل تعلو منزلة المرأة بالعلم اكثر ام بالمال

حضرة الفاضل منشىء الهلال الاغر

قد اطلعت على العدد العاشر من جريدة الهلال الغرّاء فوجدت بهِ سؤالاً مطروحاً على حضرات الادباء فيما اذا كانت تعلو منزلة المرأة بالعلم اكثر ام بالمال وجواباً على ذلك اقول ان فضل العلم في جميع الامم والاقطار اظهر من الشمس عند منتصف النهار بتطابق الادلة النقلية والبراهين العقلية قال الله تعالى (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وقال تعالى (يرفع الله الذين امنوا منكم والذين أُوتوا العلم درجات) قال ابن عباس في تفسيرها (للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعماية درجة ما بين الدرجتين خمسمائة سنة) وقال تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء) وهذا مع قولهِ (أُولئك هم خير البرية) الى قولهِ تعالى (ذلك لمن خشي ربهُ) يستلزم اقيسة من الاقتران الحملي والشرطي والاستثنائي منتجة لكون العلماء خير البرية وهو ظاهر لمن لهُ ممثلة في علم الميزان وقال تعالى (فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون) وقال تعالى (شهد الله انهُ لا اله الاَّ هو والملائكة واولو العلم) وقال مخاطباً لخير خلقهِ (وقل رب زدني علماً) ولم يقل زدني مالاً وقال جل شأنهُ (ولقد

وهبنا داود وسليمان علماً) ذكر العلم لزيادة شرفهِ (وقال الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين) قال المحقق السقني شيخ الملة والدين وقال المحقق البيضاوي يؤخذ من هذه الآيات الشريفة ان العلماء افضل من المجاهدين بأموالهم وانفسهم وغير هذه الآيات في القرآن كثيرة يؤخذ منها مزية فضل العلم على كل احد حتى على الاولياء ما لا يحصى واما ما ورد في السنة المطهرة ما لا يستقصى فمن ذلك ما روي عن ابي الدرداء رضي الله عنهُ قال (سمعت رسول الله صلى الله عليهِ وسلم يقول) من سلك طريقاً يلتمس فيهِ علماً سهل الله له طريقاً الى الجنة) وان الملائكة لتضع اجنحتها لطالب العلم رضاء بما يصنع وان العالم يستغفر له من في السموات ومن في الارض حتى الحيتان في الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر على الكواكب وان العلماء ورثة الانبياء لم يرثوا منهم ديناراً ولا درهماً وانما ورثوا العلم فمن أخذهُ أخذ بحظ وافر . واخرج الترمذي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليهِ وسلم قال (فضل العالم على العابد كفضلي على ادناكم) وقال امامنا الشافعي رضي الله عنهُ (لم يعط احداً في الدنيا افضل من النبوة ولم يعط احد بعد النبوة شيئاً افضل من العلم ويلزم كل امة اتباع علمائها) ومن كلام أمير المؤمنين سيدنا علي بن ابي طالب رضي الله عنهُ قال (كفى بالعلم شرفاً ان يدعيهِ من لا يحسنهُ ويفرح اذا نسب اليهِ وكفى بالجهل ذماً ان يتبرأ من هو فيهِ)

فاذا علمنا ذلك اتضح لنا ان منزلة العلم اشرف واعظم واعز وأكرم من منازل الملوك الجهال فضلاً عن الاغنياء . « احمد حسين »

« كاتب تفتيش اوقاف الجيزة والجزيرة »

اقتراحٌ على السادة العلماء

نرجو من سادتنا علماء شريعتنا الغراء الاسلامية افادتنا كيف نعتبر سكان القارة الامريكية من زمن بعثة نبينا (صلعم) الى عهد اكتشافها انعتبرهم في عهد فترة او ماذا وقد جاء في قوله تعالى (وما ارسلناك الاَّ كافةً للناس) وقوله (لِتُنذر من كان حياً) (امين محمد الناظر بالابراهيمية)

(الهلال) وقد وردت علينا رسائل اخرى في هذا الباب من حضرات الافاضل لطف الله افندي لطاني ناظر مدرسة الاميركان في السنبلاوين ونقولا افندي شيحا بالاسماعيلية والسيدة زوية عبد النور بمدرسة الاميركان بالمنصورة ولكنها وصلتنا متأخرة ونظرًا لانطوائها على مثل ما ورد في الرسائل المدرجة في هذا العدد وفرارًا من التطويل قد اكتفينا بالاشارة اليها مع الشكر لحضرات المراسلين

باب السؤال والاقتراح

اللغة العربية

(طوخ) يعقوب افندي جرجس

كم هو عدد الذين يتكلمون اللغة العربية وهل يقرأ المسلمون كلهم القرآن الكريم بالعربية على اختلاف لغاتهم

(الهلال) لا يمكن تعيين عدد الذين يتكلمون العربية تمامًا لاختلاط ذلك وتشابهه بين الولايات والاجناس ولكننا قد استخرجنا جدولاً حاويًا عدد سكان الولايات والمقاطعات التي يتكلم اهلها العربية الآن نقلاً عن المصادر الرسمية العثمانية وغير العثمانية وهو

في أسيا

ولاية الحجاز	٢ ر ٥٠٠ ر ٠٠٠
« اليمن	٢ ر ٥٠٠ ر ٠٠٠
نجد وحضرموت وعمان والحسا والبحرين وغيرها	٦ ر ٠٠٠ ر ٠٠٠
ولاية ديار بكر	٤٧١ ر ٤٦٣
« الموصل	٣٠٠ ر ٢٨٠
« بغداد	٨٥٠ ر ٠٠٠
المجموع (تقل بعده)	١٢ ر ٦٢١ ر ٧٤٣

(نقل ما قبله)	۱۲ر۶۲۱ر۷۴۲
ولاية البصرة	۲۰۰ر۰۰۰
« حلب	۹۹۴ر۶۰۴
« سورية.	۷۰۰ر۰۰۰
« بيروت	۴۰۰ر۰۰۰
متصرفية القدس	۳۲۹ر۰۰۰
« لبنان	۲۵۰ر۰۰۰

في افريقيا

القطر المصري	۷ر۰۰۰ر۰۰۰
السودان المصري سابقاً	۱۰ر۴۰۰ر۰۰۰
طرابلس الغرب	۸۰۰ر۰۰۰
بنغازي	۵۰۰ر۰۰۰
جزائر الغرب	۴ر۱۲۴ر۰۰۰
مراكش	۵ر۰۰۰ر۰۰۰
تونس	۱ر۵۰۰ر۰۰۰
زنجبار	۲۰۰ر۰۰۰
المجموع	۴۶ر۰۲۹ر۲۴۶

على ان جانباً من سكان الاماكن الاخرى المجاورة لهذه في اسيا وافريقيا يتكلمون العربية ايضاً فربما بلغ عدد المتكلمين بها باعتبار هذه الاضافة نحو خمسين مليوناً

أما القرآن الكريم فيقرأه المسلمون بالعربية على اختلاف لغاتهم على انه قد ترجم الى اكثر لغات العالم المتمدن ولا سيا لغات المسلمين منهم على ان غير المسلمين في اوربا قد عنيوا في ترجمته منذ اجيال فنقلوه الى لغاتهم وفسروهُ وطبعوهُ ونشروهُ وهم اوَّل من طبع القرآن في العربية طبعة هنكلمان في همبورغ سنة ۱۶۴۹ م طبعة غيره بعده . اما الترجمة فأوَّل من ترجم القرآن الى اللغات الاوربية عالمان احدهما انكليزي اسمهُ روبرت والآخر الماني اسمهُ هرمَن نقلاه الى اللغة

اللاتينية سنة ١١٤٣ م لكن هذه الترجمة لم تطبع الا سنة ١٥٤٣ في بسل باعتناء ثيودور بيلياندر ومن هذه النسخة نقلت أكثر الترجمات التي نشرت بعد ذلك في الايطالية والالمانية والنمساوية اما الفرنساوية فاوّل من ترجم القرآن اليها الموسيو دي ربر طبعت ترجمته هذه بباريس سنة ١٦٤٧ م وقد ترجم الى الروسية سنة ١٧٧٦ والى الانكليزية سنة ١٦٤٦ نقلاً عن الترجمة الفرنساوية . هذا فضلاً عن الترجمات الفارسية والتركية وغيرها من لغات الشعب الاسلامي

ترجمات التوراة

(يافا) اسعد افندي منصور

ان الكلمات « شثوم وقرقر وسربد » في الاصل العبراني بسفر العدد ص ٢٤ ع ١٥ و ١٧ و ١٩ وردت في الترجمة الانجيلية « مفتوح ويهلك (او ينقب كما في حاشية التوراة بشواهد) وشارد » وفي الترجمة اليسوعية « مغلق وبرج وبقي » فما هو المعنى الحقيقي او المرجح عندكم لهذه الكلمات في الاصل العبراني

(الهلال) للاجابة على سؤالكم جواباً واضحاً نأخذ كل لفظة من هذه على حدة وننظر فيها نظراً مستقلاً فنقول

(١) ان العبارة التي وقعت لفظة (شثوم) فيها في سفر العدد ص ٢٤ ع ١٥ ترجمها الاميركان هكذا « ثم نطق بمثله وقال وحيُ بلعام بن بعور وحي الرجل المفتوح العينين » وترجمها اليسوعيون « ثم ضرب مثلهُ وقال كلام بلعام بن بعور كلام الرجل المغلق العينين » ولا فرق جوهري الا في الفقرة الاخيرة وهي قول الاميركان « المفتوح العينين » وقول اليسوعيين « المغلق العينين » وقبل التقدم الى البحث في اصل اللفظة المختلف فيها نورد ترجمتها في الترجمات القديمة المعوّل عليها كما ترى فهي في الترجمة السبعينية (ἀληθινῶς ὁρῶν) ومعناها (الصحيح النظر) . وفي الكلدانية ([illegible]) اي (الحسن النظر) . وفي السريانية ([illegible]) اي (المكشوف العين) وهكذا في كل ترجمة أُخذت عن هذه الثلاث فان الترجمة العربية القديمة المطبوعة في نسخة البوليغلوت سنة ١٦٥٧ برومية تقول « الحديد البصر »

وفي الترجمة السامرية (مفتوح العين)

ولكن الترجمة اللاتينية المعروفة بالعامية تترجمها هكذا Cujus Obluratus (est Oculus) اي (المغلق العين) فاعتمد اليسوعيون في ترجمتهم عليها دون الترجمات الاخرى · وقد صرحوا في مقدمة ترجمتهم انهم قابلوها على الترجمة اللاتينية والسريانية واليونانية (السبعينية) غير انه اذا عرض اشكال في بعض الآيات اعتمدوا على النسخة اللاتينية · فالترجمات القديمة متفقة في ترجمة هذه الفقرة كما ترجمها الاميركان الا اللاتينية وعنها اخذ الآباء اليسوعيون

فلنبحث الآن في سبب هذا الخلاف فالفقرة العبرانية المختلف في ترجمتها هي (שתם העין) (شِتُوم هعَيِن) والخلاف واقع في ترجمة لفظ (شِتُوم) وهي اسم مفعول من شتم او ستم ومعناه اغلق او صدَّ ويقابلها في العربية سطم فيقال سطم الباب ردّه ومثلها سدَمهُ وفي بعض المعجمات العبرانية ان (شتم) هذه قبطية الاصل ومعناها اغلقَ ولكن اصل لفظ اغلق في القبطية (ⲑⲱⲙ) (ثوم) وقد تلحق بها الشين للمبالغة او التأكيد وقد يصح ان تكون هذه الشين بقية (اشر) اسم الموصول في العبرانية وكثيرًا ما تقوم الشين وحدها مقامها فتكون بمنزلة ألْ الموصولة في العربية وهي تقابل الدال اسم الموصول في السريانية والكلدانية وقد اوردناها في اوَّل ترجمة هذه الفقرة كما رأيت على اننا لا نحتاج الى هذا التكلف ولدينا اصل عبراني بالسين بدل الشين هو (ستم) ومعناه اغلق ويقابلة في العربية سطم او سدم وفي كل ذلك تأييد لصحة الترجمة اللاتينية واليسوعية

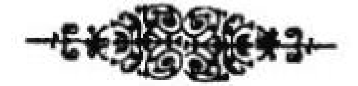
أما الترجمات الاخرى فيظهر انها رجعت في ترجمتها الى القرينة لان القرينة تقتضي ان يكون بلعام مفتوح العين كما يؤخذ من مراجعة ذلك الاصحاح واليهود في جملة من يعول على هذه الترجمة وهم يسندون رأيهم في ذلك الى التلمود اذ وردت لفظة (شتم) فيه يعني نقب او فتح فترجموا (شتوم) مفتوح ولكن اصحاب القول الاوَّل يسندون رأيهم الى ان النبيّ اذا كان في حال الرؤيا يتلقى الوحي اغلق عينيه لينقطع عن هذا العالم الى العالم الآخر

(٢) والعبارة التي وقعت بها لفظة (قرقر) في العدد السابع عشر من ذلك الاصحاح هي في الترجمة الاميركانية « فيحطم طرفي موآب ويهلك (او ينقب) كل

بني الوغا (او شيت) » وفي اليسوعية « فيحطم طرفي مواب و يرجع جميع بني شيت » والاختلاف واقع في ترجمة اول اللفظة الثانية وهي (يهلك) عند الاميركان (ويرجع) عند اليسوعيين وهي في الاصل العبراني (קרקר) قرقر وهي تقابل (قلقل) العربية وفيها معنى الاهلاك او النقب ففي النسخة اليونانية ترجموها ينهب او ينهب وفي السريانية (ܢܥܒܕ) اي يستعبد وفي الكلدانية (ܫܠܝܛ) اي يتسلط وفي الترجمة اللاتينية العامية (vastabitque) اي يسلب او ينهب وفي الترجمة العربية القديمة المطبوعة في نسخة البوليغلوت (يزلزل) وفي السامرية (يخرب او يزلزل)

فالترجمات كلها موافقة لمؤدى الترجمة الاميركانية ولا ندري ما اوجب ورودها في الترجمة اليسوعية (يرجع) فالظاهر انهم توهموا فيها معنى (قرّ) وهي تدل على السكون والبرد والثبات ومنها الراحة او لعل لديهم سببا آخر لم ننتبه له فيا حبذا لو تكرموا بازالة هذا الاشكال

(٣) اما العبارة الواردة فيها لفظة سريد في العدد ١٩ فليس بين ترجمتها في نسختي الاميركان واليسوعيين خلاف جوهري لان العبارة في الترجمة الاميركانية « ويهلك الشارد من مدينة » وفي الترجمة اليسوعية « ويهلك من كل مدينة من بقي » والمراد ان الذي يتسلط من يعقوب يهلك كل من بقي بعد الحرب الماضية وهم الشاردون من الحرب وفي الترجمة العربية القديمة « يبيد الشريد من القرى » والشارد النافر والشريد الطريد وكل منها تدل على من بقي بعد الحرب واللفظة في الاصل العبراني (שריד) وتلفظ سريد وهي والشريد العربية من اصل واحد . اما سبب الخلاف الظاهري بين الترجمتين فراجع الى الخلاف بين الترجمة اللاتينية وسائر الترجمات الاخرى فان السبعينية ترجمها (الذي سلم من المدينة) والسريانية (الذي نجا من المدينة) وهكذا ايضاً الكلدانية اما اللاتينية فتقول (الباقي في المدينة) اما الاصل العبراني فيقتضي ان تكون الترجمة (الشريد من المدينة)



ارمانوسة المصرية (تابع ما قبله)

فقال زياد اسمع يا مرقس لاحكي لك حكايتي على شرط ان تحكي لي حكايتك وما جئت بشأنه تماماً . قال اقسم لك برأس سيدي المقوقس وحرمة الصليب اني اخلصك القول

قال أما انا فاسمي زياد كما تعلم وأما سبب دخولي الاسكندرية وتنصري واعتناقي النصرانية فهو اني كنت من رفقاء عمرو بن العاص مذ كان في الجاهلية اعني قبل ان ظهر الاسلام وانتشر وكانت ديانتنا الوثنية كاكثر عرب الجاهلية وكنت مرافقاً لعمرو حيثما توجه فاتفق انا كنا يوماً نحمل تجارة على جمالنا الى بيت المقدس في جماعة من قريش فمررنا يوماً بضواحي تلك المدينة فاذا بشماس من شمامسة الروم من اهل الاسكندرية قدم للصلاة في بيت المقدس فخرج في بعض جبالها يسيح وكنا وعمرو نرعى ابلنا وكانت رعية الابل نوبًا بيننا فبينا عمرو يرعى ابله اذ مرَّ به ذلك الشماس وقد اصابه عطش شديد في يوم شديد الحر فوقف على عمرو فاستسقاه فسقاه عمرو من قربة له فشرب حتى روي ونام الشماس مكانه وكانت الى جنب الشماس حيث نام حفرة فخرجت منها حية عظيمة فبصر بها عمرو فنزع لها بسهم فقتلها فلما استيقظ الشماس نظر الى حية عظيمة قد انجاه الله منها فقال لعمرو ما هذه فاخبره انه رماها فقتلها فأقبل الى عمرو فقبل رأسه وقال قد احياني الله بك مرتين مرة من شدة العطش ومرة من هذه الحية فما اقدمك هذه البلاد قال قدمت مع اصحاب لي نطلب الفضل في تجارتنا فقال له الشماس وكم تراك ترجوان تصيب في تجارتك قال رجائي أن اصيب ما اشتري به بعيرًا فاني لا املك الاّ بعيرين فآمل ان اصيب بعيرًا آخر فتكون ثلاثة ابعرة فقال له الشماس ارأيت دية احدكم بينكم كم هي قال مائة من الابل فقال له الشماس لسنا اصحاب ابل انما نحن اصحاب دنانير قال تكون الف دينار فقال له الشماس اني رجل غريب في هذه البلاد وانما قدمت أُصلي في كنيسة بيت المقدس وأسيح في هذه الجبال شهرًا جعلت ذلك نذرًا على نفسي وقد قضيت ذلك وأنا أُريد الرجوع الى بلادي فهل لك ان تتبعني الى بلادي ولك عليَّ عهد الله وميثاقه ان أُعطيك ديتين لان الله عزَّ وجل احياني بك مرتين فقال له عمرو ابن بلادك قال مصر في مدينة يقال لها الاسكندرية فقال له عمرو لا اعرفها ولم ادخلها قط فقال له

الشماس لو دخلتها لعلمت انك لم تدخل قط مثلها فقال له عمرو وتفي لي بما تقول ولي عليك بذلك العهد والميثاق فقال له الشماس نعم لك والله عليّ العهد والميثاق ان أفي لك وان اردك الى اصحابك فقال له عمرو وكم يكون مكثي في ذلك قال شهرًا تنطلق معي ذاهبًا عشرًا ونقيم عندنا عشرًا وترجع في عشر ولك عليّ ان احفظك ذاهبًا وان أبعث معك من يحفظك راجعًا فقال له عمرو انظرني حتى اشاور اصحابي في ذلك فانطلق عمرو فشاورنا بما عاهد عليهِ الشماس وقال لنا تقيمون عليّ حتى ارجع اليكم ولكم عليّ العهد ان اعطيكم شطر ذلك على ان يصحبني رجل منكم آنس بهِ فقلنا نعم وبعثوني معهُ فانطلقنا مع الشماس حتى انتهينا الى مصر فرأينا من عمارتها وكثرة اهلها وما بها من الاموال والخير فقال عمرو للشماس ما رأيت مثل ذلك ومضينا الى الاسكندرية فنظر عمرو الى كثرة ما فيها من الاموال والعمارة وجودة بنائها وكثرة اهلها فازداد عجبًا ووافق دخولنا الاسكندرية عيدًا فيها عظيمًا يجتمع فيهِ ملوكهم واشرافهم ولهم كرة من ذهب مكللة يترامى بها ملوكهم وهم يتلقونها باكمامهم وفيما اختبروا من تلك الكرة على ما وضعها من مضى منهم انها من وقعت الكرة في كمهِ واستقرّت فيهِ لم يمت حتى يملكهم . فلما قدمنا الاسكندرية اكرمنا الشماس الاكرام كله وكسا عمرًا ثوب ديباج البسهُ اياه وجلس عمرو والشماس مع الناس في ذلك المجلس حيث يترامون بالكرة وهم يتلقونها باكمامهم وانا جالس على حدة فرمى بها رجل منهم فاقبلت تهوي حتى وقعت في كم عمرو فعجبوا من ذلك وقالوا ما كذبتنا هذه الكرة قط الاَّ هذه المرة أترى هذا الاعرابي يملكنا هذا ما لا يكون ابدًا ثم مشى الشماس في اهل الاسكندرية واعلمهم ان عمرًا احياه مرتين وانهُ قد ضمن له الفي دينار وسألهم ان يجمعوا ذلك له فيما بينهم ففعلوا ودفعوها الى عمرو فانطلق [1] ومعهُ دليل يريهِ الطريق اما انا فلما رأيت الاسكندرية وما فيها من العظمة واسباب الرفاه فضلت البقاء فيها فاستأذنت عمرًا بذلك فانكر عليّ الامر فقلت بل ابقى فاذا لم آنس راحة عدت اليك فتركني ومضى وبقيت انا . وكان في جملة من شاهدنا من رجال الاسكندرية عالم كبير هو يحيى النحوي وكان يعرف شيئًا يسيرًا من اللسان العربي فامسكني عندهُ لاعلمهُ لساننا العربي او لعل له غرضًا آخر لم اعلمهُ فسررت ببقائي عندهُ وعجبت بزينة

(1) المقريزي

الاسكندرية و بذخها وعمارتها ولم تمض عليَّ مدة في بيت هذا الرجل حتى تعلمت اللسان الرومي واحببت ديانة النصارى وفضلتها على ما كنت فيه من احوال الجاهلية فعمدوني وصرت نصرانياً و بقيت في بيت يحيى هذا وقد تعلقت به لعظم ما لاقيته من حسن سريرته وتقواه وعلمه

ثم حصل ما حصل بينه و بين جماعة الرّوم من الاختلاف المذهبي وانحاز الى حزب الاقباط اليعاقبة فاضطهدته الرّوم اضطهاداً شديداً وجرّدوه من سائر رتبه واملاكه فانزوى بمنزله كما تعلم فقال لي اسمع يا زياد هذا اني قد اصبحت مضطهداً وربما لا أستطيع القيام براحتك او لعل في وجودك عندي ضرراً عليك من جماعة الرّوم فاذا رأيت ان تذهب اليهم فافعل

فثارت في رأسي الحمية العربية وقلت والله اني لا اتخلى عن ولائك فانا نحن العرب اذا أكلنا انساناً او أحببناه كان لنا ما له وعلينا ما عليه فانا باق على ولائك قوام بخدمتك ما استطعت الى ان يقضي الله بما يشاء فبقيت عنده اقوم بخدمته طاقتي الى ان سمعنا بظهور الاسلام وانتشاره ونهوض رجاله الخ وما فتح الله على ايديهم من الامصار كالشام وغيرها وعظمت شوكتهم وتوطدت دولتهم ونحن في الاسكندرية نقاسي العذاب الواناً من جراء الاضطهاد الذي يذوقنا اياه الرّوم لاننا على غير مذهبهم كما تعلم وكنت قد علقت بيحيى هذا وعلق بي وصار يأتمني على اسراره و يركن اليَّ بسائر شؤونه فبعث اليَّ ذات يوم فجئته فقال لي ما رأيك يا زياد

قلت بماذا يا سيدي

قال اني أرى من ظلم هؤلاء الرّوم وعتوهم وعسفهم ما كادت تزهق له روحي . وقد سمعت بما قام له عرب الحجاز هذه الايام وما فتحوه من الامصار حتى اخرجوا الرّوم من الشام والعراق وغيرها وقد علمت انهم قادمون الى مصر بامارة صاحبك عمرو و يلوح لي انهم سيفتحونها عنوة كما فتحوا غيرها من الامصار وقد اخبرني بعض الرهبان الذين فرّوا من وجوههم من دمشق وغيرها انهم اقوام اشداء يصبرون على الحرب صبر الاسود لا يهابون الموت ولا يخافون السيوف وانهم مع ذلك اهل مروءة وذمام فاذا جاؤوا مصر لا اظنهم الاّ فاتحيها لا محالة ولا يخفى عليك ايضاً ان جماعة القبط يكرهون الرّوم لما بينها من الاختلاف المذهبي المشهور والمقوقس رئيس القبط

وهو حاكم البلاد على مذهبهم وقد اوعز اليَّ سرًّا انهُ يفضل العرب على الرّوم اذا ضمنوا لهُ حياتهُ وعاهدوه على الدفاع عن القبط ولكن المقوقس لا يستطيع المجاهرة برأيهِ هذا ولا يرى وسيلة لايصالهِ الى العرب وقد وكل اليَّ ان ابلغ رسالتهُ هذه الى العرب ولا أرى رجلاً اثق بهِ واركن اليهِ غيرك وخصوصاً لانك تعرف لسانهم وتعرف قائد حملتهم نفسهُ فانت افضل من تنتدبهُ لهذه المهمة فهل لك ان تقوم بها وهل تظن العرب اذا عاهدوا على امر قاموا بعهدهم

قلت نعم يا سيدي ان العرب اكرم الناس اخلاقاً واوفاهم عهودًا ولك في خادمك هذا دليل واضح وانا واثق ان العرب اذا عاهدوكم على امر قاموا بعهدهم

فدفع اليَّ كتاباً مكتوباً على رقٍّ من البابيروس باللسان القبطي وهو الذي رأيتهُ بيدي امس وقال لي خذ هذا الكتاب واذهب الى معسكر العرب حتى تلتقي بهِ فادفعهُ الى عمرو بن العاص بعد ان تشرح لهُ الحالة شفاهاً فحملت الكتاب وخرجت من الاسكندرية ابحث عن العرب ومقامهم حتى علمت انهم قادمون الينا وسينزلون هذا المكان تحت صباح البارحة فوصلت هذا المعسكر فرأيتهُ من الرّوم ولكن فيهِ بعض العرب فاختلطت بهم وتظاهرت اني من عرب غزة واني رافقتهم وان ثيابي هذه سلبتها بعض عساكر الرّوم هناك ولبستها فعلمت منهم ان عمرًا سيصل قريباً بجندهِ الى هذا المكان فقلت لاصبرنَّ حتى يجيء واقضي مهمتي

فلما سمع مرقس قصتهُ استوثق من نفسهِ واركن اليهِ وعلم انهُ على دعوتهِ وانهما شريكان في الامر ولكنهُ استغرب حكاية عمرو واستبشر بوقوع الكرة في كمهِ وقال يلوح لي يا زياد ان الكرة لم تخطئ موضعها ثم عاد الى ما شغل بالهُ من أمر يوقنا فقال وهل علمت امر يوقنا هذا وسبب اسلامهِ قال علمت من بعض رجال العرب هنا انهُ كان حاكماً على مدينة حلب من بلاد الشام وانهُ لما رأى فوز العرب وشدة بطشهم وقد فتحوا مدينتهُ انحاز اليهم واعتنق ديانتهم واما رجالهُ فهم مطيعون لهُ في حربهِ ولكنهم في الغالب باقون على ديانتهم

فتذكر مرقس حينئذٍ ما قالهُ لهُ رسول يوقنا الذاهب الى ارمانوسة فقال في نفسهِ ان الرجل مخادع مارق واظنهُ يريد بسيدتي أرمانوسة سوءًا يتظاهر انهُ قادم بامر قسطنطين ابن هرقل وهو انما يريد حملها لنفسهِ والله لاكيدنَّ بهِ كيدًا

فقال زياد هاأنا قد اطلعتك على حقيقة امري فما هي حقيقة امرك

قال مرقس ارى يا اخي بين حكايتي وحكايتك مشابهة وما بهم الواحد يهم الآخر والحكاية ما جاء من اجلها بشأن أرمانوسة وتجسس الجند ثم قال ولكنني في شاغل الآن على سيدتي ارمانوسة ولا أدري كيف انقذها فقد بعث اليها بوقنا يدعي انه مرسل من قبل قسطنطين خطيبها وقد علمنا الآن انه انما جاء نصيراً للعرب على فتح مصر فاية علاقة بين الامرين والله لا اراه الا يريد شراً بسيدتي وقد اصبحت في قلق عليها من اجل ذلك فما رأيك

ففكر زياد قليلاً ثم قال لا تبالِ بهذا الخائن فاني على يقين من حسن ذمام العرب فاننا اذا اخبرنا عمراً بحقيقة الامر وعاهدناه على صيانتها وحفظها فانه يقوم بعهده وغداً ان شاء الله ادخل على عمرو واطلعه على جلية الخبر واذا شئت ان تكون معي فانك ترى بعينك وتسمع باذنك ما قلته لك عن شهامة العرب وكرم اخلاقهم ولكني اود ان ادخل عليه بلباس البدو لكي يعرفني حالما يراني

فتذكر مرقس الثياب التي حملها من بلبيس بزي البدو فقال ان عندي ثوباً عربياً حملته من بلبيس فهل تريد ان تلبسه ففرح زياد به وقال اود كثيراً ان ادخل عليه به فاين هو

قال قد خبأته في مكان وسأعطيكه الليلة ثم رجع الاثنان وقد سر كل منهما بالآخر وقضيا بقية ذلك اليوم يطوفان المعسكر يتفرجان حتى كانا خارج المعسكر فاذا بعبيد العرب قد خرجوا يقطعون الحطب للنيران ولما أمسى المساء ظهرت الوقود وكان امام خيمة كل أمير قرى وقد مدت الاسمطة وذبحت الذبائح وجلس الناس للطعام

ولما غابت الشمس سمعا المؤذنين يؤذنون وقد قام المسلمون للوضوء والصلاة فبعد تناول الطعام اجتمع الامراء الى خيمة عمرو وبين ايديهم قرّاء القرآن يتلون الآيات والناس يذكرون الله ويكبرون ويشكرون الله على ما اوتوه من النعم ويسألونه النصر على الاعداء

فقضيا تلك الليلة في معسكر بوقنا لانهما كانا في لباس الروم مثل عسكره وبكرا في الغداة فلبس زياد لباس البدو فالتحف الشملة وتعمم بالعمامة وسارا من معسكر

يوقنا حتى وصلا معسكر عمرو فدخلا بين الخيم فاذا بالعرب قد قاموا للصلاة وكلهم ركع يصلون وشاهدا على كثير منهم ثيابًا رومانية ودروعًا واسلحة وادوات من ادوات الرّوم يستعملونها في قضاء حوائجهم فقال زياد انظر يا مرقس الى آثار النصر والفتح ان هؤلاء العرب لم يذوقوا عمرهم مثل هذه الالبسة ولا رأوا مثل هذه الادوات التي قد غنموها من الرّوم في حروبهم بالشام . وكانا قد شاهدا بين يدي هؤلاء البدو كثيرًا من الاثاث الروماني كالابسطة والطنافس وعليها رسوم رومانية وفيها رسوم بعض القديسين والابطال قد فرشها العرب على التراب يجلسون عليها او يلتحفونها وبين ايديهم طسوت من الفضة وصحف من ابدع الصنائع وكلها اسلاب من مدن الشام

الفصل العشرون

المبارزة

وما زالا حتى وصلا فسطاط الامير فاذا هو قائم على عمد متشامخة والفسطاط ابيض من الخارج واما داخله فمبطن بالحرير المزركش وفي ارض الفسطاط البسط والطنافس وعرفا خيمة عمرو من العلم الاسود والكتابة عليه وكانا قد شاهداه بيد وردان ساعة وصول الجند فلما اقتربا من الفسطاط استقبلهما وردان عند الباب وقد عجب لاجتماع هذين الرجل على تناقض في لباسهما فسألهما عن غرضهما فقال زياد بلسان عربي فصيح نريد مقابلة الامير

فقال وردان ومن الرجلان

قال زياد رسولان يريدان الدخول على الامير

فدخل وردان ثم عاد ففتح لهما الباب فدخل زياد بعد ان خلع نعليه كعادة العرب وعمرو جالس في صدر الخيمة جلوس العرب في خيامهم لانها لخلوها من الجدران الصلبة لا يصلح الاستناد اليها فكانوا يجلسون الاربعاء او يجثون قعودًا ويلفون ايديهم على الركب او يعقدونها عليها فيستريحون اليها ويقوم ذلك عندهم مقام

الاستناد اما عمرو فكان السيف على ركبتيهِ وهو سيف طويل صنع اليمن وامراؤه بين يديهِ في مثل جلوسهِ وفي بعض جوانب الفسطاط رجل جالس الاربعاء يتلو القرآن والكل الجلوس يصغون اليهِ يرددون ما يقولهُ بين شفاههم فلما دخل زياد اراد ان يبغت عمرًا لينبههُ الى حالهِ فحياه بتحية الجاهلية قائلاً «أبيت اللعن ايها الامير»

فبغت عمرو وارباب مجلسهِ من هذه التحية وقد كادوا ينسونها لاستبدالها بعد الاسلام بتحيتهم «السلام عليكم» فاجابهُ عمرو على الفور «اعوذ بالله من كفر الجاهلية ما بالك تحيينا بتحية الجاهلية يا اخا العرب» قال ذلك ونظر الى الرجل فتذكر انهُ يعرفهُ ولكنهُ لم يتفقه لهُ لانهُ فارقهُ منذ عشرين سنة او ازيد وقد كان شاباً فاصبح كهلاً فامعن النظر فيهِ وزياد لا يزال واقفاً ينتظر الامر لهُ بالجلوس وكان القادم على الامير عندهم لا يجلس الاَّ بعد ان يدعوه الامير الى ذلك ثلاث مرات . فقال عمرو من الرجل

فاجاب زياد ان الرجل اخوك في الجاهلية ورفيقك الى الاسكندرية

فتذكره عمرو فنهض لهُ قائلاً اهلاً بزياد وهمَّ اليهِ وعانقهُ وصافحهُ وامسكهُ بيدهِ واجلسهُ الى جانبهِ وهو يقول مرحبًا برفيق الصبا اهلاً بالقادم اين كنت وما طلبتك وما الذي جئت بهِ

قال هل يأذن لي الامير بخلوة

قال اجل ثم اشار الى ارباب مجلسهِ فخرجوا وبقي عمرو وزياد

فقال زياد لي رفيق لا يزال خارجاً هل يأمر الامير بادخالهِ فنادى وردان فدخل بمرقس ففعل مرقس مثل فعل زياد فخلع نعلهُ وهمَّ الى يد الامير فقبلها فاذن لهُ بالجلوس فجلس متأدبًا وقد هالهُ الموقف

فقال عمرو ومن الرفيق قال رسول من رسل القبط وساشرح لك حالهُ يا مولاي

قال قل يا زياد اني والله قد آنست بك وسررت بلقائك بعد طول الفراق ولكنني آسف لبقائك على جاهليتك وقد منَّ الله على خلقهِ بالاسلام وهو الدين الحق الذي سيظهر على الدين كلهِ

قال زياد لست جاهلياً ولكنني من اهل الكتاب

قال وأي كتاب · قال النصرانية

قال ان النصارى اهل كتاب حقاً وقد اوصانا بهم النبي (صلعم) خيرًا · قص علينا خبرك يا زياد اني والله مشتاق لمعرفة حالك وما كان من امرك بعد ان فارقناك بالاسكندرية ألا يزال ذلك القسيس حيا

قال لا يا سيدي انه مات وقد طالما أثنى على شهامتك وذكرك بالخير

قال وكيف قضيت هذه السنين في الاسكندرية

فقص عليه حكايته من اولها الى آخرها الى ان وصل الى الكتاب الذي يحمله ثم استخرجه من جيبه ودفعه اليه فاذا هو مكتوب بالقبطية

فقال عمرو هل ادعو المترجم ليقرأه لنا

قال لا بل انا اترجمه

قال وهل تعلمت لسانهم وحفظت رطانتهم · قال نعم يا مولاي

قال اقرأ فترجم الكتاب واذا فيه

« من المقوقس حاكم مصر الى الامير عمرو بن العاص قائد جند العرب سلام أما بعد فاننا معاشر الاقباط قد علمنا بمجيئكم بلادنا وبلغنا ما اوتيتم من النصر في بلاد الروم بالشام وغيرها وعلمنا ما قدر الله لكم من الغلبة على جماعة الروم حيث حللتم وما ذلك الاَّ لما احتووا من دنياهم وما احبتم من آخرتكم وقد كان نبيكم بعث الينا منذ ١٤ سنة يدعونا الى الاسلام وان نسلم اليه البلاد وهذا كتابه مرسل مع حامل هذا الكتاب لتقرأوه فاجبناه بان ذلك ليس في طاقتنا لاننا محكومون وان الامر راجع الى ملكنا هرقل · أما وقد رأينا ما عززكم الله به من النصر وقد جئتم هذه البلاد تريدون فتحها فبعثت اليكم هذا الكتاب سرًّا لاعلمكم اننا نحن الاقباط لسنا اعداءكم ولا نريد محاربتكم وانما اعداؤكم الروم وجندهم فاذا قدر لكم النصر والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء اذكروا اننا في ذمتكم فاوصوا رجالكم ان لا يتعمدوا اذيتنا ولا يسيئوا الى رهباننا ولا يهدموا اديرتنا فانها بيوت الله واهلها لا يقومون الى حرب ولو كان الامر عائدًا الينا ما رميناكم بنبل ولا جرّدنا عليكم سيفًا وجماعة القبط باقون على قولي هذا الى ان يقضي الله بما يشاء.

كتبه

المقوقس حنا بن قرقب حاكم مصر »

« ستأتي البقية »

الهلال

الجزء الثاني عشر من السنة الرابعة

(١٥ فبراير (شباط) سنة ١٨٩٦) (٢ رمضان سنة ١٣١٣) (٨ امشير سنة ١٦١٢)

اشهر الحوادث واعظم الرجال

دانتي

دانتي

أول شعراء الايطاليان وأعظمهم

(ولد سنة ١٢٦٥ م وتوفي سنة ١٣٢١ م)

(تاريخ حياته)

ولد في فلورنسا بايطاليا في ١٤ مايو سنة ١٢٦٥ م من عائلة رفيعة الجانب يقال لها عائلة اليجيري وسمي عند ولادته دورانتي ثم نُحت اسمه بالاستعمال فصار دانتي وتوفي والدهُ وهو لا يزال غلاماً فربي في حياطة بعض ذوي قرابته فتلقن كل العلوم الرائجة في تلك الأعصر وأشهرها التعاليم الدينية ومنطق ارسطو وبعض الكتب اللاتينية المعتمد تعليمها في مدارس تلك الايام. وكان حاد الذهن فلم يحتج في اكتسابها الى كبير مشقة او طويل زمن لكنه لم يكتف بها فأخذ يطالع كل علوم تلك الأعصر على صعوبة الوصول اليها قبل اختراع الطباعة ولذلك فقد ظنَّ بعضهم انه تثقف في مدرسة بولونيا الشهيرة

ولم يكد يبلغ عينيه في عالم العمل حتى الم به حادث انطبع على اخلاقه واطواره ورافقه الى آخر نسمة من حياته وذلك انه علق فتاة من الاشراف اسمها بياتريس بورتيناري وكانا صغيرين لا يتجاوز احدهما التاسعة من العمر ومن الغريب انه علقها وتمكن حبها من قلبه حتى شغله عن كل شاغل وهو لم يرَها الاّ قليلاً ولا تجاسر ان يبثها ما في فؤاده ولا خطر بباله ان يخاطبها بأمر الزواج لشعوره بترفعها عنه فهي لم تكن تعلم شيئاً عن منزلتها عنده غير ما قد تلحظه النساء الجميلات الساميات المقام من حركات قلوب الشبان الواقفين بين ايديهنَّ ولو كانوا صامتين

فكان حب دانتي لبياتريس حباً عذرياً حقيقياً منزهاً عن كل شائبة أما هي فتزوجت بأحد اعيان الايطاليان فلم يغير ذلك شيئاً من عواطف دانتي نحوها وهو لا ينقطع عن النظر اليها عند سنوح الفرصة. ثم توفيت الفتاة فأثرت وفاتها فيه تأثيراً شديداً فأصبح كئيباً نوجه تخيل شبحها امام عينيه واشتهر ذلك عنه حتى تحدث به الخاص والعام

وكان قبل وفاتها قد نظم فيها قصيدة طويلة سماها «الحياة الجديدة» كلها عواطف وفلسفة وهي اوّل قصيدة نظمها مندفعاً بثورة الغرام وما زال ذلك التأثير ظاهرًا فيو يتراءى في خلال اعمالو الى آخر ايامو

ولا بد لاستيعاب ترجمة حياة هذا الشاعر العظيم من بسط حالة ايطاليا في ايامو فقد كان في ايطاليا اذ ذاك حزبان سياسيان كبيران يسمى احدهما جيلف والآخر جيبلين نشأا في القرن الثاني عشر اولهما وهم الجيلف يقاومون العائلة المالكة وثانيهما وهم الجيبلين ينتصرون لها . وما انفكت الحروب والمخاصمات قائمة بينهما حتى اقلقت راحة ايطاليا ففي سنة ١٢٦٧ م طُرد الجيبلين من ايطاليا كلها بايعاز البابا واستقام الامر للحزب الآخر ولم يكن في فلورنسا من حزب الجيبلين احد . على ان كلا من هذين الحزبين لم يكن يخلو من تخاصم بين عائلاتو وربما استعان بعض عائلات هذا الحزب على البعض الآخر بالحزب المغلوب . وقد تحدث فترة صلح بين الحزبين ثم لا يلبثون ان يعودوا الى الخصام وقد يتفق ان يكون هذا الحزب فائزًا في هذه المدينة وذاك في تلك ففي سنة ١٢٨٠ م حصلت واقعة بين جيلف فلورنسا وجيبلين اريتسو ففاز حزب الجيلف وكان دانتي في جملتهم وهي اوّل واقعة ظهر فيها فلما عاد من الواقعة تزوج بفتاة من كبراء ذلك الحزب اسمها جما دوناتي ولكنها كانت سبباً لتعاستو ولم يهدأ لهُ بال ولا اطمأن لهُ قلب منذ تزوجها

على أنهُ اصبح بعد ذلك الاقتران مرشحاً للمناصب الملكية في مصالح الحكومة . وكان اهل فلورنسا اذ ذاك ثلاثة صنوف (١) الاشراف والعظماء (٢) التجار والاغنياء (٣) العامة . وكان الصنفان الاخيران في شقاء دائم لانتمائهما الى الاحزاب السياسية ثم قام فيها رجل مصلح اسمهُ دينو كومباني سنّ قانوناً جديدًا سنة ١٢٨٢ م جعل فيو اهالي فلورنسا صنوفاً تمتاز بعضها عن بعض بما تتعاطاه من المهن او التجارة وجعل لهذه الصنوف مجلساً اشبه شيء بمجلس النواب مؤلفاً من ستة اعضاء ينوب كل منهم عن حي من احياء المدينة وهذا المجلس يتولى ادارة شؤون اصحاب تلك المهن والقضاء فيما قد يعرض بينهم على ان يتجدد انتخابهُ كل شهرين ولا يجوز انتخاب غير المندرجة اسماؤهم في قوائم اصحاب المهن او التجارات وكان اسم دانتي في قائمة الاطباء والصيادلة مع انهُ لم يتعاط الطب ولا الصيدلة قط

ولكن هذا الترتيب لم يمنع نفوذ الاحزاب السياسية وانحياز اعضاء ذلك المجلس الى احدها فلم يتسلط ذلك النظام الاّ بضع عشرة سنة ثم عادت الامور الى مجراها الاوّل مع بعض التحوير فنشأ في فلورنسا حزبان شبيهان بالاوّلين اسم احدهما الاسود (نيرو) واعلهم من الجيلف والثاني الابيض (بيانكي) واصلهم من الجيلين

وكان دانتي جيلنياً كما قدمنا وتزوج بامرأة من زعماء الحزب الاسود فازدادت علاقاته مع الجيلنيين متانة ولكنه كان من الجهة الاخرى مرتبطاً ببعض كبراء الحزب الابيض برباط الصداقة او لعله كان يشعر بارتباطهِ معهم برباط العدالة لاعتقاده بصوابية دعواهم

وفي يونيو سنة ١٣٠٠ انتخب دانتي مندوباً في المجلس المتقدم ذكره وفي عهده حُكم على الحزبين الاسود والابيض بالنفي من فلورنسا ثم تساهل هو مع بعض زعماء الحزب الابيض فارجعهم اليها فشق ذلك على الحزب الاسود فساروا الى رومية والتجأوا الى البابا بونفاشيوش الثامن فنصرهم وبعث معهم شارل دي فالوا مندوباً من قبلهِ ولقبهُ «صانع السلام» فوصل شارل الى فلورنسا في نوفمبر سنة ١٣٠١ ومعهُ جند فاعاد الحزب الاسود اليها وحل المجلس والف مجلساً آخر من حزبهم فارتفع شأن الحزب الاسود وضعف الحزب الابيض فحكم المجلس على الحزب الابيض بالنفي والقتل واخذوا في تعذيبهم وقتلهم في الشوارع او المنازل وسلب امتعتهم واموالهم وحرق منازلهم بغير شفقة ولا حنو وكان شارل اذا رأى ناراً يتصاعد دخانها في بعض اطراف المدينة وسأَل ما هذه النار اجابوه هي زريبة حقيرة لا تستدعي اهتماماً وقد تكون قصراً عظيماً . وكان في جملة المنازل التي لعبت بها النار ونهبتها الايدي منزل دانتي وكان دانتي اذ ذاك في رومية ذهب اليها بايعاز الحزب الابيض لمخابرة البابا بشأن ما يقاسونه من الاضطهاد والظلم فلما علم بالحكم الصادر بالنفي غادرها وسار الى منفى اصدقائهِ في اريتسو

وفي يناير سنة ١٣٠٢م صدر عليهِ الحكم خاصة بالنفي سنتين وبغرامة قدرها ثمانية آلاف فلورين وانهُ اذا تأخر عن دفع الغرامة وقع الحجز على املاكهِ ثم صدر عليهِ حكم آخر بالاحراق حياً بدعوى انهُ مرتشٍ وسارقٌ ومرابٍ . فلم يرَ بداً من مهاجرة الوطن وقد تمكنت علاقاتهُ مع الحزب الابيض فجعل يطوف البلاد يحرّض الجيلنيين

على مقاومة اعدائهم الجيلف فسار الى فيرونا ثم الى توسكانا

وفي سبتمبر سنة ١٣٠٣ م توفي البابا بونيفاشيوس وخلفه البابا بنيدكتس فحاول هذا اصلاح ذات البين بين الحزبين فذهب سعيهُ عبثًا فقامت فلورنسا محط رحال الثورة فاصابها حريق هائل دمر منها ١٩٠٠ منزل صحبه هجوم الحزب الابيض ومن والاهم وتعاظم الخطب حتى كاد يقضي على المدينة

وكان دانتي لا يزال يجول في ايطاليا ينتظر فرصة تسنح لهُ للرجوع الى وطنهِ فذهب انتظاره ادارج الرياح فلما تولى هنري السابع كرسي مملكة جرمانيا تجدد أملهُ وكان هنري قد عزم على القدوم الى ايطاليا للمطالبة بحقوق اسلافهِ عليها وحزب الجيبلين يستعد للاخذ بناصره فكتب دانتي منشورًا سنة ١٣١٠ م الى الملوك والدوكات وشيوخ رومية والى شعوب ايطاليا يبشرهم بالسعادة المنتظر نيلها على يد هنري ووزرائهِ فجاء الامبراطور هنري في تلك السنة الى ايطاليا وتتوّج في ميلان ملكًا على لومبارديا وكان دانتي ينتظر قدومهُ الى توسكانا نافرغ الصبر لقمع الجيلف واخماد الفتنة فكاتبهُ بهذا المعنى فجاء هنري الى توسكانا وهدد فلورنسا ولكنهُ لم يفز منها بطائل فسار الى رومية حيث توجوهُ وفيما هو عائد مات بغتة سنة ١٣١٣ م فكانت وفاتهُ صدمة قوية على دانتي فالتجأ الى فيرونا ثم الى غيرها واخيرًا سار الى رافنًا وقضى باقي حياتهِ في حمى جيدو دابولنتا عظيم تلك المدينة وكان جيدو شاعرًا محبًا للعلم آخذًا بناصر العلماء فسرّ بنزول دانتي عليهِ. على ان دانتي كان يجول في البلاد مرة بعد اخرى ينظم القصائد ويؤلف الروايات ونفسهُ تشتاق الى وطنهِ ولكنهُ لم يستطع الرجوع اليهِ فتوفي في رافنا سنة ١٣٢١ م حزينًا كئيبًا عن خمسة اولاد ذكور وانثى واحدة ونفسهُ تشتاق اليهم لانهُ لم يرهم منذ نفي من فلورنسا وكانت والدتهم تعتني في تدبير امر معيشتهم بكدها واجتهادها فربتهم تربية حسنة حتى تمثل الناس بعقلها واجتهادها وغيرتها على اولادها ولكنهم كانوا مع ذلك يأسفون لنقص فيها كان سببًا لشقاء زوجها وذلك انها كانت جافية الخلق بعيدة عن الرقة والانس ودعة النفس مما لا غنى عنهُ في المرأة الفاضلة التي عليها تتوقف سعادة العائلة

أما دانتي فان الايطاليان لم يعرفوا قدرهُ الاّ بعد وفاتهِ فالكردينال بوجنو أمر سنة ١٣٢٩ باحراق بعض مؤلفاتهِ في بولونيا جهارًا وطلب اخراج جثتهِ من القبر

واحراق عظامها انتقاماً منهُ على هرطقتهِ . ثم لم تمضِ على هذه الاحكام عشر سنين حتى شعر الشعب الايطالياني بمنزلة هذا الرجل ففي سنة ١٣٥٠ قررت جمهورية فلورنسا ان تدفع مبلغاً من النقود الى ابنة له راهبة (واسمها بيتريس ايضاً) . وفي سنة ١٣٩٦ قررت ان يبنى له ضريح ويقام له تذكار في فلورنسا ولكن رافنا لم تسمح بنقل بقاياه منها وقد ضمتهُ الى صدرها وحمتهُ في حياتهِ فرأت انها اولى بالتشرف بهِ وضم رفاتهِ بعد مماتهِ على انهم ما زالوا يحاولون ذلك الى اوائل هذا القرن فابتنوا له ضريحاً وتمثالاً في فلورنسا سنة ١٨٢٩ وقد احتفلوا بتذكارهِ في ١٤ مايو سنة ١٨٦٥ وهو تذكار مضي ستمائة سنة من يوم ولادتهِ

(صفاتهُ وأخلاقهُ)

كان دانتي في اواخر ايامهِ ربع القامة مع انحناء قليل ثابت القدم في مشيهِ مع رزانة يلبس لباساً لائقاً بسنهِ وحالهِ وكان طويل الوجه اعقف الانف كبير العينين عظيم الفكين والشفة السفلى . اسمر اللون كثيف الشعر أجعدهُ مقطب الوجه حزين المنظر كأنهُ يفكر في أمر ذي بال اصابهُ منهُ سوء

أما في صبوتهِ وخصوصاً في عهد حبيبتهِ بيتريس فكان منبسط الوجه براق العينين يتدفق نور الصبا منها وتتجلى حياة الشباب في محياه فلما ماتت بيتريس داهمتهُ المشاغل السياسية مع اقترانهِ بامرأة لم تُرح له بالاً فانقلبت تلك الحال الى ما قدمناه من الانقباض فاصبح مثلاً في تقطب الوجه وسوء الخلقة

ومما يحكى انهُ مرَّ مرة بنسوة جالسات في مكان بريبنة ولا براهن وكان ذلك على أثر اشتهاره بنظم الروايات ووصف الجحيم والنعيم كما سترى فقالت احداهنَّ اتعرفن هذا الرجل فانهُ ينزل الى اعماق الجحيم عندما يشاء ويعود الينا باخبار العذاب ويصف لنا احوال الخطاة فاجابتها احداهنَّ واظن هذا هو السبب في كلاحة وجههِ وما عليهِ من آثار النار والكبريت والدخان فقالت الاخرى وهذا هو السبب ايضاً بتكمش شعرهِ من آثار اللهيب

وكان دانتي حاد الذهن عميق التصوّر لا ينفك غارقاً في بحار التأمل منشغلاً بما في ذهنهِ عما يحيط بهِ وكان كثير الاختفاف بجليسهِ مهما كان عظيماً على انهُ كان رقيق الجانب وديعاً مع بعدهِ عن المجاملة لانهُ كان يعدها من باب التملق فلعلهُ بالغ في البعد عنها

حتى ظهر ذلك فيهِ مظاهر الاستخفاف بجلسائهِ . وكان سكوتاً لا يتكلم الأ عن ثقة وروية عظيم النفس ثابت الجنان شديد المقاومة للمصائب والنكبات الأ انهُ اظهر ضعفاً وحدة وقلقاً في ما نكب بهِ في منفاه من حزب الجبليين فاصبح قليل الصبر على ما يسمعهُ عنهم فاذا سألهُ عنهم سائل حمل عليهم بالشتم والطعن فاذا خالفهُ في ذلك غضب منهُ حتى يكاد يخرج عن طور التعقل وكثيراً ما كان بعضهم يعبث بهِ فيمتدح الجبليين امامهُ فيحمى غضبهُ ويأخذ في الطعن والشتم كأنهُ أُصيب بجنة وهو نقص ذكرهُ لهُ اشد مريديهِ غيرة عليهِ اعترافاً بالحقيقة

(مؤلفاتهُ)

قد اجمع المؤرخون على ان دانتي اوّل شعراء الايطاليان واعظمهم فنبغ في فن النظم وتمثيل العواطف ووصف الحوادث حتى لم يغادر تصوراً يتعلق بالصور المخالفة الأ نظمهُ واوضحهُ كأن روح تلك الاعصر تمثلت فيهِ وكأنهُ النظر اليها صوتٌ خارجٌ من بين الاموات او شعلة نور انبثت في ديجور ومن يطلع على منظوماتهِ يرَ انها مرآة تريك عوائد تلك الاجيال ومعتقدات اهلها واخلاقهم كأنها تجتمع في بؤرة وهاك اشهر منظوماتهِ

(١) (vita nova) الحياة الجديدة . قد تقدم ذكرها وهي ترجمة حياتهِ لبياتريس يمثل فيها حالهُ وحالها وقد كان اثناء كتابتهِ اياها يستغرق في التصورات فيغيب عن الوجدان ومما يرويهِ عن نفسهِ من هذا القبيل قولهُ « في اليوم المتم للسنة الاولى منذ اصبحت سيدتي من ابناء الحياة الابدية تذكرتها وانا منفرد في خلوة فلاح لي ان أُصورها بصورة ملاك فأخذت لوحاً وبدأت في الرسم وفيما انا غارق في بحار التصوّر لاحت مني التفاتة فاذا بأُناس وقوف حولي ينظرون الى عملي وعلمت بعد ذلك انهم كانوا هناك من مدة طويلة ولم اشعر بوجودهم » وقد كانت هذه حالهُ في بياتريس طول حياتهِ وكان يود البقاء حياً ليبث ما في قلبهِ من نحوها ولكن المشاغل السياسية والمشاكل العائلية شغلتهُ عن ذلك

(٢) (Convito) الوليمة . هي قصيدة طويلة يذكر فيها ملخص تاريخ حياتهِ على اثر ما اصابهُ من فقد حبيبتهِ بياتريس وفيها وصف حالهِ في إبان الشبوبية اراد بنظمها التعزية عما اصابهُ من الوحشة

(٢) (Divina Commedia) الرّواية الالهية · وهي أشهر رواياتهِ وبيت قصيدها لم ينسج الشعراء على منوالها قبلها ولا بعدها واذا اراد مريدو دانتي امتداحهُ قالوا انهُ مؤلف هذه الرّواية وقد سماها «الرّواية» فقط فلقبها مريدوهُ بعده بالالهية اشارة الى منزلتها عندهم وهي ليست قصة شعرية كسائر منظوماتهِ ولكنهُ جعلها على سبيل المحاورة اودع فيها الحكم والمواعظ مع الوصف الدقيق لحالة الدين في تلك الاعصر على سبيل الحلم تخيّل فيهِ احكام العقاب الابدي في الجحيم والثواب الابدي في النعيم وما بينهما من التكفير والتطهير في العالم غير المنظور ولكنهُ جمع تلك التصوّرات في روايتهِ على اسلوب لا مثيل لهُ وقد نظمها والمها اثناء منفاه فعرّض فيها باعدائهِ ومثّل كثيرًا من احوالهم اذ ذاك فانزل المغضوب عليهم الى الجحيم ورفع المرضي عنهم الى النعيم وترك آخرين في المطهر · على ان روايتهُ هذه لم تنشر في حياتهِ كما هي تمامًا لاحتوائها على ما يخشى شره · وتمتاز هذه الرّواية ان بطلها ومؤلفها نفسهُ وقد قسمها الى ثلاثة اقسام وصف في القسم الاوّل زيارتهُ الى العالم السفلي اي الجحيم وما لاقاه هناك من عذاب الخطاة وفي القسم الثاني وصف مرورهُ في جبال المطهر وفي الثالث وصف صعوده الى الفردوس وما شاهده من الامجاد السماوية بالتدريج حتى وصل الى الخالق جلّ وعلا والرواية كلها منهُ قصيدة

ولم تكد تُقرأ هذه الرّواية حتى تقاطر الناس الى استنساخها فلم يبق مطالع الأ بذل الدرهم والدينار في الحصول عليها · وفي مكاتب اوربا الآن من نسخها الخطية اكثر مما فيها من سائر الكتب الخطية الاخرى على اختلاف مواضيعها ولم تكد صناعة الطباعة تظهر في عالم الوجود حتى استخدموها في نشر الرّواية الالهية فطبعت اوّل مرة سنة ١٤٧٢

ثم عكف اهل اوربا على ترجمتها الى السنتهم على ان الاسبان ترجموها قبل الطبع (سنة ١٤٢٨) وهي اوّل ترجمة لها ثم ترجمت الى الفرنساوية سنة ١٥٩٦ ثم الى الانكليزية وغيرها ونشرت في انحاء العالم ولا نعرف لها ترجمة الى العربية

وقد نظم دانتي كتبًا غير هذه اغضينا عن ذكرها خوف التطويل على ان الثلاثة المتقدم ذكرها هي اشهر منظوماتهِ

باب المقالات

تاريخ الانسان

في أوائل العمران

(٣) اللغة (تابع ما قبلهُ)

(١) الدور النطقي

نريد بالدور النطقي حال اللغة بعد تحوّل الفاظها بالقلب والابدال والنحت من تقليد الاصوات تقليدًا بسيطًا الى الفاظ مستقلة يُدل بها على المعاني دلالةً صمًّا. لا تظهر فيها صبغة التقليد كما هو حال اللغة الآن

وقد مرّ على اللغة في انتقالها من الدور التقليدي الى النطقي دهور متطاولة لا يعرف مقدارها تدرجت فيها اللغة درجات متفاوتة لا يسعنا استيفاء شرحها في هذا المقام فنمرُّ عليها مرور المسرع خوف التطويل فنقول

أوَّل درجة تخطوها اللغة من التقليد البسيط الى النطق انما هي تحوُّل حكاية الصوت من الدلالة على ما يحاكيهِ مباشرة الى ما يقرب منهُ او يماثلهُ بالتدريج حتى تتولد الالفاظ البسيطة الدالة على المعاني البسيطة بغير ان تتولد فيها الادوات والحروف او صيغ الاشتقاق ولا مميز فيها بين الاسم والفعل والحرف وانما يدل على ذلك بالقرينة فتستعمل اللفظة الواحدة تارة اسمًا وطورًا فعلًا واخرى نعتًا او اداة فالصينيون مثلًا يعبرون بقولهم (تُوان) عن معان عدة تعود الى اصلٍ واحد فيقصدون بها (كوَّر) او (أحاط) او (مكوَّر) او (كرة) او (حول) الظرفية الى غير ذلك من امثال هذه المعاني ونظرًا لقلة الفاظ اللغة في هذه الحالة يطلقون اللفظة الواحدة على معان تقرب من معناها الاصلي كما هي الحال في اللغة الاكادية فان لفظة واحدة مؤلفة من مقطع واحد تدل على معان تبلغ الخمسة عشر والاصل فيها جميعها واحد وهي

لفظة ;ga; او ;ca; فانهم يقصدون بها (فم) او (وجه) او (عين) او (اذن) او (شكل) او (قدم) او (رجل) او (نظر) او (تكلم) او (مدينة) (الاصل فيها وجه المدينة)

ثم ترتقي اللغة درجة اخرى فيتولد فيها المميز بين الاسم والفعل مع خلوها من حروف الجر والعطف وسائر الادوات وصيغ الاشتقاق كما هو الحال في اللغة الصينية فالصينيون يعبرون عن حرف الجر «في» بقولهم «وسط» فيقولون مثلاً «كوشنغ» ومفادها حرفياً «مملكة وسط» ويقصدون بها ما هو في لغتنا «في المملكة» ولهم في الباء السببية طريقة غريبة فهم يقولون «شاجن إي تنغ» مفادها حرفياً «قتل رجل استعمل عصا» ويقصدون بها «قتل الرجل بالعصا» ومن قاطني اواسط افريقيا قبائل تعرف بقبائل «مندنجو» اذا ارادوا تأدية معنى «على» قالوا «كنغ» اي عنق او «في» قالوا «كونو» اي بطن فيقولون لما هو في لغتنا «ضع الكتاب على الطاولة» مثلاً «ضع الكتاب طاولة عنق» وهكذا في «في». وادوات الجمع والتأنيث والتذكير والصفة وما شاكل في اللغات الصينية هي في الغالب افعال او اسماء ذات معان مستقلة

ومن لغات بعض جزائر المحيط ما لا ادوات فيها لتمييز الجنس او الحال او العدد او الزمن او الشخص والمشهور من هذا النوع اللغة البولينية والقياس يقتضي ان لا يمر على هذه اللغات مدة من الزمن حتى لا يعود ممكناً تمييز اصل هذه الكلمات فيحسبونها كذا أنزلت

ثم ترتقي اللغة درجة اخرى فتتولد فيها بعض الادوات والحروف وتولدها انما يكون بتنوع الفاظها بالنحت على كرور الايام فتتحول الاسماء او الافعال الدالة على معنى في نفسها الى الحروف او الادوات الدالة على معنى في غيرها على طرق واساليب لا يمكن حصرها ولكنها تبقى مع ذلك خلوًا من مميزات العدد او الجنس في افعالها كما هي الحال في اللغة المصرية القديمة (الهيروغليفية) التي قد توفر فيها عدد كاف من الادوات والظروف لكنها تشارك المتقدم ذكرها بأنها لا مميز للزمن او الشخص في افعالها. والادوات التي تحسب ضرورية في الطائفة الاربة والطائفة السامية في تركيب الازمنة والمشتقات لا وجود لها مطلقاً في اللغة المصرية. والتصريف الفعلي يقوم فيها

باضافة الضمائر الى الاصل المتضمن الحدث اضافة بسيطة بدون تغيير في اصلها او اشارة الى مقصد المتكلم والتمييز في ذلك كلهِ موكول بالقرينة ولا وجود في لغتهم لما يسمونهُ عندنا مزيدات الافعال فالاصل هو الذي يقوم في التكلم مقام سائر تنوعات معناه . وتشاركها ايضاً باطلاق اللفظة الواحدة على الاسم او الفعل او الحرف فعندهم مثلاً تفيد قولنا عظيم فيختلف مؤداها باختلاف موقعها فتجي بمعنى (جدًا) او (عظيم) او (رجل عظيم)

ثم ترتقي درجة اخرى فتتولد فيها مميزات الجنس والعدد والاشتقاق كما ترى في اللغات الشرقية (الا العربية) فان فيها الاشتقاق ومميزات الجنس في الاسماء والنعوت واشباهها ولكننا نرى فيها نقصاً تشارك فيهِ اللغة المصرية القديمة لخلوها من صيغ التفضيل مثلاً فالصفة المشبهة في تلك اللغات تقوم مقام انواع التفضيل الثلاثة فيقولون مثلاً في الصفة المشبهة هذا حسنٌ وفي افعل التفضيل هذا حسن من ذاك ويقصدون بها هذا احسن من ذاك واذا ارادوا تفضيل الفرد على سائر افراد نوعه قالوا ما يماثل قولنا ملك الملوك ويقصدون بها قولنا اعظم الملوك او الاعظم بين الملوك

ثم ترتقي درجة اخرى فتتم فيها كل هذه المميزات مع خلوها من حالات الاعراب وهذه هي حال اللغات الآرية الحديثة وتشمل معظم لغات اوربا الحديثة ولا مميز فيها بين الرفع والنصب والجر وانما يقوم مقامها الحاق ادوات خاصة بذلك معظمها من حروف الجر او بتقديم الالفاظ وتأخيرها فالفرنساويون يقولون مثلاً (le lion tue le tigre) اي الاسد يقتل النمر واذا ارادوا العكس عكسوا ترتيب العبارة فقالوا (le tigre tue le lion) وفي الانكليزية (the lion kills the tiger) اي الاسد يقتل النمر و (the tiger kills the lion) النمر يقتل الاسد وهكذا في الاضافة وغيرها ومعلوم ان لغة عامتنا نظرًا لاهمال حركات الاعراب قد اصبحت من هذا النوع

ثم ترتقي اللغة درجة اخرى وهي ارقى ما وصلت اليهِ اللغات حتى الآن فتتولد فيها مميزات الاعراب وهي حال اللغة العربية الفصحى واللغتين اليونانية واللاتينية فان تقديم الالفاظ وتأخيرها قلما يؤثران في المقصود من العبارة اذا حفظت حركات

الاعراب ففي العربية الفصحى نقول قتل الاسدُ النمرَ وقتل النمرَ الاسدُ والاسدُ قتل النمرَ والاسدُ النمرَ قتل والنمرَ الاسدُ قتل (قتله) والنمرَ قتل الاسدُ وجميعها تفيد ان الاسد القاتل والنمر المقتول واذا اردنا العكس لا نحتاج الاَّ لتغيير حركات الاعراب كما لا يخفى

هذا ملخص ما يمكن ان تمرَّ عليهِ اللغة من الاحوال في الارتقاء من الدور التقليدي الى الدور النطقي في ارقى درجاتهِ

وربما استغرب بعضهم ان لغة مثل اللغة العربية بما فيها من الادوات والحروف وانواع الاشتقاق واساليب التعبير وعدد الالفاظ ان يكون اصلها مقاطع قليلة في حكايات الاصوات الطبيعية . ولكننا اذا امعنا النظر ودرسنا احوال اللغات على اختلاف درجاتها وراجعنا تاريخ الالفاظ التي اصابها تغيير وتبديل على عهدنا مع تنبهنا ناموس الارتقاء العام الذي جملة الخالق في الاجسام الحية وما يتعلق بها فلا نرى غرابة في ذلك . وفراراً من التطويل نورد بعض الامثلة تقريباً لذهن القارئ من هذا الموضوع فنقول

قد تقدم ان الهمهمة حكاية صوت الزفير الذي يخرجه الحزين فتولد منها على توالي الازمان فعل همَّ وما اشتق منهُ لفظاً ومعنىً (راجع القاموس) ومثل ذلك لفظ وَيْ وهي لفظ ينطق بهِ الانسان للتأوه من فطرتهِ فقد تركب منها ومن لام الجرّ لفظ وَيْل يدلون بها على التفجع او حلول الشر وقد حرَّفوها وزادوا فيها فقالوا وَيْل وتوبّل وتوابل واستعملوها اسماً لوادٍ في جهنم وشتقوا منهُ اسم مرة فقالوا وَيلة ويقصدون بها فضيحة وركبوا من (وي) عدة كلمات منها وَيْح ووَيْب وربما كان اصلها وَيْ أب للاستغاثة بهِ وويح ربما من (وي أخ) ووَيْس ويْه وركبوا من (ويل) قولهم (ويلُمّهِ) بمعنى داهٍ فيقولون لمن عرف بالدهاء (ويلمّهِ) وهي مكونة من وَيْ لامهِ او ويل لامهِ

وقد شق الانسان من حكاية صوت التوجع « آه » فعلاً فقال (آه يأوه أوهاً) اي شكا وتوجع وهكذا (تأوَّه تأوهاً) وقد دعوا داء الحصبة (آهة) والجدري (مآهة) وكل ذلك لتناسب في المعنى واللفظ وهذه التسمية تذكرنا بلغة الاشارات حيث يعبرون عن المعنى بتقليد صفة من صفاتهِ او بتخصيص حادثة ملازمة له فانهم

بتسميتهم الحصبة (آهة) كأنهم يخصون ما يرافق ذلك الداء من تأَوُّه المريض ·
وقد شقوا ايضاً من (أُوف) حكاية صوت الاستكراه قولهم (أفَّ يؤُفُّ أفاً) تضجر
ورجل (أفَّاف) أي كثير الضجر و (أفف) بمعنى أفّ وقد شقوا منها اسماء فدعوا
قلامة الاظافر (أُفاً) وكذلك وسخ الاذن وما رفعتهُ عن الارض من عود او قصبة
ومنها ايضاً (الآفة) بمعنى الجبان والمعدم والمقل والرجل القذر ولا يخفى ان هذه المعاني
تنوعات المعنى الاصلي الذي هو الضجر والاستكراه وفي اللغة المصرية القديمة امثال
كثيرة كهذه منها قولهم (حو) بمعنى ضرب وهي صوت المضروب عند التألم وقولهم
(آ) لما هو في لغتنا عظيم او كثير وقد تأتي ظرفاً بمعنى (جداً) و « حو و » عريان
وهي صوت المنفعل من البرد عرياناً

ومثل ذلك حكاية صوت البصاق « تَفْ » فقد شقوا منها (تفلَ) اي بصق
ولما كان الانسان يبصق احياناً استخفافاً بالامر شقوا منهُ فعلاً فقالوا (تفهَ) خسَّ او
قلَّ ولما كان التفُّ احياناً يحدث عن استكراه بعض الاطعمة استعملوا منهُ (التفاهة)
في الطعام اي عدم الطعم فيقال (طعامٌ تفهٌ) اي لا طعم لهُ واذ كان التفُّ مستعملاً
عند الغضب او الحنق شقوا منهُ (تفىءَ) اي احتد او غضب واذ كان يسمع عند محاولة
اطفاء اللهيب استعملوا تنوعهُ (طفىءَ) بمعنى خمد وقد شقوا منهُ افعالاً واسماء لم نعد
نميز الآن لكثرة تنوعها · والظاهر ان الفاء هي الصوت المختص بالنفخ فاننا نخرج عند
النفخ صوتاً هذه حكايتهُ (أُوف) فتركب منها (ربما بالنحت) في العربية (نفخ) وفي
الانكليزية (puff) وفي الفرنساوية (souffler) او (enfler) او (Gonfler)
وبعض القبائل العريقة بالتوحش يعبرون عن النار بقولهم (أفي) حكاية صوت النفخ
وكان المصريون يعبرون عن النار بقولهم (هه) وهي حكاية صوت الزفير الاغتصابي
كأنهم قصدوا بهِ اخراج النفس حاراً من الصدر ليدلوا بهِ على النار وعندهم « خخ »
لما هو عندنا « بلعوم » فكأن الاصل فيهِ اخراج الصوت بعنف من مؤخر الحلق
لينتبه السامع الى ان المتكلم يقصد البلعوم المجاور لتلك الجهة وربما استعمل هذا
الصوت في بادىء الامر مصحوباً باشارة استلفاتاً للذهن ثم استغني عن الاشارة
وعند العبرانيين « آف » بمعنى أنف وهي حكاية صوت الزفير اذا خرج عن طريق
الانف ولما كان الزفير الانفي يحصل غالباً عند الغضب الشديد استعملوا « آف » بمعنى

غضب او سخط . وبعد استعمالها للدلالة على الانف اطلقوها على جميع الوجه . ثم ركبوها مع ادوات اخرى فصاغوا منها ظروفاً كقولهم « لأنفي » امام اوتجاه ولا يخفى ان « آف » و « أنف » من اصل واحد والنون دخيلة في العربية على مانرى

وليست هذه الامثلة الا نزراً يسيراً بالنسبة الى تنوعات الاصوات الخارجية غيرالحية فان مقطع « قط » حكاية صوت القطع قد تولد منهُ بالقلب والابدال والنحت تنوعات لا تعد ولا تحصى قد اشرنا الى شيء منها في السنة الاولى من الهلال منها قصّ وكسّ وجذّ وجزّ وخصّ وخدّ وقدّ وغيرها وكلها بمعنى قطّ او قطع . وكلٌ من هذه التنوعات قد تولد منهُ بالنحت عدة الفاظ فمن (قطّ) تولد قطعَ وقطبَ وقطفَ وهذان الاخيران يتضمنان مع القطع معنى الجمع وقطمَ وقطلَ . ومن (قصّ) تولد قصمَ وقصلَ وقصبَ وقصرَ وهذه تتضمن معنى القص وقصف وقصا وجميعها تتضمن معنى القطع . ومن « قض » فاض وقضم وقضب وقضع . ومن « كسّ » كسر وكسع وكسح وكسم . ومن « جذ » جذب وجذر وجذف وجذم . ومن « جزّ » جزأ وجزر وجزع وجزح وجزل وجزم . ومن « خزّ » خزع وخزق وخزم وخزل . فترى معنى القطع واضحاً تماماً في جميع هذه التنوعات وقد تراه بعيداً في غيرها ومفقوداً في بعضها . فان « خص » تفيد معنى الافراد بالشيء فترى معنى القطع فيها مجازياً فكأنهُ يقول خصَّهُ بالشيء أي قطعهُ عن سواه ومنها خصمَ بمعنى الخصام او الشقاق او الانقسام فظهر فيها معنى القطع ولكنهُ غير واضح وهكذا في خصم فانها لا تزال تتضمن معنى القطع وليس كذلك خضع وخضل . ومن « خدّ » خدع قال البيضاوي « الخدع ان توهم غيرك خلاف ما تخفيه من المكروه لتزله عما هو بصدده من قولهم خدع الضب توارى في جحره » ولا يخفى ما يستلمح في هذا من معنى القطع . وخدر البنت الزمها الخدر اي قطعها عن الاختلاط بالناس وخدفَ ولا تزال تفيد القطع صريحاً . ويجانس خد « خذ » ومنها خذع قطع وكذلك خذعب وخذعل وخذل اما خذل فقد اصبحت بمعنى خيب لكنك تراها عند التدقيق تفيد القطع او الانقطاع لانهم يقولون خذلت الظبية اذا تخلفت عن صواحبها وانفردت او انقطعت . ويجانس قص « قس » ومنها قسم وقسط فان هذه الاخيرة وسائر الافعال المتعلقة بالاحكام العقلية ترد الى معنى القطع المعنوي

كعدل وقضى وحكم وفصل وقسط وكذلك افعال القسم كأقسم وحلف · ويجانس قس ايضاً « قش » ومنها قشر تتضمن مع القطع معنى النزع وكذلك قشط وقشع اما قشب فلا تدل على القطع اما قشبر المنحوتة منها فستلمح فيها ذلك المعنى الظاهران قشب خسرت معنى القطع بالاستعمال والعامة في سوريا يقولون قشبت الشفة اي تشققت · وهناك تنوعات أُخرى اغضبنا عن ذكرها اكتفاء بما ذكرنا على سبيل المثال · ولا بد لنا من ذكر مثال للتنوعات التي تحصل بزيادة حرف على اوّل الاصل مثال ذلك نقض من قض ومقط من قط بمعنى الكسر · او في الوسط نحو قرص من قص وقرض من قضّ وقس عليه التنوعات الحاصلة بالقلب مما يضيق المقام عن استيفائه

ومن غريب الابدال ان تكون « يد » و « قط » او احدى اخواتها من اصل واحد ولا ننكر ما في ذلك من دواعي الاستغراب ولكن الدليل يقرّب البعيد · فان القرب بينهما في المعنى واضح لان اليد هي مصدر القطع واوّل اصطناع الانسان حكاية صوت القطع انما كان بواسطتها فلا غرو اذا استعمل ذلك الصوت للدلالة عليها ونسبة اليد للقطع معنى كنسبة قاطع الى قطع ولا يخفى ما هنالك من المشابهة · واما في اللفظ فانا باستقراء اصل كلمة يد في اللغات السامية اخوات العربية نرى انها قريبة جداً من قط فانها في الاشورية « غت » وفي البابلية « كت » وهي حكاية صوت القطع بعينه

فترى ان تنوعات حكاية صوت القطع مع ما فاتنا ذكره تفوق المئة عداً ولا يخفى ان كلاًّ من هذه التنوعات اصل لمشتقات وتنوعات جمة لفظاً ومعنى حقيقة ومجازاً واذا اردت تحقق ذلك راجع كلاًّ من هذه المواد في مكانه من القاموس فترى ان لبعضها مئات من التنوعات المعنوية التي بعضها يرد الى معنى القطع وبعضها لا يرد لما حام حوله من اظلال المعاني الاخرى اما بالاستعمال او بشيوع المعاني نفسها او غير ذلك

وما قيل في « قط » يقال في غيرها من حكاية الاصوات فمن « هبّ » حكاية صوت اللهيب اذا نفخته الريح او هو ما نسمعه ممن يعمل عملاً يقتضي اجهاداً وقد تصوّروا فيه معنى الهيجان لنا سلسلة هبّ وهبذ وهبش وهبص وهبا وسلسلة لمهو وهبج

وسلسلة هدب وهكذا . ولنا من « لت » حكاية صوت اللطم لتّ ولتبَ ولتح ولتخ ولتد ولتذ ولتف ولتم . ويجانس لت « لطأ » ومنها لطأ ولطث ولطح ولطخ ولطس واطش ولطع واطم ولطة وجميعها تتضمن معنى الدق والشد ومنها سلسلة اخرى اولها لبط . وهكذا يقال في « فق » حكاية صوت القربة اذا انبثق منها الماء. وتتضمن معنى الخ ومنها فقّ وفقأ وفقح وفقر وفقص وفقش وفقع وقس عليه كثيرًا من امثاله

هذه امثلة قليلة توضح كيفية نمو اللغة في دورها النطقي ومن اراد الزيادة فليطالع كتابنا « الفلسفة اللغوية »



حضرة الفاضل منشئ جريدة الهلال الغراء

يقول الاغنياء نحن قادة العالم وسادة الهيئة الاجتماعية ومزدخر القوة ويقول العلماء ايضًا هذا القول عينه او ما هو بمعناه وكل منهما مصيب اذ يصعب التفضيل بين العلم والمال . أما انا فاذا حكم عليَّ بان انتصر لاحدهما على الآخر فلا يليق بي ان اكون في جانب المال لاني لست من اهله أما العلم فيقبلني لانه ابو الفقراء.

واما اقتراح الهلال فالبحث فيه بحثًا نظريًا عموميًا لا يهدينا الى جواب لاننا اذا نظرنا الى المرأة مستقلة عن الرجل لم يبق مجال للبحث لانها لا تحتاج اذ ذاك ان تنسب الى المال ووظيفتها لا تساعدها على القيام بما يقتضيه تحصيله من الاعمال والاهوال فقد تكون النساء غنيات بالاضافة الى اهلهنَّ وازواجهنَّ لا بحد ذاتهنَّ وحينئذٍ يتغير السؤال ويكون هل يرقى الناس عمومًا بالعلم اكثر ام بالمال فلا يبقى للنساء والحالة هذه شأن مستقل يسوغ فيه الجدال

أما اذا نظرنا الى المرأة بالنسبة الى الرجل فعلينا مراعاة نسبتها اليه وعلاقتها به

وهذا يوجب علينا مراعاة الزمان والمكان . ولما كان اوّل ما يهمنا من البحث هو بنت الوطن الشرقي فاليكم رأيي في هذا الشان

لا أرى حاجة لتقديم المقدمات واستخراج النتائج بل اقول فورًا بصريح المقال ان التعليم الحالي لنساء بلادنا اذا لم يكن مضرًّا لهنّ فبو وعدمهُ سيّان وان الفتاة العاقلة المهذبة عندنا (ولو لم تكن غنية) هي افضل بكثير من المتعلمة التي خرجت من المدرسة بعد ان قضت فيها سني الصبا وقد نسيت لغتها الوطنية وابدلتها بلغة اجنبية فلا يهمها غير قراءة الرّومان واتقان التوالت والاتيكت والدنص والشان [1] وما اشبه ذلك وقد يتكلم بعض السيدات في السياسة اذا ما فرغن من سيرة فلان وفلان أما اذا سألتهنّ هل يعرفن شيئًا من الاشغال المنزلية الواجبة عليهنّ معرفتها لاجبنك للحال وهل نحن خادمات او خياطات او طباخات او غسالات فاذا كان ذلك من متعلقاتنا فما معنى اننا سيدات

هذه حال شائعة لسيداتنا المتعلمات وهذا هو العلم الذي ينفق اهلهنّ عليه الاموال الطائلة وينفقن هنّ على تحصيلهِ السنين الطوال ونتيجة انهنّ يتعلمن ما لا حاجة بهِ لهنّ ويغفلن ما تقتضيهِ وظيفتهنّ ويكنّ سبب ضنك وضيق لاهلهنّ ولازواجهنّ وخصوصًا اذا كانوا من الدرجة الوسطى في حال الدنيا

اليس الاجدر بحضرات السيدات العذارى والمتزوجات ان يبقين على التربية القديمة ويتعلمن على ايدي امهاتهنّ ما تقتضيهِ وظيفتهنّ من الاعمال المنزلية والاشغال البيتية . اجل ذلك لعمري خيرٌ لهن وابقى

ورب معترض بان المراد بالعلم في هذا البحث العلم الحقيقي المفيد لا العلم الدارج الضار وانهُ اذا كانت المدارس قد اساءت التعليم فذلك لا يقدح في شرف العلم وفائدتهِ والجواب ان حضرات السيدات انما يجزمن بان ذلك العلم الذي يتعلمنهُ هو العلم اللائق بهن النافع لهن وانهن لما كنّ معروفات بالجنس اللطيف فيقتضي ان يتعلمن العلوم اللطيفة فقط وحيث يُعرفن ايضًا بالنوع الجميل فلا يليق بهن الاّ الفنون الجميلة واما علوم الاعمال والاشغال واكتساب الاموال فهنّ يتركنها للرجال

(1) هي اسماء فرنسية يستعملها متفرنجو هذا العصر ومعناها: الرومان الروايات والتوالت من اللبس والاتيكت فن المعشر والدنص فن الرقص والشان فن الغناء

نعم ان النساء قد صدقن في تركهن للرجال علوم الاعمال والاشغال واكتساب الاموال اذ لا يختلف اثنان في ان غاية العلم العمل فهو لازم للانسان بنسبة وظيفتو في الهيئة الاجتماعية ومقدرتو على العمل بو . ومن المعلوم ان وظيفة المرأة في الهيئة الاجتماعية محصورة ضمن دائرة العائلة ومقدرتها الجسمية والعقلية لا تساعدها على استعمال ما لا تحتاج اليو هذه الوظيفة من العلوم فبينها وبين الرجل بون شاسع في الامرين . وليست هي في هذه الوظيفة والمقدرة من استبداد الرجل وجوره كما تدعي و يوافقها عليو بعض المتطفلين ولكن الله عز وجل قد خلقها كذلك ولا طاقة لمخلوق على تغيير الخليقة والاَّ لما سبقها الرجل وساد عليها . فاذا كانت من الهيئة الاجتماعية في هذا المقام فأي حاجة لها بعلوم لا قبل لها بالعمل بها ولا نفع لها منها . وهي اذا قامت حق القيام بما يقتضيو بيتها من الادارة والعمل فلا تجد فرصة تقضيها في علم او فن

أقول هذا وأقول ايضاً اني لا ابخس المرأة حقها في تعليمها بعض العلوم البسيطة النافعة لتنوير عقلها وتوسيع دائرة فكرها واتقان وظيفتها من تدبير المنزل وتربية البنين كالقراءة والكتابة بلغتها ومبادي الحساب والتاريخ والجغرافيا وما اشبه فان الفتاة المتعلمة هذه العلوم هي في اعتباري ارفع مقاماً من الفتاة التي تجهلها اذا تساوتا في العقل واليسار والتهذيب وبقية المميزات الاخرى ولكن اذا تساوتا في العقل والتهذيب وكانت الواحدة متعلمة والاخرى غنية فُضلت الغنية عند العموم ما عدا الاغبياء . اذ لا يجوز لنا ان نحتقر المال (ونحن نتهالك في سبيل الحصول عليو) ونفضل عليو بعض المعارف البسيطة التي نحن في غنى عنها فالمال حاجي لكل انسان امرأة كان او رجلاً والعلم ليس بحاجي للنساء . بل هو كمالي والحاجي افضل من الكمالي بلا جدال

(مصر) « ابراهيم الجمال المحامي »

هل تعلو منزلة المرأة بالعلم اكثر أم بالمال

حضرة الفاضل منشيء جريدة الهلال الغراء

من الامور المقررة ان الانسان مؤلف من جسد هيولي ومن نفس ناطقة ولذلك دعاهُ الفلاسفة القدماء (حيوان ناطق) ومن الواجبات الاولية التي تفرضها عليو

الطبيعة السعي وراء سد حاجات الجسد المادي بطلب المال للقيام بأوده ولبسهِ وسكنهِ وفرشهِ وخلاف ذلك والاجتهاد لسد عوز النفس الناطقة باكتساب العلوم والمعارف التي بها نتهذب الاخلاق وتحرز الفضائل . وكما ان حيوة الجسد تقوم بطلب النافع ودفع الضارّ من الماكول والمشروب و بذلك يشبه الانسان بقية الحيوانات البهيمية فكذلك حيوة النفس تقوم بادراك الحقائق النظرية التي بها انارة العقل و بالتمسك بالمبادي الادبية الصحيحة التي بها تقويم المعوج من الاخلاق وتحسين السيرة والسريرة و بذلك يمتاز الانسان عن البهيم فاذا تقرّر ذلك نقول ان المرأة مثل الرجل يتوقف علوّ مرتبتها في الهيئة الاجتماعية على مقدار ما تكتنزه من العلوم والمعارف لا على كمية ما تعيهِ من النقود والدراهم فقد قال الشاعر

بالعلم والعقل لا بالمال والذهب ... يزداد رفع الفتى قدرا بلا طلب

وذلك لان العلوم والمعارف ترفع منزلة الانسان الادبية بين قومهِ اما المال فلا نعدهُ سوى الوسائط للحصول على الحاجيات او الكماليات الباعثة على تحسين عيشتهِ المادية وما من احد ينكر فضل حالة المرء الادبية على حالتهِ المادية فان الانسان انسان بعقلهِ لا بمالهِ وقوت العقل العلم فهو غذاء للارواح وهو كالعقل نسبة للجسد فالعلم علة اصلية للمنافع العمومية

(القاهرة) « عزيز صاصي . بالاشغال »

أهل أميركا وزمن الفترة

حضرة الفاضل منشيء الهلال المنير

اطلعت على الاقتراح الوارد في الهلال الماضي بشأن اهل اميركا وزمن الفترة وجوابًا عليهِ أقول

(أولاً) المحقق عند المؤرخين أن أمريكا كانت معروفة متصلة بآسيا من جهة بوغاز (بيرن) ثم انقطعت عنها وخفي خبرها الى أن اكتشفت

(ثانيًا) ان أهل السنة يرجعون في العقائد الى امامين جليلين أحدهما أبو الحسن الاشعري وثانيهما ابو منصور الماتريدي فأتباع الاشعري يقال لهم الاشعرية وأتباع

الماتريدي يقال لهم الماتريدية ووقع الخلاف بين الاشعرية والماتريدية في تعريف اهل الفترة فعند الاشعرية انهم من لم يرسل اليهم رسول بخصوصهم وعند الماتريدية انهم من كانوا بين ازمنة الرسل ولم يدركوا رسولاً ويترتب على هذا الخلاف عدم نجاة اهل الفترة وكذا من لم تبلغه الدعوة كمن نشأ في دار الحرب ويدخل فيه من نشأ في اطراف العمران كشاهق جبل او جزيرة في البحر او ما اشبه اذا عمروا مدة امكنهم فيها التذكر ولم يتذكروا لقوله تعالى في جواب كفار جهنم (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) عند الماتريدية لان المعرفة تجب عندهم بالعقل لا بالشرع ونجاتهم مع من تقدم معهم عند الاشعرية لقوله تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً) فالمعرفة عندهم واجبة بالشرع لا بالعقل ويحمل البعث والرسول في الآية على الحقيقيين فالبعث الحقيقي كونه في الدنيا والرسول الحقيقي المباشر والماتريدية يحملون البعث على ما يعم الحقيقي والحكمي فالاول الى الذين أدركوا رسولاً والثاني الى الذين كانوا بين زمنه وزمن الذي بعده ليتحقق قوله تعالى (ولقد بعثنا في كل امة رسولاً وان من أمة الا خلا فيها نذير) ويحملون الرسول على ما يعم رسول البشر في الدنيا ورسول الملك في الآخرة لما ورد أن الله تعالى يرسل اليهم يوم القيامة ملكاً للامتحان أن ادخلوا النار فمن أطاع كانت عليه برداً وسلاماً ومن عصى سحب اليها ويعطيهم الله تعالى عند الاشعرية منازل من جنات الاختصاص لا من جنات الاعمال لعدم عملهم

(ثالثاً) الامريكيون ان ثبت انهم بلغتهم دعوة نبينا صلى الله عليه وسلم سواء كان ذلك قبل الاكتشاف او بعده فمن لبى الدعوة وآمن فهو من المسلمين باجماع اهل السنة ومن لم يؤمن فغير معذور بالاجماع ايضاً وان ثبت عدم وصول الدعوة اليهم ولو على الوجه الاجمالي بان كانوا يجهلون ان رسولاً من عرب الحجاز يقال له محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) بعث الى الاحمر والاسود لينذر من كان حياً من الانس والجن بشريعة يقال لها الاسلام فمعذورون وناجون عند الاشاعرة - وعند الماتريدية من مات منهم قبل مضي مدة يمكنه فيها التأمل ولم يعتقد ايماناً ولا كفراً فلا عقاب عليه اما من مات بعد مدة يمكنه فيها التأمل غير معتقد شيئاً او اعتقد كفراً فلا يعذر

(رابعاً) نتج مما تقدم ان مدار الحكم على سكان امريكا من حيث النجاة وعدمها بلوغ الدعوة وعدمه عند الاشاعرة و بقاء مدة يمكن فيها التأمل وعدمه بعد بلوغ السن عند الماتريدية والله اعلم

(طوخ القراموص) « احمد محمد الالفي الاشعري »

« خادم العلم الشريف »

(الهلال) ثم ورد علينا جواب آخر بهذا المعنى من حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ سيد فرج مدرّس العربية بمدرسة ديروط فاكتفينا بالاشارة اليه مع الشكر لحضرة مرسله



ترجمات التوراة

نسخة البوليغلوت

(القاهرة) خليل افندي ابراهيم

رأينا في جوابكم على اقتراح اسعد افندي منصور بالهلال الماضي ذكراً لنسخة من نسخ التوراة اسمها البوليغلوت فيها ترجمة عربية يظهر انها غير الترجمات المعروفة فما المراد بنسخة البوليغلوت وما في تلك الترجمة العربية ومن ترجمها وهل هي قديمة

(الهلال) البوليغلوت (Polyglott) لفظة يونانية معناها اللغات الكثيرة وقد سميت بها نسخة من نسخ التوراة تحتوي ترجمات التوراة في لغات مختلفة معاً وقد طبعت مرات عديدة تعرف كل طبعة منها باسم خاص بها وهاك اشهرها

(١) النسخة الكومبلوتنسية · وهي اقدم طبعات البوليغلوت طبعت في القلعة باسبانيا بين سنة ١٥٠٢ و ١٥١٧ م ولكنها لم تنشر الا سنة ١٥٢٢ م واسم مدينة القلعة هذه كومبلوتنسيس ومنها اسمها · عني بطبعها الكردينال خيمنس دي سسنروس احد كبار

العلماء والسياسيين والنقاد فانفق في سبيل ذلك ٢٥٠٠٠٠ دوكات (نحو ٨٠٠٠٠ جنيه) وهذه الطبعة مؤلفة من ستة مجلدات ضخمة كبيرة الحجم الاربعة الاولى تتضمن النسخة العبرانية للعهد القديم والترجمات اليونانية واللاتينية والكلدانية (الترجوم) مع ترجمته في اللاتينية . والجزء الخامس فيه العهد الجديد باليونانية واللاتينية العامية واما الجزء السادس ففيه معجمات وفهارس وما جرى مجراها . وقد طبع من هذه الطبعة ستمئة نسخة فقط منها ثلاث على الرق بيعت احداها في لندرا سنة ١٨٢٩ بمبلغ ٤٨٣ جنيهاً

(٢) النسخة الانتويرية . سميت بذلك لأنها طبعت في مدينة انتويرب بالبلجيك وقد نشرت سنة ١٥٧٢ في ثمانية اجزاء بنفقة فيليب الثاني ملك اسبانيا وهي تمتاز على الطبعة المتقدم ذكرها باشتمالها على النسخة السريانية والنسخة اللاتينية المنسوبة الى ارياس مونتانس وفيها معجمات وقواعد لغوية للغات المدرجة ترجماتها فيها

(٣) النسخة الباريسية . وفيها فضلاً عن الترجمات المتقدم ذكرها الترجمتان العربية والسامرية نشرت سنة ١٦٤٥ في عشرة مجلدات كبيرة باعتناء ميشال لوجي و بنفقته

(٤) النسخة اللندنية نسبة الى لندن عاصمة بلاد الانكليز نشرها بريان ولتن سنة ١٦٥٧ (صار بعد ذلك اسقفاً) وهي التي بين ايدينا وقد اشرنا اليها في الهلال الماضي (وذكرنا سهواً انها طبعت في رومية) وهي مؤلفة من ستة مجلدات ضخمة كبيرة الحجم في صدر الجزء الاول منها مقدمات لاتينية وملاحظات تتعلق بعلوم التوراة وتاريخها وما شاكل ذلك ثم النسخة العبرانية وسائر ترجماتها القديمة وهي اليونانية (السبعينية) واللاتينية والسريانية والكلدانية والسامرية والعربية مع ترجمة كل من هذه النسخ (الا اللاتينية) الى اللاتينية . فكل صفحة مقسومة الى ستة حقول كل حقل منها يختص بلغة من هذه اللغات ولا يسع كل الترجمات وترجماتها الا صحيفتان معاً وفي الجزء الثالث الزبور باللغة الحبشية فضلاً عن الترجمات المتقدم ذكرها . والجزء الخامس يتضمن العهد الجديد في اللغات اليونانية والسريانية والفارسية والعربية والحبشية وبضع ترجمات لاتينية واما السادس ففيه ملاحظات مختلفة وهذه هي اتم نسخ البوليغلوت

(٥) نسخة بجستر . طبعت في لندن سنة ١٨٢١ نشرها بجستر وعني بضبطها الدكتور صموئيل لي

(٦) نسخة المكساغلوت طبعت سنة ١٨٧٤ في ستة مجلدات . وقد طبعت التوراة او بعض اجزائها في لغات مختلفة في طبعة واحدة في اماكن اخرى اغضينا عن ذكرها

اما الترجمة العربية المطبوعة في نسخة البولغلوت المتقدم ذكرها فلم يترجمها واحد ولكنها مجموعة من ترجمات متعددة في ازمان مختلفة

فالاسفار الخمسة وسفرا اشعيا و يشوع ترجمها الحاخام سعيد بن يعقوب الفيومي المصري في القرن العاشر للميلاد ويسميه الافرنج سعديا جاون Saadia Gaon او سعديا هاجاون (ولد سنة ٨٩٢ م وتوفي سنة ٩٤٢ م) وهو من اعظم علماء اليهود وفلاسفتهم . ترجم معظم اسفار العهد القديم عن الاصل العبراني و يقول البعض انه ترجمها كلها اما في البولغلوت فليس من ترجماته الا الاسفار الخمسة وسفرا اشعيا ويشوع و يرتاب بعضهم في نسبة ترجمة هذين السفرين اليه . و يظهر ان ترجمة هذه الاسفار لم تبق كما كتبها هو بل لعبت بها ايدي النساخ فغيرت شيئاً منها اما قصداً او سهواً

اما الاسفار الباقية من العهد القديم فلم تنقل رأساً عن العبرانية بل نقل بعضها عن الترجمة السريانية البسيطة والبعض الآخر عن السبعينية فاسفار القضاة وراعوث وصموئيل والملوك ونحميا مترجمة عن السريانية وما بقي من الاسفار مترجم عن السبعينية اما الذين ترجموا هذه الاسفار فغير معروفين تماماً

والمظنون ان النسخة العربية المطبوعة في البولغلوت هي اقدم الترجمات العربية ولكن في مكتبة الفاتيكان برومية نسخة خطية للعهد القديم بالعبرانية والسامرية غير كاملة مع ترجمتها بالعربية مكتوبة باحرف سامرية مؤرخة في القرن السابع للميلاد ولا دليل على انها من ترجمات ذلك القرن

الكرنفال (المرافع)

(المناشي) توفيق افندي مكرم معاون المحطة

يحتفل المسيحيون كل عام بالكرنفال قبيل الصوم الكبير فما هو اصل هذا الاحتفال وتاريخه

أرمانوسة المصرية (تابع ما قبله)

وكان زياد يقرأ وعمرو مصغ اليه ينظر الى الارض ويمشط لحيته باصابعه فلما أتمّ زياد قراءة الكتاب رفع عمرو رأسه وقال وأين كتاب نبينا صلى الله عليه وسلم فمدّ زياد يده واستخرجه وكان محفوظاً في صندوق صغير من العاج فتحه واستخرج الكتاب منه واذا هو من جلد فتناوله عمرو ونشره وتأمل موضع الختم فاذا هو بثلاثة اسطر على هذه الكيفية

محمد

رسول

الله

فعلم انه ختم النبي [1] ونظر الى الخط فاذا هو خط الامام علي بن ابي طالب وهو اوّل من تولى الكتابة في الاسلام [2] وكان كاتب النبي وتولى الكتابة غيره ايضاً وكان عمرو بن العاص في جملتهم ولذلك فانه كان يعرف خطوطهم فتحقق انه كتاب النبي فاستأنس به فقبله بكل احترام وجعله على رأسه ثم قرأه فاذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المقوقس عظيم مصر . أما بعد فان الله ارسلني رسولاً وأنزل عليَّ كتاباً قرآناً مبيناً وأمرني بالانذار والاعذار ومقاتلة الكفار حتى يدينون بديني و يدخل الناس فيه وقد دعوتك الى الاقرار بوحدانية الله تعالى فان انت فعلت سعدت وان انت ابيت شقيت والسلام [3] (الختم) »

فقال صدق والله رسول الله صلى الله عليه وسلم . أما ما بلغه المقوقس من رعاية طائفته وحماية الاديرة والرهبان فذلك مما لا نحتاج فيه الى وصاية لاننا اوصينا به من قبل فقد حدثني عمر امير المؤمنين انه سمع رسول الله (صلعم) يقول « ان الله سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فان لهم فيكم صهراً وذمة » [4] وقد اوصانا الله خيراً بالرهبان والقسيسين اذ قال في كتابه العزيز « ولتجدنّ أقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بأنّ منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون » ومن وصايا أبي بكر رضي الله عنه قوله يوصي المسلمين وقد ساروا للجهاد « وستمرون على قوم في الصوامع رهبان فدعوهم ولا تهدموا صوامعهم » [5]

---

(١) الواقدي عن انس بن مالك (٢) العقد الفريد (٣) حسن المحاضرة

(٤) المقريزي (٥) الواقدي

فليطمئن القبط انهم في ذمتنا لهم ما لنا وعليهم ما علينا وانما جئنا لمحاربة الروم فاذا منعونا حصونهم وابوا الاسلام او الجزية وضعنا فيهم السيف حتى يقضي الله بما يشاء. وهو خير الحاكمين فان الرجل منا ينتظر شهادته فاذا نالها اقام في النعيم وهو خيرٌ له وابقى وساكتب الى المقوقس كتاباً في ذلك

الفصل الحادي والعشرون

الاسلام

فقال زياد اني لأعجب لحال الانسان وتقلبات الزمان يا عمرو ألا تذكر يوم كنا في الجاهلية لا نعرف الدين فقد اذكر اياماً كنا نعظم فيها اصنام الكعبة ونستجير هبل الاكبر ونذبح الذبائح وعيوننا مغمضة لا تفقه لجهلنا . فتنهد عمرو وقال ان الجاهلية عمىً واني لأتأسف على ايام مرت بي قبل الاسلام واشعر بعظيم ما ربحت بالهداية التي اهتديت واود لكل امرء مثل ما كسبتُ

فقال زياد وكيف كان اسلامك

قال اما اسلامي فجاء متأخراً وقد كنت من اعداء النبي صلى الله عليه وسلم فانه لما قام يدعو الناس الى التوحيد اضطهدته قريش وشددوا عليه النكير حتى اضطر اصحابه ان يهاجروا الى النجاشي ملك الحبشة فامنهم ثم ارسلتني قريش انا ورفيقاً لي بهدية الى النجاشي ليسلم المهاجرين الينا فأبى وكان عوناً لهم علينا فعظم عندي امر صاحب الدعوة ووقعت في نفسي رهبة منه ولكني بقيت على دين الجاهلية الى السنة الثامنة للهجرة وانا في اثناء ذلك افكر في امره صلى الله عليه وسلم فوجدت اعماله ناطقة بصدق دعواه فاجتمعت يوماً بخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة العبودي وهما لم يسلما بعد فقلت لخالد أين يا ابا سليمان قال والله لقد استقام الميسم ان الرجل لنبي اذهب والله اسلم فحتى متى فقلت ماجئت الا للاسلام فقدمنا على النبي (صلعم) فتقدم خالد فاسلم [1] ثم تقدمت انا وكانت اول مرة لقيته وجهاً لوجه فرهبت لمنظره وما جمع الله فيه من المحاسن

(١) ابن الأثير وابن خلدون

فاشتاق زياد لمعرفة اوصاف النبي فقال وما الذي رهبك منهُ وما هي اوصافهُ

فقال عمرو والله يا زياد لا انسى ساعة لقيتهُ فيها فان صورتهُ لا تزال مرسومة على لوح صدري منذ لقيتهُ يوم جئت التمس الاسلام . واما صفاتهُ فهو ليس بالطويل ولا بالقصير ضخم الرأس واللحية شثن الكفين والقدمين مشرب وجههُ بالحمرة وكان لما لقيتهُ واقفاً يمشي فاذا هو يتكفأ تكفاً كأنما ينحط من صبب لم أرَ قبلهُ ولا بعدهُ مثلهُ وكان ادعج العينين سبط الشعر سهل الخدين اذا التفت التفت جميعاً (١) ولعلهُ كان اذ ذاك قائماً من الصلاة وقد كلل العرق وجههُ كاللؤلؤ الرطب وفوق كل ذلك ان الهيبة كانت تجللهُ فلم استطع النظر اليهِ طويلاً . فوقفت بين يديهِ فقال لي ما جاء بك يا عمرو قلت جئت اطلب الهداية يا رسول الله قال اتريد الاسلام فقل (اشهد ان لا اله الاَّ الله وحدهُ لا شريك لهُ وان محمداً عبدهُ و رسولهُ » فقلت ثم دخل عثمان بن طلحة فقال مثل قولي وصلينا جميعاً وقد شعرت والله يا زياد بغشاوة انقشعت عن عينيَّ ساعة الشهادة (٢)

وكان عمرو يكلم زياد وعواطفهُ تتكلم معهُ وقلبهُ يتهلل فرحاً ثم قال واخذت من ذلك الحين في الجهاد بسبيل الله وآخر امر فعلتهُ فتح بيت المقدس واتيت منها الى مصر كما علمت وترانا لا نقدم بلداً الاَّ فتحناه عنوةً او صلحاً وكل ذلك ببركة رسول الله (صلعم) ولأن احدنا يقاتل العدو رغبةً في الآخرة ويرى الشهادة خيراً لهُ من الذل بل هي خير من الحياة لان الدنيا دار فناء والآخرة دار قرار . وما فرغ عمرو من حديثهِ الاَّ وقد كلل العرق جبينهُ لتهيج عواطفهِ وشدة رغبتهِ في الجهاد

فقال زياد لا عجب يا عمرو اذا نصرتم في حروبكم وقد عندتم الخناصر واخلصتم النية في الجهاد واما جماعة الروم فانما همهم التفاضل فيما بينهم ولهم من القيام بعضهم على بعضهم ما يحول بينهم و بين النصر وكأني بدولتهم قد دالت وشمسها قد مالت .

وكان مرقس اثناء ذلك صامتاً لا يفهم ما دار بينهما ولكنهُ كان معجباً بملامح عمرو وما يلوح في وجههِ من البسالة وما ينبعث من عينيهِ من اشعة الذكاء . وكان يود الدخول فيما جاء من اجلهِ لانهُ خاف ان يصل رسول بوقنا الى ارمانوسة فتنطلي الحيلة عليها فيصيبها شرٌّ . على انهُ لم يكن يجسر على الدخول في الحديث من تلقاء نفسهِ

(١) ابن الاثير (٢) ابن خلدون

ثم التفت عمرو الى زياد قائلاً ومن هو صاحبك يا زياد قال هو من قبط مصر ايها الامير من جند المقوقس وقد جاء ليقص عليك حكايته ويسألك امرًا لا يتعلق بالحرب ولكننا قد اطلنا الحديث الآن وانت قادم من سفر تحتاج الى الراحة فلا نثقل عليك اكثر من ذلك

قال ان التعب لا يقعدنا عن قضاء حاجات الناس فان نبينا صلى الله عليه وسلم انما ارسل رحمةً للعالمين

فقال زياد وقد شعر بانه اطال الحديث بارك الله فيك ايها الامير لا زلت ملاذًا للطالبين اما امر صاحبنا فليس مما يسرع اليه واذا اذن مولاي ان نعود اليه في الغد فعلنا واما الآن فاننا نستأذنه بالانصراف قال ذلك وهمّ بالوقوف فوقف مرقس وهو لم يفهم ما قيل فوقف عمرو وقد اجاب زياد الى قوله ونادى وردان فحضر فقال له اليك هذان الرجلان فانهما ضيفان علينا وقد شعرت باستيحاش هذا القبطي لحديثنا لانه لا يفهمه فعليك بمحادثته بلسانه الليلة حتى لا يقول انه رأى في ضيافتنا وحشة

فقال وردان لبيك واصطحب الرجلين وخرج بهما ومرقس لم يفهم ما قيل فافهمه زياد ما دار بشأنه وهم خارجون فأسف لتأجيل الامر ولكنه لم يرَ مندوحة عن الاذعان

فسار بهما وردان الى خيمته فنزلا على الرحب والسعة وقضوا بعض ذلك الليل بالحديث عن الاسلام واخبار الصحابة والفتوحات وما عرف به الخليفة عمر بن الخطاب من المناقب الحسان وما يروى عن النبي من الاحاديث فسر زياد ومرقس بما سمعاه وقالا معًا والله ان من كانت هذه مناقبهم وخلالهم لا غرو اذا دوخوا البلاد وفتحوا الامصار. وقد اعجبهما بنوع خاص ما سمعاه عن عمر بن الخطاب اذ جاءه عرفجة بن مازن رسولاً بكتاب من ابي عبيدة بما فتح الله على المسلمين فوصل عرفجة المدينة وعليه قباء فاخر من الديباج وعلى رأسه مطرف خز مذهب وهي من اسلاب الروم فترجل عن ناقته وسلم الكتاب الى عمر وهو في المسجد يصلي فنظر الى عرفجة شزرًا وقال من الرجل قال عرفجة بن مازن فقال «يا ابن مازن اما كان لك برسول الله اسوة حسنة ان هذه ثياب الجبارين ومن جعل الله لهم الدنيا جنة وهذا الديباج حرام على

الرجال منا لانه لا يصلح الا للنساء • وهذا الذي عليك تصدق به على فقراء المدينة اما والله لقد دخلت يوماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مزمل بشريط وليس بين جلده وبين الشريط شيء • وقد اثر الشريط في نعومة جلده فلما رأيت ذلك بكيت فقال يا عمر ما الذي ابكاك فقلت يا رسول الله ان كسرى وقيصر يعيشان في ملك الدنيا وانت رسول الله بهذه المثابة فقال يا عمر ما ترضى ان تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة » فناوله عرفجة الكتاب وسار من ساعته وخلع الديباج واعطاه الى خالته (١)

واحكى لها وردان حكايات اخرى كثيرة مثل هذه فازداد تعجبها وكان يخاطبها بالقبطية اما مرقس فود ان يكون المقوقس معهم ليرى امر العرب وحالهم فيزداد كرهاً للروم ورغبة في التخلص منهم ثم رأى ان يستطلع شيئاً من وردان عن بوقنا وعلاقته بقسطنطين او المسلمين فقال وكيف ترون بوقنا

فالتفت وردان الى مرقس وهز راسه قائلاً انه يدعي الاسلام والقيام بنصرته وقد وثق به اميرنا ولكنني والله لا اظن به خيرا ولا اعتقد صدق ما يدعي وقد جاء امام جيشنا لمحاربكم ونحن لا نبالي اذا كان معنا او علينا فان سيوفنا تنصرنا حيثما حللنا

قال مرقس وهل قسطنطين بن هرقل يحبه

قال وردان وكيف يحبه بل لو استطاع قتله ما تأخر لحظة عن اذاقته الموت الزؤام لانه يحارب قومه • ففهم مرقس انه جاء بدسيسة للايقاع بسيدته فصبر نفسه ليرى ما ذا يكون من امره

الفصل الثاني والعشرون

جند العرب

وباتوا تلك الليلة وافاقوا في الصباح على اصوات المؤذنين والمسلمون قيام للصلاة واذا بوقنا قد جاء الى خيمة عمرو وخلا به برهة ووردان معهما ثم خرج

(١) الواقدي

وردان فنادى بالامرا. فحضروا فدخلوا خيمة عمرو ولبثوا يتفاوضون وجاء اثناء ذلك وردان واخبر زياداً ومرقس ان الامير قد عوّل على المسير الى الفرما ذلك اليوم

فتكدر مرقس لانهُ كان يود مخاطبة عمرو في امر بوقنا حتى اذا كان قد جاء الى سيدتهِ بدسيسة فيدبر وسيلة لانقاذها بواسطة عمرو فبهت برهة ثم قال وما الذي حملهُ على سرعة المسير الى الفرما وقد كان في ظنتانا انهُ يستريح بضعة ايام قبل مهاجمتها

قال ألم ترَ بوقنا قد اختلى بهِ في هذا الصباح فالظاهر انهُ علم من امر الفرما ما يوجب الاسراع الى فتحها ولعل جواسيسهُ اخبروهُ ان المقوقس مرسل نجدة اليها فارادوا معاجلتها قبل وصول المدد

فتحير مرقس حتى ظهر الارتباك على وجههِ فادرك زياد فيهِ ذلك فقال لهُ لا ترتبك لعلنا نخاطبهُ بشأن ما تريد غداً بعد وصولنا الى ظاهر المدينة فان الجند يصل الفرما عند الظهيرة ولا بد قبل المهاجمة من الاستعداد

فصبر مرقس نفسهُ ثم تركهما وردان وذهب الى خيمة عمرو للتأهب

فخلا زياد بمرقس فقال لهُ ما لي اراك مرتبكاً

قال اني والله في وجل على سيدتي بعد ما علمت ان بوقنا هذا قد اراد بها الغدر وانهُ ليس مرسلاً من قسطنطين فلعلهُ يريد اختطافها لنفسهِ وقد ارسل رسولهُ لهذه الغاية

وفيما هما في ذلك شاهدا هجاناً قادماً من جهة بلبيس فحقق مرقس النظر فيهِ فاذا هو بروفس رسول بوقنا فقال هذا هو يا زياد رسول بوقنا قد عاد من بلبيس هلمَّ بنا نسألهُ عما كان من نتيجة مخابرتهِ فاسرعا اليهِ خارج المعسكر حتى لقياه فناداه مرقس وقد اظهر ارتياحهُ الى مشاهدتهِ وسألهُ عن جواب ارمانوسة فتبسم قائلاً انها في خير وقد سرّت سروراً عظيماً بما اخبرتها بهِ واخذت في التأهب واعداد ما يلزم للمسير ولكنها قالت لي ان استعجلك في الرجوع اليها وقد دفعت اليَّ هدية نفيسة في مقابل بشارتي لها

قال ذلك وساق هجينهُ الى خيمة بوقنا اما مرقس فقال لزياد ها ان الحيلة قد انطلت على سيدتي ولا أدري كيف افعل وقد طلبت الاسراع في ذهابي اليها ولكنني لا ارى ان اذهب قبل ان استوثق من عمرو واحصل على عهدهِ في الدفاع عنها فما رأيك

قال رأيي ان ننتظر الى ظهر اليوم بعد وصول المعسكر الى ظاهر الفرما وانا ابذل الجهد في مقابلة عمرو لاجراء المستطاع فلنقف الآن على هذه الاكمة لنشاهد نظام الجند العربي وكيفية تأهبه للحرب وسترى انهم سيتركون خيامهم واثقالهم هنا ويذهبون بانفسهم وعددهم فقط

فصعدا الى ربوة ووقفا ينظران الى الجند وانتظامه فاذا بالاعلام قد تفرقت كل علم الى جهة فحمل وردان علم عمرو بن العاص ومشى في المقدمة وحمل اميران آخران كل علماً ووقف احدهما على الميمنة والآخر على الميسرة فاجتمعت الجنود الى هذه الاعلام كلٌ الى اميره . ثم سمعا اصوات المنادين يقولون «النفير النفير يا خيل الله اركبي» فقال مرقس وما هي هذه المناداة . قال انهم يدعون الجند وهذا شعار لهم يقولونه اذا ارادوا الركوب للحرب . فقال مرقس وكيف تعرف هؤلاء الاقوام وهل هم من قبيلة واحدة فاني ارى تشابهاً في ملابسهم

قال لا يظهر لك الفرق في لباسهم لانه قليل ولكنهم ليسوا قبيلة واحدة فانظر الى الذين يحملون النشاب وهم خلفاء تراع ان هؤلاء من رجال اليمن وهم مشهورون برمي النشاب [1]

فقال مرقس اراهم في تنظيم جندهم على ما يشبه نظام جندنا فهذه المقدمة والجناحان والقلب والساقة ولكني اعجب لاختلاف الوان راياتهم خلافاً لنا فان راياتنا متشابهة .

قال قد علمت امس من بعض العرب ان الراية الصفراء هي في الغالب للمهاجرين الذين هاجروا الى المدينة مع النبي وهم اقدم القائمين بنصرة الاسلام وترى انهم قد وقفوا في قلب الجند . فقال مرقس ولكني ارى راية عمرو سوداء قال انه ليس من المهاجرين فقد اخبرني امس انه اسلم بعد الهجرة

ثم رأوا الخيالة قد تفرقوا على الميمنة والميسرة وفي المقدمة وهم على خيل من الخيول العربية المشهورة . فقال مرقس ارى خيولهم ضئيلة وقد كنت اسمع بجودة خيل العرب فضحك زياد وقال ان خيل العرب ليس اجود منها ولكنها موصوفة بالرقة والسرعة ولا عبرة بكثرة اللحم

ثم نظر مرقس الى مؤخر الحملة فاذا بالهوادج محمولة على الجمال فقال تقول

---

(١) الواقدي

يا اخي انهم انما يسيرون برجالهم للحرب وذي الخيام هناوها اني ارى الهوادج محمولة وفيها النساء والاولاد

قال ان العرب اذا ساروا الى حرب حملوا نساءهم معهم فانهنَّ يحرضن الرجال على الحرب ويحثثهم فيستحيون منهنَّ اذا احسوا بضعف او مالوا الى الفرار

وفيما هما ينظران الى تنظيم الجند اذا بعمرو قد جاء على فرسهِ ووردان راكب الى جانبهِ يحمل العَلَم وعمرو يخترق الجند فينتقل من فرقة الى اخرى . فقال زياد تعالَ نقترب من الجند لنسمع ما ذا يقول عمرو في طوافهِ

فنزلا حتى دنوا من المعسكر فاذا بعمرو يطوف في الرجال يرتب صفوفهم ويحرضهم على الثبات فيذكرهم بما اوتوه من النصر في الشام وبيت المقدس ويقول « يا اهل الاسلام والايمان يا حملة القرآن يا اصحاب محمد صلى الله عليهِ وسلم اننا ذاهبون الى مقاتلة الرّوم فاصبروا صبر الرجال وثبتوا اقدامكم ولا تزايلوا صفوفكم ولا تنقضوا نيتكم ولا تخطوا خطوة الاَّ وانتم تذكرون الله ولا تبدأُوهم بالقتال حتى يبدأُوكم وشرعوا الرماح واستتروا بالدرق والزموا الصمت الاَّ من ذكر الله ولا تحدثوا حدثًا حتى آمركم »

ثم تحوَّل الى مكان آخر من الجند وقال « معاشر العرب انكم في بلاد العدو بعيدون عن الاوطان ولا ينجيكم الاَّ الطعن والثبات في الحرب فاذا صبرتم وجاهدتم ملكتم الرقاب وان وليتم ليس وراءكم الاَّ المفاوز والبراري وعين الله تراقبكم »

ثم سار الى مكان الهوادج وخاطب النساء قائلاً « ان رسول صلى الله عليهِ وسلم قال ان النساء ناقصات عقل ودين فكنَّ ممن حفظن على اديانهنَّ وقدمن في ذلك النية وحرّضن ازواجكنَّ على القتال ومن رجع منهم منهزمًا احصبن وجهه بالحجارة واضربن جواده بالعمد واظهرن اولادكنَّ لازواجكنَّ وقلن لم قبح الله وجه رجل يفرُّ عن حليلتهِ فلسنَ بمولتنا اذا لم تمنعونا حتى يرجعوا » فلما سمعت النساء وقفن وهنَّ مستعدات متنمرات مرتجزات يقلن الشعر

كل ذلك والناس يوحدون ويهللون ويكبرون ثم انتظمت الحملة ومشى الجند وجعل مرقس ينظر الى خيم بوقنا فاذا هي في مكانها ولم يخرج بوقنا مع الجند ولا خرج احد من رجالهِ « ستأتي البقية »

الهلال

الجزء الثالث عشر من السنة الرابعة

١ مارس (اذار) سنة ١٨٩٦) (١٧ رمضان سنة ١٣١٣) (٢٢ امشير سنة ١٦١٢)

اشهر الحوادث واعظم الرجال



سقراط

الفيلسوف اليوناني الشهير

(ولد سنة ٤٦٩ ق م وتوفي سنة ٣٩٦ ق م)

سقراط

(١) (تاريخ حياته)

وُلد في قرية الوبيكا من أعمال أتيكا ببلاد اليونان نحو سنة ٤٦٩ ق م وكان أبوهُ نحّاتًا في اثينا وأُمهُ قابلة فلما ترعرع لازم أباهُ حتى تعلم النحاتة فلما توفي والدهُ أفضت تلك الصناعة اليهِ وكان ذكيًّا فطنًا فأتقنها اتقانًا حسنًا · على انهُ لم ينقطع لها انقطاعًا تامًّا لما كان يخالج صدرهُ من الميل الى الفلسفة والانقطاع الى عالم التصوُّر والتأمل في غرائب الخليقة حتى أحرز شيئًا من العلم وكان في اثينا فيلسوف غني اسمهُ اقريطون آنس في سقراط ميلاً الى العلم ورغبة عن النحاتة فانعطف نحوهُ وأدخلهُ في منزلهِ وكلفهُ تعليم أولادهِ وكان سقراط يختلف الى بعض فلاسفة ذلك العصر منهم اناكساغوراس وارخلاوس وداموِن يتلقى عنهم علوم تلك الأيام وهو يتعاطى مهنتهُ ثم تخلص منها رويدًا · وكان ارخلاوس يحبهُ كثيرًا فاستصحبهُ في رحلتهِ الى جزيرة ساموس مسقط رأس الفيلسوف فيثاغورس الشهير ولعلهُ ادركهُ وأخذ شيئًا عنهُ · وما زال مكبًّا على المطالعة والتأمل والبحث حتى تمكن من علوم تلك الاعصر تمكنًا حسنًا وكانت الحروب اذ ذاك متواصلة بين اثينا واسبارطة فجردت اثينا على اسبارطة حملة كان سقراط في جملة رجالها فأظهر من الشجاعة والصبر في القتال والمقدرة على احتمال الاهوال مع التعقل والروية ما يندر اجتماعهُ في واحد من الرجال شهد بذلك تلميذهُ افلاطون في رواية رواها عن لسان السيبيادس القائد اليوناني الشهير وكان رفيقًا لسقراط في تلك الحملة · ثم سار في حملة أخرى لمحاربة الوثنيين وفي حملة لاخضاع امفيبوليس وأظهر في كل منها ما يؤيد تلك الشهادة

وما زال سقراط في مثل هذه الاعمال الحربية حتى بلغ العام الستين من عمرهِ فانتُخب عضوًا في مجلس المشيخة اليونانية نائبًا عن مقاطعة من مقاطعاتها وكان يتألف ذلك المجلس من خمسمئة عضو ينوبون عن أقسام اليونان العشرة كل خمسين منهم عن قسم منها على ان تكون رئاسة تلك المجلس بالمناوبة بين تلك الاقسام اياماً متساوية فيلحق نواب كل قسم ٣٥ او ٣٦ يومًا في السنة يكون التقدم في اعمال المجلس في اثنائها منوطًا بهم وهؤلاء يقسمون هذه الايام فيما بينهم فيحكم كل عشرة منهم اسبوعًا يتولى

الرئاسة عليهم واحد كل يوم فكان سقراط ممن افضت اليهم هذه الرئاسة يوماً واتفق له فيها عملٌ ابان فيهِ حزماً وثباتاً زاداهُ شهرة وفخراً

على ان ذلك كلهُ لا يعدُّ شيئاً بالنسبة الى ما نالهُ بعد ذلك من المنزلة الرفيعة في الفلسفة فانهُ ما لبث ان تخلى عن منصبهِ في مجلس المشيخة حتى انقطع الى التأملات الفلسفية والابحاث العالية والقاء الخطب في الاندية والمجتمعات وتعليم الشبان وتثقيف عقولهم وتنوير اذهانهم فاذا اجتمع في نادٍ عمومي او خصوصي عمل على الافادة اما جواباً على سؤال او شرحاً على اقتراح على انهُ لم يكن يكف عن البحث طول نهاره سواء كان في النادي او على المائدة او في الشارع او المعسكر او السجن او في اي مكان آخر

وكان قوي الحجة لا يتكلف في تأييد دعواه الحجة او مقاومة انما يؤيدها بالقضايا المتسلسلة فيطرح على الخصم اسئلة متسلسلة يستخرج من اجوبتهِ عليها برهاناً يفحمهُ بهِ فيجيب الخصم عن كل مسألة على حدة وهو لا يدري انهُ يحفر حفرة لنفسهِ فلا يشعر الاَّ وقد اقرَّ بسقوط دعواه وتأييد دعوى سقراط وهو اسلوب يشبه ابواب المخادعة في الصراع او لعل فيهِ شيئاً من المغالطة في الجدال

والمبدأ الاساسي لكل تعاليمهِ اعتقاده جهلهُ فقد كان يعتقد انهُ لا يعلم شيئاً ويقاوم كل من يدعي العلم او يحسب نفسهُ عالماً

وكان في بلاد اليونان اذ ذاك جماعة من الفلاسفة يسمون انفسهم الصوفية اي الحكماء كانوا يطوفون البلاد يلقون الخطب و يباحثون الناس ويجادلونهم و يلقون دروساً على اولاد الاغنياء باثمان معينة وقد اشتهروا على الخصوص بالعلوم الجدلية والقاء الخطب وكانوا كبار الدعوى يزعمون انهم اوتوا العلم والحكمة فكان سقراط يحاربهم و يفند تعاليمهم . وهم جماعة كبيرة فشق عليهم ذلك واخذوا يجادلونهُ حيثما ظفروا بهِ والناس يسمعون وكان الاثينيون يسرُّون بفوز سقراط على ان حربهُ هذه مع الصوفية كانت سبباً كبيراً في رفع شأنهِ واتساع شهرتهِ

ولكنهُ بلي برجل اسمهُ انيتوس وقع لهُ معهُ نفور أدى اخيراً الى مقتل سقراط وذلك ان انيتوس هذا كان خطيباً وقد أدخل اثنين من اولاده في سلك تلامذة سقراط والظاهر انهما كانا ضعيفي القوى العاقلة فلم يكتسبا من العلم ما يكفي لاكتساب عيشهما بهِ فاخرجهما والدهما من المدرسة وادخلهما في تجارة الجلود فعدَّ سقراط ذلك

اهانة له فعرّض باسم انيتوس في خطبه على تلامذته يريد ان يرفع عنه تبعة مستقبل ذينك التلميذين فبلغ ذلك انيتوس فحقد عليه واخذ يسعى في الانتقام منه وكان من وجهاء الاثينيين وساعده في تنفيذ اغراضه حزب الصوفية لانهم اعداء لسقراط . واول شيء باشره في ذلك انه مثّل سقراط في رواية الّفها الشاعر السخري اريستوفانس سماها « الغيوم » سخر فيها بسقراط وتعاليمه واتفق وجود سقراط في مرسح التمثيل على غير المعتاد فشاهد كل ذلك بنفسه فتحمله ولكن انيتوس لم يكتف بذلك بل ما زال حتى حمل بعضهم على الوشاية به الى الحكومة فقدم تقريرًا يتهمه به بانه خرق حرمة القانون واحتقر الآلهة اليونانية وادخل آلهة غيرها وما جزاء ذلك الاّ القتل

فطلب القضاة الى سقراط ان يبرئ نفسه من تلك التهم وعينوا يومًا للمحاكمة فلم يعبأ بذلك ولا استعد للمدافعة فجاء يوم الحكم وهو لم يدافع عن نفسه بشيء لكرهه الحياة ولعلمه انهم مصممون على اعدامه وكان قد تجاوز السبعين من عمره على انهم لما بلغوه الحكم في جلسة القضاء ألقى خطابًا مؤثرًا وهو آخر خطاب ألقاه فخاطب الاثينيين قائلاً

« يا معشر الاثينيين ان قصر نظركم في عواقب الامور قد ساقكم الى ارتكاب هذه الجريمة بقتل رجل حكيم (لا اعتقد اني حكيم ولكن الذين سيوبخونكم بعد موتي سيسمونني حكيمًا) على انكم لو صبرتم قليلاً لكفتكم الطبيعة مؤونة ما تحملتم من الوزر فاني رجل شيخ لا البث ان القى حتفي عاجلاً . ولا يخالجنّ اذهانكم انكم فزتم بالحكم عليّ لضعف حجتي في الدفاع عن نفسي فقد طالما افحمتكم في الجدال ولكنني استحييت وتنزهت عن التذلل والالتماس كما يفعل غيري في مثل هذه الحال فعندي ان اموت خير من التمس الحياة بذلّ . وليس تجنب الموت صعبًا ولكن الصعب تجنب الخطأ لانه اسبق الى الانسان من الموت ونظرًا لشيخوختي وكبر سني قد أُصبت باهون الشرين وهو الموت واما اخصامي فقد اصابهم اصعبها وهو الخطأ . واتقدم اليكم ايها الاثينيون اذا رأيتم في اولادي ميلاً عن الفضيلة الى البذخ والاسراف واللهو ان تعنفوهم كما عنفتكم وان تضايقوهم كما ضايقتكم من اجل اسرافكم ولهوكم وقد حكمت الاحوال الآن ان اموت وتبقوا ولا يعلم عاقبة كل منا الاّ الاله وحده »

ولما أتمّ سقراط خطابه ساقوه الى السجن فسار اليه ثابت القدم غير مبالٍ واقتضت الاحوال تأجيل اعدامه ثلاثين يومًا كان يتردد عليه في اثنائها كثير من اصدقائه

ينصحون له ان يفرّ سعياً في النجاة من الموت وهو يجيبهم بقوله « اخبروني عن مكان لا موت فيه فاذهب اليه »

فلما جاء اليوم المعد لاعدامهِ ذهب اليه تلميذه افلاطون وصديقه اقريطون وغيرهما وسألوه عما يوصي به لعائلته فاوصى فاخذوا يحادثونه ويسمعون كلامهُ وهو يشبعهم استخفافاً بالموت وجاء اهلهُ وولدهُ في اثناء ذلك فاوصاهم وخرجوا

فلما دنت الساعة جاء الجلاد وهو ينظر الى سقراط بعينين تتناثر الدموع منهما وقال له « لا أقدر ان اوجه اليك لوماً ولا أخشى منك تعنيفاً اذا اتيتك بالسم الذي حكم المجلس بتجريعك اياه كما جرت العادة فيمن تعودت حمل تلك الكاس اليهم في مثل هذا المقام اذ لم يدخل هذا المكان رجل اكثر شهامة واوفر حكمة منك » . قال ذلك وخرج باكياً

فقال سقراط لجلسائهِ بالحقيقة ان هذا الجلاد وديع رقيق الجانب وقد آنست منه اثناء اقامتي في هذا السجن كل رعاية وإكرام . والآن هات السم يا اقريطون لاشربه اذا كان مهيئاً والاَّ فتهيئه فاجابه اقريطون تمهل ان الساعة لم تأتِ بعد فقال وما الفائدة من تأخير الاجل الاَّ ان يظن الناس اني راغب في الحياة وانا راغب عنها

فبعث اقريطون الى الجلاد فجاء فسأله سقراط كيف يتناول السم فقال تشربه يا سيدي ثم تخطر ماشياً فاذا شعرت بضعف في ساقيك توسد . فتناول الكاس وشربها كأنهُ يشرب ماء عذباً فلم يتمالك اصدقاؤهُ عن البكاء. فالتفت اليهم وهو يبتسم وقال لهم « ما بالكم تبكون ونحن انما اخرجنا النساء من هذا المكان لكي لا نسمع بكاء فكونوا رجالاً وتصرَّفوا تصرف الرجال » ثم ما زال يخطر حتى احس بالضعف فجلس ثم توسد واخذت اطرافهُ بالبرد ثم جمدت عيناه وأسلم الروح . هذه رواية تلميذه افلاطون . وكانت وفاته عام ٣٩٦ ق م

ولم يكد الاثينيون يدفنون سقراط حتى رجعوا الى صوابهم فأحسوا بخطائهم فاستدعوا اصدقاءه ومريديهِ واطلقوا لهم سراح الاجتماع والتعليم على مذهبهِ واصطنعوا له تمثالاً من نحاس نصبوه في محل معد لذلك وفي صدر هذا الهلال صورة ذلك التمثال

(٣) أوصافهُ وأخلاقهُ وتعاليمهُ

كان سقراط احمر اللون اصلع منبسط الانف بارز العينين كثيبًا صلبًا قبيح المنظر وذكر بعض علماء الفراسة ان هيئته كانت تدل على ميل الى الرذائل ولكن اصحابه شهدوا بتنزهه عن كل رذيلة . والظاهر انه لقوة ارادته كان يدفع تلك الاميال قسرًا . وكان عالمًا فيلسوفًا لم يدع علمًا من علوم تلك الاعصر الأ اتقنهُ وتبحر فيه واشهر تلك العلوم الحساب والهندسة والتنجيم والطبيعيات والبيان والخطب وسائر العلوم الجدلية

ومن غريب اطواره انه كان يعتقد بهاتف غير منظور يخاطبه ويقود اميالهُ واحكامهُ وكان يسمع هتافهُ ويصغي الى ارشاده منذ نعومة اظفاره . اما ماهية ذلك الهاتف فقد اختلف فيها المؤرخون من عهده الى الآن فسماه بعضهم ملاكًا ودعاه آخرون شيطانًا وزعم آخرون انهُ صوت الحي . وقال بعضهم غير ذلك طبقًا لمعتقداتهم واخلاقهم . وظن آخرون ان سقراط انما ادعى ذلك لغرض في نفسه او لعلهُ حلم حلمًا فظل الوهم في ذهنهِ

ويلوح لنا ان مثل هذا الهاتف لا يخلو من حقيقة نجهلها لان جماعة كبيرة من اعاظم الناس كان لهم مثل هذا الهاتف ذكرنا منهم جان دارك في غير هذا المقام وهذا سقراط ويقال ان نابوليون كان له هاتف ايضًا وهناك آخرون غيرهم لم تحضرنا اسماؤهم فالظاهر ان الارادة التي تتسلط على العواطف اذا قويت كثيرًا تمثلت في ذهن صاحبها تمثلاً واضحًا حتى يكاد يشعر بزجرها له اذا مال الى هواه فقد قال سقراط انه كان يشعر بهاتفهِ كانه يقود عقلهُ وعواطفهُ بلجام ولذلك بحث لا محل له هنا

وتزوَّج سقراط امرأتين اسم احداهما خينيب كانت شريرة سليطة بذيئة اذاقته مرَّ العذاب فلامهُ بعض اصدقائهِ على اختيارها فاجابهُ « ان الذين يرغبون في الفروسية يقتنون اصعب الخيل مراسًا فاذا استطاعوا ركوبها علموا انهم يستطيعون ركوب اي جواد كان فلما كانت احوالي تقضي عليَّ بمعاشرة الناس ومخالطتهم ومعاملتهم اتخذت هذه المرأة فاذا استطعت معاملتها كنت اهلاً لمعاملة سائر اصناف الناس »

مات سقراط ولم يدوّن شيئًا من تعاليمهِ ولكن تلميذيهِ افلاطون وخنوفون دوَّناها فكتب خنوفون كتابًا سماه « رسائل سقراط » وكتب افلاطون كتاب « احتجاج

سقراط » مزج فيهِ بين اقوالهِ واقوال استاذه

ومما يذكر لهذا الفيلسوف العظيم انهُ على اعراق عصره في الجاهلية علم تعاليماً دينياً يقرب من تعاليم هذه الايام فقال بوجود خالق عظيم لا تراه العين ولكن قدرتهُ وحكمتهُ تجليان في خليقتهِ وكان يعتقد بموجودات متوسطة بين الاله والانسان تتولى ادارة شؤون هذا الكون واحكام ماجرياتهِ وعنده ان الرعود والزوابع والاعصار وغيرها من الحوادث الطبيعية انما هي خدمة ذلك الاله وكان يعتقد الكهانة والعيافة لزعمهِ ان الاله قد يكاشف الصالحين بحوادث المستقبل ولذلك فانهُ اشار بالاستخارة قبل مباشرة العمل ولكنهُ حذر من استخبار الاله في امور يستطيع هو معرفتها بالعدد او بالوزن او بالقياس . على انهُ ظل عاملاً على الطقوس الدينية كما كان يفعل معاصروه فاجاز الذبائح والمحرقات ولكنهُ كان يعتقد ان المحرقات لا تُقبل الاّ اذا كان مقدمها تقياً ولا عبرة في نوع الذبيحة ومقدارها . وكان اذا صلى الى الاله لا يطلب شيئاً معلوماً لاعتقاده ان الناس لا يعرفون ما يضرهم او ينفعهم فيتوسل اليهِ ان يهبهُ ما فيهِ خيره وكان يقول ان الذين يطلبون الذهب والفضة ربما كانوا يطلبون بذلك شراً وبلاء

وكان يعتقد ان النفس خالدة فاذا انفصلت عن الجسد اتحدت بخالقها ليس لانها جزء منهُ بل لانها تشبههُ وان الانسان يمتاز عن سائر الحيوان بقوة الحكم وان الصالحين يبقون احياء بعد الموت لينالوا الجزاء على صلاحهم وهو الثواب . ويزعم شيشرون ان سقراط كان يعتقد ان النفس جوهر الهي اذا انفصلت عن الجسد عادت الى السماء على ان عودها هذا يكون سهلاً او صعباً بنسبة ما أتاه صاحبها من الحسنات او السيئات

أما فلسفة سقراط فاساسها ان الانسان جاهل لا يستطيع ادراك شيء من حقائق هذا الكون ومع شدة اعتقاده بجهلهِ ونفوره من الادعاء فقد أقرّ انهُ اعلم من الصوفية المتقدم ذكرهم فقال « يشاركني الصوفية في جهل حقائق الكون فنحن في ذلك سواء ولكنني افضلهم باني عالم بجهلي وهم يجهلون جهلهم » وهو اوّل من حوّل الفلسفة القديمة من التصوّر المحض الى العمل والمشاهدة والاختبار فقال شيشرون ان سقراط انزل الفلسفة من السماء الى الارض . وعنده ان الفضيلة في العلم وافضل علم معرفة الانسان نفسهُ ومما يرويهِ مؤرخو الاسلام عن حكم سقراط قولهُ « النفس جامعة لكل شيء فمن عرف نفسهُ عرف كل شيء ومن جهل نفسهُ جهل كل شيء » وقال ما

ضاع من عرف نفسه وما اضيع من جهل نفسه وقال لو سكت من لا يعلم لسقط الاختلاف وقال لا تكون كاملاً حتى يأمنك عدوك فكيف بك اذا كنت لا يأمنك صديقك وقال انقوا من تبغضه قلوبكم وقال من أحب ان لا تفوته شهوته فليشتهِ ما يمكنه وقال اذا لم يكن عقل الرجل اغلب الاشياء عليهِ كان هلاكه في أغلب الاشياء عليهِ وقال لا يكون الحكيم حكيماً حتى يغلب شهوات الجسم وقال كن مع والديك كما تحب ان يكون بنوك معك وقال ينبغي للعاقل ان يخاطب الجاهل مخاطبة الطبيب للمريض وقال انما جعل للانسان لسان واحد وأذنان ليكون ما يسمعهُ اكثر مما يتكلم بهِ وقال اذا ضاق صدرك بسرك فصدر غيرك بهِ اضيق وقيل له لم صار العاقل يستشير فقال العلة في ذلك تجريد الرأي عن الهوى وانما استشار تخوفاً من شوائب الهوى وقال النوم موتة خفيفة والموت نوم طويل وقال لتلميذ له يا بني ان كان لا بد لك من النساء فاجعل لقاءك لهنَّ كأكل الميتة لا تأكل منها الاَّ عند الضرورة فتأخذ منها بقدر ما يقيم الرمق فان اخذ آخذ منها فوق الحاجة اسقمته وقتلته وقيل له ما تقول في النساء فقال هن كشجر الدفلى له رونق وبهاء فاذا اكله الغر قتله وقيل له كيف يجوز لك ان تذم النساء ولولاهن لم تكن أنت ولا أمثالك من الحكماء فقال انما المرأة مثل النخلة ذات السلاء ان دخل في بدن انسان عقره وحملها الرطب الجني وقال لو ان في قولي انني لا أعلم اخباراً اني أعلم لقلت اني لا أعلم»

و ذكروا له حكماً كثيرة غير هذه اشبه ان تكون منسوبة اليه غلطاً فان الناس اعتادوا ان ينسبوا الى كل رجل عظيم كل ما يظنون انه قد يصدر عنه اعجاباً و فينسبون الى الحكيم كل اقوال الحكمة والى الشجاع كل اعمال الشجاعة ومن أمثلة ذلك ان ابن ابي أصيبعة صاحب كتاب عيون الانباء في طبقات الاطباء نسب الى سقراط واقعة وقعت لديوجينس الفيلسوف اليوناني وهي حكاية سكناه في زير ومرور الملك بهِ وحجبه اشعة الشمس عنهُ الى آخر الحكاية . على ان صاحب الطبقات يسند روايته الى الامير المبشر بن فاتك ولكن الواقعة وقعت للفيلسوف ديوجينس مع الاسكندر الاعظم في اوائل القرن الرابع قبل الميلاد فالظاهر ان ابن المبشر اخذ تلك الواقعة عن الالسنة بعد ان لعبت بها اوهام الناس واميالهم كما قدمنا

(تنبيه) قد الجأتنا كثرة الرسائل والاقتراحات الى الاغضاء عن باب المقالات في هذا الهلال

باب المراسلات

هل تعلو منزلة المرأة بالعلم اكثر أم بالمال

صديقي الفاضل منشئ الهلال الأغر

لا أزيدك علماً بشرح ما كنت فيه هذه الشهور الاخيرة من الجهاد ضد عدوّ الدّ خصني الله بنزاله وقد انكسرت والحمد لله شوكته بعد ان استغرق وقتي باكمله وخرجت من حربه منصوراً باذن الله ولم آسف تلك المدة على ضياع شيء سوى مطالعة هلالكم المنير والمقتطف الاغر سلوتي في وحدتي وأنسي في وحشتي فما تقلص ظل تلك الغمامة السوداء (الكوليرا) عن دمياط وضواحيها حتى رجعت لديمي أسرّ بهما قلبي واغذي بطيب غذائهما قواي

وقد اطلعت في العدد العاشر من هلالكم الاغر هذا العام على اقتراح لكم الذ من الراح للارواح وأهنأ من الراح على الملتاح وهو «هل تعلو منزلة المرأة بالعلم اكثر أم بالمال» فوقفت حيث طاب الوقوف وفكرت حيث حسنت الفكرة وقلت هذه ضالتنا فهلمّ ننشدها وقد راودتني النفس على الخوض في بحر هذا البحث والنفس امارة بالسوء ولا ابرئ نفسي من العجز عن الجولان في مضمار هذا الميدان غير ان ما عودنيه قراء هلالكم الافاضل جرأني على التقدم الى موضوع هو عندي أفيد المواضيع وادقها لان جيلنا ينقسم في انتقاء الزوجة الى قسمين يفضّل احدهما المال والآخر العلم وعلى تأبيد احدهما تتوقف سعادة الانسان او شقاؤه من وجه خاص واليه مرجع مستقبل جنته او ناره وبه تقوم راحته او عناؤه وفيه قيام حربه او سلمه فما كانت هذه اهميته فهو لعمري جدير بان لا يطرق باب البحث فيه الا كل من حنكته التجربة ودرّبته القوة الحاكمة الممحصة فان الحذف والمدور (على رأي العامة) في موضوع هو من الانسان موضوع حياته وسعادته وسيكون دستوراً نافذاً يرجع اليه يضرّان بالهيئة ضرراً بليغاً فان الحدس والتخمين يحولان فيه لحقائق وبال ونكد وقد كان في تساوي

حقوق المرأة والرجل منّةٌ لي على ما ذكرت فارجو من سادتي الافاضل الذين جمعوا بين التجربة والدراية والعلم ان لا يهبوا من ثورة غضب الجنس اللطيف فان التفاضل في هذا البحث قد اقتصر على ذاك الجنس ولا يخطاه فمن مال منهم لجهة فلا يعدم من تلك الجهة نصيرًا وقد كفانا الله شر المصانعة بقول قليل ما يقال عن علومهن وآدابهنّ فلتتخذ مثل هذه المواضيع مسبارا لكشف جوهر ما وصلت اليه علومهنّ المزعومة فمن ظلم فاساء فالى نفسهِ منهن ومن انصف فباحث فافاد واستفاد فعليها والله الحافظ من غضبهنّ من يرجو لهن خيرًا مثلي

وقبل الدخول في الموضوع يجدر بنا ان نبين ما نعنيهِ هنا بالمرأة والمنزلة والعلم والمال فرارًا من التباس المقصود والزيغ عن الغاية

فالمرأة المقصودة هنا هي المعدّة للزواج القادمة على رئاسة عائلة وتدبير منزل لا المسترجلة المتبتلة لغير غاية خيرية التي لا صفة لها في العالم الانساني والمتطاولة على مائدة النوع البشري وليست منهُ على شيء

وليس المراد بالمنزلة هنا المكانة في نظر العموم فهذه لا تنالها المرأة بالعلم او بالمال بل بحفظها الحقوق الزوجية وحسن تدبيرها منزلها وسياسة عائلتها مما لا يشرى بمال ولا وصل (من سوء البخت) العلم في بلادنا اليهِ وانى يكون لنا هذا ومدرسات بناتنا لا يعرفن منهُ شيئًا

ولا نعني بالمال الاقتصار على الكتابة والقراءة وما يلزم من مبادئ بعض العلوم الضرورية للهيئة وتدبير المنزل كالحساب وتدبير الصحة بل العلم المتناول العلوم والفنون العليا المعدودة من الكماليات وليس الحاجيات فان العلم البسيط اصبح اليوم في حكم الحاجيات للنوع الانساني على اختلاف طبقاتهِ وجنسهِ

والمراد بالمال ما لم يشترط معهُ الجهل والرعونة بل المصحوب بما ذكرناه آنفًا من صحة المبادي والعلم البسيط اللازم والَّا فلا وجه للافضلية ولا تشابه فان تلك شبيهة المال والجمال . واذا تقرر ذلك ندخل في الموضوع وننظر في نسبة كلٍ من العلم والمال الى المرأة فنقول

(اولًا) مما لا مشاحة فيهِ ان المرأة بقلبها اي مركز العواطف والرجل بدماغهِ اي مركز القوى العقلية ومما اكدتهُ التجارب والمشاهدات ان نمو احد هذين المركزين

يضعف الآخر فمن نما عقلهُ قلت عواطفهُ ومن نمت عواطفهُ قل عقلهُ (وليس للنادر حكم) ومعلوم ان العلم ينير العقل و يقويهِ و يزيد الادراك فيضعف العواطف وهذا من حاجيات الرجل الذي لاغنى لهُ عنهُ لحفظ مركز اصابتهِ في منزلهِ وحسن تربية اولاده ولا يخفى ما تستلزمهُ الاصابة والتربية من ضعف العواطف هذا في داخليتهِ واما في الخارج فحالة طيّب القلب شديد العاطفة لمن اتعس الحالات فانهُ مهضوم الحقوق مذموم مكتوب على مساعيه الحبوط والخسارة ا وليس مرادي من وجوب ضعف عاطفة الرجل ان يكون وحشاً مفترساً لا يرحم مظلوماً ولا يشفق على محتاج حاشا وكلاَّ بل المراد ان لا تتغلب عواطفهُ على عقلهِ فيخدعهُ الظاهر و يعمى عن الحقيقة وهو كفيل نفسهِ وعليهِ يتوقف رفاه عائلتهِ و يسرها) كما وان العواطف من حاجيات المرأة تستجلب بها رضى زوجها وحبه وشفقتهُ وبها تصبر على مضض تربية اطفالها في ازمنة لو لا شدة انعطاف الوالدة لتركت الوالد فريسة نكدهِ وسهرهِ وامراضهِ وليس يخاف ما في تربية الاطفال من العناء والمشقة وخصوصاً في السنة الاولى

فيستنتج من ذلك ان المرأة المتعلمة هي كالرجل الابله العبيط لان كليهما شاذ عن قاعدتهِ وخارج عن دائرة اختصاصهِ في الكون والوعية ومعلوم ما في ذلك من فساد الطبيعة

أما المال فهو الذي ييسر المعيشة و يوفر اسباب الراحة والهناء فتشتد العواطف فمن كثر مالها (وكانت عاقلة كما ذكرنا) ازدادت بها عاطفة الوالدية والزوجية . أما الوالدية فلأن ولدها سيرث مالها ولا يتناولهُ الغير وانها متعلمة بمالها فيحفظها الجميل ويرفهُ آخرتها و يعزّي شيخوختها ويحيي ذكر بيتها وسيكون سعيداً بالمال فتنتظر لسعادة ابنها المستقبلة فيخفق قلبها خفوق السرور والفرح فتتحرك عواطفها بالحب والشفقة تغذيها الآمال والرجاء فيتعود قلبها على ارسال اشعة نور الحب عكس المتعلمة المتألمة التي لا مال لها فتتنازعها عوامل تصوُّرات الخير والشر بابنها فتارة تحن عليهِ الحنو الطبيعي واحياناً تأخذها تأملات ساء الظن (حليفة العلم) فتقول بذاتها ياهل ترى هل يقدر ابني هذا ان يكافئني على تعبي وهل يمكن ان يفلح ولا وسائط لهُ لذلك وان ساء تربية ويحناً ماذا تكون نتيجة تعبي الاّ يكون هذا سبباً لنكدي في شيخوختي وغير ذلك من التخامين السفسطية فيتردد قلبها بين اللين والقساوة وتضعف فيها العواطف كلما

ضعف املها في حسن استقبال ابنها وبما ان اكثر الاسباب المتوفرة لديها لاتنبئها عن مستقبل حسن كانت عواطفها دائمًا بتأخير وخصوصًا اذا كثر الاولاد وتحكم العسر فمن من الاثنين اعلى منزلة وارغب فيهِ للزوجية والعاطفة الزوجية تقوى عند ذات المال لعدم ظهورها بمظاهر المذلة امام زوجها ولجسارتها على طلب ما تشتهيهِ نفسها من حلي وملابس ولعدم تردد الزوج العادل عن اجابة طلبها لعلوِ انهُ من حقوقها فتنزع منها روح الشحناء وتزداد انعطافًا وحبًا لمالبي طلبها ورب قائل يقول لو كان قضاه ذاك المطلوب من الزوج لكان ادنى الى شكرها واولى باستنهاض عواطفها أقول نعم هذا الواجب ان يكون غير انهُ لا ينطبق على روحها الشريفة وكبريائها الخلقية الغريزية لان في ذلك غصة المحسن عليهِ وذل السؤال وتنغيص المنّ فانهُ لاول مدح من الزوج في الهدية او التنبيه على زيادة الاعتناء بالتحفظ عليها تقوم قيامة التي لامال لها خلافًا لذات المال فانها تقبل تلك الارشادات بطيبة خاطر لعدم تصورها المن من زوجها لانهُ من مالها وقد شاهدت جملة مرار تقدم هدايا من النوعين فكان تشكر من لا مال لها ممزوجًا بذل وانكسار واما شكر ذات المال فكان ممزوجًا بفرح وبهجة وعزة الحب

(ثانيًا) ان دوحة العلم اوهن ضياع صحة المتعلمة وجمالها الطبيعي رأس مال المرأة فانظر ناشدتك الله لشهيدات المدارس والعلوم فتراهن وقد كوّنّ خلقًا جديدًا لا بالانسان معروف ولا بغير الانسان موصوف ترى ذاك الخلق الجديد ذا سحن مقلوبة وهياكل منجوبة واخلاق مغضوبة ومسامرة مغصوبة واوجه مخضوبة فماذا ينفع العلم في صدر مصدور وماذا تنفع الارواح دون الاشباح فمنّ اقرب وصفًا لعشاق العرب سقمًا ونحولا

روح تردد في مثل الخلال اذا اطارت الريح عنهُ الثوب لم يبن

فاي منزلة لمن فقد غاية وجودهِ واي اعتبار لما تنفر منهُ الطبيعة

واما دوحة المال فهي الصحة الجيدة اساس وركن الجمال المرغوب من الجنس اللطيف والتأهل لرياسة العائلة والتدريب على مقتضيات راحة الزوجة وتدبير المنزل ومعاملة الزوج مما تراه البنت الماكثة بعد زمن قصير في المدرسة في بيتها تدربها والدتها وتهذبها مرشدتها وتوقفها على حركة يمشابها فتخرج الى بيت زوجها مكملة ربتها التجارب

وفقها اليسر بين تلك تخرج من بين الدفاتر والمحابر لا تدري سوى ما لا يفيد العائلة شيئاً فايها اعلى منزلة واسمى مقاماً وارغب للزوجية أربة البيت التي يتلألأ وجهها جمالاً ونضاضة المزيج جسمها صحة وعافية ام تلك الشاف وجهها عن عظام نخرها سوس العلوم والمدارس يهتز بدنها ضعفاً ووهناً

(ثالثاً) هل يدوم علم المرأة بعد الزواج .. كلا
واذا دام هل ينتفع الزوج والاولاد منه .. كلا
هل يدوم المال بعد الزواج .. نعم ويزيد
هل ينتفع منه الزوج والزوجة والاولاد .. نعم

فلا مشاحة ان الدائم خير من الزائل وان المفيد النافع خير من غير المفيد القليل النفع

ورب معترض يقول لماذا لا يدوم العلم للمرأة بعد الزواج ولماذا لا ينفع الاولاد الجواب ان العلم كالسلاح متى ترك صدئ والمثل يقول الترك آفة النسيان فاين الوقت لربة البيت بعد اعمال شؤون بيتها للمطالعة بعلوم شغلت نفسها لعدم الغاية والافادة منها وهب انها وجدت الزمن الكافي فماذا يلجئها لمراجعة كتب الدراسة وماذا يصادفها من الاشغال الاضطرارية حتى تنبه معها قوة الصبر على مراجعة العلم الذي لا يستقرّ ويدوم مع الرجل الا اضطراراً له فان الطبيب يعيش من علم الطب والمهندس يعيش من علم الهندسة وهكذا الفقيه والكاتب الى آخره ومعلوم ارتباط هذه العلوم بعضها ببعض فيضطر الواحد للآخر ولهذا بحث مخصوص نبين فيه رابطة العلوم بعضها ببعض وتسهيلها المعيشة مهما كان ينبوعها ولنفرض المحال ايضاً ونقول انها تحافظ عليها وتجبر الطبيعة على استمرار مراجعتها له فماذا يفيد الطفل الذي لا يكون في حضنها لاكثر من الخامسة من عمره وماذا يفهم من علومها

هذا وقد طال الشرح فارجو عفواً. وزد على ذلك ان لعلوم المرأة ضرراً ادبياً وهو ان المرأة العالمة اذا تزوجت بعالم مثلها لا يخلو امرهما من المباحثة والجدال وهذا فيه عيبان مهمان بين الزوجين اولهما انهما يتعودان المجادلة وتخطئة احدهما الآخر ومراجعة احدهما الآخر فتقل الاجابة المطلوبة وربما انتصر احدهما على الآخر فان كانت هي تكبر نفسها وتصغر نفس الرجل فيغار على حقوقه ويرى نفسه سقط عن

رئاستهِ فيختلق اسباباً لرد ما فقد ربما لا تحتملها وان كانت هي فتقوم بها روح الكبرياء وحبها الذاتي فينفتح باب الشر ويقوم النكد وذلك من فضل العلم فليأتهِ من يشاء. وقد يسامح البعض في مثل ذلك تبعاً للموضا ولكن ما قولهُ اذا كان الحق معهُ بمسئلة ولم ترضخ هي للحق .

واما اذا تزوجت بجاهل فهناك المصيبة الكبرى فان الاحتقار والامتهان لذلك الزوج يكونان شعارها ولا لزوم لتوضيح تعاسة الزوجين وقتئذ

هذا قليل من كثير بهذا الموضوع واني لراجٍ من الادباء معارضتي بذلك لعلي اكون مخطئاً فما اقربني للاذعان

(دمياط) « الدكتور امين الخوري »

شرح البيتين

حضرة الفاضل منشئ الهلال الاغر

قد أعجبني كثيراً شرح البيتين الوارد بالهلال العاشر لحضرة الاديب عبد المجيد افندي الشربيني بناء على اقتراح حضرة الفاضل الطهطاوي محمد ابي حب استيفاء الموضوع الى ذكر ما في البيتين المنوه عنهما من انواع البيان والبديع راجياً المعذرة سلفاً عن تقصيري في ذلك الميدان الرحيب الارجاء. غير اني قبل الشروع في ذلك لا اخفي باني اخالف حضرة الشارح في معنى قول الشاعر (من بهِ) حيث قال في تفسيره (من انت مغرم بهِ) ولا يخفى ما في ذلك من التأويل الذي لا داعي اليهِ وزد عليهِ ان حياءها الذي صبغ بياضها بالصفرة عند ما لح لها بأنهُ يعشقها يمنعها من ان تذكر الغرام على لسانها امام رجل تتجاهل بعشقهِ لها فلا تقول لهُ بمن انت مغرم ثم تتنهد . والاليق ان يقال انها لما رأت شدة اصفراره رحمتهُ فقالت على مسمع منهُ (من بهِ) تريد اي مرض اصابهُ حتى بلغ منهُ الاصفرار لتلك الدرجة

قالت ذلك وهي تتجاهل بعشقهِ لها رغماً عنها اما خجلاً منهُ او خوفاً من رقيب ثم زادت الرحمة في قلبها فلم تستطع صبراً دون ان تتنهد اما هو فصرف معنى السؤال عن المرض الى الغرام بان قال لها (المتنهد) ويسمى هذا النوع من البديع المعنوي القول بالموجب ومثالهُ قول محاسن الشعراء

باب السؤال والاقتراح

اسماعيل وبرية فاران

(ابو كبير) الشيخ احمد محمد الالفي خادم العلم الشريف

في التوراة في حال اسماعيل عليه السلام تكوين اصحاح ٢١ عدد ٢١ هكذا (وسكن برية فاران الخ) وفي اصحاح ٣٣ تكوين (وتلألأ من جبل فاران الخ) فما هي برية فاران وما هو جبل فاران والمعروف ان اسماعيل كان سكنه ارض الحجاز فهل فيها من الجبال والبراري ما يطلق عليه هذا الاسم في الزمن القديم او الحديث او ان اسماعيل سكن في بعض احيانه غير ارض الحجاز وان كان فما هي هذه الارض وهل كان ذلك قبل بناء البيت الحرام او بعده او قبل مجيئه للحجاز بالكلية مع امه هاجر بامر الله لابراهيم عليه السلام وهل القطعة الجنوبية من طور سينا يطلق عليها هذا الاسم

(الهلال) ان النظر في رواية العرب عن اسماعيل وتطبيقها على حكاية التوراة شغلت قسماً كبيراً من اهتمامنا اثناء بحثنا في تاريخ العرب قبل الاسلام وقد يلوح للباحث في بادئ الرأي ان التطبيق بينهما مستحيل ولكننا نراه ممكناً وسهلاً لان الخلاف بين الروايتين محصور في حياة اسماعيل ووالدته هاجر بعد خروجها من بيت ابراهيم فالتوراة تقول انهما اقاما في برية فاران والعرب تقول في مكة بالحجاز ولكي يتجلى لنا وجه الخلاف ويسهل علينا التطبيق نذكر خلاصة الروايتين ثم ننظر فيهما

فيؤخذ من رواية التوراة ان سارة امرأة ابراهيم لما اسنّت ولم تلد اباحت لابراهيم ان يتزوج بامتها هاجر المصرية فتزوجها فولدت له اسماعيل فلازم اسماعيل اباه وربي تربية البدو فتعود الصيد والقنص ورمي النبال في برية بر سبع فشب حرّ النفس لا يحتمل الضيم فلما ولدت سارة اخاه اسحق ورأى احتفاء والده به حتى كاد يصير هو الى الذل والهوان تحزبا عليه فهاج ذلك غضب سارة حتى قالت لابراهيم

« اطرد هذه الامة وابنها فان ابن هذه الامة لا يرث مع ابني اسحق » ثم كان ما كان من اخراج هاجر وابنها وهاك نص التوراة « فبكر ابراهيم في الغداة وأخذ خبزًا وقربة ماء فدفعها الى هاجر وجعلها على منكبها واعطاها الصبي وصرفها فمضت وتاهت في برية بئر سبع [1] ونفد الماء من القربة فطرحت الصبي تحت بعض الشجر ومضت فجلست تجاهه بعيدًا قدر رمية قوس لأنها قالت لا ارى موت الصبي فجلست تجاهه ورفعت صوتها وبكت وسمع الله صوت الغلام فنادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها مالك يا هاجر لا تخافي فان الله قد سمع صوت الغلام حيث هو قومي خذي الغلام وشدي يدك معهُ فاني جاعلة امة كبيرة وكشف الله عن عينيها فرأت بئر ماء فمضت وملأت القربة ماء وسقت الغلام وكان الله مع الغلام حتى كبر فاقام بالبرية وكان رامياً بالقوس واقام ببرية فاران »

ويؤخذ من مجمل حكاية التوراة ان اسماعيل كان اذ ذاك في السادسة عشرة من عمره ثم لم يرد ذكره بعد ذلك الا عند دفن ابيه ابراهيم في كهف مكفيلة على ان التوراة ذكرت ابناءه الاثني عشر والمراد بهم القبائل التي تألفت من نسله وانهم اقاموا ما بين حويلة الى شور وكانت شور عند برزخ السويس وحويلة هي خولان في شمالي بلاد اليمن وبينها الحجاز ونجد ومديان وبرية طورسينا وهي الاماكن التي اقامت بها العرب الاسماعيلية

أما العرب فروايتهم تكاد تكون منقولة عن التوراة حرفياً الاّ ما يتعلق بالمكان الذي اقام فيهِ اسماعيل وأمه فهم يقولون ان ابراهيم لما اراد اخراجها من بيته ذهب بها الى الحجاز وتركها بمكة وبني اسماعيل بها وتزوج من جرهم امرأة فرزقا منها ١٢ ولدًا ثم ترد حكاية بناء الكعبة على يد اسماعيل وابيهِ

فيظهر مما تقدم ان الروايتين متفقتان بان اسماعيل ابن ابراهيم من امرأته هاجر وانهُ أُخرج من بيت ابيهِ فربي بالبرية عند بئر خرج منها الماء بمعجزة وان من نسل اسماعيل خرج ١٢ قبيلة من قبائل العرب · ولكنهما تختلفان في المكان الذي ربي فيهِ

(١) بئر سبع كانت في متوسط المسافة بين طرف البحر الميت الجنوبي وبحر الروم عند بلدة رفح التي وقف عندها عمرو بن العاص بقدومهِ لفتح مصر وهي على مسافة ٢٧ ميلاً الى الجنوب الشرقي من غزة

اسماعيل فتسميه التوراة فاران وتسميه العرب مكة او الحجاز وبرية فاران وجبل فاران واقعان في العقبة شمالي برية طورسينا بعيداً عن الحجاز ولحل هذا المشكل يجب ان يكون هناك مكانان اسم كلٍ منهما فاران احدهما في العقبة والآخر في الحجاز أما فاران العقبة فقد تقرر وجودها وفي مكانها الآن مكان يعرف بوادي الفيران واما فاران الحجاز فقد ذكر ياقوت في المشترك ان فاران اسم لجبال مكة وهاك نص كلامه « فاران اسم جبال مكة وقيل اسم جبال الحجاز ولها ذكر في التوراة تجيء في اعلام نبوة النبي (صلعم) »

فاما ان يكون المراد ببرية فاران بالتوراة البرية بجوار مكة فيكون المراد بفاران هنا غير المراد منها في الاماكن الاخرى من التوراة او ان يكون اسماعيل وهاجر اقاما زمناً في فاران العقبة ثم هاجرا الى الحجاز واقاما في مكة ولم تذكر التوراة ذلك لاستقلالهم عن تاريخ اليهود لأنها انما تدقق في تاريخ اليهود او ما يتعلق به وتقتضب ما سواه وخصوصاً ما يتعلق بتاريخ العرب. وكثيراً ما تكون روايات العرب عن أصولهم تتمة لاقوال التوراة فتتصل اول حلقة من سلسلة رواياتهم بحلقة مقطوعة من سلاسل الخليقة بالتوراة. من امثلة ذلك انه ورد في سفر التكوين ص ١٠ عدد ٢ ان بين ابناء آرام بن سام « جاثر » ثم لم يرد ذكره في التوراة بعد ذلك مطلقاً ولكن العرب يقولون بالاجماع ان قبيلتي ثمود وجديس من العرب البائدة يتصل نسبها بثمود وجديس ابني « جاثر » او (غاثر) ابن آرام بن سام وبذلك يتم المعنى الناقص وهناك امثلة كثيرة من هذا القبيل

وقد يظهر للمتأمل في حكاية اسماعيل على الروايتين اختلاف في التفاصيل وقد يكون بين اجزاء الرواية الواحدة مناقضة او مخالفة ولكن ذلك عاديٌ في الروايات التي تتناقلها الالسنة اعواماً فكيف بالتي تناقلتها دهوراً فان بين هجرة اسماعيل وتدوين سفر الخليقة ستة قرون على الاقل وبينها وبين تدوين العرب لها ٢٧ قرناً فهل نرجو مطابقتها حرفياً. ويؤيد ذلك ان في رواية التوراة نفسها عن قصة اسماعيل ابهاماً او تناقضاً فقد دلّت انه بلغ السادسة عشرة من عمره قبل خروجه من بيت ابيه ثم رأيناه في تفصيل خروجه انه طفل صغير اذ قيل « انها طرحت الصبي تحت بعض الشجر وجلست بعيداً حتى لا ترى موته وان الله سمع صراخ الغلام » فهو اقرب ان يكون

صراخ طفل بكى من العطش فربما وقع في رواية التوراة تقدم وتأخير أوجب هذا التلبك

أما روايات العرب فلا تخلو من مثل هذا الالتباس فضلاً عن التخالف فيما بينها

فلا ريب عندنا ان مصدر رواية التوراة عن اسماعيل وسائر روايات العرب واحدٌ وإنما نشأ فيها هذا الابهام او التخالف بينها من تناقلها على الالسنة والله اعلم

ترجمات التوراة

(مصر) رزق افندي يوسف بالسكة الحديدية

نرجو ان تراجعوا الفقرة الاولى من العدد السادس عشر من الاصحاح الثاني من نبوة ملاخي فقد وجدناها في الترجمة اليسوعية (اذا ابغضتها (الزوجة) فطلقها) و في طبعة لندن سنة ١٨٦٦ (اذا ابغضت فاطلق) اما في ترجمة الاميركان فهي (لانه يكره الطلاق) فالامل الافادة عن اصح هذه الترجمات وما هو رأيكم في سبب الخلاف

(الهلال) قد لاحظنا في ترجمة هذه الفقرة الى سائر لغات التوراة ثلاثة امور

(١) ان الترجمات القديمة متفقة كلها على ترجمتها مثل ترجمة الآباء اليسوعيين او ترجمة لندن التي اشرتم اليها . فاليونانية تقول ما ترجمته « ولكن اذا كنت تبغض (امرأتك) فابعدها » ونحو ذلك في اللاتينية والكلدانية (ترجوم يوناثان) وفي الترجمة العربية بالبوليغلوت « لكن ان ابغضتها سرّحها »

(٢) ان هذه الفقرة محذوفة من الترجمة السريانية بالكلية ولا ندري ما سبب ذلك و بين ايدينا طبعتان لهذه الترجمة احداهما مطبوعة في لندن على حدة والاخرى مطبوعة في البوليغلوت وكلاهما خلو من هذه الفقرة

(٣) ان الاصل العبراني يخالف كل هذه الترجمات فان تلك الفقرة فيه هي (כי שנא שלח) وترجمتها حرفياً « لانه يكره الطلاق » كما ترجمها الاميركان على انها قد تقبل التأويل الى ما يقرب من مؤدى الترجمات الاخرى تأويلاً لا يخلو من التكلف

فالترجمة الاميركانية اقرب الى الاصل العبراني الحرفي ويشاركها في ذلك

أرمانوسة المصرية (تابع ما قبله)

فخاف ان يكون في نيته الذهاب الى بلبيس وتنفيذ مكيدته على حين غفلة فجعل يفكر في أمره ويتردد بين ان يسير الى بلبيس فيطلع سيدته على ما علمه عن بوقنا او ان ينتظر مقابلة عمرو ومعاهدته على حمايتها . وبعد التفكر برهة صامتاً التفت زياد اليه قائلاً مالي اراك حائراً في امرك قال اني خائف من بوقنا ومكيدته واخشى ان يسير الى بلبيس وينفذ مكيدته على غرة فقال له اذا كنت ترى ذهابك الآن فافعل وانا اتكفل لك بمقابلة عمرو واخذ العهد منه وابعثه اليك اما كتابة او شفاهاً

فارتاح مرقس الى هذا الرأي وقال بورك فيك يا زياد اني والله لا انسى لك هذا الصنيع وارى ان أبادر بالذهاب حالاً ولكنني أتيت ماشياً فاذا عدت ماشياً أخاف الابطاء وربما سبقني بوقنا اليها على خيله فلا فائدة من ذهابي

فقال اما الخيل فلا يجود العرب بها فان العربي يضحي نفسه من أجل فرسه ولكننا ربما استطعنا الحصول على جمل والجمل اكثر جرياً من الفرس احياناً فهل تعودت ركب الجمال

قال لا والله لم اركبها عمري ولكني اركبها ركوب المضطر والاتكال على الله

فعمل زياد الفكرة في كيفية الحصول على جمل والجند قد مشوا بخيلهم وجمالهم فنظر الى الركب الباقي فاذا فيهم بعض الجمال يحملون عليها الزاد والخيام فقال لمرقس البث هنا ريثما اعود اليك بالجمل ثم تركه وذهب الى الخيم يجول بينها لعله يرى احداً يعرفه فلم يعثر على احد فاوغل في المضارب فلاح له عن بعد جمل سائب في البرية فعلم انه يطلب المرعى فحدثته نفسه ان يقبض عليه ويأتي به الى مرقس خلسة ولكنه خاف سوء العاقبة فوقف برهة يفكر في ذلك فلم يتجرأ على السرقة ثم نظر الى الجمل فاذا به يوغل في الصحراء ولا يطلبه احد فعلم انه منسيّ فعوّل على اللحاق به فاذا اعترضه احد تظاهر بامساكه وارجاعه الى المعسكر فسار في اثره حتى توارى عن المعسكر فامسكهُ وعقله وعاد الى مرقس وأخبرهُ ان الجمل معقول هناك فسار به لا يراقبهما احد حتى وصلا الى الجمل فحلاهُ وقال زياد لمرقس اصعد الى ظهره وتثبت فانك اذا لم تتثبت جيداً سقطت عن ظهره

فقال مرقس قد تعودت الركوب فلا تخف فداس زياد على ساعد الجمل واركبه

مرقس عليهِ وأوصاه ان يتمسك بالرحل جيدًا ولم يكد زياد يرفع رجلهُ عن ساعد الجمل حتى وقف الجمل بغتة ومرقس لا يعهد مثل هذا النهوض السريع فهوى عن ظهره فوقع الى الارض فشج رأسهُ وسال دمهُ فصاح آه قد قتلت أما الجمل فنفرَّ راجعًا يطلب المعسكر فهمَّ زياد الى مرقس واسندهُ الى صدره وقد خارت قواه وغاب صوابهُ فارتبك زياد في أمره وخاف على صديقهِ الموت على اثر تلك الصدمة فجعل يمسح لهُ دمهُ ولكنهُ كان يسيل غزيرًا فامسك الجرح بين يديهِ وضغط عليهِ باصابعهِ ليوقف النزيف فاصبح لا يستطيع تركهُ والذهاب الى المعسكر ولم يرَ حولهُ من يستنجد فازداد ارتباكهُ وأخذتهُ الحيرة ونظر الى مرقس فاذا بهِ قد امتقع لونهُ وخارت قواه فأسف لما اشار بهِ عليهِ ووبخهُ ضميرهُ لأنهُ هو الذي سبب لهُ هذه السقطة

وفيما هو في تلك الحال شاهد فارسًا عن بعد علم من لباسهِ انهُ من فرسان العرب فناداه قائلاً « يا وجه العرب ادركنا » فحوّل الفارس نحوهُ مسرعًا ولما شاهد الرجل ملقى والدم يسيل منهُ اراد السؤال عن سبب جرحهِ فابتدره قائلاً « انجدنا بوسيلة نخفف المصاب فان الوقت لا يؤذن بالسؤال » فتحوّل عن جواده فتأملهُ زياد فاذا هو اسود اللون طويل القامة هائل المنظر وادرك من لباسهِ وهيئتهِ انهُ من ابطال العرب مع انهُ اسود اللون فاسرع الفارس الى خرج على فرسهِ فاستخرج قطعة من قماش عصب بها رأس مرقس ورفعهُ عن الارض وقال لزياد اسندهُ فأسندهُ ثم ركب هو على الفرس ورفع مرقس اليهِ فاركبهُ امامهُ وقد تدلى رأسهُ على صدره وساق الجواد قاصدًا المعسكر وزياد يتبعهُ وقلبهُ يخفق خوفًا على صديقهِ من الموت

الفصل الثالث والعشرون

أرمانوسة في بلبيس

فلنتركهم ذاهبين لمداواة مرقس ولنرجع الى ارمانوسة وما كان من أمرها فانها لبثت في بلبيس بعد مسير مرقس تنتظر عودتهُ بفارغ الصبر لتعلم حقيقة خبر قسطنطين فمضى يوم وثانٍ وهي على مثل الجمر لا يهنأ لها طعام ولا شراب فلما كان مساء اليوم الثاني بعثت الى بربارة فجاءتها مهرولة فقالت لها الم يكن من الحكمة

يا بربارة ان ابعث بك الى اركاديوس قبلاً لتبلغيه ما نحن عليه بشأنه فلعله اذا علم اننا متفقان قلباً وقالباً اسرع الى انقاذي من قسطنطين واخاف اذا ابطأت عليه بالجواب ان يظن بي تغيراً فيتغير او يظن بي سوءاً فيتم فما رأيك

فقالت بربارة لا أظنه يستبطئنا اذا تأخر جوابنا اسبوعاً لعلمه بصعوبة المراسلات وأظن انتظار عودة مرقس اولى اذ يكون الخبر تاماً لأننا اذا تحققنا قتل قسطنطين اغنانا ذلك عن مشقات جسيمة ويكون فيه القول الفصل واذا تحققنا حياته وبقاءه على عزمه عمدنا الى وسيلة للنجاة وأما الآن فنحن بين بين وعلى كلٍ فالرأي لسيدتي فأمريني فافعل ما تريدين

فصمتت ارمانوسة مدة وكانت متكئة على سريرها فاستلقت وتنفست الصعداء قائلة اني لفي حيرة ولا اراني قادرة على الفصل في الامر فاشيري عليَّ اني اطوع لك من بنانك

فقالت بربارة ننتظرنَّ الى الغد فاذا لم يأتنا مرقس نرى رأينا والله يلهمنا بما فيه خيرنا ان شاء الله فباتوا تلك الليلة وقد صلّت بربارة صلاة حارة ونذرت نذراً الى الكنيسة المعلقة ترجو انقاذ سيدتها أما ارمانوسة فكانت لفرط هيامها وتراكم الهواجس عليها لا تفتكر الا باركاديوس وقسطنطين وتقابل بينهما فيتخيل لها انهما ملاك وشيطان يترددان امام عينيها . وفي الصباح جاء حاكم بلبيس يطلب مقابلة ارمانوسة في غرفتها فأذنت له وقد استغربت مجيئه وهو قلما طلب مقابلتها

فلما دخل حيّاها بكل احترام فردت التحية وهي لفرط ما قاسته من الوجد والهيام قد هزل جسمها وامتقع لونها ونظرت الى الحاكم فاذا هو ممتقع اللون ايضاً فازداد قلقها فقالت ما وراك ايها الحاكم

قال قد أتتنا الجواسيس يا سيدتي ينبئون بدخول العرب حدود مصر وان فرقة منهم وصلت الفرما فهل ارسل الى سيدي المقوقس بذلك فانه اوصاني عند سفره هذه المرة من بلبيس ان استشيرك في مثل هذه الامور لما يعهده فيك من الحكمة والدراية

فلما سمعت ارمانوسة ذلك خفق قلبها ولم تعلم بماذا تجيبه وبعد التأمل برهة قالت ولا بد من ابلاغه الخبر حالاً واستنجاده فان العرب لا يلبثون ان يصلوا الينا ولا اظن حامية بلبيس كافية لدفعهم فقال اذا امرت مولاتي انفذت حالاً من

يطلب المددفقالت لا بد من ذلك فافعل . فخرج مهرولاً ولما خلت بربارة بسيدتها قالت لها ربما ذعرت يا سيدتي لهذا الخبر ولكني احسبه باباً للفرج قالت وكيف ذلك يا بربارة

قالت لأن سيدي المتوقس الان في الحصن واذا وصله الخبر لا بد وان يعلم به سيدي اركادبوس فاذا كان يحب ارمانوسة حقيقة جاء بنفسه مدداً لحامية بلبيس وهذا ما نتمناه

قالت أرمانوسة صدقت يا بربارة فافعلي ما تريدين أما انا فلا أعي شيئاً وها اني بفروغ صبر انتظر عود مرقس لأرى ما تمّ لذلك الرجل (تريد قسطنطين) ولحظت بربارة عظم ارتباك سيدتها وقلقها فقالت لها هلمّ بنا يا مولاتي نتزل الى الحديقة نتزهين طرفك بالرياحين والازهار ولنترك التقادير تجري في اعنتها والله يدبر الامر كيف يشاء

فقالت ارمانوسة اني افضل الانزواء على التنزه لأن قلبي لا يُسرّ لشيء ولا يرتاح لي بال قبل الوقوف على حقيقة الخبر

فقالت دعي التدبير لله وهلمّ بنا ولا يجب ان تعطي نفسك مداها

قالت ذلك وامسكتها بيدها وانهضتها وجاءتها برداء ارجواني ثمين وألبستها اياه وزينتها بحليها وجعلت على رأسها شبكة من اللؤلؤ ثمينة وضفرت شعرها ومشت امامها الى الباب فخرجت أرمانوسة تجرّ ذيلها تيهاً ولما علم نساء القصر بخروج ارمانوسة اطللن من النوافذ ليشاهدن حسن زيها فقد كنّ معجبات بجمالها وبذخها

فسارت في الحديقة تخطر بين الاشجار والازهار لا يلذ لها النظر ولا ترتاح الى شيء لتعاظم هواجسها

أما بربارة فجعلت تسليها بالحديث تشغلها به عن هواجسها وهي صامتة لا تنطق ببنت شفة

وكانت الحديقة مشرفة على سهل خارج البلدة فلاحت من بربارة التفاتة فاذا بفارس قادم عن بعد وعليه لباس مثل لباس مرقس فظنته هو فالتفتت الى سيدتها قائلة بلهفة هذا هو مرقس قادم يا سيدتي فلعله جاءنا بخبر خير

فالتفتت ارمانوسة الى القادم فقالت ولكني اراه راكباً جملاً من جمال العرب

فهل ذهب راكبًا . فنظرت بربارة الى الرجل وهو يقترب من البلدة ثم قالت لا ليس للبال عندنا وجود ولكن يظهر انهُ هو مرقس ولا نعلم من اين اتى بالجمل

ولم يتمَّ الحديث حتى وصل الهجان الى سور المدينة فتحوَّل عن الجمل وربطهُ الى شجرة فخرج بعض حامية بلبيس لاستقبالهِ وسؤالهِ عن مرادهِ ثم جاء احدهم يقول ان القادم رسول من قسطنطين بن هرقل الى المقوقس وتقدم الى أرمانوسة يسألها اذا كانت تريد مقابلتهُ

فلما سمعت ارمانوسة ذكر قسطنطين اجفلت وانقبضت نفسها وقالت لا لا أُريد مقابلتهُ فهمَّت بربارة الى باب الحديقة وأشارت الى الخفراء ان يأذنوا لهُ بالدخول فدخل فاذا هو جنديٌّ من جنود الرّوم بلباس جند مصر وهو لباس مرقس بعينهِ فانشغل بال بربارة على مرقس وقالت للرجل من انت

قال رسول من مولاي يوقنا صاحب جند حلب مرسلًا بمهمة الى المقوقس من الملك قسطنطين

فقالت واين صاحب هذه الثياب الملك لاقيت رسولنا

قال نعم يا سيدتي وهو في خير وقد فارقتهُ قرب معسكرنا وفي عزمهِ الذهاب الى الفرما بمهمة من السيدة ارمانوسة وأوصاني ان احييكم عنهُ

فقالت واين كتاب الملك قسطنطين المعظم فمد يدهُ الى جعبة معلقة بكتفهِ واستخرج حقًا من الفضة وقدمهُ الى بربارة فتناولتهُ واظهرت السرور بتناولهِ وقالت للرسول امكث خارجًا ريثما اعود اليك بالجواب

ثم تركتهُ ودخلت بسيدتها الى غرفتها وهي لعظم كدرها لا تلوي على شيء

فلما دخلتا الغرفة فتحت بربارة الحُق ففاحت منهُ رائحة عطرية فاستخرجت الكتاب فاذا هو على رقٍّ ناعم حسن الصنعة فناولتهُ الى ارمانوسة لتقرأه لانها لم تكن تعرف اللاتينية

فاخذت أرمانوسة الكتاب ويداها ترتجفان ونظرت الى مكان الامضاء فاذا هو امضاء قسطنطين باسمهِ فاختلج قلبها واغرورقت عيناها بالدموع وصاحت تبًا لهُ ألا يزال حيًا فقالت لها بربارة اقرئيهِ يا سيدتي لنفهم ما فيهِ فلعل فيهِ خبرًا ولو كنت احسن القراءة لما كلفتك قراءتهُ

فاخذت ارمانوسة تقرأه فاذا فيه ما ترجمته

« من قسطنطين بن هرقل ملك الروم الى المحترم المقوقس والي مصر

« بسم الاب والابن والروح القدس

« أما بعد فاني قد عزمت على الشخوص الى القسطنطينية بحول الله فبعثت بعدنا البطريق بوقنا حاكم حلب البكم لكي تعتمدوا عليه في ارسال خطيبتنا ارمانوسة ليأتي بها الينا ونحن ننتظر وصوله عند سواحل دمياط وهو مرسل منا وقد عهدنا اليه هذه المهمة لاعتقادنا فيه الاخلاص لنا فلا تترددوا في تسليمه ارمانوسة والسلام » (الختم)

فلما قرأته ارمانوسة خارت قواها والقت بنفسها على السرير واوغلت في البكاء وهي تقول لا لا اذهب معه ولا أخرج من هذه الغرفة قبل ان تخرج روحي من جسدي

فجعلت بربارة تخفف عنها وتقول لها لا تجزعي يا سيدتي انك لست ذاهبة باذن الله الا مع سيدي اركاديوس ولكن يجب علينا تدبير الامر بالحيلة فماذا تجيبه الآن

قالت أرمانوسة وقد اظلمت الدنيا في عينيها لا تسأليني امرًا فاني لا افهم ما تقولين ولا اعلم بماذا اجيب ولكني اقول لك اني لا أريد الخروج من هذا المكان ابدًا وافعلي ما يبدو لك

فتركتها في الغرفة وخرجت وبعثت الى حاكم المدينة فهرول مسرعاً لانه كان ينتظر خدمة يقوم بها لارمانوسة ارضاء لوالدها لعلمه بما لها من المنزلة عنده فلاقته بربارة وانفردت به واطلعته على كتاب قسطنطين وقالت ان هذا الكتاب باسم سيدي المقوقس ونحن لا يمكنا اجراء شيء الا بامره فالتمس منك ان تبعث احدًا من رجالك بهذا الكتاب اليه حتى يأتينا بالجواب

قال سمعًا وطاعة وهمَّ بالخروج فقالت ولكن قف قليلاً فوقف فقالت هات الكتاب فسلمه اليها فقالت ابعث اليَّ رجلاً تثق به من رجالك لاسلمه اليه واوصيه بشيء آخر

فخرج وعاد بشاب كان يثق به كل الوثوق وقال هذا هو الرسول فاوصيه بما تريدين فنادت الشاب وقالت له امكث هنا قليلاً لاعود اليك فمكث فخرجت الى الحديقة وبعثت الى الرسول القادم من بوقنا فدخل فقالت ان سيدتي ارمانوسة

مسرورة من هذه البشارة فاين هو سيدك يوقنا الآن

قال هو عند الفرما برجاله ينتظر عودتي حتى يأتي ويذهب بالسيدة أرمانوسة حالاً لان الوقت قصير وقد أعد لها كل معدات الاحتفال والزينة

فقالت هل جاء بجند كبير

قال نعم انه جاء بخمسماية من خاصة رجال سيدي قسطنطين خفرًا للسيدة ارمانوسة في مسيرها

قالت بارك الله فيك وفيه اذهب اليه واخبره ان السيدة ارمانوسة تهديه السلام وتشكر حسن صنيعه وانها تستعد للمسير معه حالما يأتيها الجواب من سيدي المقوقس ومدت يدها وناولته نقدًا وقالت وستنال تمام المكافأة فيما بعد فاذهب بسلام

فودعها وعاد الى هجينه فركبه وسار يطوي البيداء

أما هي فدخلت على سيدتها فاذا هي لا تزال مستلقية على السرير وعيناها تذرفان الدموع فدنت منها وقبلتها مبتسمة وقالت تجلدي يا سيدتي وتبصري فيما سأقوله لك فان المسألة تحتاج الى الحزم وثقي جيدًا ان قسطنطين لن ينال منك شعرة بهمة سيدي أركاديوس ولكن يجب علينا ان نعلم اركاديوس بما تم حتى يأتي لنجدتك ولا شك عندي انه اذا علم بالامر اسرع حالاً الينا وقد يسهل مجيئه في النجدة التي سيرسلها والدك الى بلبيس فكيف نعلمه بذلك

قالت قلت لك يا بربارة اني لا املك حواسي فافعلي ما تشائين ولكني خائفة من سوء العاقبة

فقالت بربارة لا تخافي يا سيدتي بل تجلدي واصغي لما أقوله لك

قالت قولي ما بدالك وافعلي ما ترتأينه

فقالت أين هو خاتم سيدي اركاديوس قالت هو في جيبي

فاستخرجته وجاءت بقطعة من البردي (البابيروس) وختمتها به وكتبت اسم ارمانوسة بالقبطية الى جانب الختم واحاطت الاسم بدائرة سوداء ولفّت الورقة وجعلتها في حقّ صغير وحملت الحقّين وخرجت بهما الى الرسول وخلت به ودفعت اليه قطعة من النقود قائلة هذه هدية من السيدة ارمانوسة فاثنى عليها فقالت خذ هذين الحقين فادفع هذا الى سيدي المقوقس حين تجده وهذا ادفعه الى اركاديوس بن الأعيرج

بدًا بيدٍ أفهمت . ما أقولهُ لك واحذر ان يراك احد فان سيدني ستوصي والدها بان يزيد عطاءك اذا قمت بما اقولهُ لك فقبّل الحقيبن وخبأهما بجيبهِ وخرج الى جوادهِ فركبهُ وسار قاصدًا حصن بابل فرحًا بالمدينة

وعادت بربارة الى سيدتها وجعلت تطمئن قلبها وتخفف عنها فقالت ارمانوسة لا شيء يعزيني يا بربارة ابدًا فان يوقنا اللعين سيأتينا قريبًا فماذا نجيبهُ

قالت نقول لهُ اننا لا نستطيع اجابة طلبهِ قبل وصول الجواب من سيدي المقوقس

قالت وما الفائدة من ذلك الملّ والذي يرد طلبهُ اليس هو الذي الثاني في هذه الورطة سامحهُ الله

قالت اراك لا تنظرين الى الحوادث الا من وجهها المظلم خلي عنك الظنون وما ادرانا بما يكنهُ القضاء لنا ولم فاني شديدة الامل بسيدي أركاديوس فانهُ سيدفع عنك كل غائلة بدينهِ وانا اقول لك اننا لا نسلم ارمانوسة قبل وصول اركاديوس ولو بايةِ حيلة كانت ومتى وصل يبقى الامر اليهِ وهو اكثر ميلًا في الدفاع عنك من كل انسان ولله الامر

فاحست ارمانوسة عند ذكر اركاديوس براحة وسكن روعها وهانت عليها كل تلك المشاكل

ثم نظرت الى بربارة وقالت لها ولكن هل عاد رسولنا مرقس من مهمتهِ

قالت لا لم يعد يا سيدتي وانا في انشغال بال عليهِ وفي الامس جاءني والد خطيبتهِ يسألني عنهُ لانهم ينتظرون مجيئهُ بفروغ صبر ولا يخفى عليك انتظار الخطيبة لخطيبها اذا كانت تحبهُ

فتنهدت ارمانوسة تنهدًا عميقًا وسكتت . ثم قالت ولكني اخاف ان يصيبهُ سوء بسببنا اذ قد انتهت مهمتهُ ولم يعد

فقالت ولكني كنت اوعزت اليهِ اذا لقي العرب ان يجتهد في تجسس احوالهم فلعلهُ تأخر بسبب ذلك

ومضى عليها يومان في انتظار القضاء والقدر وفي صباح اليوم الثالث أفاقت ارمانوسة على صوت الناس وضوضائهم

« ستأتي البقية »

الهلال

الجزء الرابع عشر من السنة الرابعة

(١٥ مارس . اذار) سنة ١٨٩٦) (١ شوال سنة ١٣١٣) (٧ برمهات سنة ١٦١٢)

باب أشهر الحوادث وأعظم الرجال



غوردون باشا

غوردون باشا

بطل الخرطوم

(ولد سنة ١٨٣٣ وتوفي سنة ١٨٨٥)

ان آل غوردون من العائلات الاسكوتلاندية القديمة العريقة في الحسب والنسب رافقوا تاريخ اسكوتلاندة سبعة قرون ونبغ منهم جماعة كبيرة من الاشراف واصحاب الالقاب والمقاطعات على اختلاف رتبهم ودرجاتهم وفيهم المركيز والارل واللورد والفيسكونت وغيرهم واشتهر منهم ايضاً جماعة من نخبة القواد ورجال الحرب أشهرهم بطرس غوردون وكان صديقاً لبطرس الاكبر وقائداً في الجند الروسي ولو أردنا تعداد مشاهير هذه العائلة لضاق بنا المقام فاكتفينا بالاشارة الى منزلتها من الحسب والنسب

أما صاحب الترجمة فهو شارل جورج غوردون بن هنري وليم غوردون ولد في ٢٨ يناير سنة ١٨٣٣ في وولوتش على ضفة التيمس الجنوبية بانكلترا وكان والده ضابطاً في الطبجية الملكية وله خمسة ابناء وست بنات تلقى صاحب الترجمة مبادئ العلوم في مدرسة تنتون حتى اذا بلغ الخامسة عشرة انتظم في النادي العسكري الملكي في وولوتش ليهيء نفسه للخدمة العسكرية وكان ميالاً اليها كسائر آل غوردون على ان قواه البدنية لم تكن تدل على عظم مستقبله لانه كان نحيف البنية ولكن مواهبه الاخرى عوضت ذلك النقص

فلما أتم دروسه انتظم في الجندية برتبة ملازم ثانٍ في فرقة المهندسين الملكيين في ٢٣ يونيو سنة ١٨٥٢ ثم ارتقى بعد سنتين الى رتبة ملازم اوّل وكانت اذ ذاك حرب القرم ودخول انكلترا وفرنسا فيها فجردت انكلترا حملة كان غوردون في جملة مهندسيها وصلت الحملة فرضة بالاكلافا بالقرب من سباستوبول في اوّل سنة ١٨٥٥ فلم تفز الجنود الانكليزية والفرنساوية بحربها مع الروس لان حصون سباستوبول كانت منيعة جداً فقتل هناك عدد كبير اكثره من الفرنساويين حتى جرت الدماء سيولاً وانتهت تلك الحرب الهائلة باعادة سباستوبول الى الروس وامرها مشهور وكان في جملة هذه الحملة ايضاً غارنت وولسلي وهو الجنرال وولسلي قائد الحملة الانكليزية التي جاءت الدبار

المصرية لاخماد الثورة العرابية سنة ١٨٨٢

وأقام غوردون في سباستوبول باعمال هندسية عسكرية اوجبت اعجاب رؤسائو والمسابقة الى استخدامه فعينوه مساعدًا في لجنة تألفت لتحديد التخوم الاسيوية بين روسيا والمملكة العثمانية نال في نهايتها رتبة يوز باشي (كبتن) سنة ١٨٥٦ ثم عاد الى انكلترا وانضم الى فرقتو

وحدث في اثناء ذلك خلاف بين انكلترا والصين آل الى الحرب الصينية وبيان ذلك ان مركبًا تجاريًا كان مارًّا في نهر كانتون في الجنوب الشرقي من مملكة الصين ومعهُ براءة انكليزية تدل على دخولو في حماية انكلترا والصينيون لا يعلمون ذلك فسطا جماعة منهم على السفينة فاقامت انكلترا الحجة فآل ذلك الى عقد معاهدة تجارية عرفت بمعاهدة تيان تسن تقضي بحرية التجارة الاوربية في سائر مملكة الصين فابرمت المعاهدة وامضيت من الدولتين ثم ما لبث الصين ان افسدتها فاوقفت مندوبًا انكليزيًا مرسلا الى باكين اثناء مروره في نهر بيهو الموصل اليها فشق ذلك على بريطانيا ووافقتها فرنسا عليه فبعثتا عمارة مشتركة ضربت حصون تاكو عند فم نهر بيهو في خليج هناك يعرف بخليج بتشيلي وتقررت الحرب بين الفريقين فاعدت انكلترا سنة ١٨٦٠ حملة بعثت بها الى الصين واليوز باشي غوردون في جملة ضباطها فوصلت في سبتمبر سنة ١٨٦٠ الى نهر بيهو فبلغها ان الصينيين فتكوا بجماعة من رعايا انكلترا هناك قتلوا بعضهم واسروا الآخرين بخيانة فاتحدت جنود انكلترا وفرنسا على مهاجمة باكين عاصمة الصين إرهابًا للمملكة كلها وكانوا على مقربة من العاصمة فوصلوها في اوَّل اكتوبر وحاصروها وهي محاطة بسور اشهر من ان يذكر علوه ثلاثون قدمًا وسماكتهُ ٢٥ قدمًا عند قاعدتو ولهُ ١٦ بابًا فوق كل منها برج حصين بالمدافع وكان غوردون في جملة المحاصرين فابدى بسالة ودراية ذكرها لهُ قواد تلك الحملة

وكانت باكين ثلاثة اقسام ابرز احدها كن تشن فيو قصر الامبراطور الصيني وهو عجيب هائل وفيو كثير غيره من الهياكل العظيمة فعولت الجنود المتحدة على ضرب ذلك القسم وتخريب ابنيتو وبعثوا الى امبراطور الصين بلاغًا نهائيًا وضربوا أجلاً يومين سلمت المدينة قبل انقضائها فطلبوا الغرامة الحربية وقدرها عشرة آلاف جنيه عن كل انكليزي وخمسمئة جنيه عن كل جندي وطني قتلهُ الصينيون فدُفعت الغرامة

وعُقدت معاهدة جديدة · على ان ذلك لم يقِ القصر الامبراطوري من النهب والهدم فان الجنود المتحدة امعنت في تخريبهِ وكسر ما فيهِ من الآنية واحراق اثاثهِ فلطخوا نصرتهم هذه بنقطة سوداء لا تليق بتاريخ زعماء التمدن الحديث

أما غوردون فبقي مع من بقي من الجنود المحتلة في تيان تسن سنتين قضاها في الاستكشاف واستطلاع داخلية الصين لان الناس قلما يعلمون عن تلك الاماكن لتشديد الصينيين في منع الاجانب من دخولها فاغتنم غوردون وجوده هناك فرصة للاستطلاع فكان يخرج من المعسكر تارة بعد اخرى يتعهد تلك الانحاء وفي جملتها سور باكين المعدود من عجائب الدنيا · وترقى في اثناء ذلك الى رتبة بكباشي (ماجور)

ورافق اقامة غوردون في الصين حروب اهلية بين اهل الصين أدت الى مداخلته واظهار مواهبه وذلك ان رجلاً اسمهُ هونغ تسو تسون من عامة سكان كانتون في الجنوب الشرقي من مملكة الصين ادعى سنة ١٨٥٠ انهُ رسول بعثهُ الله لاخراج العائلة المالكة وهم التتر واعادة الحكم الى العائلة السابقة فالتفَّت حولهُ عصابة كبيرة وهم بين مصدق وطامع ومنتقم ويظن بعضهم ان هونغ هذا انما قام لنشر الديانة المسيحية لانهُ كان راغباً فيها حتى التمس الانضمام اليها سنة ١٨٤٧ فلم يؤذن بتعميده لانهُ لم يكن مطلعاً على كل اسرارها وتعاليمها · على ان الغالب في من يلتمس الاحزاب ان يجعل لدعوته اساساً يجمعهم فيختار لذلك الدين او الوطن او الجنس او غير ذلك

ومما ساعده في تكثير احزابه انهُ سمى رجالهُ (تاي بنغ) اي امراء السلام وقال انهُ انما ارسل لنصرة المظلومين ورفع اثقال المعوزين فلقي من الاحزاب عدداً كبيراً لان المظلومين والمعوزين اقرب الناس ولاء لمن يعدهم بالخلاص

وكان صاحبنا هذا كلما تكاثر اتباعهُ تكاثرت قداستهُ وازدادت معجزاتهُ حتى صار يرى الرؤيا ويخاطب الملائكة ويناجي الارواح ثم ادعى انهُ المسيح الثاني او اخو المسيح الاصغر فاجتمع حولهُ جمع كبير فسار بهم يغزون وينهبون فاذا اعترضتهم جنود الصين حاربوهم حتى افتتحوا مدينة تاي تسن فانضم اهلها اليهم ولم تدخل سنة ١٨٥١ حتى بلغ اتباع هونغ هذا ٢٠٠,٠٠٠ وهم يواصلون غزواتهم حتى فتحوا مدناً كثيرة فاقام هونغ من بعض اقاربه ملوكاً خمسة فرّقهم في البلاد المفتتحة كما فعل نابوليون بونابرت قبلهُ · على انهُ ما لبث ان حكم على بعضهم بالقتل واقام مكانهم غيرهم من

غير عصبيته . وتعاظم امر هؤلاء الملوك وكبرت نفوسهم فسمى احدهم نفسه بالروح القدس وكانوا يجحون رجالهم القابًا ورتبًا يغربونهم بها منهم

ومضت سنتا ١٨٥٢ و١٨٥٣ وامراء السلام يغزون ويحاربون حتى فتحوا مدينة هنغ شو عاصمة ولاية شيكنغ الشرقية على ضفاف نهر تيان صنغ العظيم وقد كانت هذه المدينة عاصمة مملكة الصين في زمن حكم المغول ثم افتتحوا مدينة نانكين وهي اعظم مدن الصين الأ باكين فاتخذوها عاصمة لهم والفوا فيها مجلسًا ملوكيًا مثل مجلس باكين

أما امبراطور الصين فانه حاول دفع هؤلاء العصاة واخماد الفتنة فلم يستطع الى ذلك سبيلاً فاستفحل امر هذه الثورة حتى كادت تذهب بمملكة الصين او تقلبها رأسًا على عقب لولم تمس مصالح الافرنج المتجرين فيها . فقد كان الانكليز في اثناء هذه الثورة على الحيادة يفرحون بفوز امراء السلام لانهم مساعدوهم في كسر شوكة الصينيين ولكن الاحوال قضت بنزوعهم عن الحيادة وذلك ان الثائرين عزموا على غزو مدينة شنغاي وهي اكبر فرض الصين واعظم مدنها التجارية وفيها كثير من النزالة الانكليز والفرنساويين والاميركان وبعضهم اصحاب تجارة واسعة وانشأ بعضهم المرافئ والاهراء واقاموا الابنية العظيمة فلما بلغ اهل شنغاي عزم الثائرين عليها التمسوا حماية المدينة بجند اجنبي يقومون هم بنفقاته واذنت حكومتهم بذلك فتألف جند تحت قيادة قائد اميركاني اسمه وارد ووعد سفيرا انكلترا وفرنسا بالمساعدة عند الحاجة لحماية شنغاي

وفي سنة ١٨٦٠ اقترب الثائرون من شنغاي حتى اصبحوا على مسافة عشرين ميلاً منها فخرج وارد اليهم لكنه أخطأ في تقدير قوتهم فعاد خاسرًا فضم اليه جندًا صينيًا واعاد الكرة فغلبهم على انهم عادوا فاغاروا فرأت انكلترا ان حربهم هذه وان تكن اهلية فهي تضر بالتجارة العمومية فسار الاميرال السر جيمس هوب بمركبه في النهر الذي يصب عند شنغاي والتقى بزعماء الثورة وعقد معهم عهدًا ان يكفوا عن الحرب سنة كاملة فلما انقضت السنة عادوا الى شنغاي بامر رئيسهم الاكبر هونغ وانذروا الاميرال هوب بذلك فاصبحوا اذ ذاك اعداء لانكلترا وسائر دول اوربا فاتحدت الجنود الاوربية هناك وفي جملتهم الماجور غوردون صاحب الترجمة وحصلت بين الفريقين مناوشات عديدة قتل فيها الاميرال هوب وغيره وافضت القيادة سنة ١٨٦٢ الى

غوردون وكان الجند هناك اخلاطًا من الانكليز والفرنساويين والجرمانيين والاسبان ضباطهم من الافرنج ونصف ضابطانهم من الصينيين واما الجند فمن اهالي الصين

وكانت تلك القيادة فرصة اظهر فيها غوردون مواهبة ومقدرتهُ فاتمّ تلك المهمة بحزم وثبات وبسالة ونظم جندهُ على النظام الاوربي وعددهم اربعة آلاف وفيهم المشاة والمدفعية لباسهم اسود وعمائمهم خضراء وكان النصر رفيقًا لهم حيثما ساروا حتى سموهم «الجند المظفر» حاربوا العصاة غير مرة وابلوا فيهم بلاء حسنًا واخرجوا مدينة ناي تسن من ايديهم وأسروا جماعة منهم سيقوا الى حاكم المقاطعة واسمهُ لي وهو صيني من الحزب الملكي فاراد ان يؤدب باقي العصاة بهم فاختار سبعة منهم ارتكبوا خيانة سببت سفك دماء بريئة فامر بقتلهم قتلة شنعاء وذلك انهم شدُّوهم الى عمد ورموهم بالسهام وتركوهم ست ساعات معروضين لمشاهدة الناس والسهام مغروسة في ابدانهم فلما علم غوردون بذلك تكدر كثيرًا وبعث الى الحاكم يعنفهُ ولكنهُ لم يكن لهُ ان يمنعهُ لأن امر الاسرى كان منوطًا بالحاكم رأسًا. على ان الخبر وصل الى خارجية انكلترا وقد بولغ فيهِ كثيرًا واتهم غوردون بانجرائهِ

ثم حدث بين ضباط فرقة غوردون تحاسد آل الى تقاومهِ والوشاية بهِ وانضمام بعضهم الى العصاة فعزم على الاستعفاء ثم اشفق على حبوط مسعى الدول في اخماد الثورة لعلمهِ ان وجوده على قيادة تلك الفرقة هو الحافظ الوحيد لها فاذا اعتزل القيادة انضم الباقون الى العصاة فتقوى شوكتهم ويعسرُ اخضاعهم فعاد الى اعمالهِ الحربية مغتفرًا كل ما قيل فيهِ خدمة لمصلحة دولتهِ فسار بحملتهِ الى سوشو فحاصرها مدة حتى تضايق اهلها وعزموا على التسليم فمنعهم ملكهم وشاور رفقاءه الملوك الاربعة فاشاروا بالتسليم فابى هو وصمم على الدفاع الى آخر نسمة من حياتهِ فقتلوهُ وقبلوا بتسليم المدينة على شرط ان لا يمسها احد بنهب او قتل فعاهدهم غوردون على ذلك بناء على وعد الحاكم لي المتقدم ذكره فسلموا المدينة فدخلها الحاكم لي برجالهِ وأمن الملوك المشار اليهم حتى اذا استأمنوا أمر باعدامهم بغتة وامعن رجالهُ بالمدينة قتلاً ونهبًا كل ذلك وغوردون لا يعلم على انهُ لو علم بالمذبحة ما استطاع منعها فكتب بعضهم الى انكلترا يشي بغوردون وينسب الفعلة اليهِ ولكنهُ دافع عن نفسهِ دفاعًا حسنًا وساعدهُ عظماء الانكليز في شنغاي وغيرها فرفعت التهمة عنهُ

على ان مرسلاً دينياً رفع تقريرًا الى حكومة انكلترا بيّن فيهِ ان جماعة التاي بنغ القائمين بتلك الثورة انما هم دعاة الى الدين وان ٣٢ الفاً من الاسرى الذين سلموا مدينة سوشو قتلوا صبرًا على مشهد من الماجور غوردون ولكن غوردون لم يجرم مدافعاً ينفي هذه التهم عنهُ حتى ان الحاكم لي نفسهُ كتب تقريرًا يبرئ بهِ غوردون من تبعة تلك المذبحة وكتبت وزارة الصين الى حكومة انكلترا بما اتاه غوردون من الخدم الثمينة لمملكتها والتمست لهُ المكافأة وكانت الحكومة الصينية قد عرضت عليهِ مكافأة مالية فرفضها فاهدتهُ رتبة تيتو وهي من اعلى رتب الصين العسكرية وكانت الثورة قد خمدت وثاب العصاة الى الطاعة فرجع غوردون الى وطنهِ سنة ١٨٦٤ وتقلب في مناصب عسكرية مختلفة حتى ارتقى الى رتبة جنرال

وفي سنة ١٨٧٤ بعثت الحكومة المصرية على عهد اسماعيل باشا الخديوي الاسبق الى الحكومة الانكليزية تستأذنها في استخدام الجنرال غوردون في حكومتها فاذنت فعينهُ اسماعيل باشا حكمدارًا على السودان لاصلاح شأنها مع رتبة باشا فمكث في تلك الخدمة ثلاث سنوات ثم عاد الى انكلترا فبعث اليهِ اسماعيل ان يعود ثانية فعاد الى السودان وما زال حاكماً فيها حتى أُقيل اسماعيل سنة ١٨٧٩ فعاد غوردون الى انكلترا وقد احبهُ السودانيون حباً شديدًا لانهُ بث بينهم مبادئ الحرية الشخصية وبين لهم حقوقهم رغبة في ترقية شأنهم ولكن ذلك جاء نعمة قبل اوانها فآلت الى الثورة السودانية

وتفصيل الخبر ان الاقطار السودانية دخلت في حوزة الحكومة المصرية على عهد المغفور لهُ محمد علي باشا افتتحها عنوة على يد ابنهِ اسماعيل وغيره وكان كل من تولى من ابنائهِ يؤيد تابعيتها لمصر ويزيد نفوذه فيها ففي عهد المغفور لهُ توفيق باشا الخديوي السابق ظهر على أثر الحوادث العرابية رجل فقيه في السودان اسمهُ محمد احمد ادعى انهُ المهدي المنتظر التفت حولهُ احزاب كثيرة وساعدهُ في تأييد دعوتهِ وتكاثر اتباعه ان تعاليم غوردون ابطلت تجارة الرقيق فهاجت غضب النخاسين وهم من عظماء السودان وعلموا من جهة اخرى انهم ليسوا من جبلة اخرى غير جبلة حكامهم فلما قام المهدي بدعوتهِ صادف آذاناً مصغية فانضمت اليهِ احزاب اكثرهم من عظماء النخاسين فتكاثر دعاتهُ وعرفوا بالدراويش فبعثت الحكومة المصرية حملات متعددة لاخماد ثورتهم فذهبت مساعيها عبثاً ولم تنل من ذلك الا خسارة المال والرجال وامتدت

سلطة المتمهدي الى اكثر مديريات السودان فاشارت الحكومة الانكليزية على الخديوي السابق في عهد وزارة المرحوم شريف باشا ان يتخلى عن السودان و يعتبرها منفصلة عن مصر فلم يقبل شريف بذلك فالحوا عليهِ فاستعفى وخلفهُ نوبار باشا وقد قبل بالمشورة فصدر الامر العالي بتخلية السودان في ٨ يناير سنة ١٨٨٤

فلما خرجت السودان عن سلطة مصر بقي على الحكومة المصرية ان تسحب حاميتها وهم الجند ومستخدمو مصالحها فيها و بعد المداولة قرّ الرأي على ارسال رجل عاقل حكيم عالم باحوال السودان واخلاق اهلهِ يتولى سحب تلك الحامية فوقع الاختيار على غوردون باشا فبعثوا اليهِ فجاء حالاً ومعهُ الكولونيل ستيوارت رفيقاً ووكيلاً وسارا توًّا الى الخرطوم عن طريق كروسكو لا يصحبهما احد غير الخدم . وكانت الثورة قد اتصلت شعلتها بسائر اهل السودان قليلاً ولكن جنود المهدي كانت لا تزال في الأُبيض عاصمة كوردوفان فوصل غوردون الخرطوم عاصمة السودان في فبراير سنة ١٨٨٤ فلاقى ترحاباً عظيماً

فارسل الى المتمهدي في الأُبيض انهُ انما جاء لانقاذ المسلمين وفتح طريق الحج الى البيت الحرام واعادة الامن الى الاقطار السودانية وتقدم اليهِ ان يكف عن مظاهراتهِ على ان يكون واليًا على كردوفان فاجابهُ المتمهدي بستة راية و يقول انهُ لم يقم بدعوته هذه رغبة في الدنيا ولا طمعًا في السلطة وطلب اليهِ ان يعتقد بهديهِ ثم ارسل حملة من رجالهِ بقيادة ولد النجومي أحد قوادهِ لحصار الخرطوم ثم تبعهم هو في حملة اخرى وشددوا الحصار عليها من سائر الجهات

والخرطوم واقعة عند نقطة اجتماع البحرين الازرق والابيض اللذين يتكوّن منهما النيل و بين ملتقى هذين البحرين والنيل جزيرة مثلثة يقال لها جزيرة توتي فالخرطوم واقعة مقابل ضلع المثلث الجنوبية يحدها من الشمال النيل الفاصل بينها و بين الجزيرة والبر الآخر ومن الغرب البحر الابيض ومن الجنوب البر وعليهِ سور موصل بين البحرين بحيث أصبحت الخرطوم محصنة من جهتين بالنيل ومن الثالثة بالسور و بين السور المشار اليهِ والمدينة خلاء .

وقاسى أهل الخرطوم اثناء ذلك الحصار مشقات عظيمة من الجوع والخوف لانقطاع المدد عنهم من كل الجهات ولولا تعلق أهل الخرطوم بغوردون واعتقادهم

صدقة لم يثبتوا الى هذا الحد فكان يعدهم بحملة انكليزية قادمة لانقاذهم وكان قد كتب الى حكومتهِ ان اخراج الحامية المصرية من السودان لم يعد ممكناً بعد الحصار الاَّ بقوة عسكرية من انكلترا او غيرها وقال انهُ لو اراد الخروج منها بنفسهِ ما لقي صعوبة ولكن شهامتهُ لا تؤذن لهُ ان يتخلى عن هؤلاء المساكين . فترددت انكلترا مدة حتى سلقتها الجرائد بألسنة حداد وقام الخطباء يحثونها على انقاذ ذلك الرجل مما ألقتهُ فيهِ فارسلت في اواسط سنة ١٨٨٤ حملة بقيادة الجنرال ولسلي رفيق غوردون القديم سارت بطريق النيل لانقاذهِ ولكنها لم تصل الاَّ بعد سقوط الخرطوم ومقتل غوردون بيومين فذهبت النفقات والمشقات ادراج الرياح

أما كيفية سقوط الخرطوم فخلاصتها ان غوردون صبر في ذلك الحصار صبر الرجال زهاء سنة وهو يخفف اتعاب الناس ويلطف مخاوفهم ويشجعهم ويعدهم ويصبرهم الى مجيء الحملة الانكليزية حتى نفد الزاد وأكل الناس لحوم الحيوانات ومضغوا سعف النخل وجذور الذرة ونفدت النقود فاصدر اوراقاً مالية باسمهِ فلما طال اصطبارهم يئسوا من قدوم الحملة الانكليزية لانقاذهم على ان المهدي وجنوده كانوا حول المدينة فعلموا بقدومها وهي لا تزال في المتمة وحالما بلغهم عزمها على الخرطوم هاجموا الاسوار في ٢٥ يناير سنة ١٨٨٥ بعد نصف الليل وغوردون في سرايهِ لم يكد يذهب الى فراشهِ فسمع اطلاق المدافع فصعد الى سطح السراي بلباس النوم وامر باطلاق المدافع على الدراويش وراء السور ثم علم انهم دخلوهُ فما زال يطلق عليهم القنابل وهم هاجمون في الساحة بين السور والمدينة حتى لم يعد يجدي الاطلاق نفعاً فنزل الى غرفتهِ ولبس ثيابهُ وتقلد سلاحهُ وهمَّ بالخروج من باب السراي وكان العصاة قد احدقوا بها وتقدم اربعة منهم اليهِ فناداه احدهم قائلاً « اليوم يومك يا ملعون » وطعنهُ بحربة ثم طعنهُ الآخرون فخرَّ ميتاً ولم يبدِ مدافعة ثم حزوا رأسهُ وحملوهُ الى المهدي فعلقوهُ بام درمان بالقرب من الخرطوم

وترى تفصيل حادثة السودان وسقوط الخرطوم ومقتل غوردون في روايتنا « اسير المتمهدي » فانها تمثل كل هذه الحوادث تمثيلاً واضحاً للغاية اذ قد أُتيح لنا ان نرافق الحملة التي سارت لانقاذ غوردون وشاهدنا كل وقائعها شهادة عين ودرسنا احوال السودان درساً دقيقاً ثم كتبنا « اسير المتمهدي » فهي أحسن وسيلة لمعرفة الحوادث

السودانية واخلاق اهل السودان وعوائدهم

وكان غوردون باشا ربع القامة عالي الهمة كثير التعلق بالواجبات تقياً ورعاً كثير الاستسلام الى العناية الالهية مخلص الطوية محباً لبني الانسان . فقد روى لنا السودانيون من أخباره ووقائعهِ ما دل على شدة حبهم له ووثوقهم بهِ ولولا ذلك ما احتملوا الحصار سنة اعتمادًا على قولهِ حتى ان المتمهدي نفسهُ كان يحترمهُ ويحبهُ وقد أسف كثيرًا لمَّا علم بقتلهِ



باب المقالات

تاريخ الانسان

في أوائل العمران

(٣) اللغة (تابع ما قبلهُ)

(أصل اللغات الحاضرة)

تكلمنا في الاعداد الاخيرة من الهلال عن منشأ اللغة وتاريخ نموها ودرجات ارتقائها من أبسط حالاتها الى ارقاها فاردنا ان نختتم كلامنا في اللغة ببيان أصل اللغات الحاضرة ونسبتها بعضها الى بعض من حيث المنشأ والتشعب

فاللغات الحية التي يتفاهم بها الناس على اختلاف اصقاعهم تُعدُّ بالالوف فضلاً عن اللغات التي اندرست بكرور الايام . فما هي نسبة هذه اللغات بعضها الى بعض والنظر في الجواب على هذا السؤال يستلزم النظر في اصل الانسان وعلاقة الامم بعضها ببعض لان اللغة تابعة في نشوئها وتفرعها لحال الناطقين بها و بين اللغات والامم رابطة لا يمكن حلُّها والأمم انما تُميَّز بعضها عن بعض بلغاتها فاذا كانت الأمم متفرعة عن أصل واحد او عدة أصول فاللغات كذلك وقد قرَّر العلماء بعد البحث والتنقيب ان الامم على اختلاف لغاتها واصقاعها متشعبة من أصل واحد وهو قول

أهل التوراة وسائر الكتب المنزلة ثم اختلف العلماء في تعيين المكان الذي وجد فيه الانسان الأول فقال بعضهم انه في اواسط آسيا وقال آخرون في اواسط افريقيا ولكن الارجح انه وجد في اواسط اسيا في البقعة بين العراق وارمينيا ومن ثم انتشر في انحاء الارض . على انهم لا يزالون في ريب من قبيل زمن وجود الانسان الأول فهم يرون المدة المستنتجة من أعمار الآباء في التوراة لا تكفي لتكوّن الامم وتولد اللغات ولا دخل لذلك في موضوع كلامنا اذ يهمنا اولاً وحدة أصل الانسان ثم مكان وجوده وقد قدمنا ان ذلك اصبح في حكم الثابت

فاذا تقرر ذلك نرى ان لغات العالم ترجع الى اصل واحد نشأ في البقعة بين العراق وارمينيا وبعبارة اخرى ان لغات اوربا وآسيا وافريقيا واميركا واوستراليا على اختلاف فروعها ولهجاتها مع ما بينها من التباعد والتفاوت لغةً وصرفاً ونحواً وبياناً وسائر اللغات القديمة ترجع كلها الى لغة واحدة نشأت على ضفاف الفرات ودجلة

وقد يستغرب القارئ ان تكون لغات اوربا وفيها الانكليزية والفرنساوية والروسية ولغات زنوج افريقيا وهنود اميركا ولغات اسيا وفيها الصينية والتيبتية والهندية واللغات السامية ومنها العربية والعبرانية والسريانية كلها من اصل واحد تجمعها رابطة الاخوة أو العمومة او الخؤولة ولكن الدليل يزيل الاشكال واليك البيان

بحث علماء اللغة في هذا القرن في اللغات واشتقاقاتها بحثاً تحليلياً فحللوا الفاظها وقابلوا بين طرق التعبير فيها فوجدوا بينها تشابهاً يدل على تفرعها بعضها من بعض ورأوا ذلك التشابه يختلف مقداراً بنسبة ما بين متكلمي تلك اللغات من القرابة فالتشابه بين اللغات العربية والعبرانية والسريانية اقرب مما بين العربية واليونانية ولكنه اقرب بين هاتين اللغتين مما بين احداها واللغة الصينية فقسموا اللغات بهذا الاعتبار الى رتب وصفوف وطوائف بنسبة قرب ذلك التشابه وبعده وجعلوا اساس ذلك التقسيم حال اللغة من حيث الارتقاء لغةً وبياناً مما قد اوضحناه في الفصول السابقة من درجات الارتقاء فقسموها اولاً الى رتبتين كبيرتين ✻ مرتقية ✻ و ✻ غير مرتقية ✻

فغير المرتقية تشمل ادنى اللغات بياناً وابسطها الفاظاً منها اللغات الزنجية التي يتفاهم بها قاطنو جنوبي افريقيا والاميركانية التي يتكلم بها هنود اميركا والشمالية

الشرقية الاسيوية وهي لغات القاطنين في جزيرة سغالين وشبه جزيرة كمشتكا وما جاورها · والصينية وهي لغات الصين ومن أهم صفاتها ان الفاظها احادية المقطع لا فرق فيها بين الاسم والفعل والحرف · والحامية وهي تتضمن المصرية القديمة · والحبشية القديمة والبربرية وقد عدّ بعض اللغويين المصرية من اللغات الشرقية لانها تقرب منها في بعض احوالها وقال آخرون لا بل هي امها وقد دُعيت بالحاميّة لان المتكلمين بها من نسل حام بن نوح

والمرتقية تمتاز بسعة نطاقها واشتمالها على اكثر ما يحتاج اليهِ الانسان من انواع التعبير ومنها لغات العالم المتمدن وتنقسم بالنسبة الى قابليتها للتصريف والاشتقاق الى * متصرفة * و * غير متصرفة * وغير المتصرفة تشمل اللغات الطورانية ومنها الفروع التركية ويتكلم بها القاطنون بين آخر حدود اوستريا الشرقية وآسيا الصغرى فالتتر الى ما وراء اواسط اسيا وشمالاً الى الحدود الشمالية لسيبريا ومنها ايضاً اللغات المغولية والتنغاسية والاوغرانية

ومن أهم صفات اللغات المرتقية * غير المتصرّفة * أنها مؤلفة من اصول جامدة لا تقبل التغيير في بنائها مطلقاً وان الاشتقاق يقوم فيها بالحاق ادوات لا معنى لها في نفسها في آخر تلك الاصول · فلنا في التركية « باز » وهو الاصل الدال على معنى الكتابة فيصيغون منهُ فعلاً ماضياً بالحاق « دي » في آخرهِ فيقولون « بازدي » كتب ثم اذا قصدوا الماضي السابق اضافوا « دي » اخرى فيقولون « بازديدي » اي كان قد كتب واذا ارادوا الجمع اضافوا اداة « لر » فقالوا « بازديدلر » كانوا قد كتبوا ثم اذا ارادوا النفي ادخلوا اداة بين الاصل وما اضيف اليهِ فقالوا « بازمديدلر » اي ما كانوا قد كتبوا وهكذا بين طلب وتمنٍ واستفهام بحيث تبلغ هذه الالحاقات العشرة عدّاً مع بقاء الاصل الفعلي على بنائهِ في اوّل اللفظ

واللغات المتصرّفة تمتاز بقبول اصولها التصريف الحاقاً وادراجاً · وتنقسم الى طائفتين عظيمتين

(١) الطائفة الآرية · او الاريانية او الهندية الاوروبية وتدعى ايضاً « اليافثية » نسبة الى يافث بن نوح وتنقسم الى * جنوبية * وهي لغات جنوبي اسيا منها السنسكريتية وفروعها الهندية والفارسية والافغانية والكردية والبخارية والارمنية

والاوسنية و ✻ شمالية ✻ ومنها لغات اوربا وتنقسم الى كلتية ومنها لغات جزائر بريطانيا الاّ انكلترا وايطالية ومنها اللاتينية وفروعها وهي لغات فرنسا وايطاليا واسبانيا والبورتغال . وهيلينية منها اليوناني القديم والحديث ووندية وهي لغات روسيا وبلغاريا وبوهيميا وتيوتونية وتتضمن لغات انكلترا وجرمانيا وهولاندا والدنمارك وأيسلاندا

ومن الصفات المميزة للطائفة الآرية انها مؤلفة من اصول قابلة التصريف ادراجاً وان الاشتقاق فيها يقوم باضافة ادوات معظمها ذات معنى في نفسها وهذه الادوات يلحق معظمها في آخر الاصل وبعضها في اوله مثال ذلك في الانكليزية (thank) شكرٌ منها (thankful) متشكرٌ او شكور او كثير الشكر ثم (unthankful) غير متشكر او غير شاكر ثم (unthankfulness) عدم تشكر او عدم شكر ومثلها (capable) كاف او قادر و (incapable) غير كاف او غير قادر و (incapability) عدم كفاءة وهكذا في سائر التصاريف وعليه تجري سائر اللغات الآرية

(٣) الطائفة السامية . نسبة الى سام بن نوح واشارة الى ان معظم المتكلمين بها هم من نسله وتتضمن ما هو معروف باللغات الشرقية وهي بوجود اللغة العربية بينها تعد من ارقى اللغات بياناً واوسعها نطاقاً واغناها الفاظاً وادقها تعبيراً وتمتاز بكونها الحافظة لاقدم التواريخ اعني التوراة مكتوبة بالعبرانية . ومن المعلوم ان التمدن نشأ اولاً بين المتكلمين بها كالبابليين والاشوريين والفينيقيين وغيرهم وهي تنقسم الى ثلاثة اقسام ✻ الاول ✻ الآرامية وفرعاها السريانية والكلدانية . فالارامية يراد بها لغة بابل القديمة الباقية آثارها مكتوبة نقشاً على بقايا بابل واشور بالاحرف الاسفينية والانبارية . والكلدانية وهي الآرامية بعد ان لعبت بها ايدي الزمن فغيرت بعض الفاظها وقد كتب بها بعض اسفار العهد القديم كسفر دانيال وغيره وقد دعيت هناك بالارامية تساهلاً لان بينها وبين الارامية الاصلية فرقاً واضحاً لفظاً ومعنى ولغة اشور ابعد عن هذه من لغة بابل . اما ما يدعى بين السريانيين في هذه الايام باللغة الكلدانية ليس الاّ السريانية نفسها مع بعض التغيير في الحركات والسريانية هي الكلدانية المشار اليها مع تغيير في الفاظها ودلالتها تبعاً لما اقتضته

الاحوال فكأن اللغة البابلية القديمة دعيت في أول امرها آرامية ثم تغيرت قليلاً فدعيت كلدانية ثم وقع فيها تغيير آخر فدعيت سريانية وحصل في هذه بعض التنوّع في حركاتها فحسبت لغتين سريانية غربية وسريانية شرقية (كلدانية)

﴾ الثاني ﴿ العبرانية . وقد امتازت بحفظها التاريخ القديم كما سبقت الاشارة وبكون الناطقين بها هم اوضح الامم منشأ واللغة التي يتكلم بها الاسرائيليون اليوم ليست العبرانية صرفاً بل قد خالطها بعض الالفاظ الارامية او الكلدانية اثناء استئسارهم في بابل . ويتفرع عنها الفينيقية والقرطجنية وكلتاهما مائتتان

﴾ الثالث ﴿ العربية . وهي اسمى اللغات السامية ومعرفتها ضرورية لاتقان اخواتها . وقد كانت محصورة في شبه جزيرة العرب حتى الاسلام ثم اخذت في الانتشار الى ان ملأت الخافقين بسبب الافتتاح الاسلامي المشهور فكانت يوماً ممتدة من الشرق الى الغرب بين اواسط الهند وبوغاز جبل طارق ومن الشمال الى الجنوب بين البحر الاسود وبحر العرب وبالجملة يقال انها عمت جميع العالم المتمدن في ذلك الحين والحروف العربية المستعملة عند الاعاجم منهم هي من جملة الآثار الدامغة ويتفرع من العربية لغة بعض بلاد الحبشة وفروع أخرى تعد مائتة

وأوضح صفات اللغات السامية انها مؤلفة من اصول ثلاثية الاحرف ثابتة في الاشتقاق أي ان الاشتقاق لا يفعل في احرفها بل يقوم فيها بتغيير الحركات وعليها يتوقف نوع الدلالة مثاله في العربية «قتل» وهو اصل يتضمن معنى القتل فبتغيير الحركات فيه تحصل مشتقات عدة افعال او اسماء او نعوت تبعاً لنوع ذلك التغيير فمنه «قَتَلَ» فعل ماض معلوم و «قُتِلَ» فعل ماض مجهول و «قَتْلٌ» مصدر و «قِتْلٌ» بمعنى العدو والمقاتل و «قُتُلٌ» جمع قتول وكذلك «قُتَّلٌ» وقد تمد احدى هذه الحركات فيقال «قاتل» و «قتيل» و «قتول» و «قِتالٌ» و «قُتّالٌ» و «قتلى» الخ اما قابليتها للاشتقاق على طريق الالحاق فتشارك الطائفة الآرية فيها لكنها تمتاز بحصول معظم الاشتقاق بواسطة تغيير الحركات وبانها لا تقبل الادوات الملحقة اذا كانت ذات معنى في نفسها

على ان هذا التقسيم لا يدل بنفسه على وحدة اصل تلك اللغات دلالة صريحة نظراً لما طرأ عليها من التغيير بعد تفرعها ولكن الاستقراء والمقابلة يوضحان ذلك فان

لغات الطائفة السامية ترجع الى ثلاثة اصول الآرامية والعبرانية والعربية وهذه لا شبهة بانها ترجع كلها الى اصل واحد يسميه علماء اللغات اللغة السامية ونظنه اللغة الاشورية او البابلية . والطائفة الآرية ترجع الى ثلاثة اصول ايضاً وهي اللغتان اللاتينية واليونانية واللغة السنسكريتية (الهندية القديمة) فمن اللاتينية تفرع معظم لغات اوربا ومن اليونانية تفرع بعض آخر وتفرع ما بقي من السنسكريتية . وترجع هذه اللغات الثلاث الى اصل واحد او هي لغة واحدة مفقودة يسمونها اللغة الآرية

وتشترك هاتان الطائفتان كما قدمنا بقابلية الفاظها للتصريف الحاقاً وادراجاً وتشاركان اللغات غير المتصرفة بارتقائها ووجود الادوات والاشتقاق فيها واما اللغات غير المرتقية فالبعد بينها وبين اللغات المرتقية اكثر من ذلك كثيراً على ان البحث والمقابلة يبينان القرابة بينها كلها وتمهيداً لذلك نقول

المراد بتقسيم اللغات على هذه الصورة انما هو تقسيم الامم التي تتكلم بها فالمراد بقولنا انها تقسم الى الطورانية والآرية والسامية ان الامم التي تتكلم اللغات الطورانية الآن ترجع الى اصل واحد وان الامم التي تتكلم اللغات الآرية ترجع الى اصل واحد وهكذا الطوائف الاخرى . فالامم التي تتكلم اللغات الآرية مثلاً بعضها في اوربا وبعضها في الهند والفرس فمهما تباعدت المسافة بينها واختلفت عوائدها واخلاقها اليوم فلا ريب انها كانت في اقدم ازمنة التاريخ امة واحدة او عائلة واحدة عائشة في بقعة واحدة ثم قضت الاحوال بتفرقها فانقسمت قسمين قسماً جنوبياً وقسماً شمالياً فسكن الجنوبي اواسط آسيا والشمالي نزح الى اوربا ثم انقسم كل من هذين القسمين الى اقسام بعد ازمان متفاوتة . وهكذا ايضاً اللغات السامية فقد كان اهلها في اوّل ازمانهم يقطنون ما بين النهرين وهم الاشوريون او اجدادهم وكانوا يتكلمون لغة واحدة لعلها الاشورية ثم قضت الاحوال فهاجر بعضهم اما التماساً للرزق او فراراً من الحرب الى جزيرة العرب واقاموا فيها وبتوالي الازمان تنوعت لغتهم الاصلية تبعاً لناموس الارتقاء فتولدت اللغة العربية والامة العربية ثم هاجرت طائفة اخرى واقامت في شمالي جزيرة العرب وتنوعت لغتها حتى صارت مستقلة وعرفت باللغة العبرانية ولعل ابراهيم الخليل اوّل المهاجرين . وفيما تلك الفروع تتنوّع وتتغير كانت الام الاصلية بين النهرين تتنوّع ايضاً لانها كلها خاضعة لناموس واحد وقس على ذلك فروع

كل من هذه اللغات فان العبرانية بعد ان صارت مستقلة واقدمها لغة فينيقية نزحت فئة من اهلها غربًا واقاموا في قرطجنة فتنوعت لغتهم حتى استقلت وعرفت باللغة القرطجنية وهكذا يقال في سائر التفرعات . فاللغة القرطجنية اقرب الناطقها وانواع تركيبها الى اختها الفينيقية مما الى خالتها العربية او الى جدتها الاشورية ولكنها اقرب الى هذه مما الى اللغات الآرية على انها أقرب الى الآرية مما الى الطورانية وهي أقرب الى هذه مما الى اللغات الصينية فالفرق يزيد كلما بعدت المسافة بين الامة وزمن تفرّعها عن أمّها

ثم اذا اعتبرنا مراتب اللغة في نموّها وقابلنا حال اللغات الحالية بها تتضح لنا كيفية تفرّع اللغات وازمنة تفرعها

قلنا ان الانسان الاوّل نشأ على ضفاف الفرات ودجلة بين العراق وارمينيا فنما وتكاثر ومن نسله تفرقت الامم في الارض ولكنها لم تتفرّق دفعة واحدة بل كانت كلما ضاقت البقعة عن القيام بمعائشهم هاجرت فئة منهم الى جهة من الجهات وقد ذكرت التوراة اكبر مهاجرة نشأ عنها تعدد اللغات سمتها حكاية تبلبل الالسنة وذكرت في مكان آخر تفرق الامم في الارض ولكنها لم تذكر الا الامم التي تشعبت من نسل نوح فقط بعد الطوفان واغضت عن الامم التي نشأت قبل زمن الطوفان فأبن نسل قايين وفروعه وابن الامم الاخرى التي كانت قبل الطوفان غير الذين كانوا بين النهرين واغرقهم الطوفان فلا ريب ان المدة بين وجود الانسان الاوّل والطوفان كانت طويلة نشأ في اثنائها امم كثيرة تشعبت وتفرعت وهاجرت فعمرت قسمًا كبيرًا من الارض

فالظاهر ان المتكلمين باللغات غير المرتقية اقدم من نزح من بين النهرين كالصينيين والمصريين الاصليين فسارت فرقة شرقًا والاخرى غربًا . والتاريخ يساعدنا في تأييد ذلك لأن هاتين الأمتين من أقدم امم الارض ان لم تكونا أقدمها كلها ولغاتها أبسط اللغات لأنها تفرعتا قبل زمن الطوفان واللغة لا تزال في أوّل أدوارها اي قبل تولد الادوات وحصول التمييز بين الفعل والاسم والحرف وربما كان الصينيون من نسل قايين والتوراة تصف نسل قايين بالمهارة في الصناعة والموسيقى والصينيون اقدم ارباب الصنائع على اختلاف اجناسها وامهر الناس في اتقانها

ونرى بين لفظي (صين) و (قايين) مشابهة حتى يصح القول انهما واحد لأن القاف والصاد كثيرًا ما تتبادلان والحرف (c) في اللغات الافرنجية يُنطق تارة قافًا (او كافًا) وطورًا صادًا (او سينًا) ومثل ذلك اختلاف لفظ الجيم العربية بين مصر والشام ولفظ الكاف بين بعض قبائل العرب فان بعضهم يلفظها كافًا وبعضهم شينًا وبعضهم سينًا · ونرى ايضًا مشابهة بين لفظ قايين واسم مصر القدم فقد كان اسمها (كيم) او (كيمي) والمبادلة بين الميم والنون مشهورة ولا عبرة بالحركات · ولذلك بحثٌ ليس هنا محل الكلام عليه وانما يهمنا منه ان الامم التي تتكلم اللغات غير المرتقية عمّرت الارض قبل زمن الطوفان · ثم هاجر اجداد الامم التي تتكلم اللغات الطورانية فسكنوا شمالي اسيا ومنهم المغول والتتر وغيرهما · ثم نزح الآريون فاقاموا زمنًا معًا ثم تفرقوا في جهات الهند وفارس وكردستان واوربا · ثم الساميون وما تفرّع عنهم كما قدمنا · وكانت اللغة اذا انفصلت عن امها أخذت تنمو بنفسها وامها تنمو ايضًا وتسير كل منها تبعًا لاحوال المتكلمين بها وشأنهم فلا يمضي زمن حتى تبتعد كل منها عن الاخرى ولكن المقابلة والتدقيق يبينان ما بين هذه اللغات المتباعدة من المشابهة الدالة على وحدة اصلها · وتتفاوت هذه المشابهة بين اللغات بتفاوت ازمان انفصالها بعضها عن بعض فان المشابهة بين الفاظ العربية والعبرانية وطرق التعبير والاشتقاق فيها ظاهرة جلية وهكذا بين اللغات الاوربية المتفرعة عن اللاتينية لأن كلاً من هذه اللغات تفرعت عن امها بعد ان تمت فيها انواع التعبير والاشتقاق فبقيت المشابهة ظاهرة فيها · واما المشابهة بين العربية واللاتينية فابعد لانهما افترقتا قبل تمام ذلك النمو ونمت كل منهما على حدة وعلى اسلوب مخالف لاسلوب الاخرى فبعدت الشبهة ولهذا السبب ايضًا كانت المشابهة بين العربية والصينية ابعد من ذلك كثيرًا لان الصينيين انفصلوا عن الامة الاصلية قبل الساميين بدهور متطاولة واللغة في ابسط احوالها

على اننا مع كل ذلك لا نحرم دليلاً على المشابهة من بعض الوجوه اذ التمسناها من حيث نرجو العثور بها اذ لا يليق بنا ان نبحث عن المشابهة في صيغ اشتقاق الفعل بين اللغات الآرية والسامية ولا تركيب الجمل بين اللغة الصينية والعربية · بل نبحث عن أقدم مواد اللغة في كل من اصول هذه اللغات وننظر في اوجه المشابهة بينها والغالب ان نعثر على ضالتنا

فمن أقدم الفاظ اللغة الضمائر والاعداد وأسماء ضروريات الحياة كالطعام والشراب والمأوى والملبس وما يتعلق بذلك

(١) الضمائر

فالضمائر ترجع الى ثلاثة المتكلم والمخاطب والغائب وكل من هذه يتصرف مع علامات الجمع والتأنيث وغيرها فاذا جردناها من تلك العلامات ومن النون التي تلحق بها في بعض اللغات ظهرت المشابهة بينها كلها . فضمير المتكلم مقطع حلقي محصور بين الياء والكاف فهو في العربية الياء او الحاء وتظهر في الجمع (نحن) وكذلك في السريانية و«انكي» تلفظ «انوخي» في العبرانية و'anok' او 'a' في المصرية القديمة و(أنكو) أو (يا) أو (أ) في الاشورية و'ego' في اللاتينية و'ego' و'egon' في اليونانية و'aha' أو 'ahom' في السنسكريتية و'i' في الانكليزية و'ich' في الجرمانية و nga او ga أو a في الصينية و na في المغولية

أما ضمير المخاطب اذا تجرد من مميزات الجنس والعدد فهو حرف التاء في سائر اللغات ففي العربية وأخواتها التاء في أنت وفي اللاتينية tu وفي اليونانية su (والتاء والسين تتبادلان) وفي الفرنساوية 'tu' وأخواتها وفي الانكليزية 'thou' وفي الجرمانية 'tu' أو 'du' وفي السنسكريتية 'tua' وفي الفارسية (تو) . ومثل ذلك فيما بقي من اللغات الشرقية والمصرية ففي الاشورية (أتا) وفي الكلدانية (أنت) وفي المصرية القديمة 'entuk' وفي القبطية 'ntok' وفي الصينية two وفي المغولية tu . أما الغائب فالاصل فيه الهاء في اللغات الشرقية وما يقابلها في اللغات الاخرى ففي اليونانية i وما يركب منها وفي اللغات الجرمانية hua ومشتقاتها وفي الفارسية «وي» وفي الصينية soh والسين زائدة . واذا اردت زيادة الايضاح راجع باب الضمائر في كتابنا «الفلسفة اللغوية»

(٢) الأعداد

يظهر ان الاعداد أحدث عهداً في اللغة من الضمائر فالمشابهة بينها أبعد مما بين الضمائر

فلفظ (واحد) يظهر انه تولد في اللغات الشرقية بعد استقلالها عن الآرية او لعله كان في الآرية ثم فقد الا آثاراً منه باقية في اليونانية فان الاصل في لفظ واحد

العربي (حد) كما هو في اللغات الشرقية الاخرى ومن تصاريف الواحد في اليونانية heis وعلى كل فان اللفظ الدال على الواحد في اللغات الآرية يرجع الى الواو والنون فهو في اللاتينية (unus) وفي اليونانية (en) ونحو ذلك في اللغات الآرية الاخرى أما في اللغات الشرقية فبقي هذا اللفظ محفوظاً في (أوّل) العربية والاصل فيه الواو واللام (واللام والنون تتبادلان)

و (الاثنان) الاصل فيها الثاء وما يبدل منها كالتاء والسين والدال فهي في اليونانية (dio) واللاتينية (duo) وفي الانكليزية (two) ونحو ذلك في سائر اللغات الجرمانية اما الالف والنون في العربية فزائدتان علامة للتثنية

و (الثلاثة) الاصل فيها بالعربية (ثلث) وهي كذلك في سائر اللغات الشرقية ونحو ذلك في اللغات الآرية ففي اللاتينية (tres) وفي اليونانية (treis) والتبادل بين اللام والراء وبين السين والثاء كثير

و (الاربعة) يعسر الجمع فيها بين اللغات السامية والآرية وكذلك (الخمسة) اما (الستة) فالاصل فيها (ست) ففي العبرانية شش وفي اللاتينية (sex) وفي اليونانية (ex) وفي السنسكريتية شش وفي السلافونية شست والمشابهة واضحة

و (السبعة) اصلها سبع وهي في اللاتينية (septem) وفي اليونانية (Epta) وفي الفارسية هفت وفي السنسكريتية سبتا فالظاهر ان الاصل فيها سب والعين دخيلة في اللغات السامية والتاء دخيلة في اللغات الآرية

واما ما وراء السبعة فلا سبيل الى تطبيقه فالظاهر ان الطائفتين الآرية والسامية انفصلتا قبل تولد ما بعد السبعة وهناك امم متوحشة لا تزال الى اليوم ليس في لغتها من الاعداد ما بعد الخمسة

وقد رأيت فيما تقدم ان الاعداد لم تتشابه الا بين الطائفتين الآرية والسامية لان اللغات الغير المرتقية انفصلت عن اصلها قبل تولد الاعداد وبعبارة اخرى ان اجداد الصينيين والمغول نزحوا من بين النهرين قبل ان تتولد الاعداد في لغة اهله فتولدت الاعداد عندهم مستقلة فجاءت بعيدة عن تلك فالاثنان في الصينية (شونغ) والثلاثة (سام) والاربعة (سي) والخمسة (نجو) والستة (لوك) الخ

(٣) أسماء ضروريات الحياة

نريد بضروريات الحياة اقدم لوازم المعيشة فالانسان اوّل عهده بالتكلم وضع اسماء لما احتاج اليه للدلالة عليه ليسد عوزه التماسًا للبقاء. وقد كان ذلك قبل تولد الضمائر والاعداد فيجب ان تكون المشابهة بينها في سائر اللغات ظاهرة ولكن لا يخفى على المطالع اللبيب ان اللغة في نمو دائم فتتولد فيها الفاظ جديدة وتدثر الفاظ قديمة وان التغيير متواصل في الفاظها نحتًا وابدالاً وقلبًا واكثر الالفاظ تداولاً على الالسنة اكثرها تعرضًا للتغيير واسماء ضروريات الحياة اقدم الالفاظ واكثرها تداولاً على الالسنة فلا ينتظر ان نرى امثلة كثيرة من المتشابهات ولا يتفق لنا ان نرى الفاظًا تتشابه في سائر اللغات المرتقية وغير المرتقية معًا فربما تشابه لفظ في الطائفتين السامية والآرية وآخر في احداها والصينية وآخر فيها جميعًا . وهاك امثلة مما يتشابه في كل اللغات او في بعضها

(١) (الأم) فان لفظها واحد في سائر لغات العالم لانه اوّل ما نطق به الانسان واقدم ما تعلق به فهو (mater) في اللاتينية و (mitir) في اليونانية و (matri) في السنسكريتية ونحو ذلك في سائر اللغات الآرية والاصل فيها كلها الميم لانهم يدلون على الام ايضا بقولهم (mama) وهكذا في اللغات الاخرى ففي العربية واخواتها (ام) وفي لغة تيبت بين الهند والصين (يم) وفي الصينية (مو) وفي القبطية (ماو)

(٢) الاب . فهو في اللغات الآرية (pater) وما يشبهها والاصل فيها الباء وفي اللغات السامية (اب) وفي الصينية (بو) او (فو) وفي التركية (بابا)

(٣) الاكل . في اليونانية (Edein) وفي اللاتينية (Edere) والاصل فيها (Ed) وفي السنسكريتية (ad) وفي المغولية (ايدهو) وفي الصينية (وِت) او (وِد) وفي العربية (قات) او قوت وفي القاموس اطّ الرجل جاع وطلب الطعام

(٤) العطاء . فهي في اللاتينية (do) ونحو ذلك في سائر اللغات الآرية والاصل فيها الدال او التاء وفي العربية (أدّى) او اعطى والعين دخيلة وفي المصرية القديمة (طا)

(٥) القطع . وهو مخالف عن (قط) حكاية صوت القطع وعامٌ في سائر لغات العالم ففي اللاتينية (coedo) وفي الانكليزية (cut) وفي الفرنساوية (casser) ونحو ذلك في سائر اللغات الآرية . وفي الصينية (كت) وبالمصرية القديمة (خت) وفي العربية (قط) او قص او قطع . ومن هذا القبيل اكثر الافعال المخلوقة عن حكاية الاصوات الطبيعة مثل طفأ ونخ وغيرها

(٦) الكون . وهو الفعل الدال على الوجود ففي اللاتينية (esse) والسنسكريتية (as) ونحو ذلك في سائر اللغات الآرية . وفي العبرانية (يش) وفي السريانية (يت) وفي العربية (ايس) ولا توجد الاَّ مركبة مع (لا) في (ليس) ومعناها نفي الوجود

(٧) الرجل . فهو في اللاتينية (vir) وفي اليونانية (anir) وفي الاسبانية (hombre) ونحو ذلك في معظم اللغات الآرية وفي العربية (مرء) وفي المغولية (ere)

(٨) حرف النفي فانهُ واحد في سائر لغات الارض ففي اللغات السامية (لا) وفي الآرية (no) او احد تنوعاتها وفي اللغات الطورانية (ال) او (نه) او (ما) وفي اليابانية (نا) وفي الصينية (مو) والنسبة اللفظية بين اللام والميم والنون معلومة . هذه امثلة مما تتشابه اصولهُ في سائر لغات العالم اما ما يتشابه في بعضها فهو كثير لا يمكننا استيفاؤُه هنا . من أمثلة ذلك تشابه (كهف) العربية و (cavo) اللاتينية . و (ارض او ثرى) و (earth) الانكليزية و (terre) الفرنساوية و (اله) العربية و (لها) في لغة تيبت و (الماء) في العربية و (ما) في المصرية القديمة و (مو) في الصينية وقس على ذلك

﴿ باب المراسلات ﴾

طالت مقالة (تاريخ الانسان) في هذا الهلال فلم نترك مكانًا للمراسلات مع ان لدينا رسائل ضافية في الرد على صديقنا الدكتور امين افندي الخوري بشأن المرأة والعلم والمال سننشرها في الهلال القادم فنوجه الالتفات اليها سلفًا

﴿ أرمانوسة المصرية ﴾ (تابع ما قبله)

فأرسلت بربارة تستطلع الخبر فعادت قائلة ان أهل بلبيس في قلق من أمر العرب لأنهم هاجموا الفرما وجاء من أهلها نفر فاربن من ساحة الحرب وقد جاء الحاكم ببعض منهم الى منزله يستطلع منهم أخبار العرب سرًّا لأنهم شهدوا محاربتهم واختبروا قوّتهم

فارتبكت أرمانوسة بأمرها وقالت هذه مصيبة أخرى يا بربارة فقد أصبحت بين أربعة عوامل تتسابق الى قضائي أوّلها وأشدها وطأة عليّ ذلك الرجل الذي لا أحبه ولا يمكن أن أحبه ورسوله الذي ربما وصلنا غدًا وقد جاء ليحملني الى جهنم أعوذ بالله . وثانيها والدي الذي قد وافقه على هذه الفعلة وهو مساعد له على شقائي . وثالثها هؤلاء العرب الذين جاؤنا محاربين وهم اشداء على ما يظهر وربما ملكوا رقابنا عنوة . ورابعها آه من رابعها ..... وسكتت

قالت بربارة كملي العدد يا سيدتي ما هو رابعها ربما كنت انا هو ذلك الرابع

قالت لا يا بربارة حاشاك انك وحدك تعزيني على كل هذه المتاعب أما الرابع فهو قلبي هذا الذي قد علق اركاديوس وعصبني في هواه وأنا بعيدة عنه لا أرجو لقاءه وقد كان لي بقية أمل باللقاء قبلًا أما الآن فاراني يائسة من ذلك . قالت ذلك وشرقت بدموعها

فقالت بربارة وقد انفطر قلبها دعي عنك الأوهام وتجلدي فقد فات الملك التي حملك عليّ فاني ناصرتك باذن الله وأضمن لك ضمانًا حقيقيًا انك ستطلعين لن ينال منك شعرة وانك ستنالين من تحبينه رغمًا عن الناس كافة ولكن اصبري وتدبري الامر بالحزم واجلسي حتى اذهب الى الحاكم واسمع كلام الفارين لعلنا نؤانس منهم نورًا

فتركتها في الغرفة وذهبت توًّا الى منزل الحاكم بجوار القصر فدخلت وكان الخفر يعرفونها فلم يمنعوها فلما رآها الحاكم وقف لها واستقبلها وأراد ان يدخل بها الى غرفة الاستقبال فقالت له لا حاجة الى ذلك فاني جئت لاسمع كلام الفارين فدخل بها الى غرفة فيها رجل عرفت من لباسه انه من ضباط الجند ولكنه لبس رومانيًا وانما أصله من جند انطاكية فلما رأته علمت ما قاساه من أنواع العذاب قبل وصوله بلبيس وكان لا يزال بثياب الحرب وعليه الدروع وقد تلطخت بالدماء وفي

كتفهِ جرحٌ أصابهُ من نبال كادت تخترق عنقهُ لولم يستقبلها بكتفهِ

فجلست على مقعد من الحرير المزركش وجلس الحاكم الى جانبها ونادى الضابط فدنا منهُ فقال اخبرنا بما رأيتهُ تماماً

فقال وقد تنفس الصعداء اني لا اصدق يا سيدي ببقائي حياً لفرط ما قاسيتهُ من انواع المخاطر فان هؤلاء العرب اشداء اقوياء ولا اظن جندنا يقوى على حربهم

فابتدره الحاكم قائلاً اخفض صوتك لئلاَّ يسمعك أحد فيقع الرعب في قلوب الناس واشرح لنا حالك

الفصل الرَّابع والعشرون

موقعة الفرما

فقال علمنا منذ ثلاثة أيام بوصول جند العرب الى ضواحي الفرما بعدَّتهم وخيلهم ورجالهم فأخذنا في التأهب لدفاعهم فملأنا الاسوار بالجند ورفعنا الاعلام واقمنا الصلوات في الكنائس ونصبنا الصلبان على الاسوار وكان في ظننا انهم يمكثون مدة قبل منازلتنا التماساً للراحة من وعثاء السفر ولكننا لم نكد نتم التأهب حتى رأينا غبارهم يتصاعد وجموعهم ترحف نحو المدينة ثم انكشف ذلك الغبار عن جيش جرار تتقدمهُ الاعلام والفرسان وما زالوا حتى عسكروا امام المدينة ولكننا لم نشاهد معهم خياماً ولا اثقالاً فعلمنا انهم تركوا الخيام بعيداً فلبثنا ننتظر ما يظهر منهم وكنت انا في حاشية حاكم الفرما نتشاور في أمرهم وبعد الظهيرة بقليل رأينا واحداً منهم يتقدم نحو الاسوار حاملاً علماً ابيض اشارة الى انهُ رسول فلم نتعرض لهُ فلما وصل السور أشار يدعو ان معهُ كتاباً يريد تسليمهُ الى كبيرنا فامرني الحاكم فنزلت الى باب السور ففتحتهُ واردت تناول الكتاب منهُ فاعرض عني كأنهُ لا يريد ان يسلمني اياه وفهمت انهُ يريد تسليمهُ للحاكم يداً بيد فاستأذنت الحاكم فأذن بدخولهِ فدخل بقدم ثابتة كأنما هو داخل الى منزلهِ وكنت مستخفاً بهِ لرثاثة لباسهِ لأنهُ كان لابساً شملة ملتفاً بها كأنهُ متسول فتحوَّل احتقاري الى احترام فاراد الدخول على الحاكم ويدهُ على قبضة حسامهِ فاردنا ان ننزع سلاحهُ فأبى فأتينا بالترجمان وحاولنا اقناعهُ ان العادة عندنا ان يجرد

الرسول من السلاح فقال لا أنزع السلاح ابدًا فاذا لم تقبلوني كذلك عدت من حيث أتيت فارتفعت منزلتهُ عندنا وأذن الحاكم بدخولهِ كما بيناه

فدخل ودفع الى الحاكم كتابًا مكتوبًا على رقّ من جلد الظباء وليس من البابيروس مثل رقوقنا فتناولهُ الترجمان وقرءهُ فاذا هو من امير العرب يطالب الينا التسليم حالاً او ان نعتنق ديانتهم او ندفع الجزية او يحاربونا

فعظم ذلك علينا فقال لهُ الحاكم ليس عندنا الاَّ الحرب فتحوّل العربي ويدهُ لا تفارق قبضة حسامهِ وعيناه تراعيان حركاتنا وسكناتنا كأنهُ خاف ان نغدر بهِ ونزل وعاد الى معسكره فصعدت الى مرمى من مرامي النبال على السور ونظرت الى معسكر العرب فاذا هم قد وقفوا صفوفًا والفرسان متفرقون بينهم فعلمت ان هؤلاء الفرسان انما هم قوادهم

ولم تمض مدة يسيرة حتى انبرى منهم فارس مدجج بالسلاح وعليهِ درع يمانية وكنت قد شاهدت مثلها عند بعض قوادنا يوم كنت في انطاكية واغار بجواده حتى دنا من السور شاهرًا حسامهُ فخاطبهُ الترجمان من اعلى السور عن مراده فقال اذا كان لا بدَّ لكم من الحرب فاخرجوا الينا او ليخرج منكم فارس تعتمدون عليهِ نبارزه فاما ان تكون الغلبة لكم اذا غلب او لنا اذا غلبنا ومبارزة الافراد خير من سفك الدماء

فالتفت الحاكم اليَّ وقال ما الرأي فقلت لهُ ان في المبارزة حقنًا للدماء

فقال ومن يخرج منكم الى هذا الفارس فانتصب احد الضباط الكبار وكان ممن حنكتهُ الايام ومارس الحروب وعليهِ الخوذة والدروع على الصدر والكتفين والذراعين وقد غطاها كلها بقباء من الحرير المزركش وتقلد الحسام والخنجر وحمل الترس وجاءه القسيس فصلى لهُ ورشهُ بماء المعمودية تبركًا وتيمنًا وعلق في صدره صليبًا من الذهب تعتقد فيهِ الحماية من الاضرار فقبل الصليب والانجيل ونزل الى باب السور فركب جواده وكان الجواد سمينًا مكسوًّا بالدروع ايضًا وبرز الى العربي وليس فيهِ ولا في الجواد محطٌّ للسيف الاَّ غطتهُ الدروع

أما العربي فكانت الدرع على رأسهِ وصدره فقط والجواد عارٍ وكنت ظننتهُ فرسًا ضئيلاً لفرط ضعفهِ وقلة لحمهِ ولكني شاهدت من خفتهِ في الجري ما ذكرني بما كنت اسمعهُ عن خيول العرب من الخفة والشدة على قلة في علفها

وأخذ الفارسان يتجادلان ويتبارزان وابصار الجيشين شاخصة اليهما وكلٌ يصلي ويطلب النصر له

ثم رأيت الفارس العربي يتقهقر مظهرًا الانكسار فلحق به فارسنا ثم عاد فكرّ عليه فتقهقر فارسنا فتقهقرت قلوبنا معهُ ثم عادا الى المبارزة واشتد اللجاج حتى كدنا نسمع وقع السيوف على الدروع كل ذلك والاساقفة يصلون ويتضرعون الى الله استمدادًا للنصر حتى امسى المساء ولم يظهر احد منهما على رفيقه فافترقا على ان يعودا الى المبارزة في الصباح

فلما رجع فارسنا سألناه عما لاقاه من ذلك العربي فاعترف انه لو لم يدركهُ الظلام لذهب فريسة لهُ قال ذلك سرًّا فيما بيننا وكان يظهر خلافهُ لدى الآخرين فاجتمعنا تلك الليلة وتشاورنا في امر اولئك العرب فاجمع الرأي على ان نأخذهم بالحيلة فنخرج اليهم في الصباح مظهرين الوقوف صفوفًا لمشاهدة المتبارزين ونجعل فرقة من جندنا في كمين على يسار الجند عن بعد ثم نشغلهم في حربنا ويدور الكمين من ورائهم ونهاجمهم من سائر الجهات فنضايقهم وكنت انا في جملة من سار للكمين وجعلنا علامة الهجوم دق الاجراس فنزلت مع الكمين ليلاً واختبأنا وراء اكمة على مسافة من المعسكر وفي الصباح نزل باقي الجند امام الفرما واصطفت الجيوش وقد رفعت الاعلام والصلبان فوق رؤوسهم ونزل المتبارزان وبعد هنيهة سمعنا دق الاجراس فهجمنا على العرب من ورائهم وكان باقي جندنا قد هاجموهم من الامام وعلا الصياح من الجانبين وحمي الوطيس

أما نحن فهجمنا عليهم من الوراء فما شعرنا الاَّ وقد اغار علينا ساقتهم وفيهم كثير من النساء بالعمد والعصي وكانت الواحدة منهنَّ تهجم على العشرة والعشرين وفي يدها عصا طويلة تضرب بها ذات اليمين وذات اليسار فلاقينا من شدة اولئك النساء اضعاف ما لاقينا من الرجال وما زلنا في ذلك الى منتصف النهار حتى خارت قوانا فلم نعد نستطيع الثبات ثم رأيت نبلة ساقطة عليَّ تكاد تصيب نحري فاستقبلتها بيدي فجرحتني وكان الترس قد وقع من يدي فخفت على نفسي فطلبت الفرار في عرض الصحراء حتى بعدت عن المعسكر وفرَّ معي جماعة كبيرة فالتفتُّ الى الفرما فاذا بالعرب يتسلقون اسوارها ولا ريب انهم دخلوها واستولوا عليها وقد واصلت السير

ليلاً ونهاراً حتى وصلت اليكم وأكاد لا اصدق اني نجوت من الموت

وكان الحاكم وبربارة اثناء ذلك منطاولين بعنقيهما يصغيان الى ما يقول وقلباهما يخفقان فلما أتمّ حديثه امتقع لون الحاكم ووقع الرعب في قلبه ولكنه اظهر الاستخفاف وقال انكم اخطأتم الحيلة وكان يجب ان تبارزوهم وجهاً لوجه فما هم الاّ شرذمة قليلة وليس لديهم من العدة والسلاح مثل ما لنا فاذا جاؤوا بلبيس لاذيقنهم العذاب الوأنا . ثم قال للرجل احذر ان تطلع احداً من حامية بلبيس على جلية الخبر لئلاّ يستولي عليهم الخوف وهذا هو شأن الحرب يوم لك ويوم عليك

أما بربارة فعادت الى سيدتها وقد استولى عليها الخوف فرأتها واقفة الى النافذة وقد اسندت برأسها اليها تنظر الى الحديقة كأنها تتشاغل عن هواجسها لعلها تنسى ما هي فيه من الارتباك فلم تشعر بدخول بربارة حتى نادتها فتحوّلت اليها وسألت عن امرها فقصت عليها الخبر كما سمعته الى ان قالت وهذا ما كنا نخافه من اوّل الامر وهو الذي حمل سيدي المقوقس على مسالمة العرب فانه تنبأ بظهورهم على الروم حيثما نازلوهم ولا يبعد ان يكون قد خابرهم سرّاً وعقد معهم عهداً ان لا يؤذوا احداً من القبط وعلى كلّ فان الروم لن تقوم لهم قائمة

فقالت ارمانوسة وما الرأي يا بربارة قالت الرأي ان نتربص لنرى ما يأتي به القدر ولا بد من ان يأتينا الفرج اما من اركاديوس او من مرقس الاّ ان يكون هذا المسكين قد اصيب بسوء

فقالت ارمانوسة لا سمح الله بذلك فاني على شدة هواجسي لم تبرح حكايته من بالي وتريني في وجل على خطيبتو لئلاّ يكون قد اصيب بسوء بسببنا

الفصل الخامس والعشرون

يوقنا وأرمانوسة

وقضوا بقية اليوم في مثل هذه الاحاديث . وفي الصباح خرجت بربارة تستطلع الاخبار لعلها تسمع شيئاً عن مجيء مرقس فاذا بالحاكم قد لقيها وهو في عجل فسألته عن

الخبر فقال هل رأيت الغبار المتصاعد في عرض الافق قالت لا وما ذلك قال جاءنا الجواسيس واخبرونا بقدوم بوقنا في رجاله لحمل سيدتي ارمانوسة وقد جئت لابشرها

فقالت اشكر لك بالنيابة عنها وانا ابلغها هذه البشارة عنك

ثم تركته وصعدت الى نافذة مطلة على ضواحي المدينة فاذا بالغبار يتصاعد وقد دنا القادمون من المدينة فهرولت الى سيدتها واخبرتها ولكنها مزجت الخبر بامارات الاطمئنان خوفاً عليها أما هي فلم تعبأ الا بالحقيقة فلطمت وجهها واخذت تفرك يديها كأنها وقعت في مصيبة و بربارة لا تستطيع تخفيف اضطرابها ولكنها قالت لها اخيراً اننا على موعد مع بوقنا في انتظار جواب والدك

فقطعت ارمانوسة كلامها قائلة وما هو في الأمن ذلك الجواب سامح الله والدي فانه هو الذي جلب عليّ كل هذه الاتعاب

فقالت بربارة ألا تريدين ان تطلي من النافذة لمشاهدة القادمين

قالت دعيني من النوافذ فاني ماكثة في هذه الغرفة لا اخرج منها قبل ان تخرج نفسي من جسدي

وفيما هما في ذلك اذا بقارع يقرع الباب فخرجت بربارة لمشاهدته فاذا هو الحاكم يحمل بيده حقاً وعلى وجهه امارات البشر

فسألته عن امره قال ان هذا الحق مرسل من البطريق بوقنا الى السيدة ارمانوسة فهمست في اذنه قائلة ان سيدتي الآن في الفراش ولا شك انها ستذكر لك هذه الهمة وسأبلغها الرسالة متى افاقت وربما دعوتك لمقابلتها

فشكر لها ومضى اما هي فاخذت الحق وهو صندوق صغير رأت فيه قطعة من الحلي الثمين على مثال النسر مرصعة بالحجارة الكريمة من الالماس والزمرد والياقوت بديع الصنعة للغاية والى جانبه رقٌّ محلى بالذهب مكتوب باللاتينية ومصدر بصورة النسر الروماني فعلمت انه من قسطنطين فدخلت على سيدتها والنسر بيد والرق بالاخرى وكانت ارمانوسة جالسة على مقعد في صدر الغرفة وقد اطرقت الى الارض تنتظر عود بربارة فلما رأتها داخلة تحمل تلك الادوات والرق ظنتها تحمل كتاباً من اركاديوس

فوقفت بغتة وهمت اليها وتناولت الكتاب منها بلهفة ولكنها ما لبثت ان

فتحتهُ حتى رمت بهِ الارض وقد تبدلت لهجتها بالانقباض وقالت ما الذي جئت بهِ وما هذا الذي بيدك قالت ألم تقرأي الكتاب يا سيدتي

قالت لم أقرأهُ ولا اريد ان اقرأه لانهُ مذيل باسم الذي تكرههُ نفسي

قالت اقرأيهِ لعل فيهِ خيرًا وقد قال سيدنا لا تكرهوا شيئًا لعلهُ خير لكم قالت ذلك وتناولت الرق ودفعتهُ اليها فاخذت ارمانوسة بقراءتهِ فاذا ترجمتهُ

بسم الاب والابن والروح القدس

من قسطنطين ابن الامبراطور هرقل ملك الملوك الى عروسنا ارمانوسة الحبيبة قد ارسلت اليك مع عزيزنا يوقنا نسرًا رومانيًا مرصعًا هدية وكلت اليهِ ان يأتي بك الينا كما كتبت الى حضرة والدك عاملنا على الديار المصرية ونحن في انتظارك بمراكبنا عند بحر دمياط فاسرعي في المجيء والسلام (الامضا)

وما أتمت قراءتهُ حتى صاحت بأعلى صوتها لا لا لا اريد ان اذهب اليك ولو كنت ابن رب الارباب ورمت الكتاب الى الارض وعادت الى المقعد

فوقفت بربارة صامتة لا تدري كيف تسلي سيدتها وقد حصحص الحق وازداد الامر اشكالاً على انها تركتها وذهبت الى الحاكم وقالت لهُ قد اطلعت سيدتي على الكتاب وهي لا تزال في انتظار الجواب من سيدي المقوقس لانها لا تقدر ان تبرح المكان قبل وصول جوابهِ

فقال ولكن رسول سيدي المقوقس قد عاد الآن يحمل كتابًا الى يوقنا وآخر لمولاتنا ارمانوسة فدفع هذا اليَّ وسار لايصال كتاب يوقنا اليهِ . ومد يده الى مائدة امامهُ واستخرج كتابًا دفعهُ اليها فتناولتهُ وفضتهُ واذا هو مكتوب بالقبطية يحرضها والدها فيهِ على التأهب للمسير مع يوقنا ويعتذر عن عدم حضوره بنفسهِ لانشغالهِ في الحصن باعداد الجند والتأهب لدفاع العرب

فتغير لون وجهها وخرجت فخبأت الكتاب في مكان ولم تطلع سيدتها عليهِ لئلا تزيد يأسها ولكنها لبثت تنتظر عود ذلك الرسول من عند يوقنا لتسألهُ عما فعلهُ بالعلامة التي ارسلتها الى اركاديوس

فخرجت الى الحديقة وجعلت تتطاول الى الطرق لعلها تشاهد الرجل قادمًا فتستطلعهُ الخبر فما لبث ان جاء ومعهُ رسول آخر عرفتهُ من لباسهِ انهُ بروفس الذي

جاء المرة الاولى برسالة يوقنا فاستعاذت بالله منهُ

فلما وصلا باب الحديقة استأذناها بالدخول فأذنت اوّلاً لرسول اركاديوس فدخل فسألتهُ عن كتاب اركاديوس فقال وصلت الحصن يا سيدتي مساء فسألت عن القائد اركاديوس فقيل لي انهُ ذهب في جماعة من رجالهِ الى خارج الحصن ليقطعوا الجسر المنصوب بين الحصن وجزيرة الروضة وهو جسرٌ مصنوع من المراكب يعبرون عليهِ من الحصن الى الجزيرة ومثلهُ الجسر الموصل بين الجزيرة والبر الغربي

فقالت ولماذا ارادوا قطعها

قال ارادوا ذلك عند ما بلغهم بنزول العرب الفرما وعزمهم على الحصن فأمروا بقطع هذين الجسرين ليمنعوهم من منف وسائر البر الغربي

قالت وماذا فعلت عند ذلك

قال سرت الى سيدي المقوقس فدفعت اليهِ كتابهُ فقرأهُ وكان في سرعة للاستعداد وتقوية الحصون فكتب اليَّ كتابين واوصاني ان اوصل احدهما الى سيدتي والآخر الى يوقنا وامرني بسرعة الرجوع بهما فلم اعلم كيف اوصل كتابك الى اركاديوس وخفت اذا تأخرت هناك وعلم سيدي المقوقس بتأخري ان تنكشف حقيقة امري وربما كان في ذلك ما يغضبك او يغضب سيدتي ارمانوسة فرأيت هناك جندياً كنت اعرفهُ منذ صباي وهو صديق لي فدفعت الكتاب اليهِ واوصيتهُ ان يدفعهُ الى القائد اركاديوس حالما يعود من مهمتهِ فوعدني ان يقوم بذلك حالاً وجئت بالرسالتين كما قدمت

فقالت وقد ذُعرت وكادت تيأس من نجاة سيدتها اذاً لم تشاهد اركاديوس

قال لا يا سيدتي وقد بينت لك السبب . وخاف ان يحمى غضبها عليهِ فسكت

فقالت ومن هو هذا القادم معك

قال هو رسول يوقنا الى سيدتي ارمانوسة ارسلهُ يوقنا على اثر تلاوة كتاب سيدي المقوقس

فعلمت انهُ ارسل يطلب ذهابها اليهِ وقد صح الصحيح وانقطع الرجاء فاشتد بها الاسف وترقرقت الدموع في عينيها ولكنها تجلدت وارادت تحقق الخبر فقالت لهُ أدع الرسول ليدخل الى هنا

« ستأتي البقية »

الهلال

الجزء الخامس عشر من السنة الرابعة

(١١ ابريل (نيسان) سنة ١٨٩٦ ☓ ٢٧ شوال سنة ١٣١٣ ☓ ٢٤ برمهات سنة ١٦١٢)

باب أشهر الحوادث وأعظم الرجال



دراويش المهدي السوداني بلباسهم وسلاحهم



السودان

بمناسبة تجريد الجنود المصرية لاسترجاع السودان في أواسط مارس الماضي رأينا ان نذكر طرفاً من جغرافية تلك الأقطار وتاريخها وطبائعها وأخلاق أهلها وعوائدهم وسائر أحوالهم حتى يكون قرّاء الأخبار على بيّنة من أمرها

(١) جغرافيتها

السودان اسمٌ لبقعة من اواسط افريقيا اختلف علماء التقويم في تحديدها فجعلها بعضهم شاملة كل اواسط افريقيا وحصرها آخرون فيما بين القطر المصري وخط الاستواء وقال غيرهم بل المراد بالسودان البلاد الواقعة على ضفاف النيل وفروعه من منشإه الى مصبّه وعلى كلّ فالمراد من هذه المقالة الكلام على الاصقاع السودانية التي كانت في حوزة الحكومة المصرية قبل الحوادث المهدوية وتخلت عنها للدراويش بضع عشرة سنة حتى نهضت في اواسط الماضي افتحها (راجع تاريخ الشهر) وهي ما يعبر عنه بالسودان المصري وكان ممتدًّا قبل الحوادث السودانية بين وادي حلفا شمالاً وبحيرة فيكتوريا نيانزا عند خط الاستواء جنوباً مسافة طولها نحو ١٤٠٠ ميل وبلغت مساحة السودان المصري نحو مليون ميل مربع وعدد سكانه نحو اثني عشر مليوناً والمظنون ان نصفهم هالك في السنوات العشر الاخيرة بالحروب والقحط وبيع الرقيق. وقد دخلت هذه البلاد في حوزة الحكومة المصرية تدريجاً ببذل المال والرجال اثناء ستين عاماً ولكنها خرجت من يدها في ثلاثة اعوام من الاهمال وسوء المشورة

على ان القسم الجنوبي من السودان المصري قلما كانت للحكومة المصرية سلطة عليه او منفعة منه فيليق بنا الاغضاء عنه في هذه العجالة. اما فيما خلا ذلك فالسودان المصري كان يقسم الى تسع مديريات ومحافظتين فالمديريات هي من الشمال الى الجنوب دنقلة وبربر والتاكة والخرطوم وسنار وكردوفان ودارفور وفشودة وفيزاوغلي والمحافظتان سواكن ومصوّع. وتقسم كل مديرية الى اقسام والاقسام الى اخطاط وبلاد وقرى كما سترى وسنذكر اولاً المديريات التي تستقي من مياه النيل ثم الخارجة عنه

(١) مديرية دنقلة

هي أقرب الاصقاع السودانية الى مصر ويسمى القسم الشمالي منها بلاد النوبة يحدها من الشمال وادي حلفا ومن الجنوب آخر خط مروي القبلي وتقسم الى احد عشر خطاً

معدودة من الشمال الى الجنوب وهي سكوت والمحس وحنير وارقو والاردي (او دنقلة الجديدة) والخندق ودنقلة العجوز والدبة واسبكول ومروي البحري ومروي القبلي

﴿ (١) خط سكوت ﴾ هو اوّل المديرية من الشمال وفيه آثار مصرية قديمة واغلب زراعة اهله القمح والعدس والترمس ونوع من اللوبيا يسمونه (قشرنقيق) والخروع ويستخرجون زيته · اشهر نواحيه عبكة وعندها شلال يعرف بهذا الاسم ووادي الاحجار وسركمتو ونوبكه ويوجد في هذا الخط نوع من البلح لذيذ الطعم يقال له السكوتي ﴿ (٢) خط المحس ﴾ وفيه شلال يقال له شلال كجبار ومركز الحكومة كان بناحية كوتّا ﴿ (٣) خط الحنير ﴾ مركز حكومته ناحيه الحنير ومن بلاده حنك وكباجة وهما من البلاد القديمة وعند حنك شلال

﴿ (٤) خط ارقو ﴾ اكثر هذا الخط جزائر ويزرع اهلها القرطم ويسمونه بلسانهم كوشيك ويستخرجون زيته ويدهنون به · مركز هذا الخط جزيرة ارقو فيها تمثالان عظيمان من الحجر على صور الآدميين ومن بلاد هذا الخط ركبة وكويه ومنا وطنبس ﴿ (٥) خط دنقلا الجديدة او الاردي ﴾ ويلفظه بعضهم العرضي سمي بذلك نسبة الى مدينة الاردي وهي دنقلة الجديدة وقد سميت الاردي لان الجنود المصرية التي سارت الى السودان على عهد المغفور له محمد علي باشا اقاموا في ذلك المكان مدة وكانوا يطلقون على ذلك الجند اسم الاردي فعرف المكان به فلما جعلوه مركز ذلك الخط سموه دنقلا الجديدة تمييزاً له عن دنقلة القديمة الآتي ذكرها · ودنقلة الجديدة مركز المديرية الآن وفيها تحصن الدراويش بعد الخرطوم وهي واقعة على البر الغربي للنيل عامرة آهلة فيها اسواق ووكالات وقد اقمنا بها مدة اثناء الحملة النيلية سنة ١٨٨٥ فتنسمنا منها رائحة المدنية لانها من اعمر مدن السودان بعد الخرطوم وبربر وعند مرساها تمثالان من الحجر اصلهما من البرقل الآتي ذكرها · ومن بلاد هذا الخط الزورات وجرادة ومراغة وكوه وفيها معبد مصري قديم والصحابة وفيها اضرحة تزار وحلة المنفوخ اكثرها خراب ﴿ (٦) خط الخندق ﴾ مركزه ناحية الخندق على البر الغربي فيها ابنية قديمة وفي البر الشرقي معبد قديم خرب يسمونه ماروق ومن بلاد هذا الخط ناوى وشعانه وكيار وسوري ﴿ (٧) خط دنقلة العجوز ﴾ مقرّ حكومته بلدة دنقلة القديمة او دنقلة العجوز على البر الغربي فيها بناء قديم جعلوه

مسجدًا وبجوار تلك الناحية قباب واضرحة تنسب الى جماعة من الاولياء بينها ضريح مشهور بالكرامة يعرف بضريح عبد الرحمن بن أبي بكر . ومن بلاد هذا الخط البكري والخليوة والباجة ﴿ (٨) خط الدبّة ﴾ مركزهُ ناحية الدبة وهو خط صغير ﴿ (٩) خط أمبيكول ﴾ مقره بلدة امبيكول وبجوارها ناحية كورتي وهي التي اتخذتها الحملة الانكليزية سنة ١٨٨٥ معسكرًا لها وملتقى لجنودها لوقوعها عند اوّل عطمور المتمة ومنها سارت حملة الجنرال ستيوارت في ذلك العطمور الى المتمة ﴿ (١٠) خط مروي البحري ﴾ مركزه ناحية حنك (غير المتقدم ذكرها) ومن بلاده تنقاسي وفتنة ﴿ (١١) خط مروي القبلي ﴾ وهو آخر خطوط مديرية دنقلة وفيهِ كثير من الاغراس والاشجار وانواع الحيوان وفيهِ آثار قديمة تدل على ان تلك البقعة كانت في الازمنة الخالية بلادًا عامرة آهلة . ومن تلك الآثار هيكل قديم في ناحية البرقل منحوت في الصخر عليهِ رسوم وتماثيل ومنها اهرام اكثرها خرب واقعة في ناحية توري يسميها اهل تلك البلاد طرابل . ومن بلاده مروي مركز الخط ويسمي السودانيون مركز الخط حلة الخط . ومن بلاد هذا الخط ايضًا كربكان وفيها قتل الجنرال إرل بعد نصرته على الدراويش هناك

(٢) مديرية بربر

تتصل من الشمال بمديرية دنقلة ومن الجنوب بمديرية الخرطوم عند مكان يقال له حجر العسل ويحدها من الشرق محافظة سواكن ومديرية التاكة ومن الغرب صحراء بيوضة . مركزها مدينة بربر ويقال لها المخيرف وهي من كبار المدن في الاقطار السودانية واقعة على ضفة النيل الشرقية مركزها متوسط بين معظم مديريات السودان ولها اهمية عظمى في التجارة تسير القوافل التجارية منها الى سائر انحاء السودان وغيرها فيمتد منها طريق الى سواكن وآخر الى دنقلة وآخر الى الخرطوم وآخر الى كروسكو عن طريق ابي حمد وآخر الى التاكة فالحبش . وتنقسم مديرية بربر الى اربعة اقسام الرباطاب وبربر والزيداب والمتمة وكل منها ينقسم الى اخطاط ﴿ (١) قسم الرباطاب ﴾ هو اوّل اقسامها من الشمال ومؤلف من ثلاثة اخطاط (١) خط مقرات فيهِ ٩ بلاد واقعة على ضفتي النيل اشهرها ابو حمد وهو اوّل العطمور الممتد بينها وبين كروسكو (٢) خط ابو هشيم فيهِ ٨ بلاد اشهرها ابو هشيم والجريف

(٣) خط الباقر فيه ٦ بلاد ❊ (٢) قسم بربر ❊ فيه ثلاثة اخطاط (١) خط الانفرياب فيه ١١ بلدًا اشهرها الدناقيل والمدباب والعبيدية (٢) خط بربر وبه ١٢ بلدًا أشهرها مدينة بربر المتقدم ذكرها مركز المديرية (٣) خط رأس الوادي فيه ١٥ بلدًا على جانبي النيل منها المكابلاب والوبكناب ❊ (٣) قسم الزيداب البحري يقسم الى ثلاثة اخطاط (١) خط الدامر وفيه ١٤ بلدًا بعضها على شاطئ النيل الشرقي وبعضها على نهر اتبرة اشهرها الدامر مركز الخط (٢) خط الزيداب القبلي فيه ٩ بلاد اشهرها المكايراب والتيمراب وام الطيور والحسناب (٣) خط الزيداب وبه ١٠ بلاد اشهرها الزيداب والكتياب والعقيدة وعالياب ❊ (٤) قسم المتمة ❊ فيه ثلاثة اخطاط (١) خط سقاي الغرب كل بلاده على شاطئ النيل الغربي وعددها ١٨ بلدًا اشهرها سقاي الغرب والمكنية والجبلاب والجراب والميناوبر والنوبة (٢) خط شندي وبلاده على الشاطئ الشرقي وعددها ٢٢ بلدًا أشهرها شندي وعندها قتل اسماعيل باشا بن محمد علي باشا الكبير بدسيسة الملك النمر سنة ١٨٢١ (٣) خط المتمة وهو آخر حدود مديرية بربر مركزه المتمة على البر الغربي مقابل شندي وبالقرب منها حصلت الموقعة الشهيرة التي شهدناها بين الجنود الانكليزية والدراويش سنة ١٨٨٥ وجرح فيها الجنرال ستيوارت والى الجنوبي المتمة قرية صغيرة اسمها القبة احتلتها الجنود الانكليزية بعد تلك الموقعة وتحرف اسمها بنقله الى اللغة الانكليزية فصار جوبات

(٣) مديرية الخرطوم

مركزها مدينة الخرطوم وهي مركز حكمدارية السودان وقد اشتهر امرها مؤخرًا لمحاصرة الدراويش لها ثم افتتاحهم اياها وقتل غوردون باشا (راجع ترجمة غوردون باشا في الهلال الماضي) والخرطوم اعظم مدن السودان بلا استثناء واوسعها تجارة وعندها يلتقي فرعا النيل الابيض والازرق فيتكوّن منهما النيل الاصلي وبين الخرطوم ونقطة ملتقى الفرعين بقعة كلها نخيل وبساتين . ويصطنع اهل الخرطوم انواعًا دقيقة من الحلي والآنية الذهبية والفضية ولهم مهارة خاصة باصطناع اسلاك الفضة والذهب على هيئة ظروف الفناجين والعازقي والصيبنة على طرز جميل يحبه اهل مصر والشام كسرجنت وسناري وتنقسم مديرية الخرطوم الى ستة اقسام ❊ (١) قسم الخرطوم ❊

ومركز ناحية المسلمية على مسافة ١٢ ساعة من الخرطوم بسير الابل ✻ (٢) قسم ولد مدني ✻ مركز ناحية ولد مدني وهي بلدة تجارية وفيها ضريح ينسب الى الشيخ مدني واليه تنسب البلدة واهل هذا القسم عربان ✻ (٣) قسم عبود ✻ مركز ناحية عبود واهلة عربان ✻ (٤) قسم البحر الابيض ✻ هو غير مديرية بحر الابيض ومركز حلة ولدشلعي ✻ (٥) قسم الحلفاية ✻ مركز ناحية الحلفاية ✻ (٦) قسم ابو حراز ✻ ومركز ناحية ابو حراز وفيها مكان يعرف بالاربعين

(٤) مديرية سنار

واقعة بين مديرية الخرطوم من الشمال ومديرية فيزاوغلي من الجنوب يجري في وسطها النهر الازرق اكثراهلها من البدو من قبيلة يقال لها ابو روق مركزها مدينة سنار واقعة على النهر الازرق بضفته الغربية ومن اشهر بلاد هذه المديرية ناحية ولد عباس وناحية كركوج وكلاهما على الضفة الشرقية وحلة الشريف محمد على الضفة الغربية

(٥) مديرية فيزاوغلي

سميت هذه المديرية بهذا الاسم نسبة الى جبل شهير اسمه جبل فيزاوغلي واقع على الضفة الغربية للنهر الازرق علوه ٢٧٥ قدماً يجري ذلك النهر بسفحه ويمتد الجبل موازياً له حتى ينتهي الى مركز هذه المديرية وهي بلدة اسمها فامكه على ضفة النهر الشرقية وهناك يتصل بالنهر خور كبير تكثر الغابات والبساتين على جانبيه وفيها كثير من الاشجار المهمة كالابنوس والجميز والحمر والدلب والكاكموث والمقل والترتر والطلح وغيرها وتنقسم هذه المديرية الى اربعة اقسام ✻ (١) قسم فيزاوغلي ✻ اكثره جبال منها في شرقي النهر جبل دمر وجبل ام تشلق وجبل ابوان واهل هذه الجهات لا يتكلمون العربية واسمهم الكدالو . وعلى الضفة الغربية جبل فيزاوغلي وغيره ✻ (٢) قسم بني شنقول ✻ واقع غربي النيل الازرق وبه كثير من الجبال اشهرها جبال بني شنقول وسنجي وخمشة وزول وغيرها ومركز القسم في بني شنقول ✻ (٣) قسم الفخ ✻ هو اكبر اقسام هذه المديرية وفيه جبال كثيرة اشهرها جبل قولي وهو مقر ديوان القسم ويلبس بعض اهله سيور الجلد في اصلابهم وهم يسمون البرون ✻ (٤) قسم الرصيرص ✻ مؤلف من قرى صغيرة على ضفاف النيل الازرق ومركزه حلة الرصيرص

(٦) مديرية فشودة او البحر الابيض

يقال لها ايضاً مديرية البحر الابيض لانها واقعة حوالي النيل الابيض مركزها ناحية فشودة وفي هذه المديرية يكثر الجاموس والزراف والنعام والفيل وجاموس الماء والتماسيح واكثر عمل اهلها صيد هذه الوحوش والاتجار ببعض اجزائها كريش النعام وسن الفيل والجلد وتنقسم هذه المديرية الى اربعة اقسام وهي ✻ (١) قسم دوداي ✻ واقع غربي النهر فيه ١٤ ناحية في اربعة اخطاط وهي اخطاط كالما ونون وطرم وابيناي ✻ (٢) قسم فشوده ✻ مركزه مركز المديرية وفيه ٢٠ ناحية في اربعة اخطاط وهي نتير واقولبه وبيود وفاديث ✻ (٣) قسم بادور ✻ وهو الى جنوبي مركز المديرية وبلدانه واقعة على جانبي النهر وفيه اربعة اخطاط وهي ديم وفندواي وفكان وتلونق ✻ (٤) قسم الدنيكة ✻ وفيه خمس نواحي على الضفة الشرقية ومركز القسم ناحية الدنيكة

(٧) مديرية التاكة

وهي واقعة بين سواحل البحر الاحمر من الشرق ومديرية بربر ومحافظة سواكن من الشمال والغرب ومامورية سنهيت وبلاد الحبشة من الجنوب اكثر اهلها من عرب البادية ومركز المديرية مدينة كسلة وهي واقعة على الشاطئ الشرقي لنهر القاش ويقال له خور القاش وكانت هذه المديرية في حوزة الحكومة المصرية فاحتلها الدراويش ثم استولى عليها الايطاليان منذ بضعة اعوام - وتقسم مديرية التاكة الى اربعة اقسام وهي ✻ (١) قسم الحلانقة ✻ مركزه مدينة كسلة المتقدم ذكرها واهل هذا القسم حضر اي غير رحالة ✻ (٢) قسم الحدندوة ✻ اكثره غابات وجبال واودية واهله من البدو الرحالة يتخذون بيوتهم من البرش الخوص وهو اقرب الى جهات سواكن وبربر ✻ (٣) قسم بني عامر ✻ وهو يشتمل على جبال وغابات غضة الاشجار يحده من الشرق مامورية سنهيت التابعة لمحافظة مصوّع ومن الجنوب ينتهي الى بلاد الحبشة وينتهي بعضها الى خور بركة بقرب طوكر ✻ (٤) قسم اورسب ✻ وهو عبارة عن واد ممتد بين جبلين متصلين بحدود الحبشة من الجنوب والغرب والشرق فيه غابات غضة

(٨) مديرية كردوفان

واقعة غربي النيل الابيض عاصمتها بلدة الأُبيض ويكتنفها بعضهم العبيد غلطاً وقد

وصفناهذه البلدة واخلاقها مطولاً في رواية « اسير المتمهدي » واكثر اهل هذه المديرية او كلهم من قبائل العرب وسيرد تفصيل خبرهم عند الكلام على عربان السودان ولكننا نذكر هنا اشهر مدن هذه المديرية فمن اشهرها بلدة ا و حراز (غير المتقدم ذكرها) و بينها و بين الأبيض مسيرة يوم ونصف وفيها آبار . ومنها بارة و بينها و بين الأبيض يوم واحد وعندها آبار ومنها خورسي والطيارة وغيرها وسائر اهل كردوفان يستسقون من الآبار

(٩) مديرية دارفور

وهي ابعد مديريات السودان المصري غرباً يحدها شمالاً صحراء افريقيا وشرقاً كردوفان وجنوباً دار فرتيت وغرباً مملكة وداي ومن اشهر مدنها مدينة تندلتي وكانت مركز كرسي السلطنة ويقال لها ايضاً فاشر واكثر ابنيتها من البوص واغصان الشجر وفيها اسواق مختلفة لبيع اللحوم والماكولات وانواع التجارة وكانت مديرية دارفور مستقلة يحكمها ملك من ابنائها حتى افتتحت على عهد الخديوي اسماعيل باشا فدخلت في حوزة الحكومة سنة ١٢٩١ هـ وقسمت الى اربع مديريات وهي مديرية الفاشر في الوسط ومديرية كبكبية في الشمال الغربي ومديرية امشنة في الشرق ومديرية دارا في الغرب

(١٠) محافظة سواكن

واقعة على سواحل البحر الاحمر مقابل مديرية بربر اكثر اهلها الاصليين عرب ولكنها صارت الآن بلدة عامرة بعد احتلالها بالجنود المصرية والانكليزية وتحصينها فتقاطر اليها الباعة والتجار . ويتبع هذه المحافظة مأموريتان تسمى احداها مأمورية طوكر والاخرى مأمورية سنكات وكل اهلها من العربان . وفي هذه المحافظة كثير من السيول والخيران اكبرها خور بركة الذي يجري بالقرب من طوكر

(١١) محافظة مصوع

وهي واقعة على سواحل البحر الاحمر جنوبي محافظة سواكن مركزها فرضة مصوع وهي من سواحل الحبشة احتلها الايطاليان منذ بضع سنين فخرجت من حوزة الحكومة المصرية فلا حاجة الى التطويل في وصفها . وسنأتي في الاعداد التالية على خلاصة تاريخ السودان و وصف احوال اهله وعوائدهم واخلاقهم

باب المراسلات

هل تعلو منزلة المرأة بالعلم اكثر أم بالمال

١

سيدي منشىء الهلال الفاضل

هذه المرة الثانية التي استهدف بها حضرة الدكتور امين افندي الخوري لغضب السيدات (وما كل مرة تسلم الجرة) الا ان النفوس الكبيرة تستسهل اقتحام المخاطر مهما كانت جسيمة فان جنابه لم يفرغ من مصارعة الهواء الاصفر على ما قال حتى سوّلت له نفسه مصارعة الهواء الاحمر اي مناظرة النساء والبحث في النساء واقناع النساء

فقد قرأت لحضرته في الجزء الثالث عشر من الهلال بحثاً في «هل تعلو منزلة المرأة بالعلم اكثر أم بالمال» فرأيناه كما عهدناه منذ سنين في مناظرته بموضوع النساء شديد اللهجة عليهنّ عنيفاً في نصحه كأن قوة نفسه واقتناعه تجسم في عبارته

وانا من رأيه في اكثر ما اورده في مناظرته السالفة عن المرأة والرجل اما في المناظرة الحديثة فمع اقراري لحضرته بالبراعة وسعة الاطلاع والاختبار اتجرأ على ان أخالفه باكثر ما قال . وأصل الخلاف بيننا نقطة واحدة وهي تعريف العلم والمال المذكورين بهذه المسألة . فقد قال حضرته في تعريف العلم «لا نعني بالعلم الاقتصار على الكتابة والقراءة وبعض العلوم الضرورية للهيئة وتدبير المنزل كالحساب وتدبير الصحة بل العلم المتناول العلوم والفنون العليا». وقال في تعريف المال «المراد بالمال ما لم يشترط معه الجهل والرعونة بل المصحوب بما ذكرناه آنفاً» اي الكتابة والقراءة والحساب وتدبير المنزل وتدبير الصحة . فان صحّ هذا التفسير فعندي ان المسألة ليست بذات وجهين لانه متى اقترن العلم بالمال تحوّلت المسألة الى مسألة أخرى وهي «هل تعلو منزلة المرأة بالعلم اكثر ام بالعلم والمال معاً» ولا أظن اثنين يختلفان في هذه المسألة

أما اذا أُريد بالعلم العلم المجرّد عن المال وقصد بالمال المال المجرّد عن العلم

فحينئذ تتخذ المسألة وجهيها الايجابي والسلبي وفي هذه الحالة انصدى منتصرًا للاوّل أي الوجه الايجابي وهو العلم . لأنهُ خيرٌ لي ان تكون زوجتي عالمةً معجبةً بعلمها تلتهي بهِ عني وعن منزلها واولادها من ان تكون غبيةً طائشةً حمقاء لا تعرف ماهية المنزل والزوج والاولاد . استغفر الله انني لا اطيق ولا تهضم معدتي الاثنتين ولكن اذا كان لا بدّ من احدى المصيبتين فاختار الاولى وهي أهونهما بدون جدال

وعرَّف حضرتهُ المرأة المقصودة هنا « بالمعدَّة للزواج القادمة على رئاسة عائلة وتدبير منزل » وهو تعريف حسن في نظرنا فلنسأل ما هي واجبات المرأة في العائلة — يمكن حصرها في ثلاثة :

(١) تربية اولادها (٢) تدبير منزلها (٣) ارضاء زوجها

ثم لنسأل اي يساعد المرأة على اتمام هذه الواجبات فيرفع منزلتها في اعين زوجها والعقلاء . علمها ام مالها . فجوابًا على ذلك العلم والمال معًا . اما اذا كان لا بد من تفضيل احدهما ففي رأينا العلم بدون ارتياب . لان العلم بأنواعه ينير قلب المرأة وعقلها ويدربها ويدلها على سبيلها في تربية الاولاد وتدبير المنزل وارضاء الزوج . أما المال فيزيد ظلامها ظلامًا وربما كان سورًا بينها وبين الحقيقة والواجبات

واسمحوا لي ان ابحث في كل من الواجبات الثلاثة على حدة زيادة في الايضاح

أما في الواجب الاوّل وهو تربية الاولاد فالولد منذ نعومة اظفاره الى بلوغه سن الرشد بل الى موتهِ يتغذى من ثدي امهِ ومن قلبها فمن الاوّل يتناول غذاء لجسمهِ ومن الثاني قوة وحياة لنفسهِ . فهي توحي اليهِ عواطفها واحساساتها وتلقنهُ مع اللبن عوائدها واخلاقها . ورب عاطفة تبثها الام في صدر ولدها بين قبلات الحنو والحب فتصيّر هذا الولد بدلًا وعاطفة يتشرّبها الطفل منها فيصير بها شقياً كبيرًا . وقد اخطأ القائل ان قياد العالم في ايدي المعلمين والمعلمات لان قياد العالم في ايدي الامهات . او تحسب سياسة روسيا الآن في يد القيصر ؟ — كلّا انها في يد القيصرة . وسياسة المانيا اتخالها في قبضة الامبراطور ؟ — كلّا انها في قبضة الامبراطورة . وهلمّ جرًّا . فعلّموا اذًا هؤلاء الزوجات والامهات ان يحسنّ قيادتنا علموهنّ كيف ينفخن روح الفضيلة والاقدام في نفوس اولادنا . علموهنّ كيف يرفعن نفوس اولادهنّ معهنّا واكبادنا الى حب الحقيقة والعدالة ومحبة الله والناس فيكون

زوجاتكم وامهاتكم كما كان الاسبرطيات امهات يقلن لاولادهنَّ حين الحاجة « اذهب بهذا الترس ودافع عن وطنك وحقوقك فاما به واما عليه » ولكن واحسرتاه اين نجد مثل هؤلاء الامهات ؟ — أفي قصور الاغنياء بين الفخفخة والابهة حيث النساء لاهيات بالقصف والبذخ عن واجبات الحياة حيث الهواء يفسدهُ الزحام والاخلاق تفسدها البطالة . حيث الانسان يبتعد شيئاً فشيئاً عن الطبيعة وعن الله ؟ — كلاَّ ان العلم هو الذي يقدم لنا اولئك الامهات وبعد رؤوسهنَّ اللطيفة لحمل تاج العائلة والقيام بوظيفة الام بازاء الاولاد وهي وظيفة يحني امامها الملوك والعظماء وقد خضع لها يوماً الله متجسد بانسان . واما المال فنبها يخص التربية ليس الا واسطة للعلم فالعلم يعمل للمرأة في تربية الاولاد ما لا تقدر ان تعمله كل اموال الارض وان قيل ان بدون المال يعسر تعليم الاولاد وقد تستطيع الام اذا كانت غنية ان تستأجر من يربي اولادها كما يصنع اكثر سيدات الغنيات جهلاً او تكبراً قلنا ان هذا القول يصدق على التعليم ولكننا نحن الآن في صدد التربية لا التعليم . والتربية وعلى الاخص التربية الاولى منوطة بالام وحدها وما من مرضع تقوم مقامها بازاء طفلها في تربيته الاولى فخيرٌ لعائلة بان تكون حافظة كتاباً في حفظ الصحة وكتاباً في التربية من ان تكون تملك نصف كنوز العالم هذا فضلاً عن ان العلم صائر الى المجانية والالزامية في كل البلاد ومتى عمَّ ذلك قلَّ تأثير المال العائلي في تربية الاولاد وتعليمهم

الواجب الثاني : تدبير منزلها

كثيرون هم الذين يحرضون النساء على خلع سلطة الرجال والخروج من منازلهنَّ لمزاحمتهم في اشغالهم . واكثر منهم من يقضون بسجن المرأة بين اربعة جدران ومنعها من كل عمل غير خدمة المنزل واعتبارها خادمة زوجها لا شريكتهُ وما اقل الذين يضعون المرأة في مركزها الحقيقي

واني على كوني اعتقد ان رأس واجبات المرأة واهمها واقدسها هو تدبير منزلها اي تدبير هذا الهيكل المقدس الذي تنمو فيه زهور الفضائل البيتية اقول ان على المرأة في المنزل واجبات غير خدمة المنزل والاعتناء بالمطبخ والاثاث واللباس الخ . وما عساها تكون هذه الواجبات ؟ — هي ملاحظة الآداب بالمنزل وترأس حفلاته وتحيته الى الزائرين . فمن منكم له من بين منازل اصدقائه منزل خصوصي لا يضجر

من زيارته ولو زاره كل يوم ولا يملّ من الاقامة فيهِ ولو اقام فيهِ طول النهار . فليسرح نظره في هذا المنزل فيشاهد ان كل ما فيهِ اعتيادي يمكنه ان يبتاع مثلهُ من السوق ومع ذلك فيرى لهُ قيمة وجمالاً لا يكون لما يبتاعهُ فهل ذلك الا لان اليد التي رتبتهُ ونظمتهُ يدٌ ليس في السوق مثلها ولا يمكن ان يعمل المال عملها وادخل هذا المنزل في ليلة اجتمع فيهِ اصدقاؤهُ ترَ صاحبة تلك اليد الجميلة جالسة الى جانب زوجها كأنها ملكة في مملكتها تلاطف الجميع والجميع يقدمون لها احتراماً يقرب من العبادة . ولا تسمع في هذا المنزل نميمة ولا طعناً ولا ترى فيهِ اشارة او حركة مخلّة باللياقة والحشمة واذا تجرأ أحد على اساءة الادب قولاً او فعلاً فصاحبة تلك اليد مع ضعفها قادرة على ارجاف قلب « ذلك الرجل القادر في كل مكان غير هذه القاعة على ارجاف قلب كل الرجال »

هذا اذا كان لها قوة تساعدها على رئاسة هذه الجمعيات اي اذا كان لها من المعرفة ما يسعفها على فهم مباحثها وابداء رأيها ومن قوة القلب وحب الادب والفضيلة ما يجرئها على معاركة ذلك الرجل الخشن الذي يتجاسر على مس حرمة الادب في منزلها وان لم يكن لها هذه القوة وهذا السلاح فوا أسفاه انها تكون حينئذٍ خادمة المنزل لا ربّتهُ

والآن فلنسأل ما هي هذه القوة اهي المال — كلاّ . اهي العلم — نعم . لان بالعلم تهذيب النفس وترقية القلب وإنارة العقل ومعرفة الحق والواجب . فالعلم لا بد منهُ في هذا القسم من واجبات المرأة ايضاً وقليل منهُ يرفع منزلة المرأة اكثر من كل اموال العالم هذا في نظر العقلاء . أما الجهلاء الحمقى فهؤلاء لا يحترمون الاّ المال وعندهم العلم والادب والفضيلة اسماء لا قيمة لها

أما واجبات المرأة في المنزل من حيث المطبخ واللباس والاثاث والنظافة والاقتصاد والماء والهواء والنور فلا اسلم بان المرأة تستطيع القيام بها كما يجب اذا لم تدرس شيئاً عن الاقتصاد والنظافة والماء والهواء والنور وغير ذلك ناهيك عن ان المطالعة والدرس يرقيان ذوق المرأة ويقويان قوة الاختراع التي هي ضعيفة فيها ويرقيان مواهبها الزوجية والوالدية اي يضاعفان قوتها في ادارة الشؤون البيتية واني اسلم بان العلم وعلى الخصوص التوغل فيهِ قد يشغل بعض النساء عن هذه

الواجبات المقدسة وقد يجعلهنّ يترفعن عنها . وما ذلك الاّ لفساد علمهنّ وسوء تربيتهنّ لان العلم الصحيح والتربية الصحيحة لا ينفيان وظيفة المرأة بل يزيدان المرأة تعلقاً بها وبواجباتها البيتية لانهما يعلمانها ان المرأة لا يجب ولا يمكن ان تكون الاّ امرأة اي زوجة وأما المرأة اذا طلبت العلم فيجب ان يكون لاستخدامه لخير زوجها ومنزلها واولادها . ومع ذلك فاذا جاز لنا ان نلوم بعض السيدات على انشغالهنّ عن منازلهنّ بالدرس والمطالعة فكم يجب ان نلوم السيدات الغنيات اللواتي يشغلن عنها بتلك المسرّات والاباطيل العالمية التي تسم شرف العائلة وادبها وحياتها

الواجب الثالث : إرضاء زوجها

وخلاصة القول اني لا أحسب العلم فقط يرفع منزلة المرأة اكثر من المال بل اخاله من حاجياتها والمال من كالياتها ونريد بالمال هنا مال الزوجة لا مال العائلة لأن الاوّل هو المقصود من المسألة بدون مراء . واحسب الزوجة التي بدون علم يدربها في تربية اولادها وتدبير منزلها زوجةً غير كاملة بل ناقصة قسماً من حياتها ووظيفتها . قلتُ ان المال من كماليات الزوجة بالنسبة الى العلم لأنها اذا كانت على غير مال فلا بد من ان يكون زوجها على شيء منه ليستر به من استدعاها لتكون شريكته وفي هذه الحال فالعلم يرفع منزلتها في اعين الزوج العاقل اكثر من المال لأن لديه من كفاف العائلة ولا يحتاج في زوجته الاّ لعلم وادب يتوليان تدبير المنزل وتربية الاولاد . وان كان لها مال (دوطه) وزوجها غني فهي احوج للعلم منها للمال ما دام زوجها غير محتاج الى مالها . ومالها حينئذ لا يرفع لها منزلة ولا يرفع المنزلة قط الاّ علو النفس وعظمتها . اما اذا كانت ذات مال وكان زوجها فقيراً فهناك البلاء الاعظم والطامة الكبرى لان « كل ما دق الكوز بالجرة » تصيح به افتح عينيك المال مالي وقد اشتريتك بدراهمي . فهل تحسبون هذا علوّاً في المنزلة

والزوجة لا تعجب الزوج العاقل ولا ترضيه الاّ بصفاتها واخلاقها ومقدرتها على تربية اولاده وتدبير منزله وتمهيد سبيل هنائه . ومهما تكن غنية وجميلة فبعد سنة او سنتين من الزواج اي بعد ان يتلاشى آخر طيف من تلك التصورات الخيالية الجميلة ويجيء اوان العمل والقيام بالواجبات الوالدية والبيتية فحينئذ لا يعود يقوم المال والجمال مقام العلم والمعرفة . حتى لو كانت الزوجة تفضل كل نساء العالم غنىً وجمالاً فالزوج

العاقل براها دائمًا غير كاملة اي ناقصة جزءًا من وظيفتها وحبا بها نريد بذلك العلم الصحيح والتربية الصحيحة اللذين بهما يرتفع الانسان الى معرفة الحق والواجب ويتسنى له امتلاك اميالهِ وتدريبها

هذا ما خطر لي طرحهُ على مائدة الادباء مستعينًا بآراء الفلاسفة والكتاب اخص منهم الفيلسوف جول سيمون الفرنساوي الشهير · وقد ترجمت لهذا الفيلسوف العظيم كتابًا في موضوع المرأة عنوانهُ « المرأة في القرن العشرين » وعنهُ اخذت اكثر ما اوردت في هذه النبذة · وقد تكرَّم حضرة المؤلف بمنحي الاجازة بطبع الترجمة فاذا صدرت يرى فيها سيداتنا ما يسوءهنَّ ويسرهنَّ اذا كان يسرهنَّ ذكر فوتهنَّ ويسوءهن التصريح بالحقيقة

(اسكلة طرابلس) « فرح انطون »

٣

حضرة الفاضل منشىء الهلال الاغر

اطلعت في الجزء الثالث عشر من هلالكم الزاهر على مقالة للدكتور امين افندي الخوري في (هل تعلو منزلة المرأة بالعلم اكثر ام بالمال) فرأيت مجالاً للانتقاد على بعض عباراتهِ المنافية للحقيقة فجئت باسطري هذه ارجم بها عن حال المرأة في حالتي العلم والجهل والغنى والفقر بعد التماس المعذرة من حضرتهِ

قال (ان المرأة المقصودة بكلامهِ هي المعدَّة للزواج القادمة على رئاسة عائلة وتدبير منزل) فلننظر في المسألة ولنقابل بين العالمة والغنية ممن اعددن للزواج فنقول

لو نظرنا الى القبائل المتوحشة ومن لم تستنر اذهانهم بنور التمدن المنبعث من شعلة العلم لرأيناهم على جانب عظيم من العتو وقساوة القلب وكلما ابتعدوا عن الحضارة ازدادوا توغلاً في خشونة العواطف حتى قد يأكل بعضهم بعضًا ونرى عكس ذلك في البلدان المتمدنة المستظلة تحت لواء العلم فان اهلها جميعًا رقيقو الجانب دقيقو الاحساس كريمو الاخلاق وذلك يناقض قول من يزعم ان (من نما عقلهُ قلت عواطفهُ ومن نمت عواطفهُ قلَّ عقلهُ) اما ما يتوهمهُ جنابهُ من ان الرجل يحتاج الى المهابة والخشونة لتربية اولادهِ ومعاملة الناس اكثر منهُ الى الرقة واللطف فهو خطأ ظاهر لانهُ باللطف والرقة يستأسر المرء قلوب اصحابهِ وذويهِ ويسود على عقول اولادهِ ويفوز باحترام

قربته . فعزة النفس من طبع الكريم فاذا انت اكرمته ملكته وان ابديت له العجرفة والخشونة احتقرك الا اذا كان لئيماً . والمرأة لا تحتاج الى رقة العواطف اكثر من الرجل لأن الواجبات العائلية المطلوبة منها تستلزم عقلاً ودراية مع الثبات والصبر وذلك لا ينال عن غير طريق العلم . أما رقة العواطف فهي غريزية فيها ولا يستطيع العلم ان ينزعها منها بل هو يزيدها كمالاً ويحرضها على ما فيه النفع لنفسها وللآخرين ولنبحث اولاً في ما هي العالمة

ليست العالمة مَنْ اتقنت القراءة والكتابة ولا التي تعلمت اللغات العديدة او تناولت العلوم العليا لأن هناك مئات والوفاً قضوا معظم حياتهم في المدارس ولم يستفيدوا منها ادباً . فالعلم للعقل كالنار للطبخ اي انه لا ينضج بدونه

فالعالمة هي التي اكتسبت نتائج العلم المقصودة فاذا اكتسبتها لا تزول منها مع توالي الايام واختلاف الاحوال فهي دائماً واحدة مهذبة الاخلاق رابطة الجاش قوية الادراك قادرة على احتمال مكاره الدهر عارفة كيف تقوم بسياسة بيتها وتدبير شؤونها فتكون ملاكاً سماوياً لدى زوجها تعزيه اذا ألمت به مصيبة وتسود على عقول اولادها ايضاً فلا تدع للتأثيرات الرديئة سبيلاً الى اذهانهم بل تصرف معظم جهدها ببث روح الفضيلة في قلوبهم وتثير فيهم حب التقدم فيرضعون منها ألبان التهذيب فيشبون على مبادئها ويتخلقون باخلاقها ثم يسيرون على الخطة التي ارشدتهم اليها وهي مع ذلك لا همّ لها ولا شاغل يشغلها عن الاعتناء بزوجها واولادها تعمل ذلك بسرور عظيم آملة انهم يكافئونها يوماً وقد يتم لها ذلك فان الولد اذا ربي على مهد الفقر المقرون بالتهذيب ينمو فيه حب التقدم ليعوض عما أفقده اياه الحظ من المال الموروث ومتى كان كذلك فهو اقرب الى النجاح منه الى الفشل فاين هذا من قول حضرة الدكتور ان المرأة المتعلمة « كالرجل الابله العبيط » فبالعلم تزداد المرأة جمالاً (حقيقياً) وتكتسب آداباً . بالعلم تفوز بثقة زوجها وتفتخر بمستقبل اولادها بالعلم ترتفع منزلتها لدى كل من يلوذ بها بالعلم تدفع عنها غارات الدهر واخطاره بالعلم تعلم كيف يجب ان تداري صحتها فيظهر رونق جمالها بالعلم والعقل تكون مجلبة السعادة والسرور لعائلتها . أما العاطفة الزوجية فقد تقوى بين العالمة وزوجها بسبب الوفاق بينهما والوفاق لا يتم الاّ بانقياد الواحد للآخر في حال الغضب . ولما

كان الرجل ابعد عن الصبر وطول الاناة من المرأة لما يعانيهِ من المشاق اثناء نهاره فمن واجباتها في اذن الانقياد لهُ ونزع كل ما من شأنهِ ان يجلب الكدر بينهما فاذا لم تكن حاوية للصفات التي ذكرناها كانت غير اهل لذاك المركز الذي خصتها بهِ الطبيعة وبالعكس متى كانت متعلمة مهذبة فهي تستولي على قلب رجلها ويعيشان بالهناء متحدين قلباً وقالباً ولا مجال للمجاملات بينهما كما توهم حضرته فانها اذا احتاجت الى شيء طلبتهُ من زوجها من غير ان تشعر بذل السؤَال اذ سابق حياتهِ يشهد لها بفرط حبهِ وانهُ سيجيب طلبها بطيبة خاطر وفوق ذلك فان المعاملة متبادلة بينهما فهو يتكرَّم عليها بمالهِ وهي تجود باعظم قسم من حياتها لاجل رفاهية عائلتها وبذلك يحق لها ان تبتهج وتعتز بحبها اكثر من افتخار الغنية بمالها التي انما تشتغل عن درس هذه الواجبات في بيت ابيها باتقان الازياء وعلم البيانو وفنون الرَّقص وحضور حفلات الملاهي وتستنكف من القيام بالاشغال البيتية توهماً منها بان هذه الاشغال تختص بالخدم ولكنها لا تخجل من قضاء اوقاتها بما لا يفيد واقلها انها تجلس على كرسيها لا تأتي بحركة تلين بها اعضاءها واذا خرجت من البيت فعلى عربة فلا تمضي مدة وجيزة حتى تضعف قوتها وتذبل زهرة شبابها ومتى تزوجت اطلقت لنفسها العنان وسارت على خطة نظيراتها فينكشف لرجلها النقاب عن جهلها فيحتقرها اذ يراها غير قادرة على القيام بواجباتها العائلية · وكيف يمكنها ذلك وهي لو فرضنا انها متهذبة وعارفة ماهية تلك الواجبات لكان الغنى والبذخ واللهو والفخفخة واتباع الازياء كل هذا ما يشغلها اما ولدها فيربى على ايدي الخدم ويكتسب من اخلاقهم

فمتى شب اخذ في تبذير ما ابقتهُ والدتهُ من المال والنتيجة انهُ يجر بيتهُ الى الخراب فيكون ذلك جزاء لذلك الاب المغرور بالمال فوق ما عاناه من معاشرة امرأة جاهلة كل ايام حياتهِ اذا خاطبها بغير الجمل المألوفة لا تفهم واذا نبهها لخطاء صدر منها قاومتهُ واحتقرتهُ ظناً منها بأنهُ غلبها · اما هو فينظر اليها بحزن وشفقة لا يعلم السبيل الى اصلاحها · ولا يجهل احد حالتهما حينئذ

فأين هذا الشقاء من سعادة العالمة ورجلها اللذين يقضيان اوقات الفراغ بالمباحثات العلمية والادبية واذا وقع بينهما جدال فلا يؤَثر في قلبيهما ولا يقلل شيئاً من منزلة كل منهما عند الآخر

أما زواج العالمة بجاهلٍ فجلبة الشقاء لها طبعاً اذ يقال (اذا اردت ان تقتل العالم فاصحبهُ بجاهل) ولكن لماذا يكون ذلك ولديها وقت كافٍ لاختبار اخلاقهِ وسبر غور معارفهِ فاذا لم تجدهُ اهلاً تركتهُ وشأنهُ والنادر لا يبنى عليهِ قياس

أما الآن وقد ظهر فضل العالمة في بيتها وارتفاع منزلتها بين افراد عائلتها وجيرانها ومعارفها وسوء عاقبة جهل الغنية بقي علينا ان ننظر الى منزلتها في اعين العموم وحينئذ نرى ان الفوز في ذلك للغنية لان اسمها ذائع وذكر غناها شائع واصدقاءها من الدرجة الاولى وذوي المراكز العالية . اما العالمة فقلما يبالي بها سوى من جاورها من ذوي الآداب لان جواهرها محجوبة عن اعين العموم . اما تلك فجواهرها بادية لكل عين وبناء على ذلك نقسم منزلة المرأة الى قسمين عائلية وعمومية فالعائلية منزلة العالمة في بيتها والعمومية منزلة الغنية لدى العموم وهذا اترك الحكم فيهِ لحضرات القراء

(بيروت) « لبيبة ماضي »

٢

حضرة الفاضل منشئ الهلال الاغر

لا يخفى ان العلم حياة النفس ومصباح الاعمال وغاية الآمال وشرف الأمة ورباط الالفة . فهل يليق بنا ان نعد البلاد عامرة والامة متمدنة اذا كانت المرأة فيها غير متعلمة والعلم يزين المرأة بثياب الذكاء والآداب ويكسوها بجمال الاخلاق والطهر والعفاف وينير عقلها ولو كان مظلماً ويقلد عنقها بدراري الفضائل التي تفضل كل زينة وهو يرفع شأن المعيشة البيتية لانهُ يربي في المرأة ذوقاً سليماً لتدبير منزلها وتربية اولادها وتغذية عقولهم بالبان الآداب والتهذيب . والعلم يدوم وذخائره الثمينة لا تبلى واما المال فيزول وخزائنهُ تفنى فلا يجديها المال نفعاً ولا ينفع ذويها اذا انقلب بها الزمان وحلت بها طوارئ الايام وغوائل الحدثان . ثم ان المرأة الغنية غير المتعلمة تكون عرضة لفساد الاخلاق الاَّ نادراً اذ لا تعرف سبيلاً لانفاق مالها ولا تعبأ براحة عائلتها وتدبير مهام اولادها بل تظن ان اهم الامور ملاحظة زينتها الخارجية فتبذل كل مرتخص وغالٍ وتنفق الاموال الطائلة في سبيل التفرغ وتقليد الازياء الجديدة والحضور في المراقص والملاهي والتفنن في زينتها وملابسها ظناً منها انها اكملت بذلك فروض التمدن الحديث ولا يخفى ما في ذلك من الاضرار المادية

والادبية العائدة عليها · وقد تستعين بمالها على نشر ألوية الجهل فتكون قدوة شرّ لمن يراها لأنها تبدد المال اتباعاً لاهوائها النفسانية وتنفقهُ على زينتها وحلاها وتورّطها في وهدة التمدن الحديث التقليدي الذي هو آفة شرقنا الآن · فما هي اذًا مزية المال بين يدي المرأة الجاهلة وكيف تعلو منزلتها به فليحكم القارئ اذًا وليبد رأيهُ اذ المرأة يمكنها بالمال ان تتفرغ وتتزيّا وتتحلى وتتقلد و · · و · · الى آخره وتكلف ذويها النفقات الطائلة في سبيل ما تقدم ذكره ولو ادى بها ذلك الى دك راحة عائلتها ومكابدتها انواع الذل والهوان · اما المتعلمة على مقتضى قانون التعليم المهذبة الاخلاق بالعلوم والآداب فقد تبذل جهدها لارتقاء المقامات العالية في اعين ذويها وتتباهى بان تكسب نفسها الوقار باتباع جانب الاعتدال وتكون الركن العظيم في تدبير المنزل · فاتضح جلياً ان العلم نافع للمرأة اكثر من المال وان لم تكن منافعهُ لاجل الكسب والعمل به فلاجل رفع شأن المعيشة البيتية وترقيتها من اسفل دركات الخمول والانحطاط الى اعلى درجات الراحة والهناء · ومن فوائده ايضاً انهُ يعلم المرأة كيف تقضي اوقاتها دون ان يشوبها كدر او يعتريها ملل ويدرّبها على كل ما يؤول لتحسين حال عائلتها ويدفع ابناءها لتحصيل الفضيلة لانهُ يزرع فيها المبادئ الحميدة والمقاصد الشريفة ويقودها الى حب المطالعة الادبية في ساعات الفراغ وممارسة الاعمال الخيرية عند سنوح الفرص · والمرأة المتعلمة الفاضلة لا تضيع برهة من ايامها في الكلام الفارغ والاحاديث الخرافية الباطلة التي لا تجدي نفعاً ولا تشفي غليلاً بل تصوغ كلامها في قوالب منتظمة مزينة بالفهم ومزدانة بالحكمة · ومن ينكر قول الحكيم القائل ان المرأة الفاضلة اثمن من اللآلي فهي لا تفتح فاها الاَّ بالحكمة وفي لسانها سنة المعروف

(القاهرة) « عنيفة أظن »

(الهلال) وقد وردت علينا رسائل اخرى في الرد على صديقنا الدكتور امين افندي الخوري نذكر منها ثلاثة لحضرات الادباء البارعين رزق الله افندي شحاته باسبوط وخليل افندي يدس والياس افندي ميض بحمص وردت متأخرة ولما كانت ترجع في مؤداها الى فحوى الرسائل التي نشرت في هذا الهلال تخوفاً من التطويل وطمعاً بحلم حضرات المراسلين اكتفينا بالاشارة اليها وجئنا نلتمس من حضراتهم عذرًا على ذلك والعذر من شيم الكرام

سبب الذكورة والأُنوثة

حضرة الفاضل منشىء الهلال الاغر

طالعت في هلالكم الاغر كلاماً تحت عنوان الذكورة والانوثة . وهناك تطلبون ممن لهم رأي في هذه المسألة ان يكتبوا اليكم لتدرجوا افكارهم في الهلال . وبما اني منذ سنين وجهت فكري الى هذه المسألة حتى وصلت الآن الى نتيجة اظنها جديرة بالملاحظة والامعان . فأعرضها لديكم حتى اذا استحسنتم درجها فلعلها لا تخلو من فائدة

من المحقق ان جرثومة الجنين تكوَّن في الابوين معاً اي في الاب الخويط المنوي وفي الام البويضة . ومن اتحاد هذا الخويط بهذه البويضة يتأسس مبدأ الجنين فيكون اما ذكراً من جنس الخويط واما انثى من جنس البويضة . فالسؤال لماذا وكيف يكون تارة هذا وتارة ذاك

من التأمل ومن بعض الملاحظات توصلنا الى فرض ان الذكورة او الانوثة متوقفة على زيادة صحة وقوة احدى تينك الجرثومتين اللتين باتحادهما يتأسس الجنين على صحة وقوة الاقوى منهما . اي متى كان الخويط المنوي الذي هو من الاب اصح واقوى من البويضة التي هي من الام كان المولود ذكراً والعكس بالعكس . فهذا الفرض يقبله العقل بسهولة لما فيه من امكان القياس على انهُ لا يجوز القطع به ما لم يثبت للعيان لدى التجربة والفحص الدقيق وذلك لما في الطبيعة من الغموض احياناً ومخالفة ما يتبادر منها الى الذهن لما يدرك بعد التمحيص والتدقيق والتروي في كثير من مسائلها

كنت الاحظ هذه القضية في الحيوانات فرأيت ان الاناث السمينة منها والقوية والمعتنى بها وغير المنهوكة بالتعب كانت تزيد الاناث في مواليدها على الذكور وربما لوحظ مثل ذلك ايضاً في البشر . وواضح ان زيادة التمدن ورفاه المعيشة تزيد نسبة الاناث في المواليد على الذكور وذلك بيّنٌ في نتاويم المواليد . ومن حيث ان رفاه النساء يزيد على رفاه الرجال بالنسبة الى زيادة التمدن فالقارئ لا يحوجنا الى زيادة ايضاح لاستخراج النتيجة المطابقة للفرض السابق

ذكره . ولي ملاحظات جزئية غير ما ذكر لا اقتضاء لذكرها

فبناء على هذه الملاحظات مع اعتبار الفكر الذي طرأ على بالي افتكرت منذ عدة سنين بطريقة دوائية تؤثر في احدى تينك الجرثومتين لاجراء الامتحان فظننت انهُ اذا استعمل دواء يقوي العضو الذي يكوّن الجرثومة فلربما قوّى الجرثومة نفسها لان العضو القوي بالقياس ينتج افعالاً قوية وعليهِ فقد جهزت دواء يقوي الاعضاء المجهزة للباه واستعملته لحد الآن نحو عشرين مرة لاشخاص كانت مواليدهم اما كلها اناث وهو القليل واما تغلبت الاناث فيهم وهذا اكثر فكانت النتيجة انهم ولدوا ذكوراً الاَّ في شخص واحد ارسلت اليهِ الدواء ببلد بعيد فسمعت انهُ ولد لهُ انثى ولكني لم اعلم هل استعمل الدواء في وقتهِ ام بعد ان فات عليهِ الميعاد اللازم لاني لم اخابره بعد ذلك

فبناء على هذه النتيجة قد رجحت صحة الفرض السابق الذكر لكنني لم اقطع بهِ لاسباب منها اولاً . ان الاستقراء غير كاف لا سيما لان امتحاني في جهة واحدة اي في الذكورة فقط لغاية تذكير المواليد اذ لا يتيسر لنا الامتحان في الجانب المقابل لانهُ اذا صح الفرض كانت النتيجة مكروهة اذ ان الشرقيين يفضلون الذكور على الاناث ولم أرَ احداً من الذين لا يلدون الاَّ ذكوراً يتفضل ان يستعمل واسطة ليولد لهُ اناث ثانياً . بينما كنت ادرس طبائع النحل وجدت ان بيضة اذا كان ملقحاً (أي اذا كان الجنين مؤسساً من بزرة الاب و بزرة الام معاً) نقف البيض عن اناث بدون استثناء واذا لم يكن ملقحاً (اي من بزرة الام فقط بدون اب) نقف عن ذكور بدون استثناء . فهذه القضية تنافي صحة ذلك الفرض ولو انتبهت اليها قبل اجراء الامتحان السابق ذكره لضعف او بطل املي بصحتهِ لما يظهر فيها من المناقضة ولكن بما اني كنت قد جرّبت الدواء المذكور عدة مرّات قبل ذلك وكانت النتيجة حسب ظني السابق فلم اكترث بمدلول قضية النحل بل بقيت جارياً في امتحاني حتى لا ارفض ذلك الفرض ولا اثبتهُ الاَّ بالبرهان الحي ولحد الآن ارى النتيجة واحدة اي انها موافقة لما ظننت اولاً فعلى ذلك يبقى ترجيحي صحة ذلك الفرض . ولا انفك اكرّر امتحان هذا الدواء كلما لاحت لي فرصة ما دامت النتيجة حسنة لا سيما لكون الدواء مفيداً لكل من استعملهُ في صحة عموم جسمهِ فسواء اتى بالفائدة المستعمل لاجلها أم لم يأت فلا يذهب سدًى . وارغب الى من شاء ان يمتحن هذا الدواء ان يكتب اليَّ فارسلهُ اليهِ واعرفهُ عن

طريقة استعماله حتى اذا تكرر الامتحان وتمّ الاستقراء تبين صحة هذه القضية او بطلها فاما ان تبطل ونبقى في مكاننا منها واما ان تثبت فيكون منها فائدة عظيمة للانسان اذ يقدر ان يتحكم في جنس ذريته. الاّ اني اخشى اذ ذاك ان تبطل الدوطة وان يرتقي المهر الى حدٍ فاحش. لكن لا بأس اذ يرتفع مقام المرأة في الشرق

(السلط. سوريا) « الدكتور ابراهيم الصلدي »

معمّى

لحى المهيمن من امسى واصبح في شغل بعذليّ فمن يشبه القمرا
ومن اذا زار خلي قال واصلة مكلّلاً بلآلٍ تزدري الدررا

(محمد زكي الدين سند)

« أحد اساتذة المدرسة اليسوعية بمصر »

باب السؤال والاقتراح

الحماية الأجنبية

(مصر) احمد. بك. ق

للدخول تحت الحماية الاجنبية مثل الدولة البريطانية او الفرنساوية شروط على الداخل فما هي وما مقدار الذي يدفعه الشخص كل سنة وهل يمكن لمن دخل فيها الانسحاب منها وهل الحماية تنحصر في الشخص او تشمل اقاربه واهله

(الهلال) تختلف شروط الحماية باختلاف الدول ولكن الغالب فيها انها لا تقبل داخلاً في حمايتها الاّ اذا نال اذناً رسمياً من دولته يدل على رضائها بذلك

أرمانوسة المصرية (تابع ما قبله)

فدعاه فلما دخل تحققت انهُ الرسول الاوَّل بروفس فقالت ما وراءك فسلم ودفع اليها كتابين فتناولتهما وقد علمت ان احدهما من المتوقس الى بوقنا والآخر من بوقنا الى ارمانوسة فاخذتهما ودخلت على سيدتها فاذا هي لا تزال غارقة في بحار الهواجس فلما دخلت بربارة ذعرت والتفتت اليها كأنها تقول لها ما خبرك فاذا ببربارة مرتبكة والدموع ملء عينيها وهي تحاول اخفاء الكتب فادركت ارمانوسة ارتباكها فعاجلتها بالسؤال عما في يدها فقالت وقد شرقت بدموعها ليس في يدي شيء يا مولاتي

قالت قولي يا بربارة ما في يدك افصحي ألعلَّ الرجاء قد انقطع . قالت لا لم ينقطع الامل يا سيدتي فان اتكالنا على الله وحده وهو قادر على انقاذنا من مخالب الموت

قالت ما هذه الكتب هل جاء الجواب من والدي قولي ولا تظني اني كنت انتظر فرجاً منهُ

قالت نعم هو جواب والدك

قالت وأين كتاب اركاديوس

فأطرقت ولم تجب

فازداد ارتباك ارمانوسة وعظم قلقها وألحت على بربارة قائلة ألم يرسل أركاديوس كتاباً

قالت لا ياسيدتي ولكنهُ سيبعث قريباً

فلم تفهم مرادها فامسكتها بيدها وقالت كيف لم يجب العلهُ هجرني وتخلى عني

قالت كلاَّ يا سيدتي ولكن الرسول لم يرهُ في الحصن وسلم الكتاب الى صديق لهُ ليسلمهُ اليهِ حال رجوعهِ

فاستلقت ارمانوسة اذ ذاك على المقعد واوغلت في البكاء فخافت بربارة ان تطلعها على كتاب بوقنا لئلاَّ تزيد يأسها فوقفت ساكنة لا تبدي حراكاً ولكنها جعلت تفكر في حيلة تخفف بها عن سيدتها فلم ترَ وسيلة الاَّ ان جثت الى جانب سريرها واخذت تقبل يديها وتقول لها تجلدي يا سيدتي فان الله قادر على ان يأتينا بالفرج القريب

ولبثنا برهة في ذلك فاذا بقارع يقرع الباب وجاء بعض الخدم ينادي بربارة من الخارج فنهضت ومسحت دموعها وخرجت فقيل لها ان الحاكم يلتمس مقابلتك

فذهبت اليه فوقف لها وقال قد علمنا بامر مولانا المقوقس بتسليم السيدة ارمانوسة ليوقنا صاحب هذا الجند وقد بعث اليّ هو الآن يستعجلني في طلبها ولا يمكنا دفع أمر مولانا قسطنطين كما تعلمين فهل استعدت السيدة ارمانوسة للذهاب

فقالت بربارة على الفور انها مسرورة لما تمّ لها من هذا الامر ولكنها لا تستطيع الخروج اليوم لانحراف ألمّ بصحتها فاستمهل الرسول الى الغد

قال حسنًا ولكنني قد امرت الجند بالاستعداد للاحتفال اللائق بمقامها فربّما القصر واخذنا في اعداد كل ما يلزم للاحتفال قياما بواجب العبودية لسيدي المقوقس

قالت بارك الله فيك ونطلب اليه تعالى ان يعافيها لتستطيع الخروج غدًا

فعادت بربارة وهي لا تدري كيف تبلغ الخبر الى سيدتها

وكانت ارمانوسة كلما سمعت صوتًا او طرقًا اضطربت حواسها لشدة تأثرها فلما سمعت طرق الباب وعلمت بخروج بربارة ظنت تنتظر خبرًا جديدًا فلما عادت بربارة ابتدرتها بالسؤال عما حصل فحاولت مغالطتها فلم تقنع منها ارمانوسة بغير الواقع فلما رأت اصرارها على معرفة الحقيقة قالت لها اجلني يا سيدتي لاطلعك على جلي الخبر ولكني ارجو منك ان تتمسكي بالحزم وتتعلقي باذيال الصبر كما هو دأبك فان اهل مصر ما برحوا يتحدثون بتعقلك وثباتك ودرايتك فلا تطلقي لعواطفك العنان لئلاّ تزيدي الخرق اتساعًا فنكون في شرّ فنقع في اعظم منه

فقالت ارمانوسة لا تذكري التعقل والحزم فان عواطفي غلبت كل تعقل وحزم ولا أراني قادرة على ضبط عواطفي ولكن كملي ماذا تريدين مني

قالت اريد منك ان تتزملي بالحزم وتتمسكي بالصبر وتصغي لما اقوله لك

قالت قولي

قالت اعلمي يا مولاتي ان سيدي والدك قد امر بان تذهبي مع يوقنا وهذا ارسل رسولة الى الحاكم فاعدّ معدات الاحتفال بخروجك اليه اليوم ولكنني صبرته الى الغد بدعوى انحراف صحتك . وسيدي اركاديوس لا بد من ان يكون قد وصله كتابي واذا لم يصله فانه يسمع خبر يوقنا ومهمته من والدك او أحد اتباعه او من

سيدي ارسطاليس لانهُ صديقًا لهُ ولا اشك انهُ حالما يسمع الخبر يأْتينا على جناح السرعة وهو يتكفل بانقاذك والامر عند ذلك راجع اليهِ فاذا لم يستطع انقاذك فالملك قسطنطين ابقى لك

فلما سمعت ارمانوسة اسم قسطنطين ارتعدت فرائصها وقالت لها لا تذكري اسمهُ ان النار احسن عندي من جوارهِ

قالت لا اقول ان تفضليهِ على البطل اركاديوس ولكنني اريد ان تمسكي الحبل من الطرفين واخشى اذا صرحت بعدم رضائك بقسطنطين وامسكت عن العمل برأْيهِ ان يغضب عليك وربما اخذك بالعنف وقد يتفق ان لا يأْتينا اركاديوس على عجل او يأْتي ولا يستطيع الدفاع عنك فماذا تكون النتيجة . اما اذا اظهرت القبول بامر قسطنطين وسرت الى معسكر بوقنا فاننا نطاول ونطلب اليهِ الانتظار هنا مدة ونبعث رسولاً مستعجلاً الى سيدي اركاديوس بجلية الخبر صريحًا فلا يمضي يومان او ثلاثة حتى يأْتي لانقاذك هذا ما اراه والامر لسيدتي

فبهتت ارمانوسة تتفكر بما سمعتهُ من بربارة فاذا هو عين الصواب ولكن العواطف كانت تمسكها عن الاقرار بافضليتهِ فلم تجب

فقالت بربارة ما بال سيدتي لا تجيبني على ما ذكرتهُ لها

قالت انظري يا بربارة اني أثق بدرايتك واخلاصك وثوقًا تامًّا وهذا امر لا تجهلينهُ ولكنني لا اراني قادرة على العمل بهِ وهل تحسبينني اذا عجز اركاديوس عن انقاذي ارضى بقسطنطين . اني وحب اركاديوس وما لهُ من المنزلة في هذا القلب اذا تحققت وقوعي بيد قسطنطين وقنطت من اركاديوس لا شيء يشفي غليلي الاَّ الطعن بهذا الخنجر . قالت ذلك واستلت خنجرًا مرصعًا كانت قد خبأَتهُ بين اثوابها

فذعرت بربارة عند مشاهدتها الخنجر وقالت ما هذا يا مولاتي أَالملك تكلمين الصدق

قالت هذا هو الصدق بعينهِ يا بربارة ولكنني اعدك اني لا اقدم عليهِ الاَّ اذا تحققت وقوع المقدور واظنك عند ذلك تكونين اكبر مساعد على قتلي لان فيهِ خلاصي من عذاب دائم

فحاولت بربارة ان تأْخذ الخنجر منها فلم تستطع ولكنها اخذت منها عهدًا ان لا

نعمد الى الاضرار بنفسها الآ بعد نفاذ كل حيلة فوافقتها بربارة على نية ان تستغفلها وتسرق الخنجر من اثوابها في وقت آخر

أما يوقنا فقد علمنا انه كان حاكماً على حلب من قبل هرقل امبراطور الرومانيين فلما فتح المسلمون الشام وحلب تظاهر بالاسلام وسمى نفسه عبد الله وقام لنصرتهم وهم بين معتقد باخلاصه ومرتاب به ولما عزم عمرو بن العاص على فتح مصر سار برفقته متظاهراً بنصرته وكان عالماً بخطبة قسطنطين لارمانوسة فحدثته نفسه ان تكون ارمانوسة عند فتح مصر غنيمة له وكان يسمع بجمالها فاضمر ذلك في باطن سره حتى اتى الفرما وهو يعتقد ان عمراً سيفتح البلاد لا محالة ولا بد من وقوع ارمانوسة في جملة الغنائم ولكنه خاف ان يسبقه اليها احد فعمد الى الحيلة فزوّر كتاباً عن لسان قسطنطين يطلبها كما قدمنا ثم جاء بنفسه الى بلبيس وترك جند عمرو مشتغلاً بحرب الفرما على نية ان يتمكن بحيلته هذه من الذهاب بارمانوسة بعد القبض عليها قبل وصول عمرو الى بلبيس وكان يظن ان عمراً سيمكث في الفرما زمناً طويلاً فلما جاءه كتاب المقوقس بموافقته على حمل ارمانوسة بعث برسوله يطلب مجيئها اليه كما رأيت وبعث الى حاكم المدينة ان يسرع في ذلك فاجابه ان السيدة ارمانوسة مريضة فعوّل على ان ينتظر شفاءها ولكنه علم تلك الليلة ان عمراً قد فتح الفرما ولا يلبث ان يأتي بلبيس فخاف اذا ابطأ هو بالقبض على ارمانوسة ان تذهب حيلته ضياعاً فارسل في صباح الغد رسولاً الى الحاكم شديد اللهجة يطالب فيه بسرعة الخروج بارمانوسة في ذلك اليوم وانه اذا ابطأ في اجابة طلبه عمد الى القوة

فبعث الحاكم الى ارمانوسة حالاً واطلعها على طلب يوقنا فاتفق رأي بربارة وارمانوسة ان تخرجا الى معسكر يوقنا على نية ان تستمهلاه بضعة ايام قبل السفر ولم تعلما بما عزم عليه من الاسراع

فأقيم الاحتفال وخرج الحاكم بارمانوسة من قصره بالشموع والصلبان واصطفت الجنود على الطرق وصدحت الموسيقى ورتل المرتلون واخرجوها كما يخرجون العروس المزفوفة الى عريسها فسارت ارمانوسة تجر ذيل ثوبها وبربارة الى جانبها والقسوس امامها بالملابس الرسمية والمباخر والصلبان حتى خرجوا من المدينة فاذا يوقنا قد خرج من معسكره برجاله متظاهراً بالاحتفاء بها حتى اقترب منها فاخذها بيدها وادخلها

الى خيمة خاصة بها فدخلت وتظاهرت بالتعب والضعف فتركوها في الخيمة مع جواريها وبربارة وتركها الحاكم بعد ان ودعها وعاد برجاله ومكثت في في الخيمة وانفردت ببربارة وقد اسودت الدنيا في عينيها وعظم الامر عليها وقد خيل لها انها اصبحت في القنص ولم يعد لها مناص منه

ولكن بربارة كانت تعزيها بأنها ارسلت رسولاً مستعجلاً الى اركادبوس وانه سيكون هناك بعد يومين ثم لم تمض برهة حتى سمعت ضوضاء خارجاً فخرجت بربارة فاذا بيوقنا قادم بنفسه وقد لبس الثياب الرومانية وتظاهر برومانيته

فطلب مقابلة ارمانوسة فاذنت له فدخل فحالما رأته تشاءمت بمنظره وخصوصاً لأنه رسول قسطنطين ولكنها تجلدت وتظاهرت بالضعف والتعب وكانت مستلقية فجلست فجلس بين يديها متظاهراً باللطف والايناس وقال كيف تشعر سيدتي ارجوان تكون في خير

قالت لا ازال اشعر بالضعف

قال وقاك الله من كل شر يا سيدتي وها اني احمل اليك سلاماً واكراماً من مولانا ابن الامبراطور

فلم تجبه فحمل منها ذلك محمل الحياء وهو لا يعلم بمكنونات قلبها

فقال لها ارجوان تحسن صحتك قريباً باذن الله وخصوصاً متى خرجت من ضواحي المدينة

قالت ولكنني لا استطيع الركوب والسفر قبل مضي بضعة ايام

فقال ولكنني ارى الاسراع في المسير اولى لأن سيدي ابن الامبراطور ينتظر قدومك بفروغ صبر بمراكيه وقد اعد لك كل ما تقرّ به عيناك

فامسكت عن الجواب وهي لا تدري بماذا تجيب فلاحظت بربارة التغير في وجهها فابتدرته بالجواب قائلة . ألا ترى يا سيدي ان سيدتي ارمانوسة خائرة القوى لا تستطيع الركوب

قال ولكنها ستحمل في الهودج على اكتاف الرجال فلا تشعر بشيء من التعب

فقالت ولكن حر الطريق قد يضر بصحتها كما لا يخفى على فطنتك

فقال وهل تظنين ذلك قد فاتنا ادراكه فاننا اعددنا للسيدة ارمانوسة

هودجاً تظلله المظلات من ريش النعام وهو بافخر ما يكون من الزينة . تعالي انظريه

ثم نهض وخرج بها خارج الخيمة فرأت الهودج والرجال تحمله ونظرت الى الجند فاذا هم آخذون في تقويض الخيام والتأهب للرحيل فتحققت حبوط مسعاها ونفاد حيلتها وذهاب الامل ضياعاً فاغر ورغت عيناها بالدموع ولكنها امسكت نفسها خيفة ان يظهر ذلك عليها وعادت الى الخيمة مع بوقنا صامتة فأتم هو حديثه قائلاً ها ان خادمتك قد شاهدت الهودج بنفسها معدًّا لحملك فاذا اذنت مولاني فلتكن مستعدة للسفر في اصيل هذا اليوم

فلما سمعت ارمانوسة ذلك ارتعدت فرائصها فقالت لا استطيع السفر في هذا اليوم

قال قلت لحضرتك ان كل شيء معد لسفرك بكل راحة وقد امر مولانا قسطنطين ان اسرع بك اليه ولا استطيع مخالفته

فقالت ولكنني لا استطيع السفر وانا ضعيفة فامهلني يومًا او يومين واجرك على الله

قال لا يمكنني الانتظار ساعة واحدة ولا فائدة من الاخذ والرد بهذا الشأن

فتحققت ارمانوسة عند ذلك ان الساعة قد اتت وان وقت الانتحار حالما صممت عليه شعرت بأنها يجب ان تبذل كل ما في وسعها قبل مباشرته فتجلدت وقالت لا ارى موجباً لهذا الاصرار وانا بين يديك مريضة كما ترى اجمل لك ان تعجل عليّ

فحملق بوقنا بعينيه وقال قلت لك لا فائدة من الكلام وها اني خارج للتأهب وسأعود اليك بعد قليل لحملك والسلام

قال ذلك وخرج وبقيت بربارة وارمانوسة في الخيمة منفردتين فالتفتت ارمانوسة قائلة وما رأيك الآن يا بربارة الم يئن وقت الانتحار قالت ذلك ومدت يدها الى خنجرها وكانت بربارة لم تستطع سرقته بالامس فرمت بنفسها عليها وامسكت يدها قائلة لا اصدق يا مولاتي ان يدك اللطيفة تستطيع قتل النفس ألا تعلمين يا سيدتي انك ترتكبين جريمة القتل بذلك

فقالت ان موتي وهلاكي في اسفل الدركات خير لي من استبدال اركاديوس حبيبي بـ . . . . . قالت ذلك وخنقتها العبرات ثم أغمي عليها فاسرعت بربارة الى

الخنجر فاخذتهُ وخرجت لتنادي بعض الجواري ليساعدنها برش الماء واذا بوقنا قد اسرع الى الخيمة ليرى ماذا حصل فجاؤوها بالماء ورشوها فافاقت فرأت بوقنا امامها وقد تأثر لما شاهد من جمالها وقد ذبلت عيناها وتكسرت اهدابها من كثرة البكاء ولكنهُ ما زال يتهددها مصرًّا على الذهاب بها في ذلك اليوم

الفصل السادس والعشرون

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ✻ فرجت وكنت أظنها لا تفرجُ

وفيما هم في ذلك اذ دخل عليهم احد رجال بوقنا وخاطب سيده يستأذنهُ بدخول رسول قادم من الامير عمرو بن العاص فبغت بوقنا للحال وأذن لهُ بالدخول فدخل فاذا هو بلباس السفر وقد علاه الغبار وعلى رأسهِ كوفية وعصابة فحيًّا بوقنا ودفع اليهِ كتابًا ففضهُ وقرأه وقد بهتت ارمانوسة وبربارة وهما تنظران الى الرسول وتتأملانهِ وترجوان خيرًا من قدومهِ ثم نظر اليها وحيَّاها وأومأ بيده لارمانوسة كأنهُ يريد تنبيهها وسلَّم على بربارة فتأملتهُ فاذا هو مرقس فاشارت الى سيدتها وهمست في اذنها انهُ مرقس رسولها فالتفتت اليهِ ارمانوسة فآنست في وجههِ امارات البشر ونظرتا الى بوقنا وهو يقرأ الكتاب فاذا به قد تغير لون وجههِ وصار الرق يرتجف بيده من شدة التأثر وما أتمَّ قراءتهُ حتى ظهر عليهِ الارتباك ووقف برهة صامتًا ينظر الى الكتاب كأنهُ يقرأه ولكنهُ كان غارقًا في بحار الهواجس

ثم تظاهر بالتجلد وقال لمرقس كيف فارقت الامير قال فارقتهُ وقد اقلع من الفرما قادمًا الى بلبيس فاسرع بوقنا في الخروج ولم يلتفت الى ارمانوسة ولا الى غيرها

أما ارمانوسة فانها توسمت بمجيء مرقس خيرًا وقالت لهُ ما الذي جئت بهِ يا مرقس وما الذي اوجب غيابك

فتقدم اليها وقبل الارض بين يديها قائلاً قد جئتك بالفرج يا مولاتي واما تأخري فقد كان بقضاء منهُ تعالى ثم اراد ان يحكي لها حكايتهُ فخاف ان يسمعهُ بوقنا فكلمها بالقبطية قائلاً علمت بخيانة هذا الرجل وانهُ قادم بدسيسة الى سيدتي ارمانوسة متظاهرًا بامر قسطنطين وما هو مرسل منهُ ولكنهُ جاء من عند نفسهِ غادرًا أما الكتاب الذي

جئت به الآن فهو من عمرو بن العاص امير العرب القادمين لفتح هذه البلاد يتهدده به ويأمره ان لا يتعرّض لك بسوء

فرفعت بربارة يديها نحو السماء قائلة نحمد الله على ما اتانا من الخير على يدك يا مرقس فانك لتستحق اكبر مكافأة على هذه الخدمة والمستقبل بيننا

أما ارمانوسة فلم نعد نعلم كيف تشكره على ان علو مكانتها امسكها عن كثرة الاطناب به ولكن ظواهر الامتنان كانت تتجلى على وجهها

فقالت له بربارة اخاف ان يحمله غيظه على الاسراع في اذيتنا انتقاماً منا

قال لا اظنه يجسر على الاتيان بحركة بعد هذا الكتاب فانه يتهدده به تهدداً شديداً اذا مسّك باقل سوء ولا اظنه الاّ مبادراً الى الفرار حالاً وها انى ذاهب لاستطلاع الخبر فكونا في اطمئنان وراحة والاتكال على الله . قال ذلك وخرج

فتقدمت بربارة الى سيدتها وقبلتها قائلة الحمد لله يا سيدتي ها ان باب الفرج قد فتح فلنشكر الله

فقالت ارمانوسة لا ازال خائفة يا بربارة وما أدرانا ان العرب صادقون في معاملتنا وربما اذا تخلصنا من شر وقعنا بهم في شر اعظم

قالت ثقي يا سيدتي بالعرب فانهم اذا أمنوك فانت في امان مع ما نعلمه من مخابرة سيدي والدك لهم وعلى كل فان الامر لله فخففي الآن ما بك واتكلي على الله

أما مرقس فخرج من الخيمة فاذا بيوقنا ورجاله يحملون احمالهم وقد ركب بوقنا جواده وركب رجاله وكانوا مستعدين للرحيل قبل مجيء مرقس كما قدمنا

فعاد مرقس بلهفة يبشر ارمانوسة بفرار بوقنا برجاله وهم جماعة كبيرة فقالت فليذهب الى جهنم

ثم خرجت بربارة فاذا بالمكان قفر وليس حولها الاّ بعض الاحمال التي تركوها سهواً للهفتهم وسرعتهم وقد امعنوا في عرض البر حتى كادوا يتوارون عن النظر فنادت بربارة سيدتها فخرجت وهي لا تصدق انهم فرّوا فرأت المكان خالياً لولا خيمتها وخيمة جواريها

فقالت يا مرقس أرى رجلاً بلباس عربي جالساً على تلك الاكمة فمن هو قال هو يا سيدتي رسول من الامير عمرو الى سيدي والدك وسأحكي لك حكايته بعد ان نطمئن

« ستأتي البقية »

الهلال

الجزء السادس عشر من السنة الرابعة

(١٥ ابريل (نيسان) سنة ١٨٩٦) (٢ القعدة سنة ١٣١٣) (٣ بارمودة سنة ١٦١٢)

اشهر الحوادث واعظم الرجال



محمد علي باشا الكبير

فاتح السودان المصري

السودان المصري

(٢) تاريخه

ذكرنا في الهلال الماضي ملخص جغرافية الاقطار السودانية وارفقناها بخريطة توضح اقسامها وتبين الابعاد بينها وسنذكر في هذه العجالة خلاصة تاريخ تلك الاقطار من اوّل عهدها الى الآن على قدر ما يسمح به المقام فنتقدم الى القارئ اللبيب ان يستعين في تفهم ذلك بالخريطة المشار اليها

كان يسمى السودان في عهد التاريخ القديم اثيوبيا وهو اسم بلاد الحبشة الآن على انهُ كان يشمل الحبشة والسودان والنوبة معاً وذلك من الادلة على وحدة اصل هذه الامم منذ القديم. فسكان السودان الاصليون كلهم او معظمهم جاؤوها عن طريق الحبشة فهم من نسل كوش. وقد كان في السودان على عهد الفراعنة المصريين دول نبغ منها ملوك عظام افتتحوا الديار المصرية وتولوا اعمالها ونالوا القابها خمسين سنة (٧١٥ — ٦٦٥ ق م) اعظمهم اربعة عرفوا بالعائلة الخامسة والعشرين الاثيوبية ثم رجع الحكم الى الملوك المصريين (راجع تاريخ مصر الحديث الجزء الاوّل)

وكان اهل السودان أُمماً يعبدون الاوثان حتى اذا دخلت الديانة المسيحية الديار المصرية في القرون الاولى للميلاد امتدت منها الى النوبة وما وراءها وكانت السودان تحت سيطرة الدولة الرومانية اثناء تسلطها على وادي النيل

فلما ظهر الاسلام وقدم عمرو بن العاص لفتح مصر كانت السودان مستقلة باحكامها فارسل عمرو عبد الله بن سعد بن ابي سرح ففتح النوبة ولم يتجاوزها وقلما حاول المسلمون فتحها بعد ذلك الى زمن المغفور لهُ محمد علي باشا الكبير كما سيجيء

ولكن الجنس العربي قديمٌ في السودان واللغة العربية كثيرة الانتشار فيها والسواد الاعظم من اهل السودان يعرفون بالقبائل على مثال قبائل العرب في جزيرتهم مع ان سكان السودان الاصليين كوشيون كما قدمنا. فمتى توطن العرب السودان وكيف. وجواباً على ذلك نقول

لا يخفى ان بين جزيرة العرب وحدود السودان الشرقي البحر الاحمر فلا يبعد ان بعض العرب هاجروا في زمن جاهليتهم فقطعوا هذا البحر واقام بعضهم على سواحله

الغربية وتوغل بعضهم في داخليتهِ فعمروا بعض اصقاعهِ ولعل في التشابه بين اسماء قبائل السودان القديمة وقبائل جزيرة العرب القديمة ما يدل على ذلك مثل قبيلة سبا التي ما زال المؤرخون حتى الآن يبحثون في شأنها وفي حقيقة ملكة سبا التي زارت الملك سليمان هل هي من سبا العرب او من سبا اثيوبيا على ان ذلك كلهُ تخمين لا يعتمد بهِ لانهُ لم يترك أثرًا باقيًا يدل عليهِ

واما عرب السودان فاكثرهم بقية فئة من العرب هاجرت الى السودان بعد الاسلام في القرن الثاني للهجرة وذلك ان العباسيين لما تغلبوا على الامويين بالشام واخرجوا الملك من ايديهم سنة ١٣٢ ﻫ قتلوا زعماءهم وكبار قوادهم وشددوا الوطأة عليهم فاخذ الامويون ومن والاهم بالفرار والمهاجرة جماعة بعد جماعة الى سائر انحاء العالم فجاء جماعات منهم الى السودان عن طريق البحر الاحمر وبعضهم عن طريق مصر وآخرون عن طريق المغرب وقد اشتدت سواعدهم بما اعتادوهُ من السلطة والنفوذ في سوريا والعراق فلم يلقوا من يعارضهم في مسيرهم فاقامت فئة كبيرة منهم في جهات سنار على ضفاف النيل الابيض وكان اهل تلك الاصقاع زنوجًا اكثرهم من قبيلتي الفونج والهمج فتسلط العرب عليهم رويدًا رويدًا وعلموهم الاسلام فاعتنقوا الديانة الاسلامية وتعلموا اللغة العربية

على اننا قلما نعلم شيئًا عن احوال تلك الامم قبل العصور الاخيرة واسم بني امية لم يبق لهُ أثر بين القبائل العربية هناك فغلب على سكان سنار وما يليها اسم الفونج والهمج وغيرهما . واقدم ما وصلنا من تواريخهم واخبارهم انهم كانوا قبائل متفرّقة يحكم كلًّا منها شيخ او امير مستقل حتى اذا كانت سنة ١٤٩٣ م ظهر بين مشائخ تلك القبائل شيخ اسمهُ عماره دنكاس تغلب على سائر بطون الفونج وادخلها في حمايتهِ واسس مملكة سنار وكان في جملة القبائل القوية هناك قبيلة (كري) شرقي النيل الازرق عليها رئيس اسمهُ عبد الله جمعه الكرياني فاتحد مع عماره وغزوا كل البلاد الواقعة بين الخرطوم وفيزاوغلي وافتتحاها كلها وكان سكان تلك البلاد من اهل النوبة فاقام بعضهم تحت ربقة الفتح وهاجر البعض الآخر الى جبال كردوفان فالذين اقاموا اعتنقوا الاسلام واختلطوا بالمتغلبين ففقدوا جنسيتهم ولغتهم وصاروا قبائل عرفت باسماء بعض قبائل جزيرة العرب وغيرها مثل قبائل كنانة وربيعة وقحطان والكواهلة وجهينة وبني شكر

وبني زيان وغيرهم ومنهم تفرّعت أو تألفت القبائل الحالية كما سيجيء.

والذين هاجروا اقاموا في كردوفان ونشروا اللغة العربية والديانة الاسلامية فيها

وتوفي عماره سنة ١٥٢٢ م فخلفه ابنه عبد القادر وسنة ١٥٢٩ خلف هذا ابنه نولي. وسنة ١٥٤٥ توفي فخلفه ابنه عماره الآخر وكان يعرف بأبي السكاكين وفي زمنه توفي عبد الله جمعه وخلفه ابنه وما زالت الاعقاب تتتالى ولا نعلم من اخبارهم شيئاً الى سنة ١٥٩٦ اذ اتصل الحكم بعدلان وفي ايامه ثارت قبيلة كري ورئيسها الشيخ اغيب من نسل عبد الله جمعه فحاربهم وتغلب عليهم ففرّ اولاده الى دنقلا فبعث عدلان اليهم شيخاً مشهوراً بالتقوى ونفوذ الكلمة اسمه ادريس يسترجعهم فعادوا فعفا عنهم وولى كبيرهم قبيلة كري

ثم تعاقب الملوك من نسل عدلان فتولى منهم سنة ١٦٠٢ بعدي بن عدلان وفي سنة ١٦٠٦ رباط بن بعدي وفي سنة ١٦٢٥ بعدي ابو دقن بن رباط وكان شديداً حارب زنوج الشلوق وغنم منهم عدداً كبيراً وكان الشلوق يقيمون على ضفاف النيل الابيض في اقصى الجنوب وراء كاكا فوصل جبل تغالا وخرب كردوفان وعاد الى سنّار وجاء بعدد كبير من الاسرى بنى لهم قرى سموها باسماء بعض قرى بلادهم وهذا هو السبب في تشابه اسماء بعض البلاد في سنار وكردوفان وبنى بعدي هذا جامعاً عظيماً في سنار لا يزال باقياً الى الآن جعل في نوافذه شبكاً من قضبان النحاس

وفي سنة ١٦٧١ توفي بعدي وخلفه ابنه أنسو وفي ايامه اصاب السودان جوع وسطا عليها الجدري وخلفه سنة ١٦٨٢ ابنه بعدي الاحمر وفي ايامه ثار بعض النوبة والكري ولكنه اخضعهم قهراً وظهر في زمانه شيخ اشتهر بالكرامة اسمه الشيخ حامد ولد الترابي لا يزال مقامه مشهوراً في سنار الى الآن وفي سنة ١٧١٠ توفي بعدي هذا فخلفه ابنه انسو الثاني وهو آخر من تولى من نسل دنكاس وكيفية خروج الحكم من يده انه انشغل عن ادارة شؤون حكومته بالترف والملاهي فثار الاهالي عليه فخلعوه وولوا شريفاً منهم اسمه نور سنة ١٧١٤ وبعد خمس سنوات توفي نور وخلفه ابنه بعدي ابو شلوق وفي ايامه جاء الاحباش بقيادة ملك اسمه قدم يسوع غزا سنار بجيش عظيم على انه عاد على اعقابه مغلوباً ونالت سنار في حربها هذه شهرة طبقت الآفاق حتى بلغت الاستانة ومصر والشام والهند فتقاطر الناس افواجاً للاقامة فيها ولكن ملكها ساء التصرف

فخلعوه وولوا مكانه ابنه ناصرًا وفي ايامه قويت قبيلة الهمج وضعفت الفونج وفي سنة ١٧٦٥ قتل ناصر وتولى ابنه اسماعيل مكانه وفي سنة ١٧٧٤ نفي اسماعيل الى سواكن وتولى ابنه عدلان وفي اثناء ذلك ازداد الهمج قوة والفونج ضعفًا حتى صار ملوك هؤلاء آلة بيد اولئك يولونهم ويخلعونهم متى شاؤوا حتى توالى منهم بضعة ملوك في سنة واحدة

وفي اوائل القرن التاسع عشر استفحل امر الهمج وخلعوا السلطة وثاروا على حكامهم وعاثوا في السودان فسادًا حتى اصبحت مملكة سنار فوضى لا يعرف فيها الحاكم من المحكوم وكان محمد علي باشا قد تولى مصر فعلم باحوال سنار فارسل ابنه اسماعيل افتتحها

ومن الاسباب التي دعت محمد علي باشا الى فتح السودان انه اراد بعد حرب الوهابية ان ينظم جنده على مثال جند بونابرت ويدربه تدريبًا نظاميًا فشق ذلك على جنده القديم من جماعة الارناؤوط وغيرهم لاعتبارهم ذلك التعليم بدعة ولم يكن يجسر على مقاومتهم لانهم جماعة قوية يخشى بطشهم وهم الذين ساعدوه في تثبيت قدمه في الحكومة المصرية فصبر على الغيظ ينتظر فرصة فسمع باحوال سنار واختلال حكومتها على خصب ارضها وما يقال عن معادن الذهب فيها فقال في نفسه لأبعثنّ اليها بهذه الجنود القديمة فاما أن يفتحوها فاشغلهم بها واما ان يهلكوا فاتخلص من مقاومتهم فارسل خمسة آلاف منهم بقيادة ابنه اسماعيل باشا سنة ١٨٢٠ مع بعض العرب العبابدة واضاف الى تلك الحملة ثلاثة من نخبة العلماء وهم محمد افندي قاضي اسيوط والسيد احمد البقلي الشافعي والشيخ سلاوي المغربي المالكي ووهب كلاً منهم خلعة سنية و١٥ كيسًا واوصاهم ان يحثوا الناس على الطاعة والاذعان من غير حرب لانهم مسلمون فيجب عليهم الخضوع لجلالة السلطان خليفة رسول المسلمين . فلم يلق اسماعيل في طريقه معارضًا الا من عرب الشايقية المقيمين وراء مديرية دنقلا فانهم حاولوا التعرض للجنود المصرية فحاربهم وهزمهم شر هزيمة وفر ملكهم واسمه جاويش والتجأ الى شندي فخاف اهل السودان وصاروا يسعون للتسليم من تلقاء انفسهم وفي جملتهم الملك نمر حاكم شندي (والسودان يلفظونها مك نمر) فانه سار بنفسه الى بربر وسلم . وسار اسماعيل على ضفاف النيل فمر بالدامر فشندي وهناك سلم له جاويش المتقدم ذكره وانضم في

جنده فكان له عوناً في حملته فسار الى الخرطوم ومنها الى ولد مدني وغيرها ولم يلق غير الترحاب والتسليم حيثما حلّ حتى اذا دنا من سنار خرج ملكها محمد اليه مسلماً ومرحّباً فاكرمه اسماعيل واقره على ملكه وحارب مناظريه واخضعهم فدانت له البلاد التي تتألف منها الآن مديريات دنقلا وبربر والخرطوم وسنار . فاراد محمد علي مدّ سلطانه الى ما وراء ذلك فانفذ صهره احمد بك الدفتردار في اربعة آلاف وخمسمئة بين فرسان ومشاة لفتح كردوفان عن طريق دنقلا وكانت كردوفان اذ ذاك تابعة لسلطان دارفور فسار اليها وفتحها عنوة وفي نيته ان ينضمّ الى اسماعيل في سنار ليتحدا ويفتحا دارفور ولكن طبيعة الاقليم ضيقت عليهم المسالك فاصاب الجند المرض وانهكه التعب فنزل اسماعيل في جماعة من خاصته على النيل ليجمع المال ويجند بعض الرجال فوصل شندي فلقيه الملك النمر واحتفل بقدومه فنظر اليه اسماعيل منتهراً وقال « أريد منك ملء قاربي هذا ذهباً والفين من الجند قبل خمسة ايام » فعظم ذلك على الملك فتقدم اليه ان يخفف الطلب وحاول اقناعه بتعذر ذلك عليه فلم يزدد الاّ اصراراً فتبلبل بنه وتوسل اليه ان يلطف به فقال « قبلنا منك عشرين الف ريال » فاذعن الملك النمر قهراً ولكنه التمس منه اطالة اجل اقتضائها فضربه بالغليون على وجهه وصاح به « اذا كنت لا تفعل كما امرتك فلا جزاء لك غير الخازوق » فصمت وقد كظم غيظه وصمم على الانتقام ولكنه تظاهر بالاذعان وطيّب خاطره ووعده باجراء ما يريد وفي تلك الليلة جعل يرسل التبن والقش احمالاً الى معسكر اسماعيل علفاً للجمال وامر رجاله ان يجعلوه حول قصر اسماعيل وجاء في المساء في سرب من الاهالي ينفخون بالمزمار ويرقصون رقصة خاصة بهم فطرب اسماعيل ورجاله ودارت عليهم المريسة « نوع من المشروب السوداني » وغيرها حتى طربوا فأمر النمر باحراق التبن فاحترق اسماعيل ومعظم رجاله احياء

فوصلت أخبار تلك الحادثة الى الدفتردار في كردوفان فسار بمن معه من الجند واقسم ان يقتل عشرين الفاً انتقاماً لاسماعيل فوصل شندي وفتك باهلها وما جاورها فتكاً ذريعاً وتفنن في طرق القتل تفنناً غريباً . وفر الملك النمر الى حدود الحبشة وعاد الدفتردار الى كردوفان ثم تولى حكومة السودان وبعد قليل عاد الى مصر فخلفه رستم بك سنة ١٨٢٤

وفي سنة ١٨٢٦ تولى حكمدارية السودان خورشد باشا وكان رجلاً مستقيماً همامًا فوسع دائرة النفوذ المصري من جهة الحبشة وهو اوّل من علم اهل الخرطوم البناء بالطوب (القرميد) وكانوا يبنون منازلهم بالجلد والبوص وفي سنة ١٨٢٧ تولى السودان احمد باشا ابوودان وفي ١٠ سبتمبر سنة ١٨٣٨ سار المغفور له محمد علي باشا من القاهرة قاصدًا الاقطار السودانية لتفقد احوالها فمرّ بدنقلا فالخرطوم فسار الى جبل فيزاوغلي ثم عاد عن طريق الخرطوم فبربر فابي حمد فكروسكو فالقاهرة فقضى في سفرته هذه نحو نصف سنة

وتولى على السودان بعد ذلك حكام عديدون لا يسعنا المقام لتفصيل اخبارهم فنكتفي بذكر اسمائهم حسب سني ولايتهم نقلاً عن رواية الكولونيل ستيوارت رفيق غوردون في الخرطوم قال . تولى احمد باشا منيكلي سنة ١٨٤٣ وخليل باشا سنة ١٨٤٥ وعبد اللطيف باشا ١٨٤٩ ورستم باشا سنة ١٨٥٠ وعلي باشا سري ١٨٥٣ وعلي باشا شركس سنة ١٨٥٤ وفي ايامه زار المرحوم سعيد باشا الاقطار السودانية ولما عاد عوّل على اخلائها ولكن الاعيان والوجهاء حولوه عن عزمه خوفًا من حدوث ثورة فاقتنع بادخال بعض الاصلاح في دوائر الحكومة . ثم تولى عراقل الفرنساوي سنة ١٨٥٦ وحسن بك سنة ١٨٥٨ ومحمد رايق بك سنة ١٨٦١ وموسى باشا حامد سنة ١٨٦٢ وجعفر باشا سنة ١٨٦٥ . وفي سنة ١٨٦٦ تخلت الدولة العلية للحكومة المصرية عن مصوّع وسواكن وفي سنة ١٨٧٠ جاء السير صموئيل باكر بحملته سائرًا الى خط الاستواء فارسلت الحكومة رجلاً من دارفور اسمه هلال الى بحر الغزال ليستكشف معادن النحاس هناك واهل السودان يسمونها حفر النحاس وكان ذلك اوّل خطوة خطتها الحكومة المصرية لفتح دارفور وفي تلك السنة انضمت سانهيت الى ملك مصر بمساعي رجل الماني اسمه موزنجر

وفي سنة ١٨٧١ تولى السودان ممتاز باشا وفي سنة ١٨٧٢ تولاها اسماعيل باشا ايوب وفي تلك السنة عاد السير صموئيل باكر من خط الاستواء وقد تولى حكومتها رؤوف باشا وكان قد سار للاستيلاء عليها باسم الحكومة الخديوية وهو الذي فتح هرار وبحر الغزال وغيرها من الاقاليم الاستوائية . وفي سنة ١٨٧٥ بوشر في فتح دارفور على يد الزبير رحمت باشا العباسي كبير قبيلة الجميعات من قبائل السودان

فتحها بعد حروب طويلة ومشقات جسيمة فصارت قسماً من السودان المصري

وفي سنة ١٨٧٧ تعين غوردون باشا حكمدارًا على السودان المصري وفيه مديرية خط الاستواء وهرار فقضى معظم مدة حكمه يطوف البلاد ويتفقد احوالها واشهر اعماله وانه سعى في ابطال تجارة الرقيق وصرح بالحرية الشخصية لسائر اهل السودان · وقد ذكرنا تفصيل ذلك في كلامنا على ترجمة غوردون باشا في الهلال الرابع عشر من هذه السنة وفي سنة ١٨٨٠ تولى السودان رؤوف باشا وفي سنة ١٨٨٣ تولاها عبد القادر باشا وفي ايامه ظهر محمد احمد المتمهدي السوداني كما سيجيء ·

فبلغت حدود السودان المصري قبل ظهور المتمهدي اوسع ما وصلت اليه منذ افتتاحها فكانت تمتد جنوباً الى خط الاستواء وشرقاً الى البحر الاحمر وغرباً الى الصحراء الغربية وحدود وداي وبلاد نيام نيام فصارت بقعة واسعة تبلغ مساحتها مليوناً من الاميال المربعة فلم تمض بضع سنوات حتى ذهب معظمها وقوداً لنيران الثورة وضاع ما بقي فريسة الاهمال وسوء المشورة



باب المقالات

الأسباب والعلل

« لحضرة فضلو افندي منصور كمال ببيروت »

الانسان ميالٌ بالطبع الى تتبع المسائل متدرجاً في الاسباب والعلل حتى ينتهي به الأمر الى نقطة يسكن اليها في الغالب خاتمة لسلسلة الحلقات التي يتطلبها · ألا ان هذه الحلقة الاخيرة التي يعتبرها السبب الاوَّل أو العلة الاولى تختلف باختلاف مبادئ الافراد وتعقلهم وذلك اننا لو سألنا الكتبة مثلاً عن التعليل عن حادثة ما لرأينا الاسباب التي يقدمونها مختلفة اختلافاً بيّناً في ما عدا بعض ظروف عامة لا مفر لهم من الاستشهاد بها لطروقها على ذهن السواد الاعظم منهم وباعتبار كثرة هذه الاسباب ونسبة قربها الى الحقيقة تقاس معارف الكتبة ويعرف مقدار سعة اطلاعهم · ألا

انا لو فحصنا مقالاتهم فحصاً دقيقاً وتدبرنا العلل الاخيرة التي يذكرها كلٌّ منهم لوجدناها في الغالب تنتهي الى احدى ثلاث نقط وهي الارادة والقدر والاضطرار

ولا يغرب عن ذهن الفطن المتأمل ان هذه النقط الثلاث التي اشرنا اليها ليست حقائق يسكن اليها الطالب بل هي فروض فرضها الانسان تخلصاً من تتبع الاسباب وفراراً من الجهل الذي يؤدي الى الحيرة . ولذلك فلو سألنا صاحب الارادة لماذا اراد صاحب الحادثة هذا الامر دون غيره لأجاب بأسباب اخرى غايتها بلا ادري . ولو سئل صاحب القدر لماذا قُدر عليه كذا لقال لا ادري وكذا لو سئل صاحب الاضطرار

ولا يتوهم احد ان الحوادث الجارية بين الافراد فقط يفضي بها الامر الى نقطة هي الجهل المطلق بل ان العلم بأجمعه مؤسس على الفرض . فانك لو قلت للكيماوي ما هو الماء لقال هو مادة مركبة من جوهري هيدروجين وجوهر اوكسجين ولو قلت له ما هو الأوكسجين لقال هو عنصر بسيط غازي شفاف لا طعم له ولا رائحة ثقله النوعي ١٠٥٦ ر ١ قابل الذوبان في الماء يصير سائلاً على درجة ١٢٦ تحت الصفر تحت ضغط ٢٣ جلداً

ولو سألته عن الهيدروجين لأجابك هو عنصر بسيط غازي شفاف لا طعم له ثقله النوعي ٠٦٩٢ ر ٠ قابل الذوبان في الماء يصير سائلاً على درجة ٢٠٠ تحت الصفر تحت ضغط ١٨٠ جلداً

ولو قلت له ما هو الجوهر الفرد لقال هو جزء من المادة متناه في الصغر لا يتجزأ تتركب منه دقائق الكون على اختلاف انواعها واشكالها . وهنا تنتهي معارفه ويظن بذلك انه قد اصاب كبد الحقيقة او كوى سمت الليان ولم يعلم ان المادة التي سماها عنصراً لم يطلق عليها هذا الاسم الأ عند ما جهل وسيلة يحلها بها الى عنصرين او اكثر . وان قوله « هو جزء من المادة متناهٍ في الصغر لا يتجزأ » حقيقة يسكن اليها الطالب مع انه فرض وضعه الكيماويون ليتمكنوا به من التعليل عن التحليل والتركيب الكيماويين . غير انا لو تأملنا قليلاً في هذا الفرض لوجدناه مستحيلاً وذلك لاننا اما ان نقول ان الجوهر الفرد ذو عرض وذو عمق وطول فيكون بالضرورة قابلاً للقسمة وهذا الفرض غير معقول كذلك لأن قبوله القسمة الى ما لا نهاية له يستلزم

وقتاً غير متناه وهو غير معقول ايضاً واما ان نقول انه ليس ذا عرض وذا عمق وطول فلا يكون قابلاً للقسمة ولكن كيف يتأتى للجسم الذي لا طول له ولا عرض ولا عمق ان يتركب منهُ جسم آخر ذو طول وذو عرض وعمق . فكان الاحرى بأصحاب هذا الرأي ان يعدلوا عن تعريف الجوهر الفرد ولكن ما الحيلة والانسان لا يرتاح الاَّ لربط المسببات باسبابها والمعلولات بعللها

فيظهر لنا من كل ما تقدم ان العلل والاسباب التي يستعملها الانسان في التعليل عن الحوادث تنتهي كلها في نقطة هي الجهل وانهُ هرباً من الوقوف في هذه النقطة فرض فروضاً هي اقرب الى الجهل منها الى المعرفة و بنى عليها كل معلوماته وكل ما عنَّ له وكان كالرجل الذي احدقت بهِ المصائب فالتمس لنفسهِ الخلاص فلم يستطع اليهِ سبيلاً ثم شُبّهَ له ان في ذلك الباب فرجاً فولجهُ حتى اذا انتهى الى الداخل و رفعت العصابة عن عينيهِ وعرف خطاءه رضي بهِ ظناً منهُ ان غير هذا السبيل لا يكون احسن منهُ او كالشاعر الذي شبه الشيء بنفسهِ حيث قال

كأننا والماء من حولنا قومٌ جلوسٌ حولهم ماء

وبالاختصار فان الانسان مهما كان قويَّ الحجة غزير المعارف واسع الاطلاع لا بدَّ له من الوصول الى نقطة يقف عندها وقوف المتحير ثم لا يلبث ان يسندها الى سبب موهوم يفرض انهُ هو الحقيقة فيرتاح اليهِ ويكتفي بهِ

(الهلال) ان كثرة السؤالات والاقتراحات الجأتنا الى اغفال مقالة تاريخ الانسان في هذا العدد وسنعود اليهِ في الاعداد التالية ان شاء الله فنرجو المعذرة

التماسٌ من حضرات القرّاء

نرجو ممن يعثر على رسم فوتوغرافي او غير فوتوغرافي لأحد الاشخاص الآتي ذكرهم ان يتكرّم بارسالهِ الينا او يفيدنا عن محل وجوده لنستحضره ويكون له الفضل وهذه هي اسماء الاشخاص المطلوبة صورهم

الشيخ ابراهيم الاحدب	سليمان باشا الفرنساوي
المعلم بطرس كرامه	ماريت باشا
حنا بحري بك	مارون نقاش

رسالة اخرى بهذا الصدد لم تخرج في موضوعها عن رسالتهِ الاولى لان المثال لا يزال غير مقروءٍ فاكتفينا بالاشارة اليها . ونتقدم اليهِ اذا اراد نشر رسالتهِ مع صورة الخط الجديد وابداء رأينا في ذلك الاختراع ان يبعث الينا بمثال مصحوب بما يقابل حروفهُ من الحروف العربية المعروفة مع ايضاح ما يقوم فيها مقام الحركات فننشر ذلك مع الشكر والامتنان ونبدي رأينا فيهِ والاَّ فلا فائدة من نشرهِ وانتقاده على اننا لا نرى موجبًا لكتمانهِ على هذه الصورة اذ لا خوف من ان ينتحلهُ احد سواه بعد نشرهِ تحت اسمهِ في الجرائد

أصدق الوسائل وأبسطها وأهمها

للوقاية من الكوليرا

كان المظنون ان الكوليرا تنتقل عدواها بالهواء فلم يكن يرى الناس وسيلة لتجنبها الاَّ الفرار ولكن قد ثبت مؤخرًا ان عدواها انما تصيب الناس عن طريق المعدة اي بواسطة الطعام

فاذا علمت ذلك انزع من ذهنك كل خوف واعلم ان الكوليرا ليست اشد عدوى من الامراض المعدية الاخرى كالحميات المعدية والدفتيريا وغيرها بل هي من بعض الوجوه ابطأُ انتقالاً واقلُّ خطرًا منها كلها فالرعب الذي يستولي على عقول الناس من اسم الكوليرا اكثرهُ وهمٌ في غير محلهِ ولكنهُ بالحقيقة اكبر مساعد على فتكها

أما طرق الوقاية فابسطها « النظافة » واصدقها « النظافة » وأهمها « النظافة » ولا نريد بالنظافة مجرَّد غسل الوجه او التطيب بالروائح العطرية او لبس الثياب المكوية او التزين بالحلى الثمينة فانها نظافة وهمية اما النظافة الحقيقية فتنقسم الى ثلاثة اقسام (١) نظافة الهواء (٢) نظافة الطعام (٣) نظافة الجسد

فنظافة الهواء يراد بها تنظيف المنزل من الاقذار على انواعها وتطهير المصارف وتجديد هواء الغرف والسكنى في البقاع البعيدة عن المستنقعات والاماكن العفنة و ينطوي تحت ذلك بالضرورة الابتعاد عن المصابين بالكوليرا اوتجنب مخالطتهم بقدر الامكان

أما نظافة الطعام فهي اهم شروط الوقاية لان العدوى كما قدمنا تنتقل عن طريق

المعدة فيجب الانتباه اليها بنوع خاص وهي تنحصر في الوصايا الآتية

(١) لا تشرب الماء الاَّ نقيا مطهرًا وافضل وسيلة لتطهيره غلية فاغل الماء ثم برده في اوعية نظيفة مغطاة منعًا للغبار

(٢) لا تدن يدك من فمك الاَّ عند الطعام فقد جرت عادة البعض ان يجعلوا اصابعهم في افواههم اما لنقض اظافرهم او لغير ذلك وهي عادة قبيحة شديدة الخطر وخصوصًا في هذه الاحوال فقد يتفق ان تكون يدك لمست يدًا اخرى او وعاء عليهِ أثر العدوى فاذا جعلت اصابعك في فيك فانك تنقل العدوى اليك على اهون سبيل

(٣) لا تبدأ بالطعام الاَّ بعد غسل يديك غسلاً جيدًا بالماء النقي والصابون وعادة المشارقة في ذلك من افضل العوائد واحسنها

(٤) لا تأكل من الاطعمة الاَّ الناضج على النار فان النار تطهر كل فاسد

(٥) فاذا اردت تناول الفاكهة او غيرها مما لا يؤكل مطبوخًا فاغسله بالماء النقي او قشره وتناوله ويداك نظيفتان

(٦) لا تدخل الى فمك شيئًا من الآنية كالملعقة او الشوكة او غيرهما الاَّ اذا تحققت انها نظيفة نظافة تامة

(٧) تجنب المآكل الفجة وكل ما من شأنه ان يلبك المعدة او يفسد الاطعمة فيها او يسبب اسهالاً او قبضًا

(٨) تجنب البرد ولا سيما برد الليل والصباح في مصر لانهُ قد يسبب استطلاق الامعاء وللوقاية من ذلك اجعل حول البطن والخصر منطقة عريضة من الصوف لا تنزعها ليلاً ولا نهارًا سواء كان الطقس حارًّا او باردًا

(٩) اعتدل في كل طرقك ادبياً وصحياً فلا تطل السهر ولا تتناول الاشربة الروحية الاَّ اذا اقتضت الحال ان تأخذ شيئًا منها علاجًا لمغص او ما شاكل

أما نظافة الجسد فيراد بها الاستحمام واوقاته وكيفيته تختلفان باختلاف الاشخاص فمن اعتاد الحمام البارد فليستحم كل يوم والافضل ان لا يمكث طويلاً في الحمام واذا لم يتعوَّد هذا الحمام فليستحم بالماء الساخن . وهناك طريقة للاستحمام نظنها افضل الطرق وانفعها وذلك ان يفرك الجلد باسفنجة مبتلة بالماء والصابون فركًا سريعًا ثم ينشف الصابون باسفنجة اخرى مبتلة بالماء الصرف بكل سرعة ومن لوازم نظافة الجسد

تنظيف الثياب وتبديلها قبل ان يكثر وسخها وخصوصاً الثياب الملامسة للجسد

كل ذلك وسائل واقية من الكوليرا قبل الاصابة بها او بشيء من اعراضها او هي بالحقيقة واقية من سائر الامراض المعدية وغير المعدية في كل زمان ومكان اما اذا احسّ احدٌ باعراض هذا الداء او ما يماثلها فالعلاج انما هو معالجة الاعراض . فالاسهال قد يكون بسيطاً لا علاقة له بالداء ولكن يجب المبادرة الى قطعه وافضل عقار لذلك الكلورودين خذ منه ثلاثين نقطة في نصف قدح كنياك مخففاً بمثلهِ ماء ولتكرر هذه الجرعة مرة كل ساعتين اذا اقتضت الحال فاذا رافق الاسهال غثيان او قيء فتؤخذ العطريات والمنعشات او القوابض وقد وصف الدكتور مور وهو من عانوا معالجة هذا الداء في الهند الوصفة الآتية

صبغة الزنجبيل القوية	درم
روح الامونيا العطرية	«
« الايثير النيتروس	«
كونياك	اوقية

تمزج وتؤخذ ملعقة صغيرة في كاس ماء مرة كل ساعة او كل ساعتين فاذا تناول المصاب ثلاث جرعات منهُ ولم ينقطع الاسهال فليأخذ عشر قمحات من مسحوق دوفر مرة كل ثلاث ساعات واذا كان القيء شديداً توضع محمرة من الخردل على المعدة ولاجل اجراء البول يؤخذ درم من روح ملح البارود الحلو في اوقيتين من الماء مرة كل ثلاث ساعات ولكن يجب المخالفة بينها و بين مسحوق دوفر فلا يعطيان في وقت واحد . والافضل في كل حال ان يكون المصاب مضطجعاً

أما طعامهُ فاذا كفَّ القيء واستطاع طعاماً فليُعط اخف الاطعمة كالشاي ومرق اللحم او الفراخ او الحمام مع قليل من الخمر الجيدة ويجب تجنب الاطعمة الجامدة على انواعها . واما العطش فيعالج بالماء البارد الصرف او ماء الصودا مع الثلج ويستحسن وضع قطعة ثلج صغيرة في الفم . واما البرد فيعالج بفرك الجلد بالايدي واستخدام زجاجات فيها ماء ساخن ومضاعفة الالبسة المدفئة والدهن بزيت التربنتينا الدافئ . واذا لم يفد ذلك فلتستخدم المحمرات الخردلية فاذا استُخدمت هذه الوسائل حال الشعور بالمرض فانها تشفيهِ باذن الله اما اذا أُبطئ في استخدامها فيصعب الشفاء بها

أرمانوسة المصرية (تابع ما قبله)

فأمرته بالذهاب الى بابيس ليبعث الحاكم من يحملها الى منزلها فاسرع فجاء الحاكم بجماعة من رجاله حملوا السيدة ارمانوسة وحاشيتها الى قصرها وهم يعجبون لما تمّ فاحكت بربارة للحاكم خيانة بوقنا فحمدوا الله على نجاتهم فدخلت ارمانوسة القصر وقد عادت اليها حواسها وهي لا تصدق انها نجت من تلك الشراك

وكانت الشمس قد مالت الى المغيب ومرقس قد مال للذهاب الى القرية لمشاهدة خطيبته فقالت له بربارة ثق يا مرقس ان سيدتي كثيرة الثناء على غيرتك · أتقص علينا قصتك أم تذهب لمشاهدة خطيبتك قال لك الامر ولكني احكي الحكاية باختصار واخذ يتلو عليهم القصة كما وقعت تماماً حتى وصل الى سقوطه عن الجمل وكيف حمله ذلك العربي الطويل الاسود الى معسكر العرب وضمد جراحه وانه انتظر اوّل فرصة قابل بها عمرًا واطلعه على حكاية بوقنا فاعطاه ذلك الكتاب يتهدد بوقنا به ويأمره بالكف عن ارمانوسة الى ان قال والعربي الذي شاهدتموه معي انما هو زباد خادم يحيى القراماطيقي واحكى لهم حكايته وانه يحمل كتاباً سرياً الى المقوقس وفيه الامان للقبط كافة

فقالت بربارة واين هو زباد قال هو الآن خارج البلدة وسيأتي قريباً لأدله على الطريق الى الحصن لمقابلة سيدي والدك

وفيما هم في هذه الاحاديث وقد خيم الغسق اذا بخادم يقول ان في الباب رجلاً يستغيث قال دعوه يدخل واذا هو كهل ينوح ويندب ويقول قد اخذوها يا سيدتي قد ظلمونا يا مولاتي · فعرف مرقس ان الباكي عمه المعلم اسطفانوس

فهب من مجلسه وناداه ما الخبر يا عماه

فذعر الرجل وقال أأنت هنا يا مرقس وقد اخذوا ماريا منك آه يا ولداه

فصاح مرقس ومن اخذها يا عماه اخبرني

قال اخذها ذلك الخائن الذي كان قد سعى في قتلها والقائها في النيل فانه لما رأى الجند على بلبيس والحال حال حرب جاءنا في هذا الصباح ببعض رجال والله واوسعونا ضرباً ولكماً وحملوا ماريا وفروا بها

فاشتد غضب مرقس واظلمت الدنيا في عينيه فحملق وقال الى اين اخذوها وهم

بالوقوف وقبض على حسامهِ فقال قد مضوا بها الى حيث لا اعلم ولكنهم ساروا غربًا و ربما قصدوا جهات عين شمس يا ولداه

فاراد الخروج وهو في معظم الارتباك فامسكتهُ بربارة قائلة تمهل يا مرقس فانك ربما سرت الى جهة غير التي ساروا فيها

ثم بعثت الى الحاكم فحضر فقالت لهُ ان سيدتي ارمانوسة توصيك بمساعدة هذا الشاب فان ابن حاكم القرية قد اختطف خطيبتهُ وفرَّ بها فابعث شرذمة من رجالك يبثها في الطرق التي يمكن ان يسير بها ذلك الغادر وليبحثوا عنهُ وياتوا بهِ و بالفتاة حيثما وجدوها فبعث الحاكم رجالهُ فرسانًا ومشاة في كل الجهات أما مرقس فانهُ اخذ شرذمة من الرجال وخرج بهم فلقيهُ زياد فسألهُ الخبر فاطلعهُ عليهِ فقال انا اسير معك يا صديقي ولا تخف اني سآتيك بماريا في خير

فتفرقت السرايا على هذه الكيفية وبقيت ارمانوسة و بربارة تنتظران النتيجة بفارغ الصبر وقد شغلهما امر مرقس كثيرًا وخصوصًا لان ذهاب خطيبتهِ كان على نوع ما بسببهما

الفصل السابع والعشرون

أركاديوس والأعيرج والمقوقس في الحصن

فلندعهم يفتشون عن ماريا ولنرجع الى اركاديوس فقد فارقناهُ في الحصن بعد مسير بربارة على موعد منها بالجواب عما يتم لارمانوسة فتقضى بضعة ايام على مثل الجمر الى ان استبطأ عودتها فتحير في امرهِ وخاف ان يكون في الامر خديعة وندم على تسليمهِ خاتمهُ لامرأة لم يرَها الاَّ تلك المرة ففكر في ذلك طويلاً فلم يهتد الى حل واراد ان يرسل رسولاً الى بلبيس يستطلع الحقيقة فخاف انكشاف السر فجلس ذات ليلة الى النافذة التي خاطب بربارة الى جانبها وجعل يتذكر ما مرَّ بهِ والهواجس تتقاذفهُ فدخل عليهِ جندي وقال ان سيدي الاعيرج يدعوك اليهِ حالاً فاسرع اليهِ فاذا هو يمشي في ارض غرفتهِ ذهابًا وإيابًا وقد اخذ منهُ الغضب مأخذًا عظيمًا

فلما دخل اركادبوس سلم عليه وسأله عن امره فقال خذ يا اركادبوس هذا الكتاب واقرأه لنا فتناوله فاذا هو مكتوب باللغة القبطية وعليه امضاء البطريرك بنيامين

فقال وما هذا يا سيدي قال انا لا اعرف القبطية جيداً ولكنني فهمت من هذا الكتاب انه مرسل من البطريرك الذي هو عدو الرومان بحمله رجل من رجال المقوقس اليه فلا بد من ان يكون فيه دسيسة علينا اقرأه وفسره لي حالاً

فقرأه اركادبوس فاذا هو بالحقيقة كما قال وكان الكتاب الذي حمله جرجس من بلبيس لبعطية للمقوقس فعلم اركادبوس ان والده اذا عرف ما فيه قبض على المقوقس حالاً وتعاظم الشر بينهما فيكون سبباً لبأسه من ارمانوسة فحرف الترجمة وقال ان فيه تحريضاً للمقوقس على الروم وربما كان ذلك عن غير رضى من المقوقس لأن الكتاب مرسل من بنيامين كما قد علمت

فادرك الأعيرج ان اركادبوس يريد اخفاء شيء من الحقيقة عنه فقال اراك تميل الى الاقباط على مرادهم يا اركادبوس وتتجاهل عن الحقيقة وما ادراك ان ذلك بغير رضى المقوقس وقد تقرر في اذهاننا ان هؤلاء القبط لا يحبوننا

فقال اركادبوس وما الداعي يا سيدي لانحرافي معهم وانا اول نصير للروم كما تعلم ولا احب احداً غير الرومان

قال انا مقتنع بصدق انتصارك للروم ولكنني شممت من كلامك رائحة الدفاع عن القبط ونفسي تحدثني بان ابعث الى المقوقس وهو الآن في الحصن فاقبض عليه واجعله في القيود

فارتبك اركادبوس في امره وخاف تفاقم الخطب وذهاب آماله ادراج الرياح فقال ولكن تمهل باولداه فاني لا اعهد لك الا الدراية والحزم ألا تعلم ان مجاهرتنا بعداوة القبط تضر بمصلحتنا لانهم يتوهمون بذلك باباً للخروج من طاعتنا والعدو على الابواب فيكونون عوناً لهم علينا فارى من باب الحزم ان نتغافل عن اعمالهم ونظهر لهم الاخلاص الى ان نرى ما يكون من حربنا مع العرب

فتبصر الاعيرج برهة ثم قال صدقت يا ولداه وهذا ما انا عازم عليه فابق هذا الامر مكتوماً ولكن اقسم بشرف الروم وكرسي القسطنطينية اني لانتقمن من المقوقس شر

انتقام فقد نسي هذا الخائن أصلهُ وخان دولتهُ وتحدثني نفسي ان اكتب بشأنهِ الى الامبراطور ليعلم خيانتهُ فلا يصاهرهُ ولكن لصبرنَّ قليلاً فان لحمهُ ولحم ابنتهِ وسائر اهل منزلهِ ستكون طعاماً للاسماك فان غدره سينكشف قريباً وعلى الباغي تدور الدوائر

قال ذلك واخذ يبدل ثيابهُ للرقاد فودعه اركاديوس وخرج وقد ازداد بلبالهُ وعظم عليهِ غضب والده لانهُ زاد العراقيل في سبيل حصولهِ على ارمانوسة ولما سمع والده يتهدد ارمانوسة احسَّ بقلبهِ يتقطع عليها ولكنهُ كظم الغيظ ليتدبر الامر بالحيلة

فعاد الى غرفتهِ وهو لا يرى طريقةً لشدة التأثر وبات تلك الليلة لا يستطيع رقاداً وهو يفكر في أمر ارمانوسة وقسطنطين ووالده وقد علم انها اذا نجت من مخالب قسطنطين فلا يأذن لهُ والده بالاقتران بها

وفي الصباح التالي جاءهم الجواسيس ينبئونهم بنزول العرب على الفرما فانشغلوا بالاستعدادات الحربية فبعث الاعيرج ابنهُ اركاديوس يتولى مناظرة قطع الجسر بين الموصلين بين الحصن والجزيرة وبينها وبين البر الغربي كما قدمنا فلما جاء رسول ارمانوسة ولم يرهُ هناك سلم الكتاب الى صديق لهُ ليوصلهُ الى اركاديوس فلما عاد من مهمتهِ اخذ الكتاب وتأمل ما فيهِ من الرموز ففهم ان ارمانوسة في ضيق وتستنجد بهِ ولكنهُ لم يفهم سبب ذلك الضيق

فخطر لهُ ان يستطلع ذلك بالحيلة من صديقهِ ارسطوليس بن المقوقس ولم يكن شاهده من مدة فذهب اليهِ في النقطة التي اعتاد ان يكون فيها فلم يجده فسأل عنهُ فقيل لهُ ان والده المقوقس بعث اليهِ منذ الامس ولا يزال هناك في بعض جهات الحصن لان الحصن اشبه بقرية كبيرة وفيما هو يسأل الخدم عنهُ اذا بهِ قادم فاستقبلهُ مسلماً فقال اركاديوس أراك اطلت الغيبة عليَّ يا أرسطوليس وقد عوَّدتني ان نلتقي يومياً

قال كنت هذين اليومين في شغل مع سيدي الوالد بشأن ارمانوسة

فلما سمع اسم ارمانوسة كاد يتجلى الاحمرار في وجههِ فاعترضهُ الارتباك والتعجب لسبب الانشغال بها

فقال وما هو ذلك الانشغال لعلهُ خير

قال هو خير ان شاء الله فان مولانا قسطنطين بن هرقل قد بعث وفداً يحمل

ارمانوسة اليه اذ يكون في انتظارها عند بحر الرّوم ليسير بها الى الاستانة

فخفق قلب اركاديوس حرصاً على ارمانوسة وخوفاً على ذهابها من بين يديه ولكنهُ تجلد وقال وماذا تمّ بعد ذلك

قال فورد لوالدي كتاب من قسطنطين بشأن ذلك فبعث الى حاكم بلبيس ان يسلمها اليه وكان بودنا ان يذهب والدي او انا لتشييعها ولكن اشتغالنا بالاستعدادات الحربية حال بيننا وبين ذلك

فلما سمع اركاديوس الخبر لم يعد يتمالك عن الاضطراب من شدة التأثر وتعاظم الامر عليه وتحقق ان ارمانوسة قد استنجدتهُ فكيف لا يذهب لنجدتها فتظاهر بانهُ تذكر امرًا يستدعي سرعة ذهابه الى غرفته فودع ارسطوليس وخرج وهو يفكر في أمره وأمر والده وأمر ارمانوسة فلم يدرِ أيتقاعد عن نجدة ارمانوسة وقد استنجدتهُ أم يعرض نفسهُ لغضب والده فوصل غرفتهُ وقد شعر كأنهُ تصب على جسمه ماء حارّ تارة وبارداً اخرى ووقف في الغرفة صامتاً تتقاذفهُ هذه العوامل ثم هبّ بغتة الى خوذته فلبسها واعتقل حسامهُ وهمّ بالخروج من الغرفة يريد الركوب الى بلبيس فرأى في عمله هذا خطرًا ظاهرًا فامسك عواطفهُ وعاد الى الغرفة ووقف الى النافذة وغرق في بحار الهواجس لا يدري ايطيع عواطفهُ ام عقلهُ وبقي كذلك الى المساء. وقد نسي نفسهُ فاذا بأحد الجند قد دخل عليه قائلاً ان رسولاً في الباب يا سيدي قال فليدخل فحالما رآه علم انهُ قادم من بلبيس لما شاهد من أثر الغبار على وجهه وقد جاهد في سوق دابته اثناء الطريق فدفع اليه كتاباً ففضهُ فاذا هو من ارمانوسة وهي تقول فيه

« اذا كنت تحب ارمانوسة فاسرع الى بلبيس لانقاذها لانها اصبحت بين مخالب الموت »

فلما قرأ الكتاب اتقدت نيران الغيرة والشهامة معاً في عروقه فنسي والده وكل دولة الرّوم واسرع الى جواده فركبهُ وخرج من باب الحصن لا يلتفت يمنة ولا يسرة واطلق لفرسه العنان وكان من خير الجياد حملهُ اليه صديق لهُ من ضباط الرّوم في الشام من خيول العرب العتاق

وكان الليل حالكاً والطريق وعرًا ولكنهُ لم يبالِ بشيء فمضى هزيع من الليل وهو يسوق فرسهُ والجو هادئ والظلام سادل نقابهُ لا يسمع الاّ صوت وقع اقدام الفرس

صوتًا خنيئًا لنعومة تربة مصر وقلة الحصباء فيها

وبعد نصف الليل بقليل تعب جواده فجعل يسير حثيثًا وأخذ يلتفت الى ما حوله فلم يشاهد الا اشباح الاشجار القريبة تمر كأنها اصنام سابحة في الماء.

وفيما هو سائر تتقاذفه امواج الهواجس سمع صوتًا خفيفًا عرف من رنته انه صوت امرأة تستجير ثم انقطع الصوت بغتة وكان لشدة هواجسه في ارمانوسة وما عرفه من تصابيها كأنه في حلم يسمع صوتها تستجير فلما سمع ذلك الصوت تخيل له ان ارمانوسة في يد العدو وهي تستجير به فوقف واصاخ بسمعه لجهة الصوت فلم يسمع شيئًا فظن ما سمعه من قبيل الهواجس فاراد ان يسوق فرسه فسمع الصوت ثانية وقد اقترب واذا بالمستجير يتكلم بالقبطية ويقول « اشفقوا على صباي خافوا من الله اذا كنتم لا تخافون من المقوقس » فخيل له ان ارمانوسة في يد العدو يريدون بها شرًّا وهي تستجير فهبت الشهامة في جسمه ونسي نفسه ولكز جواده فسار به زميلاً الى جهة الصوت وكان قد سمعه بعيدًا وبينه وبين الصوت غابة من شجر الجميز فسار بجواده بين الاشجار يحملق بعينيه ويتطاول بعنقه لشدة الظلام لعله يلمح اشباحًا او يرى احدًا وكانت قرقعة دروعه وسيفه اكثر ظهورًا من وقع اقدام جواده ثم شعر بانه اقترب من جهة الصوت وسمع قائلاً يقول « استنجدك يا قادم واستحلفك بالله وبالشرف والمروءة ان تنقذني من هؤلاء اللصوص »

فأرسل نظره الى جهة الصوت فرأى ثلاثة اشباح وقوفًا تحت شجرة ولكنه لم يميز احدًا منهم لشدة الظلام فاغار بجواده وناداهم بصوت كأنه الرعد القاصف « من انتم ايها اللصوص اتركوا الفتاة والا اذقتكم المنون بحد هذا السيف » وجرد السيف وكان بينه وبينهم نحو عشرين ذراعًا فاركنوا الى الفرار حالاً فتعقبهم فسار كل منهم الى ناحية واختفوا بين الاشجار فخاف ان يبعد عن مكان الصوت فيخطئ مكان الفتاة فعاد الى الشجرة التي شاهد الاشباح تحتها فاذا بشبح قد ترامى عند اقدام جواده وهو يقول حماك الله يا فارس وانقذك من غوائل الزمان فقد انقذتني من مخالب الموت والعار فترجل اركاديوس وامسك المتكلم وهو في شك بين ان تكون ارمانوسة او غيرها فاذا بالصوت غير صوتها ولكنه كان مختنقًا من شدة البكاء. فامسك الفتاة بيدها وخاطبها باللغة القبطية قائلاً . لا تخافي يا فتاة انك في مأمن من غوائل اولاد الحرام

واحس اركاديوس عند ما قبض على يدها انها باردة كالثلج وهي ترتجف وترتعد فقال لها لا تخافي يا فتاة قولي لي من انت

قالت اني فتاة مسكينة قد اختطفني بعض اولاد الحرام يريدون بي سوءًا فجزاك الله خيرًا على انقاذي ولكن احذر ان يغدروا بك وانت واقف هنا فانهم لا يخافون الله وكأني ارى واحدًا منهم تحت تلك الشجرة

وما اتمت كلامها حتى شعر اركاديوس بنبلة لمست نحره ولكنها لم تصبه فتحوّل عن الفتاة واسرع نحو جهة التي جاءت النبلة منها وصاح ويلك يا خائن اني والله قاتلك لا محالة ولا ابالي اذا كنتم مئات او الوفًا وكان الحسام لا يزال مجردًا بيده فوثب كأنه الليث الكاسر وتأثر الرجل فاراد الفرار منه فادركهُ بضربة جندلته على الارض وقد صاح قائلاً آخ قتلتني فاذا هو يتكلم اللغة الرومانية فاجابه بالرّومانية قائلاً «أمن جماعة الروم هذه الخيانة تبًّا لكم» والتفت الى ما حوله فلم يرَ احدًا فتحقق ان الرفقاء فروا فعاد الى موقف الفتاة فاذا بها قد خارت قواها ووقعت على الارض من شدة الخوف وهي تقول قد قتل الخائن فالحمد لله فامسكها اركاديوس بيدها واجلسها وهو يود ان يعرف من هي ثم تذكر حبيبته وتصوَّر انها في مثل هذا الضيق فاقشعر جسمه وقال للفتاة اين هو بلدك قالت بالقرب من بلبيس يا سيدي

قال هل تعرفين هذا الخائن الذي يختبط بدماه

قالت نعم اعرفه يا سيدي هو ابن حاكم القرية

قال وما الذي يريده منك

قالت يريد اختطافي من حجر والديَّ وقد قضى مدة طويلة يترقب الفرص للايقاع بي حتى تمكن بمساعدة والده الحاكم ان يجعلني ضحية للنبل فانقذني الله على يد سيدتي ارمانوسة بنت المنوقس وهي في بلبيس ولكنه سمع بخبر ذهابها الى خطيبها قسطنطين صباح امس فاغتنم الفرصة وجاء منزلنا في زمرة من رجاله واختطفني قهرًا بعد ان اوسع والديَّ ضربًا وفرَّ بي في هذه الاحراش وقد كاد يفتك بي لو لم تأت انت لانقاذي

فلما سمع اسم ارمانوسة خفق قلبه وازداد الخفقان لما سمع انها سارت الى قسطنطين واراد تحقق الخبر فقال وهل سارت ارمانوسة الى خطيبها وكيف سارت

قالت بلغنا ونحن في قريتنا ان سرية من الجند الروماني جاءت من انحاء الشام بامر من ابن الامبراطور ان يحملوها اليه وسمعنا انها نزلت من المدينة وسارت برفقتهم

قال هل شاهدتها انت سائرة معهم

قالت لم اشاهدها يا سيدي لانني لم اكد اسمع بخروجها للمسير حتى جاءني هؤلاء الخائنون ولم اعد اعي شيئاً ولكنني بينما كنت معهم وهم يعذبونني وقد حملني بعضهم على جواده رأيت خيل الروم اقلعت وسارت شرقاً واظن سيدتي ارمانوسة معهم

فلما سمع ذلك نفد صبره فقال للفتاة وابن الخيل التي جئتم عليها

قالت لا أدري ابن تركوها لاني لم اكن اعي ما ذا يفعلون لعظم اضطرابي

قال وهل نحن بعيدون عن بلبيس

قالت لا اعلم تماماً ولا اظننا بعيدين عنها

ففكر في افضل طريقة للاسراع الى بلبيس وماذا يعمل بالفتاة ليوصلها معه وليس عنده الأ جواده وخاف اذا تردد ان تذهب ارمانوسة من بين يديه فقال للفتاة اذا اركبتك على الفرس اخاف ان لا تحسني سوقه فهل تركبين رديفاً لي قالت افعل ما بدالك فاني حية من فضلك

فركب واركبها وراءه فتمسكت باطراف ثوبه وساق جواده قاصداً بلبيس وهو لا يكاد يرى الطريق لعظم غيظه

وفيما هو سائر شاهد اشباحاً عن بعد وقد اسرعوا نحوه على خيول وصاحوا به من القادم فلم يجبهم لعظم ما به فلما اقتربوا منه ورأوا الفتاة وراءه رموه بالنبال وصاحوا به تخلَّ عن الفتاة والاَّ قتلناك فعرفت ماريا صوت مرقس فصاحت لا ترم النبال يا مرقس انا من الاصدقاء. وكان اركاديوس قد همّ بان يضربهم فلما سمعها تناديهم بالاسم وقف وقال من تنادين قالت انادي ابن عمي وهو ذاهب للتفتيش عني على ما اظن . ولم يتم الكلام حتى وصل مرقس وقد ترجل ودنا من الفرس فامسك بالزمام وهو في ريب من امر الراكب وركوب ماريا وراءه واحاط رجال مرقس بالفرس وهم يصيحون من انت . وكان اركاديوس لا يريد ان يعرفه احد بانه ابن الاعيرج فقال لهم. السارق يا قوم وقالت ماريا انه شهم كريم قد انقذني من مخالب الموت

« ستاتي البقية »

تاريخ السودان الحديث

نشرنا في الهلال الماضي فذلكة صغيرة من تاريخ السودان من اوّل أزمانه الى ظهور المتمهدي وسنبسط الكلام هنا في المهدوية وكيفية ظهور المهدي السوداني وما رافق حياته من الحوادث والحروب الى الآن فنقول

(١) المهدوية في الاسلام

المشهور بين المسلمين من اوائل الاسلام الى الآن انه سيظهر رجل منهم يؤيد الدين وينشر لواء العدل ويستولي على الممالك الاسلامية يسمى المهدي ويسندون ذلك الى احاديث نبوية بحث كثيرون من علماء الاسلام في صحتها وفسادها وفي مقدمتهم العلامة ابن خلدون · ومن اوثق الاحاديث المروية من هذا القبيل رواية الترمذي وهي « لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من اهل بيتي يواطئ اسمه اسمي واسم ابيه اسم أبي » ورواية الحاكم وهي « تملأ الارض جورًا وظلمًا فيخرج رجل من عترتي فيملك سبعًا او تسعًا فيملأ الارض عدلاً وقسطًا كما ملئت جورًا وظلمًا » ولم يرد في هاتين الروايتين لفظ المهدي ولكنهم ذكروا احاديث اخرى ورد فيها لفظه انتقدها ابن خلدون انتقادًا طويلاً في كلامه عن أمر الفاطمي وما يذهب اليه الناس الخ » في مقدمته الشهيرة فمن اراد الاسهاب فليراجعه هناك

على ان ذلك لم يقلل شيئًا من اعتقاد الجمهور في مجيء المهدي فما انفك المسلمون ينتظرون مجيئه فأدى ذلك الى ظهور جماعة كبيرة في ازمان مختلفة ادعى كل منهم انه المهدي المنتظر فالتفت حوله الاحزاب واسس بعضهم دولاً عظمى لا يزال ذكرها باقيًا الى الآن على ان كثيرين آخرين لم يكادوا يظهرون بدعواهم حتى طوى الزمان ذكرهم لان الاحوال لم تكن معدة لقبولهم

على ان بين الشيعة والسنة خلافًا من قبيل المهدي وزمن ظهوره فأهل الشيعة يعتقدون انه ظهر في اواخر القرن الثالث للهجرة في شخص ابي القاسم محمد بن الحسن العسكري الامام الثاني عشر وانه سيظهر ثانية قبل انقضاء العالم من سرداب في سر من رأى بالعراق واما اهل السنة فيقولون انه لم يظهر بعد وتتمة للموضوع نذكر اشهر الذين ادعوا المهدوية من اوّل الاسلام الى الآن

(١) محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية ظهر في المدينة سنة ١٤٥ ه في عهد الخليفة المنصور ثاني الخلفاء العباسيين فدعا الناس اليه وكان له أخ اسمه ابراهيم نصره وقام بدعوته ففتح البصرة والاهواز وفارس ومكة والمدينة وبعث عماله الى اليمن وغيرها وكان ذلك في زمن الامام مالك فأفتى له وشد ازره فكثرت دعاته حتى كاد يذهب بالدولة العباسية لولم يستدرك المنصور امره ويتغلب عليه ويقتله (وترى تفصيل اخباره في الجزء السادس من تاريخ ابن الاثير)

(٢) عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر الصادق مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب التي فتحت الديار المصرية في اواسط القرن الرابع للهجرة وبنت مدينة القاهرة على يد القائد جوهر وقد اتسعت دولة الفاطميين وامتدت سلطتهم وطالت ايام حكمهم (وترى تفصيل اخبارهم في الجزء الاول من تاريخ مصر الحديث)

(٣) محمد بن عبد الله بن تومرت المعروف بالمهدي المرعي ويكنى ابا عبد الله اصله من جبل السوس في اقصى بلاد المغرب رحل الى المشرق حتى انتهى الى العراق واجتمع بأبي حامد الغزالي وغيره فأخذ العلم عنهم واشتهر بالنسك والتقوى وساح في الحجاز وجاء مصر ثم سار الى المغرب واقام بمراكش وغيرها وتأسست على يده دولة عظيمة في اوائل القرن السادس للهجرة في دولة عبد المؤمن (وترى تفصيل ذلك في الجزء الثاني من تاريخ ابن خلكان)

(٤) العباس الفاطمي ظهر بالمغرب في آخر المائة السابعة للهجرة وادعى المهدوية فتكاثف الناس حوله وعظمت شوكته حتى دخل مدينة فاس عنوة واحرق اسواقها وبعث العمال الى الانحاء لكنه قتل غيلة فانقضى اجله وسقطت دعوته

(٥) السيد احمد ظهر في اوائل القرن التاسع عشر للبلاد في جهات الهند وحارب الاسياخ على حدود بنجاب الشمالية الغربية سنة ١٨٢٦ ولم تتم له قائمة

(٦) محمد المهدي السنوسي ابن الشيخ محمد السنوسي الذي ظهر في المغرب في اواسط هذا القرن واصله من جبل سنوس بجزائر الغرب نحو (والده) سنة ١٨٣٧ ولاقى من بعض اولي الامر الاسلامي ترحاباً نشر دعوته وايدها وكان مقامه الرئيسي في جربوب على مقربة من واحة سيوة نحو الغرب ولكنه انشأ زوايا عديدة في اماكن اخرى من بلاد الغرب يبلغ عددها ثلاثمائة كلها تعلم طريقته وتعاليمه

أما زاوية جربوب فانها اعظمها كلها تجتمع اليها الطلبة من تونس ومصر والشام ومن بادية الغرب وفيها كان يقيم الشيخ محمد السنوسي وقد توفق هذا الشيخ الى نشر تعاليمه ونفوذه توفيقاً غريباً وانتشرت طريقته بين القبائل المغربية وامتدت الى سلطنة وداي وراء دارفور ونال هناك نفوذاً عظيماً حتى اصبحت تلك السلطنة في قبضة يده فلما توفي سلطانها سنة ١٨٧٦ استشاروا السنوسي في من يخلفه فاختار لهم سلطاناً اسمه يوسف

فالسنوسي هذا توفي منذ بضع عشرة سنة ولكنه لمّح قبل وفاته ان المهدي المنتظر سيظهر قريباً ولعله ابنه فاستوضحوه فلم يزدهم الاّ كلمة « لا اعلم » على انه انبأهم بان ظهوره سيكون في ختام القرن الثالث عشر للهجرة (١٨٨٢ م) فالسنوسيون يعتبرون شيخهم المشار اليه مهدياً وقد سموه محمد المهدي وهو رجل عاقل شديد البطش والمشهور من كراماته خيمة سحرية يحملها في حروبه لا يفرغ الزاد منها

(٧) محمد أحمد المهدي السوداني وقد نحا في دعواه منحى الشيعة فقال انه الامام الثاني عشر الذي ظهر مرة قبل هذه وفي تسمية اتباعه بالدراويش تأييد لرغبته في قول الشيعة لان لفظة درويش فارسية

(٣) سبب ظهور المهدي السوداني وقيامه

لو بحثنا عن قيام دعاة المهدية المتقدم ذكرهم لرأينا لكل منهم داعياً حمله على القيام واحوالاً ساعدت في تأييد دعواه . فالاسباب التي دعت الى قيام محمد احمد وساعدت في وقوع دعوته موقع القبول لدى اهل السودان كثيرة نذكر اهمها وهي ما يأتي

(١) ذكرنا انتظار جمهور المسلمين للمهدي واهل السودان في جملتهم ولكن السودانيين كانوا ينتظرونه قريباً اعتماداً على قول الشيخ السنوسي كما تقدم ؛

(٢) من المتداول بين شيوخ اهل السودان وفقهائهم ان المهدي سيظهر من بينهم استناداً الى أقوال يروونها عن بعض الائمة منها قول الامام القرطبي في طبقاته الكبرى ونصه « وزير المهدي صاحب الخرطوم » وقول السيوطي وابن حجر « ان من علامات ظهور المهدي خروج السودان » وغير ذلك

(٣) كان تحصيل الضرائب في السودان منوطاً بجماعة الباشبوزوق فكانوا يسومون السودانيين في تحصيلها انواع الخسف والذل وقد يقتضونها مراراً وروى المستر فرنك باور قنصل انكلترا بالخرطوم اذ ذاك ان الضرائب كانت تضرب على

اهل السودان بلا شفقة فيضربون ضريبة على كل فرد منهم وعلى الاولاد والنساء يقتضونها ثلاث مرات في السنة مرة لصاحب القضاء واخرى للجابي واخرى للحكمدار . وكان الزارع اذا زرع حنطة لا يؤذن له بزراعتها حتى يدفع ثلاثة جنيهات كل سنة و يدفع سبعة اخرى في مقابل التصريح له بريها من ماء النيل فاذا تردد في الدفع سيق الى السجن واذا صح زرعه دفع ذلك المال مرتين مرة للحكومة ومرة لجيب الباشا . واذا كان من اصحاب السفن التجارية التي تجري في النيل فرض عليهِ اربعة جنيهات عن كل سفينة فاذا لم يرفع العلم المصري على سفينتهِ غرم باربعة اخرى ومن تأخر عن تأدية تلك الضرائب اقتضتها الحكومة منهُ بالكرباج وقد يعاقب ذلك المسكين باحراق منزلهِ او سلب امتعتهِ . والخلاصة ان السوداني لم يكن يباشر امرًا الَّا ادى عليهِ ضريبة

(٤) من المقرر المشهور ان التجارة السودانية محصورة في اصناف معدودة أهمها تجارة العبيد . والنخاسون او تجار الرقيق اشبه بالملوك والقواد منهم بالتجار في حاشية كل منهم مئات او الوف من الرجال بين خدمة وعمَّال وعبيد يقومون لقيامهِ ويقعدون لقعوده فالنخاسون عمد السودان وعيون اعيانهِ وقادة اعمالهِ تهابهم الحكام وتخشى سطوتهم الحكومة . وما زالت تجارتهم رابحة واعمالهم سائرة حتى قام اهل العالم المتمدن لابطال تجارة العبيد فجاء السودان السير صموئيل باكر للقيام بتلك المهمة ثم انيطت بغوردون باشا فاخذ يطوف الاصقاع والمدن في سائر انحاء السودان يعلّم الناس الحرية الشخصية و يأمر التجار بالكف عن الاسترقاق جملة وهي صدمة قوية ارتجت لها اركان السودان لان منع النخاسة لم يقتصر على تقليل أرباح النخاسين ولكنهُ عرضهم لاستبداد الجباة لانهم كانوا يؤدون الجانب الاكبر من الضرائب عبيدًا او ماشية فاصبحوا بعد ابطال النخاسة لا يقوون على تأديتها فاستبد بهم الجباة وساموهم الذل والعسف حتى خيف عصيانهم ولكن غوردون باشا لحسن سياستهِ ولين جانبهِ لم يحدث في ايامهِ اضطراب فلما غادر السودان تولاه رجل لم يكن عالمًا بمحل الضعف ليتلافى خطره فكأن غوردون أوقد نارًا في بعض جهات البيت فجاء غيره لا يدري كيف يطفيء تلك النار فتعاظمت والتهمت المدينة برمتها فلما قام المهدي يدعو الناس الى رفع المظالم آنس من اولئك التجار اصغاء وكانوا له عونًا في اضرام تلك الثورة

(٢) محمد احمد المتمهدي السوداني

هو من قبيلة الدناقلة ولد في جزيرة اسمها نبت مقابل دنقلا (وقال آخرون في حنك) سنة ١٨٤٨ ويقال ان نسبة ينتهي الى الشيخ القرفي صاحب كتاب الفروق اشتهرت عائلته باصطناع السفن السودانية يضرب المثل بدقة صنعها ومتانتها وكان اسم والده عبد الله هاجر الى شندي باولاده كلهم ومحمد احمد لا يزال طفلاً. فقضى محمد احمد حداثته في صناعة السفن ولم يكن ميالاً اليها على انه كان يتردد في اثناء ذلك الى المدرسة فحفظ القرآن وهو في الثانية عشرة ويقال انهم عهدوا بتربيته وتدريبه في اتقان صناعة السفن الى عمه شريف الدين في جزيرة شبكة بالقرب من سنار فاتفق ان عمه هذا ضربه مرة ففرَّ الى الخرطوم وانتظم في سلك طلبة طريقة الفقراء وهي من الطرق الشهيرة في السودان بمدرسة خوجلي بالقرب من الخرطوم والخوجلي هذا مقام شهير هناك يأمه اهل الخرطوم وضواحيها يتبركون به. فقضى في هذه المدرسة بضع سنين فانتقل الى بربر فدخل مدرستها ثم انتقل منها الى قرية ارداب وتناول العلم فيها على الشيخ نور الدايم وعنه تناول سرَّ طريقة الفقراء سنة ١٨٧١ ويقول الامام السيد الميرغني انه اخذها عن القرشي وان القرشي هذا كان عنده فرس لا تلد فقال ان فرسي هذه ستلد ويركب نتاجها المهدي فاخذها محمد احمد فولدت عنده

وكان قويّ الذاكرة فحفظ القرآن وشيئاً من الحديث وجاء جزيرة ابا جنوبي الخرطوم واقام فيها (راجع الخريطة) وكان حسن الاسلوب لين العريكة فطناً حاد الذهن فصيحاً قوي الحجة اذا خطب اثر في السامعين فمال الناس اليه واحبوه فكان يذكر ويعظ ويصلي ويظهر التقوى والزهد والاعتزال عن العالم والناس يتقاطرون اليه افواجاً واكثرهم من قبيلة البقارة المشهورين بالقوة والشدة فكانوا يتألفون حوله حلقات يذكرون وينشدون

وكان استبداد جباة الاموال ضارباً اطنابه وحال السودان كما تقدم من القلاقل والاضطراب فكان محمد احمد اذا ذكر الضيق الذي اصابهم من ظلم الجباة نسب ذلك الى خطية بني الانسان وان العالم قد فسد والناس قد ضلوا عن سواء السبيل فنالهم ما نالهم من غضب الله وان الله سيبعث رجلاً يصلح ما فسد ويملأ الارض قسطاً وعدلاً هو المهدي المنتظر. وقد كان ذلك حديث الناس في سائر انحاء السودان

وقال له اعطني خمسين رجلاً وانا آتيك بهذا المنافق فاذن له فسار بهم حتى أتوا الجزيرة فنزلوا اليها و بقي ابو سعود في الباخرة وفيما هم يفكرون في كيفية الهجوم على المتمهدي هجم رجالهُ عليهم بغتة وقتلوهم عن آخرهم فاشتد ازر المهدي وتمكن اعتقاد اتباعه بدعوتهِ

على انهُ أدرك خطر مقامهِ بالقرب من مركز الحكومة فرأى ان يوغل في السودان ريثما تتكاثر احزابهُ فولى مكانهُ رجلاً اسمهُ احمد المكاشف وغادر أبا قاصدًا جبال كردوفان وسمي انتقالهُ هذا « الهجرة »

وكان في كاوا على النيل الابيض على مسافة خمسين ميلاً من أبا شمالاً قوة عسكرية مصرية مؤلفة من ١٤٠٠ رجل تحت قيادة محمد سعيد باشا فاقتصَّت آثار محمد احمد فاوغل هو في جنوبي كردوفان فتعقبتهُ شهرًا حتى هلكت ولم تدرك منهُ وطرًا ثم انتقل محمد احمد الى جبل جدير فحارب رشيد بك حكمدار فشوده وتغلب عليهِ في ٩ دسمبر سنة ١٨٨١ وكتب الى القبائل يدعوهم الى الاعتقاد بدعوتهِ والاخذ بناصرهِ

فلما علم رؤُوف باشا بفشل محمد سعيد باشا و رشيد بك هالهُ امر المتمهدي وأخذ يجمع الجند من دنقلة و بربر ودار الشايقية والثورة آخذة في الانتشار فانضم الى المهدي عرب الشلوق وأصبحت قبائل الكبابيش في شمالي كردوفان والرفاعة في سنار والبشارين بين سواكن و بربر تتردد بين الطاعة والعصيان

وفي مارس سنة ١٨٨٢ أُقيل رؤُوف باشا فقام مقامهُ موقتًا جيكلر باشا فانفذ يوسف باشا الشلالي لمحاربة المتمهدي فجنحت بهِ السفينة عند كاوا فتركهُ رجالهُ وفرُّوا فلما علم المكاشف بذلك تشدد وخرج برجالهِ على سنار ومديرها حسين بك شكري فدخلها وقتل بعض حاميتها وتجارها فحاصر المدير ورجالهُ في المديرية فبلغ ذلك جيكلر باشا فانفذ لانقاذهم صالح بك في خمسمئة جندي فجاؤُا المدينة ودخلوها ورفعوا الحصار عن المديرية فتقهقر الدراويش الى كركوج وراء سنار فخرجت عليهم الجنود المصرية من ابي حراز ومعهم ٥٠٠ مقاتل من عرب الشكرية بقيادة اميرهم عوض الكريم باشا ابي سن فلقيهم العصاة في المسلمية وارجعوهم على أعقابهم بعد ان قتلوا منهم جمعًا كبيرًا . فخرج جيكلر باشا على العصاة بنفسهِ فغلبهم في ابي حراز وفي موقعة بالقرب من سنار ثم عاد الى الخرطوم . وكان قد وصلها عبد القادر باشا

فحيثما اجتمعوا تحدثوا في ما يقاسونه من الضغط وما ينتظرونه من الفرج على يد ذلك المنتظر حتى اصبح لفظ «المهدي» يدوي في سائر مجتمعاتهم ومنازلهم في الاكواخ والاسواق والمساجد والزوايا على الطرق وفي العطمور وحيثما وجد اثنان او ثلاثة فلا حديث لهم الأ الفرج المنتظر على يد المهدي

فلما رأى محمد احمد ذلك وآنس من الناس ارتياحاً الى أقواله واصغاء الى مواعظه خطر له ان يدعي ذلك الامر لنفسه على انه لم ينطق به حتى سألوه ألعلك المهدي المنتظر «فقال اجل انا هو» فاخذ يبث تعاليمه والناس يقدمون اليه ويسلمون له فانتشر امره رويداً رويداً من جزيرة ابا على ضفاف النيل حتى وصل الخرطوم وما والاها فآمن بدعوته قبائل البقارة ورئيسها علي ولد حلو ولم يكن ايمان البقارة به لمجرد اعتقادهم بهديه ولكن اكثرهم من النخاسين الذين نقموا على الحكومة لمنع تجارة الرقيق · ومكّن هو علاقته معهم بعد ذلك بالتزوج ببنات كثير من كبارهم

وكان في جملة الذين يجتمعون عليه عبد الله التعايشي من قبيلة التعايشة وكان يشتغل بالتنجيم وكتابة الاحجبة وله شأن كبير في قبيلته فقال له محمد احمد أنت وزير المهدي فقال عبد الله اني في انتظار مجيئه فاذا كنت انت هو فانا ناصرك فقال نعم انا هو فآمن به فاستوزره فكان هو وقبيلته انصاراً له

واتفق ظهور نجم ذي ذنب سنة ظهوره فاعتقد اهل السودان ان ذلك النجم انما هو راية المهدي تحملها الملائكة

ووصل خبر هذه الدعوة الى الخرطوم سنة ١٨٨١ وحكمدارها رؤوف باشا فانفذ اليه رجلاً من خاصته اسمه ابو سعود ليستقدمه الى الخرطوم فسار في أربعة من العلماء على باخرة حتى أتوا جزيرة أبا فلما نزلوا الشاطئ نادوا باعلى صوتهم أين المهدي فجاءهم محمد احمد وبداه مخبأتان في ثوبه وجلس على عنقريب (مقعد سوداني) الجانب ابي سعود فقال له ابو سعود «ما هذا الذي قمت به» فاجابه محمد احمد بلطف ودعة «انا هو المهدي» فقال ابو سعود «هلمَّ بنا الى الخرطوم» فقال «لا أرى حاجة الى ذهابي» فقال ابو سعود «ولكن يجب ان تذهب» فنهض محمد مغضباً ويده على قبضة حسامه وصاح به «لا لا أذهب» فخاف ابو سعود وترك الرجل للحال واخذ علماءه وعاد بباخرته الى الخرطوم فوصلها ليلاً فايقظ رؤوف باشا من فراشه وانبأه بما كان

حكمدارًا بدلاً من رؤوف باشا (في ١١ مايو سنة ١٨٨٢)

وكان الشلالي باشا قد أعدّ حملة في كاوا للخروج على المهدي في جبل جدير فسار بحرًا في ستة آلاف مقاتل حتى أتى فشوده في مايو فسار برًا واقام مدة في جبل طنجور في منتصف المسافة بين فشوده وجبل جدير ثم استأنف المسير في السهول والجبال حتى دنا من العدو في ٧ يونيو وكانوا فئة ضعيفة جائعة ولكن الشلالي استخف بهم ولم يحسن التحصن فهاجموه بغتة وكسروه شر كسرة واخذوا كل ما كان معهُ من المؤن والذخيرة ولم يبقوا الاّ على القليل من رجاله وكان ذلك النصر اعظم ما ناله المتمهدي الى ذلك الحين فاتخذ السودانيون نصره هذا مع قلة رجاله دليلاً على صدق دعوته وكان قد طاف كردوفان قبل ان صرّح بدعوته واشتهر بين اهلها بالتقوى والكرامة والغيرة على الدين فجاء نصره هذا مصداقًا لما في اذهانهم فتقاطروا اليه بالمال والرجال من اقاصي كردوفان وعظم امره في عين الحكومة فاخذ عبد القادر باشا في تحصين الخرطوم وفرض لمن يقتل الدراويش جنيهين عن كل درويش و ١٨ جنيهًا عن كل أمير وبعث الى الدراويش ان يثوبوا الى الطاعة ووعدهم خيرًا واخذ من الجهة الثانية بجمع الجند فاستقدم فرقًا من حاميات جلابات وسنهيت وجيرا وجنّد غيرهم فاجتمع لديه ٣ آلاف مقاتل فامدّ حامية الأُبيض بالف

وفي أثناء ذلك هجم المكاشف على شات وافتتحها وقتل حاميتها وحاول فتح دويم فلم يستطع . وكان المهدي لا يزال في جبل جدير لا يبدي حراكًا أما قواده فكانوا يسيرون برجالهم يتخون البلاد في جهات كردوفان فحاربوا الحامية المصرية في اماكن مختلفة وهددوا بارا وكنجيل والبركة وغيرها . ثم سار المهدي برجاله الى الأُبيض عاصمة كردوفان وفيها محمد سعيد باشا فلما علم بقدوم العصاة جمع جند من الجهات وحصن المدينة . وفي اوائل سبتمبر سنة ١٨٨٢ اصبح المتمهدي برجاله على مقربة من الابيض فكتب الى محمد سعيد باشا يدعوه الى التسليم فجمع الباشا رجال مجلسه وشاورهم في الامر فاقرّوا على شنق الرسل وان لا يبعثوا جوابًا ولكن اهل الابيض كانوا على دعوة المهدي سرًّا وهم الذين دعوه الى فتحها وفي مقدمتهم الياس باشا اعظم تجار كردوفان وحاكمها السابق فانضموا الى العصاة في تلك الليلة هم وبعض الحامية وبقي محمد سعيد باشا في نحو عشرة آلاف من الجند الباشبوزوق واما جيش المتمهدي فكان

جرارًا فيه ٦٠٠٠ تحمل البنادق التي غنموها من الجنود المصرية بالمواقع الماضية واما سائر قواتو فتبلغ ستين الفًا ويقول سلاتين باشا في كتابهِ (النار والسيف في السودان) ان حملة البنادق لم تأت معهُ الى الأبيض بل بقيت في جدير

وفي ٨ سبتمبر هجم العصاة على الابيض فارتدوا خاسرين وقد غنم منهم الجند المصري ٦٢ راية من جملتها راية المتمهدي نفسهِ واسمها «راية عزرائيل» وقتلوا منهم نحو عشرة آلاف وفي جملتهم محمد اخو المهدي ويوسف اخو عبد الله التعايشي ولم يقتل من الحامية الا ٢٠٠ فعظم ذلك على المتمهدي وادرك خطر الهجوم على الاسوار الحصينة وعوّل من ذلك الحين ان لا يهاجم سورًا وانما يفتح البلاد بالتضييق عليها بالحصار حتى يضنيها الجوع وتعمد الى التسليم . ثم جاء العصاة مددٌ فاشتد ازرهم فشددوا الحصار على الأبيض وعلى بارا وكان في بارا نور عنقرة احد امراء العرب وكان موالياً للحكومة ولكنهُ رأى مقامهُ حرجاً وخشي القتل فكتب الى المهدي سرًّا انهُ اذا ارسل اليهِ اميرًا من اكابر امرائهِ سلّمهُ فارسل اليهِ ولد الحوي فخرج نور عنقرة مع محمد الخير وكان يلقب سر سواري اي قائد الخيالة وسلما لولد الحوي فقبلها وانقضت سنة ١٨٨٢ والحصار شديد على الابيض وبارا والعصاة يتكاثرون في سنار وغيرها

وكان المهدي قد ارسل فرقاً من رجالهِ لنشر دعوتهِ في دارفور وبحر الغزال فانتشرت الثورة هناك ولكنهم لم يغتنموا سنة ١٨٨٢ الا بعضاً من بلادها وفي اوائل سنة ١٨٨٣ فتحوا دارا في ٥ يناير واضطرَّت الابيض الى التسليم من الجوع في ١٩ منهُ فدخلت كردوفان في حوزة الدراويش وغنموا منها شيئاً كثيرًا من المؤن والذخائر والاسلحة والاموال وصار المتمهدي من ذلك الحين حاكماً على كردوفان وقبض على سعيد باشا ورجالهِ وبعد اسرهم مدة كشف على تقرير بعثوا بهِ سرًّا الى الخرطوم فأمر بقتلهم وفي اثناء ذلك ظهر نجم ذو ذنب فحسبوهُ راية المهدي تحملها الملائكة

وكان عبد القادر باشا قد سار بنفسهِ وجندهِ لمنع العصاة من جهات سنار فوشى بهِ بعضهم في مصر فاستقدمتهُ الحكومة اليها على حين غفلة وعينت مكانهُ علاء الدين باشا وكان قبلاً في مصوّع وعهدت بقيادة الجند الذي كان في سنار الى حسين باشا وارسلت حملة جديدة لاسترجاع كردوفان عهدت بقيادتها الى ضابط انكليزي اسمهُ الكولونيل هيكس ثم سمي هيكس باشا وسيأتي تفصيل اخباره وما يليها في المقال القادم

باب المقالات

الداء الزهري

أوعز الينا غير واحد من حضرات القراء ان ندرج مقالة في الداء الزهري نبين فيها اعراضهُ وعلاجهُ وننبهَ الى عواقبهِ الوخيمة ونحذر الشبان من الوقوع في شراكهِ فنتقدم الى حضرات القرّاء ان يسبلوا ذيل المعذرة لما قد يرد في اثناء هذه المقالة من الالفاظ والمعاني التي كنا نتحاشى ذكرها لولا اهمية هذا الموضوع وما يترتب على التنبيه عليهِ من الفائدة العامة لاننا نرى الناس قلما يقدّرون اضراره حق قدرها فيعرضون انفسهم لعدواه واذا اصيب احدهم بهِ لا يعبأ بعواقبهِ اكثر ما يعبأ بعواقب ابسط الامراض فنقول

الداء الزهري ونريد بهِ ما يسميهِ اهل مصر الداء الافرنجي او التشويش ويدعوه اهل الشام الحب الافرنجي او السفليس من اقبح الامراض سيرًا وافظعها منظرًا واثبتها قدمًا واصعبها شفاء يتوارثهُ الابناء عن الاباء الى الجيل الرابع والخامس

أما الاصابة بهِ فلا تكون الاّ بالعدوى بانتقال جراثيم الداء من القروح الزهرية في المصاب الى دم شخص آخر من جرح او سحج او عن طريق الغشاء المخاطي المبطن للفم او الانف او غيرهما لأن الاغشية المخاطية رقيقة يسهل نفوذ السم فيها بالامتصاص ولكن الغالب فيهِ ان تحصل عدواه بالملامسة عن طريق الفحشاء وفي الاشارة غنى على انها قد تحصل من كاس شربَ منها مصابٌ في شفتهِ قرح فيلصق بحافة الكاس بعض المادة الزهرية فاذا لامست شفة اخرى التصقت بها فيمتصها الغشاء المخاطي المبطن للشفة فتحصل العدوى وقد تحصل بواسطة جرح تتصل اليهِ المادة الزهرية من قرح زهري فيصل السم الزهري الى الدم رأسًا وقد تنتقل من شفة مصابة الى شفة صحيحة بالتقبيل وعادة التقبيل الجارية بيننا عند التسليم او الوداع من اكثر العوائد خطرًا على الصحة فما اجدرنا باغفالها. ومن اسباب هذا الداء ايضًا الوراثة فانهُ ينتقل من الوالد الى الولد وقد يكون الطفل سببًا في نقل العدوى الى والدتهِ

ومهما يكن من اسباب هذا الداء فان لقروحه صفات يمتاز بها عن سائر الادواء
والقروح الزهرية نوعان (١) قروح رخوة (٢) قروح صلبة وتسمى الأولى
(شانكرويد) والثانية (شانكر) ولا بد من التمييز بين النوعين قبل مباشرة العلاج
فان لكل منها علاجاً يمتاز عما للاخرى

القرحة البسيطة او الرخوة (شانكرويد) هي مستديرة الشكل منتظمة الحوافي
كأنها هنضمت بسكين حادة قعرها رمادي اللون رخو كالعجين على سطحه مرتفعات
ومنخفضات تظهر تحت المنظار المكبر كأن ذلك السطح مخور تخترق نخوره سماكة الجلد
او الغشاء المخاطي كله واما حجم القرحة او الحبة فيختلف من قدر حبة العدس الى حجم
ربع الريال تحيط بها هالة حمراء . ويندر ان تكون القرحة الرخوة منفردة والغالب
ان تكون اثنتين فاكثر . وهي لا تحدث من نفسها اي لا تصيب الذين تناولهم العدوى
عن طريق الدم بل لا بد من حصولها عن طريق التلقيح الخارجي فتظهر بعد التلقيح
بيومين حلمة صغيرة حولها هالة حمراء يرافقها احياناً اكلان وتصير الحلمة في اليوم
الثالث او الرابع حويصلة فيها سائل مصلي ثم يصير ذلك المصل صديداً فيصبح حبة
صغيرة ممتلئة قيحاً ثم تنفجر وتصير قرحة يسيل منها الصديد غزيراً فتنغور في اعماق الجلد
وتنتظم حوافيها كما قدمنا

العلاج انجع علاج للقرحة الرخوة اليودفورم يرش ناعماً على القرحة
صباحاً ومساء غير ان رائحته كريهة فتغني باصطناعه مرهماً على هذه الكيفية

يودفورم	درهم واحد
بلسم بيرو	» »
مرهم بسيط	عشرة دراهم

يمزج وتدهن به خرقة توضع على القرحة وتغير صباحاً ومساء

وقد يرافق القرحة الرخوة اختلاطات يعسر شفاؤها كالاكلان او التهاب الاجزاء
المجاورة لها او النزف وقد يرافقها دمامل في الجهات الأربية او غير ذلك

القرحة الصلبة وهي التي ينسبب عنها الداء الزهري الحقيقي فيتصل سمها
بالدم ويدور في الجسد فتتولد عنه الظواهر الزهرية المعروفة بالداء الافرنجي وقد سميت
قرحة صلبة تمييزاً لها عن الرخوة وتمتاز بصلابة قواعدها . وهي قرحة مقعرة (او غير

مقعرة) غير منتظمة الحواف معينة الشكل ذات قواعد صلبة كالغضروف وغشاء رمادي اللون يتكوّن في وسطها و يفرز مادة مصلية تلتصق بثوب المريض وتجمد عليهِ . واوضح مميزاتها صلابتها وتكتلها فتظهر باللمس كأَنها فلقة حمصة مختبئة تحت الجلد . وتكون في الغالب مفردة ولا تظهر الاَّ بعد حصول العدوى باسبوعين او ثلاثة واحيانًا بعد اربعة اسابيع او ستة . ولكنها تبدأ يوم حصول العدوى بالتهاب يشعر بهِ المصاب برافقهُ احمرارٌ وفي اليوم الثاني يزول الالتهاب والاحمرار فيظن انهُ لم يصب ثم لا يلبث بعد مضي المدة المذكورة ان يرى المرض هاجمًا عليهِ بغتة فتظهر القرحة بصفاتها المتقدم ذكرها و يرافقها احتقان الغدد الأربية فترم وتتصلب وقد لا ترم ولا تتصلب . والقرحة الصلبة تعتبر ﴿ الدرجة الاولى ﴾ من الداء الزهري

وبعد ستة اسابيع من ظهور القرحة الصلبة فاذا لم يشفَ المصاب تظهر بهِ اعراض ﴿ الدرجة الثانية ﴾ واهمها

(١) (الوردية الزهرية) وهي بقع حمراء وردية اللون تظهر في الجلد والاغشية المخاطية في سائر اجزاء الجسد بهيئات مختلفة فقد تكون على شكل بقع حمراء متفرقة على سطح الجسد او على شكل حلمات بارزة حمراء اللون فاتحة اذا ضغطتها باصبعك زال لونها فاذا رفعت الضغط عاد الاحمرار وقد تكون على هيئة دوائر . والوردية الزهرية تظهر اولاً على البطن فالظهر فاليدين فالرجلين و يندر ظهورها في الوجه والرأس وقد يسبق ذلك كلهُ حمى خفيفة وبعد ظهورها بمدة تختلف بين ١٥ و ٦٠ يومًا تأخذ بالزوال فيتساقط عن الجلد قشور رقيقة تترك مكانها بقعًا نحاسية اللون وقد لا يشعر المصاب بألم او اكلان ولكن تلك البقع دليل قطعي على الاصابة بالداء الزهري فمتى ظهرت لا يبقى ريب في تشخيص هذا الداء

(٢) (البقع المخاطية) وهي بقع بيضاء مكمدة اللون مختلفة المساحة تظهر على الاغشية المخاطية للشفة واللسان واللهاة والحنجرة والجفون والاعضاء التناسلية ويكون شكلها مستديرًا او بيضاويًا او مستطيلاً منتظمًا او غير منتظم قد يحيط بها احمرار خفيف وتظهر احيانًا على غير الاغشية المخاطية فتكون على هيئة حبيبات بارزة تتقرّح وتتصاعد عنها رائحة كريهة خاصة بها . وهذه الحبيبات من اكبر وسائل العدوى فاذا لامست غشاء مخاطيًا او جرحًا انتقلت العدوى اليهِ حالاً وتعالج هذه البقع بالكي بحجر جهنم

محلولاً بالماء بنسبة واحد من الحجر الى خمسة من الماء المقطر يغمس بالمحلول اسفنجة وتمسح البقع بها مسحاً لطيفاً

(٣) (البحة) وذلك ان الحنجرة تصاب بالبقع المشار اليها او بالوردية فيبح الصوت لاعتلال الاوتار الصوتية وتشاهد آثار ذلك عند فحص الحنجرة بالمرآة فاذا كان السبب اصابتها بالوردية فعلاجها الغرغرة بمحلول كلورات البوتاس واذا كانت البقع المخاطية فيجب كيها بمحلول مخفف من حجر جهنم بالماء المقطر بنسبة جزء الى عشرة آلاف جزء

هذه هي أهم اعراض الدرجة الثانية ولكن هناك عوارض اخرى هي عبارة عن اصابات تنال الجلد او العظم او العضل او المفاصل او الاعصاب او العين على طرق شتى منها (١) العوارض الجلدية . وهي ارتفاعات تشبه حلمة الثدي يختلف حجمها من قدر رأس الدبوس الى قدر القرش التعريفة او نصف الفرنك تنتهي دائماً بالتساقط قشوراً وتعالج بيودور الزئبق و بيكلورده (السليماني) والحمامات الكبريتية (بعد مشورة الطبيب) (٢) تساقط الشعر . وهو من اعراض هذا الداء ويستدل على قرب تساقطه بتغير لونه و زوال بهائه حتى يصير كصوف الغنم و يعالج بالكينا والحديد (٣) اصابة الاظافر . او هي اصابة الادمة تحت الاظافر فتذهب حمرة الاظافر وتصير بيضاء لانفصالها عن الادمة و ينقطع الغذاء عنها والعلاج يقوم بالنظافة التامة خوفاً من التقرح ثم الغسل بالمركبات الزئبقية (٤) اصابة السمحاق والعظم . فيشعر المصاب بآلام ناخسة تشتد في الليل وتزول في النهار (٥) اصابة العضلات . فيحصل فيها تقلص وخصوصاً عضلات الساعد فاذا انبسط الساعد عسر قبضه او انقبض عسر بسطه (٦) اصابة المفاصل . وهي اما الالتهاب او الاستسقاء (٧) المجموع العصبي . للداء الزهري تأثير قبيح على المجموع العصبي فيحدث آلاماً في الرأس اشبه شيء بضرب المطارق او كالانفلاق تشتد ليلاً ويؤثر في النخاع الشوكي فيحدث فالجاً نصفياً وقد يسبب الصرع (النقطة) او المستيريا (٨) العين . يصيب الزهري أجزاء العين ولا سيا القزحية فيتغير لونها و يذهب لمعانها فتصفر وقد تظهر عليها حبيبات صغيرة لا تشاهد الاَّ عند امعان النظر و يتغير شكل الحدقة (البوبو او النني) فيصير مثلثاً او هرمياً . وجميع هذه الاعراض تعالج بالزئبقيات

وكلوريد البوتاس وغيرها

﴿ أعراض الدرجة الثالثة ﴾ فاذا لم يشف المريض في الدرجة الثانية تظهر فيهِ عوارض الدرجة الثالثة وهي آفات تصيب الجلد والاغشية المخاطية والاحشاء كالرئة والكبد والطحال وقد تختلط عوارض الدرجتين بين تقدم وتأخير على ان عوارض هذه الدرجة قد تظهر في الجسم بعد كمونها بعشر سنين او خمس عشرة سنة او عشرين او خمسين بلا ضابط . واهم هذه العوارض البثرات الجلدية والاكثيما والامجال الزهرية والصموغ الزهرية تحت الجلد او في الكبد او الطحال او الرئتين والدرن الزهري في الانف والجبهة والاذن ناهيك عن اصابات اعضاء التناسل . ومنها اصابة الشفتين بقرحة تسمى امبتيجو واصابة اللسان بالالتهاب الزهري وهو اما ليفي او صمغي واصابة الحنك بالصموغ الزهرية فيتقرح غشاؤه المخاطي حتى يثقب . واصابة اللوزتين والبلعوم والحنجرة بصموغ وتقرح . وتصيب المجموع العصبي عوارض أشد وطأة من عوارض الدرجة الثانية فتنتهي بالصرع او الفالج او الخرس او الجنون . ومن أراد التطويل في وصف هذا الداء وعلاجه فليطالع كتاب الامراض الزهرية تأليف النطاسي البارع الدكتور ابراهيم افندي مطر ببيروت

وخلاصة القول ان الداء الزهري اقبح الادواء المعروفة واكثرها خطرًا واوخمها عاقبة فقد عددنا من العوارض الناتجة عنهُ نيفًا وخمسين آفة وكل منها وحدها كاف لقتل الانسان فضلاً عن نتانة اعراضهِ وقباحة ظواهرهِ مما تقشعر منهُ الابدان . ولو كانت رذائلهُ تنتهي بانتهاء حياة المصاب لكان خيرًا ولكنها تتصل بنسلهِ من الولد فولد الولد الى الجيل الخامس والسادس . ومن قبائحهِ انهُ قد يشفى فيظن صاحبهُ انهُ تخلص منهُ فيمضي عليهِ سنة او سنين لا يشعر بعرض من اعراضهِ ثم يشعر بسعال مثلاً فيظن انهُ مصاب بالنزلة الوافدة ولكنهُ عند المعالجة لا تنجع فيهِ الا الزئبقيات وغيرها من ادوية الزهري وقد يشعر صاحبهُ بألم في العين لا تنجع فيهِ القطرات ولا الغسول الا ما كان علاجًا للزهري وقس عليهِ سائر العوارض

فهل يستخف احد بعد ذلك بالداء الزهري ويحسبهُ من الادواء الاعتيادية ام يخافهُ ويبتعد عنهُ ويتجنب عدواه تجنبهُ لاعظم الاخطار . واسهل الطرق لتجنبهِ الابتعاد عن نوافذ جهنم والامساك عن آفات الجحيم صيانةً للصحة والعرض والمال والسلام

غريغوريوس السابع اوقف هنري الرابع امبراطور جرمانيا سنة ١٠٧٧ م ثلاثة ايام عند باب قصر كانوسا حافي القدمين في زمهرير الشتاء يلتمس العفو . ومنها ان هنري الثاني ملك انكلترا امسك بالمهاز للبابا اسكندر الثالث وهو يركب فرسهُ سنة ١١٦١ م والبابا سيليستينوس الثالث رفس تاج الامبراطور هنري السادس برجلهِ وهو جاثٍ امامهُ اراد بذلك بيان مقدرتهِ على تولية الملوك وخلعهم . وقس عليهِ

أما اوَّل من صرَّح للبابا بالسلطة الزمنية رسمياً فهو بيبين ملك فرنسا سنة ٧٥٥ م بعد ان وهبهُ عدة مدن وقرى ثم ايدهُ جميع الملوك التابعين لكنيسة رومية

أما الراتب السنوي الذي اشرتم اليهِ فحقيقتهُ ان مملكة ايطاليا لما توحدت وضمت رومية وملحقاتها اليها سنة ١٨٧٠ اقرت قرارًا رسمياً بتاريخ ٩ اكتوبر من تلك السنة على عهد البابا بيوس التاسع ان البابا يعتبر رأس الكنيسة الاعظم مع بقاء رتبتهِ وحقوقهِ كأنهُ ملك مستقل . واقرت قرارًا آخر في ١٢ مايو سنة ١٨٧١ على راتب سنوي مقداره ٢٢٥ر٣ فرنك اي ١٢٩٫٠٠٠ جنيه تُدفع لكل من يتولى الكرسي البابوي فضلاً عن الاملاك التي تركت لهُ وفي جملتها قصر الفاتيكان وقصر لاترن وعزبة كاستيل غوندولفو وغيرها . اما الراتب فان البابا لم يطالبهُ قط ولو لم يمضِ حق طلبهِ بمضي المدة (خمس سنوات) لبلغ دين البابا على حكومة ايطاليا الآن ٢٢٥٫٠٠٠ر٣ جنيه او لو قبل بذلك الراتب وتناولهُ في حينهِ لكانت ايطاليا الآن في حال من العسر المالي فوق ما تعلم بمقدار ما يؤثر خروج مثل هذا المبلغ من خزينتها

الحبُّ

(بور سعيد) عبد اللطيف افندي نصيب

بينما كنت اروض نظري في مجلتكم الغرَّاء اذ عثرت على سؤال لاحد الافاضل في الجزء السابع من السنة الرابعة في (هل الحب اختياري ام اضطراري) ولدى مطالعتي جوابكم اشتاقت نفسي الى معرفة ماهية الحب وما هي درجاتهُ واسماؤُها بالترتيب وهل من الضروري ان يكون الحب متبادلاً بين المحب والمحبوب وهل في عصرنا هذا من بلغ بهِ الحب درجة مجنون ليلى وكثيّر وجميل وغيرهم من العشاق العذريين

(الهلال) الحب أساس العمران وواسطة عقد الاجتماع وخلاصة النواميس الادبية واكسير الفضائل البشرية وهو مهذب النفوس ومرقي العقول ومحيي العواطف ولولاه لكان الانسان وحشاً كاسراً ولانفصمت عرى الاجتماع فبطلت العائلات وبادت الامم وهلك نوع الانسان

وقد بحث الناس في أصل الحب وفلسفته واسباب ظهوره فيسيولوجياً او تشريحياً اوطبيعياً فلم يهتدوا الى تعليل يرتاح اليه العقل وعندنا انه سيال من السيالات العصبية اشبه شيء بالمغنطيسية الحيوانية اولعله نوع من الجاذبية العامة التي تربط الاجرام السماوية بعضها ببعض وعليها تتوقف الموازنة بين السماء والارض . ونسبة الحب الى جسم العمران كنسبة الجاذبية الى جسم الكون . أما ماهية سيال الحب فلا يمكن تصوُّرها كما اننا لا نستطيع تصوُّر ماهية السيال الكهربائي او المغنطيسي ولكننا نحكم عليها كلها بالنسبة الى ظواهرها

هذا ما يقال في الحب قولاً عاماً من وجه فلسفي اما عند التفصيل فالحب انواع ذكرناها في جوابنا الذي اشرتم اليه

أما مراتبهُ فكثيرة لا تكاد تحصى وقد يعسر تمييز الحدود بينها فنكتفي بذكر أشهرها أوَّل درجات الحب « الارتياح » وهو ان يرتاح الانسان لمشاهدة الآخر او مجالسته اي ان يسرَّ بذلك بلا جاذب ولا دافع . ثم « الميل » وهو ان يرتاح المرء الى الشيء مع ميل اليه . ثم « الرغبة » وهي ان تريد الشيء مع الحرص عليه . ثم « الاشتياق » وهي الرغبة في الشيء مع نزوع النفس اليه . ثم « الهوى » وقد بدأ الثعالبي بهِ فجعلهُ اوَّل مراتب الحب . ثم « العلاقة » وهي الحب اللازم للقلب . ثم « الكلف » وهي شدة الحب . ثم « العشق » وهو اسم لما فضل عن المقدار الذي اسمهُ الحب . ثم « الشعف » وهو احراق الحب القلب مع لذة يجدها وكذلك اللوعة واللاعج فان تلك حرقة الهوى وهذا هو الهوى المحرق . ثم « الشغف » وهو ان يبلغ الحب شغاف القلب وهي جلدة دونهُ . ثم « الجوى » وهو الهوى الباطن . ثم « التيم » وهو ان يستعبده الحب (ومنهُ سمي تيم الله اي عبد الله . ومنهُ رجل متيم) . ثم « التبل » وهو ان يسقمهُ الهوى (ومنهُ رجل متبول) . ثم « التدلية » وهو ذهاب العقل من الهوى (ومنهُ رجل مدلَّه) . ثم « الهُيوم » وهو ان يذهب على وجهه لغلبة الهوى عليهِ (ومنهُ

رجل هائم») . واخيرًا « المجنون » وهو آخر مراتب الحب

أما تبادل الحب بين المحب والمحبوب ففيهِ نظر والمشهور على الالسنة ان تبادل الحب ضروري ويعبرون عن ذلك بقولهم « القلوب شواهد » وعندنا ان هذه القاعدة تصدق غالبًا لا لسرٍّ غامض بل لاسباب بسيطة يدركها كل من راقب ماجريات الحوادث المتعلقة بهذا الموضوع . مثال ذلك ان عمرًا اذا احب زيدًا انما يحبهُ غالبًا لارتياحهِ الى اخلاقهِ وهو لم يرتح اليها الاَّ لانطباقها على اخلاقهِ هو فالغالب ان زيدًا يحب عمرًا ايضًا للسبب عينهِ فيظهر ذلك مظهرًا يعبرن عنهُ بشهادة القلوب وقس عليهِ فتبادل المحبة غالبٌ ولكنهُ ليس ضروريًّا

أما العشق في عصرنا فلا يختلف عما كان في سائر الازمان الاَّ بما اقتضتهُ العوائد الحادثة اما القلوب والعواطف فلا تزال كما كانت منذ بدء العمران او لعلها صارت اكثر قبولاً لتأثير عوامل الحب بما احدثهُ التمدن الحديث فيها من التهذيب

﴿ سلق البيض في الفصح ﴾

(يافا) سبيريدون افندي صروف

اعتادت الطوائف المسيحية سلق البيض في عيد الفصح مصبوغًا فما مبدأ هذه العادة ومتى ولماذا جرت بينهم فنرجو ان تفيدونا عن ذلك اذ لم نرَ لهُ تفصيلاً في التواريخ التي طالعناها

(الهلال) للناس في اصل هذه العادة اقوال متضاربة معظمها لا يخرج عن حد التخمين والحدس فمن قائل ان البيض رمز عن موت المسيح مع بقائهِ حيا لأن البيضة ميتة بحسب الظاهر ولكنها تتضمن نفسًا حية وقال آخرون غير ذلك . ولكن بعضهم كتب مقالة ضافية بشأن هذه العادة محص فيها حقائقها فوجد انها عادة صينية جرى عليها الصينيون في القرن السابع قبل الميلاد ولم تتصل اوربا الاَّ في الاجيال المتوسطة . اما الحكمة في هذه العادة او سبب ظهورها فغير معلوم تماما ولكنها لم تكد تصل اوربا حتى انتشرت في سائر ممالكها وجرى عليها الناس خاصتهم وعامتهم وجاءَت الشرق في القرون الاخيرة . وبعض امم اوربا تعتبر سلق البيض

أرمانوسة المصرية (تابع ما قبله)

فترجل اركاديوس واندرع تفشاه وأخوذة تغطي معظم رأسه حتى لا يستطيع احد معرفته فقال للجميع هذه فتاتكم فاحملوها

وعاد الى جواده فامسكوه قائلين من انت قل لنا حتى نكافئك خيرًا قال لا حاجة بكم الى معرفتي ولكن جواده وسار يخترق الصحراء قاصدًا بلبيس

أما اولئك الجميع فكانوا مرقس ورجاله ومعهم والد الفتاة وقد انهكهم التعب لانهم قضوا طول ليلهم يهرعون من مكان الى آخر يفتشون عن مارية

فحالما سار الراكب ضمّ المعلم اسطفانوس ابنته وقبلها وهو يقول الحمد لله على سلامتك يا ولدي وسلم مرقس عليها ثم حملوها على فرس من افراسهم وساروا بها الى القرية فرحين وقد عجبوا لامر ذلك الفارس وتنكره مع ما صنعه معهم من الجميل فسألوها عن حكايتها فاحكتها لهم كما وقعت فازداد اعجابهم بشهامته

أما اركاديوس فانه ساق جواده والليل لا يزال حالكًا حتى دنا من بلبيس والسور محيط بها والابواب مقفلة والحامية على الاسوار حذرًا من قدوم العرب فخاف اذا دنا من السور ان يصيبه شر لانهم لا يعرفونه وتحير بين ان ينتظر النهار فيدخل المدينة بحيلة او ان يسير في اثر الجند الذين قيل له انهم حملوا ارمانوسة وفيما هو يسير على مسافة من المعسكر عثر جواده حتى كاد يكبو فنظر الى ما عثر به فاذا في حبال واوتاد فترجل وتأمل ذلك المكان فعلم انه اثر مضرب خيام وقد بقيت اثارها هناك فتأمل وضع الخيم على قدر ما سمحت له الحال لاشتداد الظلام فعلم انها خيام رومانية وشاهد مع ذلك آثار اواني وثياب رومانية فتحقق انها الخيام التي اقلع اهلها في صباح الامس وما زال يتفرس تلك الآثار متحيرًا حتى دنا الفجر واخذت تلك الآثار تنجلي له فشاهد خيمة لا تزال مضروبة في آخر ذلك المعسكر فسار اليها وقاد جواده وراءه لعله يؤانس فيها خيرًا فسمع صوتًا يناديه من داخل « من القادم » فعرف ان الذي يخاطبه من جند الروم فقال بل انت من انت ألعلك عدوٌ او صديق فقال انا من الجند

فقال اركاديوس فاذا لا بأس عليك فانك من جندنا واراد التظاهر بانه من ضباط الروم جاء بمهمة لئلا يستغشوه فخرج اليه الرجل من الخيمة فاذا هو جندي كما

ظن ونظر الجندي الى اركاديوس ولباسه فظنه من كبار القواد ولم يكن اركاديوس لابساً خوذته الخصوصية وهو انما فعل ذلك اخفاء لحقيقة حاله لأنه لو لبسها لكان كل من رآه يعرفه

فقال اركاديوس ما بالكم مقيمون في هذا الصحراء ولماذا لم تقيموا في الاسوار

قال قد اقمت انا وجماعتي الليلة هنا بامر مولانا الحاكم بعد فرار بوقنا امس من هنا

فقال وكيف فرّ وقد جاء لحمل لارمانوسة

قال اكتشفوا انه جاء بدسيسة ولم يكن مرسلاً من مولانا قسطنطين كما ادعى وبعد ان خرجت السيدة ارمانوسة الى هذا المكان ومكثت في هذه الخيمة مدة وقد اعدوا الاحمال وهموا بالمسير اذ جاءهم رسول بكتاب من كبير العرب القادمين الى هذه الديار فخاف وترك ارمانوسة وفرّ برجاله

فاحس اركاديوس عند ذلك كأن ثقلاً كبيراً تحوّل عن صدره وقال للرجل فلم يعد يأخذ ارمانوسة معه اذاً

قال لا

قال والى اين ذهبت هي

قال عادت الى قصر الحاكم في بلبيس

فتحقق اركاديوس عند ذلك ان ارمانوسة لا تزال في خير ولم يأخذها احد فاطمأنّ باله ولكنه اراد ان يقابلها ويخاطبها ويشفي اوام شوقه اليها وهو لم يجالسها بعد ونظر الى حاله من اللباس وتحير كيف يدخل المدينة صباحاً فخاف انكشاف امره وخصوصاً اذا علم والده بقدومه خلسة وجعل يفكر في امره فتذكر ان فرسه معروف عند سائر جند الروم تقريباً ولا بد لمن يراه نهاراً من ان يعرفه فاذا اخفى نفسه لا يستطيع ان يخفي فرسه ثم نظر الى ثيابه وقد انفلق الصبح فاذا بالسيف ملطخ بالدماء وعلى درعه نقط منه اتصلت اليه ساعة قتل لص مارية • وبقي برهة يفكر فتذكر الفتاة التي انقذها من القتل وقال في نفسه لعلي استطيع ان استخدمها في ايصال كتابي الى ارمانوسة لانها فتاة مثلها ولا اشك انها تخلص لي الخدمة لاني انقذتها من الموت ولكن من اين لي الوصول اليها الآن

وفيما هو يفكر في ذلك تحوَّل من امام الخيمة لئلاَّ يشتبه بواحد فحانت منهُ التفاتة فاذا برجل ينظر اليهِ عن بعد ويتأملهُ ولا يجسر ان يدنو منهُ فبقي اركاديوس ماشيًا وقد اخذ بزمام فرسهِ وقاده وراءهُ فرأى الرجل يدنو منهُ فخاف ان يكون قد جاء بخديعةٍ فناداه من انت

فترامى على اقدامهِ وقال انقدم اليك يا سيدي ان تخبرني من انت فاني مشعر بثقل فضلك عليَّ واحب ان اعرفك

فقال ومن انت

قال انا مرقس القبطي وانت انقذت ابنة عمي من القتل وبعد ان وصلنا الى البيت واحكت لنا حكاية نجاتها لم استطع البقاء ما لم اعرف من انت فتعقبتك لكي اراك على نور النهار فاذا انت ملثم ولم اعرفك ولكني اهاب لباسك واخاف هذا الجواد

وقال وهل تعرف جواد من هذا

قال نعم اعرفهُ انهُ جواد البطل اركاديوس ابن الأعيرج

فقال فاعلم اذًا اني من اصحاب اركاديوس وهذا يكفيك

قال يكفيني يا سيدي ولكني مشعر بثقل فضلك عليَّ ولا أدري كيف اكافئك

قال لم اعمل عملاً التماسًا للمكافأة لان لي من فضل سيدي اركاديوس ما يغنيني عن ذلك

قال نعم يا سيدي ان فضلهُ علينا جميعًا وخصوصًا انا

فقال وكيف اختصصت نفسك بفضلهِ

قال انهُ انقذ خطيبتي من القتل مرة قبل هذه يوم ساقوها الى النيل

قال وكيف تقول هي ان ارمانوسة التي انقذتها

قال نعم انها هي التي انقذتها ولكن بواسطتهِ

قال لم افهم مرادك افهمني كيف انقذتك هي بواسطة اركاديوس ولا وصول لها اليهِ

فارتبك مرقس في امرهِ وندم على ما فرط منهُ وخاف ان يكون في ما قالهُ مؤاخذة على ارمانوسة وكان قد تعجب يوم تناول الامر من ارمانوسة مختومًا بختم اركاديوس ولم يعلم كيف توصلت هي اليهِ بتلك السرعة مع علمهِ ان اركاديوس كان

في الحصن اذ ذاك وكان يظن ان ارمانوسة اصطنعت ختم اركاديوس تزويرا فلاح له ان في التصريح بامر ذلك الكتاب خطرا على اي حال فلم يجب

فقال له اركاديوس ما بالك لا تجيب وقد قلت لك مشعر بتفضلي عليك . فلم يجب وقد ظهر عليه الارتباك

فقال له اركاديوس اتدعي الاخلاص وانت تتردد في اطلاعي على الحقيقة اهذا جزاء الخير

فترامى مرقس على اقدام اركاديوس قائلا ان في المسألة سرًّا لم افهمه واخاف اذا قلت ما يلوح لي ان ينتج عنه ضررٌ على ان تسترك تحت هذا اللثام مما يزيد خوفي فهل لك ان تعلمني من انت حتى اعاهدك على الاقرار بالصحيح على شرط ان لا يترتب على قولي شرٌّ لاحد من الناس وما جزاء الاحسان الا الاحسان

فعند ذلك مال اركاديوس كل الميل الى معرفة سرّ الامر وتوسم بمرقس خيرًا وعوّل على ان يستخدمه في توصيل كتابه الى ارمانوسة او ان يتصل اليها بواسطته اذا اخلص له الخدمة لانه قبطي وتذكر بعد الاخذ والرد معه انه شاهدهُ غير مرة بين رجال ارسطوليس في الحصن

فقال له تعالَ معي على انفراد فانفردا بعيدين عن بلبيس في منزل خرب يظهر من انقاضه انه كان معصرة للعنب كانوا يصطنعون بها الخمر وليس حولها الا الصحراء وبعض الاشجار فجلسا تحت شجرة فرفع اركاديوس اللثام عن وجهه فحالما رآهُ مرقس وقف مبهوتًا وهمَّ بتقبيل يديه وقد ذعر وازداد ارتباكًا وقال له العفو يا سيدي أأنت مولانا اركاديوس وانا لا اعلم

قال له انظر يا مرقس اني بازاحة هذا اللثام قد اطلعتك على سرّ لم يطلع عليه احد فاحذر ان تفوه بكلمة امام احد او ان تذكرني فاني جئت متنكرًا عن كل انسان هل فهمت

قال نعم يا سيدي واني اقسم لك بالمسيح وسائر الانبياء اني اخلص القول واعمل في كل ما تريد الا ما يخشى منه الضرر بالسيدة ارمانوسة لان لها عليَّ فضلاً مثل فضلك فاذا عاهدتني ان لا تؤذيها في شيء اطلعتك على الحقيقة والا فاني مصرٌّ على الكتمان ولو قتلتني

فازداد اركاديوس شوقاً لمعرفة الحكاية وعاهده على عدم التعرض باذى لارمانوسة قط ولو مهما كان من امرها

فقص مرقس عليهِ حكايتهُ من يوم خرج من الحصن مع بربارة الى ان حكم على خطيبتهِ بالاغراق وانهُ انقذها بكتاب سلمهُ اليهِ ارمانوسة وعليهِ ختم اركاديوس ثم بذهابهِ الى الفرما لتحقيق موت خطيبها وما تمَّ لهُ من امر بوقنا الى آخر الحكاية

فانجلت المسألة لاركاديوس جيدًا وسرَّ كثيرًا لنجاة ارمانوسة واعجب بشهامة ذلك الشاب لانهُ كان وسيلة في انقاذها ورأى من نفسهِ ميلاً الى مكاشفتهِ بأمر توسماً للخير منهُ فقال لهُ اما وقد رأيت فيك هذه الشهامة وعلمت ما تكنهُ من الاخلاص لارمانوسة فسأطلعك على امر لم يطلع عليهِ احد سواك ولكنني انتظر ان تكتمهُ وتبقى على شهامتك

فابتدرهُ مرقس قائلاً اني مطيع في كل امر تامرني بهِ الاَّ اذا كان فيهِ ضرر بسيدتي ارمانوسة

فقال اركاديوس حاشا لي ان اريد بارمانوسة سوءًا بل اطلب اليك ان لا تطلع احدًا في امر يمسها باقل ضرر فانها ولا اخفي عنك اعز شخص عندي

فتعجب مرقس لذلك ولم يصدقهُ وظنهُ يريد مغالطتهُ فقال يكفي ان لا تريد بها ضررا

قال انظر يا مرقس وافهم ما اقولهُ لك انت تعلم منزلتي ونسبتي ولا تعجب لمكاشفتي اياك واستسلامي لك فقد آنست منك شهامة ومروءة سهلاً عليَّ ذلك فانت خاطب ثاربة وتعرف قلوب المحبين فاعلم اني احب ارمانوسة حباً شديدًا ولم يعرف بهذا الحب احد سواها وخادمتها بربارة واما امر خطبتي فهو بيدها وقد دفعتهُ اليها عربونَ المحبة واما قسطنطين فهي لا تحبهُ وقد ارسلتك لتحقيق موتهِ لعلها تنجو منهُ . واوضح لهُ حكايتهُ بقدر ما يسمح لهُ مركزهُ وقال . وقد جئت الآن سرًّا عن كل من في الحصن لانقاذها اذ بلغني ان قسطنطين بعث يستقدمها مع بوقنا اما وقد خاب مسعى بوقنا فاكلفك امرا ارجو ان تسعى فيهِ بالحزم والدراية بحيث لا يلحظ منك احدٌ شيئاً فانا اريد مقابلة ارمانوسة قبل عودتي الى الحصن ولكني لا استطيع الدخول الى بلبيس لئلا يعرفني احد في الرأي

قال الامر لسيدي فهل تريد ان تواقيك الى مكان خارج المدينة على انفراد
قال نعم اريد ولكن كيف يمكن ان يكون ذلك بغير ان ينكشف امرنا
فتفكر مرقس قليلاً ثم قال ارى ان أكاشف سيدتي ارمانوسة بما دار بيننا وادعوها الى منزل خطيبتي بدعوى انها تريد ان تتنكر لها وتقوم بواجب العبودية
فقال اركاديوس ولكن لا اظنها تذهب وبين بلبيس والقرية مسافة طويلة
قال اذا لم تستطع الخروج الينا فاننا ندبر حيلة اخرى
فقال اركاديوس ارى ان اتنكر بلباس مثل لباسك واسير بصفة رسول لمقابلة السيدة ارمانوسة فتأخذ انت هذا الجواد وتسير به الى القرية وتحتفظ هناك حتى اعود انا فتكون انت في انتظاري على الطريق فاركب واسير بطريقي
فقال مرقس لقد رأيت حسنًا فهل اعطيك ثيابي الآن قال هات خوذتك ورداءك وسيفك وخذ هذه الدرع وهذا الحسام وهذا الفرس واذهب الى القرية واحذر ان تخبر احدًا بانك رأيتني او عرفت شيئًا عني
فتبادلا الثياب واخذ مرقس الفرس والدرع والحسام وسار قاصدا القرية وسار اركاديوس كأنه جندي من جنود الروم قاصدًا بلبيس فلما اقترب من الاسوار كانت الابواب قد فتحت واخذ اهل تلك الجهة في قبضها وحملها فدخل هو في جملة الداخلين ولم ينتبه له احد



الفصل الثامن والعشرون

لقاء الحبيبين

اما ارمانوسة فقد باتت تلك الليلة تفكر تارة بمرقس وخطيبته وطورا بتأخر اركاديوس عن المجيء لجدتها بعدان بعثت اليه مرتين وكاشفت بربارة بذلك فقالت اظنه لا يستطيع الخروج من الحصن خلسة خوف الفضيحة او لعله يأتي في صباح الغد
واصبحت باكرا وهي تنتظر رجوع مرقس او من ينبئها بمجيء او خبر خطيبته لانها كانت في قلق عليها فجاءتها بربارة باكرًا تنبئها بان الخفراء عادوا واخبروها

بظفر مرقس بمارية وتمنت ان تظفر هي باركاديوس ايضاً فقالت ارمانوسة وكيف ظفروا بها وماذا فعلوا بذلك الخائن

قالت قد قتلهُ فارس لم يعرفوه بعد

وفيما هما في الحديث جاء بعض الخدم يقول ان رجلاً بالباب يريد مقابلة السيدة ارمانوسة

فسألت بربارة عن الرجل فقيل لها انهُ من الجند ولعلهُ رسول فهرولت بربارة وهي تحسب انهُ رسول من اركاديوس فخرجت فاذا هو بلباس مرقس او مثل لباسهِ فظنتهُ لاوَّل وهلة انهُ هو ولكنها لما تأملتهُ علمت انهُ غيرهُ فقالت لهُ ماذا تريد فقال اريد السيدة ارمانوسة فاني رسول اليها من صديقي مرقس وقد جئت لاشكرها بالنيابة عنهُ فقالت بربارة انها لا تزال في الفراش الآن وسأعلمها بقدومك ولا شك انها تسرُّ كثيرًا بنجاة مارية وربما اذا عدت اليها بعد قليل تسرُّ بمقابلتك

فقال لا بل اريد مقابلتها الآن . وكان يكلمها باللغة القبطية

فعجبت لهذه الجسارة وتأملت وجه الرجل فاذا هو روماني فلاح لها انها تعرفهُ ولكنها لم تنتظر ان يكون اركاديوس لما رأت من لباسهِ وحالهِ

فقالت ولكن ربما كانت سيدتي غير مستعدة لمقابلة احد الآن

فامسكها بيدها وقال اظنها اذا عرفت من انا لا تمتنع عن مقابلتي فاني رسول جئتها ببشارة حسنة من اركاديوس بن الاعيرج فهل تعرفينهُ يا بربارة

فلما سمعت بربارة تلك اللهجة مِنهُ ترجح لديها انهُ هو هو فالتفتت الى ما حولها فلم ترَ احدًا من الخدم فقالت لهُ أعلك سيدي اركاديوس

قال ربما كنت هو (وتبسم) فاين سيدتك يا بربارة

فبغتت وخفق قلبها فرحًا وقالت لهُ تمهل قليلاً لان في دخولك الآن على غفلة خطرًا عليها فاصبر قليلاً غير مأمور لامهد السبيل للاقائك

ثم دخلت على سيدتها وعلى وجهها امارات البشر وهي تضحك فلما رأتها ارمانوسة عجبت لسرورها فقالت لها ما وراءك يا بربارة قالت ما ورائي الاَّ الخير

قالت ومن القادم قالت يقول انهُ صديق مرقس وجاء لينبئك بنجاة عروسهِ من يد اللصوص قالت قد سررت كثيرًا بنجاتها ولكنني لا ارى ذلك موجبًا لما اراه من سرورك

قالت وماذا عسى ان يكون سبب سروري اذن وهل تظنين سروري برسول قادم من عند سيدي اركاديوس يكون اكثر من ذلك كلاً لان هذا انما يسرك انت واما انا فلا ناقة لي فيه ولا جمل

فبغتت ارمانوسة ونهضت قائلة هل هو رسول من اركاديوس يا بربارة اخبريني ما هي رسالته

قالت لا اعلم اذا كان رسولاً من اركاديوس او هو اركاديوس بعينه وتبسمت فقالت ارمانوسة ما بالك تخلطين افصحي ألعلك تهزئين بعواطفي وتسخرين بقلبي

قالت حاشا لله يا سيدتي كيف تقولين ذلك وانت تعلمين احترامي لك أما الواقف بالباب الآن فاما ان يكون اركاديوس او رسولاً من عند اركاديوس وقد تركت امر تمييزه لبعد مشورتك فهل تريدين ان يكون اركاديوس أو رسولاً من عنده

قالت لا أعلم سلي قلبك · ولكن أرجو أن تسرعي في الافصاح فقد نفذ صبري هل هو أركاديوس أو رسول من عنده قولي

قالت اذا كنت لا تغضبين فاقول انه سيدي وحبيبك اركاديوس فهل تأذنين له بالدخول فخفق قلبها فرحاً وبغتة وعلا وجهها الاحمرار ثم غشاه الاصفرار وقالت وصوتها يرتجف فليدخل ثم استأنفت فقالت ولكن تمهلي يا بربارة اني أرى قلبي يخفق كثيرًا ولا ادري ماذا يتم لي عند مقابلته

فقالت لها تشددي وتجلدي والاَّ فاني اقول له ان سيدتي ليست هنا او انها لا تريد مقابلتك · ولكن لا يخفق قلبك فانه لابس لباس الجند حتى تكادي لا تعرفينه فهل يدخل

قالت كيف لا اعرفه · فليدخل

فخرجت بربارة وعينا ارمانوسة تشيعها وقد احست بارتعاش وبرود في اطرافها · ولم تصدق انها عادت ودخل وراءها اركاديوس وحالما وقع نظره عليها نزع خوذته عن رأسه واقترب منها وهي جالسة الى المقعد فارادت الوقوف فتنازعها الحياء والارتعاش فلم تستطع اما هو فمد يده اليها فمدت يدها فتصافحا فاحس اركاديوس ببرد اناملها وارتعاشها ونظر الى وجهها فاذا بالاحمرار يعلوه وقد اطرقت لا تستطيع النظر اليه لشدة التأثر «ستأتي البقية»

تاريخ السودان الحديث

محمد احمد المتمهدي

(تابع ما قبله)

تركنا المتمهدي في الأبيض وقد دانت له كردوفان وآمن به معظم اهل السودان فأخذ ينظم حكومته على نظام غير نظام الحكومة . وأهم اقسام الادارة على ابسط وجوهها ثلاثة الجند والمال والقضاء . فجعل على الجند خليفته عبد الله التعايشي قائدًا عامًا لجماعة الدراويش يدبر حركاتهم . وانشأ ادارة سماها بيت المال وفيه تحفظ الاموال كالعشور والغنائم والفطرة والزكاة والغرامات التي يضربونها على شارب المسكر او السارق وعهد بادارة بيت المال الى صديق له اسمه احمد ولد سليمان أما القضاء فاقام عليه رجلاً اسمه احمد ولد علي كان قاضيًا في دارفور وسماه قاضي الاسلام . وكان محمد احمد منذ اوائل ظهوره قد عين خلفاءه وجعلهم اربعة مثل الخلفاء الراشدين يتولون الامر بعد الواحد بعد الآخر أولهم عبد الله التعايشي والثاني علي ولد الحلو والثالث محمد الشريف والرابع محمد السنوسي ولكن هذا رفض الخلافة

وعلم هذا المتمهدي ان الحكومة المصرية ستحمل عليه بكل قوتها لاستخراج كردوفان من يديه فاخذ يحث الناس على الجهاد ويحقر الدنيا في اعينهم ويحبب الآخرة اليهم وهم يفدون اليه زرافات وقبائل يتبركون به وقد آمنوا بدعوته بعد ان ذاقوا الراحة والاستقلال على يده فتخلصوا من الضرائب ونجوا من الباشبزوق واستبدادهم فاعتقدوا انه المهدي المنتظر الذي جاء « ليملأ الارض عدلاً وقسطًا كما ملئت جورًا وظلمًا » ومما ساعدهم على هذا الاعتقاد تظاهر هذا الرجل بالتقوى والزهد فلم يكن يلبس غير السراويل والجبة فوقها منطقة من خوص يقضي نهاره في الصلاة ونشر المنشورات يحث بها الناس على ترك الدنيا والتمسك بالآخرة ويضع لهم القوانين والاحكام ومن امثلة ذلك منشور نشره من الأبيض سنة ١٣٠١ وقعت لنا نسخة منه ننشرها مثالاً لتعاليمه وهاك نصها بالحرف الواحد على علاتها اللغوية

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم . وبعد فمن عبد ربه محمد المهدي بن السيد عبد الله اعلامًا منه الى كافة المشائخ في الدين والامراء والنواب والمقاديم اتباع المذكورين . يا عباد الله اسمعوا ما

أقول لكم وكونوا على بصيرة واحمدوا ربكم واشكروه على النعمة التي خصكم الله بها وهو ظهورنا فهو شرف لكم على سائر الامم ولكن المطلوب منكم يا أحبابنا المهاجرة في سبيل الله والمجاهدة في سبيل الله والزهد في الدنيا وكل ما فيها الى البوار ولو كانت لها بال لكان ربكم يحابيها وانظروا في اهلها الذين كانت في كل ما يطلبوه وصارت لهم بعد ما كانت عسلاً حنظلاً وسماً وصاروا في غاية العذاب والهلاك بعده وشدة التعب والمشقة ولو كان فيها خير لما صاروا هكذا و بعد ذلك فلهم العذاب الشديد فان عجبكم هذا فافعلوا والاَّ فاتقوا الله وكونوا مع الصادقين وجاهدوا في سبيل الله فلهزة سيف مسلم في سبيل الله افضل من عبادة الله سبعين سنة ووقفة في الجهاد قدر فواق ناقة يعني حلبة ناقة أفضل من عبادة سبعين سنة وعلى النساء الجهاد في سبيل الله فمن صارت قاعدة وانقطع منها ارب الرجال فلتجاهد بيديها و رجليها والشابة فليجاهدن نفوسهنّ و يسكنّ بيوتهنّ ولا يتبرّجن تبرّج الجاهلية الاولى ولا يخرجن الاّ لحاجة شرعية ولا يتكلمن كلاماً جهرًا ولا يسمعن الرجال أصواتهنّ الاّ من وراء حجاب ويقمن الصلاة و يطعن ازواجهنّ ويسترن بشابينّ فمن قعدت كاشفة فاتحة رأسها ولو لحظة عين فتؤدب وتضرب سبعة وعشرين سوطًا ومن تكلمت بفاحشة فعليها ثمانون سوطًا ومن قال لأخيه يا كلب او يا خنزير او يا يهودي او يا د . . . او يا م . . . فيضرب ثمانين سوطًا و يحبس سبعة ايام ومن قال يا فاجر او يا سارق او يا زاني او يا خائن او يا ملعون فعليه ثمانون سوطًا او يا كافر او يا نصراني او يا لوطي فعليه ثمانون سوطًا ويحبس سبعة ايام ومن تكلم مع اجنبية وليس بعاقد عليها ولا لامر شرعي يجوز ذلك الكلام فيضرب سبعة وعشرين سوطًا ومن حلف بطلاق او حرام يؤدب سبعة وعشرين صوتًا ومن شرب الدخان يؤدب ثمانين ويحرق التنباك ان كان عنده وكذلك من خزنها في فمه ومن عملها بأنفه ومن ابقاها فيه يؤدب مثل ذلك ومن باعها واشتراها ولم يستعملها يؤدب سبعة وعشرين سوطًا ومن شرب الخمرة ولو مصة ابرة فيؤدب ثمانين سوطًا ويحبس سبعة ايام وجاره ان لم يقدر عليه يكلم امير البلد وان لم يكلمه فيضرب ثمانين سوطًا و يحبس سبعة ايام ومن ساعد شارب الخمر بشربة ماء او اناء فيؤدب كذلك ويحبس ويجاهد نفسه في طاعة الله حقيقة اشد من الجهاد بالارماح لان النفس اشد من الكافر مقاتلة فالكافر نقاتله ونقتله وتكون لك الراحة

منهُ وهي عدوة في صورة حبيب فقتلها صعب ومسلكها تعب · ومن ترك الصلاة عمدًا فهو عاصي الله ورسولهِ قيل كافر وقيل يقتل وجاره ان لم يقدر عليهِ يكلم امير البلد فان لم يكلمهُ فيضرب ثمانين سوطًا ويحبس سبعة ايام وقيل اموالهم غنيمة وبنت خمس سنين ان لم يسترها اهلها فيضربون من غير حبس ومن علم بأمة معها زوج بغير عقد وصبر يومًا قيل يقتل وقيل يحبس ومالهُ غنيمة واعلموا ايها الاحباب ان خلافتكم وامارتكم ونيابتكم عنا في الاحكام والقضايا لاجل ان تشتغلوا على الخلق وتزهدوهم في الدنيا ليتركوها وترغبوهم في الآخرة ليرغبوها ويطلبوها وتعلموهم عداوة نفوسهم ليحذروا منها وتنصفوا من انفسكم اذا ادعوا عليكم فيها فما اشكل عليكم فأمروهم فيهِ بالصبر لغاية طلب الامراء وجمعهم عدنا ويصير تخبيره بحسب الحكم فيهِ من الله ورسولهِ واعلموا يقينًا ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وكونوا عباد الله مع الذين يستمعون القول فيتبعون احسنهُ واعلموا ايها الاحباب ان القضايا التي كانت من اثني عشر رجب الماضي سنة ١٣٠٠ ببقعة ماسة قد صار رفعها مطلقًا ما عدا الامانة والدين ومال اليتيم واما التي بعد الاثني عشر رجب الماضي وقبل الفتوح تسمع فيهِ الدعاوي واما قتل النفس فتبيَّن تفصيل في كونهِ مخير ولي المقتول في اخذ الدية او القصاص واما بعد الفتوح بالنسبة الى العمد فيتعين فيهِ القصاص لا غير فاعملوا بذلك طبق المنشور وكذلك مال الخلع اخذهُ عمومًا من الازواج بعد الدخول بهنَّ والاستمتاع بهن والاستيلاء عليهن فلا يصح اخذهُ منهنَّ فاحكموا فيهِ بالحكم الذي فصلهُ الله تعالى في القرآن العظيم واعلموا يا احبابي ولا تخالفوا وامتثلوا الامر وكونوا سامعين طائعين لامري ولا تغيروا ولا تكفروا النعمة التي من الله عليكم بها فقيدوها بالشكر · وتزوج الغني بعشرة ريال مجيدي او انقص والعزبة بخمسة ريال مجيدي او انقص ومن خالف هذا فعليهِ الادب بالضرب والحبس في السجن حتى يتوب او يموت في سجنهِ ومقطوع من اهل زمرتنا ونحن بريؤن منهُ وهو بريءٌ منا والسلام» (الختم)

وكان مع ذلك لا يغفل طرفة عين عن بث العيون والارصاد لاستطلاع حركات الحكومة ومعرفة نواياها فكان يعرف كل ذلك في حينهِ معرفة تامة فلا تحدث حادثة او تنوي الحكومة نية او تخطو الجنود المصرية خطوة الاَّ ويعلم بها هو · وارسل في اثناء ذلك قواده تبث دعوتهُ في انحاء السودان فبعث عثمان دقنة الى السودان الشرقي

يتولى قيادة العصاة هناك وارفقه بالمنشورات الى قبائل السودان الشرقي لتكون عضداً له وكان عثمان دقنة هذا من تجار الرقيق في سواكن وكان ناقماً على الحكومة

حملة هيكس باشا

هذه هي الحملة التي زادت الويلات على مصر وكان من امر فشلها وهلاكها ما هو أشهر من نار على علم فيجدر بنا بسط وافعتها وسبب هلاكها وكيفيته لان الناس ما زالوا حتى الآن يعجبون لهلاك تلك الحملة وذهابها ادراج الرياح وعدد رجالها احد عشر الفاً او تزيد معظمهم من الجنود المنظمة

جاء هيكس باشا في بادئ الرأي الى الخرطوم والحكومة لم تصم على فتح الأبيض فاقام هناك مدة فبلغه ان بضعة آلاف من العصاة البقارة بقيادة الامير احمد المكاشف وكيل المتمهدي هناك فخرج اليهم هيكس وحاربهم عند مرابية بالقرب من جزيرة ابا فقتل المكاشف وعدد من قواده ورجاله وفر الباقون وكان لتلك الواقعة تأثير حسن في ارجاع ثقة اهالي سنار والخرطوم الى الحكومة وقوة جنودها

فصممت الحكومة على ارسال حملة تفتح الابيض فكتب هيكس باشا الى الحكومة بالقاهرة انه لا يتحمل مسئولية هذه الحملة الا اذا كانت القيادة اليه وحده فسلمت له بذلك ولكنها ارسلت معه علاء الدين باشا حكمدار الخرطوم فطلب هيكس مدداً من الرجال والمال وسار علاء الدين باشا الى شرقي النيل الازرق فاستحضر اربعة آلاف جمل وفي اواخر اوغسطس تمت كل معدات الحملة فاجتمعت في ام درمان . وفي ٨ سبتمبر استعرض هيكس باشا جنوده وفي ٩ منه خرجت الحملة من ام درمان قاصدة الدويم وبينها مئة وعشرة اميال وكانت تلك الحملة مؤلفة من اربع ارط من الجنود المصرية معظمهم من الذين حاربوا في سبيل الثورة العرابية وخمس ارط سودانية وارطة من الطبجية والخيالة وكانت الجنود المصرية تحت قيادة سليم بك عوني والسيد بك عبد القادر وابراهيم باشا حيدر ورجب بك صديق . والباشبوزوق بقيادة خير الدين بك وعبد العزيز بك ووالي بك وملحم بك ويحيى بك . والطوبجية والسواري بقيادة عباس بك وهبي وبلغ عدد جنود الحملة احد عشر الفاً منهم سبعة من المشاة المصريين والباقون من الباشبوزوق والخيالة وتوابع الحملة من الجمالة وغيرهم وفيها ٥٥٠٠ جمل و ٥٠٠ فرس واربعة مدافع كروب وعشرة مدافع جبلية وستة من نوع النوردنفلت

وكان فيها من الضباط الافرنج الكولونيل فركودار رئيس اركان حرب والبكباشية سكندروف و وورتر وماسي وإيناس وغيرهم ومكاتبو التمس والدالي نيوز والغرافيك

وفي ٢٠ سبتمبر وصلت الحملة الى الدويم وهناك اجتمعت بعلاء الدين باشا اما هيكس فكان لا يزال في الخرطوم وقد ارسل تلغرافاً الى القاهرة أنبأ الحكومة بخروج الحملة من الخرطوم و بيّن الصعوبة التي ينتظر ملاقاتها في طريقه نظراً لحرارة الاقليم وقلة المياه وكان في عزمه ان يجعل مسير الحملة من الدويم الى الابيض عن طريق باره وطول هذه الطريق ١٢٦ ميلاً يقيم في اثنائها محطات فيها قوات عسكرية لحفظ خط الرجوع (خط الاتصال) الى الدويم فيفتح اولاً باره يقيم بها مدة ثم يخرج على الأبيض



﴿ خريطة طريق حملة هيكس باشا ﴾

فلما جاء الدويم وانضم الى الحملة تفاوض هو وعلاء الدين باشا في الامر فقال علاء الدين انه ارسل اناساً جسوا الارض فقالوا ان طريق باره قليلة المياه وان

احسن طريق للابيض يمثل هذا الجند الكبير طريق خور ابو حبل والرهد الى الجنوب فان الماء كثير فيها نعم ان طولها ٣٥٠ ميلاً ولكن مئة منها سهلة يسير بها الجند بكل راحة والماء كثير الآ ان المسافة بين الدويم ونوراني وطولها ٩٠ ميلاً قليلة المياه فاقنعة علاء الدين باشا ان الماء في تلك المسافة يسهل الحصول عليه وبناء على ذلك قرّر ان تسير الحملة عن طريق خور ابو حبل فوصلوا في ٢٤ سبتمبر الى شات واستولوا على آبارها وانشأوا نقطة عسكرية . وبدأ الجند منذ خروجهم من الدويم يقدرون العواقب الوخيمة وينتظرون البلاء العظيم . وكان سيرهم على شكل مربع يتأهب للقاء العدو في مقدمته الدليلان فالطلائع فالضباط العظام واركان الحرب ثم المربع وهو مؤلف من المشاة المصريين وفي ساقته الخيالة والجمال والاحمال والاثقال وفي وسط المربع الطوبجية وقد شبه سلاتين باشا ذلك المربع بغابة من الرؤوس والاعناق اذا أطلق العدو عليها رصاصة يستحيل ان تخطئها كلها

وزد على ذلك ان الجمال لم تكن تستطيع المرعى بالنظر الى انحصارها في المربع فجاعت وأكلت قش ارحالها وخارت قواها حتى مات كثير منها . وفي ٣٠ سبتمبر وصلت الحملة الى قرية تبعد ٣٠ ميلاً عن الدويم اسمها زريقة

كل ذلك والحرارة تشتد واللغط يتعاظم بين الجند وكلهم خائف من سوء العاقبة ثم حدث نفور بين هيكس وعلاء الدين سببه اختلافهما في الرأي بشأن خطة المسير فرأى علاء الدين ان النقط العسكرية في خط الاتصال لا حاجة اليها لانها تقلل عدد الجند فخالفه هيكس في ذلك لان قطع ذلك الخط يقطع كل امل برجوع احد من رجال الحملة حياً اذا قدّر انكسارها في ساحة الحرب على انهم لم ينشئوا نقطة عسكرية بعد شات

أما محمد أحمد فحالما علم بسير حملة هيكس جمع رجالة ودعاهم الى الجهاد في سبيل الله وخرج بنفسه وعسكر بقرب شجرة كبيرة بضواحي الابيض ينتظر وصول الحملة فاقتدى به خلفاؤه وامراؤه فخرج كل منهم برجاله وعسكروا هناك وبنوا الاكواخ والتكول (نوع من العشش)

أما الحملة فما زالت سائرة تسعف سحناً كأنها مثقلة بالقدر المحتوم حتى وصلت عقيلة (ابجلاً) في ١١ اكتوبر وفي ١٤ منه وصلت بحيرة شركلا فتناولت شيئاً من مائها وهي لم تزدد

الاَّ يأساً وخوفاً . وكانت الحكومة المصرية قد انبأت هيكس باشا قبل خروجه من الدويم ان ستة آلاف من اهل جبل تاج الله وبعض الحبانية سينضمون اليهِ فكان ينتظر وصولهم بفروغ صبر فذهب انتظاره عبثاً . وقبل ان تصل الحملة بحيرة الرهد بقليل فرّ منها رجل الماني اسمهُ كلوتس من صف الضابطان والتجأ الى العصاة ولكنهُ لم يكن يعرف الطريق فلقيهُ بعض الدراويش فارادوا قتلهُ فاشار اليهم انهُ جاء بمهمة فأرسلوه الى الابيض فوقف بين يدي المهدي واخبره عن الضيق المحدق بالحملة وما هي فيهِ من اليأس فكانت خيانة هذه مساعداً كبيراً على هلاك حملة هيكس فسرّ المتمهدي سروراً لا مزيد عليهِ واسلم كلوتس هذا وحي مصطفى وبعث المهدي الى هيكس ورجالهِ ينصح لهم ان يسلموا اليهِ ويؤمنوا بهدويتهِ فلم ينل منهم جواباً فضلاً عن احتقارهم كتبهُ واستخدام اوراقها في سبيل هاجت غضب المتمهدي

ووصلت الحملة الى الرهد في ٢٠ اكتوبر فاقامت هناك ٦ ايام شاهدت في أثنائها طلائع الدراويش وشرذمات منهم يهاجمونها وفي ٢٦ اكتوبر سارت ولم تكد تترك معسكرها حتى احتلهُ العصاة فعلم علاء الدين اذ ذاك خطأه في اهمال خط الاتصال وقد اصبحوا محاطين بالعدو من كل الجهات وكانوا في عزمهم المسير الى الابيض عن طريق البركة ولكن الجواسيس اخبروا هيكس ان العصاة نزلوا البركة ومعهم خلفاء المهدي وامراؤه بعددهم ورجالهم فتشاور علاء الدين وهيكس في هل يرجعون الى الرهد او يسيرون الى كشجيل ومنها الى ملبس فالابيض لان خور ابو حبل ينشعب عند الرهد الى شعبتين تسير احداها الى البركة والاخرى الى كشجيل فقرّ الرأي على المسير الى كشجيل فساروا في ٢ نوفمبر عشرة اميال بين الغابات والاحراج وقد اخطأوا الطريق ثم وقفوا وانشأوا زريبة باتوا فيها الى الصباح فاستأنفوا المسير حتى صاروا على مسافة ميلين من شيكان بين كشجيل والبركة وقد اجهدهم العطش فهجم عليهم شرذمة من العصاة فتبادلوا اطلاق الرصاص وقبضوا على بعض منهم فعلموا ان الدراويش هناك بكثرة عظيمة فجمع هيكس باشا كبار رجالهِ وعقدوا مجلساً تشاوروا فيهِ فلم يقروا على امر وكثر اللغط بين الجند وتسلط الرعب على قلوبهم وايقنوا بالهلاك وفي الصباح التالي عوَّل هيكس على المسير تحت رحمة الله فجعل جيشهُ ثلاثة مربعات وسار في طريق وعرة كثيرة الاشجار والصخور فحصل بينهُ وبين الدراويش موقعة قتل

فيها كثير من رجاله ثم سار ايضاً فلم يمض ميلاً حتى هاجموه ثانية في شيكان وقد رأينا في منشور أرسله المتمهدي الى عثمان دقنه يخبره بتلك الواقعة ويسمي مكان وقوعها علوبة وكانت تلك الهجمة القاضية لم تبق على تلك الحملة ولم تذرلان الدراويش هاجموها من كل جانب حتى صار الجنود المصريون يطلقون الرصاص بعضهم على بعض وهم لا يعلمون فقتل هيكس وكل قواده وجنده ولم ينج منهم الآنحو ثلاثمائة رجل اكثرهم من الضعفاء الذين اختبأوا بين الشجر او تحت جثث القتلى وفي جملتهم رجل اسمهُ محمد نور البارودي كان في خدمة هيكس باشا وهو الذي روى اكثر ما تقدم من مهلك هذه الحملة

فرجع المهدي وخلفاؤه وقواده الى البركة وقد سكروا من خمرة النصر وتركوا بعض الامراء يجمعون الاسلاب والغنائم الى بيت المال وبعد ١٥ يوماً عاد المهدي الى الابيض بالمدافع والذخيرة والاموال التي اكتسبوها من حملة هيكس وكان دخوله الابيض باحتفال شائق · ولا ريب ان تغلبهُ في موقعة شيكان جعل حكومة السودان تحت اخمصهِ لان كثيراً من القبائل كانوا يترددون في امره وينتظرون حربهُ مع هيكس باشا فلما علموا بما كان انضموا اليه وصاروا من اعوانه

وكان سلاتين بك (سلاتين باشا الآن) الى ذلك الحين حكمداراً على دارفور وقد قاسى مشقات جسيمة في مناوأة العصاة وتمردهم وكان يرجو الفرج على يد حملة هيكس فلما علم بفشلها لم يرَ بدّاً من التسليم فبعث الى المهدي بذلك وان ينفذ اليهِ بعض اقاربه ليسلم البلاد له فبعث اليهِ الامير محمد خالد ويكنى* زقل اميراً على دارفور واوصاه بسلاتين خيراً فوصلت الدراويش دارا ونهبوها وارسلوا بعضاً من حسانها هدية للمهدي وجاء سلاتين مخفوراً الى الابيض وبايع المهدي واظهر الاسلام والايمان بالدعوة وسمي عبد القادر وهاك نص ايمان البيعة كما رواه سلاتين باشا « بسم الله الرحمن الرحيم بايعنا الله ورسوله وبايعناك على توحيد الله ولا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نأتي ببهتان ولا نعصاك في معروف بايعناك على ترك الدنيا والآخرة ولا نفرُّ من الجهاد » ويظهر ان فيه تحريفاً عن الاصل اذلا يعقل ان يبايعوه على ترك الدنيا والآخرة معاً وهم انما يرغبون في دعوته طمعاً في الآخرة فكيف يبايعونه على تركها والظاهر ان الاصل « ترك الدنيا والتماس الآخرة »

واقام سلاتين من ذلك الحين ملازمًا لعبد الله التعايشي يقف عند بابه في جملة الملازمين

السودان الشرقي

وفيما كان هيكس يتجشم الاخطار في قطع الصحاري والقفار ينتظر القدر المقدور كان عثمان دقنه ينشر دعوة محمد احمد في السودان الشرقي وقد اجتمع حوله احزاب كبيرة . وقد حدثنا صديق فاضل رافق تلك الحوادث في السودان الشرقي وعرف خناياها قال ان توفيق بك محافظ سواكن اذ ذاك تصرَّف مع العربان الذين يتولون خفارة الطريق بين سواكن وكسلا تصرفًا اوجب ثورهم وذلك انهُ ولَّى عليهم شيخًا اسمهُ محمد الامين ليكون مسؤولاً عنهم لدى الحكومة على جاري العادة وكانوا يكرهون هذا الرجل فالتمسوا من المحافظ ان يبدلهُ بسواه فأبى الاَّ توليتهُ فغضبوا جميعًا ونفروا من الحكومة وهم كثار واتفق مجيء عثمان دقنه بمنشور المهدي فانضموا اليهِ جميعًا فاشتد ازره بهم ثم انضم اليهِ غيرهم فسار لمناوأة الحكومة في سواكن وضواحيها فهاجموا سنكات في ٥ اوغسطس سنة ١٨٨٣ ولكنهم عادوا خاسرين فساروا الى طوكر وحاصروها فارسلت الحكومة محمود طاهر باشا قائد حامية السودان الشرقي لانقاذها فباغتهُ الدراويش وكسروهُ شر كسرة وحاولت الحكومة مقاومة الدراويش بكل وسيلة وحصلت مواقع كثيرة في تمانيب وترنكتات وغيرها فلم تعد منهم بطائل وما زالت سنكات وطوكر محاصرتين تطلبان المدد فأعدت الحكومة في اوائل سنة ١٨٨٤ حملة تحت قيادة باكر باشا سارت الى سواكن لفتح الطريق بين سواكن وبربر وطرد العصاة من البلاد الواقعة بينها فسارت ومعها نجدة من مصوَّع وكسلا فلاقاها العصاة في التب بغتة في ٣ فبراير فحاربوها فتشتت وعادت بخفي حنين كل ذلك وحامية سنكات لا تزال محاصرة وفيها توفيق بك محافظ سواكن المتقدم ذكره وكان رجلاً باسلاً شهمًا اظهر في حصاره شجاعة لم تعهد الاَّ بالقليل من الناس وقد جاء سنكات عرضًا وانحصر فيها وسنكات قرية صغيرة لا تزيد حاميتها على ستين رجلاً وقد ضيق عثمان دقنة السبل عليها وقطع المؤن عنها حتى كاد اهلها ان يهلكوا جوعًا فكتب عثمان الى توفيق ان يسلم فلا يقتلهُ فأبى الاَّ البقاء على ولاء الحكومة فلما جاء باكر باشا وعاد خائبًا بعث عثمان اليهِ ان يسلم فيسلم وان الامل بانقاذه قد انقطع فلم يجبهُ الاَّ بالثبات ولما رأى توفيق بك اخيرًا ان المؤن فقدت والجند جاعت واهل البلد ماتت جمع اليهِ رجالهُ واهل

سنكات وشاورهم في الامر وحثهم على الثبات على ولاء الحكومة فقالوا نحن على ما تريد فقال اذ قد نفد زادنا والطريق مقطوع بيننا وبين المدد فلنخرج مستقتلين فاما ان نسير الى سواكن واما ان يلاقينا العصاة فندافع عن انفسنا حتى الموت

فخرجوا في اوائل فبراير سنة ١٨٨٤ بعد ان هدموا الطوابي واخربوا المنازل وما ساروا ميلين حتى لاقاهم عثمان دقنه برجاله وهاجموهم فقاتل توفيق بك حتى قتل شهيد الامانة والشهامة ولم ينج من رجاله واهل القرية الاَّ نفر قليلون

وكان ذلك من جملة العوامل لتأييد دعوى المهدي ونشر سطوته وخوف الحكومة عاقبة امره . وبدلاً من مواصلة العمل في كبح جماح العصاة واسترجاع ما ملكوه من بلادها أقرَّت بمشورة الحكومة الانكليزية على اخلاء ما بقي من السودان في قبضتها وسحب جنودها منها والتخلي عن السودان المصري كله للدراويش واصدرت بذلك أمرًا عاليًا بتاريخ ٨ يناير سنة ١٨٨٤ وانفذت الحكومة الانكليزية الجنرال غوردون باشا الى السودان للنظر في افضل الوسائل لسحب حامية السودان وسكانها من الافرنج وغيرهم وتثبيت حكومة مستقلة على سواحل البحر الاحمر وغير ذلك فسار غوردون باشا ومعهُ الكولونيل ستيوارت كاتم اسراره فوصل القاهرة فأنبأهُ السير افلن بارنغ (اللورد كرومر) ان الحكومة الانكليزية قد فوضت اليهِ اخلاء السودان واعادة حكم الامراء الذين كانوا يحكمونها عند ما فتحها محمد علي باشا ويقال لهم الملوك او ان يولي غيرهم كما يتراءى له

فسار غوردون عن طريق كروسكو وابي حمد فوصل بربر في ٩ فبراير سنة ١٨٨٤ وفي ١٨ منهُ وصل الخرطوم فتلقاه اهلها بالاكرام وكان السودانيون يحبونهُ ويكرمونهُ للين جانبهِ وكرم اخلاقهِ . ومن الغريب ان يسير غوردون بنفسهِ بلا جيش الى بلاد اشتعلت بنار الثورة ولكنهُ كان كثير الاتكال على الله وقد صرَّح بذلك عند وصولهِ الخرطوم فقال « لم آت لانقاذ السودان بجيش ولكني اتكلت على الله فلا احارب الاَّ بسلاح العدل »

لكنهُ لم يلبث ان حاصرهُ الدراويش وكان ما كان من أمر قتلهِ وسقوط الخرطوم كما سيأتي

باب المقالات

الكوليرا والوقاية منها

نظرًا لعود الكوليرا الى الاسكندرية في هذا الاثناء وظهورها في بعض احياء القاهرة رأينا ان نعود الى الكلام بشأنها مرة اخرى

نرى الناس يخافون غائلة هذا الوباء خوفًا شديدًا لا نرى داعيًا اليهِ فهم يتوهمون انهُ هواء ينتقل من بلد الى آخر يحمل سمّ المرض فاذا تنفسهُ الانسان أصيب بذلك الداء حتى قد يحمل بعضهم منديلة على انفهِ حذرًا من استنشاق الهواء الفاسد . وقد ذكرنا غير مرة ان الاطباء قرّروا نهائيًّا بعد الامتحانات العديدة والمشاهدات المتكررة ان الكوليرا لا تنتقل عدواها الاَّ باللمس عن طريق الامعاء وبعبارة اخرى لا تنتقل عدواها الاَّ بواسطة الطعام والشراب فاذا كان طعامك وشرابك نظيفين فأنت في مأمن من غائلة هذا الداء ولكن لا بد من اعتبار الملاحظات التي قدمناها في هذا الصدد بالهلال السادس عشر من هذه السنة عن ابسط الوسائل واسهلها واصدقها للوقاية من الهواء الاصفر وخلاصتها الاعتناء بنظافة الطعام والشراب والاعتدال في كل شيء والوقاية من البرد والحرّ والانتقال من احدهما الى الآخر بغتةً فغسل اليدين قبل تناول الطعام ضروريّ وسهل وبعض الناس يجعلون اصابعهم في افواههم يقرضون اضافرها او لغاية اخرى وهي عادة قبيحة خطرة يجب تجنبها بالكلية فلا تدنِ يدك من فمك الاَّ عند الطعام فقط ولا تدنها الى فمك الاَّ بعد غسلها . هذه هي زبدة الوسائل الوقائية فاعتبرها

والماء يجب غليهُ قبل استخدامهِ للشرب اولسواه فاغل الماء واجعلهُ في زيرين ليبرد واستخدم احدهما للشرب وغسل الوجه والآخر لغسل آنية الطعام من الصحون والحلل والاقداح وغيرها وبعبارة اخرى لا تستخدم الماء الاَّ مغليًّا . ولا تأكل الاَّ طعامًا مطبوخًا على النار وتجنب كل طعام يسبب الاسهال او يساعد عليهِ وقد نشر

المجلس البلدي الاسكندري منشورًا يتضمن وصايا صحية للعمل بها في اثناء ظهور الكوليرا ننشرها بحروفها لانها خلاصة بحث مصلحة الصحة في الوقاية من هذا الداء وهي

« توجد جرثومة وباء الكوليرا في براز المرضى او في استفراغهم او في غائطهم فينتشر المرض بواسطة جميع الاشياء التي تكون قد لامست البراز مباشرة او بالواسطة كأيدي الذين يعتنون بالمرضى مثلاً وكأمتعة المرضى وملابسهم وادوات فراشهم كما ان الاصناف الغذائية وخصوصاً الماء قد تفسد مباشرة او بالواسطة من براز المصابين مما يكون سبباً آخر في انتشاره فيجب اذًا ان نتخذ على الاخص الوسائل الآتية وهي

« (اولاً) لما كانت جرثومة الكوليرا تقتلها الحرارة لا يجب ان تؤكل الا الاشياء المغلية جدًا او المشوية وينبغي الامتناع على الاخص من اكل النباتات غير الناضجة كالسلطة ونحوها ومن اكل الاثمار . وفي جملة المشروبات يخشى كثيرًا من الماء واللبن فيجب اذًا اغلاؤهما بمزيد الاعتناء

« ولا فائدة من اتخاذ مثل هذه الوسائل في اصناف المأكولات والمشروبات اذا كانت توضع بعد ذلك في اوعية لم يعتن بأمرها فينبغي اذًا تنظيف الصحون والكبايات والاواني جيدًا وغسلها بالماء المغلي

« ولا ضرر من النبيذ والبيرة الجيدين ولا من المياه المعدنية الواردة من الخارج

« (ثانيًا) يجب الانتباه الى النظافة التامة في الاجسام وفي البيوت ومن المؤكد ان الاشخاص القذرين هم الذين يصابون كثيرًا بالوباء

« وينبغي الاحتراس من الذهاب الى البيوت التي تحدث فيها اصابات بالوباء

« وعلى الذين يعتنون بأمر المرضى ان يتخذوا كل النظافة التامة فيلزمهم قبل كل شيء ان يغسلوا ايديهم بكل اعتناء بعد لمس المرضى او ما يكون مختلطًا بهم ويستصوب بعد ذلك ان يبلوا ايديهم ايضًا في محلول السليماني او في حمض الفينيك وهو امرٌ لا بد منهُ قبل الاكل

« (ثالثًا) يجب تطهير براز المرضى حالاً بحمض الفينيك او بذوب الجير

« أما الامتعة التي يوسخها المصابون بالكوليرا فيجب وضعها حالاً في الماء المغلي او في ماء محتوٍ على الحامض الفينيك

« ويلزم الاحتراس كثيرًا من اهمال البراز والامتعة الغير المطهرة لأن الذباب

الذي يقف عليها ينقل جراثيم المرض بكل سهولة وعلى الاخص نحو الغذاء الذي يعود بأشد الضرر

« (رابعًا) يلزم في زمن الوباء عدم الاغفال عن أي مرض مهما كان خفيفًا ولا سيما الاسهال مهما كان نوع الاصابة فينبغي الاسراع بقدر الامكان في استشارة الطبيب لأن المرض اذا امكن معرفتهُ ومعالجتهُ وقت ظهوره يؤمل شفاؤُه اكثر بكثير مما لو ظهرت دلائلهُ الخطيرة ولا شيء يعود باكثر ضرر واذى على المريض وعائلتهِ من اخفاء الاصابات بالكوليرا

« ويوجد ليلاً ونهارًا في كل مخفر (كراكون) طبيب مستعد لمعالجة الفقراء مجانًا ولتقديم الادوية اللازمة لهم

« (مقدار السوائل الواجب استعمالها مذوبة بالماء)

« (ا) محلول السليماني واحدًا في الـ ٢٠٠٠ من الماء (ب) محلول حمض الفينيك ٣ في المائة من الماء (ت) كلورور الجير ١٠ في المائة من الماء (ث) مذوب الجير الغير المطفى ٢٠ في المائة من الماء ويلزم تحريك مذوب الجير جيدًا قبل استعمالهِ » انتهى

وبين يدينا كتاب في « الوقاية من العدوى » ألفهُ حديثًا حضرة النطاسي البارع الدكتور سليم افندي شمعون نزيل الاسكندرية اقتطفنا منها نبذة بشأن الوقاية من الكوليرا حرية بالمطالعة ننشرها لزيادة الفائدة قال

« وكيفية انتشار هذه العلة (الكوليرا) ان جسيماتها تخرج من المصاب في برازه فتعلق بثيابهِ او فراشهِ او ما تصل اليهِ من امتعة المنزل او تصل الى مياه الشرب من المراحيض أو المجاري حيث يطرح البراز فتدخل جوف الاصحاء بالماء فتتوالد وبكثر عددها اذا وجدت فيهم استعدادًا لنموّها ولا تتطاير في الهواء كجسيمات الدفتيريا مثلاً واذا استنشقت فلا تسبب الداء . واذا حدثت اصابة بهذا الوباء على ضفاف احد الانهر واتصل براز المريض بما فيهِ من الجسيمات الوبائية بمائهِ او بطرحه فيهِ او بأن يتخلل الارض اليهِ من المراحيض والمجاري او بأن تغسل فيهِ الخرق الملوثة بشيء منهُ بان تلك الجسيمات تنمو ويكثر عددها فيهِ وتسير مع تياره الى اوّل بلدة تستقي من مائهِ فتدخل اجواف أهلها مع الشراب او الطعام الذي دخلهُ شيء من ذلك الماء

فيصاب بالعلة منهم كل من في جسمه استعداد لها وتنتشر وافدة في تلك البلدة . واذا كان بالقرب منها بلدة اخرى لا تستقي من ذلك النهر فقد يصل الوباء اليها مع الانسان بذهاب احد المصابين به او الناقهين منه اليها او وصول امتعة ملوثة ببراز مصاب فتصل منها الى المياه وتدخل جوف الاصحاء فيصابون وما يطلق على الانهر يصح ان يطلق أيضًا على الينابيع والآبار التي يستقي منها جماعة من الناس فان مدينة بيروت كانت قبل جلب المياه اليها من نهر الكلب تستقي من الآبار وبعض الينابيع فكان الوباء اذا دخلها فتك بأهلها فتكًا ذريعًا وانتشر بينهم بسرعة شديدة فلما جلبوا الماء اليها من لبنان حيث لا يصل الوباء وصارت المياه محفوظة داخل انابيب رصاصية متينة الصنع لا ينفذ اليها ماء المراحيض والمجاري لم يعد يدخلها الوباء في حين انه احاط بها منذ زمن غير بعيد من الشمال في طرابلس ومن الشرق في دمشق ومن الجنوب في ضواحي صيدا ولا تخفى كثرة المواصلات بين هذه المدن . ولولا حفظ مائها نقيًا من اختلاط مياه المراحيض به لوصل الوباء اليها وفتك باهلها فتكه الاوّل .

واعلم ان دخول هذه الجسيمات المرضية الى جسم الصحيح ليس كافيًا لحدوث العلة بل يجب أن يكون في الجسم استعداد لها ويعتقد الاستاذ بتنكوفر ان هذه الجسيمات الضمية قد تنتقل من بلد الى بلد ولا تحدث الوباء اذا لم توافقها الحالة الصحية العمومية وحالة الجو فتبقى كامنة الى أن يتيسر لها الانتشار وله اعتقادٌ شديد في فعل المؤثرات الخارجية كالجو والمكان على حدوث الوباء وانتشاره فيقول انه يجب لذلك اجتماع ثلاثة شروط اولها وجود جسيمات الوباء الضمية وثانيها الاستعداد الشخصي في المصاب وثالثها حالة الجو والمكان والمراد بالاستعداد الشخصي سوء حالة الصحة من علة في المعدة او الامعاء والسهر الطويل والافراط في المسكرات وانطلاق النفس وراء الشهوات . ويقصد بحالة الجو وجود الحر والرطوبة في الهواء لأنهما يعينان الجسيمات على النمو والتوالد ويعني بحالة المكان سوء بناء المجاري والمراحيض وكثرة الزحام في الاحياء وقلة النظافة في الشوارع والمنازل والاشخاص وكون المنازل ضيقة مزدحمة منخفضة رطبة لا يدخلها النور والهواء ويعتقد انه اذا اجتمع شرطان من هذه الشروط الثلاثة فلا يدخل الوباء وينتشر . ووُجد بالاختبار ان الاصابات بالوباء تكون قليلة جدًا في الاحياء النظيفة المستوفية لكل الشروط الصحية وشديدة حيث المجاري مختلة

البناء والزحام شديد واجسام السكان ضعيفة فان مستشفيات المرضى والمجانين والسجون وثكنات العساكر تصاب بالوباء قبل سائر الاماكن والاحياء وعدد الوفيات فيها كثيرة جدًّا بالقياس الى غيرها من الانحاء وذلك لأن في المستشفيات والسجون يجتمع ضعف البنية والزحام الشديد ولهذا يجب عند ظهور الوباء ان تتفرّق الناس ويمنع كل زحام واجتماع

« واعلم انهُ يجب للوقاية من هذا الوباء ان تكون البلدة نظيفة الشوارع متسعتها يصل اليها نور الشمس والهواء وتكون تربتها نقية من الاقذار فلا تتصاعد عنها الروائح الكريهة وتكون مجاريها حسنة الوضع والبناء متقنة التركيب تندفع منها الاقذار بسهولة الى مخرجها ولا تتصاعد روائحها الى الشوارع والبيوت او التربة المحيطة بها وان تكون بعيدة عن انابيب الماء واحواضهِ ولا تنسكب في الانهر التي يستقى منها او التي تكثر المنازل على ضفافها وان تكون مجاري مياه الشرب محكمة الوضع والتركيب كثيفة المادة لا ترشح منها المياه الى التربة فتجعلها ندية وان تكون المنازل نظيفة متسعة غير مظلمة او رطبة ولا تبنى على تربة قذرة ندية منخفضة تنحدر اليها مياه الارض المحيطة بها

« ويجب على الحكام ان يشيدوا المراحيض العمومية بالكلس ويكنسوا الشوارع ويمنعوا بيع الاطعمة الفاسدة كاللحم والسمك الفاسد والفواكه غير الناضجة ويمنع دخول الناقهين من الوباء او المصابين بهِ او بقيء او اسهال الى المدينة وتلاحظ القادمين من الاماكن الموبوءة وتتبع آثارهم مدة سبعة ايام الى ان تأمن اصابتهم بالوباء · ويجب على كل فرد من الناس ان يعتني بنفسهِ فان للداء اسبابًا معدة واسبابًا مهيجة لظهورهِ فالمعدّة لهُ هي الضعف العمومي من السهر والسكر وانطلاق النفس وراء الشهوات والاكثار من الطعام العسر الهضم او شرب الماء المثلج كثيرًا فانها تلبك المعدة وتسهل بذلك الطريق للجيسيمات وكذلك الافراط من اكل الاثمار الناضجة كثيرًا فانها تعد للاسهال وهذا يهين الداء على التغلب على الجسم · والازدحام في المنازل الرطبة الفاسدة الهواء كالمدارس والسجون والمستشفيات والمراسح والتعرض لرطوبة الليل وبرده · وقذارة المنزل والاجسام تضعف الجسم ويقال ان الخوف من الداء يعدّ له فانهُ يخترم النفس التي تنهبهُ · واشد هذه الاسباب ما أثر على المعدة والامعاء

فيجب ان يكون الطعام مغذياً سريع الهضم خالياً من ملبكات المعدة كالاكثار من الدهن والحوامض القوية كالخل وامثالهِ وان لا يؤكل اللحم والنبات الاَّ مطبوخاً جيدًا ويبتعد عن المآكل الحلوة والمعجنات ويقتصر على اللحم المشوي او المسلوق على اختلاف انواعهِ والنبات المطبوخ جيدًا ويعتني دائماً بغسل الايدي قبل الطعام وتنظيف الاظفار وينقى ماء الشرب باغلائهِ مدة عشر دقائق بعد ترشيحهِ ثم يوضع في محل نقي الهواء ليمتص الغازات الهوائية للتعويض عما فقد منهُ بالغليان والاَّ تثقل على المعدة وليكها ووجدوا مرشحة باستور أفضل المرشحات لازالة الجسيمات من الماء ولذلك اصبحت كثيرة الاستعمال في الهند حيث يكثر الداء واذا لم يتيسر وجودها فيغلى ماء الشرب والماء المستعمل لغسل الوجه وآنية الطعام اما ماء الطعام فلا موجب لغليهِ لأنهُ يغلى بالطبخ ويحسن بالموسرين ان لا يشربوا الاَّ المياه المعدنية الواردة من البلاد الخالية من الوباء . ويجب العناية الشديدة بالمصابين بالاسهال والقيء وان يعالجوا انفسهم في مدة الوافد عند طبيب ماهر خوفاً من ان يعدم ذلك للوباء .

«أما السبب المهيج فهو دخول الجسيمات الى الجوف ونموها فيهِ ونتقى هذه بعدم مخالطة المصابين او الناقهين او الذين حدث بينهم اصابة وبغلي الماء المستعمل للشرب جيدًا . ويجب عند حدوث اصابة بالوباء ان يعزل المصاب في غرفة منفردة اذا لم يمكن نقلهُ الى المستشفى ولا يدخل عليهِ الاَّ ممرضوهُ ويوضع برازه وقيوءه في مدة المرض وبعد شفائهِ بأسبوع في آنية فيها محلول من الحامض الفينيك على نسبة ٥ من الحامض في المئة من الماء ويفضلهُ في التطهير محلول السليماني على نسبة واحد في الالف فقد وجدوا ان كل الجسيمات تهلك اذا وضعت فيهِ بضع دقائق ثم يطرح البراز والقيء في المراحيض ويطرح فوقها شيء من كلوريد الكلس الجاف او الزاج الاخضر المحلول وتحرق الخرق والثياب الملوثة او تغسل

« ثم تشيد الغرفة ويغسل ما يمكن غسلهُ فيها بالماء الغالي وتهجر اسبوعاً تترك فيهِ نوافذها مفتوحة ليل نهار للهواء والنور . ويجب بعد وفاة العليل ان يحشى المستقيم بخرق او قطن مبلول بمحلول السليماني وتبل كذلك اكفانهُ وكلما يحيط بجثتهِ ويدفن بعيدًا عن الناس والانهر والينابيع ويحاط نعشهُ بالكلس ويجب على ممرضيهِ ان يغتسلوا كل يوم ويحذروا من تلويث ايديهم او اثوابهم بالبراز ويغسلوا ايديهم بشيء من المطهرات

كلما لمس المريض وعلى الاخص قبل تناول الطعام وان ينتبه الى تقليم اظافره ويعتني بنظافته وتغيير ملابسه مرة في النهار ويسير على قانون الصحة اجمالاً ويجدر بنا هنا ان ننبه الى ان هذا الوباء يصيب الانسان اكثر من مرة واحدة حتى انهُ قد يتكرر في الوافد الواحد مراراً . واما ما يباع في ايام انتشار الوافد من الادوية الواقية فهي على الاكثر طرق لكسب المال وتعلة يتعلل بها الخائف فان الوقاية في نقاء الماء وعدم التعرض للعدوى من المصابين وحفظ الصحة سليمة من كل انحراف » انتهى

باب السؤال والاقتراح

﴿ اللغة اليونانية واللاتينية ﴾

(طوخ النصارى) صالح افندي هارون

ما الفرق بين اللغة اليونانية الحديثة واليونانية القديمة هل هو كالفرق بين الانكليزية والفرنساوية مثلاً ام كيف وما الفرق بين احداهما وبين اللغة اللاتينية واذا تعلم احد احدى هذه اللغات فما يكون مقدار علمه بالباقيتين ومقدار سهولة تعلمهما

(الهلال) الفرق بين اللغتين اليونانيتين القديمة والحديثة كالفرق بين اللغة العربية الفصحى واللغة العربية العامية فاللغة اليونانية القديمة تقابل اللغة العربية الفصحى من حيث تعدد اساليب الاعراب وانواع الاشتقاق ودقة التعبير واللغة اليونانية الحديثة تشبه اللغة العربية العامية مشابهة كلية . ومن اوجه المشابهة ايضاً ان اللغة العربية الفصحى واليونانية القديمة من اللغات المرتقبة القديمة واللغتين العربية العامية واليونانية الحديثة من اللغات الحديثة التي تشوشت الفاظها واعتلت تراكيبها بتنقلها على السنة العامة بلا ضابط حتى تطرق الخلل اليها فانحصرت فيها اساليب الاعراب وقلَّ عدد المشتقات ففي اللغة العربية العامية قد أُهمل الاعراب واختلط المثنى بالجمع وتشابه جمع المؤنث السالم والمذكر السالم وغير ذلك وهذا هو حال اللغة اليونانية

الحديثة تقريبًا وما اللغة اليونانية الحديثة حقيقة الا لغة عامة اليونان الا انهم اهتموا بها فضبطوا احكامها وقوانينها وألفوا الكتب في صرفها ونحوها واعرابها فصارت اقرب الى اللغات الفصحى من لغة عامتنا . فالمشابهة بين اللغتين اليونانيتين القديمة والحديثة اقرب من المشابهة بين الانكليزية والفرنساوية لان هاتين اللغتين تختلفان احداهما عن الاخرى في اصل منشأهما وترجعان الى فرعين من فروع اللغات الآرية بينهما بون شاسع من حيث التركيب والاشتقاق والتصريف

أما ما نراه بينهما من المشابهة فهو عارض على الفاظها نشأ عن تسلط الرومانيين على انكلترا وفرنسا معًا فاقتبستا كثيرًا من الالفاظ اللاتينية فظهرت متشابهة فيهما ثم اختلاط الانكليز بالفرنساويين فاخذ بعضهم عن بعض والانكليز اكثر اقتباسًا من الفرنساويين فظهرت هذه المشابهة في الالفاظ واما في اصول اللغة وقواعدها فالفرق بينهما بعيد جدًا كما لا يخفى على العارف بها

أما الفرق بين اللاتينية واليونانية فهو كالفرق بين اللغة العربية واللغة السريانية او العبرانية فان بين اليونانية واللاتينية تشابهًا كليًا من حيث القواعد والاشتقاق والالفاظ وكذلك بين العربية والعبرانية او السريانية ففي اللاتينية مثلاً (pes) (قدم) فهي باليونانية (Πους) وفي اللاتينية (deos) (الله) وفي اليونانية (Θεος) وأكثر الالفاظ في هاتين اللغتين تتشابهان على هذه الصورة كما تتشابه الالفاظ في العربية والسريانية او العبرانية ومثل ذلك يقال في الاشتقاق والتصريف والتركيب ولولا ضيق المقام لجئنا بأمثلة عديدة في سائر هذه اللغات فنكتفي بهذا الاجمال جوابًا على اقتراحكم

واخيرًا ان من يتعلم احدى هذه اللغات يسهل عليه معرفة الأخريين حتى قد يستطيع فهم كثير من الفاظها من غير ان يتعلم شيء منها اذا أدرك قاعدة الاختلاف بينها وبين الفاظ اللغة التي تعلمها اذ قد يكون الفرق بين هذه اللغات فرقًا قانونياً له قواعد رابطة تسهل فهم اللغة الاخرى بمجرد معرفة الاولى مع تدبر ذلك الفرق . فالفرق بين الالفاظ العربية والعبرانية والسريانية مثلاً يغلب ان يكون لفظياً فقط فالسين بالعربية تكون شينًا بالعبرانية والسريانية مثال ذلك (اسمٌ) بالعربية فهي (شم) بالعبرانية والسريانية . وسأل في العربية (شال) في الاخريين . والذال في

العربية زاي في العبرانية ودال في السريانية ففي العربية «ذكر» يقابلها «زكر» بالعبرانية و«دكر» في السريانية وهكذا يقال في الفرق بين الالفاظ اليونانية واللاتينية فان الدال في اللاتينية يغلب ان تكون سيناً او ثاء في اليونانية والميم في الاولى يغلب ان تكون نوناً في الثانية وقس عليه

ومنه

رأيت كتباً انكليزية لتعليم اللغة العبرانية ولكنني لم ارَ كتباً عربية لتعليمها فهل تعرفون كتباً عربية لهذه الغاية (الهلال) كلاّ

مخترع الساعات

(بيروت) سليم افندي الياهو من

اجتمعت ليلة ببعض الاصحاب فجرنا الحديث الى البحث عن مخترع الساعات وزمن اختراعها فقال صديق ان مخترعها شارلكان وقال آخر غيره واخيراً ادى بنا البحث والجدال الى استفتاء هلالكم الساطع عن المخترع وكيفية الاختراع وفي اي قرن من القرون اوسنة من السنين فنرجو الاجابة عن هذا السؤال ولكم الفضل

(الهلال) الساعات او آلات تقسيم الوقت انواع وفيها الساعات الشمسية والمائية والرملية والساعة الميكانيكية وغيرها . ولاختراع كل منها زمن وعصر واحوال لا يفي ببسطها الاّ المطوّلات ولكننا نقول بالاختصار ان اقدم الآلات التي استخدمت في تقسيم الوقت الساعة الشمسية ومن رأي هيرودوتس الرحالة اليوناني الشهير من اهل القرن الخامس قبل الميلاد ان مخترعها البابليون لأنهم اقدم من رصد الافلاك واحتاج الى تقسيم الزمن ويقول بلينوس من اهل القرن الاوّل للميلاد ان مخترعها انكسيمنس الفيلسوف اليوناني الذي نبغ في القرن السادس قبل الميلاد على ان مؤرخ آخر اسمهُ فافورينوس ينسب اختراعها الى انكسيمندر من اهل القرن السادس قبل الميلاد ايضاً . والساعة الشمسية عبارة عن سطح مستوٍ مقسوم الى خطوط ودوائر في منتصفهِ قائمة عمودية الوضع فيجعل ذلك السطح على هيئة يقابل بها الشمس على زاوية معلومة فيقع ظل ذلك العامود على تلك الخطوط وينتقل من خط الى آخر بانتقال الشمس

من برج الى برج فتدلُّ على الساعات واجزائها . واقدم ساعة شمسية سمعنا بها ساعة آحاز الوارد ذكرها في سفر اشعيا بالاصحاح الثامن والثلاثين والعدد الثامن حيث يقول «هاء نذا ارد الظل في الدرجات التي نزلها في درج آحاز بالشمس عشر درجات الى الوراء فرجعت الشمس عشر درجات كانت قد نزلتها» وقد كان ذلك سنة ٧٤١ قبل الميلاد وورد في تاريخ رومية ان القائد الروماني بابيروس كوسر انشأ ساعة شمسية قرب هيكل كويرينوس في رومية سنة ٢٩٣ ق م . وعلى آثار هيكل الرياح في اثينا آثار ساعة شمسية قديمة لا تزال ظاهرة حتى الآن

واما الساعة المائية فمن مخترعات اليونان او الرومان وهي عبارة عن وعاء يسع مقدارًا من الماء وفيه ثقب ينزل الماء منه فيقسمون الوقت بمقادير المياه التي تخرج من ذلك الثقب

والساعة الرملية تشبه المائية وانما يعوض فيها عن الماء بالرمل وهي اضبط من المائية لأن الماء يتبخر فيقل مقداره مع الزمن أما الرمل فيبقى على حاله ولا تزال مستعملة عند كثيرين حتى الآن لقياس اجزاء صغيرة من الوقت وقد شاهدنا شكلاً منها هو عبارة عن كرتين من الزجاج متلامستين تستطرقان من نقطة الملامسة بثقب دقيق فتملأ احداها رملاً وتقلب فينحدر الماء في الثقب الى الكرة الاخرى ذرات والغالب ان يجعلوا فيها مقدارًا من الرمل يتم انحداره بنصف ساعة فاذا انحدر كله الى الكرة الاخرى قلبوها فينحدر عائدًا الى الكرة الاولى فيقلبونها وهكذا

وهناك انواع اخرى من مقاييس الوقت لا تدخل تحت الحصر منها القياس الشمعي فقد كان الفريد الاعظم يقيس الوقت باحراق اطوالٍ معلومة من الشمع وغير ذلك

أما الساعة الميكانيكية المشهورة التي ينقلها الناس الآن فهي أحدث انواع الساعات وقد كانت في اوّل اختراعها آلات ضخمة تكاد تملأ غرفة كبيرة واقدم نوع منها صنع في ايطاليا في القرن الثالث عشر للميلاد . وفي سنة ١٢٧٠ م اصطنع صانعٌ جرمانيٌّ لشرلكان ملك فرنسا ساعة دقاقة متقنة وضعها في برج قصره ولعل هذا هو السبب في ظن صاحبكم ان شارلكان هو اوّل من اصطنع الساعة ثم اخذ الملوك الاخرون يستقدمون صناع الساعات يبنون لهم ساعات في قصورهم وما زالت هذه الصناعة تتقدم رويدًا رويدًا حتى بلغت ما هي عليه الآن من الدقة والضبط فاصطنعوا

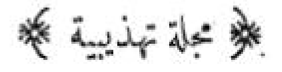
الساعات الكهربائية والساعات المنبهة والكرونومتر وغيرها مما يدل على الايام والاشهر والفصول فضلاً عن الساعات والدقائق والثواني الى غير ذلك من التفنن الذي لايكاد يحصى

الغطاس

(أبو حمص) محمد افندي فتح الله عبد العظيم بالرزقة

ما هي ليلة الغطاس ومن اي تاريخ تبتدئ ومن سماها ليلة الغطاس وما فائدتها نرجو الافادة ولكم الفضل

(الهلال) الغطاس عند المسيحيين عيد يقع في السادس من يناير (ك ٢) من كل عام وهو اليوم الثاني عشر بعد الميلاد ويسمونهُ عيد الظهور الالهي ويسميهِ الافرنج ايضاً اليوم الثاني عشر . وكان الاحتفال بمثل هذا اليوم قديماً عند اليونان تذكاراً لظهور اله من آلهتهم فلما ظهرت الديانة المسيحية وانتشرت جعل المسيحيون ذلك اليوم يوماً كنائسياً يحتفلون بهِ بتذكار ظهور المسيح للعالم بواسطة النجم الذي دلّ المجوس ليلاً على مكان ولادتهِ وهذا اصل عادة احياء ليلة الغطاس . على انهم كانوا في اوائل النصرانية يتذكرون بهِ ولادة المسيح وتجسده وظهوره للامم ففي اوائل القرن التاسع للميلاد انحصر في تذكار يوم ظهوره . ولكن النصارى في الشرق يعتبرونهُ تذكاراً لعماد المسيح بنهر الاردن وهذا سبب تسميتهِ الغطاس والغطاس في اللغة العماد



مجلة تهذيبية

(دمشق الشام) خليل افندي ابراهيم بيدس

هل يوجد في العربية مجلة تهذيبية تبحث فقط في المواضيع التهذيبية ولا تمس غيرها من المواضيع واذا وجد فمن اين تطلب هذه المجلة ومن مديرها ومنشئها ارجو الافادة ولكم الفضل

(الهلال) لا نعرف مجلة عربية تحصر مواضيعها في التهذيب فقط

أرمانوسة المصرية (تابع ما قبله)

ولكنها ظلت ممسكة يده بيدها وهو ينظر الى تلك اليد الجميلة وكانت مائلة الى البياض وفيها الخواتم الثمينة المرصعة وبقيا لحظة صامتين والهوى يتكلم ثم بدأ هو قائلاً كيف حال ذلك الخاتم يا ارمانوسة

فرفعت رأسها ونظرت اليه والحياء يمنعها واشارت بيدها الاخرى الى قلبها تريد ان ذلك الخاتم في قلبها وازداد وجهها احمراراً

فقال وماذا فعلتِ بقسطنطين

فجذبت يدها من يده والتفتت اليه شذراً كأنها تقول له لا تذكرني بمصائبي

فقال ولماذا لم تذهبي مع رسوله وهو ينتظرك عند بحر دمياط

فلم تتمالك عند ذلك عن الكلام قائلة دعني ومصائبي يا اركاديوس قد كفاني ما أقاسيه

فتناول كرسياً كان الى جانبه وجلس وقد أخذ منه الهيام مأخذاً عظيماً وامسك يدها وضغط عليها قائلاً بل كفاك توبيخاً لي يا ارمانوسة

قالت ومن قال لك اني أوبخك

قال عيناك

قالت قد اخطأت الظن يا اركاديوس انما انا المستحقة للتوبيخ لأني لم أصرّح على رؤوس الاشهاد اني لا أريد ذاك الرجل ولكنك تعلم حالي مع والدي

فقال قلت لك يكفيني توبيخاً وانت تبالغين في توبيخي فاذا كنتِ ترين في كتمانك حبك قصوراً فكم يكون قصوري ولكنك لا تجهلين أمري ايضاً

قالت وقد ازداد تورد وجنتيها وتلألأ العرق على جبينها أنا أعلم انك مقيّد بارادة والدك فلا لوم عليك ولا بأس اذا غادرتني مراعاة لخاطره ولكني أود قبل ماتي ان تحقق ما لك في هذا القلب من .... قالت ذلك وشرقت بدموعها

فازداد هيام اركاديوس وتحقق انها توبخه لامساكه عن التصريح بحبه لها فاستخرج منديلاً مسح به جبينها ثم مسح به وجهه فانتعش لرائحة عرقها والتفت اليها فازدادت تجملاً وبالغت في الاطراق فقال لها هل تظنين ارادة والدي تحول بيني وبينك وقد سلمتك خاتمي وقلبي وما الذي ساقني اليك الآن مخاطراً بحياتي وانا لا ادري ما

يسوقني اليه غضب والدي اذا علم اني غادرت الحصن على حين غفلة ونحن في حال الحرب وكم يكون غضبه اذا علم اني جئت لاجلك

فجذبت يدها من يده وهي لا تزال مطرقة . قالت قلت لك انك مقيَّد بارادة والدك فكذبتني

فقال وهل يؤخذ من كلامي ان ارادة والدي تحول فيما بيننا يا ارمانوسة

قالت وقد نظرت اليه نظر العاتب وماذا اذن ... وانا لا ألومك فان اطاعة الوالدين واجبة لأنها من وصايا الله العشر

فشعر أركاديوس بثقل تلك العبارات عليه وما تضمنته من التوبيخ وثارت فيه الحمية الرومانية واعتدل في مجلسه وقال لها اعلمي يا ارمانوسة ان اركاديوس لا يطيع احدًا في سبيل اغضابك ولا يثنيه عنك أمرٌ في السماء او الارض وهيهات ان ينال منك ابن الامبراطور شعرة قبل ان تجري الدماء سيولاً فلا يحول بيني و بينك شيء الا اذا اردت انت التقرب من البلاط الملوكي وفضلتِ القسطنطينية وقصورها على هذا الاسير المفتون

فتنهدت تنهدًا عميقًا والتفتت اليه قائلة اراك تستهزئ بعواطفي أو لعلك تستضعف جنس النساء فلا تعتقد فيه الثبات في الحب ولا يعلم مقدار ما أنا فيه الا هذه الرفيقة العزيزة التي هي بمنزلة والدتي وان في هذا الخنجر الذي لم يفارق جانبي اكبر شاهد على صدق محبتي لاركاديوس قالت ذلك واشارت الى الخنجر

فخفق قلبه عند ما ذكرت الخنجر وقال ماذا تعنين بالخنجر

فتقدمت بربارة عند ذلك وكانت مصغية تتأمل فيما يتبادلان من عبارات الوداد وقلبها يكاد يتفطر ودموعها تتساقط على خديها من التأثر وقالت ان هذا الخنجر يا سيدي كانت تخبئه عني ثم علمت انها كانت تريد الانتحار اذا تحققت وقوعها بين يدي قسطنطين وقد كادت توقع بنفسها شرًّا عند قدوم بوقنا لو لم يعجل مرقس الخادم الامين بالبشائر الحسنة

فأعجب اركاديوس بثباتها وشهامتها وازداد ولوعا بها وحنوًّا اليها فقال أأنت في مثل هذا الثبات وترددين بثباتي . ثقي يا ارمانوسة ان هرقل وجنوده وأهل الارض قاطبة لا تستطيع مس شعرة من شعرك واركادبوس حيٌّ يرزق ولو اعلم

ان مجاهرتي بحبك الآن لا تأتيك بضرر لوقفت على قارعة الطرق وناديت باستهلاكي في هواك ولكنني رأيت من الحزم ان نصبر حتى يأتي الله بالفرج فهل انت باقية على العهد

قالت أتسألني يا اركاديوس بعد ما عاينت وسمعت انسألني عن البقاء على العهد وقد خالفت الشرع والعرف من أجلك انسألني اذا كنت باقية على عهدك

قال اذاً لا يفرق الله بيننا وهو على كل شيء قدير فلنأخذ الامر بالحزم والتروي فان قسطنطين لن يطمع بك والحالة لا نسمح بذهابك اليه ولو اراد والدك ذلك فان العرب قد قطعوا السبيل على المارة ولا بد من ان تنقضي هذه الحرب اما لنا واما علينا وستسمعين عن حبيبك اركاديوس ما يسرك والله لأحاربن الروم والعرب في سبيل رضاك

فأمسكته بيده قائلة لا تذكر الحرب ولا المحاربة اني اخاف عليك النسيم فكيف النبال والسيوف وكيف تقول انك تحارب عني

قال وماذا اذاً

قالت دعنا من الحرب وهلم بنا نرحل من هذه البلاد بلاد المخاطر والقلاقل

فوقف بغتة ويده على حسامه وقال اتريدين ان يفرّ اركاديوس من وجه العدو وهل ترضين به جباناً يخاف الموت يا أرمانوسة فما معنى تقلدي هذا الحسام اذن

قالت لا وحبك لا احب الجبان ولا أرضى ان يكون اركاديوس ممن يفرّون من ساحة القتال ولكن قلبي لا يطاوعني على ان أرى او أسمع ان الناس يرمون النبال عليك

فقال دعيني اذاً اخوض المعامع فاذا حييت بعدها كنت اهلاً لرضاك فلا تندمين على استبدال قسطنطين بي

فصمتت وهي تتردد بين الشهامة والحب ولم تجب

فنهض اركاديوس عند ذلك وهو يقول لا بد لي يا أرمانوسة من العود الى والدي حالاً لئلا يلحق بي عار لتخلفي عن الحصن خاصة ونحن في حال حرب فقد خرجت منه لا يعلم بي احد ولقيت في طريقي ماربة خطيبة خادمك مرقس وقد اختطفها اللصوص وسمعت صوتها تستنجد المارّين فخيل لي ان ارمانوسة في يد العدو

فوثبت على اللص فقتلته وانا ماثم اخاف ان يراني احد فيعرفني حتى جئت الى ظاهر بلبيس ولقيت مرقس وتعارفنا سرًّا فلبست ثيابة متنكرًا وتركت جوادي ودرعي معه وقد توسمت فيه الخير وهو الذي اخبرني بجلية الخبر عنك وسنعتمد عليه في المخابرة حين الابتعاد . والآن لا بد لي من الذهاب

فوقفت ارمانوسة ونظرت اليه مغضبة لا تريد فراقه ولكنها قالت له سر بحراسة الله وها اني باقية في بلبيس ولا ندري ما يكون من امرنا والعرب قادمون الينا

قال سأسْحث والدك ان يستقدمك من بلبيس عند ما يتحقق ان يوقنا انما جاء بدسيسة وليس رسولاً من ذلك الرجل ابن صاحب القسطنطينية

قالت افعل ذلك يا اركاديوس فانا على العهد الى ان يقضي الله بما يشاء.

فهمَّ بالخروج ولكنه عاد فقال لما فاتني ان أقول لك اني سررت كثيرًا بالوسيلة التي انقذت بها ماربة من الاغراق في النيل

قالت لعلك تذكرني بجرأتي يا اركاديوس

قال حاشا لله فاني سلمتك قلبي افلا اسلمك خاتمي فاصنعي ما بدالك ولكن ألا ترين ان تنعمي على اركاديوس بتذكار منك

قالت وماذا عسى ان اقدم لك وقد ملكت كل عواطفي ولكن لديَّ تذكارًا ثمينًا اخذته من والدتي لم يفارق عنقي منذ صباي وهو أثمن ما عندي من الحلي وهو هذا الصليب . ومدت يدها الى عنقها واستخرجت سلسلة ذهبية تعلق بها صليب ذهبي مرصع قد نقش عليه اسمها بالقبطية وناولته اياه فتناوله وقبله قائلاً لا ريب عندي ان هذا الصليب سيدفع عني كل غائلة ويقيني من كل شرّ قال ذلك وعلقه في عنقه وخبأه بين اثوابه ثم امسك بدها وودعها وهو يقول اذكري اركاديوس ولا تنسيه فانه سيذكرك ما بقيت ذاكرته وسيستعيذ باسمك في حومة الوغى يوم تتقارع السيوف وتتصادم النبال

ثم خرج بعد ان ودع بربارة فاحست ارمانوسة ان قلبها قد انخلع من مكانه وظلت تنظر اليه وهو يمشي في ارض الغرفة حتى خرج من الباب فتحوّلت الى النافذة تشيعه بنظرها وهو يلتفت لوداعها حتى توارى

الفصل التاسع والعشرون

حصار بلبيس

أما هو فاسرع يطلب مرقس ليركب الى الحصن وقد شعر بما يتهدده من غضب والده وكأنه كان في سكرة وصحا بغتة فهرول يطلب مكان مرقس فوصل القرية ونظر يمنة ويسرة فلم يرَ احداً فدخل القرية وجعل يبحث عنه لعله يراه في مكان فلم يظفر به فانشغل باله وهو لا يعلم ابن يفتش عنه ولا يعرف من يسأله عن امره ولا عرف منزله فجعل يطوف حائرا ولما لم يره خرج من القرية حائرًا لا يدري الى ابن يذهب فحدثته نفسه ان يذهب الى مكان المعصرة حيث فارقه لعله بقي هناك مختبئاً وفيما هو راجع رأى غباراً يتصاعد عن بعد فوقف ينظر الى ما وراء ذلك الغبار فاذا به قد انكشف عن جيش جرار تتقدمه الاعلام والفرسان فعلم انه جيش العرب قادماً الى بلبيس فوقف متحيرًا وقد حرق اسنانه لما اصابه في ذلك اليوم بفقدان فرسه وسلاحه ولبث يفكر في أمره فاذا بالجند يقترب نحوه فخاف عاقبة وقوفه هناك وهو راجل لا يستطيع النجاة لو أدركه فارس من اولئك الفرسان ولم يكد ينتبه لذلك حتى رأى فارساً يعدو نحوه بأسرع من لمح البصر فلم تطاوعه انفته وشهامته على الفرار من امامه فبقي واقفاً وقد تهيأ للدفاع فاذا بالفارس من فرسان العرب وعليه العمامة والشملة وقد دنا منه وناداه بالعربية فلم يفهم اركاديوس مراده فهوّل عليه بالرمح فاستل هو الحسام وهجم عليه وقد أدرك مقدار الخطر المحدق به ولكنه نسي نفسه وموقفه في سبيل شجاعته وضرب الفارس ضربة بالحسام اصابت رجل الفرس فتعطلت فنزل الفارس اليه وجعلا يتضاربان فلقي من ذلك الفارس قرناً عنيداً واما الفارس فانه أعجب بشجاعة اركاديوس وعدل عن قتله واراد ان يسوقه اسيرًا ثم جاء فارس آخر وتعاون الاثنان على اركاديوس فطعنه احدهما بالرمح فاصاب زنده فسقط الحسام من يده فهمّ به الاثنان واوثقوه وساروا به الى المعسكر وكان جند العرب قد وصلوا اذ ذاك واخذ العبيد في ضرب الخيام وانزال الاحمال ونصبوا خيمة الامير عمرو في ميمنة المعسكر وانزلوا الهوادج وجعلوا يشتغلون في تدبير شؤونهم

فحملوا اركاديوس الى الامير وكان قد أوى الى خيمتهِ وجلس امراؤهُ بين يديهِ ونصبوا علمهُ أمام الخيمة واركاديوس لا يفهم لسانهم وقد عظم عليهِ الاسر كثيرًا ولعن الساعة التي خرج بها من الحصن وعلم انهُ في موقف حرج ربما لا ينجو منهُ

فأدخلوهُ خيمة الامير فوقف بين يديهِ موثقًا وتقدم اليهِ وردان وسألهُ بلسان الرُّوم قائلاً ألعلك من جند الرُّوم أم انت من رجال المقوقس

قال بل انا من جند الرُّوم وكلنا جند واحد رومًا واقباطًا

فقال لهُ (مترجمًا كلام عمرو) وما الذي جاء بك الى هذا المكان. قال خرجت من المدينة في حاجة فظفر بي رجالكم منفردًا فامسكوني وليست هذه عادة الابطال ونحن نسمع ان العرب لا يغدرون

فقال نعم ان العرب أصدق الناس عهودًا واحفظهم لمقام الرجال ولكن حال الحرب تقضي بالقبض عليك فأخبرنا بما عليهِ جندكم ولا تخفِ شيئًا فانك أسير بين يدينا ولا ينقذك الاَّ الصدق

قال ونحن لا نعرف غير الصدق شعارًا ولولا ذلك ما امتدت سطوتنا على الخافقين. ولا انا خائف من الموت اذا تهددتموني بهِ اما جندنا فكلهم ابطال لا يهابون الموت ولا يخافون العدد

فقال عمرو لوردان دعهُ يجلس

فأذن لهُ بالجلوس

فقال لا حاجة بي الى الجلوس وما نحن ممن يملُّ الوقوف قل ما بدا لك

فعجب عمرو لرابطة جاشهِ وما يتجلى في وجههِ من الشجاعة وما ينبعث من حدقتيهِ من الذكاء فقال لهُ ألعلك من افراد الجند او انت من كبارهم

قال بل انا من افراد الجند واما قوادنا فستلقونهم في ساحة الحرب

فازداد عمرو اعجابًا بشجاعتهِ واحبهُ لانهُ كان محبًا للشجعان

أما جلساء عمرو فاستنكفوا من جرأتهِ فقالوا لعمرو الا أمرت بقتل هذا العلج فانهُ قد تجاوز حدود الحشمة في جوابهِ

فأسكتهم وقال لاركاديوس اني لأعجب بشجاعتك ولم ألقَ بين جند الرُّوم مثل هذه الجرأة ولذلك فاني مبقيًا عليك على شرط ان تخلص لنا الخدمة وتكون واحدًا منا

فقال اركاديوس اما ما ترجوه من خيانتي دولتي فبعيد المنال فتعجيلك بقتلي اجمل بك وبي

فمال عمرو الى معرفة حقيقة حاله فاجل الامر الى فرصة اخرى

وقال لوردان خذوه الى مكان أمين وليكن هناك حتى اطلبه فساقوه الى بعض الخيم موثقاً فسار يفكر في حاله وما احدق به من الخطر وقد عظم عليه الامر

أما ارمانوسة فانها وطنت نفسها وارتاح بالها وسرّت بمقابلة اركاديوس وعجبت بشهامته وبسالته ولما توارى عن نظرها عادت الى بربارة وتنفست الصعداء قائلة نحمد الله تعالى على ما اولانا من النعم فقد تخلصنا من الموت وشاهدت حبيبي وشافهته وتحققت نيابة اما قسطنطين ولو كان حياً فلا اظنه يجسر على دخول هذه البلاد وقد دخلها العرب وهي في حرب معهم فاطلب اليه تعالى ان يطيل اقامتهم بيننا منعاً لذاك الرجل من دخول هذه البلاد الى ان يقضي الله بما يشاء

فتبسمت بربارة وقالت لها ألم اقل لك يا سيدتي ان اركاديوس شهم باسل حازم ثابت وكم تقدمت اليك ان تلقي حملك على الله وهو ينقذك من مخالب الموت كما انقذ مارية لخطيبها فانها كادت تذوق كأس المنون مرتين والفضل في انقاذها بعد الله لحبيبك اركاديوس متعك الله به

ثم قالت هلمّ بنا ننزل الى الحديقة ترويحاً للنفس بعد ان اطمأن بالك وسكن روعك

فبدلت أرمانوسة ثيابها ولبست رداء سماوياً وجعلت على رأسها شبكة من اللؤلؤ وفي صدرها عروة من الذهب المرصع والاساور بيدها وتطيبت وارخت ذوائبها على كتفيها ومشت بجر ذيل ردائها وراءها وبربارة تمشي الى يسارها والوراء فخرجت من الغرفة ونزلت الى رحبة الدار ومنها الى الحديقة وبعثت الى الجواري ان يمكثن في مكانهن فلا ينزلن معها لأنها تريد النزهة على انفراد في الحديقة فدخلت الحديقة وجعلت تخطر بين الرياحين والازهار فلم تكد تمشي خطوتين حتى علت الغوغاء في المدينة وهرول الحاكم مسرعاً يطلب مقابلتها فاذنت له بالدخول فاذا به يعدو وعلى وجهه امارات الانقباض والبغتة فلما قابلها حيّاها وهو مرتبك فسألته عن امره

فقال يسوؤني ان أبلغ سيادتك خبر قدوم العرب الينا بعدَّتهم و رجالهم وخيلهم وجمالهم وهذا غبارهم يتصاعد وقد بلغ عنان السماء

فلما سمعت ارمانوسة ذلك اضطرب قلبها ولكنها شكرت الله لذهاب اركاديوس فقالت وهل وصل الجند

قال نعم يا سيدتي وقد جاءني رسول منهم ومعهُ كتاب من اميرهم يطلب الينا ان نسلم المدينة

فقالت وماذا اجبت

قال انتظر امرك يا مولاتي لأن مولاي المقوقس اوصاني ان لا آتي امرًا الاَّ بعد استشارتك وها اني بين يديك

فقالت وكيف نسلم لهم وعندنا القوة والرجال ولكن هل بعثت الى والدي بشأنهم

قال قد بعثت اليهِ غير مرة منذ وصلوا الفرما وهو عالم بقدومهم ولا ادري ماذا أعد لدفاعهم

فتغير لون ارمانوسة وجلاً لعلمها بشدة العرب ولكنها تذكرت ما قالهُ لها مرقس من أمر الامان الذي كتبهُ لوالدها بشأن المحافظة على القبط خاصة فسكن روعها فقالت للحاكم عليك بالتأهب للدفاع وبث رجالك على الاسوار والحصون حتى نرى ماذا يكون

فعاد واخذ يعد المعدات وبث رجالهُ في الحصون واجاب العرب بأنهُ لا يمكنهُ التسليم

أما ارمانوسة فعادت الى قصرها مرتبكة الافكار تارة تحمد الله على ذهاب اركاديوس وطورًا تقول في بالها لعلهُ لو بقي أن يدافع عنها اذا مست الحاجة وفيما هي تتفكر في ذلك اذ خاطبتها بربارة قائلة ألم يكن من العقل يا مولاتي ان نخرج من هذه المدينة قبل وصول العرب

قالت قد خطر لي ذلك قبلاً ولكنني وثقت بعهود عمرو وهو لا شك يحافظ على عهوده ولا ينوي لنا شرًّا ويا ليتنا نبعث اليهِ مرقس نخبره بأمرنا

قالت ان مرقس ليس هنا ولم يعد منذ خرج للتفتيش عن خطيبتهِ

قالت ولكنهُ ظفر بها ألا تظنينهُ يعود الينا اليوم

« سيأتي البقية »



ناصر الدين شاه ملك الفرس

من أهم أخبار هذا الشهر وفاة المغفور له جلالة ناصر الدين شاه ملك الفرس مقتولاً برصاصة اطلقها عليهِ رجل معتوه في اوَّل مايو الجاري وهو داخل مسجد عبد العظيم ليصلي فاصابت قلبهُ وقد قبض على القاتل ولم يتحقق سبب تلك الخيانة بعد على ان الآراء فيها متضاربة لا فائدة من ذكرها . وما طار نعيهُ في الآفاق حتى تطايرت الرسائل البرقية من سائر الممالك والامم لتقديم مراسم التعزية لولي عهده وقد شق امر مقتلهِ عليهم جميعاً لأنهُ كان مسالماً محباً للاصلاح

وقد افضى مُلك الفرس بعده الى مظفر الدين شاه اكبر انجالهِ فرأينا بمناسبة وفاة هذا الرجل العظيم ان ننشر رسمهُ وملخص ترجمة حالهِ فنقول

مملكة الفرس من الممالك القديمة التي عاصرت البابليين والمصريين واليونان والرومان وامتدت سطوتها الى الخافقين أجيالاً متطاولة وتوالى على سرير ملكها دول متعددة أقربها عهداً منا الاكاسرة بدأ حكمهم فيها في القرن الثالث للميلاد حتى

استخرجها العرب من ايديهم في صدر الاسلام وما زالت في حوزة العرب الى سنة ١٢٥٨ م فتولاها التتر الى سنة ١٥٠٠ م فأخرجها من ايديهم رجل عربي الاصل اسمهُ اسماعيل فتولاها ٢٢ سنة وسمى نفسهُ الشاه ثم تولى خلفاؤه بعده وعرفوا بالشاهات واشتهر بينهم افراد امتازوا بالحكمة والشجاعة · وآخر عائلة من شاهات الفرس عائلة قاجار اولها اغا محمد خان تولى الملك سنة ١٧٩٤ وخلفهُ ابن اخيهِ فتح علي شاه سنة ١٧٩٧ ثم محمد شاه حفيد فتح علي سنة ١٨٣٥ م ثم ابنهُ ناصر الدين شاه الذي نحن في صدده

ولد رحمهُ الله يوم الاثنين ٦ صفر سنة ١٢٤٧ (١٦ يوليو سنة ١٨٣١) واسم والدته البرنسس وأيت قربي في حجر والده وتولى في صباه ولاية اذربيجان بحياة والده وفي ١٣ اكتوبر سنة ١٨٤٨ توفي والده محمد شاه فافضت السلطة اليهِ وهو لم يكد يتجاوز الثامنة عشرة من عمره فتولى الاحكام بعقل ودراية مع ميل الى الاصلاح ومجاراة التمدن الحديث وكان في اوائل حكمهِ كثير الاعتماد على مشورة وزيره الاعظم الامير مزرا طاغي وكان وزيره هذا رجلاً محنكاً عاقلاً فكانت لهُ باع طولى في سائر الاصلاحات التي احدثها الشاه في بلاده وعرف الشاه لهُ ذلك فكافأه بتزويجهِ اختهُ وتلك نعمة قلما نالها وزير فحسده بعض زملائهِ فوشوا بهِ الى الشاه فنفاه وقالوا بل قتلهُ

على ان ذلك لم يقف في سبيل اعمالهِ فتابع الاصلاح والاحكام بحكمة وثبات ولكن موقع بلاد ايران الجغرافي جعلها عرضة لمطامع دولتين من اعظم دول اوربا وهما الروسية من الشمال وانكلترا من الشرق فملافاة لما يخشاه تقرَّب من فرنسا فعقد معها سنة ١٨٥٥ معاهدة صداقة وتجارة ولما انتشبت حرب القرم التزم الحيادة

وفي سنة ١٨٥٦ احتلت جنوده هرات فشق ذلك على حكومة انكلترا فجرَّدت عليهِ جنداً هندياً في آخر سنة ١٨٥٦ واستعرت نار الحرب بضعة اشهر وانتهت باخلاء هرات ومعاهدة عقدت بباريس في ٤ مارس سنة ١٨٥٧ يعود النفع بها على انكلترا · ولم يكد يستريح من مناضلة ذلك العدو الشديد حتى ثارت عليهِ بعض الولايات المجاورة فحاربها وتغلب عليها وارسل حملة على التركمان وعاد ظافراً غانماً

فلما هدأ بالهُ من الحروب والفتن عمد سنة ١٨٦٠ الى الاصلاح فغير نظام الجند وادخل الاسلاك التلغرافية الى بلاده · واوَّل سلك نصبهُ احتفل بنصبهِ بنفسهِ سنة ١٨٦١ · وفي سنة ١٨٦٦ عقد مع انكلترا عهداً بشأن انشاء المواصلات التلغرافية

بين اوربا والهند عن طريق الفرس وانشأ المدارس والمكاتب ونشط المشروعات الادبية والعلمية على انهُ لم يخلُ من اعداء يتربصون له يغتنمون الفرص للفتك بهِ ففي سنة ١٨٦٩ اكتشف على مؤامرة سعى فيها جماعة من رعيتهِ فانتقم منهم انتقاماً جاوز بهِ حد الرأفة وعرض اسمهُ للوم امم اوربا فهاجت خواطرها ولكنها لم تحرّك ساكناً

وفي سنة ١٨٧١ اصاب بلاد فارس قحط رافقهُ الهواء الاصفر والحمى فاصاب الناس جهد شديد فبلغ عدد الذين ماتوا في اصبهان وحدها ١٦٠٠٠

فلما زالت النكبات وعاد الخصب عزم ناصر الدين شاه على السياحة في اوربا فسار في ١٢ مايو سنة ١٨٧٣ من طهران شمالاً فقطع بحر قزبين الى استراخان ومنها الى موسكو فبطرسبورج فالمانيا فبلجيكا فانكلترا ففرنسا فسويسرا فايطاليا فالسبورج ففينا ثم عاد الى ايطاليا وسار منها الى الاستانة ومنها الى تفليس ومنها الى باكو بالعربة وعاد الى طهران مسرعاً فوصلها في ٦ ستمبر سنة ١٨٧٣ وشاع عند عودتهِ انهُ انما اسرع للافاة مؤامرة كانوا يسعون فيها لخلعهِ فجازى المؤامرين بعصا من حديد

وفي سنة ١٨٧٥ ثار الجهادية وتمردوا على الشاه حتى اضطروهُ لمغادرة طهران ولكنهُ ما لبث ان اخمد نارهم وعاد الى كرسيهِ . وفي سنة ١٨٧٨ ساح سياحة اخرى في روسيا . وفي سنة ١٨٨٠ ثار عليهِ الاكراد فابلى فيهم بلاءً حسناً فثابوا الى السكون وفي سنة ١٨٨٨ مدَّ اوَّل خط حديدي بين طهران وشاه عبد العظيم على ان السكك الحديدية دخلت بلاد الفرس منذ سنة ١٨٦٥ وفي اوائل سنة ١٨٨٩ خرج للسياحة في اوربا مرة ثالثة فلاقى ترحاباً عظيماً وعاد في اواخرها وقضى السنين الاخيرة بالراحة والسكينة مهتماً في شؤون مملكتهِ وترقية شأن رعيتهِ وقد اخذ الايرانيون يشتغلون في اعداد المعدات للاحتفال بالعام الخمسين لملكهِ ففاجأهم ذلك المصاب بمقتلهِ بغتة كما قدمنا



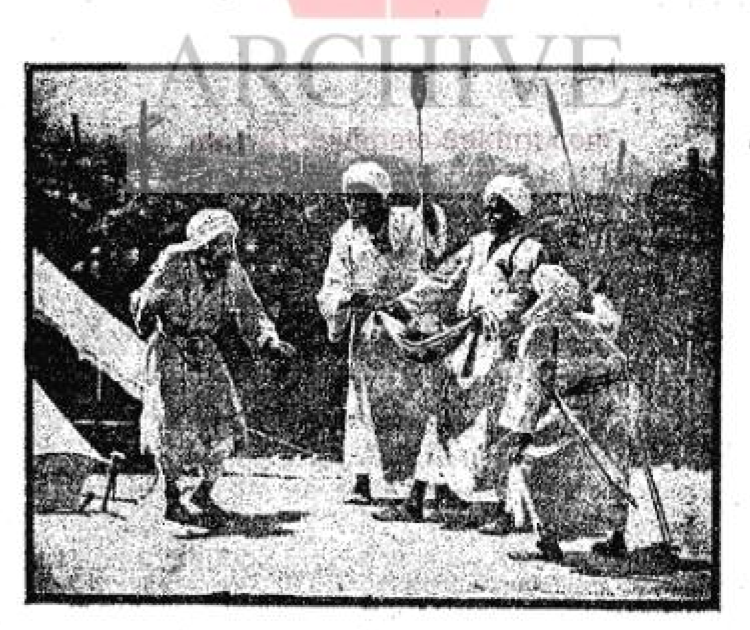
وترى رسمهُ في صدر كلامنا عنهُ منقولاً عن رسم فوتوغرافي مرسوم في الاستانة العلية . وهناك رسماً آخر في زي آخر حضرة حضرة الاديب سليم افندي فاضل حتار رسوم بمصر نقلاً عن صورة فوتوغرافية اخرى

الهلال

الجزء التاسع عشر من السنة الرابعة

(١ يونيه (حزيران) سنة ١٨٩٦) (١٩ الحجة سنة ١٣١٣) (٢٥ بشنس سنة ١٦١٢)

اشهر الحوادث واعظم الرجال



رأس غوردون باشا يُريهِ الدراويش لسلاتين باشا

(نقلاً عن رسم رسمهُ سلاتين باشا نفسهُ)

تاريخ السودان الحديث

سقوط الخرطوم ومقتل غوردون (تابع ما قبله)

سافر غوردون من القاهرة في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٤ ومعه مساعده الكولونيل ستيوارت قاصدين الخرطوم في عطبور الى حمد فبربر فالخرطوم مصحوبين بأوامر عالية نحصر خلاصتها في ما يأتي

(١) ان يسحب الموظفين المصريين وعائلاتهم وأموالهم من سائر انحاء السودان الى مصر (٢) ان يقيم مقامهم موظفين من اهل السودان يدبرون شؤونهم بحكمتهم كأنه يؤسس دولة جديدة (٣) ان يجمع كلمة القبائل المجاورة للخرطوم ويحركها على قبائل الهدندوة في السودان الشرقي فتح الطريقين بين بربر وسواكن وبربر وكسلا (٤) ان يعقد سنار وسائر البلاد الواقعة بين النيلين الازرق والابيض (الجزيرة) (٥) ان يرسل خمس بواخر لنقل عائلات الجنود المصرية في مديريات خط الاستواء وبحر الغزال (٦) ان يدبر طريقة لمن في دارفور ان يتحولوا الى مصر عن طريق دنقلا

هذه كانت مقاصده عند خروجه من مصر وخلاصتها اخلاء السودان فلما وصل بربر أراد ان يتلوها على اهلها فمنعه حسين باشا خليفة مدير بربر لأن التصريح بذلك يعجل على بقية نفوذ الحكومة فاطاعه ولكنه تلاها في المتمة فكانت داعياً الى سرعة سقوط بربر بعد ذلك . واما غوردون فوصل الخرطوم في ١٨ فبراير سنة ١٨٨٤ وفي يوم وصوله جمع اعيان الخرطوم كافة في بناية المديرية وأفهمهم مهمته ثم خرج الى سراي الحكمدارية فلاقاه مئات من الناس وتراموا على ايديه ورجليه يقبلونها وهم يقولون « يا سلطاننا يا والدنا يا مخلص كردوفان » ثم اخذ غوردون وستيوارت في تدبير شؤون الاحكام فانشأ أقلاماً مختلفة في الحكمدارية للنظر في قضايا الناس وانصافهم على اختلاف طبقاتهم فاخرج دفاتر الحكومة القديمة وفيها قيود لذمات مطلوبة من اصحاب الاطيان خراجاً عن اطيانهم فوضع تلك الدفاتر في باحة عمومية وأوقد فيها النار ولما انقدت النيران وتعالى لهيبها استخرج الكرابيج والعصي وسائر ادوات الضرب والصنع التي كان يتقدمها الحكمداريون قبلاً والقاها في ذلك اللهيب واهل الخرطوم ينظرون فكان لذلك تأثير حسن في اذهانهم

ثم أنشأ مجلساً وطنياً مؤلفاً من اعيان المدينة وبعد قليل زار الترسخانة والمستشفى واخيراً ذهب لتفقد السجن ومعه ستيوارت وكوتجين والمستر بوار قنصل انكلترا هناك فرأى فيه حوادث تتفتت لها الاكباد فضلاً عن القذارة وشاهد بين المسجونين اولاداً وشيوخاً بعضهم قد ثبتت براءتهم ولا يزالون في السجن وآخرون سجنوا لتهمة فقضوا ثلاث سنين في السجن قبل ان تثبت عليهم جناية ورأى هناك امرأة قضت خمس عشرة سنة مسجونة لذنب اقترفته في صباها فأمر غوردون باخراج المسجونين كافة وتنظيف السجن فلم يأت المساء حتى خرجوا زرافات ووحداناً وهم يبطلون الى الله تعالى ان يطيل عمره وقضى اهل الخرطوم تلك الليلة سهارى فاضاؤا الانوار الملونة واوقدوا المشاعل وباتوا فرحين مسرورين

واراد غوردون ان يمكن محبته من قلوب اهل السودان فخفف الضرائب وانصف المظلومين وابطل كثيراً من العوائد ثم اصدر منشوراً يلغي فيه كل الاوامر الصادرة بشأن الغاء تجارة الرقيق وهاك مفاد المنشور :

منشور الى أهل السودان كافة

اعلموا ان راحتكم في غاية ما نرجوه ولما كنت اعلم ان ابطال تجارة الرقيق قد ساءكم وهالكم ما وضعته الحكومة من القصاص على من يتعاطاها وغير ذلك مما صدر من الاوامر العالية بشأن تأكيد الغائها فقد رأيت الآن لراحتكم أن أبطل كل تلك الاوامر وامنحكم الحرية التامة فلا يعترضكم احد في اتخاذ الرقيق لخدمتكم والسلام لكم

الخرطوم　　　　　　　　غوردون باشا

ففرح تجار الرقيق لهذا المنشور ولكنهم استدلوا منه على ضعف الحكومة وانها انما اصدرته رغماً عنها لأنها لم تقو على تنفيذ اوامرها في ابطال تلك التجارة . ثم حوّل نظره الى أمر المهدي فارسل اليه في الابيض كتاباً يطلب فيه اطلاق الاسرى ويوليه كردوفان وارفق الكتاب بحلة نفيسة فرد محمود احمد الحلة وبعث الى غوردون ان يسلم فيسلم وان المهدي لم تتم دعوته طمعاً في الولاية

وكان غوردون باشا اثناء مسيره الى الخرطوم قد تدبر أمر مهمته هذه فرأى ان ترك السودان وشأنه بعد اخلائه تعود على مصر بالوبال فلا تلبث الثورة ان تنتشر ويزحف الدراويش الى حدود مصر فبعث يوم وصوله الخرطوم رسالة برقية الى

الحكومة الانكليزية يطلب فيها ان تبعث اليهِ الزبير رحمت باشا حالاً وكان الزبير باشا من اكابر تجار الرقيق في دارفور وبحر الغزال وعاهد الحكومة المصرية وفتح لها دارفور ثم جاء مصر قبل الحوادث السودانية ليشكرها على رتبة انعمت بها عليهِ فلم تأذن له بالعود الى بلاده فظن غوردون باشا انهُ اذا اخلى السودان ودبر حكومتهُ جعل الزبير باشا خلفًا له عليهِ خوفًا من استفحال أمر المهدي وخروجه على مصر فأبت الحكومة ارسال الزبير فشق ذلك عليهِ كثيرًا .

ثم ما لبث ان علم بانتشار دعوة المهدي وانضمام معظم القبائل اليهِ فاصدر منشورًا يتوعد الثائرين بعذاب اليم وينصح لهم ان يتوبوا الى طاعة الحكومة وبعث الى مصر يقول «اذا شئتم ان تخلّصوا مصر من عذاب دائم ارسلوا جندًا لمقاتلة المهدي وسحق قواته وهو أمر ميسور لكم الآن اما اذا دخلت الخرطوم في حوزته فيصعب عليكم فهو على انكم ستضطرون الى ذلك ان عاجلاً وان آجلاً التماسًا لسكينة القطر المصري وسيكون ذلك شاقًا كثيرًا بعد الآن »

وكان الكولونيل ستيوارت قد سار في مئة رجل بالاعلام البيضاء لمسالمة القبائل القاطنة على النيل الابيض وتلاوة منشورات غوردون عليهم فكان كلما بعد عن الخرطوم ازداد نفور الناس عنهُ حتى صاروا يعترضون سيره ويحاربونهُ واكثرهم من قبيلة البقارة فعاد الى الخرطوم خاسرًا فارسلهُ غوردون ثانية في ٢ مارس سنة ٨٤ بمنشورات اخرى فعاد بخفي حنين وما زالت الثورة تقترب من الخرطوم وضواحيها حتى احدقت بها من كل الجهات وفي أثناء ذلك جاءت حملة من الدراويش لحصار الخرطوم فجاء جمع منهم الى حلفاية شمالي المدينة فانهزمت حاميتها فجرد غوردون في ١٦ مارس عليهم الفي مقاتل بالبنادق وفيهم الباشبوزوق والجند المنظم لاسترجاع حلفاية فاطلهم الدراويش حتى غدروهم وكسروهم شر كسرة فعادوا القهقري الى الخرطوم وقد قتل منهم جمع كبير فنسب غوردون هذه الكسرة وحاكم قواد تلك التجريدة واكبرهم سعيد باشا وحسن باشا وكلاهما من اهل السودان فحكم عليهما بالاعدام لثبوت الخيانة عليهما فقتلا وقطعت اعضاؤهما

وفي ٢٥ يونيو سنة ١٨٨٤ وصلت الاخبار بسقوط بربر والقبض على مديرها وارسالهِ أسيرًا الى الابيض وتولى بربر أمير من امراء الدراويش اسمهُ محمد الخير

وكان سقوط بربر ضربة قوية على الخرطوم لأنها كانت واسطة الاتصال بينها وبين مصر. فادرك غوردون صعوبة مركزه وتحقق يقيناً ان انقاذ مهمته لم يعد ممكناً بالحسنى فلا بد من استعمال قوة الجند فطلب الى حكومته ارسال حملة لمساعدته فترددت انكلترا مدة قبل الاقرار على الحملة على انها أقرت في مايو على وجوب ارسالها ولكن جنودها لم تبدأ بالمسير الى السودان الاّ في سبتمبر فتذمر أهل الخرطوم وشكوا الى غوردون حالهم وفي جملتهم كل الاجانب المقيمين هناك فقال لهم من أراد الذهاب فليذهب أما أنا فلا أستطيع الخروج الاّ بعد انقاذ الحامية والناس أو ان أموت معهم ولكنه أشار على ستيوارت أن يسير الى مصر بمن اراد مرافقته من الاجانب وعهد اليه ايصال تقاريره اليومية عن أحوال الخرطوم من أوّل مارس الى ٩ سبتمبر وهو يوم سفر ستيوارت وظن غوردون أن ذهاب ستيوارت بهذه التقارير الى مصر تفيد الحملة القادمة لانقاذه فركب ستيوارت باخرة وركب معه بعض الافرنج ورافقته باخرتان فوصل بربر فضربها ومرَّ بها فعادت الباخرتان وجرت باخرته حتى اذا تجاوزت أبي حمد الى وادي قمر ضايقها الدراويش من البر فجنحت فنزل من فيها فلقيهم الدراويش وقتلوهم وحملوا الاسلاب والاوراق الى المهدي. كل ذلك وغوردون يستحث الانكليز ويستنهض هممهم وينذرهم بالخطر القريب فجاءه خبر هلاك ستيوارت ومن معه قبل خبر خروج الحملة على أن تلك الحملة لم تصل الخرطوم الاّ في ٢٨ يناير سنة ٨٥ أي بعد سقوطها ومقتل غوردون بيومين

فلننظر الى حركات الدراويش واجراآتهم في أثناء حصار الخرطوم من معسكرهم ملخصاً عما رواه سلاتين باشا في كتابه « السيف والنار في السودان » وما أحكاه غيره من الاسرى الذين رافقوا تلك الحوادث داخل الخرطوم وخارجها

تركنا المتمهدي وقد عاد ظافراً الى الأُبيض بخيله ورجله فبعد وصوله اليها أنفذ بعض امرائه لتأييد سلطته في دارفور وبحر الغزال وما جاورها ثم علم ما كان من أمر السودان الشرقي وظفر عثمان دقنا في سنكات وتماي والتب وحصار كسلة وكان قد ولى صهره ولد البصير على الجزيرة ما بين النيلين الازرق والابيض فبلغه انه حارب الجنود المصرية هناك وغلبها وعلم في أثناء ذلك ان غوردون باشا جاء الخرطوم بلا جند ثم وصلة كتابة يطلب اليه فيه اطلاق الاسرى ويوليه كردوفان فلم يعبأ

واجابة بلهجة شديدة كما قدمنا

وتكاثر دعاة المهدي بعد انتصاره على هيكس وتقاطر الناس اليه قبائل وجماعات قياماً بنصرته وكانوا يعسكرون بخيامهم واهلهم وخيلهم حول الابيض فقلّت مياه الابيض فخاف المهدي ان يصيبهم جهد فاشار بالانتقال الى الرهد وفيها الماء غزيراً (راجع خارطة الهلال الماضي) فانتقلوا اليها رجالاً ونساء واولاداً في اواسط افريل سنة ١٨٨٤ باحمالهم واثقالهم ودوابهم واقاموا هناك والمهدي يقضي نهاره في الصلاة والوعظ والحث على الجهاد ثم سمع بخروج الجنود المصرية من الخرطوم على اهل الجزيرة فبعث محمد ابا جرجا اميراً عليها في عدد عظيم من الدراويش على ان يمدّ اهل الجزيرة ويحاصر الخرطوم فحصلت بينه وبين جنود الخرطوم مواقع انتصرت في اولها الجنود المصرية ثم عادت العائلة عليهم بعد ذلك كما رأيت .

وارسل المهدي الشيخ محمد الخير اميراً على بربر فسار اليها وحاصرها وفتحها وارسل مديرها حسين باشا خليفة اسيراً الى معسكر المهدي في كوردوفان فالتقى بسلاتين باشا وتشاطروا مصيبة الاسر . اما دنقلا فكان مديرها مصطفى بك ياور (اليوم مصطفى باشا) قد كتب الى المهدي غير مرة يسلم اليه فلم يركن هذا الى تسليمه بل بعث السيد محمد علي وبعض الشائقية لحيوته فحاربهم وفرّق جمعهم وكان الماجور كتشنر (كتشنر باشا سردار الجيش المصري اليوم) قد جاء بمهمة سرية لاستطلاع نوايا مصطفى بك ياور واحوال السودان فشهد بعض مواقعه مع الدراويش

وخلاصة الامر ان اهل السودان ورجاله كادت تنطق بصوت واحد (صدق محمد احمد بدعواه) وكان الى ذلك الحين مقيماً في الرهد فكتب اليه امراؤه من انحاء مختلفة ان ينزل برجاله الى النيل الابيض فكان يؤجل مسيره مظهراً الازدراء بقوة اعدائه والاعتداد بقواته ويستعرض جنوده كل جمعة استعراضاً عمومياً يحضره هو بنفسه يسمونه (عرضة) والجيش اذ ذاك ثلاثة اقسام يرأس كلاً منها خليفة من خلفائه ولكن الخليفة عبد الله التعايشي كانت له الرئاسة الكبرى ويلقب « رئيس الجيش » وفرقته تسمى « الراية الزرقاء » ينوب عنه في قيادتها اخوه يعقوب التعايشي وفرقة الخليفة علي ولد الحلو تدعى « الراية الخضراء » وفرقة الخليفة محمد الشريف تسمى

« الراية الحمراء » او « راية الاشراف » . وتحت كل من هذه الرايات الثلاث رايات صغيرة لا يحصيها عدٌّ يجتمع حول كل راية منها مئات من الدراويش

وكيفية الاستعراض عندهم ان يقف امراء الراية الزرقاء براياتهم صفاً واحدًا يولون وجوههم المشرق ويقف امراء الراية الخضراء صفاً آخر يقابل الصف الاوَّل وجهاً لوجه ويقف امراء راية الاشراف صفاً آخر يقابل الشمال فيولفون مربعاً ينقصهُ ضلع كأنهُ باب يدخل به المهدي وحاشيته فيمر بجانب الصفوف يحييها قائلاً « الله يبارك فيكم »

فلما انقضى رمضان تلك السنة قال محمد احمد انهُ قد اوحي اليه في الرؤيا (الحضرة) ان ينزل لمحاصرة الخرطوم فبعث الى ابي عنجة وكان قد ارسلهُ في مهمة الى جبل الدير واوعز الى كل اميرات يجمع رجالهُ للخروج على الخرطوم فلما تكامل الجمع زحف المهدي برجاله من الرهد في ٢٢ اوغسطس (آب) سنة ١٨٨٤ في ثلاث فرق سارت كل منها في طريق أعظمها الفرقة التي فيها المهدي وخلفاؤه فهذه سارت على طريق حملة هيكس المشئومة اي من الرهد فشركلا فشات فالدويم وكان في هذه الفرقة سلاطين باشا بمعية التعايشي فلما وصلوا شركلا جاءهم غريب امسكوه اسيرًا فوقف بين يدي التعايشي وسلاطين يترجم بينهما فاذا هو فرنساوي واسمهُ اوليفيه بابن قال انهُ جاء من قبل دولة فرنسا يعرض مساعدتها على المهدي ليقهر الانكليز فابقاه التعايشي في جملة الاسرى ريثما يفهمون فينظر في امره ولكن الرجل مرض من سوء المعاملة واشتدت عليه الحمى فمات اثناء الطريق قبل ان تصل الحملة الى الخرطوم

اما الحملة فوصلت جوار الخرطوم في اواسط اوكتوبر سنة ١٨٨٤ فعسكرت على مسافة يوم منها وهناك بعث المهدي الى سلاطين وامره ان يكتب الى غوردون يدعوه الى التسليم ويقول لهُ ان المهدي حقٌّ وان عبد القادر (يعني سلاطين) نفسهُ يكون اول المحاربين لهُ . فاستأذن سلاطين المهدي قائلاً « اخاف اذا كتبت اليه ذلك ان يستغشني فارى ان انصح لهُ بالتسليم للامام المهدي لان جنوده مظفرة لا تقوى جنود الخرطوم عليها وان اتوسط امر تسليمه اليكم » فاستحسن المهدي الرأي فذهب سلاطين الى خيمتهِ وهو لا يصدق انهُ سيكتب الى غوردون فكتب اليهِ كتاباً طويلاً عريضاً

بالنمساوية (لانهُ لا يعرف الانكليزية جيداً) شرح فيهِ حكاية تسليمهِ دارفور والاحوال التي قضت عليهِ بذلك وقال لهُ ان الاسرى المقيمين مع المهدي هم على ولاء الحكومة يسلمون لها ويضربون بسيفها حالما يتاح لهم ذلك واوعز اليهِ ان يخبره عن حالهِ بالخرطوم وان يكتب اليهِ كتاباً في العربية يطالب فيهِ مقابلتهُ في ام درمان للنظر في شروط التسليم وكتب كتاباً آخر الى متزل قنصل النمسا بمثل هذا المعنى وجاء بالكتابين الى المهدي فامرهُ ان يرسلها مع احد خدمهِ الى ام درمان ولم يكد يسير الرسول حتى جاء خيالة من بربر ينبئون المهدي بمصاب ستيوارت ومن كان معهُ وجاؤُا بالاسلاب وفيها كثير من الاوراق فبعث المهدي الى سلاتين ليخبره عما في تلك الكتب فقلَّب فيها وقال انها كتب خصوصية ارسلها بعض اهل الخرطوم الى اهلهم في مصر وغيرها ورأى تقارير غوردون نفسها وعرف خطهُ فتأسف اسفاً لا مزيد عليهِ ولكنهُ اظهر الجلد فقال لهُ المهدي «اكتب الآن الى عمك (يريد غوردون) ان مركبهُ قد كسر ورجالهُ قتلوا وارسل اليهِ هذا التقرير تأييداً لذلك فاظنهُ اذا تحقق الامر اسرع الى التسليم» فكتب سلاتين اليهِ والى القنصل كتابين آخرين وارسلها مع خادمهِ الى ام درمان وكان في مكان ام درمان اذ ذاك طابية من طوابي الخرطوم اسمها «طابية ام درمان» او «طابية رجب بك» فعاد الخادم من القنصل متزل بجواب مقتضب لم يشفِ غليلاً فارتاب المهدي بنية سلاتين فامر بتقييده فاثقلوهُ بالحديد وحجروا عليهِ في خيمة منفردة

وبعد قليل زحف المهدي برجالهِ واحمالهم واثقالهم ودوابهم فضربوا نقاراتهم وساروا حتى اشرفوا على الخرطوم وسلاتين معهم فعسكروا هناك تحت راية التعايشي وسار الامراء الآخرون يبحثون عن مكان آخر يعسكرون فيهِ . ثم امر المهدي ان يحدق جندهُ بالخرطوم ويشددوا الحصار عليها فامر ابا جرجا وولد النجومي ان يحاصراها برجالهما من البر الشرقي للنيل الابيض عند مكان اسمهُ كلاكلا وامر ابا عنقر (او ابو عنقه) وفضل المولى ان يحاصرا طابية ام درمان على البر الغربي وما زالوا محاصرين تلك الطابية حتى فتحوها في ١٥ يناير سنة ١٨٨٥ وهي اول طابية فتحوها من حصون الخرطوم ويوخذ من تقرير كتبهُ الشيخ المضوي احد قواد المهدي في ذلك الحصار ان المهدي كان عازماً ان يشدد الحصار على الخرطوم حتى

تسلَّم من الجوع كما فعل بالابيض وان رجال ولد النجومي وحدهم بلغوا عشرين الفًا فربما كانت قوة الدراويش كلها هناك ستين الفًا او سبعين او اكثر

فلنعد الى الخرطوم ولنشرح حالها اثناء الحصار . قلنا ان غوردون وصل الخرطوم في ١٨ فبراير سنة ٨٤ ولكنهُ لم يمضِ فيها شهرين حتى نفدت النقود من خزينتها فاصطنع نقودًا من الورق بفئات متفاوتة يتعامل بها الناس الى اجل مسمى وقد شاهدنا كثيرًا منها عند وصولنا المتمة سنة ١٨٨٥ وهاك صورة احداها برسمها الاصلي تمامًا



صورة نقود غوردون

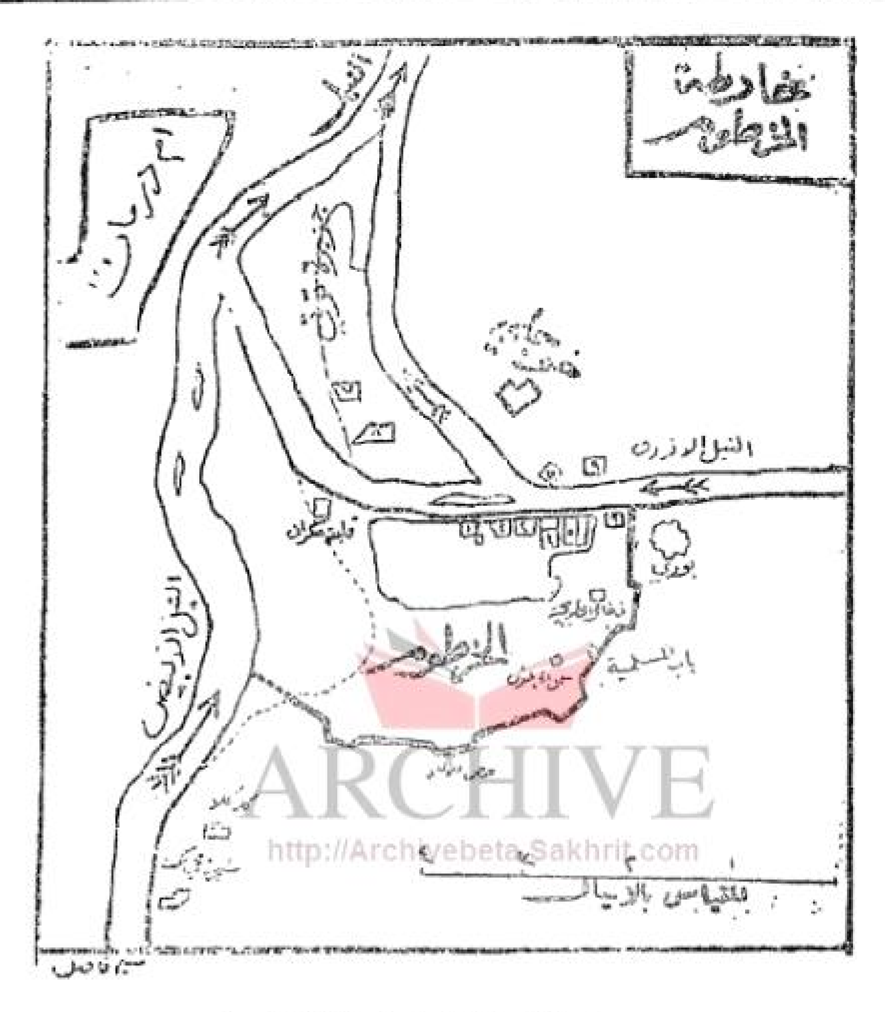
على ان ذلك قلما خفف من ضيق اهل الخرطوم وزلازلها فانهم ما انفكوا يشعرون بالضغط يومًا بعد يوم والحصار يزيدهم تضييقًا حتى اصبحوا محاطين بالعدو من كل جهة وقلّ زادهم او نفد وجاعوا وغوردون يصبرهم و يعدهم بقرب وصول الحملة الانكليزية لانقاذهم ولكنها تأخرت كثيرًا فملّ الناس الانتظار واشتد الجوع حتى اكلوا لحوم القطط والكلاب ومضغوا سعف النخل وجذور الذرة كل ذلك وهم واثقون بوعد غوردون ولكنهم كادوا يسيئون الظن بهِ أخيرًا

اما الحملة الانكليزية التي اقروا على ارسالها لانقاذ غوردون فبرحت مصر في

اوائل الخريف وعدد رجالها ستة آلاف من نخبة الجند الانكليزي واكثر قوادها من الاشراف فقد تسابق الانكليز الى الانتظام في سلك هذه الحملة لزعمهم انها عبارة عن (فسحة) على النيل فلم يصل من رجالها الى كورتي الأ بعضهم وتفرق الباقون في نقط خط الاتصال. ومن كورتي سارت حملة في عطمور صحراء بيوضة الى المتمة بقيادة الجنرال ستيوارت والقصد بها سرعة الوصول الى الخرطوم وسارت حملة اخرى على النيل الى بربر بقيادة الجنرال ارل وكنا ممن سار برفقة حملة العطمور فشهدنا وقائعها وسمعنا اطلاق مدافعها ورنات قنابلها ورصاصها وترى تفصيل ذلك في كتابينا «تاريخ مصر الحديث» و«رواية اسير المتمهدي» فقطعت الحملة جكدول فأباطليح فلاقاها العرب على الآبار فحصلت بين الفريقين واقعة شفت عن انهزام العرب فتعقبهم الانكليز الى المتمة وهناك حصلت واقعة اخرى انهزم بها الدراويش ايضاً وعادوا على اعقابهم وقبيل هذه الواقعة اصيب الجنرال ستيوارت برصاصة في احشائه واحيلت القيادة الى السير شارلس ولسن فنزلت الجنود الانكليزية على ضفاف النيل في مساء ١٨ يناير سنة ١٨٨٥ بعد ان قضت ١٢ يوماً في الصحراء واسم مكان الواقعة ابو كرو ونزل الجند بعد الواقعة في مكان اسمه القبة والافرنج حرفوه فجعلوهُ (جوبات)

وكان غوردون قد انفذ اليهم اربع بواخر كانت في مياه الخرطوم ليستعينوا بها في الوصول اليه وبعث يقول لهم انكم اذا لم تصلوا الينا في بضعة ايام ذهبنا هباء منثوراً وقد علم السير شارلس بذلك في ٢١ يناير وكان يجب ان يبادر حالاً الى الخرطوم بدلاً من ان يقضي اربعة ايام بجوار المتمة بلا داع فغادرها في ٢٤ يناير سنة ١٨٨٥ على باخرتين لم تصلا الخرطوم الا في ٢٨ منه وكانت قد سقطت وقتل غوردون في ٢٦ منه فعاد السير شارلس كاسف البال ولم يصل المتمة الا بعد شق الانفس لان باخرتيه انكسرتا واصابه من الخطر ما لا محل لتفصيله هنا

اما كيفية سقوط الخرطوم فعلى ما يأتي . من تأمل هذه الخارطة علم ان الخرطوم واقعة موقعاً طبيعياً حصيناً للغاية فهي محاطة من الشمال والغرب بالنيل ومن الجنوب والغرب بسور منيع وراءه من الخارج خندق عميق والجند قائمون على السور ليلاً ونهاراً وترى بين بنايات الخرطوم وسورها ارض لا بناء فيها



(دلالات الارقام في خريطة الخرطوم)

(١) الحكمدارية (٢) السراي (٣) حواصل الحنطة (٤) الترسخانة (٥) القشلاق (٦) طابية بوري (٧) مخازن البارود (٨) قرية توتي (٩) الطابية البحرية (١٠) السراي الشرقية

وقد ذكرنا ان المهدي حاصر الخرطوم وشدد الحصار عليها لكي تسلم من الجوع فلم تمض مدة حتى انبأه جواسيسه ان حملة انكليزية قادمة لانقاذ الخرطوم وغوردون فبعث اليها جندًا لاقاها في ابي طليح تحت قيادة موسى ولد الحلو وابي صافية فعادت خاسرة فارسل جندًا آخر الى ابي كرو بقيادة نور عنقرة فانكسر ايضاً كما تقدم . فلما بلغه خبر انكسار رجاله اراد التمويه على اتباعه فامر باطلاق مئة قنبلة وقنبلة وهي اشارة النصر عندهم فاطمأن الدراويش ولكن محمد احمد جمع امراءه وخلفاءه في جلسة سرية وقال لهم ان الحضرة جاءته (اي رأى رؤيا روحية) فاوحت اليه ان يهاجر الى الابيض

فاعترضهُ الامير محمد عبد الكريم قائلاً « ان الهجرة ميسورة لنا كل حين والطريق الى الابيض مطلق لنا فلنهاجم الخرطوم اولاً فاذا امتنعت علينا هاجرنا الى الابيض واذا فتحناها فلا يقوى الانكليز ولا غيرهم على اخذها منا » فاستحسن المهدي رأيهُ وصبر بضعة ايام وهو يستقصي اخبار الانكليز وحركاتهم وفي ٢٥ يناير بلغهُ قيام الباخرتين من المتمة فاقر الرأي على مهاجمة المدينة في صباح اليوم التالي (يوم الاثنين في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥) فبعث المهدي الى القوات المحاصرة يقول انهُ علم بالوحي ان الله قد جعل ارواح اهل الخرطوم كلها في قبضتهِ

وفي مساء ذلك اليوم (٢٥ منهُ) قطع المهدي النيل الابيض من ام درمان وكل من أراد الجهاد معهُ ونزل الى معسكر ولد النجومي في كلاكلا وتلا هناك خطاباً حث رجالهُ فيهِ على الجهاد واوصاهم ان لا يقتلوا غوردون باشا ويقول سلاتين باشا ان غرضهُ من ذلك بقاء غوردون أسيراً حتى يفتدي بهِ احمد عرابي المنفي في سيلان فلما أتم خطبتهُ عاد ببطانتهِ الى ام درمان

وفي الصباح التالي (٢٦ منهُ) الساعة الاولى بعد نصف الليل زحف الدراويش من كلاكلا بقيادة ولد النجومي وانقسموا فرقتين فرقة تهاجم السور بين النيل الابيض وباب المسلمية وفرقة تهاجمهُ من ناحية بوري (انظر الخارطة) وكان السور بين باب المسلمية والنيل الابيض قد تهدم بعضهُ مما يلي النيل لمجاورتهِ ارضاً يغمرها ماء النيل في فيضانهِ ترى حدودها في الخارطة منقطة وكان الماء قد انحسر عنهُ اذ ذاك وتهدم بعضهُ فتكوّنت فيهِ ثغور دللنا عليها بتقطيع السور هناك الى نقط فعوّل الدراويش على ان يدخلوا المدينة من تلك الثغور على انهم اذا فازوا بالدخول منها عدلوا عن الهجوم من جهة بوري ودخل القسمان معاً من جهة النيل الابيض

فزحفوا سكوناً حفاة تحت جناح الليل لا نسمع لهم حركة حتى صاروا عند تلك الثغور فردموا الخندق ووسعوا الثغور وصاحوا صياح الحرب قائلين « في سبيل الله » ودخلوا يزاحم بعضهم بعضاً وقد غاصوا في الاوحال الى الركب فبغتت الحامية فاطلقت بعض الطلقات وكان فرج باشا على باب المسلمية في اثناء ذلك وقد قضي الامر ولم تبق فائدة بالدفاع ففتح الباب وسلم فانهال الدراويش على المدينة كالصواعق وهم ينادون « للكنيسة للسراي » واعملوا في الاهالي المساكين قتلاً ونهباً لم يبقوا ولم

يذروا وسار بضعة منهم الى السراي حيث يقيم غوردون وكان قد يئس من قدوم الحملة وبات تلك الليلة حوالي نصف الليل ولم يكد يغمض جفنه حتى سمع اطلاق النار فصعد الى سطح السراي وأشرف على الاسوار فرأى العرب قد دخلوا السور ولم يعد باليد حيلة فلبس ثيابه وتقلد سلاحه وهمَّ بالنزول فلاقاه ثلاثة من الدراويش عند أعلى السلم فسأل أولهم قائلاً « أين سيدك المهدي » فأجابه بطعنة قاضية وضربه آخر بالسيف فخر قتيلاً لم يبد دفاعاً ويقال ان قتلته من رجال ولد النجومي ولم يكن ولد النجومي معهم فجاء بعدئذ فساءه قتله فأمر بجرجثته الى باحة السراي وان يقطع رأسه ويحمل الى المهدي في ام درمان فحملوه اليه في منديل كبير في الساعة الاولى من النهار وكان سلاتين مقيداً في خيمته بام درمان وقد سمع اطلاق المدافع وعلم بهجوم العرب على الخرطوم ثم سمع بفتحها فوقف حزيناً كئيباً فمرَّ حاملو رأس غوردون به وبينهم رجل اسمه شطا كان يعرفه سلاتين قبلاً فكشف له عن رأس غوردون وقال « أليس هذا رأس عمك الكافر » (كما ترى في الرسم بصدر هذا الهلال) فأثر ذلك المنظر في سلاتين كثيراً وكان قد هزل جسمه من الاسر والخوف وكاد يغمى عليه ولكنه تجلد وقال بصوت ضعيف « انه مات في سبيل الدفاع عن واجباته هنيئاً له فقد استراح من متاعبه » فقال له شطا ضاحكاً « اتمدح الكافر سوف تلقى ما لقيه قريباً » فتأمل حال سلاتين اذ ذاك

ثم حملوا الرأس الى المهدي فاظهر كدره لذلك ولكن سلاتين يظن ان المهدي لو اراد ان يبقي عليه واوصى رجاله بذلك ما استطاع احدٌ على مخالفة اوامره.

هكذا سقطت الخرطوم عاصمة السودان في أيدي الدراويش وبسقوطها سقط كل أمل بافتتاحها ولكن المهدي لم يقم فيها بل اقام في ام درمان وبنى هناك مدينة جعلها عاصمة ملكه من ذلك الحين

أما الحملة الانكليزية فانها انسحبت من المتمة الى كورتي فاقامت هناك مدة ثم عادت الى دنقلا فمصر وسحبت معها كل من أراد مرافقتها من سكان السودان شمالي كورتي واصبحت السودان من ذلك الحين مملكة المهدي السوداني



باب المقالات

المكروب الضمّي

لا حديث للناس في مصر الآن الاّ الكوليرا والمكروب والوقاية حتى اشغلهم ذلك عن الحملة السودانية والسياسة الداخلية والخارجية فلا عجب اذا اعدنا البحث فيها وكررنا التنبيه على طرق الوقاية منها

فميكروب الكوليرا حي صغير جدًّا لا يرى بالعين المجردة يجتمع الوف منهُ في نقطة ماء تعلق برأس الدبوس ويظهر تحت الميكروسكوب على شكل الواو او الضمة (ُ) فسموهُ الميكروب الضمي او الواوي . فهذا الميكروب هو علة اعراض الكوليرا ولكنهُ لا يحدث تلك الاعراض الاّ اذا وصل المعدة واستقرَّ بها وتوالد وتكاثر . ووصولهُ المعدة لا يكون الاَّ عن طريق الفم اذ قد تقرر قطعياً انهُ لا يعيش في الهواء فنظافة كل ما يدخل الفم اول طرق الوقاية واهمها . واهم ما يدخل الفم الطعام والشراب وقد وجد علماء الميكروبات بالامتحان والاستقراء ان هذا الميكروب لا يعيش في الحرارة اذا ارتفعت عن سبعين درجة سنتكراد اي تحت درجة الغليان بثلاثين درجة فاذا احمينا طعامنا وشرابنا الى درجة الغليان تيقنَّا خلوهُ من الميكروب وذلك بان نغلي الماء ونبردهُ قبل شربهِ ولا نأ كل من الاطعمة الاَّ ما كان مطبوخاً طبخاً اي ما كان مغلياً على النار

والماء نغليهِ ليس فقط للشرب بل لاستخدامهِ في كل حاجاتنا لغسل الآنية والاستحمام وغير ذلك فاذا تحققنا خلو طعامنا وشرابنا من الميكروب بقي علينا منع دخولهِ بغيرهما فقد يتصل الميكروب بايدينا اذا لمسنا بها اشخاصاً او اشياء ملوثة بقيء المصابين او ببرازهم وقد يحصل ذلك بغير انتباه ولا اشتباه مطلقاً فيجب ان لا ندني ايدينا من افواهنا الاَّ بعد غسلها بماء نظيف خالٍ من الميكروب بالصابون الفينيكي او بالصابون الاعتيادي غسلاً جيدًا اما اذا كان هناك اقل خوف من تلوث اليدين بالميكروب كما

يحصل لمن يخالط المصابين كالاطباء والمرضين والقسس والمشايخ وغيرهم فلا بد من غسل اليدين قبل الطعام بمحلول السليماني بنسبة واحد من السليماني الى الف أو اكثر من الماء ثم غسل اليدين بماء نقي لتنظيفها من آثار ذلك السم

ومن خصائص الميكروب الضمي انه لا يعيش الا في الاماكن الرطبة المتخلخلة اما الاماكن الجافة المعرضة لحرارة الشمس فلا يعيش فيها وخصوصاً الاراضي الصخرية وهذا هو سبب امتناع جبل لبنان على هذا الميكروب فالملبوسات الملوثة ببرزات المصابين او قيئهم اذا تعرضت لحرارة الشمس او الهواء المطلق وجفت فقدت خاصة العدوى لان الميكروب يموت بلا رطوبة أما اذا بقيت الملابس ملفوفة وغير معرضة للهواء كان الخطر بنقل العدوى بها كثيراً وبناء على ذلك كانت ايام الخماسين الحارة الجافة من احسن المطهرات وافضل موانع العدوى فانها تجفف الطرق والسطوح والجدران وكل ما يعرض للهواء من آنية البيت والملابس وغيرها فاذا كان هناك ميكروب مات · ومن ضروريات الوقاية اطلاق الهواء في المنازل وتهوية الاثاث وغيره

وهناك وسائل اخرى تساعد في دفع غائلة هذا الداء منها ان الميكروب الضمي يموت في الحوامض القوية واما الحوامض الخفيفة فتمنع نموه فاذا كانت المعدة حامضة كانت في مأمن من نمو هذا الميكروب وتكاثره فالامتناع عن المأكولات او العلاجات القلوية واجب ويستحسن التعويض عنها بالاطعمة او الاشربة الحامضة على ان في عصارة المعدة نفسها مادة حامضة ضرورية للهضم فاذا كانت المعدة منتظمة العمل كان أفرازها حامضاً يساعد مساعدة كبرى في منع نمو الميكروب فيبطل عمله السام في المعدة ولذلك وجب الابتعاد عن كل ما يسبب تلبك المعدة او الاسهال او ازعاج الامعاء كالسهر الطويل وشرب المسكرات وتناول الاطعمة الفخمة أو البرد وللوقاية من البرد تلبس الفلانلا من الصوف ولو كان الفصل صيفاً أو يلف حول البطن حزام من صوف لا ينزع عنه مطلقاً

غلي الماء (عود)

قد تحقق الآن ان عدوى الكوليرا انما تنتشر في المدن بواسطة الماء وخصوصاً اذا كان أهل المدينة يشربون من ماء واحد كأهل القاهرة فانهم يشربون من النيل

فاذا تلوث النيل اي اذا اتصل المكروب الى مائهِ بالقاء مبرزات المصابين أو قيئهم أو جثثهم فيهِ نما المكروب في مائهِ وتكاثر وهو ينمو بسرعة غريبة فتتولد الالوف منهُ في ساعة واحدة فيجري مع المياه في الانابيب الى البيوت والترشيح بالازيار لا ينظف الماء منهُ لأن هذه الاحياء لصغرها تنفذ مسام الفخار بسهولة فقد ترى الماء المرشح نقياً صافياً ولو نظرت اليهِ بالميكروسكوب لرأيت المكروب يعج فيهِ عجيجاً . واصطنع بعضهم في اوربا واميركا مرشحات مختلفة لتنقية المياه من أمثال هذه الميكروبات فوجدوا مرشحة باستور أفضلها كلها ولكن هذه لا يستغنى عن تنظيف شمعتها بالماء الغالي كل بضعة أيام وهو عمل شاق لا يؤمن معهُ خلو الماء من آثار المكروب أما الغلي فاسهل الطرق وابسطها واسلمها وذلك بان تجعل الماء في وعاء وتغليهُ على النار ثم تبرده وتجعلهُ في الزير وتستخدم ما يرشح منهُ للشرب وتستخدم جانباً آخر (مرشحاً او غير مرشح) لغسل آنية الطعام أو تنظيف اليدين أو غيرها مما يستخدم على المائدة . أما الطبخ فلا حاجة الى استعمال الماء المغلي فيهِ لأن الماء يغلي معهُ فيطهر

والماء المغلي لا يستخدم للشرب الاَّ في اثناء ٢٤ ساعة اي لا يستحسن غلي الماء وحفظهُ يومين او اكثر للشرب وخصوصاً اذا كان محفوظاً في وعاء مغلق وسبب ذلك ان غلي الماء يميت الميكروبات وغيرها من المواد الآلية المخالطة للماء ولكنهُ لا يزيل بقاياها والمكروب حيٌّ ذو اعضاء اذا مات بقيت اعضاؤُه ميتة في الماء وبقاؤُها فيهِ غير يوم يفسدها ويولد العفونة فيها فتسبب لشاربها مغصاً او اسهالاً ليس من اسهال الكوليرا او مغصها في شيء ولكنهُ يزعج المعدة ويلبكها فيخيف المصاب او يعرض امعاءهُ للاصابة فالافضل ان يغلى الماء للشرب كل يوم على حدة فيغلى مساء ويبرد ويرشح في اثناء الليل ويشرب في النهار التالي فالماء اكثر الوسائل تأثيراً في تفشي هذا الداء وقد تحققوا ذلك بالاختبار والاستقراء

وقد نشرت بعض الجرائد الطبية الانكليزية حادثة تؤيد هذا القول قالت . كان في بعض مقاطعات الهند جند انكليزي مؤلف من اربع أرط مقيم في مكان واحد يتناول طعاماً واحداً ويعمل عملاً متشابهاً والكوليرا في الهند داءٌ وطنيٌّ لا يفارقها مطلقاً فتفشى في ذلك الجند وفتك بهم فتكاً ذريعاً الاَّ أرطة منهم لم يصب احد من جندها قط مع انها في احوال واحدة مع الارط الاخرى من الطعام والاقليم واللباس

وغيرهِ وبعد البحث الدقيق وجدوا ان تلك الارطة كانت تغلي الماء قبل شربهِ والارطة الاخرى تشربهُ بلا غلي

اعراض الكوليرا وعلاجها

وبعد كتابة ما تقدم اطلعنا على رسالة ضافية من قلم سعادة الدكتور محمود باشا صدقي وكيل مصلحة الصحة العمومية نشرت في المقطم ردًّا على رسالة نشرها حضرة الدكتور دري بك في المؤيد بشأن حقيقة الوباء المنتشر الآن في القطر المصري والوسائل المتخذة لدفعهِ وقد حوت رسالة سعادة الباشا فوائد ذات بال في وصف الميكروب الضمي وخصائصهِ وطرق الوقاية منهُ واعراض الكوليرا وعلاجها فاردنا اقتطاف ما جاء فيها بشأن اعراض الكوليرا اتمامًا للفائدة قال

« متى دخل ميكروب الكوليرا في الجسم السليم ووصل الى المعدة فاما ان يجد الحموضة زائدة فيها فيموت ولا تحدث الكوليرا واما ان يجد الحموضة فيها قليلة فيمرُّ منها الى الامعاء حيث يجد الشروط داخلها متوفرة لنموهِ وتكاثرهِ غير ان الكوليرا لا تبتدئ دائمًا بمغص او آلام في الامعاء فقد أُصيب كثيرون بها ولم يشعروا بالم بل اصابهم اسهال بلا مغص

« واعراض الكوليرا هي اسهال سائل ابيض القوام كماء الارز . ويشعر المريض بانحطاط ثم يصفر لونهُ ويتقيأ ما يكون في معدتهِ . ثم يصير القيء من الصفراء ثم يصير مائيًا بعد ذلك ويشعر العليل بآلام شديدة في القسم الشراسيفي اي فم المعدة وتغور العينان في الحجاج ويستطيل الانف قليلاً واذا شدَّ الجلد بالاصابع لا يعود الى محلهِ الاصلي ويكون في الصوت بحة اولاً ثم يصير صفيرًا . وتقاطيع الوجه تتغير وتصير رصاصية اللون وتنقبض بشدة عند اشتداد الالم على العليل في عضلات سمانتي الساقين . ويبرد الجسم شديدًا وخصوصًا الاطراف ويسيل منهُ عرق غزير ويجف الفم ويزداد العطش ويصير التنفس سطحيًا ويكون النبض رفيعًا جدًّا في ابتداء الامر ثم ينقطع بالكلية وضربات القلب تنخفض الى ٢٠ في الدقيقة ولا يستطيع المريض ان يبول

« ويندر جدًّا ان يصاب السليم بالكوليرا ويقع دفعة واحدة في حالة الانحطاط والبرد الشديد ووقوف النبض بلا مغص ولا اسهال . وهذه هي الكوليرا الصاعقة

«ولا نتعرض للكلام عن معالجة هذا المرض لان الاكتشافات الجديدة لم تثبت وجود دواء شاف له قطعاً . والامل ان التجارب تهدينا الى ذلك على تمادي الايام باكتشاف مادة او مصل يحقن به الجسم للشفاء من هذا المرض او الوقاية منه مثل طعم الجدري للوقاية من الجدري ومصل الكلب للوقاية من الكلب ومصل الدفثيريا للوقاية من الدفثيريا . اما الآن فكل طبيب يختار له تركيباً خصوصياً ينفع في بعض الحوادث ولا ينفع في الاخرى » انتهى

(الهلال) بشر سعادة الدكتور صدقي باشا ان الاستاذ هفكين احد علماء البكتيريولوجيا الذي نقام في الهند وعانى البحث الطويل في ميكروب الكوليرا قد اهتدى موخراً الى طريقة للتطعيم لاجل الوقاية من سم الكوليرا على مبدإ التطعيم بالجدري او المصل فقضى بضع سنوات يجرب طريقته هذه في كلكتة الى اواسط السنة الماضية فرفع تقريراً ابان فيه نتيجة اعماله فظهر ان طريقته في التطعيم نجحت نجاحاً حسناً وكان قد باشر هذا العمل على نفقته الخصوصية فلما علمت حكومة الهند بنجاحه قدمت له مالاً كافياً للنفقة على تجاربه وقدم اوربا في اواخر العام الماضي وقد عاد الآن الى الهند لمواصلة امتحاناته بشان التطعيم بالكوليرا فعسى ان يتم له ذلك فيقي العالم شراً عظيماً جزاه الله خيراً

باب المراسلات

الحَزَنبَل

قلنا في الهلال السابع عشر اننا لم نستطع تعيين فصيلة الحزنبل لاننا لم نرَ زهرهُ ولا ثمرهُ فبعث الينا احد ادباء طرابلس الشام شيئاً من زهره فرأينا اتماماً للفائدة ان نعرض ذلك على حضرة العالم النباتي والجراح الشهير الدكتور جورج بوست استاذ النبات والجراحة وغيرها في المدرسة الكلية السورية ببيروت فبعثنا اليه شيئاً من ساق ذلك

﴿أرمانوسة المصرية﴾ (تابع ما قبله)

قالت أخبرني سيدي أركاديوس انه ابقاه حارساً لفرسه وثيابه حين جاء الينا ولعله متى مرّ به سيدي يعود الينا واذا عاد أرسلناه الى عمرو كما قلت

ومضى ذلك اليوم في الاستعداد ولم تحدث حرب

الفصل الثلاثون

﴿أركاديوس والاسر﴾

أما اركاديوس فقضى بحابة ذلك اليوم في محبسه لم يذق طعاماً تتقاذفه الهواجس بفكر تارة في والده واستبطائه اياه وطوراً في فرسه ومرقس وآونة بفكر في ارمانوسة وكيف انها في بلبيس والعرب قد جاؤوا لافتتاح المدينة وكان عند ما يتذكر ذلك يفضل البقاء هناك لعله يستطيع الدفاع عنها بوجه من الوجوه ثم ينظر الى قيوده فاذا هو مكبل لا يستطيع دفاعاً فيتحسر ويتأسف ويسأم من حياته وبات تلك الليلة لم تعرف عيناه الكرى الى آخر الليل فاغمض جفنيه ولم يكد ينام حتى سمع أصوات المؤذنين وقد قام العرب للصلاة فافاق وعاد الى هواجسه فجاءه بعضهم بالطعام فأبى الاكل فعجبوا لكبر نفسه واخبروا عمراً بذلك فبعث اليه وردان برغبة في الطعام ويستطلع حقيقة حاله فاذا به لم ينثن عن عزمه ولا قبل طعاماً ولا شراباً

فقال له وردان ألعلك لا تزال مصرّاً على عنادك وترجو النجاة من هذا الاسر

فقال اركاديوس قلت لك اني لا اهاب الموت ولا من عادة الروم ان يهابوه

فقال وردان والله لولا ان اميرنا قد شفق عليك لقتلناك

قال لا حاجة لي بشفقتكم فافعلوا ما انتم فاعلون ولا تخاطبني بمثل ذلك

فازداد وردان اعجاباً به وترجح لديه انه من خاصة الروم وجعل ينظر الى لباسه ويتأمله فاذا في عنقه سلسلة من ذهب ثمينة لا يتأتى لمن كان في مثل لباسه ان يتقلدها فلاح له ان هذا الاسير من كبار القواد وقد تنكر فاراد تحقق ذلك فمد يده الى السلسلة واراد استخراجها وهمّ بأن يخاطب اركاديوس فنفر منه اركاديوس للحال

وقال له قف بعيدا ولا تمد يدك اليّ ولا شغل لك بثيابي وانما انتم تطلبون نفسي وهي بين ايديكم

فعجب وردان لتلك الجسارة وازداد رغبة في استخراج السلسلة وقال له اخسأ يا علج ولا تكثر من الهذر والهذيان وانت مقيد الرجلين ومغلول اليدين ووالله لو زدت كلمة واحدة لقطعت رأسك بهذا الحسام

فحرّق اركاديوس اسنانه وحملق عينيه وقال له كم قلت لك لا تهددني بالموت ولا تكثر من الكلام واذا كانت شهامتكم تقضي عليكم بقتل المغلولين فلا حول ولا واما اذا كنتم تدعون الشهامة فالبراز بيني وبينكم اخبر أميركم بذلك

فلما سمع وردان مقالة هابه وتذكر ان عمرًا حظر قتله فتركهُ وسار الى عمرو يخبره بما دار بينهما ويحرضه على قتله

أما اركاديوس فجعل يحرق اسنانه ويتمرمر في داخله لما هو فيه واشتد به الغيظ حتى دمعت عيناه فتذكر انه في الاسر ولا يليق به البكاء فتجلد وتربص ينتظر قضاء الله وفيما هو في ذلك اذ جاءه وردان يأمره بالذهاب الى الامير

فسار يجرُّ قيوده وراءه وهو لغيظه لا يرى احدًا في طريقه واما العرب فانهم وقفوا خارج الخيم ليشاهدوا ما سمعوا به من جرأته حتى وصل الخيمة فدخل اليها وعمرو جالس في صدرها بلباسه وعمامته وامراؤه بين يديه والى جانبه رجل بلباس مخالف للباس العرب ولكنهُ لشدة انفعاله لم يفقه له

فقال عمرو قد بلغنا من وردان انك لا تزال تظهر الجرأة وتتطاول علينا وانت أسيرٌ بين ايدينا

فقال اركاديوس ليس الاسر عارًا على الرجال وانما العار ان تغلوني وتقيدوني وانا واحد وانتم الوف

فقال عمرو حلوا قيوده لنرى ماذا يكون من امره

فحلوها فقال عمرو ها اننا قد حللنا قيودك فكيف ترى نفسك

قال ارى انكم اذا انصفتموني فليبارزني واحد من رجالكم فان ظهر عليّ فدمي مباح لكم

فقال عمرو ولكننا لا نبارز نفرًا اعزل مثلك وانما نبارز كبار القواد

فودّ اركاديوس ان تعرف منزلتهُ بينهم ولكنهُ امسك خوف الغدر بهِ وقال ان ساحة الحرب تبين لكم القائد من الرجل الاعزل

فازداد عمرو رغبة في معرفة حالهِ وقال لهُ اصدقنا الخبر يا رجل ولك منا الانصاف

قال وأي خبر تريدون مني

قال هل لنا من انت انا لا نظن في عامة عسكر الرّوم من تظهر منهُ هذه الجرأة

قال ان بين عامة عسكرنا من هم أصعب مني مراساً واكثر جرأة ولعلكم تحسبوننا جبناء كمن لاقيتم من جند الشام

فازداد عمرو اعجاباً بهِ وندم على حل قيوده فأمر بتقييده وقال لهُ حسبنا حل قيودك بقلل شيئاً من وقاحتك فتصدقنا خبرك فاذا بك لا تزال مصرّاً على عنادك

وفيما هم يطلونهُ تقدم وردان الى عمرو وهمس في اذنهِ مشيرًا الى السلسلة الذهبية في عنقهِ وقال لعلك اذا استخرجت هذه السلسلة ان تستطيع شيئاً منها

فأمر عمرو وردان ان يستخرجها وكان اركاديوس قد شدّ وثاقهُ فلم يستطع دفاعاً ولكنهُ حاول منعهُ فاجتمع عليهِ بعض من في الخيمة فاستخرجوها من عنقهِ ودفعوها الى الامير عمرو وحملوا اركاديوس الى محبسهِ فسار وهو لا يعي شيئاً لشدة تأثرهِ وود لو قطع عنقهُ قبل ان تخرج تلك السلسلة منهُ ولبث صامتاً يحرق و يتململ والقيود تمسكه عن كل حركة

أما عمرو فتناول تلك السلسلة وفيها الصليب المرصع فأخذ يتأملهُ ثم قال انهُ شبيه بكثير مما وجدناه بين اسلاب هؤلاء الرّوم في الشام و بيت المقدس ولكني قلما رأيت مثل لمعانهِ وحجارتهِ

فابتدره وردان قائلاً ذلك ما حملني على الشك بأن الرجل من كبار قواد الرّوم جاءنا متنكرًا . فالتفت عمرو الى الرجل الذي كان الى جانبهِ وهو زياد وقال ما ظنك يا زياد بهذا الصليب فانك اكثرنا اختبارًا باحوال الرّوم ولباسهم

وكان زياد قد سار برسالتهِ وهي كتاب عمرو الى المقوقس بالامان للقبط فوجدهُ في الحصن وسمع اهل الحصن يتحدثون بغياب اركاديوس على حين غفلة وكان قد شاهدهُ مرارًا في الاسكندرية وعرفهُ فلما رآهُ واقفاً في حضرة عمرو اشتبه بهِ ولكنهُ لم

يسارع الى التصريح حذراً من ان يكون ذلك بعدئذ وسيلة لانكشاف امره عند الرّوم فلبث صامتاً فلما ناوله عمرو السلسلة اخذها ونظر الى الصليب وقلبه بين يديه فرأى على قفاه كتابة بالقبطية فقرأها فاذا هي اسم ارمانوسة فكتم ذلك واشتبه عليه الامر ثم قال هل يأذن لي مولاي ان استطلع حقيقة هذا الرجل بنفسي لاني موافق لوردان في ما رآه

فقال عمرو افعل ما بدا لك فحمل زياد السلسلة وسار تواً الى محبس اركاديوس فاذا هو غارق في بحار الهواجس وقد اخذ الغضب منه مأخذاً عظيماً ولما رأى زياداً داخلاً اجفل ولكنه تجلد وصبر ليرى ما يبدو منه

أما زياد فجلس امامه وقال له باللاتينية قد بعثني مولاي عمرو بن العاص لاسألك امراً فهل تجيبني عليه

قال قل فلعلي اجيبك

قال من اين لك هذه السلسلة (وأراه اياها) فلما رأى اركاديوس السلسلة في يده اقشعر جسمه وارتعدت فرائصه وكادت الدموع تترقرق في عينيه ولكنه عوّل على التجلد والحزم فقال انها وصلت اليّ بطريق الاتفاق

قال وكيف يمكن ان تصل اليك بطريق الاتفاق وهي لمن لا يصل اليها من كان من عامة الناس كما جعلت نفسك

قال لا أعلم الاَّ انها وصلت اليّ بطريق الاتفاق

قال وأي اتفاق

قال وجدتها في بعض الطرق

قال ولكن قل لي ما اسمك

فكاد اركاديوس ان ينطق باسمه الحقيقي لولا ان خوف الموت امسكهُ فقال اسمي وما تريد من اسمي

قال هذا ما أمرني به سيدي الامير فقل ما اسمك

قال اسمي طيطوس

قال وهل انت من جند الرّوم ام الاقباط

قال بل من الرّوم

قال ومن اي الفرق انت

قال وما ادراك بفرق الرّوم وتعدادها

قال ان اعرفها جيدًا فهل انت من جنود الاسكندرية أم منفس ام انت من جنود النجدات التي جاءت موّخرًا من القسطنطينية

فرأى اركاديوس في سؤالاتهِ معرفة باحوال الجند الروماني مع ان هيئتهُ عربية ولكنهُ مع ذلك يتكلم اللاتينية جيدًا

فقال بل انا من جند الاسكندرية

قال ولعلك من فرقة القائد اركاديوس

فلما سمع اسمهُ باذنهِ علت وجههُ ظواهر البغتة وقال ربما كنت منهم ولكن ما ادراك بجنود الرّوم وتقاسيمها ألعلك ممن سكن هذه البلاد

قال كنت مقيماً هنا بعض السنين وما هذا من شأنك السؤال عنهُ ولكن قل لي هل تعرف اركاديوس جيدًا

فعجب اركاديوس لكثرة مسائلهِ عن اركاديوس وخاف ان يكون قد عرفهُ فيقع في الخطر العظيم فقال ولا بد من اني اعرفهُ ولكن اسألك امرًا واحدًا هل تجيبني اليهِ

قال وما سؤالك

قال اعطني هذه السلسلة وافعل بي بعد ذلك ما تريد واسألني مهما شئت فاجيبك

فقال زياد لست مأذونًا بذلك وقد يهمني من أمر هذه السلسلة اكثر مما يهمك فانها على ما يظهر تخص أرمانوسة بنت المقوقس وانت تقول انك من بعض الجند فكيف وصلت اليك

فانكر اركاديوس عليهِ ذلك قائلاً لا اظنها تخصها ولكني مع ذلك لا أدري الاّ انها وصلت اليَّ بطريق الاتفاق

فقال زياد لقد عجبت لترددك في الكلام فانك تقول اعطني هذه السلسلة واسألني مهما شئت فاجيبك وهذا مما يدل على اعظامك لها ثم تقول انها وصلت اليك اتفاقًا فكيف يكون ذلك

فارتبك اركاديوس في امرهِ ولم يعد يستطيع التخلص من هذه الورطة فسكت

فاستنتج زياد من سكوتهِ امرًا حملهُ على زيادة التدقيق في السؤال فاعاد عليهِ السؤال فلم يجبهُ فألحّ عليهِ فأصرَّ على السكوت فقال لهُ اخيرًا انك اذا أصررت

على السكوت فلا تنال الاّ الاذى فافصح فلم يجب فعجب زياد لسكوته فقال له لماذا لا تفصح قل اجب

فرفع اركاديوس عند ذلك نظره اليه وقد اخذ منه الغضب مأخذاً عظيماً وقال لا اجيبك الاّ متى اخبرتني عن حقيقة حالك ومن أنت لاني ارى انك لست من العرب وما الذي يجنبك من التصريح وانا مقيَّدٌ بين يديك

قال وما ينفعك تصريحي او ما يضرُّك ولا هذا من متعلقاتك وانما انت اسير بين ايدينا ولا تظن كتمان امرك يخفي عنا حقيقتك فقد عرفناك وانا اوّل من عرفك

قال وقد حاول التجاهل وكيف لا تعرفني وقد قلت لك عن اسمي وصنعتي

فضحك زياد وقال اتريد ان نصدق بانك طيطس وانت اعظم من ذلك كثيراً واذا اصررت على الانكار فان ذنبك يزداد ثقلاً باصرارك

فقال اركاديوس قل من انا اذاً

قال انت اركاديوس بن الاعيرج

فبغت اركاديوس عند سماعه ذلك وخاف العاقبة ولكنه تبسم مظهراً الاستخفاف بهذا القول وقال من اين لسيدي اركاديوس ان يأتي هذا المكان وهو محاط بالابطال فهو لا يخرج من معسكره الاّ محاطاً بالمئات والالوف من الجند فيا حبذا لو كنت اياه ولو آل ذلك الى قتلي الآن

فقال زياد وقد ازداد تحققاً لظنه لما ظهر على وجه اركاديوس من مظاهر البغتة دع عنك هذه الخزعبلات واعلم ان اركاديوس الذي لا يخرج من معسكره الاّ بالمئات والالوف من الجند قد خرج مؤخراً من حصن بابل منفرداً وقد تركهم هناك يفتشون عنه

فازداد ارتباك اركاديوس وخفق قلبه وتراكمت عليه المخاوف والهواجس من كل ناحية وحاول ان يحل عقاله ليتملص فلم يستطع وقال في نفسه ما الذي اوصل هذا الرجل الى الحصن وهو من جند العرب وكيف تخلص منه

ثم فكر في الامر قليلاً وقال استحلفك يا وجه العرب بما تعبد ان تخبرني من انت ومن تعبد حتى استحلفك به . قال ما لك ومن اعبد

قال اسمع ان العرب اهل عهد وذمام فانا لا ابوح لك بحقيقة امري الاّ اذا

عاهدني على امر اسألك اياه الآن

قال ولعلي اذا عاهدتك على أمر لا استطيع القيام به وانا مأمور

قال اعلم ذلك وانا لن أعاهدك على ما يخالف ارادة أميرك فانه ربما اذا عرف من انا أراد قتلي وما انا خائف من الموت

قال وماذا اذًا

قال عاهدني واقسم لي انك تفعل ما اقوله لك ولو بعد مماتي

فارتاب زياد في امره وعجب لطلبه هذا وقال في نفسه ان للرجل سرًّا عميقًا ورأى في نفسه ميلاً لمعرفة ذلك السر فقال اعاهدك بشرف العرب وشهامتهم اني افعل ما تريد غير الدفاع عن قتلك قل ما بدا لك

فاعتدل عند ذلك اركاديوس جالسًا وقال اما وقد عاهدتني فاني اعترف لك بأني اركاديوس بن الاعيرج فليفعل بي أميركم ما شاء وقد سمعت من خلال حديثك انك دخلت الحصن وظهر لي انك تستطيع الدخول بين جند الروم بغير ان ينكشف امرك فأتوسل اليك ان تحفظ هذه السلسلة وهذا الصليب حتى اذا قضي عليَّ تدفعها الى صاحبتها ارمانوسة سرًّا وتقول لها ان اركاديوس قد مات شهيدًا

فعند ما سمع زياد كلامه تعجب عجبًا لا مزيد عليه ولم يفهم معنى هذه الرسالة مع علمه ان بين القبط والروم عداوة شديدة وكيف ان هذا الصليب قد وصل اليه وهو لارمانوسة فاراد ان يستطلع جلية الخبر فقال له ولكن ما العلاقة بينك وبينها

قال هذا ليس لك ولا هو من متعلقاتك فقد عاهدتني ان تفعل ما اطلبه اليك وهذا ما ارجوه منك فاما ان تفعله او تخلف بوعدك

قال اما الاخلاف فحاشا لي ان ارتكبه ولكنني اريد الافصاح لعلي اكون قادرًا على اجراء ما هو اكثر من ذلك وربما استطعت انقاذك من الموت

قال تقول انك لا تستطيع ذلك ثم تقول انك تفعله ألعلك تهزأ بي دع عنك هذه المواعيد وافعل ما اقوله لك

قال اذا كنت راضيًا بالموت ألا ترضى بافشاء سرّك

قال ان الموت أسهل عليَّ من الافشاء ولا حاجة بك الى اكثر من هذا

فقال زياد استحلفك بحياة صاحبة هذا الصليب اذا كنت تحبها ان تخبرني الحقيقة

ولا تخف فان تصريحك بالحقيقة انفع لك

فأجفل اركاديوس عند ذلك وقال اراك كثير الميل الى معرفة حالي مع أرمانوسة وانت تستغلقني باسمها كأنك تظن اني احبها

قال وهل في الحب عار فاذا كنت لا تود الافشاء خوفاً من غضب والدك فثق اني اكتم ذلك عنه وعن سواه فقل ولا تخف

قال اما وقد وصلت معي الى هذا الحد فاخبرني من انت

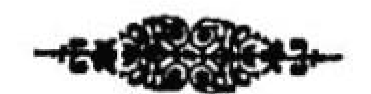
قال اني لست من جند العرب وهذا كاف فقل ولا تخف

ففكر اركاديوس قليلاً فلاح له ان الرجل ربما كان من جواسيس المقوقس الى العرب او ربما كان من جواسيس ارمانوسة فاستبشر به وقال اما اذا كانت الحال كذلك وقد أردت بي خيرًا فأخبرك اني احب ارمانوسة وهي تحبني وقد أخذت هذا الصليب منها تذكارا لا يعلم به احد سواك الآن وحبي لها سرٌ لا يعلم به والدي ولا أحد من جند الروم . هذه في حكايتي والسلام فافصح انت الآن وقل لي من انت

قال انا من بعض موالي سيدتي أرمانوسة وقد جئت هذا المعسكر متجسساً وبما ان اصلي عربي لم يستغشوني أما وقد علمت الآن حقيقة أمرك فثق بالنجاة على يدي باذن الله وها اني عائد الى الامير

فناداه اركاديوس وقد توسم فيه الخير وقال له لقد وثقت بك وثوقاً تاماً وانت تعلم اني قادر على مكافأتك خير مكافأة فابذل جهدك واحفظ ذلك سراً

فعاد زياد الى الامير عمرو وقد صمم على بذل الجهد في انقاذه ولكنه لم يصل المعسكر الا وقد ركب عمرو وصاح في الناس النفير النفير واخذ الجند في التأهب لمهاجمة المدينة فلم يملك فرصة لمخاطبته بشأن اركاديوس فلاح له ربما انه استطاع اطلاق سراحه والناس في شاغل عنه بالحرب « ستأتي البقية »



تاريخ السودان الحديث (تابع ما قبله)

موت المهدي وخلافة التعايشي

فلما فتحت الخرطوم وعادت الحملة الانكليزية الى مصر ازداد الناس وثوقاً بدعوى المهدي مع ما شاهدوه من توفقه في مشروعاته فانه لم يشهد موقعة الاّ انتصر فيها ولا حاصر مدينة الاّ فتحها . واذا اعتبرت ما لاقت الحملة الانكليزية القادمة لانقاذ غوردون من العراقيل والعوائق عجبت لما اتفق لمحمد احمد هذا من غرائب التوفيق فاتخذ أشياعه ذلك دليلاً على انه انما يعمل بوحي من الله وأيقن هو انه أصبح المالك المتصرف في السودان من أدناه الى اقصائه وخيل له انه سيفتح الامصار ويخضع الملوك والسلاطين فتنتشر سلطته في الخافقين على انه لم يكن يرجوان يتم ذلك كله على يده ولكنه كان يقول انه لن يموت الاّ بعد فتح الحرمين وبيت المقدس ثم ينزل الكوفة ويموت فيها ولكن ساء فأله فانه لم يكد يوطد سلطته ويقيم في عاصمته (ام درمان) بضعة أشهر حتى داهمته الوفاة فيها في ٢١ يونيو سنة ١٨٨٥ على أثر اصابة شديدة بالحمى التيفوس لم تنجع فيها حيلة ففارق هذا العالم على عنقريب (سرير سوداني) وحوله خلفاؤه الثلاثة وخاصة امرائه منهم احمد ولد سليمان ومحمد ولد البصير وعثمان ولد احمد والسيد المكي . فلما شعر المهدي بدنو الاجل قال لمن حوله بصوت مختنق « ان النبي (صلعم) اختار الخليفة عبد الله خليفة الصديق خليفة لي وهو مني وأنا منه فاطيعوه ما أطعتموني . استغفر الله » ثم تلا الشهادتين وجعل يديه متقاطعتين على صدره وتمطط واسلم الروح

ولم يكد يخرج النفس الاخير من انفاسه حتى تقدم الحضور فبايعوا عبد الله وسموه « خليفة المهدي » وكان في جملة من حضر موت المهدي امرأته عائشة ويدعونها « ستنا ام المؤمنين » فسارت لابلاغ خبر وفاته الى نسائه الاخريات وتعزيتهن وكان الناس قد تجمهروا مئات والوفاً حول المنزل ينتظرون الخبر عن سيدهم ومهديهم فلما علموا بموته ضجوا وصاحوا فأوعز اليهم ان البكاء والندب حرام لان المهدي انما فارق مقامه في الارض بمجرد ارادته ليلتقي وجه ربه . فغسلوا الجثة ولفوها بالاكفان واحتفروا لها حفرة في تلك الغرفة حيث فارقتها الروح ودفنوها وجعلوا فوقها

بعد ذلك مقامًا من الخشب يغشاه ستر اسود وبنوا فوقه قبة وسموا ذلك المقام « قبة المهدي » يزورها الناس للتبرك واحتفروا بجانب القبة بئرًا يستقي الزائرون منها للشرب والوضوء وحول القبة درابزون من خشب

وكان سلاتين باشا قد نال العفو من المهدي قبل وفاته فحلت قيوده وعاد الى معية التعايشي فشاهد تلك الحوادث شهادة عين ووصفها في كتابه السيف والنار والسودان وصفًا تامًا

فبعد دفن المهدي سار خليفته عبد الله الى الجامع وخطب في الناس وانبأهم بوفاة المهدي فبكى وبكى الناس ثم أوصاهم بالطاعة والاتحاد للعمل باوامره وبعد الخطبة تقدم الناس لمبايعته فتلوا صورة المبايعة التي ذكرناها قبل الآن ولكنه غيّر العبارة الاولى منها فجعلها « بايعنا الله ورسول الله ومهدينا وبايعناك على توحيد الله الخ »

أوصاف المهدي كان طويل القامة عريض المنكبين اسمر اللون فاتحة قوي البنية . وكان أول قيامه بدعوته ربع القامة فاصبح في اواخر ايامه سمينًا ضخمًا . وكان كبير الرأس عريض الجبهة حاد العينين اسودهما خفيف اللحية اسودها وعلى خديه آثار الاخاديد العرضية ثلاثة من كل جانب كسائر الدناقلة ابناء قبيلته . وكان متناسب الانف والفم لا ينفك مبتسمًا فتظهر اسنانه وبين الاماميتين منها فلجة تشبه الثمانية (٨) تعد عند السودانيين وغيرهم من المشارقة علامة السعد ويقال لصاحبها افلج وكان ذلك من جملة ما حبب المهدي الى النساء وكنّ يسمينه (ابو فلجة)

وكان يلبس جبة بيضاء قصيرة مضرّبة تراها دائمًا مغسولة نظيفة مطيبة برائحة خشب الصندل والمسك وعطر الورد وكان مشهورًا بين اتباعه بهذه الرائحة حتى نسبوها اليه فسموها « رائحة المهدي » وذكر بعضهم خالاً كان في خده ادعى أنه من علامات المهدية (أعد النظر الى رسم المهدي في صدر الهلال السابع عشر من هذه السنة)

وقد علمت من تدبر ترجمة حاله انه كان نبيهًا مدبرًا رضي الخلق حسن السياسة ماهرًا في التأثير على عواطف الناس اذا تكلم ظهر للسامعين ان جوارحه كلها تتكلم فاذا ذكر مآثم بني الانسان او وصف النعيم المقبل أو حثّ على الجهاد بكى وتخشع وابكى السامعين . ويظهر من مجمل سيرة حياته انه صبور على البلوى كاظم للغيظ مسالم للاحزاب محسن اليهم راغب في امتلاك قلوبهم باللطف وحسن الاسلوب وكان

ذلك من اكبر العوامل في نشر دعوته وقيام الناس بنصرته ولو أمد الله في أجله لكان فتح السودان صعبًا على الجنود المصرية نظرًا لاستهلاك فؤاده في سبيل نصرته أما خليفته فعلى غير خلقه من اللين والدعة والمسالمة الى حدّ هاج غيرة الخليفتين الآخرين وغيرهما من الامراء. فقام الشقاق بين الدراويش فضعفت عزائمهم وفسدت امورهم وتضعضعت احوالهم وسهل الفتح على المصريين

❊ تعاليمه ❊ ذكرنا في الاعداد الماضية ما كان من أعماله الحربية منذ ظهوره الى وفاته ولا فائدة من التكرار فنقتصر على ذكر ما أحدثه من التعاليم والتقاليد بين مسلمي السودان

(١) علّم الزهد في الدنيا وملذاتها ونبذ المجد الدنيوي فابطل الرتب والالقاب الرسمية وغير الرسمية وساوى بين الغني والفقير وفرض على اتباعه لباسًا واحدًا يمتازون به ويدل على تزهدهم وهو الجبة المرقعة وترى رسمها في صدر الهلال الخامس عشر من هذه السنة

(٢) جمع المذاهب الاربعة (المالكي والشافعي والحنفي والحنبلي) ووحدها بتسوية بعض ما بينها من الخلاف والغاء البعض الآخر واختار آيات من القرآن الكريم تتلى كل يوم بعد صلاة الصبح وصلاة العصر سماها « الراتب » وسهّل طرق الوضوء

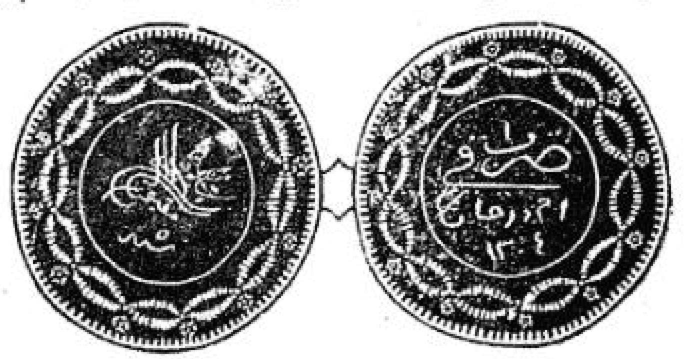
(٣) حرّم الاحتفال بالاعراس احتفالاً يدعو الى النفقة ومنع شرب الخمر وغيرها مما يتناولونه في الاعراس وخفض مهر الزواج فجعله عشرة ريالات وبدلتين للبكر وخمسة ريالات وبدلتين للثيب وجازى من يخالف ذلك بسلب امواله كلها. وابدل ولائم الاعراس بطعام من التمر واللبن فتسهلت بذلك وسائل الزيجة على الفقراء وقد كانت نفقات العرس الباهظة حائلة بينهم وبين الاقتران

(٤) أبطل الرقص واللعب ومن رقص او لعب فقصاصه الجلد وأخذ امواله وترى تفصيل ذلك في منشور المهدي الذي نشرناه في الهلال الثامن عشر من هذه السنة

(٥) منع الحج الى الحرمين خوفًا على قوّاته من التفريق وتعاليمه من الضياع لعلمه انها تخالف تعاليم اهل الاسلام. ووضع قصاصًا على من يشك بدعوته أو يتردد في تنفيذ اوامره ان تقطع يده اليمنى ورجله اليسرى ويكفي لثبوت الدعوى عليه شهادة

شاهدين وقد يكفي ان يدعي علمهُ ذلك بالوحي · وتأييدًا لدعوته احرق كل كتاب او ورقة تخالف هذه التعاليم

وقد ضرب المهدي نقودًا باسمهِ هذه صورة قطعة فضية منها بحجمها الطبيعي



صورة نقود المهدي

على احد وجهيها اسم المدينة التي ضربت فيها « ام درمان » وعند اسفل ذلك تاريخ ١٣٠٤هـ وهي سنة استقلالهم بالاقطار السودانية والى اعلاها رقم واحد يقصدون بهِ السنة الاولى من سلطانهم وعلى الوجه الآخر ما يشبه الطغراء يقرأ منها كلمة « مقبول » كأنهم يريدون بها ان هذه النقود مقبولة عند حكومتهم وعند اسفل الطغراء يقرأ سنة ٥ ربما يقصدون بها السنة الخامسة من ظهور المهدي او هجرتهِ

هذا ما كان من أمر محمد احمد المهدي زعيم هذه الثورة فقد مات وقلبهُ عالق بما أُوتيهِ من الصولجان غرس غرسًا ولم يذق ثمر غرسهِ فترك تلك الشجرة وقد آن اثمارها لأقوام اختلفوا على اقتسامها وتوكأوا على اغصانها حتى كادوا يكسرونها فقد تولى التعايشي الخلافة وهو يخاف مناظرة الخليفتين الآخرين ويخشى احزابهما · على ان الاعمال الحربية ما زالت في بادئ الرأي سائرة بقوة الاستمرار كما كانت على عهد المهدي

وكان المهدي قد بعث امراءه الى الانحاء لبث دعوتهِ وتأييد سلطتهِ وحث الناس للمهاجرة الى ام درمان فسعى محمد خالد في دارفور فأتم اخضاعها وسار ابو عنقر (او ابوعنقة) الى كردوفان وكانت قد سلمت الى المهدي الاَّ سكان الجبال الجنوبية منها فاخضع بعضهم وبقي البعض الآخر مستقلاً ولعلهُ باقٍ كذلك الى الآن اما ما بقي من السودان الغربي من ضفاف النيل الابيض الى حدود وداي فقد دانت للمهدي برمتها

أما في السودان الشرقي فما زالت سنار وكسلا محاصرتين وقد دافعت حاميتهما دفاعاً حسناً حتى اضطرت الى التسليم فلم تنقضِ سنة ١٨٨٥ حتى بلغ نفوذ المهدي وسلطته جنوباً الى لادو من مديرية خط الاستواء ولم يبق من السودان في حوزة الحكومة المصرية الأَّ سواكن وحدها

واتفق في اثناء حصار سنار ان القوة المحاصرة لها كانت تحت قيادة الامير عبد الكريم وهو من اقارب المهدي فدفعته حامية سنار فانفذ التعايشي ولد النجومي وهو من أعظم قواد الدراويش ففتحها في اوغسطس سنة ١٨٨٥ فبعث التعايشي الى عبد الكريم ان يأتي هو ورجالهُ الى ام درمان وكان قد اخذ معهُ لحصار سنار الجنود السودانية بلواء الخليفة محمد الشريف وهو من أقارب المهدي ايضاً فلما فتحت سنار على يد ولد النجومي ثم دعي عبد الكريم الى ام درمان حمل عبد الكريم ذلك من التعايشي محمل الاهانة لهُ وذاع على الالسنة اذ ذاك ان عبد الكريم قال لو ضمت اليهِ رجالهُ ورجال الخليفة الشريف لاخرج الخلافة من يد التعايشي ودفعها الى الخليفة الشريف لأنهُ أولى بها من ذاك فبلغ ذلك الكلام مسمع التعايشي فبعث الى اخيهِ يعقوب وهو عمدتهُ وقائد جنده واخبره الخبر واوصاه ان يكون الجند على استعداد عند وصول عبد الكريم فلما وصل عبد الكريم لاقاه التعايشي بالتحية والتهنئة واثنى على ما بذلهُ في حصار سنار ثم صرفهُ وبعث الى الخليفتين وسائر الاشراف (اقارب المهدي) فادخلهم غرفة داخلية ولما استتب بهم المقام أمر كاتبهُ فتلا عليهم منشوراً كان قد كتبهُ المهدي في الأبيض يحرض اتباعه به على طاعة التعايشي

فلما تمت تلاوة المنشور قال لهم عبد الله ان عبد الكريم خائن فانكروا ذلك عليهِ ودافعوا عن صداقتهِ وامانتهِ فتظاهر بالعفو عنهُ ولكنهُ اشترط اخراج الجنود السودانية من قيادتهِ الى قيادة اخيهِ يعقوب فقبل الشريف وسائر الاقارب بذلك رغماً عنهم ثم أشار التعايشي الى الخليفة علي ولد الحلو بطرف عينهِ ان يجددوا المبايعة ويمين الطاعة فوضعوا ايديهم على القرآن واقسموا ان يسلموا الجنود السودانية وان يحافظوا على الطاعة ولا ريب ان الشريف ورجالهُ فعلوا ذلك رغماً عنهم وفي انفسهم حزازات يودون لو انهم يذهبون بحياة التعايشي وكانت تلك الحادثة اعثولة ذات بال أصبح بها مقاوموه مقصوصي الاجنحة لا يستطيعون حراكاً

ولكنهم حقدوها عليه . واخذ كل من الفريقين ينظر الى الآخر بعين الحذر على ان الظواهر كانت تدل على اتحاد وارتباط متينين . أما التعايشي فما انفك يدعو الناس من الجهات البعيدة للمهاجرة الى ام درمان ليعمرها ويحشد فيها قوة عظمى يستعملها عند الحاجة

وفي أثناء ذلك تعدى بعض السودانيين على الاحباش في بلاد الحبشة واخربوا كنيسة من كنائسهم والتجأ المتعدون الى قلابات وهي في بلاد الدراويش مما يلي حدود الحبشة فحاصر حاكم المدينة فجاء الاحباش بجند كبير تحت قيادة الراس عادل واخربوا البلدة واحرقوها حتى صارت قفرًا يأوي اليها الضباع والذئاب وساقوا الاولاد والنساء اسارى الى الحبشة فبلغ التعايشي ذلك فكتب الى يوحنا نجاشي الحبشة اذ ذاك ان يرسل الاسرى ويعين الفدية التي يريدها عنهم ولكنه بعث أيضًا يونس أحد قواده بجند الى قلابات وامره ان يحصنها ويقيم فيها حتى يأتيه أمر آخر وبعث ولد النجومي الى دنقلا وابا جرجا الى كسلا وكتب الى عثمان دقنا يؤمن على السودان الشرقي بين كسلا وسواكن أراد بذلك كله ان يثبت سلطته على تلك الاماكن واخذ من الجهة الاخرى ينظم حكومته في ام درمان ففرض ضريبة سماها «فطرة» تدفع بانقضاء عيد الفطر لا يعفى من دفعها أحد كبيرًا كان او صغيرًا واخذ في تنظيم المالية وعهد بذلك كله الى ابراهيم عدلان فوضع أنواع الضرائب واتخذ كل وسيلة ممكنة لاكتساب المال بها وفي جملة ذلك تجارة الرقيق

وفي اواسط سنة ١٨٨٦ عاد أبو عنجر الى ام درمان ومعه الغنائم والاسلاب فاحتفلوا باستقباله احتفالاً عظيمًا حضره التعايشي وسائر الخلفاء والامراء وضربت له الطبول وغيرها

وبعد قليل جاء التعايشي نبأ ان يونس في ضيق فبعث ابا عنجر يتولى قيادة الدراويش في قلابات فسار في جند وافر من ضيقه . وسبب ذلك الضيق ان بعض رجال يونس ادعى أنه عيسى المسيح والتف حوله تلامذة كثيرون بعضهم مؤمن به والبعض الآخر تبعوه نكاية في يونس لاحقاد بينهم وبينه فلما وصل أبو عنجر قبض على ١١ اميرًا ظهر له انهم تآمروا على قتل يونس وبعث الى الخليفة يستشيره بأمرهم فبعث اليه أن يقتلهم ثم ندم فبعث ان لا يفعل ولكن سبق السيف العزل

وكان جند أبو عنجه اذ ذاك اكبر جند اجتمع في حوزة الخليفة عبد الله مؤلفاً من ١٥ الفاً من حملة البنادق و ٤٥ الفاً من حملة الرماح والنبال وثمانمائة فارس

فجمع أبو عنجه هذه القوة وسار نحو رأس عادل لينتقم منه فتوغل في هذه الحملة على غير انتظار وتغلب على رجال رأس عادل واخرجهم من معاقلهم واستولى على الخيم والمؤن وكل الامتعة واسر امرأة رأس عادل وابنته وكانت بهذه الغلبة قد فتح كل مقاطعة امحره فسار تواً الى غندر على امل ان يلاقي فيها خزائن واموالاً فلم يجد شيئاً فاحرق البلدة وعاد وهو ينهب ويسلب كل ما مرّ به بطريقه حتى ساقوا امامهم قطيعاً من نساء الاحباش واطفالهم سوق الاغنام فلما وصلوا قلابات بعثوا الاسرى الى ام درمان فاخذ الخليفة خمسهم وضموا الباقي الى بيت المال وقد مات منهم في الطريق مئات من الجوع والتعب واصبح الطريق بين قلابات وابي حراز مملوءاً بجثث اولئك المساكين وفي جملتها جثتا ابنة رأس عادل وابنه

وبعث التعايشي الى أبي عنجه ان يحصن قلابات لان الاحباش لا يتقاعدون عن الانتقام ولكن المنية عاجلت أبا عنجه فمات شاباً لم يتجاوز ٣٢ سنة من عمره

ثم ما لبث النجاشي يوحنا ملك الحبشة ان جدّ للانتقام من الدراويش على خراب غندر فحمل بجند كبير على قلابات وكانت جنود ابي عنجه لا تزال هناك ولم تفقد الاّ قائدها الاكبر فتأهبوا للدفاع فوصل النجاشي وعسكر بالقرب من قلابات فانقسم جنده فرقتين هاجمت المدينة من ناحيتين فدخلت احداهما المدينة من ثلام في السور واشتغلت بالنهب والقتل وبقيت الاخرى تهاجم السور من الخارج وفيها النجاشي وقد وقف يستحث رجاله ويحرضهم على الدراويش فاصابته رصاصة قتلته فبعد أن كان النصر للاحباش عادت العائلة عليهم فخافوا وتقهقروا في أثناء الليل فاصبح الدراويش وهم يحسبون الهجمة الاحباش الف حساب فاذا بالارض خالية من الخيم فبعثوا الجواسيس فعلموا ان النجاشي قتل فتعقبوهم وكان الاحباش قد عسكروا على مسافة نصف يوم من قلابات فباغتهم الدراويش ففر الاحباش وتركوا المعسكر غنيمة للدراويش فوجدوا في جملة الغنائم تاج النجاشي يوحنا مصنوعاً من الفضة ومحلى بالذهب وسيفه وكتاباً مرسلاً اليه من ملكة الانكليز فحملوا ذلك غنيمة الى ام درمان

« ستأتي البقية »

باب المقالات

الجدري

نظرًا لتفشي الجدري في بعض انحاء القطر المصري في هذه الاثناء رأينا ان نأتي على ملخص تاريخ ظهوره ووصفه وعلاجه وكل ما يتعلق به فنقول

(١) تاريخ ظهوره

الجدري من الامراض التي لم تعرف اعراضها ولا اندرجت في شكل الامراض المستقلة الا في أوائل القرن العاشر للميلاد اذ ألّف الشيخ الرازي رسالة في وصف الجدري والحصبة وصفًا دقيقًا (طبعت في بيروت باعتناء استاذنا المغفور له العلامة الدكتور فانديك) أما قبل ذلك الحين فكان الجدري موجودًا ولكنه لم يكن معينًا محدودًا . ويظن بركوبيوس المؤرخ اليوناني المولود في قيصرية فلسطين في اوائل القرن السادس للميلاد ان الجدري ظهر اولًا سنة ٥٤٤ م في مدينة بلوسيوم وكانت بلوسيوم هذه عند مصب الفرع البلوسي من فروع النيل الذي كان يصب بالقرب من دمياط بجوار الفرما ذكر ذلك في كتابه عن حروب القبائل القوطية قال ومن بلوسيوم انتقل الى القسطنطينية سنة ٥٦٩ ثم جاء بلاد العرب عن طريق الحبشة لما قدم الاحباش لمحاربة العرب قبيل الاسلام واخذ ينتشر في سائر انحاء المشرق الى أوائل القرن العاشر للميلاد فوصفه الشيخ الرازي كما قدمنا وانتقل الى اوربا بعد الفتح الاسلامي أو لعله حمل اليها اثناء الحروب الصليبية . ومن اوربا انتقل الى اميركا بعيد فتحها وفتك بأهلها فتكًا ذريعًا فهلك فيه من هنود اميركا الوف الالوف وتوفي به من العائلة المالكة بانكلترا في اواخر القرن السابع عشر والدة وليم الثالث وامه وامرأته ماري وعمه وابناء عمه وأُصيب هو ايضًا به اصابة قوية شفي منها لكنها شوهت خلقته تشويهًا رافقه الى آخر ايامه . وتوفي به من العائلة المالكة في اوستريا باوائل القرن الثامن عشر يوسف الاول امبراطور جرمانيا وامبراطورتان وستة ارشيدوقات وامكتر

سكسونيا وانكلترا باقاربا وتوفي به نحو ذلك الزمن ايضاً ولي عهد فرنسا وامرأته وابنة وفي سنة ١٧٣٠ توفي به امبراطور روسيا وفي سنة ١٧٤١ فتك بملكة اسوج وفي سنة ١٧٧٤ أمات لويس الخامس عشر ملك فرنسا وفي اواسط القرن الماضي تفشى في روسيا فأمات من اهلها مليوناً في سنة وبالجملة فانه لم تنج منه مملكة ولا أمة فكان يفتك بالناس على اختلاف اعمارهم واجناسهم واصقاعهم ودرجاتهم من الملك الساكن في القصور بين الاسرة والموائد الى الصعلوك المسكين الذي يفترش الارض ويلتحف السماء . وما زال فتكه ذريعاً الى ان اكتشف التلقيح (التطعيم)

(٢) تاريخ التلقيح

للتلقيح دوران دور قديم ودور حديث فالدور القديم كانوا يلقحون فيه بمادة الجدري البشري نفسها فينقلون المادة الصديدية من المجدور الى الصحيح والدور الحديث كانوا يلقحون فيه بمادة الجدري البقري وهو غير الجدري البشري كما سترى

✻ التلقيح بالجدري البشري ✻ لما تفشى الجدري في العالم واهلك المئات والالوف والملايين بحث الاطباء والعلماء في وسيلة تمنعه او تخفف وطأته فلاحظوا (١) ان الذي يصاب بالجدري مرة لا يصاب به مرة اخرى (٢) ان هذا الداء يكون في سنة وافداً قوياً يفتك فتكاً ذريعاً وفي سنة اخرى خفيفاً قليل الاذى ولما كان الانسان معرضاً للاصابة بالجدري مرة في حياته على اي حال فالافضل ان يصاب به لما يكون خفيفاً وعلى هذا المبدأ بدأوا بالتلقيح بمادة الجدري نفسه عند وفوده خفيفاً فكانوا ينقلون العدوى اليهم اما بادخال المادة الصديدية تحت الجلد او بحك موضع معرّى من البشرة بها فتصل الى الدم وتحدث العدوى فتظهر اعراض الجدري فيهم خفيفة ولكنها تقيهم من الاعراض الثقيلة . ومخترع هذا التلقيح مجهول أما زمنه فقبل القرن الثامن عشر على الاقل . لأن هذا التلقيح كان معروفاً في القسطنطينية في أوائل ذلك القرن ثم نقل منها الى اوربا وما زال معمولاً به حتى اكتشف التلقيح بالجدري البقري

✻ التلقيح بالجدري البقري ✻ الجدري البقري نوع من الجدري خفيف يصيب البقر والغنم وقد يكون وافداً حتى يبيد الماشية وقد أصاب البقر في ايطاليا وغيرها من بلاد اوربا في أوائل القرن الثامن عشر فاهلك منها عدداً كبيراً واعاد الكرة

ايضاً سنة ۱۷۷۰ وسنة ۱۷۸ فوصل انكلترا وقتل من نفرها شيئاً كثيراً

وكان في انكلترا طبيب اسمهُ ادوارد جنر ولد في بركلي بانكلترا سنة ۱۷٤٩ ودرس الطب ومارسهُ وكانت لهُ رغبة شديدة في تحقيق حقائقهِ وكانت حكاية الجدري شاغلة افكار الاطباء لان التلقيح بمادة الجدري البشري لم يفِ بالغرض المقصود اذ قد يحدث عن التلقيح نفسهِ اصابة قوية تميت المصاب فجاءتهُ ذات يوم فتاة من ساسة البقر اللواتي يحلبن اللبن ويخدمن الماشية ببعض القرى وقالت لهُ انها لا يمكن ان تصاب بالجدري ولو تعرضت لعدواهُ وخالطت المصابين بهِ فتنبه ذهنهُ الى هذه الحقيقة فسار بنفسهِ الى تلك القرية فوجد ذلك الاعتقاد عاماً بين أهلها فاخذ من ذلك الحين يبحث عن سبب ذلك واخبر بهِ بعض معاصريهِ من الاطباء فقالوا انها خرافة لا يعتد بها أما هو فلم يتحوَّل عن عزمهِ وما زال يراقب ويجرب حتى لاحظ ان الذين يحلبون البقر المصابة بالجدري تظهر على ايديهم أو في محل آخر من جلدهم بثرة (حبة) او بضع بثرات من بثر جدري البقر ثم تزول البثرة ولا تعود تظهر ثانية وتقي المصاب بها من الاصابة بالجدري البشري

وكان كلما عرض رأيهُ هذا على الاطباء سخروا بهِ . وفي سنة ۱۷۹٦ تمكن من تأييدهِ واقناعهم بالبرهان الحسي ان المصاب بالجدري البقري لا يمكن ان يصاب بالجدري البشري فجاء بغلام في الثامنة من عمرهِ ولقحهُ بمادة الجدري البقري من بثرة بيد فتاة مصابة بهِ فأُصيب الغلام باعراض الجدري البقري الخفيفة ثم لقحهُ بمادة الجدري البشري فلم تؤثر فيهِ مطلقاً وكرَّر هذه التجربة مراراً فكانت النتيجة واحدة فكتب سنة ۱۷۹۸ كتاباً سماه «بحث في أسباب الجدري البقري ونتائجهِ» على أنهُ مع ذلك لم يسلم من المعارضين شأن الناس في مثل هذه الحال فانهم اذا جاءهم بشير باختراع حديث يخالف ما تعودوهُ كذبوهُ وقاوموهُ ولو استطاعوا لاحرقوهُ فقاسى الدكتور جنر في سبيل الدفاع عن اكتشافهِ هذا عذاباً شديداً على انهُ ما لبث ان لاقى انصاراً يشدون ازرهُ ولا يعدم الحق انصاراً فلم تمض سنة من نشر كتابهِ حتى وافقهُ على رأيهِ جماعة كبيرة من أشهر أطباء انكلترا وجراحيها فامضى سبعون منهم على تقرير صرحوا فيهِ بمصادقتهم على ذلك الاكتشاف . ثم ازداد تقدير الناس لهُ حتى حاول بعضهم اختلاس حق الاكتشاف لنفسهِ ولكنهُ لم يفز بطائل فبقي ذلك الشرف

محصورا بالدكتور جنر لا يشاركه فيه أحد فعرضت الحكومة عليه المكافأة وان يتقاعد عن العمل ويستريح فأبى الا البقاء في تلك القرية يطبب ويجرّب وقد ملأت شهرته الاسماع فانتشر التلقيح بالجدري البقري اولاً في انكلترا وانتقل منها الى فرنسا وغيرها من ممالك اوربا ثم الى الشرق وذاع في سائر أقطار المسكونة وفي خدمة خلّدت للدكتور جنر ذكرًا لا يمحوه كرور الايام وقد كافأته انكلترا في حياته فدفعت اليه سنة ١٨٠٢ عشرة آلاف جنيه وفي سنة ١٨٠٧ عشرين إلفًا وله مؤلفات اخرى في الجدري وغيره وتوفي في غلوستر شير بانكلترا سنة ١٨٢٣ . وقد قرأنا ببعض الجرائد ان روسيا تتأهب للاحتفال في هذا العام بمرور مائة سنة على اكتشاف الدكتور جنر للتلقيح بالجدري البقري

والتلقيح بالجدري البقري الآن اجباريٌ في اكثر ممالك العالم تفرضه الحكومة على رعاياها ليلقحوا اطفالهم في الاشهر الاولى من حياتهم ومن أهمل هذا الامر جوزي . وبهذه الواسطة تقلص ظل هذا الداء من اكثر مدن اوربا حتى قال بعض العلماء « ان تفشي الجدري في بلاد انما هو عار على حكومتها » وقال آخر « اذا كان الجدري اكبر لعنة فالتلقيح أعظم بركة »

وقد وجدوا بالاحصاء والمقابلة ان الوفيات بالجدري نقصت نقصاً مهماً بعد اكتشاف هذا التلقيح فبلغت وفيات الجدري باوربا في القرن الثامن عشر قبل اكتشاف التلقيح البقري ٤٥ مليونًا ولم تزد وفياته في هذا القرن بعد اكتشاف التلقيح عن المليونين فكأن مشروع التلقيح هذا قد قلّل وفيات الجدري نحو ٩٥ بالمائة فتأمل

(٢) كيفية التلقيح

الجدري البقري لا تنتقل عدواه بالهواء كالجدري البشري فلا بد في التلقيح به من ايصال مادته الى الدم ويجب ان يلقح به الاطفال قبل زمن التسنين وخصوصاً اذا كان الجدري متفشيًا وعند ذلك فالاسراع في التلقيح واجب ولو كان الطفل ابن بضعة ايام وقد كان المشهور بين العامة ان التلقيح لا يجوز متى كان الجدري منتشرًا وافدًا وهو وهمٌ باطل فان التلقيح جائز في أي وقت كان ولعل هذا الاعتقاد باقٍ من أيام التلقيح بالجدري البشري اذ كانوا يغتنمون زمن وفود الجدري خفيفًا

ويلقحون به لكيلا تكون اصابتهم به قوية كما قدمنا . أما في التلقيح بالجدري البقري فلا فرق كان الجدري وافدًا قويًّا او ضعيفًا ولا شيء يوجب تأجيل التلقيح الّا اذا كان الطفل مصابًا بضعف او اسهال او مرض جلدي

قلنا ان التلقيح ايصال المادة الجدرية الى الدم وكيفية ذلك ان يخمش الجلد بضع خمشات خفيفة برأس الريشة حتى يخرج الدم منها فتوضع المادة الجدرية البقرية على تلك الخموش وتترك في الهواء لتجف . والمادة الجدرية يجب ان تكون منقولة من بثرات البقر رأسًا أو من بثرات طفل صحيح البنية خال من الامراض الوراثية او المعدية ملقح بالجدري البقري تلقيحًا جيدًا وكلما تكرّر نقل المادة البقرية من طفل الى آخر خسرت شيئًا من خصائصها وتصل مادة التلقيح الينا في أنابيب زجاجية دقيقة تتضمن مادة الجدري البقري مأخوذة من بثرات البقر المصاب به ولكنها قد تكون قديمة فتخسر خواصها فيجب انتقاء الانابيب الواردة حديثًا لتحقق فعلها . ولا فرق في موضع التلقيح فيصح أن يكون في اليدين أو الرجلين أو الصدر أو البطن ولكنهم يختارون الذراع اليسرى لأنها أقل حركة وأسلم عاقبة من سواها ولما شاع لباس الرقص (ديكولته) بين السيدات واضطررن الى كشف اذرعهن والتفاخر بجمالها صاروا يلقحون البنات في أرجلهن هربًا من الندبة التي تبقى على الذراع بعد التلقيح والنتيجة واحدة

قد تقدم أن المادة الجدرية تتصل الى الدم بالخموش الخفيفة فاذا كان الطعم صحيحًا تسير فيه الاعراض على هذه الصورة . تظهر في اليوم الثاني بقعة صغيرة عند الخمش بالريشة وفي اليوم الخامس تتكوّن حويصلات لؤلؤية مستديرة تتضمن سائلًا صافيًا وفي اليوم الثامن يتم تكوينها وينخفض كل منها عند المركز وتحيط بها هالة حمراء ملتهبة عرضها يتجاوز القيراط وربما حدث حينئذ حمى خفيفة وورم في الذراع . وفي اليوم الحادي عشر تنفجر الحويصلات وتتكوّن عليها قشرة وفي اليوم العشرين تسقط القشرة وتترك اثرًا مبيضًا يدوم مدة الحياة

والتلقيح مرة واحدة لا يقي الانسان طول حياته من الاصابة بالجدري فالتلقيح مرتين واجب مرة في الطفولية ومرة بين السنة العاشرة والسابعة عشرة وقد أشار بعضهم بالتطعيم مرة كل سبع سنوات ولكن الاشهران المرتين تكفيان لوقاية الانسان من الجدري طول الحياة فمن تلقح مرة واحدة فقط فليبادر الى اعادة الكرة فان التلقيح

يتجدد الهواء فيها بدون ان تكون باردة و يخنف الغطاء خلافاً لقول العامة . وليس للدواء فائدة في تقصير سير المرض فغاية ما يمكن عمله تلطيف الاعراض بالمسهلات الخفيفة والادوية الباردة و بل الاطراف بماء فاتر بواسطة اسفنجة ويقتصر من الطعام على الحليب ومرق اللحم واذا كان النبض ضعيفاً والقوى منحطة ربما وجب استعمال المنبهات كالخمر والنشادر وملح النشادر ومنقوع الكينا للتقوية . ومن الوضعيات التي تستعمل على الوجه لاجل منع الحك والتنقير يفيد رش الطحين أو النشاء أو الدهن بزيت الزيتون واذا كان المريض طفلاً ربما وجب لف يديهِ لئلاَّ يخدش وجههُ » اه

ومن ملحقات الجدري الحماق وجدري الماء وكلاهما خفيفان يشبهان الجدري الاصلي من بعض الوجوه ولكنهما قليلا الخطر ولا يصيبان غير الاطفال غالباً



باب السؤال والاقتراح

المطرفي الحرّ

(نيمر . تكساس . باميركا) الياس افندي انطون

في الجهات الحارة من الولايات المتحدة عندنا كولايتي تكساس ولوزيانا لا يحصل المطر الاَّ عند سكون الطبيعة وهدوء الارياح واشتداد الحر حتى لا يعود ممكناً لنا ان نتنفس الصعداء وتتسلط هذه الظواهر قبل حصول المطر بقليل ولذلك فان سكان هاتين الولايتين صاروا يتنبأُون بوقوع المطر قبل وقوعهِ بالاستناد الى هذه الدلائل والمشهور ان المطر يصحبهُ أو يسبقهُ عادة زوابع واهواء وبرد قارس فما سبب هذا الاختلاف

(الهلال) ان الظواهر التي اشرتم اليها تسبق المطر او ترافقهُ في سائر الاقاليم الحارة وليس فقط في الولايتين اللتين أشرتم اليهما . وتعليل ذلك ان المطر يحصل من تجمع البخار المتصاعد عن البحار وغيرها من سطح الارض وتكاثفهِ في الجو وسقوطهِ ماء

أرمانوسة المصرية (تابع ما قبله)

الفصل الحادي والثلاثون

فتح بلبيس

أما ارمانوسة فكانت في اطمئنان من قبيل اركاديوس لظنها انه سار الى الحصن كما قدمنا ولكنها اصبحت في خوف على نفسها من العرب على ان ما علمته من مكاتبة والدها للعرب وتأمينهم اياها كان يخفف خوفها و ودت لو ترى مرقس فتبعث به الى عمرو لزيادة الثقة ولكنها لم تره

أما حاكم بلبيس فأخذ في الاستعداد للدفاع فاعدّ الجند وفرقهم على الاسوار فرقاً فلما اصبح ذلك اليوم ورأوا العرب قد تأهبوا للهجوم على المدينة نادى بالجند وجاء الاساقفة والقسس فصلوا فيهم وحرضوهم على الثبات وقرأوا الاناجيل وحملوا الصلبان في مكان الاعلام ورشوا الجند بماء المعمودية وكان عندهم زجاجة منه جاءتهم من القدس وحفظوها من ازمان طويلة فلما اجتمع الجند في ساحة المدينة صلوا فيهم وجاؤوا بتلك الزجاجة وصبوا منها شيئاً في وعاء كبير فيه ماء واخذوا من ذلك الماء فرشوا به الجند وحملوا الشموع والمباخر والصلبان وتفرقوا على الاسوار للدفاع

واطلّ الحاكم من أعلى السور ينظر الى جند العرب فاذا هم قد ركبوا خيولهم واصطفوا صفوفاً والاعلام تخفق فوق رؤوسهم وتقدم فارس منهم يطلب المبارزة وما زال يجول بجواده ينادي البراز البراز الى وقت الظهيرة فلم يخرج اليه احد من الاسوار فعاد الى معسكره فاجتمع الامراء وتفاوضوا في الامر فقال لهم عمرو ما علينا الا مهاجمة الاسوار لأن القوم قد وقع الرعب في قلوبهم فسارعوهم قبل أن تأتيهم النجدة من حصن بابل فيمتنعوا علينا فتقدم العرب الى الاسوار فرماهم الرّوم بالنبال فلم يبالوا وما زالوا هاجمين حتى اتوا الاسوار وجعلوا يتسلقونها

أما ارمانوسة فكانت تنظر من نافذة قصرها الى العرب وحربهم فلما رأتهم يتسلقون الاسوار اضطرب فؤادها وخافت خوفاً عظيماً ونادت بربارة فتقدمت اليها وهي تقول لا تخافي يا سيدتي ان لنا على الامير عهداً كما تعلمين

وفيما هما في ذلك سمعنا ضجيج اهل المدينة وعلمنا ان العرب دخلوا بلبيس وقد أخذ العسكر الروماني في الفرار فنادت ارمانوسة ويلاه يا بربارة قد قتلنا فامرت الخدم باقفال ابواب القصر والمحاصرة فيه خوفاً من ان يصيبهم ضرر من السالبين وجعلت تسترق النظر من النافذة فاذا بعسكر الروم قد فرّوا واهل المدينة في هرج لا يلوون على شيء والعرب قد دخلوا البيوت ينهبون ويسلبون وجاء واحد منهم يطرق باب القصر فلم يجاسر احد من الخدم ان يفتح له خوفاً على ارمانوسة فاذا هو يقول افتحوا لا تخافوا اني رسول من الامير الى السيدة ارمانوسة

فلم يثقوا بقوله ولما أكثر من الطلب اطلّت بربارة من نافذة مطلة على الباب وسألته عن عزمه فكلمها بالقبطية واخبرها انه رسول من الامير فعجبت للباسه العربي وكلامه القبطي فقالت ماذا تريد فقال افتحوا اني اريد مخاطبة السيدة ارمانوسة بأمر ذي بال من الامير فلم تصدقه فاذا هو قد اخرج من جيبه السلسلة وفيها الصليب واشار بها اليها فلما رأت بربارة السلسلة عرفتها فاسرعت الى سيدتها واعلمتها بما رأته فعجبت لأمرها وقالت اسرعي فافتحي له فامرت الخدم ففتحوا له الباب فدخل مسرعاً الى ارمانوسة وكانت في خوف شديد فلما رأته عرفت انه الرجل الذي شاهدته مع مرقس يوم جاءها الى الخيمة على عهد بوقنا فقال لها لا تخافي يا مولاتي ان الامير عمرًا قد أرسلني لاطمئنك بأن النهب والسلب لن يمسك منهما شرّ وان الامان عليك وعلى كل من هو في قصرك ومن تشائين غيرهم

فاسرعت اليه وتناولت السلسلة من يده وقالت من أين لك هذه السلسلة وتأملتها فاذا هي سلسلتها وصليبها فاضطرب قلبها وصاحت به قائلة قل لي كيف اتصلت اليك واين صاحبها

فقال لها لا تجزعي يا سيدتي ان صاحبها في خير وهو اركاديوس بن الأعيرج وقد عرفت قصته وسأقص عليك خبره فلا تخافي

فقالت قل حالاً اني لا استطيع صبرًا اين هو وكيف وصل اليكم فهمس في أذنها قائلاً انه أسير في معسكر العرب ولا خوف عليه لانهم لم يعرفوه ومتى انقضت الحرب اسعى في اطلاقه

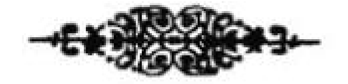
فقالت وقد تعجبت غاية العجب واضطربت جوارحها قل الآن وافصح كيف

وصل الى المعسكر يا ويلاه قد اسر اركاديوس يا بربارة فبهتت بربارة بزباد وسألته عن أمره فقال ولكن قبل ان اقص الخبر خذوا هذا العلم وانصبوه على باب القصر ليعلم الجند انكم في ذمتنا فنادت بعض الخدم فاخذوا العلم ونصبوه على الباب وجلس زباد يقص حكاية اركاديوس كما علمها منه وارمانوسة و بربارة منصتتان وقلباهما يخفقان وارمانوسة كلها آذان و ركبتاها ترتجفان وقد امتقع لونها ونفذ صبرها حتى جاء على آخر الحكاية فصاحت به وهل هو اسير عند العرب الآن فربما صابوه بسوء وخصوصا اذا عرفوا انه ابن الأعيرج

قال انهم لم يعرفوا ذلك وهم لا يفتكون باسراهم غدرا ولا تخافي على اني ذاهب للتفتيش عنه واعود اليكم بخبره فخرج مسرعاً وقد ترك ارمانوسة على مثل الجمر تلطم كفيها باكية وتصيح يا و يلاه من يخبرني انه حي آه من الدهر انه لا يزال يعاندني و يقهرني

فجعلت بربارة تخفف عنها وتعزيها بالمواعيد على انها لم تكن أقل قلقاً منها فخرج زباد تواً الى معسكر العرب والمعسكر يكاد يكون خالياً لاشتغال الرجال بالنغ وقصد محبس اركاديوس وقد اندهل اندهالاً عظيماً لما دخل الخيمة ولم ير فيها احداً فخرج يطوف المعسكر يبحث عن اركاديوس فلم يقف له على خبر فعاد الى الخيمة ثانية وجعل يتأمل ما فيها لعله يستطلع شيئاً عنه فاذا ببعض الامراس من الشعر متقطعة تقطيعاً بغير آلة حادة وعلى بعضها أثر الدم فظن بعض العرب جاؤوه فضربوه وهو موثق و ربما قتلوه ولكنه لم ير جثته ولا عرف بخبرها فوقع في حيرة وحزن لحال ارمانوسة اذا عرفت بذلك فوقف لا يدري ماذا يعمل

فلنتركه حائراً يفتش عن اركاديوس ولنعد الى حصن بابل لنرى ماذا كان من امر والده واهل الحصن بعد خروجه منه



الفصل الثاني والثلاثون

مرقس في الحصن

تركنا الاعيرج في غرفته بعد ذهاب أركاديوس وقد حمي غضبة لما ظنه في المقوقس من الخيانة وود لو أنه يستدعيه اليه ويوبخه ولكنه رأى السكوت الى ان تنقضي الحرب اولى فسكت وقد اضمر له الشر

وفي صباح اليوم التالي جاءته الجواسيس ينبئونه بقدوم العرب الى بلبيس بعد ان فتحوا الفرما فاضطرب لذلك الخبر وبعث الى أركاديوس ليخاطبه بشأنهم وما يجربه من الاستعداد لدفعهم فقيل له ان أركاديوس ليس في قلعته فاستقصى خبره فعلم أنه خرج في مساء الامس ولم يعد بعد فانشغل باله عليه وعجب لذهابه بغير استئذان وهم في حال حرب فبعث الى المقوقس وتفاوضا بما جاءهم من الانباء وسأله عن أركاديوس فقال انه لم يره ولم تمض بضع ساعات حتى شاع خبر ضياع أركاديوس في سائر اجزاء الحصن واخذ الجند والقواد وغيرهم يتساءلون عنه فلم ينبئهم بخبره منبئ فعظم ذلك على الاعيرج وخارت قواه لانه كان يعتمد على أركاديوس في أمر الحصن والاستحكامات وما يتعلق بها فبعث السرايا يفتشون عنه في ضواحي الحصن لعله ذهب في حاجة فلم يقفوا له على خبر فجعل يظن الظنون وقد خامرته الشكوك تارة يتهم المقوقس باغتياله اياه وطوراً يظنه ذهب على جواده لتفقد الحصون فكبا به الجواد فمات او وما شاكل ذلك فانشغل بهذه الهواجس عن اعداد المعدات وتحصين الحصون واخيرا رأى ان يبعث جماعة من خاصته يفتشون عنه في الاماكن المجاورة وامرهم ان يستقصوا خبره ما استطاعوا فتفرقوا في ضواحي الحصن واوغل بعضهم شرقاً الى جوار بلبيس فعثروا بمرقس واقفاً ومعه جواد أركاديوس وسيفه ودرعه وقد فارقناه هناك ينتظر عود اركاديوس كما علمت فأمسكوه وسألوه عن أمره وعن أركاديوس فقال انه لا يعلم عنه شيئاً فجاؤوا به الى الاعيرج فلما رآه الاعيرج ومعه فرس ابنه وعدته وسلاحه وثيابه صاح به وبلك أين اركاديوس وتهدده بالقتل لعله يخبره بخبره فلم يزد على قوله انه كان

ماراً بجوار بلبيس فرأى الجواد والعدة ولا يعرف شيئاً عن صاحبها فقال له ومن اين أتيت بهذا الثوب انه ثوب أركاديوس ألعلك قتلته ياخائن واخذت اسلابه قال ذلك وبعث الى المقوقس فحضر فسأله عن الرجل فعرفه انه من خدم ابنه ارسطوليس فجاء ارسطوليس وسأله فاصر على الانكار ولكنهم رجحوا الشبهة عليه وارتابوا في امره وخصوصاً انهم شاهدوا سيف اركاديوس لا يزال ملوثاً بالدم على اثر مقتل ذلك الرجل ليلاً فاشتد غضب الاعيرج وتراكمت عليه الشكوك والظنون وقال المقوقس لا اعرف قاتل ولدي الاّ منك فان مرقس هذا من بعض رجالك وقد وجدنا جواد ولدي وسلاحه وثيابه معه فانت مطالب بدمه واذا كان قد قتله فدم الاقباط كافة لا يكفيني فداء عنه . فعجب المقوقس لذلك الحادث الغريب واستأذن الاعيرج في استنطاق الشاب فخلا به هو وارسطوليس وبذلا الجهد في استنطاقه فلم يسمعا منه خبراً عن اركاديوس قط فتهدداه بالقتل فقال اقتلاني او فافعلا بي ما شئتما

فامسكه ارسطوليس وقال له اما ارسلتك بكتاب البطريك الى والدي فاحك لنا عما تم لك بعد ذهابك فاحكى لهم من الحكاية ما لا يلقي شبهة على اركاديوس وقد اصرّ في باطن سره ان يحافظ على سرّ اركاديوس جهده ولو آل الامر الى قتله لانه كان عالماً بتخوفه من ابيه بشأن ارمانوسة وكان يشعر بثقل فضله عليه فلم تسمح له شهامته بالاقرار خوف الايقاع به فبقي مصراً وعبثاً حاول المقوقس وارسطوليس استنطاقه

واخيراً قال له المقوقس اعلم يامرقس ان بانكارك هذا تجر ويلاً عاماً على الاقباط كافة وانت تعلم حالتنا وحال هؤلاء الروم وما بيننا وبينهم من الضغائن ونحن لانكاد نستطيع دفع الشبهة عنا أنفعل مثل هذا الفعل ونزيد الشبهة علينا فاذا كنت انت القاتل قل لنا ولك علينا انقاذك من تحت طائلة القصاص واذا كنت تعرف القاتل قل من هو ونجّ نفسك ونجنا

فقال مرقس لا اعرف شيئاً عنه ولا اعلم ان هذا الفرس وتلك الثياب له ولكنني لا ارى وجهاً للظن بقتله فانه لم يقتل

فقال المقوقس وما ادراك انه لم يقتل وكيف يكون حياً وتسلب منه ثيابه ودروعه

قال لا اعلم ذلك ولكنني اقول انهُ لم يقتل

قال وهل انت مؤكد انهُ لم يقتل

قال نعم اني محقق ذلك واتقدم اليك ان لا تزيد عليَّ السؤال اكثر من هذا الحد فاني لا اجيبك ولو قطعت رأسي

فقال المقوقس كيف تقول انك لا تعلم عنهُ شيئاً ثم تقول انك مؤكد حياتهُ

قال قلت لك ياسيدي اني لا اجيب على سؤال آخر ولو قطعت رأسي وهذه هي حياتي بين يديك فافعل ما تشاء

فامر فاخرجوهُ مغلولاً الى الخفر وانفرد المقوقس بابنهِ فقال ما قولك يا ارسطوليس

قال ارى في الحكاية سرًّا لا يعلمهُ الاَّ الله ويظهر ان مرقس مصرٌّ على الكتمان ولو كانت لنا فائدة بقتلهِ لقتلناهُ ولكن قتلهُ يزيد المشكل تعقيدا فالنجمة الى ان نرى ما ذا يتم واذ قد اكّد لنا حياتهُ فلنتعهد للاعيرج باننا مطالبون بدم ابنهِ حتى نبحث عنهُ

وفيما هما بالحديث جاءهما رسول الاعيرج يطلبهما اليهِ فذهبا حالاً فرأياهُ يتقد غيظاً فلما دخلا صاح وهو لا يدري ماذا يقول وقال اعلم يا ابن قرقب (لقب المقوقس) اني لا اعرف دم ابني الاَّ منك والقطرة الواحدة منهُ تساوي اهل مصر قبليها وبحريها

فجعل المقوقس يلطف غضبهُ قائلاً لا تعجل بالامر وتأنَّ فان الرجل يقول انهُ لا يعرف شيئاً عنهُ ومع ذلك فاني اضمن لك حياة اركاديوس وها انا انا وابني بين يديك لا نخرج من الحصن الاَّ بعد عودة ولدك سالمًا ومن ادرانا بحالهِ فلعلهُ عند العرب او لعلهُ غائب في مهمة على اني لن انفك عن استنطاق الرجل حتى نعلم منهُ الحقيقة والفرج يأتي من حيث لا ندري

ففكر الاعيرج برهة ثم نظر الى المقوقس وقال اعلم ايها الحاكم اني ملق تبعة ضياع ولدي عليك وعلى ابنك ولا استطيع السكوت عن ذلك قط فقد كفاكم خداعاً واقسم بشرف الرومانيين ورأس الامبراطور هرقل انكم اذا لم تأتوا بولدي اركاديوس حياً لامزجنَّ دماءكم بمياه النيل

فخفق قلب المقوقس لذلك وخشي العاقبة لعلمه انه بالحقيقة يخادع الروم وقال في باطن سره ان العرب لا يلبثون أن يكونوا هنا وهم الظافرون لا محالة فاذا غلبوا فهم يرفعون عنا هذه التبعة انما الحيلة في اقناع الاعيرج ليصبر

فقال له لا أُنكر عليك الحق في القلق على اركاديوس وان ضياعهُ ليعزّ علينا جميعاً لانهُ من نخبة رجالنا بل هو عمدتنا في حربنا هذه مع هؤلاء العرب و زد على ذلك اننا في حال حرب لاتؤذن لنا في الانقسام فيما بيننا ولاخشى الاّ وسيظهر وقد قلت لك اننا مطالبون بدمهِ فاصبر ان الله مع الصابرين

فقال سأصبر بضعة ايام وانتما لا تخرجان من الحصن ولكنكما ترسلان العيون والارصاد للتفتيش عنهُ

ثم تركهما وخرج الى الحصون واوصى قوادهُ ان يمنعوا المقوقس وابنهُ من الخروج خارج الحصن لأي سبب كان

أما مرقس فلبث في سجنهِ يفكر في حالهِ وقد تحير في أمرهِ لا يدري أيبقى على الكتمان و يعرض نفسهُ للخطر أم يبيح بحقيقة الحال فيعرض أركاديوس للغضب والله وفيما هو متفكر مرةً جاءهُ ارسطوليس وعلى وجههِ ملامح الكآبة فلما رآهُ مرقس ازداد بلبالهُ وشعر ان كتمانهُ انما هو سبب تلك المتاعب فقال لهُ ارسطوليس اهكذا تفعلت بنا يا مرقس

قال وماذا فعلت يا سيدي

قال تقول انك تؤكد لنا بقاء أركاديوس حيا ثم تكتم عنا حقيقة حالهِ والاعيرج مصرٌّ على طلب ابيهِ منا وقد اتهمنا بقتلهِ وانت تعلم حالنا مع هؤلاء الرّوم وقد بذلنا الجهد حتى لا نظهر لهم دخيلتنا افتفتح هذا الباب للايقاع بنا

فتفكر مرقس برهة ثم قال وكيف يتهمكما بقتلهِ وقد خرج وانتم لا تعلمون فاي دخلٍ لكما في امرهِ

قال ومن يسمع كلامنا هذا والاعيرج لو عرض شكواه هذه لديوان القسطنطينية لصادف أُذناً صاغية وعادت العاقبة علينا و بالاً

فصمت مرقس مدة ثم قال وما رأيك اذا جاءهم منهُ كتاب يخبرهم ببقائهِ حياً

فقال أرسطوليس ومن اين لنا ذلك

قال هب انهُ جاءهم مثل هذا الكتاب فهل يرفعون التهمة عنكما

قال لا شك انهم يرفعونها ولكن انى لنا هذا

قال اذا أذنتم لي بالخروج من هذا الحصن اتيتكم بذلك الكتاب

فعجب ارسطوليس لهذا السر الغريب ولم يفهم كيف يستطيع مرقس هذا الامر وكيف يقوله كأنه متحقق الاتيان به

فقال أتقدر على ذلك حقيقة يا مرقس

قال نعم يا سيدي أستطيعهُ على شرط ان لا تسألوني عن كيفية استحضار الكتاب ولا تقولوا للأعيرج اني ذهبت لآتي به بل قولوا اني ذاهب للتفتيش عنه كما ذهب غيري

فبهت ارسطوليس برهة ثم قال له اصبر قليلا لاخبر والدي بذلك

ثم خرج الى والده فاذا هو مرتبك الافكار لا يستطيع التكلم لفرط ما به من الغيظ فلما دخل عليه ابنه حيّاه فقال ما وراءك يا ارسطوليس فقص عليه الخبر

فقال ما بال هذا الرجل يعرض علينا من المعجزات انواعاً ولماذا هذا الكتمان ان في المسألة سرّاً عميقاً ولكني اخاف يا ارسطوليس ان يكون عازماً على الفرار وخروجه هذا حيلة للفرار من الحصن ومن يضمن لنا انه يعود الينا

قال لاحيلة لنا به وهو مصر على كتمان الحقيقة فارى ان نحمل التبعة في ارساله لعله ينفعنا اما بقاؤه مسجوناً فلا فائدة لنا فيه وهب انه فرّ فالتبعة لا تزيد علينا لان غاية ما يكون من امرها ان نتهم بقتل اركاديوس وهذا واقع وفضلاً عن ذلك اني استشف من وراء كلام مرقس الحرية والصدق ولا اظنه يخوننا وقد عرفناهُ من مدة طويلة وتحققنا صدق خدمته فتفكر المتوقس مليّاً ثم قال أرى ان نثق به ونستأذن الاعيرج في ارساله

قال هذا ما اراهُ فلعله يأتينا بالخبر او لعل اركاديوس يعود من تلقاء نفسه

ثم ذهبا الى الاعيرج وقالا له ان مرقس هذا أقدر الناس على التفتيش عن ولدك فلعلنا اذا ارسلناهُ للتفتيش عنه ان يقف على حقيقة حاله

فقال وكيف نطلق سراحهُ وهو الذي قتله او علم بقتله وقد قبضنا عليه وجواد اركاديوس وعدته وثيابه معه

« سيأتي البقية »

تاريخ السودان الحديث (تابع ما قبله)

﴿ خلافة التعايشي ﴾

ذكرنا في آخر الهلال الماضي حرب الحبشة والسودانيين وما كان من انكسار الاحباش وفوز الدراويش فوزاً لم يكن في انتظارهم على ان ذلك لم يكن لقوة هؤلاء او لضعف اولئك ولكن مقتل النجاشي اضعف عزائم الاحباش وحملهم على الفرار ثم توفق الدراويش في تعقبهم . أما لو ثبت الاحباش هنيهة أخرى لكانوا الفائزين لا محالة ولكن ذلك قدر فكان . فللحبشة ثأر على الدراويش لا يمكن ان يتنازلوا عنه لأنهم قتلوا ملكهم وأخذوا تاجه وحملوا رأسه ورؤوس سائر قتلى رجاله الى أم درمان وسبوا من نسائهم وأولادهم جمعاً كبيراً باعوهم أرقاء في سوقها فضلاً عن الذين ماتوا في اثناء الطريق وتركت جثثهم طعاماً لطيور السماء.

فهل يعقل بعد ذلك ان الاحباش ينصرون الدراويش على المصريين كما ذكرت بعض الجرائد اليومية من أمد غير بعيد

وحدث في اثناء حرب الحبشة حوادث كثيرة في دارفور وكردوفان وفي السودان الشرقي وغيرها يطول الشرح في ايرادها ولكنها ترجع الى تأييد نفوذ التعايشي في تلك الانحاء.

﴿ فتح مصر ﴾ ومن اغرب مطامع التعايشي فتح مصر وضمها الى مملكته على حين ان المهدي نفسه لم يجاهر بذلك صريحاً . فلما توفي هذا كتب التعايشي كتاباً الى جلالة السلطان وآخر الى سمو الخديوي وآخر الى جلالة ملكة الانكليز يطالب اليهم جميعاً ان يسلموا له ويذعنوا لسلطانه وارسل الكتب مع رسل مخصوصين الى مصر فعاد الرسل ولم ينالوا جواباً غير الاحتقار والازدراء فشق ذلك عليه وحنق عليهم

فلما قدر له الفوز على الاحباش حدثته نفسه ان يجرد على مصر فيفتحها ويقيم نخاساً من البقارة او التعايشة أميراً يتولى حكومتها او يأتي هو بجلالة قدره من بيته في أم درمان فينصب عرشه في سراي عابدين

ففي أوائل سنة ١٨٨٩ استشار بعض رجاله في التجريد على مصر فشوقوا اليه سكناها ووصفوا له قصورها وغياضها وأموالها ونساءها . فما اشبه وصفهم هذا بما وصفها به عمرو

ابن العاص للخليفة عمر بن الخطاب يوم حثه على فتحها قبل ظهور التعايشي بثلاثة عشر قرناً . فتاقت نفس التعايشي الى فتح مصر ولم يرَ بين قواده اولى بهذه المهمة من عبد الرحمن ولد النجومي وكان من أشد الدراويش بطشاً وأصعبهم مراساً وأكثرهم استهلاكاً في نصرة الدعوة وكان قبل ظهور المهدي تاجراً بين مصر والسودان قد خبر الارض وعرف الطرق فارسله في حملة اكثرها من قبائل الجمالين والدناقلة وغيرهم ممن جاوروا حدود مصر العليا وخالطوا سكان تلك الاقاليم متظاهراً ان قصده بذلك فتح مصر برجال هم ادرى بها من غيرهم ولكن الحقيقة انه لم يجهل الخطر الذي يتهدد ذلك المشروع فلم يجعل في تلك الحملة احداً من اقاربه وابناء عشيرته ولا من قبائل البقارة وغيرهم من عرب غربي النيل الابيض لأنهم من حزبه فاذخرهم لحين الحاجة أما الدناقلة والجعالين فاكثرهم من حزب الخليفة محمد الشريف وقد رأيت ما قام بينه وبين التعايشي وما كان من تغير قلبيهما فانتك هذا بعد ذلك يعتبر الشريف عدوّاً له تحت طي الخفاء . فبعث احزابه في حملته هذه وفي نيته انهم اذا فتحوا مصر عاد الخرلة واتسعت مملكته واذا انكسروا انهزموا الى دنقلا وقد ضعف شأنهم وتخلص هو من دسائسهم

فجعل دنقلا محط رحال تلك الحملة واقام يونس ولد الدغيم اميراً على دنقلا يقيم فيها ويدير شؤونها وولد النجومي يقود الحملة ولا يعمل الاّ بمشورة يونس

واتفق في اثناء تجريد تلك الحملة حادث يدلُّك على ظلم التعايشي وعسفه فتعلم ان دولته لم تتم الاّ الى اجل قصير لأن الظلم مرتعه وخيم . والحادثة ان التعايشي أمر جماعة من قبيلة البطاحين ان يرافقوا تلك الحملة وفيهم احمد ولد جار النبي والبطاحين قبيلة تسكن شمالي النيل الازرق بين قبيلة الشكرية والنيل مشهورة بالشجاعة والاستقامة من عهد الحكومة المصرية وكان التعايشي قد استعمل جماعة كبيرة منهم في دنقلا وبربر فلم يروا في أعماله خيراً فلما اوعز اليهم ان يرافقوا تلك الحملة أبوا وفرَّ ولد جار النبي فتتبعه بعض رجال الخليفة فجرح واحداً منهم فشق ذلك على التعايشي فانفذ جماعة قبضوا على البطاحين عن بكرة ابيهم الاّ نفراً قليلين تمكنوا من الفرار . فجيء بسبعة وستين منهم بنسائهم واولادهم فاوعز التعايشي الى القضاة ان يحكموا عليهم فحكموا انهم (مخالفين) عصاة فقال « وما قصاص العاصي » قال القضاة

« قصاصة الموت » فنصب المشانق وقسم هؤلاء المنكودي الحظ الى ثلاثة اقسام قتل قسماً بقطع الرأس وقسماً بالشنق والقسم الثالث أمر فقطعت اطرافهم وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً في ام درمان جاء فيه عبد الله على جواده الى ساحة السوق وحوله ملازميه وفي جملتهم سلاتين باشا ووقفوا لمشاهدة ذلك المنظر المريع وكان بعض المحكوم عليهم معلقين بالمشانق ازواجاً وأثلاثاً والبعض الآخر مكتوفي الايدي جاثين امام الجلادين وفيهم من قد قطع رأسه وزهقت روحه ومن قد أصابه السيف بضربة لم تفصل رأسه فتململ وتوجع في باطن سره لئلا يقال انه جبان وفيهم الجاثي مكتوفاً ينتظر مجيء الساعة الى غير ذلك مما يفتت الاكباد أمامهم فكانوا يلاقون الموت بصدور منشرحة ومنهم من ينادى بأعلى صوته « هذا هو يوم العيد عندي فمن لم يرَ شجاعاً يقتل فلينظر اليّ » أما التعايشي فدار بجواده حول تلك الساحة يتزه نظره بذلك المنظر حتى قضي الامر فعاد بموكبه وحاشيته

❋ عود الى حملة مصر ❋ فلما اعدّ التعايشي تلك الحملة بعث كتباً اخرى الى مصر وفيها الانذار الاخير فبقي الرسل مدة في اصوان ثم اعيدوا بلا جواب فبعث التعايشي رأس النجاشي بوحما الى يونس امير دنقلا على أن يرسله الى وادي حلفا تهديداً للمصريين وأمر أن يسير النجومي بحملته على مصر فلا يحرك ساكناً في حلفا بل يهاجم اصوان فاذا فتحها يقيم فيها حتى تأتيه اوامر اخرى

فخرج ولد النجومي من دنقلا في مايو سنة ١٨٨٩ في جيش لا نظام له والحكومة المصرية عالمة بكل حركة من حله وترحاله وكان سردار الجيش المصري اذ ذاك الجنرال غرانفل باشا المشهور بالتأني وحسن الروية فضلاً عن الرقة ولين الجانب فحصن حلفا واصوان وسائر الحدود فلما دنت حملة الدراويش من ارجين بجوار حلفا اقتربت شرذمة منهم الى النيل وولد النجومي لا يعلم بها فخرجت اليها الحامية المصريون بقيادة وودهاوس باشا فكسروها شر كسرة

وكان غرانفل باشا قد خرج من اصوان فبعث الى ولد النجومي يبين خطر موقفه وينصح له ان يسلم فيسلم فأبى فسار السردار بجيش معظمه على البر الغربي للنيل وبعضه على البر الشرقي لأن الدراويش كانوا قادمين على البر الغربي فحصلت بينهم وبين الحاميات مناوشات ليست بذات بال حتى وصلوا توشكي وهناك

حصلت الواقعة التي قضت على تلك الحملة فقتل قائدها وتشتت شملها واليك التفصيل

﴿ واقعة توشكي ﴾ توشكي قرية حقيرة على البر الشرقي وبعضها على البر الغربي للنيل بين كروسكو وحلفا على بضعة اميال من هيكل ابي سمبل شمالاً مؤلفة من أعشاش صغيرة من الطوب والقش متفرقة على ضفة النيل في مسافة من الارض على موازاة النيل يبلغ طولها ثلاثة اميال وعرضها منه الى الصحراء نحو نصف ميل وفيها بعض النخيل

وفي البر الغربي مقابل توشكي على بعد أربعة اميال منها جنوباً سلسلة تلال عالية من حجر الغرانت تمتد من الضفة غرباً نحو ثلاثة اميال في الصحراء وعند طرف هذه السلسلة والى جنوبيها كان معسكر الدراويش بقيادة ولد النجومي وعلى نحو تلك المسافة شمالاً سلسلة اخرى وبين السلسلتين سهل واسع متصل بالصحراء وفي هذا السهل حصلت الواقعة

وكان السردار مقيماً في توشكي فبعث طلائعه في صباح ٣ اوغسطس سنة ١٨٨٩ باكراً لاستكشاف معسكر العدو فعادوا واخبروا بأن العرب يستعدون للمسير فخرج السردار لمجرّد الاستكشاف فلم يكد يشرف على معسكرهم حتى رآهم هاجمين كالجراد فبعث الى الجند في توشكي وكان بعضهم لم يتناول طعاماً ولا تهيأ للمسير فساروا بأسرع من لمح البصر وهم لم يأكلوا بعد ولا حملوا من الماء الأ شيئاً قليلاً فعوّل السردار اذ ذاك ان لا يكف عن الدراويش حتى يشتت شملهم في ذلك اليوم وكان قد علم بما كانوا فيه من الضيق والجوع . وهاك اسماء الارط التي شهدت تلك الواقعة وهي الارطة التاسعة بقيادة البكباشي لويد والعاشرة بقيادة البكباشي دن والثالثة عشرة بقيادة اليوزباشي كمستر والطوبجية بقيادة البكباشي رندل فضلاً عن البيادة الراكبين والاورطة الثانية من البيادة جاءت متأخرة . وقال الذين شهدوا واقعة توشكي ان الارط السودانية عملت في ذلك اليوم اعمالاً عجيبة وبالغوا رغبتهم في الحرب حتى عصوا اوامر قوادهم لما دعوهم الى الكف عنها . والخلاصة ان الواقعة المشار اليها لم تنقض الى الساعة الثانية بعد الظهر من ذلك اليوم (٣ اوغسطس سنة ١٨٨٩)

وبلغ عدد قتلى الدراويش ١٢٠٠ قتيل وزاد عدد أسراهم على اربعة آلاف وفيهم النساء والاولاد فضلاً عن الاسلاب والاعلام والسيوف والرماح ولم يقتل من

الجيش المصري الا ٢٥ وجرح ١٤٠

ووجدوا بين قتلى الدراويش اذ ذاك أعظم امراء تلك الحملة ما عدا عثمان الازرق وعلي ولد سعد وحسن النجومي وميرغني سوار الذهب وشيخ الابيض فقد نجا هؤلاء بخوالف واربعماية شريد وهم الذين استطاعوا الفرار من تلك الموقعة فقط أما ولد النجومي فقد قتل وحزَّ رأسه وجيء به الى السردار

فكان ذلك النصر نصرًا مبينًا سرَّ به المغفور له الخديوي السابق فبعث الى السردار يهنئه به لعلمه انه امثولة علَّمت التعايشي ما لم يكن يعلم أما الذين قتلوا من الجنود المصرية فابتنوا لهم مقامًا قرب مكان الواقعة ضموهم اليه وبنوا فوقه قبرًا نقشوا فوقه باللغة العربية حفرًا على واجهة القبر كتابة هذا نصها

« شيد هذا الاثر تذكارًا لواقعة توشكي التي حصلت في ٦ الحجة سنة ١٣٠٦ ه وانهزم فيها جيش العصاة السوداني المرسل تحت امرة عبد الرحمن ولد النجومي فتشتتوا بعد قتل اميرهم وكان الجيش المصري تحت قيادة سعادة السردار غرانفل باشا وفي هذا القبر دفنت جثث العساكر المصرية الذين استشهدوا وهم بالميدان »

وبعيد الواقعة سار الخديوي السابق في بعض رجال معيته لتفقد احوال الحدود فركب الى مكان تلك الواقعة ووقف أمام قبر شهدائها يتأمل ما أظهره جنده من البسالة في ذلك القتال · وترى في صدر هذا الهلال رسمه رحمه الله واقفًا امام ذلك القبر وقد اسند رأسه الى كفه متأملًا كما تقدم

قحط عظيم وكان خبر ذلك الانكسار صدمة قوية على الدراويش في أم درمان فعرفوا قدرهم ووقفوا عند حدهم ولكنهم لم يكادوا يتخلصون من عواقب تلك الكسرة حتى دهمهم قحط غلت فيه اثمان الحنطة وقلَّ الزاد واشتدت وطأة الجوع على الفقراء حتى اكلوا سيور الجلد التي يشدون بها مقاعدهم فكثر النهب وازداد الضغط وقد بالغ سلاتين باشا في وصف هذا الجوع وحال الجائعين ومما حكاه قوله « خرجت في ليلة مقمرة وفيما أنا عائد الى منزلي في منتصف الليل اقتربت من بيت الامانة (مخازن الاسلحة والذخيرة) فآنست عن بعد شبحًا يتحرك على الارض فدنوت منه فرأيت ثلاث نسوة عاريات (تقريبًا) وقد ارخين شعورهن مجعدة على اكتافهن وجلسن القرفصاء حول جحش صغير ملقى على الارض ولعله مولود حديث لم يكد

يخرج من جوف امه حتى سرقته وجئت به الى حيث لا يراهنّ احد فشققن جوفه وأخذنا يلتهمن احشاءه وانجحش المسكين لا يزال حياً يتنفس فلما رأيت ذلك المنظر المريع صحتُ بهنّ فنظرن اليّ وقد حملقن أعينهنّ كأنهنّ أُصبن بجنة وكان بعض الجماعة المتسولين من الفقراء قد لحقوا بي يلتمسون حسنة فتركوني وهمّوا باختطاف الفريسة منهنّ فتركتهم وسرت في طريقي آسفاً لتلك الحال»

وكانت وطأة الجوع في الغالب أشد على المارين بأم درمان والقادمين اليها مما بأهلها حتى اتصلت الحاجة ببعضهم الى بيع اولادهم بيع الرقيق انقاذاً لهم من الموت جوعاً . قال سلاتين وكانت الجثث ملقاة في الشوارع والمنازل مئات ولبس من يدفنها فاصدر التعايشي منشوراً قال فيه ان كل صاحب منزل مسئول بدفن الجثث التي تشاهد ملقاة قرب منزله فنقلت الجثث على الشوارع ولكن بعضهم كانوا يحفرون حفراً بقرب المنازل يدفنونها بها تخلصاً من مشقة الحمل الى المدافن . وكانت مياه النيلين الازرق والابيض تجري امام ام درمان حاملة مئات من الجثث فارق اصحابها الحياة على ضفاف النيل او بالقرب منها فالقوها اهلهم او اصحابهم فيه

وخلاصة القول ان الجوع اهلك من الدراويش اضعاف ما أبادته الحروب منذ ظهور المهدي الى ذلك اليوم ورافق هذا الضيق جراد جارف اكل ما بقي من الزرع

على ان التعايشي ما زال يبث دعاته في سائر الانحاء لتأييد دعوته وكانت بقية من خط الاستواء لا تزال على ولاء الحكومة بقيادة أمين باشا فاعدت الماليا حملة بقيادة ستانلي الرحالة الشهير لانقاذ امين باشا فقاست في سبيل ذلك مشقات جسيمة تمكنت بعدها من الخروج به وببعض الحامية فدخلت مديرية خط الاستواء بحوزة الدراويش ولم يبق للحكومة من السودان المصري الا سواكن وطوكر

خصام بين خلفاء المهدي — أشرنا غير مرة الى النفور الواقع بين التعايشي ومحمد الشريف لتناظرهما على الخلافة فالتعايشي تولاها بارادة المهدي ويرى الشريف انه اولى بها بحق القرابة على ان هذا لولا استبداد التعايشي واحتقاره الاشراف (أقرباء المهدي) ما حدثته نفسه بسوء ولكنه رآه لا يدع فرصة لا يحط بها من شأنه فحقد عليه وما انفك ساعياً في ذلك سراً بمساعدة ابني المهدي وهما شابان

لا يتجاوز عمر احدهما عشرين سنة وكثيرين من الاشراف فاتحدوا سنة ١٨٨٩ وعقدوا الخناصر على خلع التعايشي والقبض على ازمة الحكومة فألفوا لذلك جمعية سرية في ام درمان ضموا اليها جماعة من القائلين بقولهم وكاتبوا اخوانهم الدناقلة المقيمين في الجزيرة (بين النيلين الابيض والازرق) يدعونهم الى ام درمان للتضافر على ذلك العمل فجاءه منهم جمع كبير الا ان أحد امراء الجعليين وشى بهم الى التعايشي وكان قد أقسم الايمان المعظمة ان لا يبوح بسرهم لاحد غير اخوته واعز اصدقائه فافتى لخيانته هذه بانه يعتبر التعايشي من اعز اصدقائه فاخذ هذا في تدبير الوسائل الفعالة لعرقلة مساعي الاشراف وعلم هؤلاء ايضاً ان سرهم قد انكشف فاسرعوا في تنفيذ مشروعهم قبل ان يستعد التعايشي لدفعهم فاجتمعوا في المنازل المجاورة لقبة المهدي وعاضدهم الجعارة وغيرهم ممن اعتبروا تصرف التعايشي في احكامه مخالفاً للشريعة الغراء

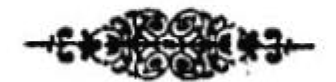
وكان الاشراف قد أعدوا الاسلحة وخبأوها في مكان فاخرجوها ذات ليلة من مخابئها وفرقوها في رجالهم ولكنها لم تكن تزيد على ١٠٠ بندقية (رمنتون) وشيء من الذخيرة وبعض المدافع وكان زعيم تلك الحركة احمد ولد سليمان فقال للقوم ان المهدي ظهر له في الرؤيا واسماه منور الاشراف . ولم يبق من الاشراف أحد الا تقلد الحسام او البندقية واستعد للقتال حتى ارامل المهدي الاربعين فقد كن الى ذلك العهد محجورات في منازلهن لا يخرجن ولا يرين احداً فخرجن تلك الليلة في جملة المقاتلين وخصوصاً « ام المؤمنين » فانها تقلدت الحسام وتهيأت للحرب

كل ذلك والخليفة عبد الله في منزله وقد أوصى ملازميه باليقظة وفرق فيهم العدة والذخيرة وامرهم ان يلازموا بابه لا يبرحوه مطلقاً وبعث ملازميه من الجهادية السود فبثهم في الاسواق ليمنعوا المدد عن الاشراف ثم أمر برجاله التعايشة ففرق فيهم ما يزيد على الف بندقية واوقفهم في الساحة بين قبة المهدي ومنزله ليكونوا حاجزاً بين الاشراف وبينه واقام العساكر السود في وسط الجامع ينتظرون اوامر اخرى وهناك كانت الرماحة والخيالة ايضاً تحت قيادة اخيه يعقوب . أما الخليفة علي واد الحلو فاشيع انه على دعوة الاشراف فنبياً فأمره التعايشي ان يقيم في اقصى ام درمان شمالاً وقطع كل مواصلة بينه وبينهم . كل ذلك اجراه التعايشي مساء الاثنين وفي صباح الثلاثاء أحاط بالاشراف احاطة السوار بالمعصم وبعث اليهم قاضيه يدعوهم الى

الاذعان ويذكّر اولاد المهدي بمنشور والدهم وبما قاله وهو محتضر وانهم اذا كانوا يشكون أمرًا فهو يتعهد بدفع كل ضيم عنهم فاجابوه انهم يريدون القتال فرأى من الحكمة ان يجتنب الخصام بقدر الامكان لاعتقاده ان الحرب اذا بدأت لا تنتهي الا بخراب ام درمان اذ يغتنم الدراويش تلك الفرصة للسلب والنهب . فبعث اليهم ثانية ان يرجعوا عن عزمهم فأبوا الا القتال ثم اطلقوا بعض الطلقات فأجابهم رجال التعايشي بمثلها فرأى ان يوسط الخليفة علي ولد حلو في الامر فبعث اليه فلما جاء دفع اليه منشورًا للأشراف يطلب اليهم الصلح والكف عن العدوان فكان جوابهم هذه المرة أقرب الى المسالمة فقالوا نريد ان نعرف ما هي شروط الصلح فأجابهم التعايشي «ضعوا الشروط انتم» وما زالت المخابرة جارية بقية ذلك اليوم وطول ليله الى الصباح التالي فانفضت الازمة وتمّ الصلح على شروط اهمها (١) ان يعفو التعايشي عفوًا عاما عن كل المشتركين في تلك الثورة (٢) ان يجعل لمحمد الشريف محلا يليق بمقامه ويخلي له كرسياً في مجلسه (٣) ان يرجع له الرايات التي مات امراؤها في واقعة توشكي لكي يضمها ويجمع رجالاً تحتها (٤) ان يخصص لاقارب المهدي أموالاً تنفق عليهم من بيت المال (٥) ان يسلم الاشراف كل سلاحهم ويطيعوا اوامر التعايشي اطاعة عمياء . فكتبت هذه الشروط وامضاها الفريقان وعادت الاحوال الى الهدوء ظاهرياً ولكن القلوب ما فتئت على غلها

باب المقالات

قد ألجأتنا كثرة السؤالات أن نغفل باب المقالات في هذا الهلال على ان نعود اليه في الاعداد التالية ان شاء الله



(الهلال) أشهر من حضر ذلك الاحتفال من رجال العالم فرنسوا جوزيف امبراطور النمسا . والوجيني ماري امبراطورة فرنسا امرأة نابوليون الثالث . وشقيق ملك اسوج اذ ذاك وامرأته . واسماعيل باشا الخديوي الاسبق . والجنرال اغناتيف سفير روسيا . والكونت اندراسي سفير مجاريا (المجر) . والبارون دي بوست . والموسيو فرديناند دي لسبس صاحب المشروع . والموسيو لافالي . والموسيو او بوير وغيرهم

الزنكوغراف

(الاسكندرية) احمد افندي زكي بمدرسة رأس التين

كيف تنقل الصور الفوتوغرافية وتطبع في الجرائد

(الهلال) لم نفهم مرادكم بنقل الصور بالفوتوغراف الى الجرائد فان الصور الجميلة التي تشاهدونها في بعض الكتب او الجرائد ليست منقولة بالفوتوغراف على تلك الكتب بل هي محفورة على الزنك (التوتيا) او النحاس على اسلوب حديث يعرف بفن الزنكوغراف اساسه تأثير اشعة الشمس على صفيحة الزنك باختلاف كثرة النور وقلته كما تؤثر الاشعة على زجاجة الفوتوغراف فتختلف اجزاؤها لونًا وكثافة . ومتى حفرت الصورة على الزنك او النحاس صارت قالبًا يطبع على الورق كما تطبع الحروف وغيرها ومعظم ما تشاهدونه في الهلال من الرسوم انما هو منقول بالزنكوغراف

وهناك نوع آخر من الحفر يطبع وعن زجاجة الفوتوغراف رأسًا يعرف بفن الفوتوتيبوغراف تظهر الصور به اتقن مما بالزنكوغراف ولكنها لا تطبع مع الحروف فهي كثيرة النفقة لا تستخدم الا في احوال خصوصية

الكوليرا وموظفو التلغراف

(القاهرة) جبرائيل افندي نقاش بالتلغراف العثماني

ذكرتم في العدد الاوَّل من هلالكم الاغر للسنة الرابعة ان الذين يشتغلون بالنحاس

ولا سيما الذين يقفون امام حلل الملح عند غليانها لا يصابون بالكوليرا ولا بسائر الامراض وقد قرأت في احدى الجرائد الفرنساوية مقالة لأحد الاطباء المشهورين بمدينة باريس أثبت فيها ان موظفي التلغراف لا يصابون بالكوليرا . ويؤيد ذلك ان الوباء لما ظهر في الانحاء السورية والاستانة لم يصب به احد من الموظفين سوى المرحوم سليم افندي رعد أحد مأموري التلغراف بحلب وقد اختلفت الاقوال في سبب وفاته فجئت الآن راجياً الافادة بهلالكم الاغر اذا كان ما قاله ذلك الطبيب الفرنساوي مبنياً على اساس علمي

(الهلال) لا نعلم للبيئة التي يعيش بها موظفو التلغراف خاصة طبية تمنع الاصابة بالكوليرا واما ما ظهر لكم ولصاحب تلك المقالة من قلة اصابة موظفي التلغراف به فهو سطحي فقط والحقيقة ان موظفي التلغراف معرضون للاصابة بهذا الداء كسائر أصحاب المهن الاخرى ولو نظرنا في كل مهنة على حدة وخصوصاً المهن القليلة العملة واحصينا وفياتها بالكوليرا لرأينا انها قليلة الاصابة . فاذا بحثنا عن محرري الجرائد مثلاً لرأينا الكوليرا لم تصب احداً منهم في عام ١٨٨٣ ولا في هذا العام ومثلهم المحامون والاطباء او غيرهم من اصحاب امثال هذه المهن او من التجار فهل يقال ان الاطباء او المحامين او محرري الجرائد لا يصابون بالكوليرا

ولو أمعنا النظر في سبب ما يظهر لنا من هذا القبيل لرأينا السرّ فيه راجعاً الى أمرين (١) نسبة الوفيات الى السكان (٢) سبب الاصابة بالكوليرا . فأهل القاهرة مثلا يزيدون على خمسمئة الف نسمة اذا اصيب منهم بالوباء خمسة آلاف في سنة من السنين كانت نسبة الوفيات واحد الى مئة فلو تساوت احوال الناس من حيث النظافة ونوع المعيشة وحالة الصحة لوجب ان يصاب واحد من كل مئة بين رجال ونساء واطفال ولكن الاطفال والنساء اكثر تعرضاً من سواهم فمئة طفل او مئة امرأة اكثر تعرضاً للاصابة من مئة رجل على ان عملة التلغراف في القاهرة لا يكاد يبلغ عددهم المئة وكلهم من الرجال ومعظمهم شبان في مقتبل العمر فلو فرضنا انهم مساوون في احوالهم وبنائهم لسائر اصناف الناس فلا ينتظر ان يصاب منهم اكثر من واحد . ولكن هناك سبباً آخر أعظم تأثيراً في ما نحن فيه وذلك ان الكوليرا لا تصيب غالبًا الأ المعرضين لها لضعف في امعائهم او استعداد خصوصي في مزاجهم ولا تنتشر الا

بالمخالطة والازدحام واعمال النظافة واصحاب تلك المهن قليلو التعرض لذلك وخصوصاً عملة التلغراف لأنهم منقطعون عن الناس يقضون معظم اوقاتهم في مكتب التلغراف لا يدخل عليهم احد من عامة الناس ولا خاصتهم فكأنهم في حجر صحي ولا ريب عندنا ان من يعتزل في منزله وينقطع عن الناس لا خوف عليه من الكوليرا مهما اشتدت وطأتها سواء كان من عملة التلغراف أو سواهم

سكان أميركا الاصليون

(زحلة) ملحم افندي جربصاني الصيدلي

قرأنا في بعض الجرائد المحلية انهم اكتشفوا في فيلادلفيا على نواويس فيها رجال محنطون كتحنيط فراعنة مصر فاذا صح ذلك وجب ان تكون الولايات المتحدة قد عمرت قبل اكتشاف كولومبوس فمن اين وصل اليها سكانها وكيف بعد ان بلغوا ذلك المبلغ من العمران عادوا الى الوراء حتى بلغوا ما بلغوا اليه من الهمجية عند اكتشاف كولومبوس لاميركا

(الهلال) لا يبعد ان يكون خبر ذلك الاكتشاف صحيحاً لأن أميركا عمرت من قديم الزمان وهناك أدلة كثيرة تؤيد ذلك أما كيفية وصول سكانها اليها فقد كتبنا فيه فصلاً مستوفياً جواباً على اقتراح نشر في الهلال السادس عشر من السنة الثالثة صفحة ٦١٧ فليراجع هناك . أما تقهقرهم بعد ذلك فلا غرابة فيه وتلك سنة الله في خلقه فكم من الامم التي بلغت أوج التمدن واخترعت الاختراعات وشيدت البنايات عادت فتقهقرت وبادت على توالي الازمان وقام على انقاضها أمم منحطة خاملة . ويغلب في احوال الامم ان الامة اذا تمدنت لا تعود الى حال الهمجية ولو مهما كان من تقهقرها كما يظهر لنا من حال سكان أميركا ويخال لنا ان الامة التي تمدنت في اميركا وحنطت موتاها كانت في اقليم من اقاليمها ثم تقهقرت وانحطت فجاءت امة اخرى متوحشة من اقليم آخر استولت عليها فانقرضت تلك وامحى تمدنها

أرمانوسة المصرية (تابع ما قبله)

فقال المقوقس يظهر ان الرجل بريء من القتل ونحن نعرفه منذ أمدٍ بعيدٍ وليس هو أهلاً لذلك ولكننا نرى ان نرسله في هذه المهمة كما ارسلنا سواء فلعله يعود بالخبر اليقين

فقال الأعيرج فليذهب ولكنني لا القي تبعة كل ذلك الاَّ عليكما

فتبلا التبعة وخرجا الى مرقس فاطلقا سراحهُ وأوصياه ان لا يطيل الغيبة فودعهما وخرج

الفصل الثالث والثلاثون

النجاة من الأسر

أما ما كان من أمر زباد فانهُ لما افتقد اركاديوس في معسكره ولم يرهُ ولا عثر عليهِ في سائر جهات المعسكر عاد الى بلبيس حالاً ليخبر ارمانوسة بذلك

وكانت ارمانوسة في قصرها مع بربارة وسائر الخدم وقد أصبحت على مثل الجمر في انتظار زباد فلما أبطأ عليها أخذت تندب سوء حظها وتقول يا بربارة انهم قد قتلوا اركاديوس يا ويلاه أين انت يا اركاديوس آه من معاكسة الدهر . وفيما هي في ذلك سمعت غوغاء في الدار ثم جاء الخدم يخبرون ارمانوسة ان رجلاً رومانياً بالباب فخرجت بربارة اليهِ واذا هو اركاديوس يقرع الباب وعليهِ ظواهر التعب وعلى زنده آثار الدم فلما رآها صاح بها ابن ارمانوسة هل هي في خير

قالت نعم في خير فدخل مسرعاً وهو لا يصدق ان يراها في قيد الحياة فلما وقع نظره عليها قال الحمد لله على بقائك حية . فقالت ما خبرك يا حبيبي وكيف اتيت هل رأيت زباداً

قال وأي زباد . لا لم أره

قالت وكيف تخلصت من الاسر

قال تخلصت منهُ بالرغم عن الحبال التي شدوا بها ذراعيَّ وما ساعدني على تمزيقها

الا خوفي عليك فقد كنت في الخيمة بعد ذهاب زياد ومعه الصليب ليوصله اليك ثم سمعت ضرب السول ونفخ الابواق واعلام العرب بالهجوم على بابليس فوقفت انتظر ما يكون من امرهم فاذا بهم قد تسلقوا الاسوار ودخلوا المدينة فايقنت انهم سيصيبونك بسوء فاتقد جسمي غيرة حتى غاب رشدي وهممت بالمجيء للدفاع عنك لعلي انقذك او اقتل معك فحاولتُ حل الوثاق فلم استطع لانه كان امراساً مجدولة من الشعر فاصبحت حائرًا كالمجنون واخيرًا اسندت ظهري الى عامود الخيمة وجعلت أحكّ الحبل بالعمود ذهابا وإيابًا فشعرت بنتوء حادّ ناتيء من العمود فجعلت امرّ الحبل عليه كأني أحزّهُ به حزًا وقد شعرت بقوّة غريبة فكنت احك ظهري بالعمود صاعدًا نازلاً واحاول التملص من الوثاق بشد ذراعي بعنف حتى غاص الحبل في لحمي وانا لا أعلم لعظم التهيج واخيرًا انقطع الحبل بعون الله وانحلّ وثاق يديّ فحللت وثاق رجليّ واسرعت الى الاسوار لا اعي شيئًا وجئت مسرعًا وانا لا اصدق اني القاك فالحمد لله على سلامتك

فاعجبت أرمانوسة بشهامته ومروءته وتناثرت الدموع من عينيها لعظم تأثرها وقالت حماك الله من كل سوء يا حبيبي اني في خير ولم يرد الله ان احرم من رؤيتك

فقال وما هذا العلم الذي أراه على باب القصر قالت هو علم العرب بعثوه لحمايتنا من السلب وبظهر ان العرب لا يريدون بنا سوءًا

فجلس اركاديوس ليستريح فجاءته بربارة بثياب ليبدل ثيابه ويغسل جرحه فاذا هو طفيف نتج على شدة العنف بمحاولة قطع الوثاق فربطه ولبس ثيابه ثم أطل من النافذة فرأى العرب قد امعنوا في المدينة قتلاً ونهبًا فتهيجت عواطفه الرّومانية وجعل يتململ ويتأسف على ما أصابه العرب منهم فقالت له ارمانوسة ما بالك يا حبيبي تتململ قال اتململ أسفًا على ما حل بجندنا ألا ترين العرب ينهبون المدينة ويقتلون حاميتنا ولكن مهلاً سوف يلقون منا في حصن بابل ما يعيدهم على اعقابهم القهقرى

ولم ترد ارمانوسة ان تخبره بما دار بين والدها والعرب من المخابرات خوفا من الفضيحة لدى الرّوم

فقالت حماك الله يا اركاديوس من نوائب الزمان ولو كان في جند الرّوم خمسة مثلك ما تمكنوا العرب من هذه البلاد فاجلس الآن واسترح لنرى ما يأتي به الغد

قال آه يا ارمانوسة اني لا استطيع البقاء على هذا الذل ولا اطيق ان ارى الروم يذبحون ذبح الاغنام وتحدثني نفسي ان انقلد الحسام واهجم عليهم لاشفي اوام قلبي من دمائهم

قالت لا تأت بنفسك الى التهلكة وسوف تلتقم في الحصن ولكن ما لنا وللحرب يا عزيزي فاني لا اطيق فراقك بعد الآن

فعاد صوابه اليه وقال ألم تري مرقس يا ارمانوسة قالت لا يا حبيبي لم اره ولماذا وكيف وقعت في الاسر أخبرني

قال خرجت من عندك الى المكان الذي عهدت مرقس فيه فلم أقف له على خبر وفيما انا افتش عنه وصل العرب بخيولهم وقبضوا عليّ ووالله لو كنت على ظهر جوادي ما استطاعوا القبض على شعرة مني · ثم تذكر جواده ومرقس فقال ولا ادري اين ذهب مرقس والجواد واخاف ان يكون قد قبض عليه رجال والدي وساقوه الى الحصن واتهموه بقتلي وربما قتلوه ظناً منهم انه قتلني

فانشغل بال ارمانوسة على مرقس وقالت مسكين مرقس انه لا يستوجب ذلك وعسى ان يكون في مأمن وسننظر في امره أما انت فابق عندنا لنرى كيف ينتهي الامر

فتنهد تنهداً عميقاً وقال أنت تعلمين اني اود البقاء عندك الى الموت وليس اشهى لديَّ من ذلك ولكن العار يا ارمانوسة وشهامة الرجال لا يسمحان لي بترك الجند وهم في حال الحرب مع العرب على اني لا ادري بماذا اعتذر لوالدي بعد رجوعي ولا اظنه يصدق مقالي مهما بالغت في الاعتذار

قالت غداً نرى ماذا يكون وقضوا بقية ذلك اليوم وباب القصر موصد وهم يسمعون اصوات الاستجارة والبكاء والعويل وقلوبهم تكاد تتمزق حزناً على اهل بلبيس لما اصابهم من النهب والقتل وفي المساء جاءهم زياد فلما علم بنجاة اركاديوس وكيفية نجاته ازداد اعجاباً بشهامته ثم قال ان الامير عمراً بعث يتفقدكم هل انتم بخير وقد امر رجاله ان لا يقربوا هذا القصر فهل تعدى احد عليكم . قالوا كلاً

على ان اركاديوس تعجب لشهامة العرب وكيف انهم خصصوا قصر ارمانوسة بالحماية وداخله ريب في سبب حمايته ولكن فرحه بنجاة ارمانوسة هوّن عليه كل سبب

وباتوا تلك الليلة ولما اصبح الغد جاء بعض العرب يقودون رجلاً موثقاً فلما

دخلوا به القصر اذا هو مرقس فسألوا ارمانوسة هل هو حقيقة من خدمها لأنهم امسكوه عند الاسوار وادعى انه من خدم السيدة ارمانوسة فقالت نعم هو من خدمي وترحبوا به ولما شاهد اركاديوس هناك فرح فرحاً عظيماً وقص عليهم حكايته واخبر اركاديوس ان المقوقس وابنه متهمان بقتله وانه اذا لم يعجل بالمسير سعى الى سجنهما وربما قتلهما

فصاحت ارمانوسة وبلاه يا اركاديوس ان والدي واخي في خطر القتل وحياتهما في يدك

فقال لا تخافي يا ارمانوسة اني متكفل بحماية كل من ينتمي إليك من الاحياء والجماد لا تخافي ولولا خوفي عليك لاسرعت حالاً الى الحصن ورفعت هذه التهمة عنهما ولكن يجب ان ابقى هنا لارى ما يأول اليه امرك

قالت ولا انا اريد ان تذهب الى الحصن الآن ولا ان تحضر المعارك ولكني لا اريد ان يهلك والدي واخي فان الروم ظلمة لم يخرج منهم شهم غير اركاديوس حبيبي

فقال اركاديوس لمرقس وكيف حالهم في الحصن

قال فارقت والدك قلقاً عليك كثيراً وقد بث العيون والارصاد وبعث الرسل للتفتيش عنك ولما لم يعثروا عليك شددوا النكير على سيدي المقوقس وابنه ارسطوليس وهو ينوي الايقاع بهما اذا لم يعلم خبرك . واعترف لك اني جئت على نية ان ازوّر كتاباً عن لسانك واختمه بخاتمك الذي عرفت منك انه مع سيدتي أرمانوسة واذهب بالكتاب لوالدك بأنك حيّ وانك آتٍ قريباً

فقال اركاديوس لقد أصبت يا مرقس ونعم الرأي رأيك اليّ بقطعة من البابيروس لاكتب ذلك الكتاب فلم يجد شيئاً من البابيروس هناك فقطع قطعة من قماش كان غطاء للفراش وهو نسج كتاني يعرف بالقباطي من صنع مصر كانوا يستعملونه للكتابة وبه كتبت المعلقات السبع وعلقت في الكعبة (١) فكتب الى والده يقول ما معناه

والدي المحترم

لا ألومكم اذا انشغل بالكم عليّ لخروجي من الحصن وانتم لا تعلمون وسأُعلكم

(١) العقد الفريد

بما حملني على ذلك واما الآن فاني اكتب اليكم من الاسطبلات لاخبركم بوجودي حياً في بلبيس بعد ان أسرني العرب ونجوت من الاسر وقد عرفت من احوال هؤلاء العرب ما سأقصه عليكم وفيه قوة لنا ولولا جراح اصابتني في ذراعي الآن لجئت اليكم بدل هذا الكتاب ولكني سأسرع حالما استطيع الركوب وذلك قريباً ان شاء الله

كتبه

ولدكم اركاديوس

فحمل مرقس الكتاب وتقدم الى ارمانوسة وسجد امامها وقال أتقدم اليك يا سيدتي ان تشفقي على عبدتك مارية

قالت وما خبرها . قال مررت بالقرية وانا قادم واردت الدخول اليها فامسكني العرب وجاؤوا بي اليك واخشى ان يكونوا قد اصابوا مارية بسوء فاستشفعك بسيدي اركاديوس هذا ان تنظري في امر انقاذها

فاجابه إركاديوس قائلاً ان لك علينا افضالاً تقضي بان ندافع عنك وعن مارية جهدنا لا تخف كن براحة

قال ولكنني لا استطيع السفر قبل ان أعلم ما آل اليه امرها بعد هذه الحرب

فالتفتت ارمانوسة الى بربارة كأنها تستشيرها . فقالت الرأي يا سيدتي ان نبعث الى الامير عمرو فنخبره بان بيت مارية ممن ينتسبون الينا فيبعث من يأتينا بهم جميعاً فليكونوا معنا وليكن نصيبهم من نصيبنا . فقالت أحسنت يا بربارة ومن يذهب . قالت زياد وهو لا يزال هنا

ثم خرجت فاستحضرته فلما رأى مرقس سلم عليه وصافحه وسأله عن امره فقصت بربارة القصة عليه فقال لا تخف يا مرقس ان اهل بيتك في ذمتي وما اني ذاهب بشأنهم قال ذلك وخرج

ولبث الجميع في انتظاره ثم طرق باب القصر وعلت الضوضاء واذا بالخدم يقولون ان أمير العرب قد جاء يريد الدخول فقالت ارمانوسة لاركاديوس الاولى ان تختبئ لئلا يراك فيعرفك فاختبأ في بعض غرف القصر وخرجت بربارة لاستقبال الامير وهي اول مرة شاهدت بها مثل هذا الرجل فاذا هو بحر طيلسانه وراءه وقد أحاط به جماعة من قواده وفي مقدمتهم وردان المترجم فاسرعت بربارة بهم الى غرفة

كبيرة جالسة فيها فقال وردان ان الامير قد جاء بنفسو ليطمئن ارمانوسة ويخبرها ان لا خوف عليها ولا على احد ممن هم في منزلها

فقالت بربارة انا ايها الامير لا نستطيع ايفاء حق الشكر لك لانك حميتنا من عواقب الحرب

ثم خرجت ونادت سيدتها فحضرت وقد لبست احسن ما لديها من الثياب الفاخرة وعلا وجهها احمرار الحياء فزادها جمالاً فجلست على كرسي هناك وخاطبت عمرا قائلة ان ما اوليتنا من الفضل لا يسعنا القيام بشكره ايها الامير

فاجابها عمرو وهو مطرق ان ذلك من موجبات الشهامة عندنا وقد عاهدنا والدك على حمايتك ولكن ساءني كثيرًا ما ارتكبه ذلك الخائن بوقنا من خيانتك واذا أدركناه عاقبناه على ذلك شرّ عقاب

أما الآن فاعلمي انك في ذمتنا ولا يليق بنا ان نرتكب الغدر في اعمالنا فاذا شئت البقاء هنا بقيت او المسير الى والدك بعثناك في خفر يوصلك الى حيث تريدين أنتِ ومن تريدين فاختاري

فأطرقت ارمانوسة ثم قالت افضل الذهاب الى والدي اذا اذن الامير

قال لك ذلك وكان يخاطبها بواسطة وردان ثم قال لوردان اعدد لها جماعة يرافقونها الى حيث تريد وكن انت معهم عينًا عليهم

قال فليكن أمر الامير

وارادت بربارة ان تقدم لضيوفها شيئًا من الخمر كجاري عادتهم فقال لها وردان احذري ان تفعلي ذلك لان شرب الخمر محرّم في دياننا ولا حاجة بنا الى شيء من انواع المجاملة وانما عليكم الآن الاستعداد للمسير وفي صباح الغد نبعث اليكم رجالاً يسيرون معكم خفرًا

فشكرته لذلك ثم قام عمرو مودعًا وخرج

فسارت ارمانوسة فرحة الى اركاديوس واخبرته بما كان فقال اذا انا اسير برفقتكم الى قرب الحصن ثم انفرد وادخل الحصن وانت تذهبين الى منف

وعند الظهيرة جاء زياد ومعه مارية ووالداها ففرح مرقس كثيرًا وسلم على خطيبته وقبل ايدي والديها واوصى ارمانوسة بهم خيرًا وقال لها فليذهبوا مع حضرتك

الى منف لانهم يكونون في مأمن هناك فوعدته بذلك ثم ودعهم وخرج يحمل كتاب أركاديوس الى والده وقد اطمأن باله

الفصل الرابع والثلاثون

العود الى منف

أما اهل الحصن فانهم لبثوا في انتظار عود مرقس ثم سمعوا بسقوط بلبيس فتكدر المقوقس كثيرًا وخاف على ابنته ولكنه كان واثقًا بما لديه من العهود وفي اليوم التالي وصل مرقس بكتاب اركاديوس وسلمه الى والده فقرأه فاطمأن قلبه على ولده ولكنه ما زال متعجبًا لسبب خروجه من الحصن

ثم لما خلا مرقس بالمقوقس أخبره بما جاء به عمرو من الجميل في شأن ابنته وانها ستكون في منف بعد قليل فبعث بعضًا من رجاله لاستقبالها وحملها الى قصرها

ولبث الاعيرج يومًا ثانيًا في انتظار اركاديوس حتى جاءه فدخل عليه فقبله ورحب به وسأله عن سبب ذهابه

فقال انت تعلم يا سيدي بغيرتي على شرف الروم وقد رأيت هؤلاء الجواسيس يأتوننا بالاخبار المتناقضة فلم نفهم منهم حقيقة قوة العرب فحدثتني نفسي أن اذهب منفردا لاستطلاع حالهم وانا أعلم انك لا تأذن لي خوفًا عليّ فخرجت على حين غفلة على ان لا اغيب الا يومًا واحدا عالمًا اني اذا عدت واخبرتك بما استطلعته من اخبارهم تعفو عن جسارتي هذه

فلما وصلت الى جوار بلبيس خشيت ان يكون جوادي ولباسي الفاخر حائلا بيني وبين ما أريد فرأيت رجلاً من جندنا خارج المدينة فتبادلنا الثياب وتركت جوادي عنده وسرت الى معسكر العرب وكانوا مخيمين امام المدينة وبعد ان كدت اخرج من المعسكر قبضوا عليّ وحبسوني وبقيت الى ان هجموا على بلبيس فغافلتهم وقطعت الوثاق وهذا أثر الجاهدة على ذراعي في تقطيعه ودخلت المدينة وعلمت ما استطعت علمه فاذا هم رجال لا يزيد عددهم على الاربعة الآف (١) ولكنهم والحق

(١) المقريزي وغيره

يقال يهجمون على الاسوار هجوم الاسود ويزأرون كأنهم ذاهبون الى مغنم ولكننا بحول الله سنبدد شملهم امام هذا الحصن فان بلبيس ليست مدينة حرب كما تعلم

فقال الاعيرج بورك فيك وضمه وقبله وقال انها شجاعة فائقة الحد يا ولدي لانك عرضت بنفسك للخطر الشديد

فقال ومن لا يخاطر فلا يلقى نجحاً

فقال ولكننا رأينا على سيفك أثر الدماء . فاظهر عدم الاكتراث بذلك وقال لعله كان ملوثاً بالدماء قبل ذلك الحين وعلى كل فان هذه هي جلية الخبر وما علينا الآن الاّ الاستعداد والتحصين فان العرب لا يلبثون ان يقدموا الى هذا الحصن قريباً

فأمر الاعيرج بالتأهب للقاء العرب وبعث الى كبار ضباطه وخطب فيهم حاثاً على الثبات والدفاع ناسباً ما لاقاه العرب من النصر في طريقهم الى الحصن الى ضعف جنود الفرما وبلبيس ثم فرقهم في القلاع على السور واوصى ابنه بتعهدهم وتفقد الاسوار فبعث اركادبوس رجالاً الى خارج الحصن يتفقدون الخندق المحيط به واوصاهم ان يبذروا فيه حسك الحديد بذراً اي ان يفرشوا الحسك في قاعه وجدرانه فاذا هجم العرب على الاسوار حال الخندق بينهم وبينه فاذا نزلوا الخندق دخل الحسك في أقدامهم واكثرهم حفاة فتتعرقل خطواتهم

أما ارمانوسة فانها وصلت الى ضفة النيل بموكبها وكان والدها واخوها قد علما بقدومها فخرجا لملاقاتها فترحبا بها وسألاها عن العرب فاخبرتهما بما تم لها معهم واثنت على شهامة عمرو فاستبشرا بنفوذ حيلتها وكانت القوارب معدة لاستقبالها فركبت ومن معها الى منف ولكنها حولت نظرها الى الحصن لعلها ترى اركادبوس فتتزود منه نظرة فاذا هو ينظر اليها من اعلى السور عند كنيسة المعلقة فجرى قاربها وهي تسترق النظر اليه كأنها تودعه وتدعو له بالسلامة من تلك الحرب وقلبها يخفق وجلاً عليه لئلا يصيبه سوء فخيل لها لما عاينته من شجاعة العرب وبطشهم ان مركزه خطر فتناثرت الدموع من عينيها وكان القارب قد جرى بعيداً وبربارة معها تنظر الى سيدتها وتتأمل حركاتها فادركت ما هي فيه فخاطبتها قائلة سلمي امرك الى الله وهو يحرسه يا مولاتي

« ستأتي البقية »

تاريخ السودان الحديث (تابع ما قبله)

خاتمة

ذكرنا في بعض ما تقدم من أعداد هذه السنة ملخص تاريخ السودان الحديث فلنختم كلامنا بترجمة حال التعايشي خليفة المتهدي وشرح صفاتو واخلاقو وحال حكومتو وترتيب دولتو وغير ذلك مما لا غنى عنه في فهم دخائل السودان وادراك حقيقتها فنقول نقلاً عن كتاب « السيف والنار في السودان » وغيره

عبد الله التعايشي

هو السيد عبد الله بن السيد محمد التقي و يتصل نسبه بعشيرة الجبيرات من قبيلة التعايشة والتعايشة من قبائل البقارة والبقارة اسم يطلق على القبائل القاطنة غربي النيل الابيض وهم بدو اكثر اشتغالهم برعاية البقر والنخاسة وتجارة الرقيق و بلاد التعايشة في الغرب الجنوبي من دارفور

وكان السيد محمد التقي مشهورًا في قبيلتو بالتقوى والكرامة والاستقامة يؤمه المرضى وذوو الاسقام يلتمسون الشفاء بما يتلوه عليهم من الآيات او برددهِ من الصلوات أو بما يكتبه من الاحجبة والعقود وقد ولد له أربعة ذكور وانثى وهم عبد الله و يعقوب و يوسف وسماني وفاطمة وكان عبد الله و يوسف أقلهم ميلاً الى العلم فلم يحفظا القرآن الا بعد الجهد الشديد وكثرة المزاولة وكانا اكثر ميلاً الى النخاسة (اقتناص العبيد) أما يعقوب وسماني فكانا اقرب الى الهدو والسكينة فحفظا القرآن سريعًا ولازما اباهما يساعدانه في صلاتو وسائر أعمالو

واتفق في اثناء حرب الزبير باشا لدارفور ان عائلة السيد محمد التقي هذا كانت في جملة الثائرين على الزبير فوقع عبد الله أسيرًا في بعض مواقع شكّا واراد الزبير قتله فتوسط بعض العلماء في العفو عنه فابقى عليه فاراد عبد الله ان يكافئ الزبير على عفوه عنه فقال له سرًّا « رأيت في الحلم انك المهدي المنتظر وانني احد اتباعك » فأجابه الزبير « لست المهدي ولكنني رأيت هؤلاء العرب قد قطعوا الطرق على التجارة فجئت لفتحها »

فلما فتحت دارفور واستقر الامن فيها نزح التقي وعائلته من وطنهم الى شكّا اقاموا

فيها سنتين ثم ساروا منها الى دار الحمر فالأبيض فدار التمر ونزلوا اضيافاً على شيخ ذلك المكان عساكر ابي كلام بضعة أشهر وهناك توفي السيد محمد التقي ودفن في شركلة وقبل مماته اوصى عبد الله ابنه الاكبر ان يلازم بعض مشائخ الدين في وادي النيل مدة ثم يهاجر الى مكة فيقيم فيها ولا يعود الى السودان

فترك عبد الله اخوته عند الشيخ عساكر وسار قاصداً وادي النيل فسمع في اثناء الطريق بمحمد احمد المتمهدي وما يتحدث به الناس من كراماته مع شهرته في طريقته فقصده وطلب الانضمام اليه. واتفق ان محمد احمد كان اذ ذاك في خصام مع استاذ طريقته افضى الى الشحناء. فاغتنم عبد الله تلك الفرصة وخدم محمد احمد خدماً حببته اليه فأسس محمد احمد طريقة كان عبد الله من أقدم المشتركين فيها ورأى تجمع الاحزاب حول محمد احمد فقال في نفسه لعل هذا هو المهدي المنتظر وكان أهل السودان ينتظرون ظهور المهدي قريباً وكلما رأوا رجلاً يفضلهم عقلاً ودراية ظنوه المهدي فقال عبد الله لمحمد احمد «ان كنت انت المهدي المنتظر قل» فقال وجعل عبد الله خليفة له فهو أقدم خلفائه واول القائمين بنصرته وبث الدعوة في كل أعماله كما قد رأيت في سياق تاريخ المهدي بما لا فائدة من اعادته

صفاته وأخلاقه وأعماله

وجهه بلغ التعايشي الآن السنة الخمسين من عمره وهو ربع القامة أسمر اللون قبيلاً على وجهه آثار الجدري أقنى الانف حسن شكل الفم خفيف الشاربين والعارضين كثيف العثنون (شعر الذقن) أشيب الشعر عربي الملامح وكانت ملامحه في أوائل ايامه تخللها طلاقة وبهجة فامست الآن وقد غشاها انقباض تنقبض منه النفس ويدل على ما انطوى عليه الرجل من الاستبداد والمكر والدهاء. وهو قصير الشفتين تظهر اسنانه من خلالها وخصوصا اذا تكلم فانها تبرز لامعة بيضاء كأنه يبتسم

لباسه وكان قبل وفاة المهدي يلبس الجبة المرقعة الخاصة بالدراويش فلما تولى الخلافة جعل جبته من القطن الابيض الرفيع بلا رقع ولكنه خاط بحواشيها شرائط ملونة. وهو يلبس السراويل من القطن ايضاً ويلف عمامة بيضاء حول طاقية من الحرير صنع مكة ويلقي على كتفيه احياناً شالاً خفيفاً من القطن. وترى في صدر هذا الفصل صورته رسماها بناء على ما وصفه به سلاتين باشا وغيره ممن شاهدوه لان

الرجل لم يتصوَّر صورة منقولة عنه رأساً فتعل الصورة التي سينقلها مكاتب « الغرافيك » المرافق للحملة عند الظفر بالتعايشي قريباً ان شاء الله ان تكون كثيرة الشبه بهِ

وكان في بادئ امره يحتذي نعالاً كنعال سائر الدراويش ثم أبدلها بالخف والبابوج من جلد ضارب الى السمرة فاذا مشى حمل بيساره سبحاً جميلاً وبيمينه رمحاً صغيرا جميل الشكل من صنع قبيلة المدندوة يتوكأ عليهِ كالعصا . وهو لا يمشي الاَّ محاطاً بحلقة من صغار العبيد وكثيرهم من ابناء الاحباش الذين اسروا في المواقع الاخيرة المتقدم ذكرها وواجباتهم ايصال أوامره الى من أراد في أم درمان فاذا بلغ أحدهم أشده انتظم في سلك الملازمين

﴿ أخلاقه ﴾ وهو حاد الطبع مقدام غضوب إذا غضب سارع في حكمه واصرَّ على عناده لا يسمع نصحاً ولا يصغي الى مشورة كثير الشكوك سيء الظن لا يثق بأحد ولو كان من أقرب أقربائه أو من أهل منزله لاعتقاده ان الاخلاص والامانة بندر وجودها . يرتاح الى الاطراء والتمليق فاذا خاطبهُ أحد صدَّر خطابهُ بذكر محامده ونسب كل ما حدث من الحسنات الى حكمته ودرايته وعدله وبسالته وكرمه فيسمع كل ذلك مصغياً ويزداد عجباً وافتخاراً وهو يثق بمقدرته وثوقاً تاماً ويظن نفسهُ قادراً على كل شيء فما كان من ذلك فوق استطاعة البشر نسبهُ الى قوة المهدية حلّت فيهِ

ومن أخلاقه الحقد والصرامة والعنف والانتقام فيفرح بتكدير الآخرين وخذلانهم واسعد يوم عنده يوم يضبط فيه الاموال ويلقي الناس في الاغلال والقيود او يسوقهم الى القتل والذبح فيبعد الولد عن والديه والامرأة عن زوجها ظلماً وعدواناً فكثيراً ما أمر بقتل الالوف من النساء والاولاد الابرياء

﴿ مجلسهُ ﴾ ويكلف التعايشي القائمين بخدمته والجالسين في مجلسه تذللاً لا تستطيعهُ نفس الحر فالداخل عليهِ يقف امامهُ مطرقاً وبداه متقاطعتان على صدره ينتظر امره بالجلوس والتعايشي جالس في صدر القاعة على عنقريب عليه حصير مصنوع من سعف النخل فوقهُ فرو من جلد الضأن يرف عن حواشي العنقريب وقد يتكيء الى وسادة من القطن فاذا كان الداخلون عليهِ أهلاً للجلوس في حضرته أشار اليهم فيجلسون على الارض جلوسهم للصلاة مطرقين ينتظرون ما يلقيه عليهم من الاسئلة فيجيبون وهم ينظرون الى الارض لا يبدون حراكاً الاَّ اذا أمرهم بالانصراف فينصرفون

﴿ داخليته ﴾ ومن الغريب انهُ مع استبداده في حكومتهِ وعنفهِ في تنفيذ اوامره فهو على الضد من ذلك مع اهل منزلهِ فانهُ يحب ابنهُ عثمان اكبر اولاده حباً شديدًا ويعطف نحوهُ انعطافًا غريبًا وعثمان الآن في الثانية والعشرين من عمره وقد بذل والده كل مرتخص وغالٍ في سبيل تعليمهِ القرآن والتفسير والحديث وسائر العلوم الاسلامية فلما بلغ السابعة عشرة أزوجه ابنة عمهِ يعقوب واغضى عن وصية المهدي بابطال ولائم الافراح فنصب الموائد ومد الابسطة ثمانية ايام حتى لم يبق احد من اهل ام درمان الاَّ أمَّ ذلك الاحتفال ثم أزوجه فتاتين أُخريين من أقاربهِ واهداه قطيعًا من السراري والجواري واوعز اليهِ صريحًا ان لا يقرب امرأة من نساء وادي النيل (الدناقلة) · وزوَّج ابنتهُ بمحمد بن المهدي وكان محمد هذا ينوي الاقتران ببعض ذوات قرابتهِ لانهُ لا يحب ابنة التعايشي ولكنهُ لم يجرأ على التصريح بذلك لعلمهِ ان التعايشي يسيء الظن بهِ ويتعرَّض في اموره تعرُّض الوصي ويراقبهُ مراقبة الحرس فكظم غيظهُ وصبر على بلواه

﴿ نساؤه ﴾ يقيم التعايشي في منزل كبير على مقربة من الجامع ونساؤه الشرعيات أربع واما الجواري فعددهنَّ يزيد على الاربعمائة اكثرهنَّ من الفتيات اللواتي أُخذن من والديهنَّ بالاسر بعد الحرب فهنَّ في اعتباره ما ملكت ايمانهُ وفيهنَّ البيضاء والسمراء والحبشية والسوداء جعلهنَّ اقساماً برأس كل عشرين منهنَّ رئيسة وعلى كل ثلاثة او أربعة من هذه الاقسام امرأة حرة هي في الغالب سرية يختارها هو لهذه المهمة · وفي دار الحريم هذه خصيان معظمهم صغار السن وفي جملتهم عشرون خصياً يرأسهم واحد منهم اسمهُ عبد القيوم

وافضل نسائهِ الشرعيات عندهُ زهرة وهي من التعايشة ابناء قبيلتهِ رافقتهُ في سائر اعمالهِ منذ قام بنصرة المهدي وهي ام ولديهِ عثمان وخديجة

﴿ طعامه ﴾ وكان طعامهُ في اوائل حكومتهِ قاصرًا على العصيدة واللحم المطبوخ والدجاج ولكنهُ ما لبث ان صار يتناول الاطعمة المركبة التي يتخذها الاغنياء في مصر وغيرها

﴿ ملازموه ﴾ ويقوم بخدمة التعايشي جند من الملازمين يقف جماعة منهم في بابهِ او يسيرون الى جانبهِ اذا ركب وكان سلاتين باشا واحدًا منهم واراد التعايشي

منذ ثلاث سنوات تعزيز حاشيتهِ فأمر بتجنيد جند لحرسهِ الخصوصي فاختار عدداً كبيراً من عساكر الجهادية وأوعز الى امراء الغرب (غربي النيل الابيض) فاختاروا لهُ عدداً آخر واضاف الى هذا وهذا جماعة من احاسن الجعالين وغيرهم الاَّ الدناقلة والمصريين فانهُ لا يثق بهم فاجتمع من ذلك كلهِ جند عدده ١٢ الفاً قسمهم الى ثلاث فرق يتولى قيادة الاولى منها ابنهُ عثمان ويتولى قيادة الثانية اخوهُ هارون ابن محمدٍ وهو شاب لم يتجاوز الثامنة عشرة من العمر ويتولى الفرقة الثالثة رجل حبشي اسمهُ رابح ربي في منزل التعايشي · وتنقسم كل من هذه الفرق الى اقسام عدد كل منها مئة يتولى قيادتها ضابط يسمونهُ (رأس مئة) على ان ابنهُ عثمان يعتبر في أي حال قائد الملازمين كافة · وراتب الملازم نصف ريال من ريالات الدراويش في الشهر ويصرف لكل منهم وظيفة من الذرة مقدارها ثمن أردب كل اسبوعين · وواجبات الملازمين المحافظة على شخص التعايشي وهو لا يغفل عن مراقبة حركاتهم وتعهدهم بنفسهِ ليتحقق قيامهم في مراكزهم واخلاصهم في خدمتهِ

❋ أعمالهُ ❋ أما واجباتهُ بالنسبة الى رعاياه فاقامة الصلوات الخمس كل يوم في مسجد ام درمان الاكبر فيجلس في المحراب بحيث يرى كل من في الجامع ووراءه ابنهُ والقضاة وبعض من اختصهم بالتقرُّب منهُ والى اليمين واليسار الملازمون ووراءهم من اليمين اخوهُ يعقوب وسائر الامراء ومن اليسار بعض رجال علي ولد الحلو ثاني خلفاء المهدي وبعض الجعاليين والدناقلة ووراء هؤلاء يجلس العامة صفوفاً · ويبلغ عدد الحضور عادة عدة آلاف · والتعايشي كثير التدقيق في حضور الامراء الصلاة فاذا تخلف عنها احد منهم لامهُ او حقدها عليهِ واذا منع التعايشي مانع كمرض او غيره عن اقامة الصلاة ناب عنهُ بعض قضاتهِ ولكنهُ لا يجلس في المحراب · ويشتغل التعايشي ما بين صلاتي العصر والغروب في سماع ما يرد عليهِ من الاعمال والمداولة بشأنها مع القضاة ولما كان أُمياً لا يحسن القراءة ولا الكتابة فيتلو الاوراق عليهِ بعض كتّابهِ او كتبة سرهِ وهم الذين يكتبون الاوامر والمنشورات ثم يختمها هو بختمهِ

❋ البريد ❋ والمخابرات بين عاصمة الدراويش وسائر اعمالها بواسطة الهجانة وهم عبارة عن ستين او سبعين هجيناً يتولاها بضعة من الرجال يختارهم التعايشي لحمل

اوامره الى العمال ورؤساء القبائل ويعودون اليه بالاخبار والاجوبة وقد اشار عليه ابراهيم عدلان ان يرتب البريد ويعين له مواقيت ومحطات فأبى بدعوى ان الهجانة الذين يحملون البريد رأساً ينقلون اليه اخباراً شفاهية في أغنى عنه من نظام البريد

❋ ركوبه ❋ ويركب التعايشي احياناً فيخرج بموكبه لتعهد بعض منازله في اطراف المدينة فينفخ بوّاق في بوق طويل من قرن الخرتيت اسمه أمبايه له صوت مزعج فضلاً عن اصوات الطبول فاذا سمع الناس صوت الأمبايه والطبل علموا ان التعايشي خارج من ديوانه فيفتح الناس ابوابهم ويطلون من السطوح والكوى لمشاهدة خليفة مهديهم فاذا مشى الموكب ركب الخليفة في حلقة من الملازمين يتقدمها شرذمات منهم ووراءهم جماهير الناس من اهل المدينة بين راكب وماش · ويمشي الى يسار التعايشي رجل ضخم اسمه ابو ضحكه يساعده في ركوبه وترجله ويسير امام التعايشي البواق ينفخ الامبايه بأمره ووراءه اصحاب النفير العسكري لتبويق الوقوف او المسير او غير ذلك حسب أمره ويمشي وراءهم خدمة الخصوصيون يحملون له الركوة (ابريق من جلد يملأ ماء الوضوء) وفروة للسجود عند الصلاة ورماحاً ويرافق هذه الجماهير الموسيقى العسكرية يضربها خمسون عبداً وهي عبارة عن ابواق من قرون الوعل وطبول مصنوعة من جذوع الشجر مجوفة ومغطاة بالجلد اصواتها تزعج الحواس · وفي اثناء مسير الموكب يلعب بعض الخيالة من الملازمين على ظهور الخيل

❋ الاستعراض ❋ ويستعرض التعايشي رجاله الآن اربع مرات في السنة في الاعياد الاربعة المولد النبوي والمعراج وعيد الفطر وعيد الاضحى باحتفال شائق يحضره اهل ام درمان وغيرهم وكان يستعرضهم قبلاً مرة كل أسبوع في يوم الجمعة

❋ قواته ❋ واما قوات الخليفة ومقدار ما عنده من الذخيرة والمؤونة فيظهر من الجدول الآتي ان معظمها من المشاة حملة السيوف والرماح وعددهم ٠٠٠ ر ٦٤ وعنده من الخيالة ٦٠٠ ر ٦ ومن العساكر الجهادية ٢٥٠ ر ٣٤ وجملة ذلك نحو مائة الف وخمسة آلاف مقاتل وعدد الاسلحة ٧٤ مدفعاً و ٤٠٢٥٠ بندقية هذه قوات التعايشي الرسمية الى اوائل هذا العام ولكنها تتضاعف بما ينضم اليها من القبائل القائمة بنصرته · وسنأتي في الهلال القادم على ما بقي من وصف احكامه ودولته وبنوه

جدول قوات التعايشي

مراكز القوات	أسماء امرائها أو قوادها	الجهادية	الفرسان	المشاة المسلحون	المدافع	البنادق
أم درمان (الملازمون)	عثمان شيخ الدين	١١٠٠٠	٠٠٠٠٠	٠٠٠٠٠	٠٠٠	١١٠٠٠
" "	يعقوب التعايشي	٠٤٠٠٠	٠٢٥٠٠	٤٥٠٠٠	٠٤٦	٠٤٠٠٠
" " (في المخازن)	. . . . . .	٠٠٠٠٠	٠٠٠٠٠	٠٠٠٠٠	٠٠٠	٠٦٠٠٠
الرقاف	عرابي ولد دفع الله	٠١٨٠٠	٠٠٠٠٠	٠٤٥٠٠	٠٠٢	٠١٨٠٠
القاشر والأبيض وشكا	محمود وغيره	٠٦٠٠٠	٠٠٢٥٠	٠٣٥٠٠	٠٠٤	٠٦٠٠٠
بربر (بالسودان الشرقي)	زكي عثمان	٠١٦٠٠	٠٠٥٠٠	٠١٢٠٠	٠٠٦	٠١٦٠٠
ابو حمد " "	نور النو	٠٠٤٠٠	٠٠١٠٠	٠٠٧٠٠	٠٠٤	٠٠٤٠٠
ادارامه " "	عثمان دقنا	٠٠٤٥٠	٠٠٢٥٠	٠١٠٠٠	٠٠٠	٠٠٤٥٠
الجدارف " "	أحمد فضل	٠٤٥٠٠	٠٠٦٠٠	٠١٠٠٠	٠٠٤	٠٤٥٠٠
القاشر " "	. . . . . .	٠١٠٠٠	٠٠٣٠٠	٠٠٥٠٠	٠٠٠	٠١٠٠٠
(السوبري) " "	حامد ولد علي	٠٠٩٠٠	٠٠٤٠١	٠١٤٠٠	٠٠٠	٠٠٩٠٠
القلابات " "	النور	٠٠٠٥٠	٠٠٠٠٠	٠٠٣٠٠	٠٠٠	٠٠٠٥٠
دنقلا	يونس الدغيم	٠٢٤٠٠	٠٠٥٠٠	٠٥٠٠٠	٠٠٨	٠٢٤٠٠
سواردة	حموده (قتل بواقعة فركة)	٠٠٢٥٠	٠٠١٠٠	٠١٠٠٠	٠٠٠	٠٠٢٥٠
		٢٤٢٥٠	٠٦٦٠٠	٦٤٠٠٠	٠٧٥	٤٠٢٥٠

أرمانوسة المصرية (تابع ما قبله)

وكانت مارية وأهلها قد ركبوا قارباً آخر وسارت القوارب تمخر عباب الماء والشمس في الاصيل فلما اشرفوا على منف تذكرت ارمانوسة ما كان من أمرها مع اركاديوس وقسطنطين وشكرت الله لخلاصها من هذا ولكنها ما زالت واجمة خوفاً على ذاك فادركت بربارة فيها ذلك فقالت لها ما لي اراك غارقة في بحار الهواجس ثقي بالله وتوكلي عليه فان الذي انقذك وانقذ اركاديوس من مخالب الموت حتى الآن سيحرسكما الى يوم اللقاء وهو قريب ان شاء الله

فلما دنوا من شاطئ منف ورسا القارب عند ذلك الرصيف تذكرت ارمانوسة تلك الليلة المفزعة التي باحت فيها بسرّها لبربارة فانقبضت نفسها وغلب عليها الجزع فلم تتمالك عن البكاء ولكن الخدم والحاشية كانوا في انتظارها على الرصيف فاستقبلوها بالازهار والرياحين وجاءت الجواري واستقبلنها باسمات الثغور يحمدن الله على سلامتها وكنّ قد سمعن بما احدق بها من الخطر في بلبيس ورافقنها من الرصيف الى الحديقة كل ذلك وهي في شاغل عنهم جميعاً بهواجسها وخفقان قلبها وما صدقت انها وصلت قصرها ودخلت غرفتها وكانت بربارة قد تركتها عند باب الغرفة وذهبت فاعدت مكاناً لنزول خطيبة مرقس واهلها واوصت الخدم بهم خيراً ولم تكن مارية المسكينة اقل قلقاً من أرمانوسة من أجل مرقس ثم عادت بربارة حالاً الى غرفة سيدتها وكانت الغرفة مزينة بانواع الرياحين والاثاث الثمين فرأت ارمانوسة قد استلقت على السرير واوغلت في البكاء والنحيب فاخذت تخفف عنها وتؤملها بالفرج القريب

فتنهدت ارمانوسة وقد خنقتها العبرات ولما سكن روعها قالت دعيني يا بربارة من الآمال الباطلة فها انا قد عدنا الى حيث كنا وعادت مخاوفنا الينا وكأني بما مرّ بي في اثناء هذه الغيبة اضغاث احلام . فامسكت بربارة يدها وجلست الى جانبها وهي تبتسم لتخفف قلقها وقالت لها كيف تقولين انها اضغاث احلام وقد نلتِ ما كنتِ تتمنين . ألم تكوني في ريب من محبة أركاديوس وقد رأيتهِ وخاطبتهِ غير مرة وتبادلتما عرابين المحبة ووثقت بحبهِ لك الم يكنكِ ما عاينتِ من غيرتهِ عليك وشغفه بك ألم تكوني في ريب من أمر قسطنطين وقد تحققت الآن نجاتك من قبضتهِ أليس هذا بالشيء الكافي الآن فكيف تقولين انها أضغاث احلام

فاجابتها ارمانوسة اجل انها اضغاث احلام لاني قد عدت الى هذه الغرفة كما خرجت منها ولم امل شيئاً غير الآمال وما احسب ما مرَّ بي من مشاهدة اركاديوس واستماع كلامهِ الاَّ حلماً مرَّ وزال بل أراني اكثر قلقاً عليهِ من ذي قبل فقد كنت في ريب من حولي فلم اكن اشعر بمثل ما انا فيهِ من القلق عليهِ فهل تسمح لي الايام ان ارى ذلك الوجه الباسم وتينك العينين البراقتين قالت ذلك وشرقت بدموعها فاخذت بربارة تخفف عنها وتشاغلها بالآمال والوعود وكانت الشمس قد مالت الى المغيب فاخذت بيدها وخرجت بها الى شرفة القصر فاطلت على الحديقة وبربارة تشاغلها بالاحاديث وتذكرها بما مرَّ بها لتشغلها عن هواجسها وهي صامتة تنظر الى البر الثاني من النيل تستأنس بقربهِ من الحصن فأمرت بربارة الخدم فجاؤوا بالوسائد فرشوها على الشرفة وجلستا تارة تتشاكيان وطوراً تتأملان وارمانوسة لا يرضيها الاَّ الحديث عن اركاديوس وبربارة تشاغلها تارة بهِ وطوراً بسواه

حديثهُ او حديث عنهُ يطربني ✽ هذا اذا غاب او ذاك اذا حضرا
كلاهما حسنٌ عندي أُسرُّ بهِ ✽ لكنَّ احلاهما ما وافق النظرا

الفصل الخامس والثلاثون

قدوم العرب الى الحصن

أما اركاديوس فما زال ينظر الى ارمانوسة حتى توارى قاربها عن نظرهِ فوقف برهة كاسف البال يتأمل بما يتهدده من الخطر وما يحول بينهُ وبين حبيبتهِ من العوائق. ولبث واقفاً برهة على مثل هذه الحال حتى ناداه بعض الحامية ان يسير الى أبيهِ لامر يريد مخاطبتهُ بهِ فسار حتى دخل على والده فاذا هو جالس وحولهُ أرباب مجلسهِ يتداولون فيما هم فيهِ فلما دخل حيا والده وجلس الى جانبهِ فآنس والده شيئاً من الارتباك في وجههِ فابتدره قائلاً ما لي ارى أثر الانقباض على وجهك يا اركاديوس هل داخلك خوف من أمر العرب قال ذلك وهو يبتسم كأنهُ يمازحهُ

فنبه اركاديوس لما هو فيهِ وتظاهر بالاستغراب قائلاً انت تعلم يا ابتاه اني لا

اهاب الموت ولا احسب للحرب حساباً فكيف تقول اني خائف وما الذي يخيفني وانا تحت جناحك وخصوصاً اني رأيت هؤلاء العرب وعلمت من ضعفهم وقلتهم ما لا تعلمون واما ما ظننته فيَّ من الارتباك انما هو اهتمامي في الاستعداد وتدبير الوسائل لدفع ذلك العدو ولا أشك بفوزنا عليهم باذن الله وهمة ابطال الرّوم واشار الى الحضور فاجابوه جميعاً انا بين يديك مستهلكون في سبيل الرومان ضاربون بسيف جلالة الامبراطور الى آخر نسمة من حياتنا

فأثنى الاعيرج على غيرتهم وصرفهم فخرجوا يجرّون سيوفهم وطيالستهم وراءهم فلما خلا الاعيرج بابنه اوصد الباب ودعا اركاديوس الى جانبه وقال له اخبرني يا اركاديوس بما اخبرته من حال هؤلاء العرب وقوّتهم ما عاينته وشهدته ودع الاستخفاف والبسالة جانباً وقل كيف استطاع هؤلاء البدو فتح حصون الفرما وبلبيس مع ما ذكرته من ضعفهم وقلتهم ونحن نعلم ان حامية بلبيس قوية وحصونها منيعة

فصمت أركاديوس برهة يفكر ولم يبدِ جواباً لعلمه ان العرب لم يستطيعوا ما استطاعوه الاَّ بما اعارهم القبط من المساعدة سرّاً وجهراً وتذكر أمر أرمانوسة وحماية عمرو لها وما أصابها منه من الحفاوة والاكرام ويعلم ان ذلك لم يكن لمجرد كرم اخلاق عمرو وحدثته نفسه ان يصرح لوالده بما خامره من هذا القبيل ولكنه خاف ان يزيد الخرق اتساعاً فتزداد العراقيل الحائلة بينه و بين ارمانوسة وكان والده يراعيه ويتأمل ارتباكه وينتظر جوابه بفارغ الصبر فلما ابطأ في الجواب اعاد السؤال قائلاً مالي أراك صامتاً لا تجيب افصح وقل الصدق ولو كان علينا فان ذلك من اوّل معدات الدفاع لاننا اذا عرفنا قوة عدونا وتثل وطأته عرفنا السبيل الصواب الى دفعه

فتحير أركاديوس في ماذا يجيب ولكنه خاف ان يسيء ابوه الظن و فتبسم واظهر الاستخفاف بكلامه وقال لم يكن سكوتي لشيء مما خامر ذهنك ولكني كنت افكر في السبب الحقيقي فلم اهتدِ اليه غير اني أعلم ان الحرب سجال يوم لنا و يوم علينا فلا عجب اذا انتصر العرب على بعض حصوننا وهي لا ريب ضعيفة فلعل الله قدّر أن يكون دفعهم على يدنا فننال الفخر دون سائر حامية الرّوم في مصر

فقال الاعيرج بورك فيك يا ولداه فاني لا أظن السبب غير ذلك فاوصِ رجالك بالثبات وشجعهم وتفقد مراميهم واسلحتهم والاتكال على الله ولا تنسَ الجسر

بين الحصن والجزيرة (جزيرة الروضة) فاننا كنا قد نزعناه ثم اعدناه لحاجة اقتضت اعادته فأمر من ينزعه لئلا يكون للعرب سبيل للوصول الى منف وكذلك الجسر بين الجزيرة والبر الغربي ولكنك اجعل اعادتها في امكاننا لاستقدام المؤونة والذخيرة من منف عند الحاجة . وبث العيون في جهات بلبيس لينبئونا بقدوم العرب فنكون على بينة من أمر مسيرهم فلا يأتونا على غرة واوصيك وصية اخرى ارجو ان لا تتناساها ولا اظنك تجهلها وهي ان لا تأمن للمقوقس ولا لرجاله فانهم يمالئون العرب علينا

ثم افترقا وسار أركاديوس تواً الى قلعته فاوصى بعض الجند بنزع ذلك الجسر والجسر الآخر الموصل بين الجزيرة والبر الغربي وبعث الجواسيس الى بلبيس واوصاهم باليقظة ليراقبوا حركات العرب فاذا علموا باقلاعهم عنها نحو الحصن عادوا بالخبر حالاً ثم تحوّل الى غرفته وكان الليل قد سدل نقابه فنزع خوذته وسلاحه وجلس الى النافذة المطلة على النيل وقد هدأ الجو واوت الطيور الى أوكارها وهب النسيم عليلاً وجرى النيل بازاء الحصن هادئاً وقد اطل البدر من وراء الافق فارسل اشعته على سطح الماء فتلألأ تلألؤاً ضعيفاً فامتد نظره الى الجهة منف حيث تقيم ارمانوسة وتصوّر حالة معها وماهو فيه فغلبت عليه الهواجس وتراكمت عليه الهموم فانقبضت نفسه واظلمت الدنيا في عينيه وخيل في أول تخيل له ان العرب سيفلحون بما نالوه من مساعدة القبط فارتعدت فرائصه وثقل عليه عار الانكسار فقال في نفسه اني لأفضّل الموت على الفرار ولكن الحياة عزيزة اكراماً لارمانوسة ثم عاد فتصوّر انهم تغلبوا على العرب واعادوهم القهقرى فرأى ان ذلك ايضاً لا يضمن له بغيته بالحصول على ارمانوسة لما يعلمه مما بين وبينه والدها من الضغائن فلبث مدة يفكر في ذلك حتى شعر بالتعب والنعاس فذهب الى فراشه ينتظر ما يأتي به القدر . وقضوا معظم اليوم التالي في التأهب

وفي مساء ذلك اليوم جاءهم الجواسيس ينبئونهم باقلاع العرب عن بلبيس وقدومهم نحو الحصن فهاج الناس وماجوا واخذوا يطلون من النوافذ والمرامي ليشاهدوا العرب قادمين فقضوا ليلتهم سهارى تعدتهم وسلاحهم والعرب لم يصلوا وفي صباح الغد شاهدوا الغبار يتطاير من وراء المقطم فتحوّلوا الى شمالي الحصن يراقبون وصول العرب فلما كان الضحى تكاثر الغبار وبانت من ورائه الاعلام والفرسان والهجانة وبعد قليل وصل الساقة وعسكر الجميع في البقعة بين الحصن والمقطم وكانت

كلها بساتين وغياضاً لا شيء من العمارة فيها الا بعض الديور القائمة متبعثرة هنا وهناك فنصبوا خيامهم فيما هو الآن جامع عمرو وما يحيط بهِ فشاهدهم الرّوم يضربون خيامهم وينصبون اعلامهم وكان اركاديوس في جملة الناظرين فتذكر ايام بلبيس وما كان من أسره هناك

أما المقوقس فتظاهر بالاهتمام والرغبة في دفع العرب وذهب الى الأُعيرج وخاطبهُ بشأن معدات الدفاع وكان الأُعيرج يكتم ما يظنهُ عن المقوقس والعرب فاجابهُ «انا لا نلبث ان نعيدهم على أعقابهم وهم انما غرّهم ما لاقوهُ من ضعف حامية بلبيس»

فقال المقوقس واني لاعجب من تغلبهم على بلبيس وهم في مثل هذا العدد القليل فانك لو اشرفت على معسكرهم لرأيتهم شرذمة قليلة لا تلبث ان ترتد خاسرة اذا خرج جندنا اليها

فقال الاعيرج وقد استخف بقول المقوقس الدال على جهلهِ ضروب الحرب «ليس من الحزم ان نترك حصننا ونخرج اليهم طالما كانت المؤونة ملء مخازننا وطريقنا الى منف مفتوحة ولكننا نتركهم وشأنهم حتى يملوا الانتظار فاذا هاجموا الحصن رددناهم بالنبال والحجارة فان هذا الحصن يمتنع على اضعاف اضعافهم لما تعلم من مناعتهِ وخصوصاً بعد حفر الخندق المحيط بهِ فان هؤلاء العرب اذا هاجمونا واحتملوا نبالنا منعهم الخندق من الوصل الى السور فاذا نزلوا الخندق انغرست أشواك الحديد في اقدامهم وهم حفاة كل ذلك والنبال تتساقط عليهم من مرامي السور

وقضوا ذلك اليوم في مراقبة حركات العرب وتأمل لباسهم وخيامهم واعلامهم عن بعد لأنها تخالف ما عند الرّوم مخالفة عظمى

أما اركاديوس فكان قد شاهد كل ذلك شهادة عين عن قرب فوقف الى والدهِ واطلّا من بعض المرامي واخذ اركاديوس يصف لوالدهِ خيم العرب فدلهُ على خيمة عمرو وزريبة الجمال وخيم النساء والاولاد ومواقع الرايات والاعلام والاعيرج يعجب ويستغرب لاختلاف ذلك عما لهم

فلما كان الأصيل شاهد اركاديوس رجلاً قادماً عن بعد ومعهُ علم ابيض ورجلان آخران والكل مشاة فعلم من لباسهِ انهُ عربي فادرك انهُ قادم للمخابرة بشأن من الشؤون فأنبأ والدهُ فخرج لمعاينة الرسل من أعلى السور وأمر بالترجمان فجاء فلما دنا

اولئك الثلاثة من الحصن تقدم واحد منهم وخاطب الحامية بالقبطية بلغة دلّت على انهُ ليس دخيلاً فيها فاغتاظ عمن يترجم كلامهُ وكان مرقس في جملة الوقوف على السور فعرف المتكلم انهُ زياد العربي صاحب يحيى الفرماطيهي ومعهُ وردان ورجل آخر لم يعرفهُ قالوا انهم جاؤوا بكتاب من أميرهم الى المقوقس ففتحوا باب الحصن وادخلوهم وقد تكأكأ الجند لمشاهدة لباسهم وهيآتهم أما هم فساروا بأقدام ثابتة كأنهم دخلوا الحصن فاتحين فاتزين قرافقهم بعض الخفر حتى وصلوا غرفة المقوقس وكان جالساً بجانب الاعيرج وبجانبهِ ابنهُ وبجانب الاعيرج أركاديوس وبين أيديهم ارباب المجلس ومعظمهم من الرّوم فدخل وردان وقدم ملفاً فيهِ رقّ مكتوب بالعربية أمر المقوقس الترجمان بتلاوتهِ فتلاهُ عليهم واذا فيهِ

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ من عمرو بن العاص أمير جند العرب القادم لفتح مصر الى المقوقس حاكم مصر أما بعد فان الله قد كتب النصر لنا منذ دخلنا هذه الديار ففتحنا الفرما وبلبيس عنوة ولا بدّ لنا من فتح هذا الحصن ان عنوة وان صلحاً ولا نبالي من يقتل منا في سبيل فتحهِ فان أحدنا ينتظر ساعة الشهادة ليلقى وجه ربهِ وها اني اعرض عليكم خصلة من ثلاث خصال وهي اما ان تدخلوا في ديننا فيكون لكم ما لنا وعليكم ما علينا او ان تؤدوا الجزية عن يدٍ وانتم صاغرون وان أبيتم فليس بيننا وبينكم الا السيف فاختاروا لانفسكم « عمرو بن العاص »

فلما أتم الترجمان تلاوة ذلك الخطاب تكدّر الاعيرج واشتد بهِ الغضب ونظر الى المقوقس كأنهُ يستشيرهُ في الجواب فأمر باخراج الرسل الى مأمن تحت الحفظ ريثما يعودون بالجواب وخلا المجلس فتفاوضوا فتظاهر المقوقس ان التسليم لا يليق بهم وهم لم يلاقوا ضيقاً ولا عنفاً فأقر الرأي على ان يجيبوا بأنهم يختارون السيف حاكماً فكتبوا الجواب وختمهُ المقوقس باسمهِ لأنهُ هو الوالي الذي تصدر المخاطبات والمداولات باسمهِ وسلم الخطاب الى مرقس وكان بين يديهِ على ان يسلمهُ الى رسل العرب وامرهم ان يشيعوا اولئك الرسل الى باب الحصن فلما ذهبوا خاف المقوقس ان يظن عمرو فيهِ سوءًا اذ يشاهد تلك اللهجة الشديدة في جوابهِ وكانت الشمس قد مالت الى المغيب فذهب الى غرفتهِ فخلا بابنهِ وتداولا بالامر فقال ارسطوليس أرى ان نبعث الى العرب نستمهلهم في الفتح ونفهمهم اننا على عهدنا معهم فقال بأي لغة نكتب

الكتاب ومن يوصلهُ قال يوصلهُ مرقس فانهُ عارف بحال العرب واما كتابتهُ فبالقبطية وترجمانهم يترجمهُ الى لسانهم

فكتب ارسطوليس كتابًا بالقبطية ابان فيهِ ان الكتاب الذي بعثهُ جوابًا على خطابهم انما كتبهُ ليموّه على من معهُ من الروم انهُ يريد دفع العرب ولكن الحقيقة انهُ باقٍ على عهدهِ معهم ولا يلبث ان يسلم الحصن اليهم ويتفق معهم على شروط الصلح ولكنهُ استمهلهم في قضاء ذلك الى سنوح الفرصة

وبعث المقوقس الى مرقس والليل قد سدل نقابهُ فدفع اليهِ الكتاب واوصاه ان يحتفظ بهِ جيدًا وشاوره في كيفية ايصالهِ الى معسكر العرب

فقال مرقس أما الخروج الى العرب فلا يخلو من الخطر وهؤلاء الروم قد ساؤا الظن بنا فهم يراقبون خطواتنا اكثر مما يراقبون خطوات عدوّهم فاذا شاهدوا احدًا منا في حال توجب شبهة دققوا في استطلاع حالهِ فما قولك اذا شاهدوني سائرًا تحت جناح الليل نحو معسكر العرب فالرأي ان احتفظ بهذا الكتاب الى فرصة اذهب بها الى منف لمهمة خصوصية ثم أتحوّل من هناك بطريق آخر الى معسكر العرب فلا يراني احد والرأي لكم

فتشاور المقوقس وارسطوليس فاستحسنا رأي مرقس فتركا الكتاب معهُ تلك الليلة فذهب الى مبيتهِ فوق السور وفيما هو ذاهب تذكر اركاديوس وحالهُ مع ارمانوسة وما لها عليهِ من الفضل وايقن ان مساعي المقوقس هذه تضر باركاديوس وربما اذاقتهُ حتفهُ اذا دخل العرب الحصن على حين غفلة وعلم ان اركاديوس اذا اصيب بسوء عاد ذلك بالوبال على ارمانوسة وضرر ارمانوسة يسيء والدها واخاها وضرر اركاديوس يسيء والدهُ فضلاً عن ارمانوسة

فوصل مرقس مبيتهُ وهو يفكر في ذلك فوقع في حيرة لانهُ يغار على اركاديوس ويحبهُ وخصوصاً بعد ان علم بحب ارمانوسة لهُ وبما بينهما من الربط المتينة فحدثتهُ نفسهُ ان يكاشف اركاديوس بذلك السر فشعر بانهُ أمسكتهُ عن خيانة مولاه المقوقس لانهُ وثق بهِ وسلم اليهِ سرًا يتوقف هلاكهُ على افشائهِ فضلاً عما يلحق بهِ من العار . ولكن كتمان هذا السر قد يسبب قتل محبين لهما عليهِ فضل لا ينساه وهما اركاديوس وارمانوسة فقضى تلك الليلة بمثل هذه الهواجس فاصبح في اليوم التالي وقد انجلى لهُ الواقع فرأى

انهُ اوّل راغب في دخول العرب الحصن واخراجه من ايدي الرّوم لانهُ على دعوة المقوقس وسائر القبط وان خوفهُ على اركاديوس هو الذي جعلهُ يتردد في الامر فاذا تحقق نجاة اركاديوس وبقاءه حياً بعد ذلك التسليم هان عليهِ كل عسير فالوسيلة اذاً ان يسعى في طريقة يحمل بها حياة اركاديوس في مأمن يوم دخول العرب الحصن فلا يكون عرضة لسهامهم ولا سبيل الى ذلك الاّ بابعاده عن الحصن في ذلك اليوم لانهُ يعلم شهامة اركاديوس وغيرتهُ على شرف الروم وان العرب ولو دخلت الحصن واستلمتهُ وسلم اليهم كل من فيهِ فهو لا يسلم وهذا هو سبب الخطر عليهِ فتدبر مرقس كل هذه الاحوال صباحاً وعقلهُ لا يزال صاحياً فقرّر في باطن سره انهُ اذا عرف يوم دخول العرب الحصن اوعز الى اركاديوس بالخروج منهُ ولكنهُ ادرك ايضاً ان اركاديوس لا يترك الحصن على هذا السبيل بل قد يكون ذلك سبباً في اصراره على البقاء فيهِ . ثم انتبه بغتة لارمانوسة وما لها من السلطة في ذلك فعوّل على ان يخرجه بحجة ارمانوسة بطلب منها او بطريقة اخرى

فلما انجلت لهُ هذه القضايا جيداً ارتاح بالهُ وسكن روعهُ وذهب توّاً الى مولاه المقوقس فاذا هو في جلسة عمومية مع ولده والاعيرج وسائر القواد يتفاوضون ويتداولون فانتظر ريثما خرج فأ وما المقوقس اليهِ ان يتبعهُ فتبعهُ حتى وصل غرفتهُ فقال لهُ قد قررنا في جلستنا هذه ان نبقى محاصرين لا نبادئ العرب بحرب فربما طال حصارنا واحتجنا الى مؤونة ولذلك فقد قرّرنا ايضاً ان نبعث جماعة الى منف يحملون الينا الحنطة والمؤونة فاذهب انت في قارب من قواربهم الى منزلنا في منف فتطمئن ارمانوسة عنا وتبقى هناك فاذا عاد الناس باحمالهم اذهب انت من طريق آخر الى معسكر العرب وادفع الكتاب الى اميرهم . فقال مرقس حسناً يا سيدي ولكن هل تظن يوم نجاتنا من هؤلاء الرّوم قريباً وقد أراد مرقس ان يستطلع افكار سيده ليكون على بصيرة من ساعة الخطر فيسعى في انقاذ اركاديوس . فقال المقوقس ان يوم النجاة قريب ولكنهُ لا يكون قبل مرور بضعة أشهر ولا نخفي عنك يا ولدي ان تسليمنا للعرب او تسهيل الفتح عليهم يجب ان يكون محفوظاً فاذا عجلنا في ذلك ظهر تواطئنا وتحقق الرّوم كافة اننا نحن الذي ساعدناهم اما اذا اطال الحصار فترتفع الشبهة عنا نوعاً فاحذر ان يلحظ احد شيئاً مما ذكرتهُ لك « ستأتي البقية »

تاريخ السودان الحديث

خاتمة (تابع ما قبله)

حكومة التعايشي وادارانها وأعمالها

(١) المالية

تسمى المالية عند الدراويش « بيت المال » أو هي بيوت المال يختص كل بيت منها بنوع من انواع الدخل والخرج أهمها خمسة وهي (١) بيت المال العمومي (٢) بيت مال الملازمين (٣) بيت مال الخمس للخليفة (٤) بيت مال ورشة الحربية (٥) بيت مال ضابطة السوق

﴿ بيت المال العمومي ﴾ هو عبارة عن الخزينة العمومية لمملكة الدراويش يجمع دخلها من المصادر الآتية (١) الزكاة والفطرة وقد تقدم ذكرها (٢) الاسلاب والغنائم المكتسبة بالحرب (٣) العشور وهي ما يدفعه التجار ضريبة على بضائعهم (٤) ضريبة الصمغ (٥) ضريبة المراكب (٦) قروض يعقدها بيت المال مع التجار ولا ينوي دفعها (٧) ضرائب العبور في النيل من ضفة الى اخرى (المعديات) (٨) غلة الارض الواقعة غربي النيل الابيض وشرقي النيل الازرق وهي تمتد جنوباً الى كركوج وفشوده وشمالاً الى حجر العسل (٩) معين يستولي عليه بيت المال العمومي من بيوت المال الاخرى . وأما نفقات بيت المال العمومي فهي (١) نفقات نقل الجيوش ومؤنهم وذخائرهم الى المديريات والمقاطعات (٢) اعطيات الجند (رواتب الجهادية) (٣) رواتب المستخدمين (٤) الصدقات

﴿ بيت مال الملازمين ﴾ ويراد به خزينة الملازمين وهم جند التعايشي الخصوصيين ومنهم حرّاسه وباورانه . يجتمع دخل هذه الخزينة من محاصيل ارض الجزيرة (بين النيلين الابيض والازرق) واما نفقاتها فمحصورة في رواتب الملازمين

﴿ بيت مال الخمس للخليفة ﴾ وهو أشبه شيء بالخزينة الخاصة ودخله من المصادر الآتية (١) معظم ما يفضل في خزائن المديريات بعد نفقاتها المعلومة (٢) محاصيل الجزائر الواقعة في النيل وفي جملتها جزيرة توتي قبالة الخرطوم ومحصول ارض الفتيحة ومنها حلفاية وكلمن وكانتا قبلاً من املاك الخاصة الخديوية (٣)

عُشر البضائع التي ترد من بربر الى ام درمان (٤) اثمان العبيد الذين يرسلون من المديريات (٥) محصول اكثر البواخر والسفن . أما خرج بيت مال الخليفة فمحصور في نفقات منزله الخصوصي

* بيت مال ورشة الحربية * وتشبه خزينة الحربية عدنا دخلة من (١) غلة جنائن الخرطوم (٢) محصول بعض السواقي بجوار الخرطوم (٣) العاج الوارد من خط الاستواء . وخرجه (١) نفقات الحربية (٢) نفقات الترسانة وبسمونها بيت الامانة (٣) استخراج ملح البارود وتنقيته (٤) نفقات معمل الاسلحة

* بيت مال ضابطة السوق * وهي خزينة الضابطة دخلة من اموال السكيرين والمقامرين التي يحكم التعايشي بضبطها ومن ضريبة الحوانيت . واما نفقاته فعلى ما يأتي (١) رواتب الضابطة من الانفار والضباط (٢) نفقات بيت الضيافة وهو ليعقوب أخي عبد الله التعايشي (٣) نفقات بناء السور الكبير لأم درمان . هذه هي اقسام المالية من الدخل والخرج اما المقادير التي تدخل وتخرج فلا تيسر معرفتها

(٣) النقود والتجارة

لما قام المهدي بدعوته وتوفق الى فتح المديريات استولى على خزائنها واموال اهلها فكان ينفق مما وصل الى يديه من ذلك وهي النقود الدارجة في السودان على عهد الحكومة المصرية أهمها الريال المجيدي والريال ابو مدفع . فلما اتسعت مملكته ونفدت تلك الاموال أخذ في ضرب النقود باسمه اشار عليه بضربها احمد ولد سليمان فضرب نقوداً فضية شبيهة بالريال المصري وجنيهات شبيهة بالجنيهات المصرية ولكنهم لم يكونوا يضبطون المقادير اللازمة من كل معدن منها وكان الذهب قليلاً بين ايديهم فكفوا عن ضرب الجنيه واكثروا من ضرب النقود الفضية فضربوا منها ضربات عديدة تعرف باسماء خاصة بها منها (ريال المهدي) وهذا أحسنها كلها ومنها (مقبول) و(أبو سدر) وكلاهما من ضرب نور القيراقوي . و (اوكيس) وعليه اسم رجعين متصالبين . و (العملة الجديدة) . على انهم أخذوا ينقصون مقدار الفضة بالنسبة الى النحاس شيئاً فشيئاً حتى صارت نسبة الفضة الى النحاس كنسبة ٢ الى ٥ مع انها كانت في بادئ الرأي ٧ الى ١ أي ان الريال كان يحتوي سبعة اجزاء من الفضة وجزءاً من النحاس وهو ريال المهدي فصار يحتوي جزئين من الفضة وخمسة من النحاس

وذلك دليل على فقر السودان وفساد حكومته على ان دار ضرب النقود يتخذها كبار الدراويش تجارة يكتسبون بها اموالاً طائلة لأنها تعطى حكرًا او ضمانة ومن قوانينها ان يرأسها اثنان معًا يدفع الواحد منها ستة آلاف ريال كل شهر ومايضربانه من النقود يجب ان يكون مقبولاً لدى التجار وغيرهم فاذا اعترض احد على صحتها او امتنع عن قبولها فعقابة الجلد او سلب الاموال فالريال المجيدي يستبدله تجار ام درمان الآن بثمانية ريالات من العملة الجديدة ويستبدلون الريال ابا مدفع بخمسة ريالات فاضطروا ملافاة لما يلحقهم من الخسارة بهذه المعاملة أن يرفعوا اثمان بضائعهم حتى بلغ ثمن شقة البفتة الزرقاء التي يصطنعون منها ثياب النساء ستة ريالات وكان ثمنها على عهد الحكومة المصرية ثلاثة ارباع الريال واصبح رطل السكر (الرطل ١٤٤ درهم) بريالين . ومن الغريب ان غلاء الاثمان قاصر على البضائع الواردة من مصر أما ما يجلب من السودان فاثمانه بخسة بالنسبة الى تلك فالجمل مثلاً يساوي ستين ريالاً والبقرة مائة ريال واردب الذرة ستة ريالات والخروف خمسة ريالات فاكثر

(٢) القضاء

القضاء منوط عندهم بالقضاة وكبيرهم يسمى « قاضي الاسلام » وجميعهم آلات صماء بايدي التعايشي فلا يصدرون حكمًا الا كما يوحيه هو اليهم ما خلا القضايا الطفيفة من الاحوال الشخصية وما شاكلها فقضاة الدراويش بهذا الاعتبار بين جاذبين قويين ضميرهم والاحكام الشرعية من جهة وإرادة التعايشي من جهة اخرى وهاك اسماء قضاة ام درمان في اوّل العام الماضي

(١) حسين ولد زهرا	من قبيلة الجعليين
(٢) سليمان ولد الحجاز	« « الجعافرة
(٣) حسين ولد قيس	« « الحُمر
(٤) احمد ولد حمدان	« « العراقيين
(٥) عثمان ولد احمد	« « البطاحين .

(٦) عبد القادر ولد ام مريم وكان قاضي كلاكلا على عهد الحكومة المصرية

(٧) محمد ولد المفتي وهو قاضي المواد الجزئية بين الملازمين

وهناك قضاة آخرون للقبائل الغربية اذا حضروا الجلسة لا يصدرون حكمًا

بل يبدون رأيهم واما شيخ الاسلام فهو حسين ولد زهرة المتقدم ذكره اوّل القضاة تلقى الفقه في مدرسة الجامع الازهر وهو اعلم اهل السودان كافة مع ميل الى العدالة وكثيرًا ما اصدر احكامًا تنطبق على مقتضى الشريعة الغراء وتخالف ارادة التعايشي فالتعايشي غير راض عنه تمام الرضي وقلما يدعوه لحضور الجلسات

واساس الاحكام عندهم الشريعة الاسلامية وتعاليم المهدي التي اشرنا اليها في كلامنا عن اوصاف المهدي وتعاليمهِ ويزعمون ان هذه التعاليم انما وضعها المهدي لاحياء ما كاد يندثر من احكام الشريعة الغرّاء بالاهمال . واهمّ تلك التعاليم الاعتقاد بان محمد احمد هو المهدي المنتظر حقيقة ومن شك في ذلك فعقابهُ القتل

وواجبات قاضي الملازمين الحكم في ما يعرض بين الملازمين او بينهم وبين عامة الناس وفي الحالة الثانية فالحق دائمًا في جانب الملازمين . وهناك قاضيان ملحقان ببيت المال ينظران في القضايا المتعلقة بالاحكام الشرعية من جهة بيع الرقيق وشرائهِ . وعندهم قاضي يقيم في السوق ليحكم في الامور الطفيفة التي تعرض هناك

(٤) الحالة العمومية

أما الحالة العمومية في السودان فتنبئ بقرب سقوط دولة الدراويش لاستبداد التعايشي وسوء ظنهِ وظلمهِ فالناس صابرون عليهِ رغماً عنهم ولا يعتقدون بهِ خيرًا والخليفتان الآخران يودان هلاكه وقد ذكرنا ما بينهُ وبينهما من الاحقاد والضغائن وزد على ذلك ان الفساد سائدٌ والفقر ضاربٌ اطنابهُ فتعطلت التجارة وتوقفت الزراعة وفسدت الآداب العمومية . ولو قسنا هذه الحالة بحالة السودان على عهد المهدي لرأينا الفرق بعيدًا فقد كان الدراويش مجتمعين حول المهدي مخلصين في خدمتهِ متحدين على نصرتهِ لأنهُ ملك قلوبهم بحسن سياستهِ ولين عريكتهِ مع ما أُوتيهُ من المقدرة على جمع الكلمة ولو خلفهُ رجل مثلهُ ما وجدت الحكومة المصرية سبيلاً الى فتح السودان الآن ولكن الله اراد سقوط دولتهم فسخر لها هذا الرجل ليكون ذلك السقوط على يده ولله في عباده حكمة لا تدركها العقول

(٥) نجاة سلاتين باشا

سلاتين باشا نمساوي الاصل ولد بالنمسا سنة ١٨٥٧ وشب محباً للاسفار والاخطار فقدم بلاد السودان سنة ١٨٧٤ سائحًا وهو في الثامنة عشرة من عمره فبلغ

دارفور ثم حدثت في تلك الجهات ثورة بسبب ثقل الضرائب فمنع حكمدار الخرطوم الاجانب من الايغال في السودان خوفاً على حياتهم فعاد سلاتين الى الخرطوم والتقى هناك بامين باشا الذي تولى مديرية خط الاستواء بعد ذلك وكان غوردون اذ ذاك حكمدار مديريات خط الاستواء فاستأذناه بالقدوم اليه فأذن لهما فسارا اليه في لادو وهي قبل خط الاستواء بخمس درجات . ثم عاد سلاتين الى بلاده بدعوة من أهله وتعين ملازماً في الجيش النمساوي ثم كتب اليه غوردون سنة ١٨٧٨ يستقدمه الى الخرطوم وكان حكمداراً عاماً على السودان فعينه مفتشاً مالياً يجول في السودان ينظر في شكوى الناس فترقى حتى صار مديراً على دارفور في عهد المهدي كما ذكرنا قبلاً . فلما انكسر جيش هيكس باشا وتحقق قرب سقوط مديريته بعث الى المهدي فسلّم اليه فاستقدمه الى الأبيض فجاء . فضمه التعايشي الى ملازميه ثم رافقهم في مسيرهم على الخرطوم وحصارها . فلما سقطت الخرطوم وقتل غوردون وتوفي المهدي وخلفه التعايشي بقي سلاتين في جملة الملازمين فقضى زهاء ١٢ سنة في ذلك المنصب لابساً ثياب الدراويش وهي المرقعة والعمامة يقضي نهاره واقفاً عند باب التعايشي يقرأ القرآن وينتظر أمراً في مهمة يقضيها فاذا ركب مشى في ركابه والتعايشي تارة يرضى عنه وطوراً يغضب عليه فاذا رضي خلع عليه الخلع واهدى اليه الهدايا ومعظمها من الجواري واذا غضب ضايقه وتهدده وسلاتين لا يرى مسوغاً لرضاه ولا داعياً الى غضبه ولا عرف قاعدة اذا سار عليها بقي التعايشي راضياً عنه فقضى تلك المدة يترقب فرصة يستطيع بها الفرار الى مصر فخاب سعيه مراراً لأن التعايشي لم يكن يغفل عن مراقبته على انه لم يبق عليه الا تفاخراً بأن مدير دارفور أصبح من بعض خدمه وكثيراً ما صرّح بذلك زاعماً انه يؤيد به صدق دعوى المهدي

فعلم اخوة سلاتين واقاربه في بلاد النمسا انه اسير في ام درمان وكاتبوه واخذوا يسعون في وسيلة لانقاذه فوضعوا مبلغاً من النقود في قنصلية النمسا بمصر لينفق في سبيل مساعدته او انقاذه فتعاونت القنصلية وقلم المخابرات بالحكومة المصرية فاتفقوا الى بعض العرب العارفين بدخائل السودان ليغروا به فخابت مساعيهم مراراً

وفي أوائل سنة ١٨٩٥ عاهدوا تاجراً من تجار السودان على الف جنيه يدفعونها اليه اذا فرّ بسلاتين من ام درمان الى مصر فجاء ام درمان وقابل سلاتين وتواعدا سراً

علي يوم بخرجان بو . ففي ٢٠ فبراير سنة ١٨٩٥ وهو اليوم المعين تظاهر سلاتين بالمرض فأذن له رئيس الملازمين ان يلازم فراشه و يتناول قليلاً من الساكي والتمر الهندي فقضى طول نهاره متمارضاً بعد ما يحتاج اليه من لوازم السفر فلما جاء المساء جمع خدامه واخبرهم ان بعض اقاربه في اوربا ارسلوا اليه نقوداً وهدايا مع رسول جاء بلا اذن من الخليفة فبقي خارج ام درمان وان سلاتين ذاهب اليه ليصرفه و يأتي بما جاء به اليه من النقود والهدايا واوعز الى واحد منهم ان يلاقيه ببغلته شمالي المدينة في صباح الغد وان لا يمل الانتظار اذا أبطأ سلاتين عليه . فصدقوا قوله وتوسموا بتلك المهمة خيراً لعلهم ينالون نصيباً من تلك الهدايا . واخيراً قال لهم فاذا سأل الخليفة او غيره عني قولوا لهم اني كنت مريضاً طول النهار فذهبت في هذا المساء لاستشير بعض الاطباء . قالوا سمعاً وطاعة

ففي نحو الساعة الرابعة من الليل اخذ فروته وفردته وسار الى الموعد فلقي الرجل فقاده الى محل الجمال فركب ومعه دليل آخر وساروا شمالاً شرقياً نحو صحراء بيوضة . وكانوا قد اعدوا محطات اخرى لتغيير الجمال وعبور النيل بعد صحراء بيوضة تحت بربر فقطعوا صحراء بيوضة ثم عبروا النيل بين بربر وابي حمد الى البر الشرقي ومن هناك ساروا على الجمال بطريق عتمور ابي حمد نحو اصوان وهم في اشد الخطر فوصلوها في صباح ١٦ مارس سنة ٩٥ فقطعوا المسافة من ام درمان الى اصوان في ٢٥ يوماً وهي اقل مدة يمكن قطع هذه المسافة بها

فكان وصول سلاتين اصوان على غير انتظار فلاقاه الضباط الانكليز وغيرهم بترحاب وارسلوا البشائر البرقية الى اصدقائه في مصر واهله في النمسا ثم جاء مصر فانعم عليه الجناب العالي رتبة باشا ثم سافر الى اوربا فشاهد اهله واصدقاءه وتناول الغذاء على مائدة الملكة والف كتابه « النار والسيف في السودان » فطبع ونشر في الانكليزية والالمانية ثم عاد الى مصر فالتحق بمنصب رفيع في المخابرات وفي اعتقادنا ان كتابه هذا ووجوده هو نفسه في الحربية كانا من اكبر المحرضات على فتح السودان ولذلك فانه يسير الآن في مقدمة الحملة ومن المأمول ان تنتفع تلك الحملة باختباراته واذا فازت فله اكبر نصيب من ثمارها لانه لا يزال في مقتبل العمر لم يدرك الاربعين سنة بعد . وفي صدر هذا الهلال رسمه في العام الماضي بعد عودته من السودان

باب المقالات

تحليل الأغذية وفلسفة الغذاء

اذا تأملنا موجودات هذا الكون على اختلاف طبائعها واشكالها رأينا بعضها بسيطًا لا يقبل الحل ومعظمها مركبًا يحل بعضهُ الى عنصرين وبعضهُ الى ثلاثة او اربعة او اكثر فالحديد مثلاً عنصر بسيط وكذلك الفضة والذهب اما الماء فجسم مركب ينحلُّ الى عنصرين هما الاكسجين والهيدروجين وكذلك ملح الطعام فانهُ ينحلُّ الى كلور وصوديوم والخبز ينحلُّ الى كربون (فحم) وهيدروجين واكسجين ونيتروجين وقس على ذلك سائر المواد الآلية وغير الآلية فالزيت والدهن واللحم والدقيق والفاكهة والخمور من المواد الآلية والماء وملح الطعام وسائر الاملاح المعدنية من المواد غير الآلية مركبات تنحل الى عناصر بسيطة

ولكن تركيب المواد الآلية متشابه وعناصرها محصورة تقريبًا في اربعة هي الاوكسجين والهيدروجين والكربون والنيتروجين ومن هذه العناصر الاربعة تتركب سائر المواد الآلية من نباتية وحيوانية وتختلف خواصها باختلاف نسبة هذه العناصر بعضها الى بعض. واشهر المركبات الآلية الدهن والالبومين والفبرين والجلاتين والنشا والسكر والكاسين فبعضها يزيد فيهِ الهيدروجين وبعضها يزيد فيهِ الاوكسجين او النيتروجين او الكربون وبعضها مركب من بعض هذه المواد دون البعض الآخر فالدهن مثلاً مركب من هيدروجين وكربون فقط ولكن الجلاتين والالبومين والفبرين مركبة من العناصر الاربعة على نسب مختلفة

والاجسام الحية مؤلفة على الغالب من المركبات الآلية المتقدم ذكرها ويتغلب بعضها في النبات وبعضها في الحيوان فالنشا والسكر يتغلبان في النبات والمركبات الباقية تتغلب في الحيوان

فجسم الانسان مركب من الجلاتين والالبومين والفبرين والدهن والماء على نسب معلومة فاذا كان وزن الجسم ١٥٤ ليبرا كانت نسبة تلك المركبات فيهِ على هذه الصورة

الماء يوجد الماء في سائر اجزاء الجسد وهو من المواد غير الآلية ويكوّن اكثر من ثلثيه واكثر وجوده في السوائل كالدم واللمفا وعصارات المعدة والامعاء والكبد وغيرها

الدهن والدهن يختلف مقداره باختلاف الاشخاص فقد يزيد عن ذلك كثيراً في السمان ويوجد الدهن في الاخلية بين الانسجة والعضلات يملأ الفراغ الحادث بينها هناك ولكن معظمه تحت الجلد وفي الاحشاء

الالبومين أحسن مثال للالبومين زلال البيض وهو يوجد ذائباً في الدم ويدخل في تركيب الاعصاب والمخ

الفبرين الفبرين قلما يفرق في تركيبه وخواصه عن الالبومين ومنه تتألف العضلات (اللحم الاحمر) ويدخل بعضه في تركيب الدم

الجلاتين الجلاتين من اهم مركبات الجسد ويدخل في تركيب العظام والمفاصل والاربطة على اختلاف اشكالها من اربطة العضلات واربطة العظام وغيرها فاذا سلقت ارجل الضأن او الفرس لقاً جيداً فرقة يحتوي كمية كبيرة من الجلاتين فاذا ترك حتى يبرد جمد على شكل الغراء وهو كثير الغذاء

قلنا ان كلاً من هذه المواد مركب من عناصر بسيطة لا تكاد تخرج عن العناصر الاربعة المتقدم ذكرها فاذا حسبنا ما تحتويه هذه المواد من تلك العناصر باعتبار النسبة التي يتألف بها جسم الانسان وجدناه مركباً منها على هذه النسبة

اوكسجين	۱۱۱	ليبرا
هيدروجين	۰۱٤	«
كربون	۰۲۱	«
نتروجين	۰۰۳	«

قد عرفنا المواد الداخلة في تركيب جسم الانسان وعرفنا عناصرها ونسبتها بعضها الى بعض . ومعلوم ان الحياة انما تقوم باتفاق تلك المواد كما تقوم النار باتفاق الفحم وكلما زادت القوة الحيوية زادت نفقاتها فالمواد المتقدم ذكرها في دثور دائم بالتنفس والعرق والافراز والبراز وغيره وتختلف قابليتها للدثور فالماء مثلاً ينفق اولاً ولذلك فالانسان لا يصبر على العطش صبره على الجوع . ثم الالبومين والفبرين ثم

الجلاتين والدهن . فلا بد لقيام الحياة من التعويض عن ذلك الدثور بالطعام فالاطعمة يجب ان تكون حاوية المواد المؤتلف الجسم منها للتعويض عما يدثر منها جميعاً والاطعمة في الواقع تحتوي على كل ما يحتاج اليه الجسم وهي تقسم بهذا الاعتبار الى ثلاثة اقسام (١) مواد هيدروكربونية من امثلتها النشا والسكر والدهن والحوامض (٢) مواد نيتروجينية من أمثلتها اللحم واللبن والبيض (٣) مواد معدنية كالماء وملح الطعام

و يختلف مقدار هذه المواد باختلاف الاطعمة وهاك جدولاً يبين نسبة هذه المواد في أشهر الاطعمة « أنظر الجدول في الصفحة المقابلة »

أما مقدار ما ينفقه الجسم كل يوم من مواده فيقدرونه بنحو ١٤١ أوقية طبية وكلها تعوض بالطعام والشراب وهاك صورة حساب الداخل والخرج

الداخل

(غازات)	أوقية	قمحة
اوكسجين بالتنفس	٠٢٤	٠٠٠
(سوائل)		
ماء بالشرب	٠٦٨	٠٠٠
ماء بالطعام	٠٢٥	٠٠٠
(جوامد)		
فبرين	٠٠٣	٠٠٠
البومين	٠٠٠	٣٠٠
كاسين من الجبن	٠٠٠	١٢٧
نشا	٠١٣	٠٠٠
دهن	٠٠٥	٠٠٠
سكر	٠٠٣	٠٠٠
مواد معدنية	٠٠١	٠٠٠
	١٤١	٠٠٠

الخارج

(غازات)	أوقية	قمحة
اوكسجين (مع الكربون بالتنفس)		
كربون	٠١١	٠٠٠
اوكسجين	٠٢٤	٠٠٠
(سوائل)		
البول	٠٥١	٠٠٠
بخار ماء بالتنفس	٠٢١	٠٠٠
العرق	٠١٦	٠٠٠
مع المبرزات	٠٠٥	٣٢٧
(جوامد)		
يوريا (بالبول)	٠٠١	٣٠٠
مواد معدنية	٠٠١	٠٠٠
	١٤١	٠٠٠

أشهر الأغذية ومقدار الغذاء ونوعه في كل منها

في كل من المواد الآتية	الماء	فبرين وألبومين	نشا وسكر الخ	دهن	أملاح	مواد كربونية	مواد نتروجينية	جملة الغذاء
لبن البشر	٨٦	٠٢ر٥	٤ر٣	٠٢ر٠	٠ر٢	٠١١ر٤	٠٢ر٥	٠١٤ر٦
« البقر	٨٦	٠٤ر٥	٠٥ر٠	٠٤ر١	٠ر٧	٠١٤ر٨	٠٤ر٥	٠١٩ر٢
« بلا قشدة	٨٧	٠٤ر٥	٠٥ر٠	٠٣ر٧	٠ر٧	٠١١ر٥	٠٤ر٥	٠١٦ر٠
لحم الضأن والبقر	٧٢	١٩ر٠	—	٠٥ر٠	٣ر٠	٠١٢ر٠	١٩ر٠	٠٣١ر٠
« العجل	٧٧	١٩ر٠	—	٠١ر٠	٠ر٦	٠٠٣ر٤	١٩ر٠	٠٢١ر٤
« الطير	٧٤	٢١ر٠	—	٠٣ر٠	١ر٣	٠٠٧ر٣	٢١ر٠	٠٢٨ر٢
« الخنزير	٣٠	٠٠ر٨	—	٧٠ر٠	١ر٣	١٦٨ر٠	٠٠ر٨	١٦٨ر٨
الجبن	٣٦	٣٦ر٠	—	٣٠ر٠	٤ر٥	٠٧٣ر٥	٣٦ر٠	١٠١ر٠
الزبدة	١٥	—	—	٨٢ر٠	٣ر٥	١٩٩ر٠	—	١٩٩ر٠
البيض	٧٤	١٤ر٠	—	١٠ر٥	١ر٥	٠٢٥ر٠	١٤ر٠	٠٣٩ر٠
زلال البيض	٧٨	٢٠ر٠	—	—	١ر٦	—	٢٠ر٠	٠٢٠ر٠
مح «	٥٢	١٦ر٠	—	٠٣ر٠	١ر٣	٠٧٢ر٠	١٦ر٠	٠٨٨ر٠
السمك	٧٨	١٨ر٠	—	٠٣ر٠	١ر٣	٠٠٣ر٤	١٩ر٠	٠٢١ر٤
دقيق الحنطة	١٥	١١ر٠	٧٠ر٠	٠٣ر٠	١ر٧	٠٧٤ر٨	٠١ر٠	٠٨٥ر٨
الرز	١٤	٠٧ر٠	٧٦ر٠	٠٠ر٣	٠ر٣	٠٧٦ر٧	٠٧ر٠	٠٨٣ر٧
البشلة	١٣	٢٢ر٠	٥٨ر٠	٠٣ر٠	٣ر٠	٠٦٢ر٨	٢٢ر٠	٠٨٤ر٠
الفول	١٤	٢٤ر٠	٤٤ر٠	٠١ر٤	٣ر٦	٠٤٧ر٤	٢٤ر٠	٠٧١ر٤
العدس	١٤	٢٩ر٠	٤٤ر٠	٠١ر٥	٣ر٣	٠٤٧ر٦	٢٩ر٠	٠٧٦ر٦
خبز القمح	٤٤	٠٩ر٠	٤٩ر٠	٠١ر٠	٢ر٣	٠٥١ر٤	٠٩ر٠	٠٦٠ر٤
البطاطا	٧٤	٠٢ر٠	٢٣ر٠	٠٠ر٣	٠ر٧	٠٥٢ر٥	٠٢ر٠	٠٢٥ر٥
الخضار	٨٦	٠٢ر٠	٠٤ر٠	٠٠ر٥	٠ر٧	٠٠٥ر٠	٠٢ر٠	٠٠٧ر٠
جذر الاراروط	١٨	—	٨٢ر٠	—	—	٠٨٢ر٠	—	٠٨٢ر٠

فاذا عرفنا المواد اللازمة للغذاء وجب علينا معرفة قابليتها للهضم فاذا اكلنا قنطارًا ولم نهضمه لا يستفيد جسمنا منه شيئًا فالعبرة في ما يهضم ويتمثل من الطعام لا ما يؤكل او يشرب فمعرفة قابلية الاطعمة للهضم ضرورية لتجنب المواد العسرة الهضم عند الحاجة وهاك بيان المدة اللازمة لهضم كل من أشهر الاطعمة

« الاوقات اللازمة لهضم أشهر الأطعمة النباتية والحيوانية »

(الاطعمة النباتية)		
(اسم الطعام)	ساعة	دقيقة
الارز المسلوق	١	٠٠
التفاح الحلو الناضج	١	٣٠
الكوسى المطبوخ	١	٣٠
التابيوكا المسلوقة	٢	٠٠
اللوبيا والاسبانخ المطبوخان	٢	٠٠
التفاح الحامض غير الناضج	٢	٠٠
الكرنب (الملفوف) بالخل	٢	٠٠
الفول المسلوق (المدمس)	٢	٣٠
الكعك الاسفنجي (فرينكا)	٢	٣٠
البطاطا المقلية	٢	٣٠
« المشوية	٢	٣٣
خبز الذرة	٣	١٥
الجزر المسلوق	٣	١٥
خبز القمح	٣	٣٠
البطاطا المسلوقة	٣	٣٠
البامية والباذنجان المطبوخان	٣	٣٠
اللفت المسلوق	٣	٣٠
الشمندر (البنجر) المسلوق	٣	٤٥
الكرنب (اللفت) المسلوق	٤	٠٠
(الاطعمة الحيوانية)		
ارجل الخنزير المسلوقة	١	٠٠
الكروش «	١	٠٠

(تابع الأطعمة الحيوانية)	ساعه	دقيقه
البيض الني المخفوق	١	٣٠
المخ المسلوق (صفار البيض)	١	٤٥
كبد البقر المسلوق	٢	٠٠
البيض المشوي	٢	١٥
الديك الهندي المسلوق	٢	٢٥
أرجل الغنم المسلوقة	٢	٣٠
الدجاج المقلي	٢	٣
لحم الكبش المسلوق	٢	٣٠
الدجاج مطبوخه (يخنه)	٢	٤٥
لحم البقر المسلوق	٢	٤٥
لحم البقر المشوي	٣	٠٠
لحم الضأن المسلوق	٣	٠٠
لحم الضأن المقلي	٣	١٥
البطلينوس المطبوخ	٣	٣٠
الجبن الني	٣	٣٠
البيض المسلوق	٣	٣٠
البيض المقلي	٣	٣٠
لحم البقر المقلي	٤	٠٠
عصافير مسلوقه	٤	٠٠
عصافير مشويه	٤	٠٠
الدجاج المشوي	٤	٠٠
غضاريف مسلوقه	٤	١٥
لحم خنزير مشوي	٥	١٥

باب المراسلات

الحزنبل

طال كلامنا بشأن الحزنبل ولم نقف على نتيجة قطعية بعد فقد ذكرنا في الهلال ٢١ ان الحنات المرسل الينا من حضرة المراسل البغدادي داود افندي فتو ارسلناه الى جناب العلامة الدكتور بوست لافادتنا عن نسبتهِ الى الحزنبل المرسل من طرابلس ونابلس ووصفهُ حضرتهُ في الهلال ١٩ فاجابنا بما خلاصتهُ

« لم أقدر على معرفة الحنات الذي ارسلتموهُ اليَّ اذ لا هيئة لهُ تنبيء بماهيتهِ فلو ارسلتم ازهارًا او اوراقًا او قطع الساق بتمامها لكنت اقدر على تحقيقها واما حنات كهذا فلا دليل الى معرفتهِ البتة ويسوءني انني لا اقدر على اكثر من هذه النتيجة السلبية »

فنتقدم الى حضرة المراسل البغدادي بارسال شيء من زهر ذلك النبات او ورقهِ او جذره او كلها معًا لعلنا نتصل الى نتيجة فيها خير للناس وعلى الله الاتكال

باب السؤال والاقتراح

مشائخ التنجيم

كشف الستار عن دعواهم

(القاهرة) ابراهيم افندي خليل

قرأت في الهلال الخامس عشر من السنة الثالثة فصلاً في « الرمل والتنجيم والمندل » بيّنتم فيهِ فساد دعوى المنجمين في معرفة الغيب وقد كنت قبل مطالعتها

ميالاً الى تصديقهم لكثرة ما كنت اسمعهُ عنهم من العجائب والغرائب على ان بعض الاصدقاء روى لي حادثة وقعت لهُ مع شيخة مشهورة في ثمن عابدين بمصر فقصت عليَّ بالعجب العجاب قال انهُ ذهب اليها واعطاها منديلهُ فنظرت اليهِ وسمّتهُ باسمهِ واخبرتهُ عن حالهِ وما جاء اليها بشأنهِ فعاد مسحوراً معجباً بنبوتها فشدد النكير على الهلال. فوعدتهُ اني سأكتب اليكم التمس القول الفصل والايضاح الكافي لازالة كل شك فهل لكم ان تبينوا لنا حقيقة هؤلاء المشائخ ولكم الفضل

(الهلال) ما برحنا منذ صبانا نسمع بمثل هؤلاء المشائخ بسوريا ومصر والسودان وكنا مائلين الى تصديق ما نسمعهُ عنهم فلما انفتحت عيناننا بالعلم وعرفنا أحكام الكون ونواميسهُ اتضح لنا ان معرفة الغيب فوق طاقة البشر وان كل ما يدعيهِ المنجمون واصحاب الرمل والمندل والسحر اوهام لا حقيقة لها

فلما انشأنا الهلال صرحنا برأينا هذا في اجوبتنا على اسئلة كثيرة وردت علينا بهذا المعنى وقد كنا مع ذلك نستغرب متانة اعتقاد الناس في صدق هؤلاء المشائخ فتاقت نفسنا الى استطلاع الاساليب التي يتسلطون بها على عقول الناس حتى يتمكن اعتقادهم فيهم الى هذا الحد. وكنا نترقب الفرص لزيارة بعض هؤلاء المشائخ واختبارهم وتحول الشواغل بيننا وبين ما نريد فلما ورد سؤالكم هذا المرة سألنا عن الشيخة التي اشرتم اليها فقيل لنا انها أشهر اهل صناعتها لا تكاد تسأل عنها احداً من عامة أهل القاهرة أو خاصتهم الا عرفها واعجب بمهارتها فلاح لنا ان فيها مقدرة على قراءة الافكار مع لباقة ودقة نظر تستعين بها على التمويه فتبهر السامعين فعوَّلنا على ان نختبرها بنفسنا

وقد فهمنا قبل ذهابنا اليها انها لا تستطلع الغيب او الضمير الا بواسطة منديل أو اثر آخر من آثار الطالب ولا فرق بعد ذلك كان الطالب حاضراً او غائباً فاستصحبنا صديقاً نبيهاً واخذنا معنا منديلين لسيدتين ضمرت كل منها ضميراً فوصلنا منزل الشيخة نحو الساعة العاشرة صباحاً فرأينا الناس واكثرهم من النساء متجمهرات في صحنهِ بعضهنَّ جالسات على التراب وبعضهنَّ على مقعد من خشب والمكان بجملتهِ قذر كريه الرائحة والشيخة جالسة على دكّة في صدر ذلك الصحن تتناول طعامها لا تبالي بملل الناس في انتظارها او هي تحسبهم جاؤوا يستعطونها فسألنا عن زمن فراغها من الطعام فقيل لنا ان ذلك راجع الى مجرد اختيارها لا يستطيع احد تعجيلها ولما لم نحتمل

البقاء في ذلك المكان القذر خرجنا نروّح النفس قليلاً بشارع عبد العزيز ثم عدنا فاذا بها قد فرغت من الطعام واشعلت السيكارة فرحبت بنا ولي كرمتنا اكراماً خصوصياً فاجلستنا الى جانبها فتأملناها فاذا هي في نحو الاربعين من عمرها عليها كثير من انواع الحلى في أذنيها وعنقها ومعصميها ثيابها كثياب سائر نساء مصر فدخنت سيكارتها والنساء جالسات ينتظرن أمرها في طلب المناديل

فلما نفدت السيكارة نادت خادمة بجانبها أن ائتيّ بالبخور فوضعت قطعة صغيرة منه على نار السيكاره واستنشقت دخانها باتنها فعطست وتثاءبت ثم تظاهرت ان الشيخ قد لبسها ومعنى ذلك ان هؤلاء المشعوذين والمشعوذات يزعمون ان الذي يستطلع الغيب ليس هم بل ارواح يعبرون عنها بالمشائخ لكل مشعوذ شيخ خاص يحل فيه عند استنشاقه البخور فتتغير هيئته و يستبدل منطقه بمنطق الشيخ . فالشيخة التي نحن في صددها تسمى باسم شيخها وهو على زعمها صبي لم يتجاوز العاشرة من عمره فاذا حل فيها ثقل لسانها وعسر الكلام عليها واصبح نطقها كنطق الاطفال فتلفظ الكاف تاء والراء لاماً وتقتضب الالفاظ فلا يسمع احدٌ منها غير عطاطية لا معنى لها في نفسها فيفسرها على ما يوافق ضميره . فلما حل الشيخ بها تناولت مناديلنا وهي اربعة فقبضت عن كل منها غرشين واستخرجت منديلي اولاً وزعمت انها عرفته بقوة الشيخ وليس في معرفته غرابة وقد تناولته من يدي في تلك الدقيقة فقلّبته واخذت تثرثر وتخرج اصواتاً لا معنى لها وتزعم انها لا تحسن التكلم وكنت قد ضمرت عنها مي فلم تشر الى هذا الضمير مطلقاً بل اقتصرت على الاشارة باحدى يديها على الاخرى كمن يريد الكتابة فهم الذين يعرفون مهنتي انها تشير الى اني محرر جريدة فانبهروا ثم ضمّت سبابتيَ يديها متوازيتين كما تشير الى المصاحبة فهم الذين يعرفون شيئاً من اشغال ادارة الهلال انها تريد شريكاً لي ولا يخلو ان يكون لنا شريك في كتاب او طبع او ما شاكل ذلك . أما نطقها فلم يفهم منه شيء وزد على ذلك انها تنطق تلك اللفظة المبهمة بلهجة الاستفهام فاذا اصابت اتخذ السامع ذلك منها تنبؤاً واظهر استحسانه واذا أخطأت واشار السامع ولو بملامح وجهه الى خطائها تظاهرت انها انما تسأله سؤالاً وهي تعرف ان الامر عكس ما تقول . والخلاصة انها قضت نحو عشرين دقيقة في كشف ضميري ولم تنطق بكلمة صريحة ولا اشارت اشارة واضحة فان كل الاشارات والالفاظ تنطبق بالتفسير والتأويل على

حال اكثر الناس كما سترى . ولكنها ارادت اخيرًا ان تبهرنا فنطقت باسمي فسألتها ما اسمي قالت (جورجي) وعند ذلك ظن الرفاق انها أفحمتني ولكنني علمت انها سمعت اسمي مرارًا ساعة كنا نتشاور بين ان ننتظرها وهي تأكل او نخرج خارجًا فناداني صديقي باسمي غير مرة ولكنني لحسن الحظ لم اناده انا باسمهِ فلما جاء دوره بدأت بالاشارة عينها التي بدأت بها لي وهي حكاية حركة يد الكاتب مع ان صديقي ليس كاتبًا ولكنه يشتغل مع اناس يكتبون فنسر المفسرون انها عرفت حقيقته ثم ضمت سبابتيها كما فعلت معي ولما كان صديقي مستخدمًا لا شريك له فهمَ المؤمنون بنبوة الشيخة انها تريد الذين يشتغل هو معهم ثم عقبت على ذلك باشارات وطمطانية يؤخذ منها بعد الغربلة والتنقية ان ما يكتسبهُ صاحبنا اقل مما يستحقهُ وان المستقبل احسن وهذا ما قالته لي ايضًا ففسره المفسرون اذ ذاك ان شغل الجرائد في اوّله كثير التعب قليل الجدوى وانه اذا ثبت تحسن وفسروه لصاحبي انه مستخدم وراتبه قليل بالنسبة لتعبهِ وانه سوف يلقى شغلاً براتب اكبر وقد يعتقد هو انها أصابت المرمى لان المستخدمين مهما بلغت رواتبهم يعتقدون انها لا تساوي تعبهم

واخيرًا سألناها عن اسمهِ فاعتذرت انها لا تستطيع نطقهُ لانهُ ثقيل على اللسان والحال انهُ اخف من اسمي كثيرًا فقلنا حاولي النطق بهِ فأخذت تتلفظ بمقاطع ممتزجة لا معنى لها فقلنا هل تريدين ان اسمهُ فلان (غير اسمهِ الحقيقي) فلم تبد اشارة اجابية ولا سلبية ولكي ارفع كل شبهة قلت لها هل تريدين ان اسمهُ فلان (ولفظتُ اسمهُ الحقيقي) فقالت لا لا لا اعلم وتظاهرت بالضجر والملل

ثم استخرجت منديلَي السيدتين فلم نعرف من ضميرها شيئًا غير ما يؤوّل تأويلاً على مثال مما تقدم ولو استطعنا احتمال تلك الروائح الكريهة لمكثنا هناك برهة اخرى لسماع ما تقولهُ لاولئك النساء ولكننا لا نشك بانها تقول لهنّ اقوالاً متشابهة تفسرها كل منهنّ على ما يوافق حالتها ويخرج الجميع راضيات معجبات بذلك السحر الحلال

أما نحن فخرجنا وقد زال من ذهننا كل شبهة في فساد دعوى هؤلاء المنجمين حتى ان قراءة الافكار التي يؤيدها العلم لم نجد لها أثرًا في شيختنا هذه واما سبب اعتقاد الناس صدقها وظهور طمطانيتها ظهور النبوة لديهم فيرجع الى الاسباب الآتية بناء على ملاحظتنا بنفسنا وهي

(١) ان الناس ولا سيما العامة ميالون الى تصديق الغرائب شديدو الاعتقاد بعالم الغيب وما بني عليه فاذا سمعوا حكاية من هذا القبيل نقلوها مكبّرة فجعلوا البعوضة فيها جملاً والدرهم دينارًا ولو بحثت عن اصل كل ما نسمعه عن هؤلاء المنجمين لرجعت الى نذر يسير جدًّا أصابوا به صدفة او خداعًا

(٢) يظهر ان اصحاب هذه الصناعة يديرون الناس بحيلة لا تكلفهم مشقة ولكنها تستولي على عقول الناس وذلك انهم يستخدمون اناسًا يأتونهم والناس مجتمعون يستطلعونهم فيدخل احد هؤلاء المأجورين فيدعي انه غريب جاء يستشير الشيخ او الشيخة في ضائع او مفقود فتشرح له حكايته المزعومة وهو يتظاهر بالاعجاب وانها عرفتها حرفًا حرفًا فيؤثر ذلك في الحضور تأثيرًا عظيمًا وقد اتفق لنا ذلك عند شيختنا فقبل مباشرة الكلام عنا جاءها رجل زعم انه غريب فاعطاها اثرًا من آثاره فاخبرته انه قد سُرق له بلح وان الذين سرقوه اثنان محمد وابراهيم وان احدهما كان يقطع البلح والآخر يحمله وان ساقيته احترقت الخ ومما يؤكد لنا تواطؤهما على هذه الحيلة انها كانت تشرح تلك الحكاية بالفاظ واضحة فهمناها لاول وهلة بخلاف ما كانت تلفظ به من ضمائرنا فانها لم تلفظ كلمة واحدة مفهومة وذلك دليل على وثوقها باصابتها في ما تقوله لصاحب البلح مها كان واما عنا فهي لا تعلم متى تصيب او تخطئ فتجعل اللفظ مبهماً حتى نفسره نحن حسب ضميرنا

(٣) ان للشيخة ترجمانة تترجم كلامها المبهم للحاضرين فتجلس بين المستنبئين تراقب حركاتهم والفاظهم وتفسر كلام الشيخة الذي لا معنى له تفسيرا تراه ينطبق على افكار الحضور وقد تجلس هذه الترجمانة بين الناس قبل حلول الشيخ في الشيخة وتسمع احاديثهم وتستطلع نواياهم فتستعين بذلك على التفسير

(٤) ان الذين يتعاطون هذه المهنة يغلب ان يكونوا على جانب من النباهة ودقة الملاحظة فيكشفون شيئًا من احوال القادم عليهم بمجرد النظر الى قيافته فيميزون تمييزًا اجمالياً يساعدهم في خدع السامع كما لو كان القادم امرأة طاعنة في السن على وجهها ملامح الكآبة فهذه لا بد لها من مفقود او ضائع او غائب او ما شاكل . واذا كانت فتاة من بنات الهوى فهي تلتمس معرفة ضمير حبيبها او زوجها واذا كانت عذراء لعلها تضمر عن خطيب طالبها أو سيطلبها او غير ذلك واذا كان القادم

رجلاً عليهِ لباس افرنجي مهندم فهو اما مستخدم في الحكومة او في التجارة او في المدرسة فاشارتها لهذا النوع من القيافة حكاية يد الكاتب لأن تلك الحركة تأتي بالعجائب الغرائب فهي تدل على ان ذلك الرجل مستخدم في الحكومة او كاتب في التجارة او محرّر او معلم واذا كان غير هؤلاء كلهم فلا يكون الاّ صاحب عقار فحكاية يد الكاتب تدل عنهُ على كمبيالة او شرطية او عقد اقتران او طلاق او ما شاكل ذلك مما لا يقع تحت حصر فقس عليهِ

(٥) واكبر مساعد لهم على الخديعة التظاهر بالبله او العجز عن الكلام فيكتفون بالاشارات والالفاظ المبهمة التي لا معنى لها بنفسها ويتركون تفسيرها للسامع على مقتضى ما في ضميره فحكاية يد الكاتب قد رأيت انها تنطبق على اكثر احوال الناس وكذلك ضم السبابتين فانهما قد تدلان على شركة او مصاحبة او زواج او غير ذلك مما نترك شرحهُ للقارئ اللبيب

(٦) من اغرب الحيل التي لاحظناها في شيختنا انها اذا نطقت بلفظ ذات معنى الصحيحة بنغمة الاستفهام فاذا انطلت بمنونها مثلاً الى ان القادمة جاءت تستنبئها عن زوجها فلكي تستطلع منها اذا كان سافر ام لا تقول لها لاج (راح) بنغمة الاستفهام فاذا كان قد راح ظهر على وجه المرأة الاستحسان فتبقى الشيخة على قولها بانها تريد انهُ راح واذا لاحظت ان قولها يخالف الواقع عدلت الى انها عالمة بأن الرجل لم يذهب وان سؤالها انما هو من قبيل تجاهل العارف

(٧) ومن اكبر العوامل في ظهور اقوال هؤلاء المشائخ مظهر الصدق مشاركة السامعين لهم باظهار الاستحسان او الاستهجان او تفسير الفاظهم او اشاراتهم فاذا شئت امتحان احدهم فاذهب اليهِ ولا تنطق ببنت شفة ولا تبد اشارة ولا تظهر ملاحظة ولا تفسر كلامهُ الاّ بما يدلّ عليهِ بنفسهِ بقطع النظر عن ضميرك وانا اضمن لك تعود كما عدنا

﴿ قراقر البطن والمشدّ ﴾

(الاسكندرية) سليم افندي سعد

عندنا فتاة في العشرين من عمرها مصابة بقراقر البطن اي ان احشائها تحدث

﴿ أرمانوسة المصرية ﴾ (تابع ما قبله)

فخرج مرقس وفعل كما أوصاهُ المقوقس وقد ارتاح باله على اركاديوس فسار مع من سار الى مسف فلقي خطيبته و والديها فما صدقوا انهم شاهدوه فاستطلعوا الخبر فطمأنهم وبشرهم بانفراج الازمة قريباً ومكث عندهم برهة يتمتع بحديث مارية ومنظرها وهي لا تدري أتبكي أم تفرح لعلمها بما احدق بها من الاحوال التي لا تعلم عواقبها

ثم سار مرقس الى ارمانوسة فلقي بربارة واستصحبها اليها فلما رأته ارمانوسة توسمت الخير برؤيته لعلمها انه مطلع على اسرار قلبها عالم بما بينها وبين اركاديوس فدعته الى غرفتها مع بربارة واخذت تسأله عن اركاديوس ووالدها وشقيقها وحال العرب والحصن

فقال ان العرب نزلوا خارج الحصن وقد كتبوا الينا ان نسلم فاجبناهم اننا مصرُّون على الدفاع الى آخر نسمة من حياتنا

فضحكت بربارة وقالت دعنا من المزاح واحكي لنا الواقع وما هو شأن مولانا المقوقس مع أمير العرب فقد علمنا انهما متعاهدان سرًّا فهل هما باقيان على ذلك

قال نعم يا سيدتي انهما باقيان كما تعلمين وهذا كتاب من سيدي المقوقس الى الامير عمرو بهذا الشأن . ومد يده واخرج الكتاب ودفعه الى ارمانوسة ولم يكن مختوماً فقرأت ما فيه فلما جاءت على آخره شعرت بانقباض ولكنها صمتت برهة ثم قالت وما ذا تكون عاقبة هذا التواطىء على اركاديوس ألا تظنه يكون في خطر وهو جريء اذا لقي الموت لا يهرب منه أنفة واستكباراً فما هذا يا مرقس ان العاقبة وخيمة علينا جميعاً على اي حال

فتبسم وقال طيبي نفساً يا سيدتي فقد قضيت ليلة ونهاراً غارقاً في بحار الهواجس افكر في طريقة انقذ بها سيدي اركاديوس من الخطر وقد دبرت حيلة اذا اطلعتك عليها استصوبتها لا محالة

قالت وما هي

فاحكى لها ما خطر له تماماً . فقالت بورك فيك انه الرأي الصواب لا محالة ولكن احذر ان تبطىء في اخباره فليكن استدعاؤه عن لساني بالاسلوب الذي تستحسنه وثق يا مرقس اني قد ألقيت هذا الحمل عليك ولك عليَّ المكافأة باذن الله

فجثا مرقس امامها وقال اني عبدك وخادمك واذا اهرقت دمي في خدمتك فلا أفي جزءا من فضلك . فانهضته وقالت بورك فيك من شهم غيور . فقبّل يدها وقال ارجو ان تأمري باعداد قارب انزل به هذا المساء في النيل بعيدًا عن الحصن حتى اصل قبالة معسكر العرب فاطلع اليهم وابلغهم الرسالة فاوصت برارة بذلك أما هو فخرج الى منزل خطيبته فقضى فيه بقية ذلك اليوم

الفصل السادس والثلاثون

القشل

فلما امسى المساء ركب القارب وفيه نوبيان من خدمة ارمانوسة فسار القارب شمالاً بازاء الضفة الغربية لا يرام أحدٌ فنصبوا الشراع وكانت الريح شديدة ومجرى النيل سريعًا فلم يمض بضع ساعات حتى وصلوا قبالة الحصن وبينهم وبينه جزيرة الرّوضة والظلام قد سدل نقابة فانزلوا الشراع ووقف مرقس برهة يتأمل في مركزه ويستشير النوبيين عن أحسن مكان يعبرون به الى البر الآخر وقد افهمها انه يريد الذهاب الى الحصن فقالا نذهب اليه من هذا المكان فنحوّل من فوق هذه الجزيرة (جزيرة الرّوضة) فصل الحصن فقال بل افضل التحوّل من تحت الجزيرة فاطاعاه فنشروا الشراع وساروا والجوّ هادئ لا يسمع فيه غير حفيف اوراق البرديّ وخرير الماء والنيل قد تعاظم ماؤه فلما تجاوزوا الجزيرة علم مرقس انهم صاروا قبالة معسكر العرب فامرهما بادارة الدفة وعبور النهر الى البر الشرقي فترددا اولاً لان المجرى سريع والريح شديدة فلا يخلو مسيرهم من خطر فقال سيروا على بركة الله فقال احدهم وكان خبيرًا باحوال النيل ان مسيرنا شديد الخطر يا سيدي ولو افهمتنا مرادك ونحن في منف لاعددنا ما يلزم لذلك اما التعدية بالشراع وحده فلا نستطيعها لان الريح والمجرى يهويان بالقارب فيقلبانه رأسًا على عقب . فبهت هنيهة ثم قال ما العمل اذًا

فقال النوبي لا حيلة لنا في ذلك يا سيدي ولا بد من استحضار المجاذيف

تستعين بها على مقاومة المجرى او نتربص الى الصباح . فخاف تعرقل مساعيه اذا داهمه الوقت ورأى ان ارسال احد النوتية الى منف لاستجلاب المجاذيف يؤخرهم يوماً كاملاً لأنه اذا ذهب ماشياً لا يصل منف قبل الفجر واذا ركب السفينة فانها تسير ضد المجرى فيتأخر وصولها اكثر من ذلك فلم يرَ بدّاً من المخاطرة فقال هلمَّ فلنقطع النيل على خيرة الله فنصحا له ان يتمهل وبيّنا له الخطر المحدق بهم فاصرَّ على رأيه فاطاعاه رغماً عنهما ولكنهم حسروا الشراع ولم يتركوا منه الأ جزءًا صغيراً منشوراً وأداروا الدفة ومرقس يعمل كواحد منهم فدار القارب نحو الشرق ولكنه لم يجرِ يسيراً حتى شعروا بميله مع الريح والمجرى وقد كاد يهوي بهم فجعلوا يستغيثون بالله ويستنصرونه حتى صار القارب في منتصف المجرى فزاد ميله ودخله بعض الماء فاخذوا يعالجون الشراع ويعالجون الدفة عبثاً فخشوا وقوعهم بالخطر فقال مرقس وما الحيلة الآن قالا لا حيلة الأ بأن نطاوع المجرى فندير الدفة حتى يسير القارب مع المجرى لا معارضاً له فقال افعلا كما تريان فاداروا الدفة وأنزلوا الشراع فسار القارب بقوة المجرى سيراً حسناً حتى بعدوا عن الحصن فلم يروا بذلك فائدة فاستشاط النوتيان غضباً وهما لا يعرفان لذلك المسير مسوغاً فقالا ان في مسيرنا على هذه الصورة خطراً بلا فائدة فاذا كنت تريد النزول عند الحصن فلنرجع الى حيث كنا ونحوّل اليه بازاء جزيرة الروضة فان المجرى هناك ابطأ كثيراً

فلم يرَ مرقس بدّاً من اطاعتهم فعادوا الى حيث كانوا ولكنهم لم يكادوا يفعلون حتى شاهدوا سفينة كبيرة قادمة نحوهم من جهة الحصن فعرف مرقس أنها من سفن جندهم التي تطوف تلك الجهات لحراسة الضفتين خوفاً من تعدي العرب وأيقن انهم اذا رأوه اتهموهُ بدسيسة فاستخرج رسالة المقوقس من جيبه واستعد لالقائها في البحر اذا هم قبضوا عليه ثم سمع صوتاً يأمرهم بالوقوف فقال للنوتيين أستحلفكما بحياة السيدة ارمانوسة ان توافقاني فيما اقول لئلا يكون الخطر علينا جميعاً فقالا سمعاً وطاعة فلما دنت السفينة من القارب أخرجوا الانوار ليتعارفوا فعرف مرقس ان رجال السفينة من جند الروم وهم عرفوه فسألوه عن سبب مجيئه الى هناك فادعى أنه يريد العبور الى الحصن وان المجرى السريع والريح الشديدة قذفا السفينة الى ما وراء الجزيرة فقالوا هلمَّ الى الحصن فمزق مرقس الكتاب خفية والقاه في النيل

وطلع الى السفينة والنوتيان معهُ فعادت بهم فباتوا تلك الليلة فيها وفي الصباح التالي ساقوهم الى اركاديوس فلما رآهم عرف مرقس وتذكر أرمانوسة فلما اخبروهُ بحكايتهِ عوّل على تبرئتهِ ولكنهُ احب ان يستطلع حقيقة الحال بنفسهِ فصرف الجند والنوتيين وخلا بمرقس فقال لهُ ما حكايتك يا مرقس أفصح عن الحقيقة واصدقني الخبر فانك تعلم حبي لك فثق بي واخبرني بحقيقة الواقع فسكت مرقس ولم يجب فظن اركاديوس انهُ كان في مهمة سرية الى العرب ففتشهُ فلم يرَ معهُ ما يدل على ذلك ومرقس ساكت لا يدري ماذا يجيب فلما الحّ عليهِ واظهر سوء ظنهِ ولاح الغضب على وجههِ نهض وهمّ بتقبيل يدهِ والدموع تكاد تتناثر من عينيهِ وقال اني لا استطيع التصريح لك بتفصيل الحقيقة ولو قطعت رأسي ولكنني اقسم بشرف اركاديوس وحياة لارمانوسة اني لم أخطُ خطوة الاّ ونظرت من ورائها الى مصلحة سيدي اركاديوس ولا باشرت عملاً الاّ بامر سيدتي ارمانوسة هذا ما استطيع التصريح بهِ الآن فاقتلني او القني في هذا النيل او افعل بي ما شئت فاني اطوع لك من ظلك

فاطرق اركاديوس برهة وقد ادرك ان في حكاية مرقس سرًّا لا يخرج عما لحظهُ قبلاً من تواطوء القبط والعرب ولكن حبهُ لارمانوسة ووثوقه بمرقس الجما لسانهُ عن الكلام فغير الموضوع قائلاً وكيف فارقت ارمانوسة

قال فارقتها في خير وعافية تلهج بذكراك وتحلم برؤيتك وتعد الساعات والدقائق المقائق ولكنها تعجب لصبرك على بعدها

فتنهد اركاديوس تنهدًا عميقًا وحرق اسنانهُ ولم يبدِ جوابًا ثم صرف مرقس وخلا بنفسهِ يفكر في حالهِ

اما مرقس فسار الى مولاه المقوقس وقص عليهِ ما تمّ للرسالة فقال حسنًا فعلت القائها في النيل ولكن ارجو ان تكون مزقتها

فقال مزقتها اربًا اربًا والبايروس خشب يسهل تمزيقهُ على ان المقوقس دبر بعد ذلك وسيلة خابر بها عمرًا وتفاهما وتواعدا

(اصلاح) ورد في اوّل الفصل الثاني عشر من هذه الرواية ان القديسة هيلانة اخت قسطنطين والصواب انها والدتهُ

الفصل السابع والثلاثون



فتح الحصن

وما زال الحصن محاصرًا والعرب معسكرون حوله سبعة أشهر جاءهم في أثنائها مدد من الخليفة عمر بن الخطاب أربعة آلاف رجل آخرين فصارت قوة العرب ثمانية آلاف وفيهم جماعة من نخبة قواد الاسلام

فمضت الشهور السبعة واركاديوس على مثل الجمر تشوقًا لارمانوسة لان المخابرة كادت تكون منقطعة بينهما فملّ الاصطبار وتاقت نفسه الى لقياها وطارت روحه شعاعًا الى مقرّها

ففي ليلة من ليالي الشهر السابع كان اركاديوس في غرفته وقد أعد فراشه التماسًا للرقاد لعله يرى طيف حبيبته في منامه فلم يكد يجلس على الفراش حتى جاءه بعض الحرس ينبئه بمجيء مرقس فاختلج قلبه في صدره لعلمه انه قد يكون قادمًا برسالة من ارمانوسة فاذن بادخاله فدخل وسلم فقال له ما وراءك يا مرقس فقال ما ورائي الا الخير . قال قل . فدفع اليه رقًا فتحه وقرأه فاذا هو من ارمانوسة ومفاده

« من ارمانوسة الى حبيبها اركاديوس

« أما بعد فاذا كانت ارمانوسة لا تزال تخطر ببالك او ما برحت حياتها تهمك فاسرع اليها بنفس حال وصول هذا اليك والسلام »

فلم يكد يتلو الكتاب حتى تغير لونه وانقبضت نفسه خوفًا على ارمانوسة وقال لمرقس هل جئت بهذا الكتاب من عندها أم هي ارسلته اليك مع رسول قال بل ارسلته مع رسول دفعه اليّ وكرّ راجعًا

فقال انها تدعوني بوان اذهب اليها على جناح السرعة ولكنها لم تذكر سبب هذا الاستدعاء

قال خيرًا ان شاء الله فهل انت مزمع على الذهاب

قال ولا بد من ذلك ولكن كيف اترك الحصن ونحن في حال الحصار والعرب محدقون بنا من كل جانب

قال تذهب متنكرًا فتقضي بضع ساعات عندها ثم تعود ولا يعلم بك احد

قال نذهب اذًا بعد نصف الليل متنكرين بحجة اننا جواسيس مرسلين من اركاديوس فاذا استغشونا قلنا لهم شعار الجند المتفق عليه الليلة هل تذكره

قال نعم ان الشعار الليلة لفظ (هرقل) فاتفقا على ساعة من الليل يجتمعان بها في بعض انحاء الحصن فالتقيا وجاءا الى الباب بلباس جند المقوقس فحاولا فتحه فنهض الحراس ومنعوهما من الخروج فقالا لهم شعار الليل فاطلقوا سراحهما فخرجا وكان مرقس قد أعد قاربًا عند الضفة فركبا به واوصى النوتية ان يبطئوا ما استطاعوا حتى يصلوا منف عند الضحى فسار القارب والكل سكوت واركاديوس يستحث النوتية ويحسب لخروجه هذا الف حساب خوفًا من غضب والده حتى وصل منف واطلّ على بناياتها فأوّل قصر شاهده قصر ارمانوسة لانه اعلاها كلها ولم يكن دخله قبل ذلك اليوم فاخذ يستعد لمقابلة حبيبته بعد طول الغيبة

أما هي فكانت تنتظرهُ في حديقتها وقد ارسلت بعض الخدم وبربارة لاستقباله خوفًا من انكشاف الامر ولبثت هي في الحديقة تنتظر قدومه وقلبها يخفق وركبتاها ترتعشان وكلما آنست صوتًا او رأت شبحًا ظنته اركاديوس فأخذت تمشي تارة في طرقات الحديقة تتلاهى بمشاهدة الازهار وتقف طورًا عند اقفاص الحيوانات تتشاغل بمراقبة حركاتها حتى سمعت وقع اقدام كثيرة ثم دخل اثنان بلباس جند القبط ومعهما بربارة فعرفت انهما اركاديوس ومرقس فتقدمت لمقابلتهما فاشارت بربارة اليهم جميعًا ان يصعدوا الى القصر فصعدوا واما مرقس فاستأذن وسار الى خطيبته ودخل اركاديوس وارمانوسة الى غرفتها الخصوصية وبربارة معهما ولم يصدقا انهما دخلاها حتى سلما وتصافحا فقبض اركاديوس على يدها فأحس بتيار كهربائية ارتعش منها جسمه ونسي الحصن واهله والعرب والروم ولكنه ما برح في قلق لمعرفة سبب استقدامها اياه على هذه الصورة فوقفا برهة لا يتكلمان ولحظ اركاديوس في وجه ارمانوسة نحولاً وذبولاً فانفطر قلبه

وكانت بربارة قد أعدّت لهما مائدة عليها انواع الاطعمة والاشربة فلما جلسا قالت ارمانوسة مرحبًا بالقادم بعد طول الغياب وقد كنا نحسب الحصار على الجند في الحصن فقط فاذا هو حصار علينا نحن

فقال لا تبدإي بالعتاب قبل ان تخبريني عن سبب استدعائك اياي بعبارة مبهمة شغلت بالي وأكثرت فيّ الظنون

قالت ما دعوتك الآ لاراك فقد قضيت سبعة أشهر منذ ودعتك المرة الاخيرة وانت تنظر اليَّ من نافذة الحصن لا يرتاح لي بال ولا أذوق رقادًا حتى صرت الى ما تراه من الضعف وخشيت أن يكون ذلك الوداع آخر عهدنا باللقاء. لا سيما ونحن في حال توجب الاضطراب والخوف. ألعلك لا تزال على عزمك من معاناة الحروب غير مبال بما يقاسيه هذا القلب

قال اني انما احب الحرب يا أرمانوسة من اجلك لادافع عنك واستقبل السيوف والنبال تعزيزًا لمقام خطيبك

فقطعت الكلام عليه قائلة ان كنت تحبني وتبغي رضاي أقلع عن الحروب ودع الحصون وابق الى جانبي فاني لا استطيع صبرًا على بعدك

فتنهد وقال لها نعم اني احبك وانت تعلمين ذلك ولكنني احب شرفي واحب وطني ايضًا أتريدين ان نترك حصوننا غنيمة لهؤلاء العرب القادمين الينا من أقصى بادية الحجاز ونحن الرومان أرباب المجد والسطوة وقد رفعت اعلامنا فوق كل الممالك ودانت لنا الملوك والقياصرة انفرُّ من وجه شرذمة من البدو رعاة الابل أترضين لي بذلك. وكان يخاطبها والعرق يندى من جبينه لعظم تأثره

قالت حاشا لي ان اريد لك حطة لاني افاخر الناس بانك بطل باسل ولكنني قد عولت ان لا افترق عنك بعد هذا الاجتماع قط وهذا هو سبب استدعائي اياك على عجل الآن

فنهض مذعورًا وقال اصحيح ما تقولين يا ارمانوسة هل تريدين لي هذه الخيانة الا تخجلين اذا ذكر اركاديوس ان يقال انه جبان يفر من الحرب لا اظنك ترضين بذلك

قالت قلت لك اني لا ارضى لك حطة ولكنني لا ارضى ان تعرض نفسك لحرب لا أمل لكم فيها بالفوز

فعجب لقولها هذا وقال لها وما ادراك بذلك الحسبين جند هذا الحصن كجند بلبيس والفرما أما الفرما فلم يكن فيها احد من الروم على ما اعلم ام انت تستخفين بي

قالت قد رأيت في الحلم ان الحصن أخذ وخفت ان يصيبك ضرر فاستقدمتك اليَّ على ان لا افارقك الاَّ بالموت فاذا سرتَ سرتُ معك او قعدت قعدنا معًا هذه خلاصة اقوالي والسلام

فتلطف بالخطاب تخفيفًا لما ثار في قلبه فقال لما تعقلي يا حبيبتي فقد صبرت أشهرًا فاصبري اياماً وستربن العاقبة على من تكون ولو تركني والدي أفعل ما اريد لخرجت الى جند العرب المعسكر حول الحصن بشرذمة من رجالي فقط وبددتهم ايدي سبا ولكنني سرت على مشورته رغماً عني اما اذا انتشبت الحرب واحتدم الوطيس فالفوز لنا لا ريب فيه باذن الله

فتبسمت ثم قالت وهب انكم حاربتم العرب في هذا الحصن ثم خرجتم منه الى غيره فانك تحاصر في ذاك ايضاً ثم تذهب الى حصن آخر وهكذا وتترك ارمانوسة في زوايا النسيان لا تنام الليل خوفاً عليك . ام كيف

قال حاشا لي ان أنسى ارمانوسة او اغفل عن راحتها واعدك وعداً شافياً ان واقعة هذا الحصن ستكون الحد الفاصل فاذا بقيتُ بعدها لا اعود الى الفراق مطلقاً ولو مهما كانت الحال

قالت اقسم لي قسماً ثابتاً فاقسم بشرفه ومحبتها انه اذا انقضى أمر هذا الحصن لهم او عليهم لا يعود الى حرب او ما يوجب فراقاً

وطال بهما الحديث حتى صارت الشمس في الاصيل فقال اركاديوس اراني قد اخللت بواجباتي فتركت معقلي وجندي على حين غفلة وجئت وقد طال بي المقام فهلاَّ اذنتِ لي بالذهاب وموعدنا قريب ان شاء الله

فامسكته تريد اقناعه بالبقاء قليلاً وهو يعتذر واذا ببعض الخدم داخل وعلى وجهه امارات البغتة

فقالت بربارة ما الخبر فقال رأيت سفناً قادمة من جهة الحصن فاطلت ارمانوسة من شرفة القصر واطل اركاديوس فاذا في سفن جندهم وفيها بعض رجالهم فاختلج قلبه في صدره واوعز الى ارمانوسة ان تستعجل بعضهم ليرى ما سبب ذلك وبعد قليل وصل قارب عليه بضعة من رجال المقوقس

« ستأتي البقية »

﴿ تاريخ السودان الحديث ﴾

﴿ خاتمة ﴾ (تابع ما قبلهُ)

﴿ أوصاف السودان ﴾

نختتم كلامنا في تاريخ السودان بوصف احوالهِ وقبائلهِ وتجارتهِ وعوائد أهلهِ واخلاقهم وازيائهم فنقول

﴿ سكان السودان ﴾ السودان يمتد من وادي حلفا شمالاً الى بحيرة فيكتوريا نيانزا جنوباً أي من الدرجة الثانية والعشرين من العرض الشمالي الى خط الاستواء ويقسم باعتبار اقليمهِ وطبيعة ارضهِ وسكانهِ الى قسمين يفصل بينهما خط عرضيٌّ يمرُّ بمدينة الخرطوم (في درجة ١٢ من العرض الشمالي) فما كان بينهُ وبين حلفا يسمى القسم الشمالي وما بينهُ وبين خط الاستواء يقال لهُ القسم الجنوبي ويمتاز القسم الشمالي بانحصار العمران فيهِ على ضفاف النيل ويلي الضفاف جبال وراءها رمال في صحارٍ مقفرة يندر العمران فيها والطقس في هذا القسم حارٌّ مضعفٌ يستولي على أهلهِ الخمول والكسل . والمطر فيهِ قليل ويحدث في أزمنة غير معينة الاّ ما وراء شندي فانها تمطر في أشهر يونيو ويوليو واغسطس

وأكثر سكان هذا القسم من البدو رعاة الابل واكثر اشتغالهم رعاية الجمال وتربيتها والاتجار بها ومن أشهر قبائلهم الكبابيش والعبابدة والهندندوه والشكرية وغيرهم ويغلب في اخلاقهم الهدو والسكينة

ويمتاز القسم الجنوبي بكثرة سهولهِ وخصوبتها فتنبت فيها الغابات والاحراج وتتساقط الامطار الغزيرة فتجتمع مياهها الى مجرى النيل فيحدث الفيضان

والقسم الجنوبي اقليمان يفصل بينهما بحر الغزال فسكان ما بينهُ وبين الخرطوم اهل ماشية يرعون البقر والغنم ويتجرون بها فيسمونهم البقارة وفيهم جماعة كبيرة من النخاسين (تجار الرقيق) واما ما بين بحر الغزال وخط الاستواء فبلاد الزنوج واهلها سود يسطو عليهم البقارة فيقتنصونهم ويبيعونهم عبيداً ومنهم العبيد في سائر اقطار العالم على ان هؤلاء الزنوج هم اهل ماشية ايضاً . والبقارة اشداء يغلب في اخلاقهم الميل الى الغزو والحرب وهم نصراء التعايشي الآن واكثر اشتغالهم باقتناص العبيد والاتجار بهم

على ان هناك اصنافاً اخرى من الناس وهم سكان المدن وسكان الجبال فيكون اهل السودان بهذا الاعتبار خمسة اقسام (١) القبائل الرحالة رعاة الابل سكان القسم الشمالي (٢) البقارة في كردوفان وما جاورها (٣) الحضر سكان المدن كالخرطوم وبربر وكسلا وغيرها وهم اخلاط من اهل السودان وسائر الامم الشرقية (٤) الجبليون أهل دارفور وهم اخلاط من العرب والزنوج (٥) الزنوج رعاة الماشية في ما وراء بحر الغزال الى خط الاستواء.

﴿ الزراعة ﴾ تعتبر الارض الزراعية في السودان من بربر الى خط الاستواء. وهم لا يزرعون الا في اوان المطر عندهم فيزرع اهل الاصقاع الشمالية في يوليو واهل الجنوب في اول يونيو او اواخر مايو وينتهي الزرع آخر اكتوبر من كل عام فاعتمادهم في السقاية على ماء المطر فاذا قلَّ اجدبت ارضهم فيتحولون الى ضفاف النيل يلتمسون ما يسدون به جوعهم واهم مزروعات السودان الذرة وعليها المعوَّل في غذائهم وغذاء حيواناتهم على انهم يزرعون ايضاً الفول والعدس والبشنة والقرع . ومن محصولاتهم الصمغ العربي يجمعونه من الغابات في جنوبي كردوفان والتبغ وقد كان قبل ظهور المهدي من أهم محصولاتهم فحرَّم تدخينه فاهمل . وفي السودان سهول خصبة اذا اعتني بحراثتها واستغلالها لا تقل عن وادي النيل غلة وربعاً ولكن الاهمال سدل عليها حجاباً وقامت الثورة فشغلت الناس عن الزراعة فاصبح معظم تلك السهول الخصبة صحاري مقفرة

﴿ التجارة ﴾ اشتهرت السودان بتجارتها الواسعة وكثيراً ما كانت مصدر ثروة لمصر وغيرها من بلاد المشرق فنها العاج (سن الفيل) وريش النعام والصمغ العربي والخرتيت والجلد والاطياب والعطريات والعبيد وغيرها ولكن الثورة الاخيرة اوقفت حركات الاعمال فتعطلت التجارة الا الخاسة (تجارة الرقيق) فانها زادت عما كانت عليه زيادة فاحشة

وللقوافل التجارية في السودان طرق عديدة تزيد على عشرين طريقاً اهمها اربعة وهي

(١) طريق الاربعين بين دارفور واسيوط سميت بذلك لان مسافتها اربعون يوماً

(٢) طريق الخرطوم واصوان وتمتد بين الخرطوم واصوان عن طريق بربر او بين الخرطوم وكروسكو عن طريق ابي حمد

(٣) طريق الخرطوم وسواكن بين الخرطوم وسواكن عن طريق بربر او كسلا

(٤) طريق القلابات ومصوع وهي من القلابات فالقضارف فكسلا فمصوع

أما الآن فالطرق المسلوكة اثنان فقط احدهما من بربر الى اصوان والآخر من بربر الى سواكن و بالعكس

والتجارة السودانية الوحيدة الآن النخاسة فقد اتسعت اتساعاً كبيراً لأن تأييد سلطة التعايشي تقضي بزيادة العبيد وبما ان تصديرهم الى الخارج ممنوع فيكتفون ببيعهم في السودان فيسوقون هؤلاء المنكودي الحظ من دارفور وغيرها سوق الاغنام اسراباً بين مغلول ومطلق فمن مات منهم في الطريق وهو انما يموت من الجوع او التعب قطعوا اذنيه ليقدموها الى صاحب القطيع شهادة بأن الناقص من القطيع قد مات على ان مهاجرة اكثر التجار الى ام درمان في السنين الاخيرة قلل كثيراً من فظائع هذه التجارة

﴿ بيع الرقيق ﴾ في ام درمان سوق يباع فيها اناث العبيد (الجواري) أما ذكورهم فيلحقون ببيت المال ليقدمهم التعايشي في جنده . وتباع الجواري في سائر انحاء السودان ولكن اكبر اسواقها في ام درمان ومن اماكن بيعها غرفة كبيرة مبنية من الطوب في الجنوب الشرقي من بيت المال في سوق اسمها (سوق الرقيق) يجتمع فيها تجار الرقيق يعرضون بنات حواء للبيع وفيهنّ الفتاة الصغيرة والشابة الصبية والعجوز الهرمة مصفوفات في تلك الغرفة عند جدرانها بين جالسات وواقفات وفيهنّ الجواري والسراري . فيأتي الراغب المساومة التاجر على الثمن وقبل المساومة يمرّ على اولئك (الحيوانات الناطقات) وكأنهنّ غير ناطقات فينتقي من تحلو له منهنّ فيفتح فاها ليتحقق صحة اسنانها وانتظامها ثم يكشف صدرها وظهرها ليرى اعتدال قوامها ثم يتحسس ذراعيها ويأمرها ان تخطو امامه ذهاباً واياباً لئلا يكون بها عرج او عوج او ضعف ثم يخاطبها ليرى معرفتها اللسان العربي كل ذلك والبائع واقف او جالس لا يبدي اعتراضاً لان ذلك امر اعتيادي عندهم فاذا اختار المشتري فتاة تحوّل نحو البائع يسأله عن

ثمنها فيطلب ثمنًا فيساومهُ المشتري ويتعلل بان تلك الجارية قبيحة المنظر او غير منتظمة الاسنان او قصيرة القوام او انها لا تحسن التكلم في العربية او غير ذلك مما يحقرها في عين البائع لعلهُ يبيعها بثمن بخس على ان هذا يبالغ من الجهة الثانية في اظهار محاسنها تكبيرًا لثمنها . ومن المعائب التي تقلل اثمانهنَّ التخير والميل الى الرذائل كالسرقة وغيرها

فاذا تمت الصفقة وتقرَّر البيع كتبت الورقة ودُفعت القيمة من الريالات المعروفة بالعملة الجديدة وهاك معدَّل اثمانهنَّ في ام درمان الآن

الجارية العجوز	لاجل الخدمة	ثمنها	من ٠٥٠ — ٠٨٠ ريالاً
« المتوسطة العمر	«	«	« ٠٨٠ — ١٢٠ ريال
« الفتاة بين الثامنة والحادية عشرة		«	« ١١٠ — ١٦٠ «
« السرية يختلف ثمنها بحسب جمالها		«	« ١٨٠ — ٧٠٠ «

﴿ الصناعة ﴾ الصناعة تكاد تكون ميتة في السودان وخصوصاً الآن والصنائع تتبع حاجات الناس فالدراويش اكثر حاجة الى الاسلحة مما الى سواها فصناعة الرماح والسيوف والنبال هي اكثر الصناعات رواجا عندهم وتليها صناعة السروج والرحال والمقاعد وبناء السفن . وصناعة الاحذية ودباغة الجلود الصفراء والحمراء لانهم يتخذون منها أغمدة السيوف واغلفة السكاكين . وصناعة الحصر من سعف النخل

﴿ اللغة ﴾ لغة عرب السودان العربية وهم معظم سكانهِ واوجههم يقيمون في ما بين شندي و بحر الغزال ومنهم القبائل العربية اما بين شندي وحلفا فيتكلمون لسانًا يقال لهُ اللسان البربري وهو لغة البرابرة المعروفين بمصر وجنوبي بحر الغزال يتكلمون لغات مختلفة تعرف باللغات الزنجية وعرب السودان يسمون كل لغة غير العربية (الرطان)

﴿ الآداب العمومية ﴾ ان معيشة السودان الحالية تسوق الى الخمول وتفسد الآداب فالناس هناك يتفاخرون بكثرة الجواري وجمالهنَّ اقتداء بخليفتهم فليس اسهل على احدهم من الطلاق والزواج والتسابق الى اقتناء الجواري والسراري والاثمان كما قد رأيت من البخس ولا يسعنا المقام للتطويل اكثر من ذلك

﴿ ام درمان ﴾ هي عاصمة الدراويش مقابل الخرطوم ويجري النيل

بينها وقد كانت قبل نزول المهدي بها قرية صغيرة فلما حاصر الخرطوم اقام بها موقتاً لزعمه انه سيقيم اخيراً في الشام بعد ان يفتح الحجاز ومصر فلما عاجلته المنية بني معسكره في ام درمان وأمر خليفته باستقدام الناس اليها فتكاثروا واخذوا يبنون المنازل والحصون فيها حتى بلغت مساحتها الآن ضعفي مساحة القاهرة لأن طولها من الشمال الى الجنوب ستة اميال وعرضها من الشرق الى الغرب ثلاثة . بيوتها مبنية في الغالب بالقش والطين ولكن الجامع ومقام المهدي وبيوت الامراء مبنية بالقرميد المشوي سور يحيط بجزء كبير منها وفي وسطها تقريباً الجامع الكبير والى شرقيه قبة المهدي وبيت الخليفة واسطبلاته وبيوت ملازميه وبيوت ابن المهدي ونساء المهدي وسائر عائلته وبيت الخليفة علي ولد الحلو وبيوت ملازميه واقاربه وبيت ابن التعايشي . وفي اقصى الشرق مما يلي ضفة النيل السجن أما في شمالي الجامع فبيوت قبيلة الدغيم وقبائل النيل الابيض وفي اقصى الشمال منازل قبيلة الجعليين وقبائل اخرى ومعمل البارود وبيت المال وسوق الرقيق وبيوت بعض المصريين وفيهم ابراهيم باشا فوزي وسيد بك جمعه ويوسف افندي منصور . وجامع الجمعة وغيره

والى جنوبي الجامع الكبير بيت اقارب المهدي وبيوت القضاة وبيت يعقوب التعايشي القديم وبيت الحداديد وبيوت كتاه وبيت الامانة (الترسخانة) وبيوت بعض اقارب التعايشي ومعمل الاسلحة وبيوت بعض قبائل الغرب (غربي النيل الابيض) ومنازل الجهادية السود وفي اقصى الجنوب قرية اسمها حلة عرب التعايشة

وفي غربي الجامع الكبير منازل قبائل الحبانية والكبابيش والحمر وكنانه واسواق التجارين وباعة الملح والاقمشة والخياطين والجزارين والفاحين والخشابين وغيرهم

﴿ أديانهم ﴾ أشهر اديان السودان الاسلامية ولكن بعض قبائل الزنوج وثنيون يعبدون الاحجار وبعضهم يعبدون الشجر

﴿ ملابسهم ﴾ لا يختلف لباس السودانيين عن ابسط ألبسة البدو اما احداثهم فيلبغون العاشرة وما فوقها وهم عراة الا الاناث منهم فيتمنطقن بمنطقة من جلد تتدلى منها قدد رفيعة من جلد او غيره تغطي عوراتهن يقال لها « الرهط » واما البالغون فلباس الرجال منهم السراويل والقميص والشملة والنساء مثل ذلك الا انهن يتزرن بشملة تسمى (الطرقة او المرمر) ويضفرن شعورهن ضفائر دقيقة بسمنها

المُقَل يرسلنها على ظهورهنّ واكتافهنّ ويعلقن بها الحلى ومن انواع الزينة عندهنّ سبحة تعلق على الصدر يسمينها (العقد) وسبحة تعلق بالعنق اسمها (الشوك) ويضعن مثل هذه السبحات وضع الاكاليل على رؤوسهنّ يرسلن منها خرزات يعلقن بها نقوداً او شبهها (انظر الرسم في صدر هذا الهلال) ويسمين الجزء المقدم من هذا الاكليل (النجيمي او الجمة) والجزء المدلى منه على الجبهة (الودعة) . ومن الحلى عندهنّ الاساور فاذا كانت من العاج سمينها (العاج) او من الفضة فاسمها (الاساور) فاذا كانت خلخالاً للقدم سمينها (الحجول) ويتخذن من الفضة نوعاً من الاساور عريضاً يسمية (الكم) ويعلقن في اطراف جدائلهنّ خرزات يسمينها (النمائم)

ومعظم اهل السودان حفاة الاّ اهل اليسار منهم فيلبسون حذاء من جلد اصفر اوقش او نعال تشد بسير من الامام . واكثرهم مكشوفو الرأس يدهنون شعورهم واجسادهم بالشحم فتتولد فيهم رائحة خصوصية يعرفون بها عن بعد . واهل الوجاهة يلفون العمامة

أما الدراويش فلهم لباس خاص نشرنا رسمه في هلال آخر من الهلال وهو الجبة المرقعة والعمامة (انظر صورة الدراويش في اول الهلال ١٧ من هذه السنة وصور نساء خط الاستواء في الهلال ٢٠)

﴿ طعامهم ﴾ طعام السودانيين كثير الشبه بطعام اهل البادية او هو هو نفسه لان سوادهم من العرب فهم يتناولون اللبن والتمر ويصنعون من اللبن والسمن والحنطة اطعمة بسيطة لا غرابة فيها الاّ اننا نذكر طعاماً دعانا اليه احد سراة عرب الشائقية يوم كنا بقرب المتمة فلما جلسنا الى المائدة قدموا لنا اولاً (فتّه) وهي خبز رقيق مفتوت في اللبن بقصعة من خشب ثم جاؤوا بقصعة اخرى لم استطع تمييز ما فيها ولما تأملتها اشكل عليّ امرها لاني شاهدت فيها شيئاً يشبه معد الحيوانات (الكروش) مقطعة قطعاً صغيرة فظننتها كرشاً مسلوقة ولكنني ما لبثت ان عرفت انها كرش نيئة قد غسلت بالماء البارد فقط وقدمت فلم اتمالك عن الاشمئزاز حتى ظهر ذلك مني وكففت عن الطعام فتبسم صديقي وهزأ بي لاني على زعمه لا اميز الطعام اللذيذ من التفه وجعل يبالغ في استحسان طعمه وقال لي هذا طعام شهي نتخذه فاكهة بعد

الشمع فقلت اعفني من هذه الفاكهة فاني لم اعتد مثل هذا الأنق

ومن أنواع الاطعمة عندهم (الوبكة) وهي عبارة عن ورق البامية الجاف يداف حثاثة في ماء ساخن مع سمن او دهن او بدونهما ويؤكل وهو طعام يتناوله المتأنقون منهم اذا كانوا على سفر. ومن انواع الحبوب عندهم (القشرتقيق) وهو حبٌّ يشبه اللوبيا. او الفول ينبت في بلادهم يأكلون حبة الجاف مسلوقاً وهو لذيذ لكنة عسر الهضم جدًا ويحكي تذكر ليلة قضيتها مع رفيق لي بقرب دنقلا وقد استحسنا تناول هذا الحب مسلوقاً لأن منظره شوّق الينا اكله فجاؤوا الينا بطاجن من خشب مملوءٍ منه وهو كثير الشبه بحب اللوبيا (الفصوليا) المسلوق وكان صديقي اكثر رغبة مني في هذه الاكلة فتناول منها قدرًا وافرًا فلم ينم ليلة تلك من شدة المغص

الى هنا ينتهي كلامنا في تاريخ السودان الحديث باختصار والحمد لله

شعراء العصر

نشرنا في الهلال ... من السنة الثالثة اعلاناً لحضرة الفاضل محمد افندي حسني العامري بالسويس عن كتاب جمع فيه اقوال شعراء العرب المعاصرين في سائر انحاء العالم وتراجمهم وكل ما يؤثر عنهم. فنبشر حضرات القراء انه قد باشر طبع هذا الكتاب ولا يلبث ان ينشر متقن الطبع جيد الورق وقد اطلعنا على بعض فصوله فرأيناه فريدًا في بابه ومن جملة فرائده قصائد كثيرة من النظم الحميني المستعمل الآن في نجد وحضرموت والحجاز بلغاتهم الدارجة وهو اوّل من نشر ذلك في اللغة العربية حتى الآن. ودرج في كتابه ايضاً ملخص تاريخ الديار المصرية مزيناً بالرسوم الجميلة وختمه بالمراسلات الشعرية التي جرت بينه وبين بعض اكابر الشعراء ومشاهير العلماء. وسماه « نزهة الالباب في تاريخ مصر وشعراء العصر ورسائل الاحباب » فنحث الادباء على اقتنائه وقيمته بالاشتراك ١٥ غرشاً وبعد صدوره عشرون غرشاً الا الشعراء وسكان جزيرة العرب فانهم يعاملون كالمشتركين

﴿باب المقالات وباب المراسلات﴾ قد حملنا فهرس السنة الرابعة المرفق مع هذا على اغفال بابي المقالات والمراسلات في هذا العدد وموعدنا العود اليهما في الاعداد التالية ان شاء الله

﴿ أرمانوسة المصرية ﴾ (تابع ما قبله)

فاستقدمتهم بربارة الى القصر فصعدوا يتأسفون ويتأففون وعلى وجوههم ملامح البغتة والخوف فتقدمت ارمانوسة وخاطبتهم واركادبوس يتزر بسمع وهو على مثل الجمر

فقالت ارمانوسة قولوا ما وراءكم فتقدم احدهم وقال ان سيدي المتوقس بعثنا اليك لتكوني على أهبة السفر اذا اقتضت الحال

فوقف أركادبوس مبغوتاً ولكنه لم يتكلم فقالت ارمانوسة وما الداعي لهذا الاستعداد قال لان العرب دخلوا الحصن في هذا الصباح على حين غفلة وخرج سيدي المتوقس ومن بقي من الجند الى جزيرة الروضة على الجسر الذي كانوا قد نزعوه فاعادوه ومرّوا عليه والمنتظر ان العرب سيتعقبونهم اليها فيضطرون للمجيء الى هنا

فلما تحقق اركادبوس سقوط الحصن ترقرقت الدموع في عينيه رغماً عنه فتوارى وراء حائط الشرفة لئلاً يلحظ احدٌ منه ذلك وجعل يحرق اسنانه ويتأوّه اما ارمانوسة فكانت تراعيه بعينيها ولم يكن خبر سقوط الحصن شيئاً غير منتظر عندها ولكنها تظاهرت بالاستغراب امام اركادبوس لكي تنطلي الحيلة عليه فلما رأته على هذه الحال تركت الجندي يخاطبه بربارة ودنت منه على الشرفة بحيث لا يراها احد وامسكته بيده فاذا بدموعه تتساقط على خديه وهو لا يبدي حراكاً فقالت له ما بالك تبكي يا حبيبي ام انت لا تبكي

فلم يجب لان العبرات خنقته . فقالت ما بالك لا تجيب

فحرق اسنانه وتنهد وهو يكاد يتميز غيظاً ولم يجب

فامسكت يده فاذا هي باردة ترتجف واراد جذبها منها فضغطت عليها وقالت لماذا لا تجيب يا اركادبوس

فالتفت اليها والدمع ملء عينيه وقال كيف لا ابكي يا ارمانوسة وقد خرج الحصن من ايدينا وانا مقيد هنا لا استطيع حراكاً ومن الغريب ان هؤلاء الرعاة لم يفعلوا ما فعلوه الاّ واركادبوس بعيدٌ عنهم ولكن آه ... آه يا ارمانوسة آه من الحب ما اعظم سلطانه ان الحب وحده كان سبب سقوط هذا الحصن فقد كان في وسعي ملافاة ذلك الشر قبل وقوعه ولكن حبي ارمانوسة حملني على التجاهل . فالعرب لم يغلبونا ولكنها خيانة انا شريك بها عن غير عمد مني ولكن الحب بعمي ويصم . آه منه

فادركت ارمانوسة مراده فعمدت الى مغالطتو لئلاَّ يزداد غضباً فقالت تفضَّل واجلس يا حبيبي ريثما نستفهم هذا الرسول عن كيفية سقوط الحصن لعلنا نكتشف امرًا جديدًا

قال وماذا عسى ان تكشفي فقد كشفتُ الحقيقة وعرفتُ سر الامر فهل استطيع بعد هذا كلهِ ان اقابل والدي وانا لا ادري ما يكون ظنهُ بي لا اظنهُ لا يحسبني شريكًا في الخيانة

قال ذلك وهو يحاذر ان يسمعهُ الرسول او يدرك انهُ هناك ولكنهُ كان شديد الميل الى معرفة كيفية سقوط الحصن فقال لارمانوسة اسأليهِ عن كيفية السقوط

فعادت اليهِ وكان في انتظارها مع بربارة فقالت احكِ لنا كيف دخل العرب الحصن فقال لا نعلم كيف دخلوه ولكننا اصبحنا فاذا هم يتسلقون الاسوار وكان سيدي المقوقس قد أمرنا بالخروج الى جزيرة الروضة فقطعنا الجسر جميعًا واقمنا هناك

فقالت الم تدافعوا العرب عند دخولهم قال قلنا دافعنا على ان جند الروم دافعوا قليلاً ولكن العرب لم يتركوا لنا فرصة للدفاع

فقالت هل جاء والدي بنفسهِ الى جزيرة الروضة

قال نعم يا سيدتي ومعهُ رجال حكومتهِ وسائر جندهِ

قالت وماذا جرى بالاعيرج ورجالهِ

قال اظنهم ساروا الى الاسكندرية ليتحصنوا فيها

فقالت العله سار وحده ام سارت معهُ حاشيتهُ

قال اظنهم ساروا جميعًا على غير نظام لانهم انما خرجوا من الحصن فارّين ولكنني لم اشاهد ابنهُ اركاديوس معهم ولا شاهدتهُ مع سواهم والناس يتحدثون بشأنهِ ويزعمون انهُ قتل او فرّ قبل دخول العرب الحصن

وفيما كانت ارمانوسة تخاطب الرسول كانت بربارة على الشرفة بحيث ترى اركاديوس وتسمع حديث الرسول فلما وصل الى ذكر الاعيرج واركاديوس لاحظت على وجه اركاديوس ملامح الاسف والغضب معًا فدنت منهُ لعلها تشاغلهُ عن ذلك وهي تعلم سر الامر وقد تحققت ان الحصن انما فتح بخيانة سيدها

أما ارمانوسة فقالت للرسول سآخذ في الاستعداد للسفر كما قال والدي واستدعت بربارة وقالت لها يجب ان نستعد كما قال والدي ولكنني في قلق عليهِ

فلنرسل اليه احداً يأتينا بتفصيل الواقعة اذ ربما لا تكون ثمَّ حاجة الى الاستعداد

فقالت لا ارى الیق من مرقس لهذه المهمة فهو عند خطيبته فيمضي اليه فجاء مسرعاً ولما اخبرته برسالة بخبر الحصن لم يبغت لانه كان على بينة من قرب سقوطه فقالت له ابن ماربة قال هي في المنزل مع والديها قال فليأتوا الينا جميعاً وليقيموا في القصر معنا لنرى ماذا يتم واذهب انت الى مولانا المقوقس في الجزيرة استطلعه حقيقة الخبر فاذا رأيت ثم حاجة الى فرارنا عد حالاً لنتم الاستعداد

قال سمعاً وطاعة وخرج فجاء بخطيبته ووالديها وودعهم جميعاً وسأل عن اركاديوس فدلوه على مكانه فذهب اليه وقبل بن فاذا هو لا يزال باكياً وعيناه حمراوان وامارات اليأس ظاهرة على وجهه فتناثرت الدموع من عيني مرقس ووقف امام أركاديوس قائلاً ما بال سيدي يبكي وهو البطل المجرب الذي لا تهوله الحوادث فهل يبكيك الفشل مرة وانت تعلم ان الحرب سجال وامد الحرب لا يزال طويلاً

فتنهد اركاديوس وقال دعني يا مرقس ان كلامك هذا لا يعزيني فما انا ممن ييأسون من الصبر ولا الانكسار في الحرب يوجب يأساً لان الحرب سجال كما قلت ولكنني آسف لتعامي عن حقائق كنت اراها رأي العين واحسب انني لم ارها ولكن نفسي لا الجهل أو سذاجة بل لغشاء على عيني واعمى بصيرتي وشاغل شغلني عن والدي ووطني ألا وهو الحب واظنك قد جربت شيئاً منه وعرفت سلطانه . ولولا تلك الغشاوة لكنت قادراً على انقاذ الحصن ومن فيه وارجاع هؤلاء العرب على اعقابهم القهقرى الى مراعي ابلهم وماشيتهم ولكن سبق السيف العذل فانا أشعر باني شريك في الخيانة ومساعد على تسليم الحصن للعرب. أفلا أبكي واندب سوء حظي ألا اندب حياتي وقد اضعت رشدي وأصبحت آلة لا ارادة لها أرى اللص ينهب بيتي فأتغافل عنه فاذا أتم النهب تركت البيت له يفعل به ما يشاء

فادرك مرقس ان اركاديوس لم يكن غافلاً عن تواطىء المقوقس والعرب فتجاهل هو وقال اني لا أرى سيدي اركاديوس أتى أمراً يلام عليه فانك عمدة جند الروم وخيرة ابطالهم ولم تخرج من الحصن فاراً ولكن العناية قدرت لك الخلاص من عار الفرار فدبرت هذه الطريقة ولو أراد الله سلامة الحصن ما خرجت انت منه ولا دخله العرب ولكن هذه ارادة المولى فخفف عنك الآن وها اني ذاهب للبحث عن تفصيل

الواقعة وسأعود اليكم بالخبر اليقين . وودعه وخرج فناداه أركاديوس فعاد فقال له تفهم الحقيقة جيداً واخبرني عن مقدار الجند وقل للمقوقس اننا بجهان نعيد الكرة على هؤلاء العرب من الجزيرة فاذا رأيت منه ميلاً الى ذلك اخبرني فاني لأبلونّ فيهم بلاء حسناً ولا اقعد حتى اعيدهم على أعقابهم أو أُقتل ولا تنس ان تحقق امر والدي واين هو الآن واحذر أن يعلم احد اني هنا . قال سمعاً وطاعة وخرج قاصداً الجزيرة

الفصل الثامن والثلاثون

عقد الصلح

أما ارمانوسة فقد ساءها كثيراً تكدر اركاديوس ولكن سرّها نفوذ حيلتها وهي لم تكن تخشى بأس العرب لعلمها ان والدها في وفاق سري معهم فلم يبق لديها الاّ ان تخفف ثقل المصيبة عن اركاديوس وتسهل عليه الرضوخ لما حدث فلما ذهب مرقس امرت بربارة فاعدت لهم طعاماً والشمس قد مالت الى المغيب فاعتذر اركاديوس عن الطعام فألحت عليه واخذت تلاطفه فجلس الى المائدة وهو يحسب نفسه في حلم ولم يكد يصدق خبر سقوط الحصن وفرار حاميته فقال لارمانوسة اراني في حلم ولا استطيع تصديق الخبر ... أيدخل هؤلاء العرب الحفاة العراة حصوننا ونحن جنود الروم ومعنا العدة والسلاح واولئك شرذمة قليلة ؟ انها خيانة او لعله سحر او هو غضب الله

فقالت ارمانوسة لعله الاخير (وتبسمت تريد مداعبته) . فأتمّ كلامه قائلاً ولكن هب انهم اخذوا الحصن فلسوف يخرجون منه قهراً اذ يسهل علينا ان نحصرهم فيه ونقطع عنهم المؤونة براً وبحراً حتى يسلموا او يهلكوا جوعاً اذ لاسبيل لهم الى المؤونة والطريق بينهم و بين بلادهم بعيد وجنودنا مالئة سائر انحاء القطر

فقالت ارمانوسة سننظر في ذلك (وقد صممت في باطن سرها ان لا تتركه يبتعد عنها ولو مهما كان من الامر) وعزمت عليه فتناول شيئاً من الطعام ثم نهضوا عن المائدة وقد أعدت بربارة غرفة خصوصية لمنام اركاديوس فذهب اليها وذهب كل الى منامه ولم يناموا الاّ هزيعاً من الليل فاصبحوا جميعاً واهل منف

في قلق يستعدون للفرار واما ارمانوسة فلبثت كل ذلك اليوم تنتظر عود مرقس فلم يعد فتضوا نهارهم في الانتظار والقلق وكان اركاديوس قد خف يأسه وعادت اليه آماله باسترجاع الحصن ففي اليوم الثالث اصبحوا وقد ملوا الانتظار واطلوا من شرفة القصر نحو النيل فما لبثوا ان شاهدوا قارب مرقس فعرفوه فما صدقوا انه وصل وجاء مرقس فدخل عليهم وجلس يقص عليهم حكايته وكلهم آذان وابصار وليس في الغرفة الا هو وارمانوسة واركاديوس وبربارة فقال

« وصلتُ الجزيرة مساء اوّل امس فوجدت جندنا معسكرًا فيها فسرت الى سيدي المقوقس فقبلت يده ويد سيدي ارسطوليس وطمأنتهما على سيدتي ارمانوسة وقضينا الليل في حديث الحصن فاخبرونا انه أُخذ بغتة وان العرب مقيمون فيه وان جند الروم ساروا الى الاسكندرية وفيهم مولاي الاعيرج وقد لحظت من سياق حديث سيدي المقوقس ان الناس في ريب من امر سيدي اركاديوس فمن قائل انه ضاع قبل فتح الحصن وقائل انه فرّ بعد الفتح وظن بعضهم انه قتل وضاعت جثته (حرسهُ الله) (فقال الجميع آمين) وعلمت ايضًا ان سيدي المقوقس بعث الى امير العرب يعرض عليه ان يرسل وفدًا من خاصته للمخابرة والاقرار على امر فيه خير للفريقين وارسل اليهم قاربًا يركبون فيه الينا فبتنا ليلتنا واصبحنا ننتظر مجيء الوفد فلما كان الضحى جاءنا نبأ بانهم وصلوا الجزيرة فبعث سيدي وفدًا استقبلوهم عند الضفة وجاؤا بهم اليه وكان جالسًا مع سيدي ارسطوليس وسائر اهل مجلسه في قاعة وانا معهم فما لبثنا ان رأينا الوفد قادمين وهم عشرة في لباس البدو وقد شاهدتم ازياءهم في بلبيس وتقدم واحد منهم لم أرَ عمري افظع منه منظرًا فانه اسود اللون طويل القامة جدًا هائل المنظر قال انه رئيس الوفد ومتكلمهم واسمه عبادة بن الصامت وقد شاهدت منه جرأة لم اعهدها في احد من الناس حتى الآن ولحظت ان سيدي واهل مجلسه هابوا منظره وكأني سمعت سيدي يطلب اخراجه وتقديم سواه للمداولة معه فقال رفاقه هذا هو رئيسنا والمقدم علينا . فقال له سيدي بواسطة الترجمان

« تقدم يا اسود وكلمني برفق فاني اهاب سوادك » فتقدم وقال « قد سمعت مقالتك وانّ فيمن خلفت من اصحابي الف رجل أسود كلهم اشد سوادًا مني وافظع منظرًا وجميعهم اشد هيبة مني وانا قد وليت وادبر شبابي واني مع ذلك بحمد الله ما

اهاب ماية رجل وذلك انما لرغبتنا وهمتنا في الجهاد في الله واتباع رضوانه وليس غزونا عدوّنا ممن حارب الله لرغبة في الدنيا ولا طالب الاستكثار منها الاّ ان الله عزّ وجل قد احل لنا ذلك وجعل ما غنمنا منه حلالاً وما يبالي احدنا ان كان له قنطار ذهب او كان لا يملك الاّ درهماً لان غاية احدنا من الدنيا اكلة ياكلها ليسد بها جوعه لليله ونهاره وشملة يلتحفها فان كان احدنا لا يملك الاّ ذلك كفاه وان كان له قنطار من ذهب انفقه في سبيل الله واقتصر على هذا الذي في يده و يبلغه ما كان في الدنيا لان نعيم الدنيا ليس نعيماً ورخاءها ليس رخاء انما النعيم والرخاء في الآخرة و بذلك أمرنا الله وامرنا به نبينا وعهد الينا ان لا تكون همة احدنا من الدنيا الاّ ما يمسك به جوعه و يستر عورته وتكون همته وشغله في رضوانه وجهاد عدوّه » (١)

فلما سمع سيدي منه هذا الكلام قال لنا بالقبطية « هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط لقد هبت منظره وان قوله لأهيب . ان هذا واصحابه اخرجهم الله لخراب الارض ما اظن ملكهم الاّ سيغلب على الارض كلها » ثم التفت الى عبادة وقال له

« أيها الرجل الصالح قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن اصحابك ولعمري ما بلغتم ما بلغتم الاّ بما ذكرت وما ظهرتم على من ظهرتم عليه الاّ لحبهم الدنيا و رغبتهم فيها وقد توجه الينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده قوم معروفون بالنجدة والشدة ما يبالي احدهم بمن لقي ولا من قاتل وانا لنعلم انكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم وقد اقمتم بين اظهرنا اشهرًا وانتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم ونحن تطيب انفسنا ان نصالحكم على ان نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ولاميركم ماية دينار ولخليفتكم الف دينار فتقبضونها وتنصرفون الى بلادكم قبل ان يغشاكم ما لا قوام لكم به »

فاجابه عبادة بجسارة « لا تغرّن نفسك ولا اصحابك اما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وانا لا نقوى عليهم فلعمري ما هذا الذي تخوفنا به ولا بالذي يثنينا عما نحن فيه وان كان ما قلتم حقاً فذلك والله ارغب ما يكون في قتالهم واشدّ لحرصنا عليهم لان ذلك اعذر لنا عند ربنا اذا قدمنا عليه أن قتلنا من آخرنا كان امكن لنا في رضوانه وجنته وما شيء اقرّ لاعيننا ولا احب لنا من ذلك وانا منكم

(١) المقريزي

حينئذ لعلى احدى الحسنيين اما ان تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم او غنيمة الآخرة ان ظفرتم بنا ولأنها احب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا وان الله عزّ وجل قال لنا في كتابهِ (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) وما منا رجل الاّ ويدعو ربّهُ صباحاً ومساء ان يرزقهُ الشهادة وان لا يردهُ الى بلاده ولا الى ارضهِ ولا الى اهلهِ وولده وليس لاحد منا همّ فيما خلفهُ وقد استودع كل منا ربهُ اهلهُ وولده وانما همنا ما امامنا . واما قولك اننا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن في اوسع السعة لو كانت الدنيا كلها لنا ما اردنا منها لانفسنا اكثر مما نحن عليهِ فانظر الذي تريد فبيّنهُ فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ولا نجيبك اليها الاّ خصلة من ثلاث خصال فاختر ايتها شئت ولا تطمع نفسك في الباطل بذلك امرني الامير وبها امره امير المؤمنين وهو عهد رسول الله من قبل الينا اما ان اجبتم الى الاسلام الذي هو الدين القيم الذي لا يقبل الله غيره وهو دين انبيائهِ ورسلهِ وملائكتهِ امرنا الله ان نقاتل من خالفهُ ورغب عنهُ حتى يدخل فيهِ فان فعل كان لهُ ما لنا وعليهِ ما علينا وكان اخانا في دين الله فان قبلت ذلك انت واصحابك فقد سعدتم في الدنيا والآخرة ورجعنا عن قتالكم ولم نستحل أذاكم ولا التعرّض لكم وان ابيتم الاّ الجزية فادّوا الينا الجزية عن يد وانتم صاغرون وان نعاملكم على شيء نرضى بهِ نحن وانتم في كل عام ابداً ما بقينا وبقيتم ونقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم في شيء من ارضكم ودمائكم واموالكم ونقوم بذلك عنكم ان كنتم في ذمتنا وكان لكم بهِ عهد علينا وان ابيتم فليس بيننا وبينكم الاّ المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا او نصيب ما نريد منكم . هذا ديننا الذي ندين الله تعالى بهِ ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينهُ غيره فانظروا لانفسكم »

فعجبنا لجسارتهِ وقوة جاشهِ فاجابهُ سيدي « هذا ما لا يكون ابداً ما تريدون الا ان تتخذونا عبيداً ما كانت الدنيا » . فقال عبادة « هو ذاك فاختر لنفسك ما شئت » . فقال سيدي « أفلا تجيبوننا الى غير هذه الخصال الثلاث » . فرفع عبادة يدهُ الى السماء حتى كادت تدرك سقف الغرفة لطولها وقال « لا ورب هذه السماء ورب هذه الارض ورب كل شيء ما لكم عندنا خصلة غيرها فاختاروا لانفسكم »

فالتفت سيدي اذ ذاك الى ارباب مجلسهِ فقال قد فرغ القوم فما تريدون

فقالوا « أيرضى احد بهذا الذل أما ما ارادوا من دخولنا في دينهم فهذا لا يكون ابدًا ان نترك دين المسيح بن مريم وندخل في دين غيره لا نعرفه واما ما ارادوا ان يسبونا ويجعلونا عبيدًا فالموت ايسر من ذلك فلو رضوا ان نضاعف لهم ما اعطيناهم مرارًا كان اهون علينا » فقال سيدي لعبادة « قد أبى القوم فما ترى فراجع اصحابك على ان نعطيكم في مرتكم هذه ما تمنيتم وتنصرفون »

فقال عبادة واصحابه (لا) . فقال سيدي لارباب مجلسه « اطيعوني واجيبوا القوم الى خصلة من هذه الثلاث فوالله ما لكم بهم طاقة ولئن لم تجيبهم اليها طائعين لتجيبنهم الى ما هو اعظم كارهين »

فقالوا « واي خصلة نجيبهم اليها » قال « اما دخولكم في غير دينكم فلا يسلم احدكم به واما قتالهم فانا أعلم انكم لن تقدروا عليهم ولن تصبروا صبرهم ولا بد من الثالثة » قالوا « فنكون لهم عبيدًا ابدًا » قال « نعم تكونون عبيدًا مسلطين في بلادكم آمنين على انفسكم واموالكم وذراريكم فاطيعوني من قبل ان تندموا » فرضوا بالجزية على صلح يكون بينهم يعرفونه

فقال سيدي اذلك الاسود قل للأمير ان يجتمع بنا فنكتب شروط الصلح

ثم خرج الوفد واهل الجزيرة والجند يشيعونهم بانظارهم وقد بهروا لما شاهدوا من جرأتهم ولبثنا ننتظر مجيء عمرو فلما كان اصيل الامس علمنا بمجيء اقاربهم فخرج سيدي لمقابلته على الضفة ولا ازيدكم علمًا فوق ما تعلمونه من هيبة عمرو بن العاص فقد شاهدتموه في بلبيس فلما التقيا تصافحا ودخل الجميع القاعة فصارت تعج عجيجًا لاختلاط القبط مع العرب وهي اول مرة تم بها ذلك ولم يأت المساء حتى كتبوا شروط الصلح بينهما في اللغتين وامضاها الفريقان وقد تمكنت من استنساخها وهاك نصها

« بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الامان على أنفسهم ودمهم واموالهم وكافتهم وصاعهم ومدهم وعددهم لا يزيد شيء في ذلك ولا ينقص ولا يساكنهم النوب وعلى اهل مصر ان يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين الف الف وعليه ممن جنى نصرتهم فان أبى احد منهم ان يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم وذمتنا ممن أبى بريئة وان نقص نهرهم من غايته اذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله مالهم وعليه ما

عليهم ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ويخرج من سلطاننا وعليهم ما عليهم اثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة امير المؤمنين وذمم المؤمنين وعلى النوبة الذين استجابوا ان يعينوا بكذا وكذا رأساً وكذا وكذا فرساً على ان لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة . شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه وكتب وردان وحضر هذا نص الكتاب » (١)

ولما كتبت الشروط على هذه الصورة قرئت على الحضور من القبط والعرب بالفريقين فتصالح الفريقان وصاروا جميعاً يداً واحدة ثم كتب سيدي الى البطريق حاكم الاسكندرية يخبره بالامر ولا ندري ما يكون جوابه » انتهى كلام مرقس

وفيما كان مرقس يتكلم كانت ارمانوسة و بربارة تراقبان اركاديوس وما يبدو منه أما هو فكان مصغياً الى مرقس حتى سمع شروط الصلح وان العرب والقبط تصافوا وتصالحوا مع ما تخلل كلام المقوقس من تثبيط عزائم رجاله فوثب بغتة ونادى يا للعار قد قضي الامر يا ارمانوسة ولم يبق لي مقام في هذه البلاد فما قد اتم والدك ما كان يبغيه من صلح العرب ولم تبق لنا حيلة في دفاعهم هنا وليس في طاقتي ان اشاهد والدك وقد تحققت يقيناً الآن انه هو الذي ساعد هؤلاء العرب على فتح الحصن واخراج جندنا منه فالاقامة هنا لا استطيعها وقد عاهدتك واقسمت لك الايمان المعظمة ان لا افارقك بعد واقعة الحصن فما قد انتهت الواقعة فنحن جسد واحد و بقاؤنا هنا مستحيل وخصوصاً تحت سلطة هؤلاء البدو واذا ذهبنا الى الاسكندرية فلا آمن من غضب والدي لانه لم يجهل مساعي والدك فلن يرضى ببقائنا معاً فما الحيلة اذاً . قالت اني رهينة امرك

قال اعلمي يا ارمانوسة ان والدك قد ارتكب خيانة لن تمحو ذكرها الايام لانها آلت الى خروج وادي النيل من أيدينا الى أيدي العرب واذا عرف هؤلاء المحافظة عليه طالت اقامتهم فيه الى قرون طويلة لانه من احسن بلاد الله تربة واكثرها خصباً فجعلها ابوك غنيمة باردة للعرب واصبحت اسرة الروم ومنازلهم واملاكهم في قبضة هؤلاء العربان وهي خيانة كبيرة لا استطيع صبراً على تحملها فاقامتي معه ضرب من المستحيل ولولا حبك الراسخ في هذا القلب لسعيت في قتله بحد هذا الحسام

(١) ابن خلدون

وكانت ارمانوسة أثناء كلام اركادبوس مطرقة خجلاً لما اتاه والدها وكأنها كانت في غفلة وافاقت فادركت عظم تلك الخيانة فانحطت منزلته عندها ولما سمعت كلام اركادبوس بشأنه لم تبد جواباً

فأتمَّ هو كلامه قائلاً ولكنني لا أمسه بضرر اكراماً لعيون أرمانوسة وطالما دافعت عنه امام والدي وكثيراً ما غالطته وانا عالم بتلك الخيانة فكأني شاركته بها وعلى أي حال اني لا اصبر على جواره فاذا اطعتني هجرنا هذه البلاد واقمنا ببلاد لا يعرفنا فيها احد الى ان يقضي الله بما يشاء . فقالت اني معك حيثما توجهت

فقال في الحالة هذه لنفعل ما نفعله بعقل وروية فنحن الآن متحدان قلباً وقالباً ولكن اتحادنا لا يتم الا بالروابط الالهية فلندع قسيساً يتم عقد اقتراننا على عجل

وكان مرقس وبربارة اثناء ذلك الحديث شاخصين ليريا ما تكون النتيجة ثم ظهر على وجهيهما انهما استحسنا الرأي واسرع مرقس فجاء بقسيس منف فصلى عليهما وباركهما . فلما تمت صلاة الاكليل قال مرقس وانا لا اقامة لي هنا بعد الآن اذا ذهبتما انتما فهل تسمحان بان اكون في خدمتكما انا وماربة فنصحا له أن لا يلقي بيديه الى ما هو في غنى عنه فاصر على ذلك وبعث الى ماربة ووالديها فحضرا فأنبأهما بقصده فقالا نحن نسير معكم أيضاً ثم صلى القسيس على مرقس وماربة وكلهما والكل يبكون لانتهاء هذه الحرب على هذه الصورة

فاستعدوا جميعاً وبربارة معهم فأخذوا ما خفَّ حمله وغلا ثمنه وغادروا منف الى حيث لا يعلم احد وكتبت أرمانوسة قبل سفرها كتاباً بعثت به الى والدها تودعه وتشكو اضطرارها الى السفر على هذه الصورة وتعده باللقاء بعد حين ومثل ذلك كتاب أركادبوس الى والده والكتابان طويلان لا محل لهما هنا

أما العرب فبعد ان تم لهم فتح الحصن والصلح كما تقدم صار الربط اعواناً لهم في كل حروبهم فساروا الى الاسكندرية وحاصروها ١٤ شهراً حتى فتحوها فصارت كل مصر في قبضتهم فعادوا وبنوا مدينة الفسطاط في المكان الذي كان معسكرهم قبالة الحصن وما زالت مصر في حوزة المسلمين من ذلك الحين ومن أراد تفصيل ذلك فليطالع كتابنا « تاريخ مصر الحديث »

تمت الرواية